تاريخ بني إسرائيل
و
جزيرة العَرَب

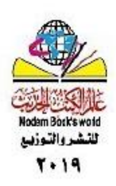
من التَّاريخ الميثولوجي إلى الجغرافيا الهرمنيوطيقيَّة

(مُراجعاتٌ منهاجيَّةٌ في نماذج تاريخيَّةٍ مُعاصرة)



أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي

(مع ترجمة «وصف بلاد العَرَب قبل الميلاد»، لسترابو)



عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع
٢٠١٩

تاريخ بني إسرائيل

و

جزيرة العَرَب

تاريخ بني إسرائيل

و

جزيرة العَرَب

من التَّاريخ الميثولوجي إلى الجغرافيا الهرمنيوطيقيَّة

(مُراجعاتٌ منهاجيَّةٌ في نماذج تاريخيَّة مُعاصرة)

أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي

(مع ترجمة «وصف بلاد العَرَب قبل الميلاد»، لسترابو)

الكتاب

تاريخ بني إسرائيل وجزيرة العرب

تأليف

عبدالله بن أحمد الفيفي

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 646

القياس: 17×24

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2018/9/4678)

ISBN 978-9923-14-033-8

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد- شارع الجامعة

تلفون: (00962 -27272272)

خلوي: 0785459343

فاكس: 00962 -27269909

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
almalktob@gmail.com
facebook.com/modernworldbook

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن- العبدلي- تلفون: 079 /5264363

مكتب بيروت

روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 00961 1 471357

فاكس: 00961 1 475905



«لا تُعْطُوا (القُدْسَ) لِلْكِلاب،

ولا تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الخَنَازِيرِ،

لِئَلَّا تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وتَلْتَفِت فَتُمَزِّقَكُمْ!»

(السيِّد المسيح، **إنجيل مَتَّى**، الإصحاح السابع: ٦).

المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

تقديم

-١-

كَثُر في السنوات الأخيرة هُواة التاريخ و«التوليف» فيه، مع ارتفاع أدرينالين القوميَّة، والقَبَليَّة، والحَمِيَّة الجاهليَّة، والعصبيَّة السياسيَّة، وغدا كلٌّ على حرثه يركض عاريًا في ميدان الأعراق، والأنساب، والمشجَّرات، وتاريخ العشائر والقبائل والأُمم والشُّعوب والبُلدان، في سباقٍ محموم. يجري ذٰلك، كثيرًا، بلا عِلْمٍ، ولا هُدًى، ولا مِنهاج، ولا كتابٍ منير، وإنَّما هي الغِواية، وحُبُّ الظهور، في مجالٍ صار مجالَ من لا مجال له، ومستقطِبَ الأضواء؛ تمامًا كالشِّعر الشَّعبي، والسِّحر الفضائي، وتفسير الأحلام، وأحاديث الجِنِّ والمجانين، ونحوها من الظواهر الثقافيَّة التي تستهوي العامَّة، وتستخفُّ العقول.

غير أن التاريخ قد أصبح عِلْمًا في العصر الحديث، ولم يَعُد مقبولًا الخوض فيه بنُزوعٍ من تلك النُّزوعات المشار إليها، ولا من مؤدلَج، يوظِّف ظاهرًا من العِلْم لباطنٍ من المآرب والأغراض. لم يَعُد مقبولًا اليوم الخوض في التاريخ حتى بآليَّات (**الطبري**، -٣١٠هـ= ٩٢٣م)، أو (**ابن الأثير**، -٦٣٠هـ= ١٢٣٣م)، أو (**ابن كثير**، -٧٧٤هـ= ١٣٧٣هـ)، الذين أحسنوا وأساؤوا، وخدموا المعرفة وخلَّطوا تخليطاتٍ ظلَّت الأُمَّة تدفع ضرائبها، وستظلُّ إلى أمدٍ

لا يعلمه إلَّا الله، وظلَّ أعداؤها يتَّخذون من مادَّة ذٰلك التاريخ «الفكاهي»، وغير المنهاجي، مَطاعنَ، لا أوَّل لها ولا آخِر. ذٰلك أنه تاريخٌ رأسُ ماله الأعظم: «قيل وقال»، من سوالف المجالس والأسمار، مع النقل عن كُتب أهل الكُتب القديمة، والاستئناس بمرويَّات الشُّعوب، على عواهنها. فكانت المحصِّلةُ حَطَبَ ليلٍ كثيف، لا قِبَل للأجيال بفَرْز صحيحه من سقيمه، لبُعد الشُّقَّة بينهم وبين الأحداث، واندثار الوثائق المُعتَدِّ بها عِلْميًّا، هٰذا إنْ وُجِدت في الماضي. وليس من سبيلٍ أمثل من محاكمة ذٰلك التراث إلى معايير العِلْم، فما سقطَ في تلك المحاكمة، وجبَ أن يُلقَى به عُرض (**طبرستان**)، أو (**جزيرة ابن عُمَر**)، أو (**بُصرَى الشَّام**)؛ لأنَّه لا يصلح لشيء، ولا يستأهل الاحترام العِلْمي.

وحسبك تدليلًا على تهافت ما سُمِّي «تاريخًا» لدينا– وله نظائر لدَى غيرنا– تلك الأسفار السرديَّة العجيبة تحت عنوان «**تاريخ الرُّسُل والملوك**»، المعروف بـ«**تاريخ الطبري**»، على سبيل المثال، بما حوَى من خزعبلات حول بَدْءِ الخَلق، ونشأة الكون، وحركة الأجرام السماويَّة، ممَّا لا يَملِك اليومَ طفلٌ متعلِّمٌ نفسَه من الضحك منه، وممَّا انبثق عنه من خيالٍ بدائيٍّ جاهل.[1] ولقد كان لبعض المؤرِّخين القدماء أنفسهم، كـ(**المَقْدِسي**، - بعد٣٥٥= ٩٦٦م)[2]، و(**ابن الأثير**، -٦٣٠هـ=

---

[1] انظر: الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، الجزء الأوَّل.

[2] انظر: **البدء والتاريخ**، ٢: ٤٧.

١٢٣٣م)[١]، و(**ابن كثير**، -٧٧٤هـ= ١٣٧٣م)[٢]، و(**ابن خلدون**، -٨٠٨هـ= ١٤٠٦م)[٣]، تنبيهاتٌ إلى بعض تلك المرويَّات التي نقلها (**الطبري**)، أو (**المسعودي**)، وأضرابهما، لمنافاتها المعقول أو استحالتها.

ولٰكن إذا كان هٰذا في القديم، فما خطب هواة التاريخ المعاصرين؟

وأين الجامعات، وأقسام التاريخ، والجمعيَّات التاريخيَّة، عن عبثهم المستمر؟[٤]

على أنَّك واجدٌ مِن هٰؤلاء مَن ليس يخلو وِفاضه من المنهاج فحسب، بل هو خالي الوفاض أيضًا من الاحتكام إلى منطق العقل البسيط. هو- على سبيل المثال- إذا ألفَى اسم قبيلة، ظنَّ أنَّ كلَّ ما وافق المادَّة اللغويَّة التي اشتُقَّ منها اسمها ذو علاقةٍ بها؛ فإذا هو يُقيم علاقاتٍ متخيَّلةً بين (**الشَّام**) و(**اليَمَن**)، والمشرق والمغرب، لا أصل لها إلَّا في مخيِّلة جهله وعماه، وكأنَّ الاسم لا يَرِد في حياة العَرَب إلَّا مرَّةً واحدة، سواء كان لعَلَمٍ إنسانيٍّ، أو قَبَليٍّ، أو مكاني! وهٰذا ممَّا وقع فيه كذٰلك بعض البلدانيِّين والمؤرِّخين قديمًا، وإنْ لم يكونوا دائمًا بذاك الخيال الواسع اللافت لدَى بعض هُواة التاريخ المعاصرين. ذٰلك أن أولٰئك القدماء، وإنْ أعوزتهم مناهج

---

[١] انظر: **الكامل في التاريخ**، ١: ١٥.

[٢] انظر: **البداية والنهاية**، ١: ٢٥.

[٣] انظر: **مقدِّمة ابن خلدون**، ١: ٨٢، ٩٥، ١٠٣، ١٢٦-١٢٨.

[٤] فهٰذا فقيهٌ، اليومَ، صار مؤرِّخًا، وهٰذا معلِّم صِبيةٍ صار محقِّـقًا، وذٰلك عاطلٌ عن العمل أصبح مشتغلًا بالأنساب والمشجَّرات، ورابعٌ لا يستحيي أن يضرب بيديه ورجليه في مجاهل الآثار والنقوش. والمطابع تَلْهَم ما يأفكون من ذٰلك كلِّه ثمَّ تقذفه في الوجوه. وإنْ لم تفعل المطابع لضوابط باقية، من فُسوح النشر ونحوها، فـ«الإنترنت»- تلك الشبكة التي سمَّاها العَرَب إبَّان ظهورها «الشبكة العنكبوتيَّة»!- كفيلةٌ بنشر غسيل مَن لم يجد له ناشرَ غسيل.

البحث والدرس الصحيح، كانوا يحترمون قارئيهم، وكانوا يتعرَّضون للنقد الشديد من معاصريهم. وهم إلى ذٰلك قد ثَقِفوا من الأصول العِلْميَّة، فقهيَّةً أو رِوائيَّةً، ما يفحصون من خلاله المرويَّات، وينقدون بعضها، ويفاضلون، ويرجِّحون، غير واقعين- على الأغلب- في خبط العشواء المطلَق الذي نشهد كثيرًا منه اليوم.

ولقد كان العَرَب من أكثر الشعوب ترحُّلًا، إنْ لم يكونوا أكثرها على الإطلاق. وكانوا يحملون ثقافتهم معهم، وأسماء مواطنهم، وتاريخهم، وذكرياتهم، وفنونهم، أَنَّى حَلُّوا أو ارتحلوا. وانداحت أعراقهم في الأرض، وخالطوا الأعراق الأخرى والثقافات، حتى بات من المجازفة الاستنادُ على الأشباه والنظائر بين أسماء البلدان وقاطنيها دون بحوثٍ أنثروبولوجيَّةٍ معمَّقةٍ ودقيقة. بات من المجازفة الأخذ بظاهر التصاقب بين الأسماء، كما كان (**ياقوت الحموي**، -٦٢٦هـ= ١٢٢٩م)، وهو مستندٌ على أريكته في (**حَماة**) أو (**بغداد**)، يُحدِّد بلدةً على أنها في ديار (**بني تميم**)، مثلًا، استنادًا إلى بيتٍ شِعريٍّ وَرَدَ فيه ذِكر اسمٍ شبيهٍ باسمها، أو كما كان (**أبو عبيد البكري**، -٤٨٧هـ= ١٠٩٤م) يفعل ذٰلك، وهو متكئٌ على طنافس (**إشبيليَّة**) أو (**قُرطبة**). ذاك لأن اسم مكانٍ ستجده يتكرَّر من أقصَى (**اليَمَن**) إلى أقصَى (**الشَّام**)، ومن بلاد (**البَرْبَر الأمازيغ**) في شَمال (**أفريقيا**) إلى (**خراسان**)! والشُّعراء في كلِّ وادٍ مجازيٍّ يهيمون، ويقولون ما لا يعنون حرفيًّا؛ ولا يستقي المعرفة بالجغرافيا والتاريخ من الشُّعراء إلَّا جاهلٌ بطبيعة الشِّعر والشُّعراء، قبل جهله بعِلْمَي التاريخ

والجغرافيا. كلَّا، إنَّ الأمر أكثر التباسًا، والشِّعر يزيده على التباسه التباسًا وتلبيسًا وإيهامًا. ولا يُقلِّل من جهود هٰؤلاء الرعيل الأوَّل من البُلدانيِّين ومؤرِّخي الدِّيار انتقادُهم ومراجعة جهودهم.[1] غير أن ذٰلك تاريخُ مؤرِّخين قد مضى عصره وانقضت صلاحيَّة آليَّاته. واجتراره اليوم – وعلى نحوٍ أقلَّ جودةً غالبًا– هو كمن يريد أن يُجري العمليَّات الجراحيَّة بالطريقة التي كان يُجريها بها (**ابن سينا**، –٤٢٧هـ= ١٠٣٧م)، وبأدواته نفسها**!** وما يُقال عن منهاج الاستناد إلى الشِّعر في تحديد البُلدان، يَصْدُق على منهاج الاستناد إلى النصوص الأُسطوريَّة أو السرديَّات الشاعريَّة في تحديد جغرافيَّات الأحداث التاريخيَّة. كما أن ما يُقال في مناهج بعض كتب التاريخ القديمة، من التسليم بالمرويَّات الشعبيَّة، والأقاصيص المتوارثة، والأساطير الميتافيزيقيَّة، يَصْدُق على مناهج كتب التاريخ المعاصرة التي تسعى إلى توطين التاريخ الميثولوجي جغرافيًّا، بأساليب هرمنيوطيقيَّة ركيكة، في هٰذه الأرض العَرَبيَّة أو تلك.

وإذا كانت الضوابط العِلْميَّة تُسَنُّ في حقول العلوم الطبيعيَّة وتُطَبَّق، فما بال الحقول الإنسانيَّة تظلُّ مسرحًا مفتوحًا للهُواة؟! على أن صرامة المنهاج في الأخيرة ألزم؛ من حيث إن الخوض في الشؤون الإنسانيَّة أشدُّ تعقيدًا من الخوض في مجال العلوم البحتة؛ بما أن العلوم البحتة تتعامل مع معطيات ماديَّة ثابتة، لا تكاد تتغير على مرِّ التاريخ، في حين أن معطيات الحقول الإنسانيَّة تظلُّ متغيِّرةً، متطوِّرةً باستمرار، آخذةً في التراكم،

[1] لا يَغُضُّ هٰذا ممَّا قيل عن رحلات (**الحموي**)، أو ما ذُكِر في تميُّز (**البكري**)- ما حدا بـ(**وكالة الفضاء الأميركيَّة ناسا**)، في عام ١٩٤٩م، إلى إطلاق اسم **البكري** على فُوَّهةٍ من فُوَّهات القَمَر، عِرفانًا بريادته الجغرافيَّة.

والتداخل، والتماهي، والغموض، والتلاشي، كلَّما مرَّت عليها عجلات الزمن. ومن ثَمَّ كانت مقاربتها أعسر من سائر المقاربات وأخطر. فكيف إذا كان الخوض فيها مستنِدًا إلى وثائق لا يَصِحُّ عِلْميًّا الاستناد إليها؟! وكيف إذا أُرْدِفَ هٰذا بالهوَى، والإديولوجيا، والانتماءات السياسيَّة؟!

-٢-

في كتابنا هٰذا نعرض نماذج ثلاثة من المؤلِّفين المعاصرين في التاريخ، توالت أعمالهم على إعادة قراءة المواضع الواردة في «**العهد القديم**» من «**الكتاب المقدَّس**» وتأويلها، على أنها مواضع في (**الجزيرة العَرَبيَّة**). وقد بدأت هٰذه الرحلة التأويليَّة بكتاب (**الدكتور كمال الصَّليبي**)، تحت عنوان «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، المنشور بالعَرَبيَّة ١٩٨٥. ثُمَّ توالت كُتبٌ متناسلة، له ولسواه. فمن كُتب **الصَّليبي** الأخرى درسنا كتابه «**البحث عن يسوع: قراءة جديدة في الإنجيل**»، وكتابه «**حروب داود: الأجزاء الملحميَّة من سِفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العِبْري**»، وكتابه «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**». كما درسنا، بعد كُتب **الصَّليبي**، كتابَ (**الدكتور أحمد داوود**)، «**العَرَب والساميُّون والعبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهود**»، ١٩٩١، وكتابَ (**زياد مُنَى**)، «**جغرافيَّة التوراة: مِصْر وبنو إسرائيل في عسير**»، ١٩٩٤.[1] وسبب اختيار هٰذه النماذج أنها الأقدم والأشهر والتأسيسيَّة في هٰذا الموضوع، وما سِواها عِيالٌ عليها. بل إن بعض هٰذه النماذج عِيالٌ على أوَّلها، كما سيتبيَّن. وليست الغاية الاستقصاء، ولا جدوَى منه، لٰكنها نماذج

---

[1] يجد القارئ التفصيل حول هٰذه الكُتب وغيرها في فصول الكتاب الثلاثة.

لحراكٍ تأليفيٍّ، ما زال مستمرًّا، بمآرب مختلفة، يتوارَى فيها العِلْم التحقيقيُّ ويتعالَى النزوع الإديلوجي.

وتأتي أهميَّة هٰذه المراجعة- فضلًا عن حقِّ العِلْم في إحقاق ما قام عليه الدليل وإبطال ما دون ذٰلك- من أن هٰذا التيَّار المتكاثف في نِسبة تاريخ **(بني إسرائيل)** إلى **(جزيرة العَرَب)** ما انفكَّ في مَدِّه، منذ ما يربو على رُبع قرنٍ من الصفحات والأحبار. حتى مَسَّت فينا بعضَ العقول لوثةٌ من الإيمان بما تواترَ دون ردٍّ، والتسليم بما توالَى عليه أعلامٌ، يُعَدُّون من البحث والتاريخ بمكان.

وتأتي أهميَّتها كذٰلك من حيث إن طائفة من تلك الدعاوَى تتعلَّق بمغالطاتٍ في ما يعرفه مؤلِّف هٰذا الكتاب، كما يعرف الشمس والقمر، أو أشدَّ معرفة. وهو شاهدٌ على حيثيَّات الوجود التاريخيِّ لبعضه، المعاصرة له أو لآبائه وأجداده الأقربين، ممَّا يتَّصل ببيئته ومنطقته، بخاصَّة. على حين تَشهد استقراءاتُ أولٰئك المؤلِّفين واستدلالاتُهم على جهلهم الجاهل بكثيرٍ ممَّا يهرفون به حيال بعض الأماكن أو جُلِّها أو كلِّها. وإنَّما يقارِنون غالبًا الحروف بالحروف والأسماء بالأسماء في مستواها المعجمي. وكيف لا يُدلي شاهدٌ بما عرفَ إزاء مزاعم مَن لا يعرف؟! وكيف يصحُّ كتمانُ العِلْم، ويُقبَل نُكرانُ الشهادة مِن قِبَل أهلها؟!

فإذا أُضيف إلى ذٰلك كلِّه الصمتُ المريب من أهل التاريخ والآثار المختصِّين- من الأكاديميِّين وغير الأكاديميِّين- الذي لَفَّ هٰذا الصخبَ المحمومَ عبر السنين الماضية، بات الصمت خيانةً، والركون إلى ما ركن إليه الصامتون

مشاركةً في حفلة زارٍ، لا تُجْـفِل الشياطين بل تستحضرهم، عبر التاريخ والجغرافيا معًا!

أجل لقد ناقش (الشيخ الجليل **حَمَد الجاسر**، رحمه الله) بعضَ ما وردَ في كتاب (**الصَّليبيِّ**) الأوَّل إبَّان صُدوره، لٰكنَّ ذٰلك إنَّما جاء منه بإلحاح الغيارَى، على غير إقبالٍ منه، ولا اطِّلاعٍ إلَّا على مقتطفاتٍ ممَّا نُشِر في الصحف حول الكتاب. و**الجاسر**- حتى لو فصَّل القول تفصيلًا- لا يَعْلَم ما نعلم من الحقائق حول المواضع التي أضفَى عليها **الصَّليبيُّ** وأصحابه ما أضفوا من أقاويل وتخرُّصات وتأويلات. ثمَّ جاء الأديب (**محمَّد بن عبدالله الحميد**) فجمع المتابعات المنشورة حول الكتاب الأوَّل **للصَّليبي**، تحت عنوان «**افتراءات الصَّليبي**»، وأصدرها (نادي أبها الأدبي، ١٤٠٨- ١٤٢٢هـ= ١٩٨٨- ٢٠٠١م).

ومهما يكن من ردودٍ، ظلَّت متواضعةً إجمالًا، فإنَّني- طَوال متابعتي هٰذا الحراك من التأليف حول «**التوراة**» وعَزْوِ إحالاتها إلى (**جزيرة العَرَب**)- لم أقرأ قطُّ بحثًا مستوفيًا حاول أن يدرس ما زعمه **الصَّليبيُّ** في كتابه الأوَّل، بما يتكافأ معه، بلهَ كُتبه الأخرى، وكُتب من ألَّف بعده في هٰذا المجال.

وليس من هدف هٰذا العمل بعدئذٍ المزايدة الإديولوجيَّة، أو الدِّينيَّة، أو العِرقيَّة، أو القوميَّة، أو الوطنيَّة، أو السياسيَّة، مع تقدير انطواء تلك الطُّروحات التي قاربت هٰذا الموضوع على أشياء من تلك الأغراض، شاءت انطواءها عليها أو لم تشأ. ولٰكنَّ الهدف الرئيس هو فتح هٰذا الملف الذي تراكمت أضابيره عبر السنوات المنصرمة، ومَدُّ آفاق

النقاش فيه، بشفافيَّة، وموضوعيَّة، وتجرُّدٍ منشود. مع السعي إلى قول ما نعرف في ما نعرف، وإعادة النظر الحِجاجي في ما لا بُنيان له سِوَى الحِجاج النظري. غير مؤمنين، في عصر السماوات الكونيَّة المفتوحة، التي تنقل المعارف بين أقطار الكون وتُؤَبِّدها، ما شاء الله لها أن تتأبَّدَ، بـ«**إماتة الباطل بالسكوت عنه**». فكم من باطلٍ عاش، وكم من باطلٍ أَسَّس لباطلٍ أكبر، بما في ذٰلك التأسيس لدُوَلٍ ظالمةٍ غاصبة، وما أمات باطلَها السكوتُ عنه بل أحياه ومَدَّ في عمره. وإذا كان ذٰلك قد دهمَ الدُّنيا العَرَبيَّة، واستمرَّ، واستشرى، مُهلِكًا الحرث والنسل، منذ مطالع العصر الحديث، فأنَّى لعصرنا اليومَ باستنبات لُقمانٍ جديد، ما يفتأ يؤمِن بحِكَمِه العتيقة؟!

على أنه إذا كان أهل كلِّ بلدٍ أدرَى بشِعابه، فإن أهل كلِّ بلدٍ أَخْوَنُ لشِعابه، إنْ هم لم يَذُبُّوا عن تاريخه، بما يملكون من معارف ووثائق وأقلام. وهم يَظلُّون على تلك الصِّفة إنْ لم يكتبوا على صحائف الأيَّام مرورَهم بتلك الدِّيار، ويوقِّعوا على ذاكرة الأوطان ما احتفظوا به من بسماتها الأُولى وبصماتها الخالدة. أمَّا والذاكرة والتاريخ قد باتا نهبًا منهوبًا لكلِّ صاحب غايةٍ أو عقيدةٍ أو هوًى، أو لغير صاحب غايةٍ أو عقيدةٍ أو هوًى، من العابثين بالتاريخ والمتلهِّين بالتصنيف والمتاجرين بالتأويل، فقد بات لزامًا أن تستيقظ الضمائر والعقول لقول كلمةٍ باقيةٍ بين الكلمات الذاهبة، وتسجيل صوتٍ صادقٍ مع الأصوات المنتحلة، وتدوين وثائق مقاومةٍ دون ما يَمَّحِي من الوثائق أو يُمْحَى عمدًا، مِن قَبلِ أنْ تُصبح الأوطانُ وقاطنوها نسيًا منسيًّا، في زمنٍ كثُرت أعاجيبُه، وهام على وجوههم مفاليسُه، وأوشك المرء أن لا يعرف نفسه فيه ولا أهله أو بلاده.

وأمَّا مِنهاج هٰذا الكتاب، فيقوم على استقراء مؤلَّفات العيِّنة من المؤلِّفين الذين سيدرس أعمالهم، في ثلاثة فصول. خصَّ كلَّ مؤلِّفٍ بفصلٍ، استقصَى فيه بالتحليل والمناقشة ما وردَ في كتابه، أو في كُتبه، مرتَّبًا على حسب وروده. إلَّا ما رأينا ضَمَّ بعضه إلى بعض؛ لما في ذٰلك من فضل مقارنةٍ ووضوحٍ وبيان. مستثنين مِن توقُّفنا ما لا ضرورة إليه من ضروب التكرار، أو ما لا خلاف ظاهرًا حوله، نُقدِّر استئهاله التوقُّف.

وكُنَّا قد نشرنا معظم هٰذا الكتاب في سِلسلة مقالاتٍ في «**المجلَّة الثقافيَّة**»، بجريدة «**الجزيرة**» السُّعوديَّة، وفي الصفحة الثقافيَّة بجريدة «**الراي**» الكويتيَّة، بلغت ٧٧ مقالًا، نُشِرت في الفترة من شهر ديسمبر ٢٠١٤ إلى فبراير ٢٠١٧، تحت عنوانٍ عامٍّ هو «**العابثون بالتاريخ**»، مع عَنْوَنات فرعيَّة لكلِّ مقال. ثمَّ رأينا من الأَنسب لقارئ كتابٍ بلورةَ العنوان على النحو الذي اخترناه، تجليةً لموضوع هٰذا العمل ومنهاجه. كما أنَّنا، مراعاةً لشموليَّة الدِّلالة الاصطلاحيَّة، فضَّلنا في العنوان الفرعي مصطلح «**الميثولوجي**» على «**الأُسطوري**»؛ لشموليَّة مفهومه للأساطير، والخرافات، والملاحم، والحكايات التاريخيَّة المقدَّسة، و«الفلكلوريَّات» أو المأثورات الشَّعبيَّة، إلى غير ذٰلك. وهٰذا الخليط هو الذي شكَّل الكثير من تاريخ (**بني إسرائيل**) ونصوصهم محلَّ القراءة في هٰذا الكتاب. وكذا اتَّخذنا مصطلح «**الهرمنيوطيقي**» بدل «**التأويلي**»؛ لما له من دلالة أشمل، ومن تعلُّق بتأويل

النصوص الدِّينيَّة، ولا سيما على نحوٍ خياليٍّ، أو أشبه بالكهانة.[1] وهو ما رأينا الكُتب التي حلَّلناها وناقشنا مقولاتها قد انتهجته كثيرًا في تفسير المواضع المشار إليها في «**العهد القديم**» من «**الكتاب المقدَّس**».

والله نسأل أن ينفع بعملنا هٰذا، وأن يجعله في سبيل العِلْم وأهله وسائليه!

أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي

(عضو مجلس الشورى السعوديِّ سابقًا- الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرِّياض)

الأربعاء ٢ جمادَى الآخرة ١٤٣٨هـ= ١ مارس ٢٠١٧م

---

[1] الهرمنيوطيقا Hermeneutics: تُختزَل في الاصطلاح العربي، غالبًا، في كلمة: «التأويل»؛ بالنظر إلى مفهومها العتيق، الذي من تعريفاتها فيه: «**تأويل الكتاب المقدَّس**». على حين تُعَدُّ الهرمنيوطيقا هرمنيوطيقات، أي أن لها مستوياتٍ متعدِّدة، واتجاهاتٍ مختلفة، وتاريخًا طويلًا. فالهرمنيوطيقا العامَّة، بمعناها الفلسفي الحديث، ذات مفهومٍ أشمل من «التأويل»، يتعلَّق بعمليَّات الفَهْم نفسها. لقد غدت الهرمنيوطيقا «نظريَّة في الفَهْم وكيفيَّاته»، منذ الفيلسوف اللاهوتي الألماني (**شلايرماخر** Schleiermacher، -١٨٣٤)، ثمَّ (**فلهلم دلثي** Wilhelm Dilthey، -١٩١١)، ثمَّ (**هيدجر** Heidegger، -١٩٧٦)، فتلميذه (**جادامر** Gadamer، -٢٠٠٢)، وصولًا إلى الفيلسوف الفرنسي (**بول ريكور** Paul Ricoeur، -٢٠٠٥). وتُتَّخذ منهاجًا لدراسة النصوص وغير النصوص، من خلال التحليل الواسع لشبكةٍ بالغة التعقيد من التفاعلات بين عالم المقروء وعالم القارئ. (للاستزادة حول الهرمنيوطيقا طالع مثلًا: كتاب Ricoeur, Paul, **Hermeneutics and the Human Sciences**، وبالعربيَّة: مصطفى، عادل، **فَهْم الفَهْم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا**).

الفصل الأوَّل

هل حقًّا جاءت «التوراة» من جزيرة العَرَب؟

ولقد عَلِمْتُ ولا مَحـالَـةَ أَنَّـني

لِلحادِثاتِ، فهَلْ تَرَيْني أَجْزَعُ

أَفْـنَـيْنَ عــادًا ثُـمَّ آلَ مُحَـرَّقٍ

فتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا وما قـد جَمَّعُوا[1]

(متمِّم بن نويرة).

---

[1] في (الضَّبِّي، **المفضَّليَّات**، ٥٣/ ٣٩- ٤٠): «**فتركنهم بَلَدًا**»، وقيل معناه: «**تُرابًا**». ويبدو أن الكلمة تصحيفٌ لكلمة «**بَدَدًا**».

١- من الخرافة التاريخيَّة إلى التخريف الجغرافي:

حين نتساءل عن عَبَث هُواة التاريخ المحدثين، وعن موقف الجامعات العَرَبيَّة، وسكوت أقسام التاريخ، والجمعيَّات التاريخيَّة، عن ممارساتهم المستمرة في ذٰلك، فما ينبغي أن ننسَى طائفةً أخطر من العابثين الأكاديميِّين، الذين لا يَقِلُّون عَبَثًا واختلالًا منهاجيًّا. ولعلَّ المثال الأصخب والأشهر والرائد قد تبدَّى في كتاب (**كمال الصَّليبي**) «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**». وقد أُلِّف الكتاب بالألمانيَّة، ثمَّ تُرجِم إلى الإنجليزيَّة، ثمَّ إلى غيرها من اللغات الأوربيَّة؛ فغيرُ العَرَب أَولَى به، وهو أهمُّ؛ كي يعرفوا تاريخ (**الشرق الأوسط**) المغيَّب عنهم، إنْ شاءوا أن يعرفوا؛ فلا سياسة بلا معرفة. ثمَّ تُرجِم الكتاب إلى العَرَبيَّة، ونُشِر ١٩٨٥، وانهالت الطبعات المتوالية، التي لا يعلم إلَّا الله كم بلغ عددها، أو كم سيبلغ! لقد كانت سادستها في عام ١٩٩٧، ثمَّ احترق العدَّاد لكثرة الطبعات، وازدياد الطلب الشغوف بالكتاب. وهٰذا، في ذاته، مؤشِّرٌ مدهشٌ على المستوَى العِلْمي السائد، وعلى نوعيَّة الكتب التي تحظَى بالرَّواج في العالم العَرَبي، إلى جانب كتب السِّحر، والشعوذة، والتطرُّف، والطبخ، والشِّعر الشعبي. إذ يكفي أن يكون الكتاب مخالفًا، ولو للعقل، ليحظَى بالانتشار. وقد أَتْبَعَ المؤلِّفُ كتابه بثلاثة كتبٍ ذات علاقة، هي: «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»، ١٩٨٨، و«**البحث عن يسوع، قراءة جديدة في الأناجيل**»، ١٩٨٨، و«**حروب داود: الأجزاء الملحميَّة من سِفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العِبْري**»، ١٩٩٠. ثمَّ واصل الحفر في هٰذا النَّفَق المظلم، لحمل (**إسرائيل**)

إلى (**جزيرة العَرَب**)، في كتابٍ نشره سنة ٢٠٠٧، تحت عنوان «**عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العَرَب»: أورشليم والهيكل وإحصاء داود في عسير**».

في ذٰلك الكتاب الأوَّل جاء المؤلِّف بما لم يسبقه إليه أحدٌ من العالَمِين. والبرهان دائمًا على قدر الادِّعاء! صحيحٌ أن عزو (**العِبرانيِّين**) إلى (**العَرَب**) ليس بجديدٍ من حيث الأصل، ولا من بنات أفكار (**الصَّليبي**)، فقد سبقه إليه بعض المستشرقين، الذين زعموا أن **العِبرانيِّين** جماعة من **العَرَب**[١]، غير أن الجديد هو الانتقال بمفهوم «**العَرَب**» ممَّا قد يُعادِل مفهوم «**الساميِّين**» إلى مفهوم «**العَرَب**»، كما نعرفهم، الذين أصبحوا جنسًا مستقِلًّا من **الساميِّين**، مع مَدِّ هٰذا الادِّعاء، والنفخ فيه، والتفصيل في حيثيَّاته، والاستدلال عليه- وهنا المتاهة العظمى- من خلال أسماء المواضع الجغرافيَّة.[٢]

---

[١] انظر مثلًا: علي، جواد، **المفصَّل في تاريخ العَرَب قبل الإسلام**، ١: ٦٣٠.

[٢] لا نتفق هنا مع القائلين باستبدال مصطلحات مثل (**اللُّغات الشَّرقيَّة**) أو (**اللُّغات الجَزَريَّة**) أو (**اللُّغات العَرَبيَّة القديمة**) بمصطلح (**اللُّغات الساميَّة**). ومن المنادين بهٰذا، مثلًا: (باقر، طٰه، **من تراثنا اللُّغوي القديم**، ٢٣- ٢٤). ذٰلك لأن: استقرار المصطلح أمرٌ لازمٌ لاستقرار التواصل المعرفي والعِلْمي، وإنْ بدت مآخذُ على المصطلح القديم، لفظًا، أو منشأً، أو دِقَّةَ دلالة. وإنَّما قال علماؤنا القدماء: «**لا مشاحَّة في الاصطلاح**» من باب المصلحة العِلْمِيَّة تلك. على أن المصطلحات المقترحة لا تقلُّ بدَورها لَبْسًا وغموضًا واشتباهًا. أمَّا الأصل التوراتيُّ وراء مصطلح «**الساميَّة**» فليس- من حيث هو- بالسببِ الذي يُعْتَدُّ به عِلميًّا لنقض صلاحيَّة الاصطلاح. ولئن كان يكتنف مرويات «**التوراة**» الشكُّ عمومًا والاضطراب من وجهات تاريخيَّة وعِلْميَّة مختلفة، فليس بين أيدينا من اليقين التاريخيِّ العِلْمِيِّ، في المقابل، ما ندحض به تلك المرويَّات، جُملةً، في المسألة الساميَّة تحديدًا، وبصورةٍ قاطعة. ولذا، وبعيدًا عن الجدل الاصطلاحي والتعصُّب اللفظي، سنظلُّ في هذا الكتاب نستعمل مصطلح «**اللُّغات الساميَّة**» في الإشارة إلى الأُسرة اللُّغويَّة المنضوية تحته، أسوةً بعلماء الساميَّات من مستشرقين وعَرَب وغيرهما.

ولقد جاءت محاولات «برهنة» (**الصَّليبي**)- كما يراها- على نحوٍ فريدٍ في التهافت والهزال. فهو ينقل تاريخ (**بني إسرائيل**) المدَّعَى القديم من منطقة (**الهلال الخصيب**) إلى جَنوب غَرب الجزيرة العَرَبيَّة، لا لشيءٍ إلَّا لوجود بعض حروف من مفردات «**التوراة**» في أسماء أماكن هنا وهناك. وبعيدًا عن أيِّ مضامين دِينيَّة أو أبعاد إديولوجيَّة أو سياسيَّة وراء الكتاب أو أمامه، فهو متهافت الاستقراء والتصوُّر والاستدلال والاستنتاج، بدرجةٍ لا تُصدَّق.

لقد اكتشف (**الصَّليبي**)- فيما اكتشف- أن «**نشيد الأنشاد**» كان عن جبال (**فَيْفاء**) وضواحيها! فصار بدل «**نشيد الأنشاد**»: «**نشيد من جبال جيزان** [كذا!]»[1]، كما عَنْوَنَ أحد فصول كتابه! كيف لا، وجبل (**جلعاد**) في نصِّ النشيد القائل: «**شَعرك كقطيع معزٍ رابضٍ على جبل جلعاد**»، المقصود به: (**جبل فَيْفاء**)![2] ولا أدري أيَّ جبلٍ من تلك الجبال جَلْعَدَه **الصَّليبيُّ** هاهنا؟! قال: «**حيث هناك قرية الجعدة**»! ولم أسمع عن (**قرية الجعدة**) تلك، ولا أدري أين تقع؟ أو بالأحرى أين وقع هو عليها؛ في أيِّ معجمٍ ظلَّ يتَّكئ عليه في (**بيروت**) ويقارن؛ فيُخطئ أكثر ممَّا يصيب؟ لٰكنه يستدرك بأن قريةً أخرى باسم «**الجعد**» في (**رجال ألمع**)، فلعلَّها

[1] الاسم العَرَبي القديم: «**جازان**». (انظر مثلًا: القرشي، **الخَراج**، ١١٥)، حيث يذكر «**أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، إنِّي أُحِبُّ الجهاد والهجرة، وأنا في مالٍ لا يُصلِحه غيري، قال: فقال رسول الله ﷺ: لا يَأْلِتُكَ اللهُ من عملك شيئًا، ولو كنتَ بـ(ضَمَد) و(جازان).**» وكذا أثبتَ الاسمَ (الهمداني، **صِفَة جزيرة العَرَب**، ٦٨، وغيرها)، ثمَّ (الحموي، **معجم البلدان**، ٢: ٧ (جازان)).

[2] انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٨٥.

هي! وكثيرًا ما يتردَّد هٰكذا في تحديد الأماكن، فيتقافز من (**جازان**) إلى (**أبها**) إلى (**الطائف**) إلى (**القُنفذة**)، إلى غيرها؛ لأن الأسماء تتشابه، وتتكرَّر في كلِّ مكان. ولولا أنه حصر نفسه في غَرب الجزيرة وجَنوبها، لوجد أمثالها في أرجاء الجزيرة المختلفة. وإذا لم يجد الاسمَ، افتعله، كما ترى في اسم «**جلعاد**»!

أستغفر الله، لعلَّه يعني بـ(**قرية الجعدة**) منزلًا في (**فَيْفاء**) اسمه (**الجعيدة**)، في بُقعة (**نَيْد آبار**)، من بيوت قبيلة (**آل الثُّوَيْع**). فإذا كان ذٰلك ما عناه، فقد وقعَ في منزلَقٍ أكثر مفارقة وإثارة للإشفاق؛ ذٰلك لأن **الجعيدة** مجرد بيتٍ مأهول؛ وأهل (**فَيْفاء**) يصفون البيت الضخم بـ«**قرية**»، تعظيمًا. هو، إذن، لا يعدو بيتًا عائليًّا، لا قرية هنالك ولا يفرحون! ولكلِّ بيتٍ تسميةٌ في تلك الجبال، سواء أ كَبُر أم صَغُر، قديمًا كان أم حديثًا. فكيف يُصبِح اسمُ بيتٍ واحدٍ- بُنِيَ في زمنٍ متأخِّرٍ جِدًّا- اسمًا لكلِّ جبال **فَيْفاء**، ويُقال إن تاريخه يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام؟! لقد سَمِع بـ«**قرية الجعيدة**»، أو قرأ هٰذه التسمية، فظنَّها قريةً كاملةً فِعلًا، ثمَّ استنتج أن جبال **فَيْفاء** هي جبل **جلعاد** التوراتي. وهٰذا خير دليلٍ على الزيارات التي زعمَ أنَّه قام بها! وأقول: لو أنَّه دقَّق أكثر، لاكتشف اسمه هو أيضًا موجودًا في أسماء بعض البيوت؛ فثمةَ بيوت باسم (**الصِّلاب**، و**الصَّلَبَة**- أسماء ثلاثة بيوت في مواضع مختلفة- و**الصَّلبتين** أيضًا). كما كان سيجد من أسماء البيوت ما يجمع الأوطان كُلَّها والدنيا جُلَّها والآخرة؛ فهناك بضعة آلاف من البيوت أو أكثر، لكلِّ بيتٍ اسمٌ خاصٌّ، منها على سبيل المثال: (**السفينة**، و**السقيفة**، و**السودة**، و**ورازح**، و**المحالة**، و**العين**،

والصامل، **والصَّوملي**، **والملاوي**، **والخنساء**، **والطائف**، **والمحلَّة**، **والمعادي**، **ومصر**، **ومَنَفَة**، **والشمسية**، **وقَمَر**، **وسماية**، **والقَعْبة**، **والكَعْبة**، **والحَرَم**، **والصَّفا**، **والمَرْوَة**، **والخندق**، **والمُحْرَقَة**، **وجِحْم**، **والجحيمة**، **والقِيامة**.. إلخ). كلُّها أسماء أماكن وبيوت في جبال **فَيْفاء** وحدها. وهٰكذا، فلو أردتُ أن أُحاكي منهاج (**الصَّليبي**)، لوجدتُ كلَّ أسماء المواضع التي طوَّف بها من (**الطائف**) إلى (**هَرُوْب**) موجودة في جبال **فَيْفاء** فقط.

دعونا نُجرِّب لُعبة (**الصَّليبي**)، لنسأل: هل يمكن أن نستنتج مثلًا أنَّ أسماء الأماكن في «**سِفر عَزْرا**» و«**سِفر نَحَمْيا**»، التي أوردها في كتابه[1]، تقع في جبال (**فَيْفاء**)؛ لأن مِثل تلك الأسماء موجودةٌ فيها إلى اليوم؟ ومِن ثَمَّ نستنتج نتيجة مدهشة، هي أنَّ هٰذين السِّفرين كُتِبا في جبال **فَيْفاء**، ويتحدَّثان عن تجربةٍ جرت هناك قبل ثلاثة آلاف عام؟ نعم، يُمكن ذٰلك. فنقول، «وبالله التوفيق»: إنَّ قُرَى خدم المعبد (**النتينيم**) الواردة في السِّفرَين المذكورَين هي- على طريقة المؤلِّف في الاستقراء- على النحو الآتي:

(**صيحا**) [**صيحء في عَزْرا، وصحء في نَحَمْيا**]، وهي: (**الضَّحْي**)، في جبال (**فَيْفاء**)، ٣ مواضع. (**قيروس**) [**قرس**]، وهي: (**الكِرْس**). (**لبانة**) [**لبنة**]، وهي، «ولا بُدَّ»، مكان اسمه: (**لبان**). (**حجابة**) [**حجبة**]، وهي: إمَّا (**الحداب**)، وإمَّا (**الحَدَب**)، ١٥ موضعًا، وإمَّا (**الحَدَبة**)، ٣ مواضع. (**شَمْلاي**) [**شملي**]، (**الشَّمُلاء**)

---

[1] انظر: م.ن، ١٦١- ١٦٥.

[شملء]، وهي: إمَّا (**شملة**)، وإمَّا (**شُمَيْلَة**). (**عقُّوب**) **[عقوب]**، وهي: إمَّا (**عوجبة**)، وإمَّا (**العقبة**). (**جَحَر**) **[جحر]**، وهي: إمَّا (**الأجحار**)، وإمَّا (**جِحر بَدَع**). (**حانان**) **[حنن]**، وهي: (**الحنانة**). (**رَصِين**) **[رصين]**، وهي: (**رَيْسان**)، ٧ مواضع. فاختر ما شئت منها! (**نقودا**) **[نقودء، أو نقود إذا أهملت أداة التعريف الآراميَّة اللاحقة]**، وهي: (**ناجد**)، موضعان. (**بيساي**) **[بسي]**: وهي: (**البزو**)، أو ربما (**بوثن**). (**مَعونيم**) **[جمع معون أو معوني]**، وهي: إمَّا (**ناعم**)، وإمَّا (**نُعمان**)، وإمَّا (**نُعَيْمَة**). (**نفوسيم**) **[نفيسيم، مثنَّى أو جمع نفيس]**، وهي: إمَّا (**النفيش**)، وإمَّا (**النفز**).

وهٰكذا، وأنت ماشٍ... كلُّها، إذن، أماكن في جبال (**فَيْفاء**)!

هٰذا فقط ما تُسعِف به الذاكرة، دون تعمُّد بحثٍ واستقصاء. ولو بحثْنا ونقَّبْنا، لوفَّقَنا الله حتمًا إلى مواضع أكثر مطابقة لأسماء «**التوراة**»!

لن نستمرَّ في سرد الأسماء والمقارنات؛ لكيلا نُثقل على القارئ بهٰذا السرد. وإنَّما أردنا تِبيان سهولة منهاج (**الصَّليبي**). فها هي هٰذه المواضع في (**فَيْفاء**) وحدها، متجاورةً مترافقة، من نحو ما وردت في السِّفرين التوراتيَّين. أفهٰذا دليلٌ يُستنَد إليه في شيء؟! وكيف لو عرَّجنا، كما فعل الرجل، في معجم الأسماء الذي زوَّدَه به «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**» من حيث لم يحتسب؟! ماذا لو فعلنا ذٰلك، فشرعنا نُقارن الأسماء من (**الطائف**) إلى (**هَرُوْب**)، وشطحنا أحيانًا إلى (**الحِجاز**)، بل إلى (**اليمامة**)، تتبُّعًا لأيِّ مقابِلات من الحروف والأسماء. وما أوردناه

أعلاه هو أسماء لأماكن حقيقيَّة معروفة اليوم، لا أسماء قبائل، كبعض الأسماء في كتاب **الصَّليبي**، أو أسماء متوهَّمة، أو مصحَّفة، ظلَّ يستنتج منها استنتاجاته العجيبة. ولسنا في حاجةٍ كذٰلك إلى تقليب الحروف، كما يفعل صاحبنا، كأنْ يقول، مثلًا، إن (**حبرون**)، عاصمة (**المَلِك داوود**) الأُولى، هي قرية (**الخربان**)، بـ(**المجاردة**)![1]

وإذا عُدنا إلى ما ذُكِر في «**العهد القديم**» حول (**جِلْعاد**)، وجدنا القول إنها كانت أرضًا (**للأَمُورِيِّين**)، احتلَّها (**بنو إسرائيل**)، وطردوا أهلها منها، ثمَّ أعطاها (**مُوسَى**) لـ(**ماكِير بن مَنَسَّى**) من عشائر (**بني يوسُف**)، و**ماكِير** هٰذا هو أبو **جِلْعاد**، الذي تُنسب إليه عشيرةُ (**الجِلْعاديِّين**)، وبذا اكتسبت أرض **جِلْعاد** تسميتها. كما سنجد أن **جِلْعاد** توصف تارةً بأنها «**أرض**»، وتارة تُنسَب إليها مُدن، فيُقال: «**مُدن جِلْعاد**».[2] فليت شِعري، كيف استقام في عقلٍ تصوُّر ذٰلك في قريةٍ لا وجود لها في جبال (**فَيْفاء**)، وإنَّما هو الوهم وعدم الفهم اللذان دارا حول اسمٍ لبيتٍ عائلي. وهو تصوُّرٌ لا يستقيم أيضًا وإنْ وُجِدت- فَرَضًا- مثل تلك القرية في تلك الجبال.

أمَّا «**نشيد الأنشاد**» نفسه، فقد كشفت الآثار عن تشابهٍ بين بعض تعبيراته وصُوَره وقِيَمه وبين مدوَّنات كنعانيَّة وثنيَّة عُثِر عليها في (**أوغاريت**)، شَمال (**اللاذقيَّة**)، في (**سُوريَّة**)، تعود إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد. فضلًا عن بعض الملامح

---

[1] انظر: م.ن، ١٧٥.

[2] انظر: سِفر العدد، ٢٦: ٢٩، ٣٢: ١، ٢٦، ٢٩، ٣٩- ٤٠.

الأُسطوريَّة أو الشِّعريَّة اليونانيَّة.[1] وهٰذا أمرٌ طبيعيٌّ في بيئات ثقافيَّة متقاربة جغرافيًّا وتاريخيًّا. أم تُرَى تلك الآثار الشاميَّة الأوغاريتيَّة واليونانيَّة قد طارت إلى «نشيد الأنشاد الفَيْفي» عَبْر الفضاء، حسب أوهام (**الصَّليبي**)؟!

٢- المؤرِّخ حين يفقد حِسَّه التاريخي:

إنَّ بوسع الباحث أن يجد في أسماء المَواطن في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) موسوعةً من الأسماء تكاد لا تنتهي. وليس المعيار بوجود الحروف والأسماء هنا أو هناك لتحديد مسارح الأحداث التاريخيَّة. ذٰلك أن أسماء المواضع كأسماء الناس تتكرَّر كثيرًا وتتشابه. ومِن طبيعة الشعوب البدائيَّة أن تستدلَّ بالتسميات لا بالجهات، ولاسيما في التضاريس الجبليَّة. ثمَّ هي إلى ذٰلك تُحافظ على تلك الأسماء على نحوٍ لا مثيل له في البيئات الحضريَّة، وتُراكِم ذٰلك التراث عبر الأزمان، وتحمله معها حين تترحَّل من مكانٍ إلى مكان. فيتشكَّل من ذٰلك معجمٌ غنيٌّ من الأسماء. وهي أسماء قد تُطلَق اعتباطًا لتمييز المكان، أو تعبيرًا شاعريًّا عن طبيعته، أو عن شكله، أو لحوادث مرَّت فيه، أو أشخاص كانت لهم به علاقة. ومع ذٰلك، فإنه من المستبعَد، في أيِّ مكان، أن تبقَى معظم الأسماء متوارثةً لا تتغيَّر لمئات السنين، فضلًا عن

---

[1] انظر: سوسة، أحمد، **العَرَب واليهود في التاريخ**، ٢١٦؛ العزَّام، تيسير حسن، (٢٠٠٩)، «***قِيَم وأخلاق توراتيَّة في ظاهر نشيد الأنشاد وباطنه أثَّرت في الحياة والأدب العِبْري الحديث***»، (مجلَّة «**دراسات، العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة**»، الجامعة الأردنيَّة، الأردن، م٣٦، ع١، ص٥٧).

ألوفها. ذٰلك أن أسماء المَواطن تندثر وتتبدَّل، كما تتبدَّل التضاريس، في الزمن القريب، فكيف بآلاف السنين؟! وقُل مثل هٰذا، بل أكثر من هٰذا، عن أسماء القبائل والعشائر والأُسَر. فلو تساءلنا اليوم: أين بعض المُدن الوارد ذكرها في الكتابات القديمة في (**العِراق**)- على سبيل المثال- كـ(**أور**)، و(**أوروك**)، و(**لاجاش**)، و(**أدب**)، و(**إيسين**)، و(**إريدو**) و(**كيش**)، و(**لارسا**)، و(**ماري**)، و(**سيبار**)؟ لأدركنا أنها أسماء بادت، واستُبدِل بها سواها، ربما عُرِف موقع بعضها على وجه التقريب، ووقع الجدال حول سائرها. وتلك سُنَّةٌ سائرةٌ في جميع الحضارات والأُمَم التي تتوالَى عليها التحوُّلات وتتعاقب عليها الأطوار. في حين يظلُّ (**الصَّليبيُّ**) يتصوَّر أسماء المَواطن، وتضاريس البلدان، وظروفها المناخيَّة، ثابتة، لا تتبدَّل عبر التاريخ؛ ما انفكَّت كما كانت منذ (**آدم**)، أو منذ (**نُوح**)، أو في الأقلِّ منذ نشوء القصص التوراتي![1]

غريبٌ أن يكون مؤرِّخٌ كـ(**كمال الصَّليبي**) فاقدًا حِسَّه التاريخي، فيفترض أن فرع قبيلةٍ بقي قائمًا بالاسم نفسه، مُذ ما قبل كتابة التاريخ، أي منذ عهد النبي (**إبراهيم**) وذُرِّيَّته، إلى يومنا هٰذا! ذٰلك ما ظلَّ **الصَّليبي** يفترضه؛ فإذا وجدَ اسمًا شُبِّه له باسمٍ توراتيٍّ، افترض أنه هو، دون أن يسأل نفسه: لِمَ سُمِّي هٰذا المكان بهٰذا الاسم؟ وفي أيِّ تاريخٍ حَدَثَ ذٰلك؟ مِن هٰذا، مثلًا، أنه ينسب (**بني هاجِر**)- في

---

[1] انظر ملامح هٰذا التصوُّر في ما ساقه، مثلًا، في الفصل الثاني من كتابه «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»، تحت عنوان «**مسألة نُوح**».

شرق الجزيرة العَرَبيَّة، القبيلة العبيديَّة القحطانيَّة- إلى (**هاجَر، أُمِّ إسماعيل بن إبراهيم**). مع أن **بني هاجِر** قبيلةٌ قحطانيَّة، وإنَّما جاء لقب «**هاجِر**»، كما يفيد أبناء هٰذه القبيلة، من لقب جدِّهم (**منصور بن الضيغم العبيدي**)؛ لأنَّه هَجَرَ رَبْعَه من (**بني الضيغم**) هٰؤلاء. و**هاجِر** هٰذا عاش في العصر الإسلامي. فما علاقة هٰذا اللَّقَب **بهاجَر** زوج **إبراهيم**؟! كالعادة، العلاقة: (هاء، جيم، راء)!

وهٰذا هو نهج (**الصَّليبيِّ**) في الأسماء وغير الأسماء. من ذٰلك كذٰلك أنه يرى أن (**يونان/ يونس**) كان نبيًّا من (**عُمان**). وبعد أن ساق قِصَّته- مشيرًا إلى أن فكرة (**الحُوت**) الذي التقمه إنَّما نشأت عن فهمٍ مغلوطٍ لعبارة «**بطن شءول**»، في صلاة **يونس**، التي تعني بطن وادٍ اسمه «**شؤول**»، (=**وادي سال**، في المنطقة الشرقيَّة من **عُمان**)، أو لعلَّها، كما قال، مقتبسة عن خُرافة هنديَّة، فضلًا عن أن العِلْم قد أثبت استحالة حياة إنسانٍ في جَوْف **حُوتٍ** لأيِّ فترة زمنيَّة[1]- انتهى إلى السؤال: هل

---

[1] القضيَّة هنا ليست بقضيَّةٍ عِلْميَّة، للبحث عن إمكانيَّتها عِلْميًّا، بل قضيَّةٌ إعجازيَّةٌ خارقةٌ للطبيعة، لِمَن شاء أن يؤمن أو يعتبر. ولولا هٰذا، لما عاد لمفهوم المعجزة من معنى. وقد أُشيرَ إلى قصة (**يونس والحُوت**) في (**العهد القديم، سِفر يونان، ١: ١٧، ٢: ١- ١٠**)، وفي (**الإنجيل**، إنجيل مَتَّى، ١٢: ٤٠)، و(**القرآن**، سورة القلم: الآيتان ٤٨- ٤٩؛ سورة الصَّافات: الآيات ١٤٢- ١٤٦). على أن البقاء في «**بطن الحُوت**» لم تَرِد في «**القرآن**» مطلقًا، ما وردَ أن **الحُوت** «**التقمه**». ولا يقتضي الالتقام البلع، ولٰكن أخذ الشيء بالفم كاللُّقمة. وقد تُلتقَم فتُلفَظ. بل قد يُستخدَم التعبير في العَرَبيَّة مجازًا، عن التداني الشديد؛ لذا يُقال: «**التقمَ أُذنه**»، أي سارَّه. ثمَّ يشير «**القرآن**» إلى أن **يونس** نجا، وأن الله نبذه بالعراء، وليس **الحُوت**: ﴿**فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ**﴾. فالنصُّ لا يُفَصِّل في هٰذا الصدد، غير قوله من بَعد: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.**﴾ بحيث يُمْكِن أن يُفهَم أن **الحُوت** تناوله ←

كان **يونس** عِبْرِيًّا؟ فاستشهد باستعمالٍ لَهَجيٍّ اليوم في منطقة (**الخليج**)، وهو قول الناس عن المسافر بحرًا: إنَّه «**عِبْري**». فزعمَ أن **يونس** إنَّما كان يستعمل الكلمة بهٰذا المعنى![1] وبذا فإن **يونس** لم يكن عُمانيًّا فحسب، بل كان أيضًا يحكي اللهجة الخليجيَّة الدارجة اليوم!

إذن، كان على (**الصَّليبيِّ**) أن يَمضي قُدُمًا في استقرائه واستدلالاته العجيبة؛ إذ يكاد كلُّ حَجَرٍ- في جبال (**فَيْفاء**)، على سبيل المثال كما أوضحنا سابقًا- يحمل اسمًا معيَّنًا، يُمكِن أن نجد له شَبَهًا باسمٍ تاريخيٍّ ما من العالَم التوراتي! وعلى هٰذا، لو استقصَى صاحبنا واتَّبع منهاجه، فسيقلب وجه التاريخ والجغرافيا معًا!

إنَّ ما قدَّمه (**الصَّليبيُّ**) لا يعدو التماس أسماء أماكن تحمل حروف أسماء واردة

بفمه، لٰكن الله نجَّاه، ولو أنه صار إلى بطن **الحُوت**، لكانت نهايته. أمَّا التفصيل، فواردٌ في «**العهد القديم**»: «**وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَال. فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلٰهِهِ مِنْ جَوْفِ الْحُوتِ... وَأَمَرَ الرَّبُّ الْحُوتَ فَقَذَفَ يُونَانَ إِلَى الْبَرِّ.**» ثمَّ جاء في «**الإنجيل**» كذٰلك أنه بقي في بطن **الحُوت** ثلاثة أيَّامٍ وثلاثَ ليالٍ. ثمَّ جاء في التفسير القرآني- تناقُلًا عن إمام المفسِّرين (**الطبري**)- تفسير «**الالتقام**» بـ«**الابتلاع**»، محمِّلين النصَّ التفاصيل الكتابيَّة غير الواردة في «**القرآن**». بل أمعنوا في خيالاتهم العجيبة لإقحام مزيدٍ من «السيناريوهات»، وكأنما كانوا في منافسةٍ مع أهل الكتاب في أساطيرهم. من ذٰلك جدالهم في مُدَّة بقائه في بطن **الحُوت**، حتى زعمَ زاعمُهم أنه بقي ٤٠ يومًا! (انظر: الطبري، **تفسير الطبري**، ١٩: ٦٣١). وأغرب من هٰذا قولُهم: إنَّ **حُوتًا** ابتلع **الحُوت**، فنادَى **يونس** في ظلمة **الحُوت**، ثمَّ في ظلمة الآخَر، ثمَّ في ظلمة البحر! (انظر: م.ن، ١٦: ٣٨٣). ولا تسأل عن مصادر هٰؤلاء القوم في ما انشغلوا به من مرويَّات؛ فهم إنما يَصدرون عن «حدَّثنا» و«أخبرَنا»، واثقين الثقةَ كُلَّها بمَن ينقلون عنه، كأنه كان يتنزَّل عليه وحيٌ إضافي. وما آفة الإسلام إلَّا رواته!

[1] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٢٨٧- ٣٠٠.

في «**التوراة**»، تخلب لُبَّ من يطالعها باديَ الرأي- مع قُدرة الرجل على العرض المثير الموهِم- حتى إذا تفحَّصتَها، وسعيتَ إلى التحقُّق من صحَّتها، ومن جدارة الاستناد إليها في الاستدلال، وسألتَ عن تفرُّد البُقعة الجغرافيَّة التي نُسِب إليها ما وَرَدَ في «**التوراة**»، تبدَّت لك هشاشة ما بنَى عليه بُنيانه، الأشبه بقصيدةٍ طريفةٍ، منه ببحثٍ عِلْميٍّ منهاجيٍّ جاد. وقد كان رائدَ هٰذا الهراء، الذي فتح شهيَّة آخَرين، انبثقوا من عباءة تهويماته في كُتُبٍ شبيهة، سنقف عليها لاحقًا.

غاية الأمر أن الرجل وَقَعَ على ثروةٍ من الأسماء تُتيح له أن ينقل المسمَّيات من (**فِلسطين**) وما جاورها إلى (**جَنوب غَرب الجزيرة العَرَبيَّة**) دفعةً واحدة. إلى درجة أنه كان أحيانًا يجد أكثر من اسمٍ واحدٍ في غير ما مكان، فيحار أيُّها يختار، هٰذا أو ذاك أو ذٰلك. بل إنه قد استغلَّ تلك الثروة من الأسماء في ربطها بمفردات لغويَّة لا علاقة لها بأسماء الأماكن؛ فصار يلتمس لكلِّ مفردةٍ توراتيَّةٍ مقابِلًا في أسماء الأماكن. مثال ذٰلك قوله إن المِصْريِّين القدماء كانوا يعتقدون أن لكلِّ إنسان ذاتًا قرينة هي «صورته» أو «شكله»، كانوا يسمُّونها: «**كا**». ثمَّ ذهب إلى أن اللفظة المِصْريَّة القديمة هٰذه ما زالت موجودة في غَرب الجزيرة العَرَبيَّة في أسماء أماكن كـ«**القاو**»، و«**القاوة**»![1] فما علاقة تلك العقيدة بأسماء تلك الأماكن؟ إنَّه معجمٌ لغويٌّ من الأسماء وَجَدَ في حروفه ما شاء، جغرافيًّا وغير جغرافي. ولو أنه تأمَّل في الأمر، لأمكن أن يكون أقربَ إلى التصوُّر المعقول افتراضُ أنَّ أسماء المَواطن

(١) انظر: م.ن، ١٧٥.

المذكورة في «**التوراة**» هي ممَّا هاجر إلى **فِلسطين** من الأسماء مع (**اليبوسيِّين**) المهاجرين إلى **فِلسطين** من جَنوب **شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**؛ لأن **اليبوسيِّين** سَمَّوا مستوطناتهم الجديدة هناك بأسماء مَواطنهم العتيقة. ولا يَبْعُد أن تتقارب أسماء الأماكن وتتراتب على النحو نفسه هنا وهناك؛ لأنهم يُسمُّون المَواطن الجديدة حنينًا إلى دارهم الأُمِّ، محاكين هٰذه بتلك، لا في التسمية فحسب، بل أيضًا في الترتيب الطبوغرافي أحيانًا. وها قد رأينا من قَبل عيِّنةً دالَّةً ممَّا وردَ في سِفرَين من «**التوراة**»، جميعها متجاورة بالترتيب نفسه في جبال (**فَيْفاء**).[1] وسنرى لاحقًا أن باحثًا على خُطَا (**الصَّليبيِّ**) سينزح بالمَواطن التي رآها **الصَّليبيُّ** في (**عسير**) و(**جازان**) إلى (**سَراة غامد وزهران**)، وسيجد أسماء هناك شبيهةً أيضًا، وبترتيبات شبيهة كذٰلك.

نعم، إن الأقربَ إلى التصوُّر أنَّ أسماء المَواطن المذكورة في «**التوراة**» هي ممَّا هاجر إلى (**فِلسطين**) مع المهاجرين من جَنوب (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**). ثمَّ اندثرت بعض تلك الأسماء الجديدة في **فِلسطين**، ولم يَعُد لها ذِكرٌ اليوم؛ لأنها مستعارةٌ من جهة، ومن جهةٍ أخرى لأن من طبيعة الحواضر التحوُّل المستمرُّ والتبدُّل في كلِّ شيء- بما في ذٰلك البلدات والأسماء- بخلاف غير الحواضر. على حين بقيت الأسماء في قُرَى جَنوب **شِبه الجزيرة العَرَبيَّة** وغَربها، وفي بواديها وأريافها. وبخاصَّةٍ لأن اليهود لم تَقُم لهم قائمةٌ ذات وزنٍ تاريخيٍّ في بلدات **فِلسطين** منذ

---

[1] راجع: ٢٠- ٢٢.

تدمير كيانهم على يد المَلِك الكلداني (**نَبُوخَذْنَصَّر**، -٥٦٢ق.م)[1] وسبي سادتهم إلى (**بابل**) في القرن السادس قبل الميلاد. وتلاشت لغة العِبرانيِّين حتى ماتت، لتحلَّ محلَّها الآراميَّة. ثمَّ تعاقبت على تلك الأرض الشُّعوبُ والأعراق، والأُممُ والحضارات. فكان طبيعيًّا أن تندرس الأسماء، أو أن يندرس كثيرٌ منها، أو أن يُستبدَل بها سِواها. فكيف خُيِّلت إلى (**الصَّليبيِّ**) ضرورةُ أن يعثر عليها اليوم كما وردت في الكتاب المقدَّس، وإلَّا رأى أن التاريخ ليس هناك بل في مكانٍ آخر؟! أيظنُّ هٰذا مؤرِّخٌ أو جغرافيٌّ يرعَى طبائع التحوُّلات التاريخيَّة والحضاريَّة؟! لأجل هٰذا كلِّه كان من الحتميِّ جدًّا أنْ لن يجد كثيرًا من الأسماء التوراتيَّة واضحة اليوم، لا في **فِلسطين**، ولا في (**مِصْر**)، ولا في (**سيناء**)، كما يُمكِن أن يجد مشابهاتٍ لها في **الجزيرة العَرَبيَّة**. وإنه لو بحث عن الأسماء الواردة في التاريخ المِصْري القديم، الثابت من خلال النقوش والكتابات، لوجد معظمها، إنْ لم تكن كلَّها، قد اندرست كذٰلك، وبُدِّلت تبديلًا.

إن الظاهرة التي عوَّل عليها (**الصَّليبيُّ**) ليست بخاصةٍ بتاريخ العِبرانيِّين، إذن، لنستدلَّ منها على أن المكان غير المكان، بل هٰذه ظاهرةٌ لغويَّةٌ حضاريَّةٌ عامَّةٌ معروفة، وغير متعلِّقةٍ بأسماء المَواطن وحدها. على أن لهجات جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) ما برحت محافظةً على موروثٍ لغويٍّ موغلٍ في القِدَم، انقرض من غيرها، حتى من

---

[1] يقع الخلط أحيانًا بين (**نَبُوخَذْنَصَّر**) هٰذا و(**نَبُوخَذْنَصَّر الأوَّل**)، من السُّلالة البابليَّة الرابعة، الذي استعاد استقلال (**بابل**) من حُكم **الآشوريِّين**، في القرن ١٢ ق.م. (انظر: سوسة، ٩٣).

العَرَبيَّة الفصحى، ومن أجزاء أخرى من الجزيرة؛ للأسباب الحضاريَّة المُلمَح إليها.

لأجل هٰذا فإنه لا جديد في القول إن (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) كانت مَعْدِن الأُمم القديمة، المصطلَح على تسميتها «**الأُمم الساميَّة**»، ولا جديد في القول إنها حافظت على موادَّ لغويَّةٍ وأسماءٍ تاريخيَّةٍ وآثارٍ معرفيَّةٍ بادت من غيرها. كما لا جديد في القول إن بين الأُمَّة العِبريَّة والعَربيَّة أوجه تشابهٍ كثيرة، كتشابُه الإخوة لأبٍ واحد، ولا في القول إن بين لغتَي هاتَين الأُمَّتَين وأسمائهما تشابهًا ظاهرًا. وإذا كان (**الصَّليبيُّ**) يلحظ هٰذا في أسماء الأماكن، فليلحظه كذٰلك في أسماء الناس، من مثل: (**خالد بن بَعْنَة النَّطُوفاتي**)، و(**أَبِيئيل العَرَباتي**)، و(**بنو هاشم الجَزوني**)! وهٰؤلاء من أبطال جيش المَلِك (**داوود**). ولا غرابة في هٰذا، سواء أ عُدَّ هٰؤلاء عَرَبًا خدموا في جيشه، أم من ذوي الأسماء القديمة المشترَكة بين الشَّعبَين المتجاورَين، عِرقًا، ولغةً، وأرضًا. أمَّا المسارعة إلى عَزْوِ الحِقَب التاريخيَّة، والتفرُّعات الإثنيَّة المتعاقبة إلى غير مَواطنها، والزعم أنها كانت تعيش في **جزيرة العَرَب**، لمجرَّد وجود تشابهٍ في الأسماء- وإنْ أُضيف إليه تَجاوُرها بالترتيب الوارد في «**التوراة**»- فغُلُوٌّ في الافتراض، أقلُّ ما يوصف به أنه لا يقوم على بُرهانٍ عِلْميٍّ كافٍ للإقناع.

وإذا كانت أمثال تلك التشابهات قد تشدُّ أنظار مستشرِق، لا يستوعب جذور العلاقات التاريخيَّة القديمة بين أبناء ما يُسَمَّى (**الشرق الأوسط**)؛ فإذا هو يخلط شعبان برمضان- وإنْ كان نظريًّا محسوبًا من علماء الساميَّات- فإنها عادةً لا

تلفت نظر غير المستشرِق أو المستعرِب، ممَّن يُدرِكون أن العَرَب وثقافتهم لم يكونا محصورَين في (**جزيرة العَرَب**) حتى يسوغ اتخاذ المتشابهات دليلًا عِلْميًّا للعَزْو إلى العَرَب وإلى جزيرتهم.[1]

٣- منهاج بارنوم:

لقد كان (**الصَّليبيُّ**) يَعلم عِلْم اليقين أنْ قد فشل المؤرِّخون في العالم والآثاريُّون في العثور على التاريخ المزعوم لـ(**بني إسرائيل**) في (**فِلسطين**). فلتكن **فِلسطين**- عند **الصَّليبيِّ**- (**الفَلَسَة**) في (**خَثْعَم**)![2] أ فوُكِّل للبحث لهم عن تاريخهم في مكانٍ آخر، هو (**جزيرة العَرَب**)؟! أم نَدَبَ نفسه بنفسه إلى هٰذه المهمَّة؟! لينتهي في آخر المطاف إلى نسيجٍ مهلهلٍ من الافتراضات والتخمينات، في ضربٍ من التنجيم، مستخدمًا مع القارئ ما يشبه تأثير (**بارنوم**)[3]، إيهامًا بصحَّة ما يقول. حتى إنك

---

[1] مِصداق هٰذا الذي نشير إليه من هجرات الأسماء أن (**أحمد داوود**) أجرى قراءةً للأسماء الواردة لدَى المؤرِّخ الفينيقي (**سانخونياتن**، -٣٠٠ق.م)، حول أساطير الخَلْق، فردَّ تلك الأسماء إلى (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)، ذاهبًا إلى أن أسماء المَواطن التي تبدو شاميَّةً عند **سانخونياتن** هي أسماء أماكن في الجزيرة، وإنما الأسماء الشاميَّة مستنسخةٌ عنها. (انظر: **تاريخ سُوريا القديم**، ٤٧٢- ٤٨٨، تحت عنوان «**العَرَب هم أبطال سانخونياتن، والمكان المنطقة الجَنوبيَّة الغَربيَّة من شِبْه جزيرة العَرَب**»). فإذا هو يؤلِّف كتابًا عن «**تاريخ سُوريا القديم**» ثمَّ ما يلبث أن يرحِّله بدَوره إلى **جزيرة العَرَب** للأسباب نفسها التي قادته مع زميلَيه إلى ترحيل تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى الجزيرة!

[2] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٢٣٩.

وفي كتابه (**حروب داود**، ١٣٦) سيقول إنها في «**بلاد غامد وزَهران**»!

[3] The Barnum effect إشارة إلى الظاهرة النفسيَّة التي تجعل بعض الناس ميَّالين إلى تصديق الدجاجلة ←

لتشعر في تحليلاته كأنك أمام قارئ فنجان، لا أمام مؤرِّخ. وللرجل قُدرة لا تُنكَر في هٰذا الدَّور الإيهامي، حتى إذا فُحِص كلامه على محكِّ الواقع والتاريخ والمنهج، وُجِد معظمه ممَّا لا يُمكِن الاعتداد به عقلًا، فضلًا عن الاعتداد به عِلْمًا.

إنَّنا- بقطع النظر عن صحَّة القول بتاريخٍ (**لبني إسرائيل**) في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)- إنما نُقيم مناقشاتنا لكُتب (**الصَّليبيِّ**) على أساسٍ من الحِجاج المنهاجي؛ من حيث كان الرجل يبني استنتاجاته إمَّا على أوهام، وإمَّا على أغلاط، وإمَّا على مغالطات. وفي أحسن أحواله يبنيها على ما يحتمل غير وُجهةٍ واحدةٍ، ممَّا لا يُبقي لافتراضاته جدارتها بأن تُعَدَّ الاحتمال الوحيد. ليس يعني الدارسَ نفيُ تاريخٍ مزعومٍ **لبني إسرائيل في الجزيرة**، بل يعنيه المنهاج المتَّبع لإثبات ذٰلك. فأَنْ يأتي باحثٌ لنقض ما تواتر تاريخيًّا، ثمَّ لا يُزلِف بين يدَي دعواه سِوى عرضٍ شاعريٍّ، ينهض على أصداء الحروف والأسماء، فذاك هو الإفلاس المبين. وهي هاويةٌ من الضَّعف ما انفكَّ المؤلِّف نفسه قلقًا حيالها، غير أنه كان يُلقي هواجس قلقه على احتمالات مستقبليَّة سوف تُثبِت مقولاته آثاريًّا. لكأنَّه كان يبحث تاريخ قبيلةٍ في الصحراء، لا تاريخ ممالك ومُدن وحضارات دِينيَّة، لم تستطع الصحراء ابتلاع ما هو أقلُّ منها شأوًا.

من مزاعم الرجل أنه جاءنا ليقول عن (**عَبيد سُلَيمان**):

والمنجِّمين، وإنْ كَذَبوا وكَذَبوا. و(بي. تي. **بارنوم** P. T. Barnum، -١٨٩١) هو الاستعراضيُّ الأميركيُّ الشهير، صاحب مقولة: «**لدينا شيءٌ ما يناسب كلَّ واحدٍ من الجمهور**».

> إنَّ «**بني عبدي شلمه، أي بنو عبدي (م) شلمه، قبيلة تعود أصولها إلى ما هو اليوم قرية آل عبدان (عبدن) في ناحية فيفا في منطقة جيزان، وهٰذه القرية معرفة توراتيًّا بالنسبة إلى قرية من الناحية ذاتها اسمها (آل سلمان يحيى) واسم سلمان أو سُلَيمان تعريب للاسم التوراتي «شلمه»، وقد عُرِّفت آل عبدان هٰذه بأنها «عبدان سلمان» لتمييزها عن موقع من ناحية بني الغازي من منطقة جيزان اسمه أيضًا عبدان. وهٰذه كانت مواطن هٰذه القبيلة في مختلف المناطق:...**».[1]

ثمَّ أورد أماكن في (**نجران**)، و(**بلَّسمر**)، و(**القُنفذة**)، و(**الطائف**)، و(**قنا والبحر**)، وغيرها.

ولك أن تسأل: أ لم يقل: إنَّ هٰؤلاء (**بني عبدان**) «**قبيلة تعود أصولها إلى ما هو اليوم قرية آل عبدان (عبدن) في ناحية فيفا**»؟! فكيف صارت مواطنهم في (**نجران**)، و(**بلَّسمر**)، و(**القُنفذة**)، و(**الطائف**)، و(**قنا والبحر**)؟!

ثمَّ أين هناك في جبال (**فَيْفاء**) مكانٌ اسمه (**قرية آل عبدان**)، أو (**عبدن**)؟!

ليس هناك مكان بهٰذا الاسم الذي زعمه (**الصَّليبي**). إنَّما هناك: فخذ قبيلة اسمه (**آل عبدان**)، وآخَر اسمه (**آل سلمان بن يحيى**)، من قبيلة (**آل سلمان**) بـ(**فَيْفاء**)، وشيخها (**يحيى بن عيدان السلماني**). والفخذان، بقبيلتهما، من متأخِّري البَشر جِدًّا، لا يعودان إلى ثلاثة آلاف سنة، ولا حتى إلى ألفٍ من السِّنين.

وهو كما ترى يقول: «**في ناحية فيفا**»! لكيلا تدري أيَّة ناحيةٍ؛ لأنه نفسه لا يدري.

---

[1] الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٦٥.

إنَّ قبيلة (**آل سلمان**) التي ينتمي إليها هٰذان الفخذان- اللذان جعلهما (**الصَّليبيُّ**) قريتَين من عهد (**الملك سُلَيمان**)- إنَّما هي إحدى قبائل (**آل شريف**)، من (**آل المُغامر**)، من (**آل عُبَيْد بن أحمد**). وبذا فإنَّ جَدَّ جَدِّ جَدِّ جَدِّ هٰذين الفخذين، أي (**عُبَيْد بن أحمد**)، لا يرقَى وجوده إلَّا إلى نحو ألفٍ من السنين. فكيف تَصَوَّرَ وجود أحفاد أحفاده، وقيام تسميات عشائرهم ومَواطنهم، منذ عهد (**سُلَيمان بن داوود**)؟!

أمَّا استعمال اسم سلمان، وسُلَيمان، وسالم، وسلامة، فحدِّث ولا حرج عن انتشاره في جبال (**فَيْفاء**). وكذا إبراهيم، ومُوسَى، وعيسى، ويحيَى، وداوود، وجميع أسماء أنبياء (**بني إسرائيل**) تقريبًا. أم لعلَّه سيستدلُّ لنا بذٰلك أيضًا على تاريخٍ إسرائيليٍّ عريقٍ هناك، بناءً على وجود أسماء الناس تلك؟! هو لا يتورَّع عن افتراض أيِّ شيء، هٰكذا بلا دليل، ومهما كلَّف الأمر، في جرأة عِلْميَّة تكاد لا تحدُّها حدود.

لقد كان منهاج (**الصَّليبيِّ**) سهلًا جدًّا، كما رأينا، فما عليه إلَّا أن يُفتِّش عن الاسم التوراتي في حروف الأسماء في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، بصورةٍ أو بأخرى. حتى إذا لم يوفَّق، لَفَّق؛ كأنْ يقول إن (**صَبُويِيم**)- تثنية «**صبي**» بالعِبريَّة، أي ظبي- هي: (**صَبْيا**) و(**الظَّبية**)[1] معًا، في منطقة (**جازان**)![2] مع أن الإشارة في «**التوراة**» إلى (مملكةٍ واحدة)، في (مكانٍ واحد)، اسمها **صَبُويِيم**، لا إلى مكانَين في موضعَين مختلفَين. لٰكن ما لا يُدرَك في مكان، لا يُترَك في مكانَين!

---

[1] تقع (**الظَّبية**) جَنوب (صَبْيا).

[2] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٤٤.

أمَّا اسم (**شارون**)، فقال هو إشارةٌ إلى وادٍ بناحية (**العبادل**) اسمه (**شرَّانة**)، بلا شكٍّ لديه ولا تردُّد، «ولا بُدَّ»، كما يكرِّر هٰذه العبارة في كُتبه![1] وعلى هٰذا فقِس بقية الأوهام والمزاعم! حيث تصبح الإشارات قابلةً للتأويل بلا حدود، وللاحتمالات بلا قيود، لا لغويَّة ولا منطقيَّة ولا تاريخيَّة، فالمهمُّ وجود حرفَين أو ثلاثة، وكأنه يستقرئ طلاسم سَحَرَةٍ، أو رموز مشعوذين.

وهو، قطعًا، لا يعرف الأماكن التي يتحدَّث عنها. نقطع بهٰذا في (**فَيْفاء**) على الأقل، وعلى أبناء المناطق الأخرى مراجعة تحليلاته، لقبولها أو دحضها. وهو ما لا أعلم أن أحدًا قد فعله على النحو الذي يجدر به. حتى إن ما كتبه (**حَمَد الجاسر**) إبَّان صدور الكتاب الأوَّل من كُتب (**الصَّليبيِّ**) إنَّما جاء، كما قال، بضغوطٍ من آخَرين، وبإلحاحٍ منهم، وهو زاهدٌ في الأمر، مستسخفٌ له، وغير مطَّلع على كتاب **الصَّليبيِّ**، بل على مقتطفاتٍ ممَّا نُشِر عنه في الصحف. فجاء ردُّه ردًّا عامًّا، على أهميَّته في كشف الاختلال المنهاجي في استقراء **الصَّليبي**. و**الصَّليبيُّ** إلى جهله اللافت بالأماكن، لا يعرف تاريخ نشأتها، ولا طبيعتها، وربما لا يعرف التسميات الصحيحة لبعضها. بل يبدو لا يفرِّق بين منطقتَي (**جازان**) و(**عسير**)، فكلتاهما **عسير** عنده غالبًا. كما أن بعض مناطق (**الحِجاز**)، يُدرِجها جميعًا تحت اصطلاح (**عسير الجغرافيَّة**). ربما لمزيدٍ من الإيهام بقرب الشُّقَّة بين مكانٍ في **جازان** وآخَر في **الحِجاز**، كأنْ يذكر مكانًا في (**هَرُوْب**) ويُلحِقه بآخَر في (**الطائف**)، أو (**رابغ**)، أو (**القُنفذة**).

---

[1] انظر: م.ن، ٢٨٤.

٤- عسير/ سعير، وشهادة التراث العَرَبي:

(عسير) هي جبل «**سعير**» التوراتي، حسب زعم **(الصَّليبي)!** وهو بهٰذا يُلغي العَرَبيَّة في تلك البلاد، وتاريخ دلالاتها، وأصول اشتقاقاتها، لصالح العِبريَّة، من أجل توطينها في عسير قسرًا. كأن **عسيرًا** لم يقطنها عَرَب، ولم يسمِّها عَرَب. وبذا فإنَّه لا يكتفي بتلفيق الأسماء التوراتيَّة، بل يحاول العبث بالعَرَبيَّة نفسها كي تُصبِح عِبريَّة، فتستقيم له دعاواه. فأنت لا تجد كلمة «**عسير**» في «**الكتاب المقدَّس**»، بل «**سعير**».[1] ولذا يحرِّف «**عسيرًا**» إلى «**سعير**»؛ لأنها لو بقيت «**عسيرًا**»، كما هي، لكانت عَرَبيَّة، ولكان معناها واضحًا، وصفًا

---

[1] **(سعير)**: بلدةٌ فِلسطينيَّةٌ غَرب **(البحر الميت)**، أبرز الأعلام المكانيَّة شَمالها **(القُدس)** وجَنوبها **(الخَليل)**. وكانت بلاد **(أَدُوم)** تُسمَّى **(أرض سعير)**، نِسبةً إلى **(سعير الحُورِي)**. وتقع **أَدُوم** بين **البحر الميت** و**(خليج العقبة)**. (انظر: **سِفر التكوين، ٣٦: ٢٠**). وإنَّما نعثر على لفظة «**عسير**» في بعض نُسَخ «**سِفر طوبيا**»، وهو من الأسفار التي تُسمَّى «**الأسفار القانونيَّة**» المحذوفة من «**الكتاب المقدَّس**»، ولا يعترف بها **(البروتستانت)** على أنها من الكتاب. ففي الإصحاح الأوَّل من ذٰلك السِّفر قد ترد عبارة: «**نفتالي التي في الجليل الأعلى فوق عسير**». في حين نقرأ في النُّسخ السائدة من هٰذا السِّفر- تعريفًا بـ**(طوبيت/ طوبيا)**- اسم **(نحشون)** بدل **(عسير)**: «**من سبط نفتاليم، ومدينته فوق الجليل، فوق نحشون**». (كامل، مراد؛ يسى عبدالمسيح، **الكتاب المقدَّس: الأسفار القانونيَّة التي حذفها البروتستانت**، سِفر طوبيت، ١: ١). وتقع **(نحشون)** شَمال غَرب مدينة **(القُدْس)**. أمَّا **(الجليل الأعلى)**: فيقع شَمال **(فِلسطين)**، يحدُّه شَمالًا **(لُبنان)**، وجَنوبًا **(الجليل الأسفل)**. ويتَّضح من هٰذا، إذن، أن كلمة «**عسير**» في تلك النُّسخ من «**طوبيا**» تصحيف «**سعير**»؛ لأن مدينة **طوبيا**، سواء أ قيل: إنها «**في الجليل الأعلى**»، أم قيل: إنها «**فوق الجليل**»، صحَّ بذٰلك القولُ: إنها «**فوق سعير**»، والقولُ: إنها «**فوق نحشون**»، بحسب ما عرفنا آنفًا من موقع هٰذين المكانين. وقد تكون الكلمةُ تصحيف «**حاصور**»، كما جاء الاسم في بعض نُسخ هٰذا السِّفر. و**حاصور**: العاصمة الشَّماليَّة لمملكة **(الكنعانيِّين)**، شَمال **(بُحيرة طبريَّة)**. ويُعتقد أن هٰذا المكان ما يُعرف اليومَ بـ**(تل قدح الغول)**، أو **(تل وقاص)**. ويَصِحُّ في **حاصور** ما قيل عن المكانَين السابقَين. (انظر: **الموسوعة الفِلسطينيَّة**، على «الإنترنت»: https://www.palestinapedia.net/تل-القدح).

للمكان بأنه وَعِرٌ عسير، على السالكين غير يسير. وهٰذا عسيرٌ قبوله على **الصَّليبيِّ** أيضًا؛ لأن الإقرار بعُروبة المكان، وعُروبة أهله، وعُروبة لغته، وتسمياته وصفاته، لا يتساوق ونسبته إلى (**بني إسرائيل**) ولا إلى لغتهم وتاريخهم وكتابهم. وهٰذا هو ما فعله في التعامل مع معنى «**السَّراة**» كذٰلك، ليحرِّف معناها الاشتقاقيَّ العَرَبيَّ إلى «**إسرائيل**» تارةً، وإلى «**سارة**»، زوج (**إبراهيم**)، تارةً أخرى.

على أن تسمية (**عسير**) بهٰذا الاسم، أو وصفها بهٰذا الوصف، لا نقف عليه في شِعر العَرَب القديم، الجاهليِّ والإسلامي. ما يشير إلى أنه اسمٌ غيرُ جِدٍّ قديمٍ في الاستعمال، حتى في تاريخ العَرَب، فضلًا عن قِدَمه في تاريخ البشريَّة. وأوَّل من أشار إلى **عسير**، بهٰذا الاسم، من المراجع التي بين أيدينا: (**الهمداني**، -٣٤٥هـ تقريبًا= ٩٥٦م) في كتابه «**صِفَة جزيرة العَرَب**». فتلك المزاعم الصَّليبيَّة حول **عسير** مجازفةٌ تاريخيَّةٌ إلى المجازفة اللغويَّة في الادِّعاء بعِبرانيَّة اسمها.

وهٰكذا، إنْ لم تُسعِفه الأسماء العَرَبيَّة والكلمات الشبيهة بمفردات «**التوراة**»- من أجل مشروعه في نقل (**بني إسرائيل**) وتاريخهم إلى (**الحِجاز**) وجَنوب غَرب **الجزيرة**- فلتُعَبْرَن العَرَبيَّة نفسها، وليُقَل إنها في الأصل مَسْخٌ من اللغة العِبريَّة. ومثل هٰذا يفعل حينما لا تستقيم خريطته المفترضة مع الروايات التوراتيَّة؛ فما لا يتماشَى مع خريطته الجاهزة سَلَفًا من تلك الروايات هو لديه خرافيٌّ زائفٌ، وما تماشَى معها هو القصص الحقُّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

إنَّه منهج مَن لا يبحث عن أسانيد الحقِّ، بل يبحث عن أسانيد ما يريد، مع سبق الإصرار

والترصُّد، ورفض كلِّ ما لا يخدم وجهته التي هو مولِّيها. فإنْ حاججته بنصوص «**التوراة**»، لم يَعتدَّ بها، وإنْ حاججْته باللغة، لم يفقه ما تقول، وإنْ حاججْته بتاريخ المَواطن، لم يحفل بما تقول، وإنْ حاججْته بأخطائه هو، ومعلوماته غير الصحيحة التي يبني عليها أوهامه، لم يهتمَّ، بل طَفِقَ يكرِّرها ويضيف إليها. فما معنى هٰذا، غير توسُّل شكليَّات البحث العامَّة لغايةٍ مبيَّتة، هي فرض أفكارٍ مُرادةٍ قبل البحث، الذي ليس بسِوَى وسيلةٍ إلى غايةٍ مبتغاة؟ ولذا فإنك إذا سَبرتَ عمله، لا تجد له على هٰذا برهانًا ولا على ذاك، وإنَّما هو الظنُّ، والهوَى، أو المكابرة، بعد أن أصبحت افتراضاته عقيدةً، لا تراجُع عنها، مهما تصادمت معلوماتيًّا أو تاريخيًّا أو لغويًّا. وعندئذٍ لن يبقَى أيُّ ادِّعاءٍ عسيرًا، ولا أيُّ زعم يقتضي سَراةَ إثبات. فما لا يُدرَك بالتلفيق، لا يُترَك بالتزوير! وأيُّ حِجاج مع مَن بلغ نهجه في التعاطي مع الحقائق والتاريخ واللغة إلى هٰذه الدَّرك؟! انظر إليه ماذا يقول في أحد كتبه- فيما يُوهِم بأنه دليلٌ على تاريخ (**بني إسرائيل**) في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، وإنَّما هو دليلٌ على إفلاسه هو أَيَّما إفلاس-:

> «**وأنا أقول إن هٰذا الشعب [يعني شعب إسرائيل] عاش تاريخه في غرب الجزيرة العَرَبية، وليس في فِلسطين، أوَّلًا، لعدم وجود دليل حقيقي من أي نوع على أن موطنه كان في الواقع في فِلسطين، ولو كان موطنه في فِلسطين لكان خلَّف هناك من بعده على سطح الأرض أوضح الآثار وأبقاها.**»[1]

لٰكنه في المقابل لا يسأل نفسه عن وجود دليلٍ حقيقيٍّ من أيِّ نوعٍ على أن مَوطن

---

[1] الصَّليبي، حروب داود، ١٩.

هٰذا الشَّعب كان في غَرب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ ولو كان مَوطنه في غَرب **الجزيرة العَرَبيَّة** لكان خلَّف هناك من بعده على سطح الأرض أوضح الآثار وأبقاها**!** ثمَّ أردفَ: «**وثانيًا، لأن هناك الدليل الكافي– سواء من ناحية أسماء الأماكن، أو من ناحية شهادة التراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه– على أن موطن هٰذا الشعب كان في جنوب الحِجاز، وما يليها من بلاد عسير حتى اليَمَن.**» هٰذا هو الدليل الكافي**!** فأيُّ دليلٍ في دليله، فضلًا عن أنْ يكون كافيًا بأيِّ نِسبةٍ من الكفاية لها احترامها العِلْمي ومصداقيَّتها التاريخيَّة. أمَّا أسماء الأماكن، فقد رأينا، وسنرى، أنَّه إنَّما يبني على أوهامٍ من الكلمات، وأنَّه يجهل الأماكن التي يَنسب إليها ما يَنسب، فيهرف بما لا يعرف. فهٰذا دليلٌ ساقطٌ بما فيه الكفاية. غير أنَّه، وهو يُدرِك الضعف الذريع في استناده إلى هٰذا الدليل، يشفعه بإيهام القارئ بأن هناك «**شهادةً للتراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه**» على مَواطن (**بني إسرائيل**) في جَنوب **الجزيرة العَرَبيَّة** وغَربها. والقارئ حين يقرأ هٰذا الزعم يتحفَّز، متوقِّعًا أنْ يسرد عليه المؤلِّف ما ورد في كتبٍ تراثيَّةٍ حول ذٰلك، أو في أخبارٍ تاريخيَّة، أو في شِعرٍ أو في نثر. حتى إذا أفرغ الرجل جعبته، لم يجد من ذٰلك لديه شَرْوَى نقير.

تُرَى ما «**شهادة التراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه**»؟ قال:

«**وقد أرشدني مؤخَّرًا صديقي الباحث فرج الله صالح ذيب**[1]

---

[1] باحثٌ لبناني. له كتاب عنوانه «**اليَمَن هي الأصل: الجُذور العَرَبيَّة للأسماء**»، (بيروت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨). زامنَ إصدارُه كُتبَ (**الصَّليبي**)، باستثناء «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» الذي ←

[وكثيرًا ما يرشده آخرون، مكرِّرًا الإخبار بذٰلك في أعماله، ما يؤكِّد أنه ظلَّ منشغلًا بمعجم الأسماء لا بالبحث التاريخي، كما ينبغي للبحث أن يكون، لٰكن الآخَرين لا يُقصِّرون في إرشاده!] **إلى ما يقوله... الهمداني، صاحب «كتاب الإكليل»... بهٰذا الشأن، نقلًا عن قدامى رواة الأخبار من أهل اليمن. ومن ذٰلك خبر هروب داود في وقت من الأوقات، ودخوله إلى الغار في جبل حراء، خارج مكَّة.**»[1]

وهنا يوهم القارئ بأن هناك أخبارًا عن أهل (اليَمَن) تدعم ما ذهب إليه، ومنها هٰذا الخبر، وأنها تشهد له بأن مَواطن (**بني إسرائيل**) كانت في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وغَربها. وهٰذا إفكٌ عظيم. فإذا رجعتَ إلى «**الإكليل**»، وجدتَ هٰذا

كان سابقًا في نشره. ولا يُخفِي الرجل إعجابه بكتاب **الصَّليبي**، غير أن أطروحته هٰذه مختلفة. فهو إنَّما يسعَى إلى إثبات أنَّ (**اللبنانيِّين**) ينحدرون من هِجرات يَمَنيَّة موغلة في القِدَم، مستدِلًّا باللغة وأسماء المواضع، التي يذهب إلى أن أصولها ما زالت في (**اليَمَن**). لٰكن متى كانت تلك الهِجرات؟ ظلَّ يشير إلى قِدَم ذٰلك، وأنه قد يرقَى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وأن (**الفينيقيِّين**) ينحدرون من أصول عَرَبيَّة جَنوبيَّة. وقد أعدَّ معجمًا بالأسماء الشاميَّة التي انتقلت عن أسماء يمانيَّة. ولا نِزاع مع المؤلِّف في ذاك إجمالًا، غير أنه، بالإسراف في التماس الربط بين الأسماء، يقع في الحالة نفسها من الاندفاع في الافتراض بلا دليل. ولا ريب أنَّ قِدَم العَرَبيَّة وسعة جذورها وموسوعيَّة معجمها كثيرًا ما يتيح أن تظهر أوجهُ شَبَهٍ بين مفردات شتَّى في لغاتٍ أخرى ومفرداتٍ عَرَبيَّة، وإنْ لم تكن ثمَّة من صلةٍ تاريخيَّةٍ أو لغويَّةٍ بالضرورة. وهو ما يستدعي التحفُّظ في **هٰذا** المخاض، ما لم يقُم دليلٌ يُعتَدُّ به. على أن كتاب (**فرج الله**) يبدو متعارِضًا تمامًا مع مقولات **الصَّليبي**؛ من حيث هو ينتهي إلى قِدَم وجود الأسماء- الوارد بعضها في «**التوراة**»- في بلاد (**الشَّام**)، وإنْ كانت ذات جذور لغويَّة عتيقة حملتها معها الهِجرات العَرَبيَّة إلى هناك. ثمَّ أصدر (٢٠١٣، ط١، رياض الريِّس) كتابًا بعنوان «**اليَمَن وأنبياء التوراة: هل جاء المسيح من صنعاء؟**»، يسبح في الفَلَك «الصَّليبي» نفسه، غير أنه يتوغَّل جَنوبًا إلى (**اليَمَن**)، وَفق الحدود السياسيَّة المعروفة اليوم للدَّولة اليَمَنيَّة.

[1] الصَّليبي، م.ن.

الشاهد النكتة «**من التراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه**»، وقرأتَ أن صاحب «**الإكليل**» في «**باب القبوريَّات**» يقول:

> «**هٰذا ما تناهَى إلينا من الأخبار القُبوريَّة المشابهة لقبور (حِمْيَر) وهي لغيرهم. وروَى (ابن لَهيعة) قال: لَمَّا أصاب (داود، عليه السلام)، الخطيئة، أعمل الاختلافَ إلى غِيران العُبَّاد، حتى وقعَ على (حِراء)، جبل العُبَّاد، فأُوحي إليه أن يدخل إلى غارٍ بالقرب منه، فهبط إليه داود، عليه السلام، فإذا فيه ميت مسجًّى، وإذا عند رأسه صفيحة من نحاسٍ مكتوبٍ فيها: أنا ذو شلَّم المَلِك، ملكتُ ألف سنة، وافتتحتُ، ألف مدينة، ونكحتُ ألفَ عاتق، ثمَّ صِرْتُ إلى الأرض، فِراشي التراب، ووسادي الحَجَر، وجيراني الدود. فمَن رآني، فلا يغترّ بالدُّنيا بَعدي.**»[1]

هٰذه هي الشهادة «**من التراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه**»، التي توكَّأَ عليها (**الصَّليبيُّ**) وهَشَّ بها على القُرَّاء! فأيُّ شهادةٍ في حكايةٍ خرافيَّة كهٰذه؟ وما أكثر أمثالها. لدينا في جبال (**فَيْفاء**)، مثلًا، صخرةٌ يسمُّونها: «**ناقة صالح**»، ووَفْقَ منهاج **الصَّليبيِّ** يمكن أن يستدلَّ بهٰذا الاسم، وبحكاية العامَّة هناك، على أن الصخرة تلك هي ناقة (**صالح**) مُسِخت صخرةً، وأن **صالحًا** وقومه وناقته كانوا في حَقْو جبال **فَيْفاء**، لا في (**الحِجْر**) من (**وادي القُرَى**). ثمَّ مَن ذا يُثبِت أن (**حِراء**) في الخبر هو غارُ **حِراء بمكَّة**، أصلًا؟ وأكثر من هٰذا أن صاحب «**الإكليل**» قد عقَّب على الخبر بما ينقض استدلال **الصَّليبي**. لذٰلك لم يشأ **الصَّليبيُّ** إبراز ذٰلك التعقيب؛ لأنه يُضعِف ما أعلنه من شهادة «**التراث العَرَبي**،

---

[1] الهمداني، **الإكليل**، ٨: ١٦٩.

وخصوصًا اليماني منه» لما ذهب إليه. فبماذا عقَّب صاحب «**الإكليل**»؟ قال:

> **«وهٰذا المَلِك لم يشتهر خبره عند العلماء، ويُروَى أنَّه يريد في خبره بُعد داود، عليه السلام. قال الهمداني: إني لا أرى [في][1] هٰذه الأشياء المستنكرة في الزُّبُر القبوريَّة، إنَّما يكون من الذين يكتبونها، فيزيدون في الشيء ما ليس فيه، ليعظُم ذٰلك عند مَن بَعدهم، فيزهدوا في الدنيا ويعلموا أنهم دون من فَرَطَهم.»**

ثمَّ أضاف: «**شَلَّم هي: (إيلياء)، وقد تعرِّبها العَرَب، فتقول سَلِم، قال الأعشى**[2]:

وقد طُفْتُ للمالِ آفاقَهُ عُمانَ[3] فحِمْصَ فأُوْرِيْ سَلِمْ

وقال العِبرانيُّون: وهي يورَشَلِم.»[4] إذن هٰذه هي شهادة التراث العَرَبي التي لم يُرِد إبرازها (**الصَّليبيُّ**)، بل لوَّح بنقيضها، وهي: أن تلك مجرَّد حكاية خرافيَّة، ساقها (**الهمداني**) مع خرافات قُبوريَّة أخرى، تُوْرَد على سبيل العِظَة والعِبرة والتزهيد في الدُّنيا، وتهويل أمر السَّلَف مقارنةً بالخَلَف، ومع ذٰلك فإن ديارهم بمن فيها قد:

أَمْسَتْ خَلاءً وأَمْسَى أَهلُها احتَمَلوا أَخْنَى عَلَيها الذي أَخْنَى على لُبَدِ

---

[1] لعلَّ حرف الجرِّ هنا مقحَم.

[2] البيت في: **ديوان الأعشى**، ١٤/ ٥٦.
روايته في الديوان: «**فأُوْرِيْشَلِمْ**».

[3] في (**الإكليل**): «**عمَّان**»، (بتشديد الميم)، وبه ينكسر الوزن.

[4] انظر: الهمداني، **الإكليل**، ٨: ١٦٩- ١٧٠.

كما قال (**النابغة الذُّبياني**)[1]. ولم تَرِد تلك الحكاية عن (**المَلِك داوود**) بوصفها خبرًا تاريخيًّا ذا قيمة، أو يُستدلُّ بها على شيءٍ من حقائق التاريخ. ثمَّ إن (**شَلَّم**)، كما شهِد (**الهمداني**) أيضًا، هي: (**إيلياء**)، في (**فِلسطين**)، وهي التي يدعوها **العِبرانيُّون**: «**يورَشَلِم**»- لا (**آل شريم!**)، في (**النماص**)، كما سنرى ضِمن مزاعم (**الصَّليبي**) اللاحقة.

٥- الانتقائيَّة والاجتزاء:

إنَّ استشهاد (**الصَّليبيِّ**) بـ(**الهمدانيِّ**) يثير التساؤل:

هل رجع إلى كتاب «**الإكليل**»، أم اكتفى بما أرشده إليه صديقه الباحث (**فرج الله صالح ذيب**)؟!

فإنْ كان رَجَعَ، فلقد عمَّى، تارةً، على ما ينسف زعمه: من «**شهادةٍ للتراث العَرَبي، وخصوصًا اليماني منه**» لقيام ممالك (**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، وأخفَى من ذٰلك ما أخفَى، تارةً أخرى. وإذا لم يكن رَجَعَ إلى كتاب «**الإكليل**»، فتلك قاصمة الظهر التاريخي. فصاحب «**الإكليل**» يسوق قصيدتَين أيضًا، الأُولَى في رثاء (**المَلِك سُلَيمان، -٩٢٥ق.م**)، والأخرى في رثاء (**بِلقيس**). جاءت الأُولى منسوبةً إلى (**القَلَمَّس**)، أفعى (**نجران**)، قال: «**وكان داعيًا من دعاة سُلَيمان بـ(نجران)، آمنَ وحسُنَ إيمانه**». وفي مرثيَّته يسرد القِصَّة القرآنيَّة حول مُلك

---

[1] ديوانه، ١٦/ ٦.

(**سُلَيمان**).[١] والقصيدة الأخرى لـ(**النُّعمان بن الأسود الحِمْيَري**) في رثاء (**بِلقيس بنت الهداهد بن شرحبيل**). وذكرَ أنَّ: «**قبرها بـ(مأرب)، قال أبو محمَّد لم تلبث بعد أن قُتِل ولدها (رِحُبُعَم بن سُلَيمان) بـ(أنطاكية) إلَّا سنة واحدة ثمَّ ماتت.**» وفي هٰذه القصيدة كذٰلك تَرِد القِصَّة الواردة في «**القرآن المجيد**» بتفاصيلها. ومنها حكاية (**الهُدهد**) المبعوث إلى **بِلقيس بنت الهداهد**[٢]:

هُدْهُدٌ مِنْ طيورِ أرضِ شآمٍ ... فرمَى في الهوا على العَرْشِ نُوْرا[٣]

ومع أن القصيدتَين كلتيهما من منحول الشِّعر بَداهةً، كما يتَّضح من لغتهما

---

[١] انظر: الهمداني، **الإكليل**، ٨: ٢٠٢.
وإنْ كان (**القَلَمَّس**) كما وُصِف في «**الإكليل**»، فهو معاصرٌ لـ(**سُلَيمان**)؛ أي أنه عاش في القرن العاشر قبل الميلاد. أمَّا مرثيَّته، فنصٌّ قرآنيٌّ خالص. ومِن ثَمَّ فهي من منحول الشِّعر الموضوع في العصر الإسلامي. يدلُّ على ذٰلك- إلى لغة القصيدة وأسلوبها؛ وما كانت عَرَبيَّة تلك الأزمان بعَرَبيَّتنا- إيرادُه في رثاء **سُلَيمان** أحداثًا وقعتْ بعد عصر **سُلَيمان**، ونعني تحديدًا قِصَّة (**ذي القرنَين**)، أو «**لوقرانائيم**»، كما في «**التوراة**»، وهو، على بعض الأقوال، (**قورش الأكبر**)، المَلِك الفارسي، الذي سأل (**اليهودُ**) (**محمَّدًا**) عنه، امتحانًا لمعرفته بخبره. والفرضيَّات شتَّى حول **ذي القرنَين**، منها أنه (**الإسكندر المقدوني**). (انظر مثلًا: **موسوعة «وكيبيديا»**، على «الإنترنت»: مادة «ذو القرنين»).

[٢] من الطريف هنا أن اسم أبيها: (**هُداهِد**). وهو من أسماء (**الهُدْهُد**)، الذي وردَ أنه دَلَّ (**سُلَيمان**) على مملكتها. ويرَى بعضٌ أن «**بِلقيس**» وصفٌ لا اسم، وهو: «**بِلَّجِش**»، بالعِبْريَّة، أي العشيقة، وَصْمًا لها لعلاقتها **بسُلَيمان**. (انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ١١١). على أن (**بِلقيس بنت الهُداهد/ الهدهاد**) اسم مَلِكة متأخِّرة جدًّا عن عهد **سُلَيمان**، من التبابعة الذين حكموا مملكة (**سَبَأ ورَيدان وحضرموت ويمنات**، ٢٧٥- ٥٣٣م). وقد حكمتْ **بِلقيسُ** هٰذه في الفترة (٣٣٠- ٣٤٥م). (انظر: شرف الدِّين، **اليَمَن عبر التاريخ**، ٩٥).

[٣] انظر: **الإكليل**، ٨: ٢٠٤- ٢٠٦.
في القصيدة ركاكة لغويَّة ونحويَّة. ولم يضبطها (**نبيه أمين فارس**)، ولم ينبِّه إلى ما فيها. في الأصل: «**نور**»، والصواب، نحويًّا: «**نورًا**»، ولا تستقيم مع سائر القوافي المرفوعة إلَّا بالتقييد. غير أن التقييد يؤدِّي، عَروضيًّا، إلى عِلَّة (القَصْر)، وهي عِلَّة لا تسوغ في (البحر الخفيف) التام.

وأسلوبهما، إلَّا أنَّ فيهما ما يناقض استشهاد (**الصَّليبي**) الانتقائي، والزاعم «**بالتراث العَرَبي وخصوصًا اليماني منه**» الشاهد على ما ابتدعه من دعاوَى. فجَدَلًا، نقول: إذا كان يستشهد بالحكاية الأُولى عن (**داوود**)، على ما فيها من انتفاء الشاهد كما رأينا، فلماذا لا يستشهد بالأخرى عن (**سُلَيمان**) و(**بِلقيس**)، المشيرة إلى (**أنطاكية**) وإلى (**الشَّام**)، وأن مملكة (**سُلَيمان**) كانت في تلك الجهات، لا في (**جزيرة العَرَب**)؟

أجل، إنَّ التُّراث العَرَبيَّ- الذي أراد (**الصَّليبيُّ**) أن يستشهد به على أنَّ (**بني إسرائيل**) كان تاريخهم في (**جزيرة العَرَب**) ففشل في ذٰلك- إنَّما يقول نقيض ادِّعائه؛ فهو، أوَّلًا، لا يورِد ذِكرًا لخَبَرٍ أو لتاريخٍ **لبني إسرائيل** وممالكهم **في جزيرة العَرَب** البتَّة، وثانيًا، هو يُورِد إشارات إلى أن ممالكهم منذ (**سُلَيمان**) كانت خارج **الجزيرة العَرَبيَّة**، وفي بلاد (**الشَّام**) تحديدًا. وذٰلك ما حفظتْه الذاكرة العَرَبيَّة وسجَّلَته، كما في قول (**النابغة الذبياني، -٦٠٤م**)[١] من معلَّقته:

إِلَّا سُلَيمـانُ إِذ قالَ الإِلٰـهُ لَـهُ ... قُمْ في البَرِيَّـةِ فَاحدُدْها عَنِ الفَنَدِ

وخَيِّسِ الجِنَّ إِنِّي قَد أَذِنتُ لَهُم ... يَبْنُـوْنَ (تَدْمُرَ) بِالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

إنها ذاكرةٌ تاريخيَّةٌ وأدبيَّةٌ لا أثر فيها لدعاوَى **الصَّليبي**.[٢]

ولئن لم نُسلِّم بما ذهب إليه الباحث الفرنسي (**جان لوي برنار**)، مثلًا، حول شخصيَّة (**سُلَيمان**) الأُسطوريَّة، قائلًا إنه كان رجلًا آشوريًّا، ولم يكن يهوديًّا أصلًا-

---

[١] ٢٠- ٢١/ ٢٢- ٢٣.

[٢] بقطع النظر عمَّا إذا كانت (**تَدْمُر**) من بناء (**سُلَيمان**) أم لم تكن، فما يعنينا هنا أن الذاكرة العَرَبيَّة لم تحفظ لنا أن **سُلَيمان** كان ذا مملكة في (**جزيرة العَرَب**)، بل في (**بلاد الشَّام**). وهٰذا موضع الاستشهاد.

بل كان نائبًا للمَلِك الآشوري، معيَّنًا من الخارج على المحميَّة الفلسطينيَّة، التي تجاذبتْها تبعيَّاتُها للدُّوَل المجاورة، واسمه الحقيقي (**شلمانصر**)، عَبْرَنَه اليهود إلى «**سُلَيمان**»، ثمَّ حاكُوا حوله صورة **سُلَيمان** النمطيَّة الواردة في «**العهد القديم**»[1]- لئن لم نسلِّم بهٰذا كلِّه، بل اعتمدنا على مصادر (**الصَّليبي**) عينها، فإننا سنجدها تؤكِّد، بتراثَيها اليهوديِّ والمسيحيِّ، أن **سُلَيمان** لم يكن تاريخه في (**جزيرة العَرَب**)، بحالٍ من الأحوال، وأن (**بِلقيس**) إنما جاءته من (**اليَمَن**)، الموصوفة بأنها، قياسًا إلى (**الشَّام**)، تقع في «**أقاصي الأرض**»: «**مَلِكَةُ التَّيْمَنِ... أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ...**».[2] ومن هٰذا النصِّ تُفهم جملة إشارات:

١- أُشِيرَ إلى أن المَلِكةَ مَلِكَةُ «**التَّيْمَن**»، أي (**اليَمَن**). ولا معنى لقول هٰذا لو كان (**سُلَيمان**) يعيش في **اليَمَن** أيضًا. وتسمية **اليَمَن** بـ«**التَّيْمَن**» واردة في «**العهد القديم**»، كذٰلك، كما في «**سِفر حزقيال**»[3]: «**وكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ نَحْوَ (التَّيْمَنِ)، وتَكَلَّمْ نَحْوَ الجَنُوبِ»...**». و«**هٰكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: وأَمُدُّ يَدِي عَلَى أَدُومَ، وأَقْطَعُ مِنْهَا الإِنْسَانَ والحَيَوَانَ، وأُصَيِّرُهَا خَرَابًا. مِنَ (التَّيْمَنِ) وإِلَى دَدَانَ يَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ.**»[4] وإذا كانت اليهوديَّة قد انتقلت إلى **اليَمَن** في عصر المَلِك (**سُلَيمان**)، فإنها إنَّما ظهرت على نحوٍ ذي شأنٍ خلال القرن الخامس

---

[1] انظر: سوسة، ٥٠٧- ٥٠٩.

[2] **العهد الجديد**، إنجيل لوقا، ١١: ٣١؛ إنجيل مَتَّى، ١٢: ٤٢.

[3] ٢٠: ٤٥- ٤٦.

[4] م.ن، ٢٥: ١٣.

الميلادي تقريبًا على يد المَلِك الحِمْيَري (**تبان أسعد أبو كرب**)، الذي استقدَم من (**يثرب**) حَبرَين من أحبار يهود، ودعا قومه إلى اعتناق اليهوديَّة، ثمَّ من بعده، في أوائل القرن السادس الميلادي، على يد (**ذي نواس**).[١]

٢- وُصِفت مملكتها في (**اليَمَن**) بأنها «**من أقاصي الأرض**»، لا من جوار (**سُلَيمان**)، وهما يعيشان معًا في **اليَمَن** الطبيعيَّة، كما تُسمَّى قديمًا.[٢] بل لو كان **سُلَيمان** في (**النماص**) وضواحيها، لكان داخلًا هو وأرضه في مملكة **اليَمَن**، ولكانت مَلِكةُ **اليَمَن** مَلِكتَه، وهي من الغفلة بحيث لا تعلم عنه ولا عن مملكته، ولا هو

---

[١] انظر: دروزة، محمَّد عزة، **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**، ٣: ٥٦٦- ٥٦٧.

[٢] مصطلح «**اليَمَن**»- طبيعيًّا، أو جغرافيًّا- كانت تُطلَق على البُلدان الواقعة عن يمين الكعبة المكِّيَّة. وقد ظلَّ يُطلَق هٰذا على تلك البلاد الواسعة «**بلاد اليَمَن**» حتى نهاية العهد العُثماني. (انظر، مثلًا، كتاب: البركاتي، شَرَف عبدالمحسن، **الرِّحلة اليَمانيَّة لشريف مكَّة حسين بن عليّ**). ومن الشواهد الباقية على **هٰذا** الاصطلاح القديم تسمية «**الرُّكْن اليَماني**» في الكعبة. بل لقد كان أهل **اليَمَن** يَعُدُّون (مَكَّة) يمانيَّة، مستشهدين بما يُنسَب إلى الرسول، من قوله: «**هٰذا شَأْمٌ وهٰذا يَمَن**». أو قوله: «**الكعبة يمانيَّة، والرُّكن الأيمن يمانيٌّ، والإيمان يمانيٌّ**». (انظر: ابن المجاور، ٥١، ١٠٠). وتسمية العَرَب للجهات الأربع بأسمائها المعروفة، عمومًا، من يَمَنٍ وشام- أو شَمالٍ- وشَرقٍ وغَربٍ، دالَّة على أن جهة العَرَب الأصليَّة، التي يُرتِّبون عليها تحديد الجهات، كانت الشَّرق، قِبلتهم الشمسيَّة. فأصل «يَمَن»: «يمين»؛ لأنها تلي يمين الكعبة، وأصل «شَمال»: «شِمال»؛ لأنه عن شِمالها، وذٰلك لمراقبتهم الشَّرق دائمًا، وتَوْلِيَة وجوههم شَطْر الشمس. ولذا عُرِف لفظ «**يَمَن**»- أو «**يمنت**» في اليَمنيَّة القديمة- نعتًا لكلِّ جَنوبٍ، كما ظلَّ يُطلَق «الشَّام»- لدينا في جَنوب الجزيرة- على كلِّ شَمال. (وللتفصيل، انظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٨١). ولعلَّ اسم «**يمنت**»، نفسه، أو «**يمنات**»، الذي كان من ممالك التبابعة، الذين حكموا مملكة (**سَبَأ** و**رَيدان** و**حضرموت** و**يمنات**، ٢٧٥- ٥٣٣م)، إنما اشتُقَّ من ذٰلك؛ كأنَّ أصله: «**يَمْنَة**»، أي جهة اليمين. على أنه قد يُطلَق اسم البلاد كاملة على عاصمتها السياسيَّة وقَلْبها، كما نعرف اليوم من إطلاق اسم «**الشَّام**» على (**دمشق**)، أو «**مِصْر**» على (**القاهرة**)، أو «**الجزائر**» على عاصمة (**الجزائر**). أمَّا **اليَمَن** سياسيًّا، فتختلف مساحتها عبر العصور، بحسب نفوذ الدُّوَل القائمة فيها.

يعلم عنها ولا عن مملكتها! وهٰذه مفارقة سورياليَّة حقًّا! أو قُل لو كان **سُلَيمان** مَلِكًا في **النماص** وضواحيها، لكانت مملكة (**سَبَأ**) داخلةً في أرضه وفي مملكته، ولكان مَلِكًا على **اليَمَن**، ودِينُها دِينُه. وإلَّا أيُّ مَلِكٍ عظيم هٰذا الذي لم يكن يعلم ما يدور على بُعد أكيالٍ من مملكته؟! وأيُّ حدودٍ ضيِّقةٍ لمملكة **سُلَيمان** ومملكة **سَبَأ** الملاصقة لها؟! ولو صحَّ ذٰلك، لما كان **سُلَيمان** في حاجةٍ لا إلى الجِنِّ، ولا إلى عفاريتها، ولا حتى إلى هُدهُدٍ، ليأتيه من **سَبَأ** بنبأ يقين، ما دامت **سَبَأ** قابَ قوسَين أو أدنَى منه!

لٰكن لندع هٰذه التفاصيل التي قد لا تكون محلَّ إيمان المؤلِّف بالضرورة. ولنقرأ عليه ما يَرِد في وصف (**السَّبئيِّين**) وأرضهم في «**سِفر يوئيل**»[1]، حيث القول: «**مَاذَا أَنْتُنَّ لِي يَا صُوْرُ وَصَيْدُوْنُ وجَمِيعَ دَائِرَةِ فِلسطين؟ ...أَبِيعُ بَنِيكُمْ وبَنَاتِكُمْ بِيَدِ بَنِي يَهُوذَا لِيَبِيعُوهُمْ لِلسَّبَئِيِّينَ، لأُمَّةٍ بَعِيدَةٍ.**» وهنا يلحظ:

١- وصفَ (**السَّبئيِّين**) بأنهم «**أُمَّة**»، ما يشي باستقلالهم بوصفهم جنسًا وثقافة.

٢- أنهم «**أُمَّةٌ بعيدة**»، وهو ما يُطابق بُعد (**الشَّام**) عن (**اليَمَن**)، لا بُعد (**عسير**) عن مملكة (**سَبَأ**).

ولذٰلك فإن النصوص الواردة في «**التوراة**» و«**الإنجيل**» و«**القرآن**» لا تُؤيِّد الزعمَ بأن المَلِك (**سُلَيمان**) كان يعيش في جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**)، كما لا تؤيِّد

---

(١) ٣: ٤، ٨.

الزعمَ المقابلَ بأن (**بِلقيس**) كانت مَلِكةً شَماليَّةً على جماعة من (**السبئيِّين**) المهاجرين، لا مَلِكة في (**اليَمَن**)؛ بحُجَّة عدم العثور حتى الآن على آثارٍ مؤكَّدةٍ لتلك المَلِكة السبئيَّة في **اليَمَن**.[1] بل تؤيِّد تلك النصوصُ أن **سُلَيمان** كان في (**الشَّام**) ومَلِكة (**سَبَأ**) كانت في **اليَمَن**. ومَن أراد نفي ذٰلك، فلا يستدلَّنَّ بنصوص الكُتب المقدَّسة الثلاثة؛ لأنها ستقف ضِدَّه على طول الخط.

ثمَّ لنسأل متى عرفت (**اليَمَنُ**) اليهوديَّةَ أصلًا؟

من المعروف تاريخيًّا أن (**اليَمَن**)، على امتدادها، قد ظلَّت أرضًا وثنيَّة، تعبد (**الشمس** و**القمر** و**الزُّهْرَة**)، ولم تَعرِف اليهوديَّة، فيما يبدو، قبل القرن السادس قبل الميلاد.[2] أي في تلك الحقبة التي بدأت الهِجرات اليهوديَّة من بلاد **الشَّام** تتَّجه جَنوبًا، نتيجة الظروف التي جعلت تُهدِّد وجود (**اليهود**) هناك. وذٰلك ما كان من علاقة **اليهود** بـ(**الحِجاز**) أيضًا. على حين يزعم (**الصَّليبيُّ**)[3] أن اليهوديَّة نَبْتٌ يمانيٌّ

---

[1] انظر: علي، جواد، ١: ٦٣٦.
وقد يُستدلُّ على هٰذا بما لا دليل فيه، من الآية، في «**سورة النَّمل**»: ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾. والصواب أن الإشارة في الآية إنَّما هي إلى البُعد الزماني، لا المكاني، وإلى (**سُلَيمان**) لا إلى (**الهُدْهُد**)، أي أن **سُلَيمان** مَكَثَ غير طويل، حتى تلقَّى خبر **الهُدْهُد**، كما ذهب إلى هٰذا (**الطبريُّ**) في تفسيره. أو أن **الهُدْهُد** مَكَثَ غير طويل- خوفًا وتردُّدًا- قبل أن يُخبر **سُلَيمان**. وربما قيل إنه مكثَ من **سُلَيمان** على مسافة، غير بعيدٍ، خوفًا منه وتوجُّسًا من وعيده إيَّاه بالعذاب الشديد أو بالذَّبح. ومهما يكن، فلا وجه لتكلُّف مَن تكلَّف الاستدلال بالآية على أنها تُشير إلى قُرب مَلِكَة (**سَبَأ**) من مملكة **سُلَيمان**، فضلًا عن القرائن المذكورة أعلاه، المتضافرة الدلالة على مقصديَّة الإخبار عن شسوع المسافة ما بين المَلِكَين.

[2] انظر: شرف الدِّين، ١٠٠- ١٠١.

[3] انظر مثلًا: **التوراة جاءت من جزيرة العرَب**، ٣١- ٣٣، ٨١، ٨٣، ١٥٨- ١٥٩، والفصل العاشر من كتابه: «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»، بعنوان «نبيٌّ من عُمان»، ص٢٨١- ٣٠٠.

أصيل، بل إن (**بني إسرائيل**) وتاريخهم كانا في جَنوب غَرب **الجزيرة العَرَبيَّة** منذ النبيِّ **إبراهيم**، وأن اليهوديَّة كانت قد طبَّقت آفاق الجزيرة، وهي إنَّما هاجرت بأَخَرَةٍ شَمالًا لا جَنوبًا!

ولا يزال الرجل يأتي مثل ذاك الاجتزاء في النصوص المقتبسة. من ذٰلك قوله في كتابه «**حروب داود**»[1] عن مكانٍ اسمه (**نهر السبت**):

> «**ويؤكِّد ذٰلك [أن هٰذا المكان في الحِجاز] ما ورد في كتاب الرحَّالة الدمشقي المعروف بابن المجاور، الذي زار بلاد الحجاز واليمن في الربع الأول من القرن الثالث عشر للميلاد. وقد قال ابن المجاور في كتابه المسمَّى «تاريخ المستبصر» (ليدن، ١٩٥٤، ص٣٢-٣٤)، متحدِّثًا عن مسألة «نهر السبت»:**
> **«قالت أهل الذمة: إنه في أرض التيه. وحدثني يهودي صائغ بعدن قال: إنَّ نهر السبت في أرض يقال لها صيون، والأصح أنه في الحجاز، ظهر... ووراء هٰذا النهر من اليهود مائه ألف ألف رجل وامرأة وهم يزيدون على العد خارجون عن الحد، والقوم عَرَب يعقدون القاف الألف في لغتهم، وهي جملة القوم أولاد مُوسَى بن عمران** عليه السلام**...».»**

وقد حذفَ من النصِّ ما يتضمَّن خلاف ما يريد. والنصُّ بتمامه هو:

> «قالت أهل الذِّمة: إنه [نهر السبت] في أرض التيه. وحدَّثني يهوديٌّ صائغٌ بعَدَن قال: إنَّ نهر السبت في أرض يقال لها: صيون.

---

[1] ٢٦.

والأصحُّ أنَّه في الحِجاز ظهر، وهو نهر رمل سيَّال يجري من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت لم يقدر الإنسان [أن] يعبره من شِدَّة جريانه في ذٰلك اليوم ويسكن باقي الأسبوع. ووراء هٰذا النهر من اليهود مئة ألف ألف رجل وامرأة، وهم زائدون على العدِّ خارجون عن الحد. والقوم عَرَبٌ يعقدون القافَ الأَلِفَ في لغتهم، وفي جملة القوم أولاد مُوسَى بن عِمران، عليه السلام. ويقال: إنَّما حصلوا [كذا!] هٰؤلاء اليهود في هٰذه الأرض والأعمال إلَّا [كذا!] من غزوة بُخت نصَّر البابِلِيِّ لليهود بأرض الشَّأم وديار مِصْر، والأصحُّ لإظهار الله عز وجل محمَّدًا، صلى الله عليه وسلم؛ فخرجوا هاربين من خَيْبَر ووادي القُرَى وسكنوا هٰذه الأراضي. وإلى الآن إذا تاه بعض الحُجَّاج بطريق مكَّة ووصل إلى القوم، فبعضهم يقتله وآخرون يقبلونه ويردُّونه على أحسنِ حال.»[1]

فـ(**ابن المجاور**)- كما ترى- يتحدَّث عن ذٰلك المكان المسمَّى (**نهر السبت**)، وما أخبره به الصائغُ اليهوديُّ في (**عَدَن**). وواضحٌ من السياق أن كلام ذٰلك الصائغ مقتصرٌ على القول: «**إنَّ نهر السبت في أرضٍ يقال لها (صيون)**»، فقط. أمَّا التصحيح والشرح، فلـ(**ابن المجاور**). حيث أخبر أنه في (**الحِجاز**)، وأن وراءه من اليهود عددًا كبيرًا. غير أن (**الصَّليبي**) أراد أن ينسب هٰذا النصَّ عن (**نهر السبت**) برمَّته إلى الصائغ العَدَني؛ كي يتسنَّى له القول إن هٰذا التاريخ عن وجود اليهود في

[1] ابن المجاور، **صِفة بلاد اليَمَن ومكَّة وبعض الحجاز المسمَّاة: تاريخ المستبصر**، ٣٢- ٣٣.
ما بين قوسَين مربَّعَين من إضافتنا أو تنبيهنا؛ فالنصُّ لا يخلو من اضطراب.

الجزيرة قد عَلِق بالذاكرة اليهوديَّة الشعبيَّة.[1] وهٰذا خلطٌ منه، أغلب الظن أنه مقصود، ليُمرِّر من خلاله ما يدعم مزاعمه. وإلَّا فإنَّ ما علِقَ بذاكرة الصائغ العَدَنيِّ لا يعدو القول إن مكان (**نهر السبت**) يقع في أرض اسمها (**صيون**) في أرض التِّيه. ثمَّ استدرك **ابن المجاور**، مصحِّحًا، بأن المكان في **الحِجاز**، وأخذ يَصِف أحواله في عصره. وهو هنا يتحدَّث عنه في العصر الإسلامي- لا في التاريخ القديم، كما وهم **الصَّليبي** أو أوهم- ذاكرًا أن مَن فيه من **اليهود** أَتوا من (**الشَّام**) إثر الغزو البابلي.

وقد كرَّر (**ابن المجاور**)[2] في موضع آخَر من كتابه الإخبار بأن هٰؤلاء **اليهود** إنما قَدِموا من (**الشَّام**)، في سياق كلامه على بعض الأقوام الذين هاجروا من بلدانهم واستوطنوا بلدانًا أخرى؛ فقال: «**ولَمَّا غزا (بُخت نصَّر) (بني إسرائيل) [في] (الشَّأم) سكنوا** [كذا] **اليهود (نهر السبت)، ممَّا يلي ظهر (الحِجاز)**».[3]

---

[1] انظر: الصَّليبي، **حروب داود**، ٤٢.

[2] انظر: ١٨٨.

[3] في الكتاب «**بني إسرائيل الشَّام**»! ولعلَّ صوابه: «**بني إسرائيل في الشَّام**». على أن (**ابن المجاور**) بالغَ مبالغةً فاحشةً في الزعم أن (**اليهود**) هناك «**مئة ألف ألف**»، أي مئة مليون. ولعلَّه أراد: «**مئة ألف**». ومهما يكن من أمر، فلا بُدَّ لأيِّ باحثٍ أن يتحفَّظ على أخبار **ابن المجاور**، المليئة بالادِّعاءات، والتخليطات، لغةً ومحتوًى؛ إذ يبدو الرجل رحَّالةً أكثر منه عالِـمًا أو مؤرِّخًا ثبتًا. وإذا كان (**الصَّليبي**) سيستشهد في عِلْم التاريخ **بابن المجاور** وأخباره، فلقد ذكر، مثلًا، أن الجنَّ حملت عرش (**بِلقيس**) إلى (**سُلَيمان**) في أرض (**فارس**)! (انظر: ابن المجاور، ١٩٧). أ فهذا مؤرِّخٌ يُستنَد إليه؟! ومن شواهد ذٰلك أن تجده ينسب بعض الأعلام والأحداث إلى (**اليَمَن**) اعتباطًا، مثل أرض (**عنترة بن شداد**)، وحِمَى (**مهلهل بن ربيعة**) و(**كُليب**)، و(**حرب البَسوس**)! (انظر: م.ن، ٥٦، ٦٣- ٦٤، ٩٣).

فانظر كيف حذف (**الصَّليبيُّ**) كلام (**ابن المجاور**) عن أن هٰؤلاء إنما قَدِموا من أرض (**الشَّام**)، بعد غزوهم من قِبَل (**نَبُوخَذْنَصَّر**) في **الشَّام** و(**مِصْر**)، ثمَّ ما رجَّحه **ابن المجاور** من أنهم من يهود (**خَيْبَر**) و(**وادي القُرَى**) الهاربين من (**محمَّد**، ﷺ)؟ لأن **الصَّليبيَّ** لا يريد ذِكر هٰذا، بل الإيهام أنهم أصلًا قادمون من جَنوب غَرب الجزيرة، لا من شَمالها أو شامها، وأن **ابن المجاور** قد شهد له بذاك.

ولم يكتف (**الصَّليبيُّ**) بهٰذا، بل زعم أن (**صيون**) المذكورَ لا في (**أرض التِّيه**)، كما أخبر الصائغُ اليهوديُّ، ولا في (**الحِجاز**)، كما قال (**ابن المجاور**)! لأنه لا يرضَى برواية أو بنصٍّ- وإنْ استشهد به بنفسه- ما لم يوافقه على أن مَواطن (**بني إسرائيل**) في (**عسير**) وما جاورها. ولن يجد روايةً ولا نصًّا يوافقه على ذٰلك. وتلك معضلته! لذا عاود الزعمَ أن (**صيون**) هي: (**قعوة صيان**) في (**رجال ألمع**)، وأن واديًا هناك «لا بُدَّ» أنه (**نهر السبت**)؛ لأن قريةً في الجوار اسمها اليوم (**آل سبتي**).[1] وواضح أن القرية لأُناسٍ يكنون **بآل سبتي**، لا أنها هي بهٰذا الاسم. ولا تنسَ هنا أنه في كتابه الأوَّل «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»[2] كان قد زعمَ أن (**قعوة الصيان**) هي (**جبل صِهْيَوْن**)، وليس بالجبل المعروف بحِصنه شَمال شَرق (**أورشليم/ القُدْس**)، منذ عهد (**المسيح**)![3] فلم يُصِب، لا هنا ولا هناك؛ لأنه يجهل أن (**صيَّان**) اسمُ إنسان، لا اسمُ

---

(١) انظر: م.ن، ٢٦- ٢٧.

(٢) انظر: ١٧٨- ١٨٣.

(٣) انظر: **الكتاب المقدَّس**، العهد الجديد، رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ١١: ٢٦؛ الرسالة إلى العبرانيِّين، ١٢: ٢٢.

مكان، وأن المكان إنما سُمِّي باسمه، أو بعشيرته التي تُعَدُّ فخذًا من قبيلة **رجال ألمع**، وأنه عاش في زمنٍ متأخِّرٍ جِدًّا، وليس قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة، كما حاول **الصَّليبيُّ** أن يوهِم القارئ. غير أن هٰذا دأبه؛ فهو لا يهتمُّ إلَّا بتشابه الحروف بين الأسماء، ثمَّ لا يسأل عمَّا وراء ذٰلك.

٦- التقوُّل والتدليس:

ثمَّ أضاف: «**ويستخلص من كلام ابن المجاور أن الآشوريين اقتلعوا أسباط إسرائيل العشرة من مدن تهامة عسير وقراها...**».[١] ولا ندري من أين استخلص هٰذا من كلام (**ابن المجاور**)؛ فقد ذكرناه آنفًا، ولا علاقة له بمزاعم (**الصَّليبي**)، بل هو يناقضها؟ ولقد أكَّد **ابن المجاور**[٢] في موضعٍ آخر من كتابه أن أولٰئك (**اليهود**)، الذين ذكر أنهم، في العصر الإسلامي، يقطنون المكان المسمَّى (**نهر السبت**)، إنَّما قدِموا إليه من (**الشَّام**)، حيث قال: «**ولمَّا غزا (بُخت نصَّر) (بني إسرائيل)** [في] **(الشَّأم) سكنوا** [كذا] **اليهود** (**نهر السبت**)، **ممَّا يلي ظهر (الحِجاز).**» كما أشار إلى علاقة بني إسرائيل بـ(**مِصْر وادي النِّيْل**)، وإلى أن بحر (**سوف**) الذي غرق فيه فِرعون هو بحر (**القلزم**)، في قوله: «**غرق فِرْعَون في بحر سُوف، وهو القُلْزُم**»[٣].

---

[١] الصَّليبي، حرب داوود، ٢٧.

[٢] ١٨٨.

[٣] ابن المجاور، ٣٤.

ومن هٰذا يتبيَّن أن صاحبنا يجمع في تعامله مع النصوص بين الاجتزاء، والانتقاء، ورفض ما لا يتماشى مع مُراده، ثمَّ ادِّعاء غير الحقيقة. وهٰذا ما فعله بنصِّ (**ابن المجاور**)؛ فاجتزأ منه، منتقيًا ما شاء، ورفَض قوله إنَّ المكان في (**الحِجاز**)، مُصِرًّا على أنه في (**عسير**)، ثم ادَّعى أنه يُستخلص من كلام **ابن المجاور** ما لا يُستخلص منه، بل هو خلاف ما ذكره أصلًا**!**

والحقُّ أنَّ تتبُّع تدليسات (**الصَّليبيِّ**) من خلال الشواهد التي يَستشهد بها مبحثٌ قائمٌ بذاته يطول. وسنكتفي، إلى ما سبق، بمثالٍ أخير. ذهبَ في كتابه «**حروب داود**»[1] إلى القول:

> **«وأخبار سُلَيمان في التقاليد العَرَبيَّة كثيرة و[جميعها] يشير إلى أنه كان ملكًا على منطقة [قريبة جدًّا من اليَمَن]. ومن هٰذه الأخبار ما يضيفه ابن هشام على «كتاب التيجان» لوَهْب بن منبِّه اليماني، حيث يقول (ص١٦٩): «لمَّا مات سُلَيمان بن داود، ﷺ، ولي أمره في الخلق ابنه وهو وصيُّه وخليفته رِحُبُعَم، وهو ابن بلقيس، فولي اليمن» (كذا).»**

ونقف مع اقتباسه هٰذا وقفات:

١- قال «و[جميعها] يشير إلى أنه كان مَلِكًا على منطقة [قريبة جدًّا من **اليَمَن**].» ولم يأت بمثالٍ واحدٍ من تلك التقاليد «الكثيرة»، التي «**جميعها يشير إلى**

---

[1] ١٣٩-١٤٠.

أنه كان مَلِكًا على منطقة قريبة جدًّا من اليَمَن»، ولو بالإحالة على المظانّ دون النصوص.

٢- ليس باللافت أن يقال إن (**سُلَيمان**) غزا (**اليَمَن**)، أو أن يقال بتولّي ابنه بعض **اليَمَن** أو غير **اليَمَن**، في بعض الحقب. وقد جاءت لدَى القائلين بهٰذا قِصَّةُ علاقته **باليَمَن** ومَلِكته (**بِلقيس**). ليس في هٰذا جديد. لٰكنَّ قولَ هٰذا شيءٌ والزعمَ أنه «**كان مَلِكًا على منطقة [قريبة جِدًّا من اليَمَن]**»، شيءٌ آخَر؛ أراد به (**الصَّليبيُّ**) دعم زعمه أن تلك المملكة كانت في (**عسير**)، فلم يوفَّق.

٣- تُثبِت الآثارُ المكتشفة حديثًا- العائدة إلى تلك الفترة التي يُقدَّر أنه عاش فيها (**سُلَيمان**)- توسُّعَ النفوذ المَعيني والسَّبَئي شَمالًا، وصولًا إلى خارج الجزيرة، بل إلى خارج قارة (**آسيا**)، إلى (**أفريقيا**) و(**أوربا**).[1] فإذا صحَّ القولُ إن (**سُلَيمان**) كان قد غزا (**اليَمَن**)، أو أنشأ تحالفًا مع بعض ملوكها، أو حتى سيطر عليها لبعض الزمن، فإن تصوُّر (**الصَّليبيِّ**) أن مقرَّ مملكته كان في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)- في وقتٍ كانت ممالك جَنوب الجزيرة تتمدَّد بنفوذها شَمالًا، آتيةً على ما في طريقها من ممالك- لا يصحُّ. فأين كانت مملكة **سُلَيمان** في غضون ذاك التمدُّد شَمالًا؟ ولو قيل إنها كانت معاصرةً لتلك الممالك اليَمَنيَّة ومجاورةً لها، ومزامنةً لتمدُّدها شَمالًا، لكان السؤال: كيف عُثِر على آثار المملكتَين المَعينيَّة والسبئيَّة، في مقرِّهما الأُمِّ جَنوب

---

[1] انظر: بافقيه، وآخرين، **مختارات من النقوش اليَمَنيَّة**، ٢٤، ٢٩٣-٢٩٥؛ السعيد، **العلاقات الحضاريَّة بين الجزيرة العَرَبيَّة ومِصْر في ضوء النقوش العَرَبيَّة القديمة**، ٦٩-٧٥، ١١٦-١١٩؛ علي، جواد، ٢: ١١٩-١٢٤، شرف الدِّين، ٥٩-٦٠، ١٠١.

الجزيرة، وآثار تمدُّدات نفوذهما شَمالًا، ولم يُعثَر على آثارٍ لمملكة **سُلَيمان**، لا في جَنوب الجزيرة، ولا في شَمالها؟!

٤- الأمر الأشدُّ غرابة هنا أن (**الصَّليبيَّ**) ما ينفكُّ يمارس هوايته في اجتزاء الشواهد ليُظهِر منها ما يُريد ويُسقِط منها ما لا يريد. «(كذا)»، كما استعمل هٰذه العبارة في آخر اقتباسه أعلاه. بَيْدَ أن ما جاء في كتاب «**التيجان**» ليس «كذاك» الذي أورده **الصَّليبي!** دعونا نعود إلى مرجعه، لننظر ماذا قال (**وَهْب بن مُنَبِّه** «**اليماني**»، **الأُموي**، -١١٤هـ= ٧٣٢م)، وأضافه (**عبدالملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَري المعافري**)، بتمامه دون إساقاطات **الصَّليبيِّ** وحذوفاته المتعمَّدة. جاء في كتاب «**التيجان**»[1]:

> **«قال أبو محمَّد: لمَّا مات سُلَيمان بن داود، ﷺ، وَلِـيَ أمره في الخلق ابنه، وهو وصيُّه وخليفته رِحُبُعَم بن سُلَيمان، وهو ابن بلقيس. فوَلِـيَ اليَمَن رِحُبُعَم بن سُلَيمان سنةً، فأتاه رسول بني إسرائيل من بيت المَقْدِس، فقالوا له: إن أهل الشَّام ارتدُّوا بعد سُلَيمان عن دِين الله؛ فاجتمعت إليه حِمْيَر، فقال له القلمَّس أفعى نجران: يا خليفة رسول الله، أردتَ الشَّامَ، وأهلُه أهلُ بأسٍ وفتنة، لا يُعطُون إلَّا عن قَسْرٍ، فاجعل سيفك دليلًا وعزمك خليلًا، وإن للكُفر طَرَبًا من القلوب، لا يحول بينها وبينه إلَّا الخوف، ولن تُخيفهم إلَّا بعزمٍ وصبرٍ، وإن الله المعين. قال رِحُبُعَم: لله جنود بيت المَقْدِس ينصرون الله وينصرهم، خذوا أُهبة الحرب وأَعِدُّوا الجيوش حتى**

(١) ١٦٩- ١٧٠.

يأتيكم أمري؛ فإن السنة مَحْلَةٌ والجدب عام. فتربَّص كلُّ قومٍ من جيوش حِمْيَر عند أنفسهم، ومضى رِحُبُعَم إلى الشَّام، وخَلَّفَ أُمَّه بِلقيس بمأرب، حاكمةً على اليَمَن. وسار رِحُبُعَم إلى بيت المَقْدِس، فاختار من بني إسرائيل مائة رجل، فسار بهم على مدائن الشَّام، فأجابوه إلى أمر الله، حتى بلغ إلى إنطاكية، فائتمروا به فقتلوه، وهم من الجبَّارين من بقايا بني ماريع بن كنعان بن حام بن نُوح، فقتلوه وقتلوا المؤمنين الذين كانوا معه، وتجبَّر بنو كنعان بإخوانهم من القبط بن كنعان والنوب بن كنعان، فلم يكن لبني إسرائيل بهم طاقة، وبلغ ذٰلك بِلقيس، وقد أدركها الهرم، فلم تستطع النهوض إلى الشَّام، ووقعت فتنة باليَمَن، فنبغ الثُّوَّار كلٌّ يدَّعي المُلك وتغلَّب على مَن تحت يده...».

فهٰذا، إذن، هو الخبر، وتلك هي التقاليد العَرَبيَّة في هٰذا الموضوع، لا ما زَعَمَ (**الصَّليبيُّ**) وتقوَّل.

فعلامَ يَستشهد، إذن، ما دام هٰذا صنيعه بالشواهد، من التحريف، واللَّيِّ، والتقوُّل؟

ولٰكن ما الغريب؟ إذ لم يقتصر طموحه على تحريف شواهده من بعض المراجع، بل أراد في نهاية المطاف أن يحرِّف «**التوراة**» نفسها- لو استطاع- كي تغدو وَفْقَ افتراضاته؛ فأعدَّ ترجمةً جديدةً من نوعها للأجزاء الملحميَّة من (**سِفر صموئيل الثاني**)، في كتابه «**حروب داود**»، حَرَّفَ الأسماء الواردة فيها بحسب مزاعمه، مغيِّرًا أسماء الأماكن في ذٰلك السِّفر ليضع مكانها أسماء الأماكن من جَنوب غَرب **الجزيرة العَرَبيَّة**. ما يدلُّ على هوسه الشديد بفرض وجهة نظره فرضًا على الناس!

وكان يفعل مثل ذٰلك في ثنايا كُتُبِه الأخرى؛ فلا يكتفي بتأويل النصِّ كما يشاء، بل يصنع النصَّ التوراتيَّ نفسه من جديد، ليتَّفق مع أسماء المواضع أينما وجدها. من ذٰلك تحريفه النصِّ الآتي من «**سِفْر التكوين**»[1]: «**فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وسَكَنَ في أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ.**» الذي جعله في كتابه «**خفايا التوراة**»[2] هٰكذا: «**فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وسَكَنَ في أَرْضِ [نَوْدَة جَنوبيَّ عَدَنة].**» كي يقول إن أُسطورة الخلق التوراتيَّة والإنسان الأوَّل تشير إلى مواضع «**في جوار الجنينة بأسفل وادي بيشة**».

وبذا فليصنع ما شاء، من نَصِّه الخاصِّ وتأويله الخاصِّ!

ولقد كان في اعتيازٍ إلى الإيهام بأن التراث العَرَبي يدعم افتراضاته بصورةٍ أو بأخرى، وإذ يُصدم بأن التراث العَرَبي لا يفعل ذٰلك بل ينافيه، يلتفُّ على النصوص محاوِلًا تزييفها على القارئ، الذي من المتوقَّع- لديه على الأقل- أنه لن يراجعها في أصولها، ليعرف كيف تعامل معها. لٰكن تُرَى ماذا سيفعل حين يواجه الإشكال مع مؤرِّخٍ عَرَبيِّ الانتماء، يمانيٍّ قديم، ومن أصلٍ يهوديٍّ أيضًا، ثمَّ لا يجد لديه أيَّ لمحةٍ ممَّا يزعم: من أن مَواطِن (**بني إسرائيل**) كانت في (**جزيرة العَرَب**)، بل يجد لديه التأكيد على أن مَواطِنهم كانت في (**بلاد الشَّام**)؟! لا مناص له حينئذ من تشغيل منهاجه المعروف، الذي وقفنا عليه في ما سبق مع صاحبَي «**الإكليل**» و«**تاريخ المستبصر**»،

---

(1) ٤: ١٦.

(2) انظر: ٣٨.

فيحذف العبارات المشيرة إلى **بلاد الشَّام** من الاقتباسات التي تورَّط فيها. ذٰلك المؤرِّخ «الورطة» هو (**وَهْب بن مُنَبِّه**) في كتابه المشهور «**التيجان في ملوك حِمْيَر**».

يورد (**الصَّليبيُّ**) في كتابه «**حروب داود**» اقتباسًا آخر عن «**التيجان**»، موهِمًا من خلاله بأن (**ابن مُنَبِّه**) يشير إلى أن (**بني إسرائيل**) كانوا يعيشون في (**جزيرة العَرَب**)، في حين أننا، إذ نعود إلى «**التيجان**»، ونتقصَّى حذوفات (**الصَّليبي**) من شاهده، ندرك أنه قد حذف الإشارات إلى (**بيت المَقْدِس**) وإلى (**بلاد الشَّام**) التي وردت في كلام (**وَهْب بن مُنَبِّه**)، الدالَّة على قوله إن مَواطِن **بني إسرائيل** كانت هناك، وإن الأحداث التي وردت في سياق ذٰلك الشاهد إنما كانت تَصِف غَزْوًا شَنَّه (**بنو إسرائيل**) من (**بلاد الشَّام**) على عَرَب (**الحِجاز**) فـ(**مكَّة**)، باؤوا فيه بالهزيمة المنكرة، والعودة إلى **الشَّام** دون تابوتهم، الذي كانوا قد رَمَوا به مُوَلِّين الأدبار، فاستولى عليه (**الجُرهميُّون**) وألقوه في مزبلةٍ من مزابل **مكَّة**.

كيف حدث ذٰلك؟

٧- غزوة بني إسرائيل للحِجاز وحكاية التابوت:

اقرأ معي اقتباس (**الصَّليبيِّ**) وتوجيهه الكلام الوجهةَ التي يبغي، ثمَّ دعنا بعد ذٰلك نقارنه بكلام (**وَهْب بن مُنَبِّه**). يقول **الصَّليبيُّ**[1]: «**وهناك صمت في التقليد**

---

[1] حروب داوود، ٢٩.

اليهودي حول مصير تابوت العهد بعد هٰذا الحدث.» والحدث المقصود هنا هو نقل عاصمة (**داوود**) من (**رجال ألمع**) إلى (**النماص**) ووضع **التابوت** في قُدس أقداس الهيكل الجديد هناك. وهو بهٰذا يحاول أن يوحي بأن الخبر الذي سيستشهد به، نقلًا عن كتاب «**التيجان**»، يدلُّ على أن التقليد العَرَبيَّ اليمانيَّ كان يعرف مصير **التابوت**؛ لأن الأحداث كانت تجري بين ظهرانيِّ العَرَب لا في (**بلاد الشَّام**). قال:

> **«أمَّا التقليد العَرَبي اليماني الذي دوَّنه وَهْب بن مُنَبِّه... فيقول: لم يزل بنو إسرائيل يزحفون بالتابوت حتى كان في زمن الحارث بن مضاض الجُرْهُمي بعد موت إسماعيل النَّبي، عليه السلام، وبعد موت ابنه ووصيِّه نابت بن قيدار بن إسماعيل، فبدَّل بنو إسرائيل دين داود، وسُلَيمان، صلَّى الله عليهما، وانتحلوا على الزبور كتبًا انتحلوها... والمَلِكُ يومئذٍ بمكَّة وما والاها الحارث بن مضاض الجُرْهُمي. فلمَّا أتى إسرائيل إلى مكَّة... برزَ إليهم جُرْهُم في مائة ألف، وعملاق في مائة ألف،... فانهزم بنو إسرائيل ومن معهم ورموا بالتابوت. فأخذته جُرْهُم وعملاق، فأتوا به إلى مزبلة من مزابل مكَّة، فحفروا له ودفنوه فيها... فأخذهم الوباء بالغمِّ... فعمد الحارث بن مضاض إلى التابوت في تلك المزبلة فاستخرجه ليلًا. وأخذه هميسع [بن نابت بن قيدار بن إسماعيل]. وكان عنده يتوارثونه وارث عن وارث إلى زمان عيسى بن مريم عليه السلام، فإنه أخذه من كعب بن لؤي بن غالب.»**[1]

فما النصُّ الأصليُّ الذي اقتبسه (**الصَّليبيُّ**) وحاول أن يُسقِط منه ما لا يخدم

---

(1) م.ن، ٢٩- ٣٠.

افتراضاته؟ إنه قول (**ابن مُنبِّه**)[1]:

> «**قال أبو محمَّد: لم يزل بنو إسرائيل يزحفون بالتابوت حتى كان في زمن الحارث بن مضاض الجُرْهُمي بعد موت إسماعيل النبي، ﷺ، وبعد موت ابنه ووصيِّه نابت بن قيدار بن إسماعيل، فبدَّل بنو إسرائيل دين داود وسُلَيمان، صلَّى الله عليهما، وانتحلوا على الزبور كتبًا انتحلوها، [وأنهم زحفوا إلى أهل الحَرَم، وهم إذ ذاك عملاق وجُرْهُم وبمكَّة بنو إسماعيل، وكان إذ ذاك القائم والوصيُّ فيهم بدِين الله ودعوة إسماعيل: هميسع بن نبت [كذا] بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم، صلَّى الله عليهما.] والمَلِكُ يومئذٍ بمكَّة وما والاها الحارث بن مضاض الجُرْهُمي، فلما أتى بنو إسرائيل إلى مكَّة [زاحفين بمن نصرهم من بني إسحاق والرُّوم الأول من أرض الشَّام]، برز إليهم جُرْهُم في مئة ألف، وعملاق في مئة ألف، [فقاتلوهم قتالًا شديدًا]، فانهزم بنو إسرائيل ومن معهم، ورَمَوا بالتابوت، فأخذته جُرْهُم وعملاق فأتوا به إلى مزبلةٍ من مزابل مكَّة فحفروا له ودفنوه فيها[2]، [فنهاهم عن ذٰلك هميسع بن نبت [كذا] بن قيدار بن إسماعيل، ونهاهم عنه الحارث بن مضاض الجُرْهُمي، فعصوهما وقال لهم هميسع: إن فيه صحف الزبور وفيه السكينة]؛ فأخذهم الوباء بالغمِّ، [وكانوا لا يتداركون]؛ فعَمَدَ**

---

(1) **التيجان**، ١٧٩ – ١٨٠.

(2) إذا صحَّ هٰذا الخبر، فإنه يُناقِض ما وردَ في (**سِفر الخروج**، الإصحاح ٢٥) من أن التابوت كان ذا فخامة مائزة، وأنه مَطْلِيٌّ بالذهب النقيِّ من الداخل والخارج، وله إكليلٌ من ذهب، وعلى طرفَي غطائه كَرُوبانِ من ذهبٍ، باسطَين أجنحتهما إلى فوق، مظلِّلَين الغطاء، ووجهاهما كُلُّ واحدٍ إلى الآخَر. ولو كان التابوت كذٰلك، لما ألقاه (الجُرْهُمِيُّون) في مزبلة!

الحارث بن مضاض إلى التابوت في تلك المزبلة فاستخرجه ليلًا، وأخذه هميسع وكان عنده يتوارثونه وارث عن وارث إلى زمان عيسى بن مريم، عليه السلام، **فإنه أخذه من كعب بن لؤي بن غالب.**»[1]

وتلحظ حذف (**الصَّليبيِّ**) العبارات التي تحتها خطوط. وسبب ذٰلك الحذف واضح. ثمَّ علَّق في الحاشية قائلًا:

«كان وَهْب بن منبِّه اليماني، على ما يقال، من أصلٍ يهودي، يتقن اليونانيَّة والسريانيَّة والحِمْيَرِيَّة، ويُحسِن قراءة الكتابات القديمة. والنصُّ الذي لدينا من كتابه «التيجان في ملوك حِمْيَر» هو من رواية عبدالملك بن هشام الحِمْيَري، صاحب السيرة النبويَّة (توفي ٢١٦هـ/ ٨٣١م). وقد رواه أسد بن مُوسَى، عن أبي إدريس بن سنان، عن جَدِّه لأُمِّه وَهْب بن منبِّه. والخبر المقتبس أعلاه من

---

(١) يسوق (ابن مُنَبِّه، ١٨٤- ١٨٦) على لسان (**الحارث بن مضاض**) تفسيرات تاريخيَّة مهمَّة لتسمية بعض الأماكن بأحداث دارت فيها، ومنها بعض الأماكن التي سُمِّيَت بأسماء ذات علاقةٍ بحملة (**بني إسرائيل**) على (**الحِجاز**)، كـ(**فاران**)، و(**قعيقعان**)، و(**فاضحة**)، و(**أجياد**). **ففاران**، مثلًا، سُمِّي بهٰذا الاسم لأن (**عمرو بن مضاض**)- أخا الحارث- قتل (فاران بن يعقوب، من سبط **ابن يامين**) على ذٰلك التلِّ؛ فسُمِّي: تلَّ **فاران**. وأمثال تلك التسميات هي ممَّا درج (**الصَّليبيُّ**)، وغيره، على تحميله ما لا يحتمل من التأويلات التوراتيَّة. و**فاران الحِجاز** المشار إليه غير بَرِّيَّة (**فاران**) في (**شِبْه جزيرة سيناء**)، التي تاه فيها **بنو إسرائيل** بعد خروجهم من (**مِصْر**). على أنك ستقرأ في (**العهد القديم، سِفر التكوين**، الإصحاح ٢١) أن (**هاجر**)، جارية (**إبراهيم**) المِصْريَّة، حين طلبتْ **سارةُ** منه طردَها وابنها (**إسماعيل**)، خرجت إلى بَرِّيَّة (**بئر سَبْع**)، وأن البئر التي اكتشفتها **هاجر** واستقت منها هي هناك، وأن **إسماعيل** نشأ في تلك البَرِّيَّة. قال: «**وسَكَنَ [إسماعيل] فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْر.**» بخلاف الرواية الإسلاميَّة التي تعزو تلك الأحداث إلى (**مكَّة**). ويمكن لباحثٍ أن ينهض بمشروعٍ في تقصِّي ذٰلك وغيره لتأصيل التسميات الجغرافيَّة تاريخيًّا، بعيدًا عن النهج الحُروفي المجرَّد الذي اتَّبعه التوراتيُّون للربط بين تلك التسميات وما جاء في «**التوراة**».

> **«كتاب التيجان» يرويه أيضًا الحسن الهمداني في الجزء الثامن من «كتاب الإكليل». والرواية في «كتاب الإكليل» هي الرواية التي كان الصديق فرج الله صالح ذيب قد أرشدني إليها أصلًا. وهناك بعض الاختلاف بين الروايتين. وقد أسقطتُ ما هو مختلف بين الروايتين من الاقتباس. والنصُّ الأصلي الكامل لكتاب «التيجان» لم يُعثر عليه بعد، على ما أعلم.»**[1]

وهٰذا الإسهاب في نعت الخلفيَّة الثقافيَّة والمعرفيَّة لدَى (**وَهْب بن مُنبِّه**)، والتفصيل في سَنَد الرواية، والإشارة إلى مجيئها من طريق آخَر، هو (**الهمداني**)، كلُّ ذٰلك غايته تأكيد مصداقيَّة الخبر وأهميَّته، بحسبانه شاهدًا قويًّا لقول (**الصَّليبي**). لٰكنه في الواقع شاهدٌ عليه لا له في مسألة مَواطِن (**بني إسرائيل**)؛ ولذٰلك حَذَفَ ما يتعلَّق بذٰلك من الاقتباس. والإلحاح على المَوْطِن «**اليمانيِّ**» والدِّين «**اليهوديِّ**» (**لابن مُنبِّه**)، وأنه كان يُتقِن «**اليونانيَّة والسريانيَّة والحِمْيَرِيَّة، ويُحسِن قراءة الكتابات القديمة**»، تُؤكِّد بُطلان افتراضات **الصَّليبي**. إذ كيف لم يسمع **وَهْب بن مُنبِّه** قطُّ بأن **بني إسرائيل** كانوا يُقيمون في دياره وديار أجداده[2]، في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؟ وكيف لم يتناه إليه قطُّ خبرٌ واحدٌ ممَّا ظلَّ يزعمه **الصَّليبيُّ** حول تاريخ **بني إسرائيل** في تلك الأصقاع؟

ثمَّ حين نعود إلى صاحب «**الإكليل**»، لا نجد ما ألمح إليه (**الصَّليبيُّ**) من

---

(1) الصَّليبي، حروب داوود، ٣٠.

(2) أجداده من جهة أُمِّه، أمَّا أبوه ففارسيُّ الأصل.

اختلافاتٍ جوهريَّةٍ بين الروايتَين، زاعمًا أنها كانت وراء ما قام به من إسقاط ما هو مختلفٌ بين الروايتَين. اللَّـهُمَّ إلَّا أن رواية صاحب «**الإكليل**» جاءت مقتضبةً في بعض تفاصيل رواية «**التيجان**». أمَّا ما أسقطه (**الصَّليبيُّ**) من الاقتباس عن (**وَهْب بن مُنبِّه**)، فلا معنى له، إلَّا معنى واحد، وهو تحاشيه الإشارات الواضحة إلى أن (**بني إسرائيل**) كانوا في أرض (**الشَّام**)، وإنما شَنُّوا حملةً على (**الحَـرَم المكِّي**)، فرُدُّوا على أعقابهم مهزومين إلى **الشَّام**. وهٰذا ما وردَ أيضًا في «**الإكليل**»[1]:

> **«...الحارث بن مضاض الجُرْهُمي الذي سلب قومُه تابوتَ بني إسرائيل حين قصدوا مكَّة، وهو التابوت الذي ذكره الله في كتابه: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ من ربِّكُمْ وبَقِيَّةٌ ممَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَة﴾، فاجتمعت جُرْهُم، وعدنان، وطسم، وجديس، والعمالقة، وجميع العَرَب والتقوا ببني إسرائيل لقتالهم فهزموهم إلى بيت المَقْدِس، وأخذوا التابوت على بني إسرائيل، وله حديث يطول شرحه.»**

ثمَّ أضاف:

> **«قال وَهْب بن مُنَبِّه: لَمَّا أخذ جُرْهم التابوت، هم وعدنان ومن معهم من العَرَب: العماليق وطسم وجديس، تهاونوا به ودفنوه في مزبلة، فنهاهم عن ذٰلك الحارث بن مضاض الجرهمي والنبي إسماعيل بن الهَمَيسَع بن نابت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم، (عليهما السلام)، فلم ينتهوا، فأهلك الله الفريقين جُرهم وعدنان، أهل الحَرَم جميعًا، ولم يبق**

---

[1] ٨: ١٦٣.

منهم إلَّا اليسير الذين لم يُرضهم دفن التابوت، وهم القليل حول أربعين رجلًا، والذين هلكوا مئتا ألف ونيِّف، أرسل الله عليهم الرُّعاف. فحزن الحارث بن مضاض على قومه لَمَّا هلكوا، وسار على وجهه يسيح في الأرض ثلاث مئة سنة حتى أَلَـمَّ به الكِبَر والهرم والعَمَى. واستخلف على بقيَّة قومه النبي إسماعيل بن الهميسع. وقال له أن يُخرِج التابوت من المزبلة ويحفظه عنده، ففعل ذٰلك.»[1]

فأين ما يسوِّغ به (**الصَّليبيُّ**) ما أسقطه من رواية (**وَهْب بن مُنَبِّه**) ممَّا هو مختلف بينها ورواية صاحب «**الإكليل**»؟ بل لقد أسقطَ ما هو متَّفِق بين الروايتَين، كنَهْيِ (**الهميسع**) و(**الحارث**) قوميهما عن إهانة التابوت، والإشارة إلى أن (**بني إسرائيل**) جاؤوا غزاة من (**بلاد الشَّام**)، لا من جَنوب الجزيرة. وها هو ذا صاحب «**الإكليل**» يؤكِّد كذٰلك ما ذكره (**وَهْب بن مُنَبِّه**) من شاميَّة هٰؤلاء الغزاة، بقوله: «**فاجتمعت جُرْهُم، وعدنان، وطسم، وجديس، والعمالقة، وجميع العَرَب والتقوا بني إسرائيل لقتالهم فهزموهم إلى بيت المَقْدِس**».

هٰكذا، إذن، كان يتعامل **الصَّليبيُّ** مع النصوص، باجتزاءٍ وانتقاءٍ وتقوُّل.

٨- شَرُّ التاريخ ما يُضحِك:

سترى من العجيب في كلِّ ذٰلك الذي تولَّى نشره (**الصَّليبيُّ**) أن حُدود بلاد

[1] م.ن، ٨: ١٦٧.

ويلفت صاحب «**الإكليل**» النظرَ إلى أنها ما زالت في عصره أبياتٌ شِعريَّةٌ (**للحارث بن مضاض**) حول تلك الأحداث مكتوبةً على (**مقام إبراهيم**).

(إسرائيل) كانت تقف عند الحُدود السياسيَّة الراهنة بين **(السُّعوديَّة)** و**(اليَمَن)!** وكأن هٰذه الحُدود كانت موجودةً منذ أيَّام **(بني إسرائيل)** الأوَّلين**!** فتأويلات الرجل ظلَّت تتأرجح في هٰذه المناطق داخل الحُدود **السُّعوديَّة** جَنوبًا، يكاد لا يتخطَّاها. والسبب واضح، وهو أنه إنما كان يعتمد على «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**»، الذي أُعِدَّ بإشراف **(حَمَد الجاسر)**؛ وما صَدَّقَ أنْ وقعَ بين يديه. وعليه بنَى استقراءه من الألف إلى الياء، ولا يبدو أنه يعرف من حقائق الأماكن التي يتناولها بالتأويل سِواه. عدا أنه في كتابه الآخَر «**خفايا التوراة**»، ولمَّا أعياه العثور على بعض الأسماء في **(عسير)**، أخذ يفتِّش عنها في **(اليَمَن)**.[1]

أجل، لقد قَدَّم له ذٰلك المعجم موسوعة فسيفسائيَّة هائلة من الأسماء يستطيع من خلالها أن يُبحِر بين الحروف، ليتأوَّل كلَّ شيء؛ فما من كلمةٍ وردت في «**التوراة**»- لا أسماء الأماكن فقط- عَدِم لها نظيرًا في المعجم، وربما أكثر من نظير. حتى أسماء الكهنة، وخدم المعابد، والمغنِّين، والبوَّابين، وعبيد **(سُلَيمان)**، تحوَّلوا بين يديه إلى أماكن في جَنوب **(شِبه الجزيرة العَرَبيَّة)**.

لم يَقُم بزيارة ما يَصِفُ من مَواطِن- رغم الادِّعاء الكبير- وإلَّا فإن للقارئ أن يسأل: لِـمَ، إذن، ذَكَرَ أسماء لا وجود لها على الأرض أصلًا، وإنما لعلَّه قرأها مصحَّفةً في المعجم أو مغلوطة؟ ولِـمَ وَصَفَ أماكن بأوصاف غير حقيقيَّة؛ فصار منزلٌ متواضعٌ لديه قريةً كاملة، على سبيل المثال؟ أما كان عليه، قبل هٰذه المغامرة

---

[1] انظر: الفصل الثامن، الخاص بمُوسَى، (الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٢١١- ٢٠٠).

التأويليَّة الكُبرَى أن يتحقَّق من طبيعة الأماكن التي يتطرَّق إليها، ومن أسمائها، وتواريخ نشوئها. ذٰلك ما لم يفعل حين ألَّفَ كتابه سنة ١٩٨٤، ولم يفعله بعدئذٍ، خلال رُبع قرنٍ من السنين، إلى أن توفَّاه الله، في سبتمبر سنة ٢٠١١. فعلامَ يدلُّ ذٰلك الإهمال؟ أ يدلُّ على التحقيق، والبحث الجادِّ عن الحقِّ؟ أم هي المتاجرة التاريخيَّة، عِلْميَّةً وإعلاميَّةً وسياسيَّة؟! أ تُراه رضيَ عن البحث والتحقيق بالضجَّة الإعلاميَّة، وبالشُّهرة التي حقَّقتها كتبه الغرائبيَّة؛ بما انطوت عليه من أبعاد دِينيَّة وسياسيَّة عالميَّة. بل إنه، لو شئنا التدقيق، لم يَقُم ببحثٍ جغرافيٍّ تاريخيٍّ، كما ينبغي لهٰذا الضرب من البحوث أن يكون، على الإطلاق، إنَّما هي الافتراضات، والتهويمات، وتقليب الحروف، فَكًّا وتركيبًا، وهو راتعٌ في (**بيروت**)، مبتغيًا جعل (**الشَّام**) (**يَمَنًا**)، بل جمعَ (**فِلسطين**، **ومِصْر**، **ولُبنان**، **وسُوريَّة**، **والأردن**، **والعِراق**) كُلَّها محشورةً في منطقةٍ أو اثنتين، جَنوب غَرب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، هما: (**جازان**) و(**عسير**). لسان مجاهدته تلك: لقد أخطأ شعبُ الله المختار في ادِّعاءاته التاريخيَّة الشَّاميَّة؛ لأن (**بني إسرائيل**) كانوا عشيرةً من العَرَب البائدة كانت تعيش في **جزيرة العَرَب!** وهو ما لم يُثبِته، لا هو ولا غيره، ولم يَرِد عنه ما يُثبته قطُّ في أيَّة وثيقةٍ تاريخيَّة أو غير تاريخيَّة.

ربما يقول قائل: وهاهنا مربطُ فَرَسٍ دِينيٍّ، لا تقوَى تمويهاتُ (**الصَّليبيِّ**) على إخفائه، ولا نفيُه اللفظيُّ في مقدِّمات كتبه على تعميته. مغزى ذٰلك الفَرَس، ولا غَبَشَ في مغزاه الباطن/ الظاهر: لِيُضرَب المسلمون باليهود، هناك في جَنوب

الجزيرة العَرَبيَّة، ولتَخل الأرض المقدَّسة في (**فِلسطين**) للصليبيِّين؛ فلا تاريخ لليهود ولا للمسلمين هنا، بل هناك**!** والحقُّ أنَّ هٰذا اتِّهامٌ لا نراه يَصْدُق على (**كمال الصَّليبي**)، مهما اختلفنا معه منهجيًّا. بدليل ما جاء في كتابه «**البحث عن يسوع**»، الذي لا يدلُّ على نزوعٍ دِينيٍّ أو إديولوجيٍّ مُغرِضٍ وراء أطروحته. ليس ذٰلك، إذن، ما يبدو أنه أُتي من قِبَله المؤلِّف، بمقدار ما أُتي من الهوس الهرمنيوطيقي الذي بلغَ به مبلغه، فأنساه أن التاريخ ليس بلوحةٍ سورياليَّةٍ، في نهاية المآل، قابلةٍ لتعدُّد القراءات بالمُطلَق، بل هو عِلْم، وهو حقائق المكان والزمان في المكان والزمان.

ليس التاريخ بلوحةٍ سورياليَّةٍ، ولا بفيلمٍ من الخيال التاريخي، نشاهد فيه (**يوسف**) وأباه- حسب الإخراج (**الصَّليبيِّ**)- يَسْرَحان غنمهما في (**المجاردة**)**!** وقد صُوِّرت (**شمران**) على أنها: (**السامرة**)، عاصمة مملكة (**إسرائيل**)**!** على الرغم من أن (**شمران**) اسم جَدٍّ لقبيلةٍ معروفة، هو: (**شمران بن يزيد بن حرب بن علة بن جلد بن مذحج**). وهو، إلى ذٰلك، جَدٌّ متأخِّرٌ نِسبيًّا، لا يصلح لتلك البطولة التاريخيَّة العتيقة جِدًّا. وهو، في كلِّ حال، اسم إنسان، لا اسم مكان، كما زعم **الصَّليبيُّ**، ذاهبًا إلى أن **شمران** اسم مدينة بُنيت على هضبةٍ كانت لشخصٍ اسمه (**شمر**)، اشتُريت منه وأُقيمت عليها مدينة سُمِّيت (**السامرة** أو **شمران**).[1]

لقد عاش (**الصَّليبيُّ**) ردحًا من حياته يُصمِّم هٰذه «الديكورات» لمسرح

---

[1] انظر: م.ن، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٠١.
واسم (**شمران**): اسم بلدةٍ جَبَليَّةٍ من مصائف (**إيران**) أيضًا. و**هٰذا** ممَّا يؤكِّد أن تشابُه الأسماء مَضِلَّةٌ، ولا يدلُّ في ذاته على شيء.

الأحداث في فيلمه المبتكر لسببٍ مكشوف؛ هو أنْ لا استقامة لافتراضاته دون ذٰلك التخيُّل المجنَّح، الذي هو والكذب سواء. أمَّا (**أورشليم- القُدْس**)، فصدِّق أو لا تُصدِّق أنها بكلِّ بساطةٍ: (**آل شريم- بالنماص**)! وهو يظنُّ هاهنا أن لا أحد يعرف **آل شريم** سِواه، وأنْ لا أحد سيُنكر عليه تسويق اسمهم على أنه اسم مكانٍ، كما فعل باسم (**شمران**) من قَبل. فأيُّ استخفافٍ بالعقول وبالتاريخ بعد هٰذا؟! فهو يرى أنها ما دامت في الاسم حروف (الراء والشين واللام والياء والميم) فهو: **أورشليم**، «ولا بُدَّ»! وهٰذا يعني أن جَدَّ **آل شريم**- و**آل شريم** فخذٌ صغيرٌ من قبيلة، متأخِّر النشوء والتسمية- كان هناك منذ فجر التاريخ؛ فهو من (**بني إسرائيل**) من (**العَرَب البائدة**)، وعشيرته، كانت هناك منذ ذٰلك الفجر إلى اليوم، وظلَّت تُسَمَّى: **آل شريم**! لقد تأبَّدوا في المكان نفسه، منذ ما قبل نزول «**التوراة**» بين ظهرانيهم، على (**مُوسَى العسيري**، عليه السلام)! أي أنهم ما برحوا منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام هناك، خالدين مخلَّدين خلود (**السَّرَوات**)، فتبارك الله أحسن الخالقين! كانوا فخذًا، وظلُّوا فخذًا، وما زالوا فخذًا، لم يزيدوا ولم ينقصوا، ولم يرحلوا، ولم يتزحزحوا، ولم يتغيَّروا، ولم يتبدَّلوا! والدليل: (راء، شين، لام، ياء، ميم)!

من وجهٍ آخر، ومن خوارق (**آل شريم**)- بحسب الإخراج (**الصَّليبيِّ**)- أنهم، مع استمرارهم باسمهم التاريخي هٰذا على مرِّ العصور، استمرُّوا محتكرين مدينة (**أورشليم القُدْس**) الحقيقيَّة، التي تعود إلى اسم جَدِّهم المرحوم (**شريم**)! ولفرط دهائهم- الخارق لكلِّ التواريخ والحقائق والنواميس- مَحَوا الذاكرة البَشَرِيَّة عن بَكرة أبيها وجَدِّها، عِبريَّة

وعَرَبيَّة وغير عِبريَّة وعَرَبيَّة، بما في ذٰلك ذاكرتهم هم، فاستطاعوا بذٰلك أن يتكتَّموا طَوال السنين والقرون على هٰذا السرِّ الخطير، الذي لم يطمثه قبل **الصَّليبيِّ** إنسٌ ولا جان! وإنهم لفي (**أورشليم النماص**)- بل إنهم لفي أنفسهم؛ فهم **أورشليم** نفسها، لا فرق هاهنا بين المكان والمكين- إذ كشف غطاءهم **الصَّليبيُّ** أخيرًا، وعرَّى لعبتهم الماكرة في نهايات القرن العشرين! فسبحان مَن يُمهل ولا يُهمل.. وشَرُّ التاريخ ما يُضحِك!

يزعم هٰذا، مغمضًا عينَيه عمَّا سِوَى ما توهَّم، ومن ذاك «السِّوَى» ما وردَ من تحديدٍ لمكان (**أورشليم**) في الكتاب الذي تسنَّم تفسيره، وأن **أورشليم** هي (**يَبُوس**)، أرض (**اليَبُوسيِّين**)؛ حيث جاء في «**سِفر القُضاة**»[1]: «**يَبُوسَ هِيَ أُورُشَلِيم.**» وفي «**سِفر أخبار الأيَّام الأوَّل**»[2]: «**وذَهَبَ دَاوُدُ وكُلُّ إِسْرَائِيلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، أَيْ يَبُوسَ. وهُنَاكَ اليَبُوسِيُّونَ سُكَّانُ الأَرْض.**»

ثمَّ اقرأ ما وردَ في الكتاب الذي زعم (**الصَّليبيُّ**) أنه جاء ليقرأه ويعيد تأويله:

> «**لٰكِنَّكُمْ لَمْ تَشَاءُوا أَنْ تَصْعَدُوا، وعَصَيْتُمْ قَوْلَ الرَّبِّ إِلٰهِكُمْ، وتَمَرْمَرْتُمْ فِي خِيَامِكُمْ وقُلْتُمْ: الرَّبُّ، بِسَبَبِ بُغْضَتِهِ لَنَا، قَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيَدْفَعَنَا إِلَى أَيْدِي الأَمُورِيِّينَ لِكَيْ يُهْلِكَنَا. إِلَى أَيْنَ نَحْنُ صَاعِدُونَ؟ قَدْ أَذَابَ إِخْوَتُنَا قُلُوبَنَا، قَائِلِينَ: شَعْبٌ أَعْظَمُ وَأَطْوَلُ مِنَّا. مُدُنٌ عَظِيمَةٌ مُحَصَّنَةٌ إِلَى السَمَاءِ.**»[3]

---

[1] ١٩ : ١٠.

[2] ١١ : ٤.

[3] سِفر التثنية، ١ : ٢٦- ٢٨.

«لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ لَمْ نَأْخُذْهَا مِنْهُمْ. سِتُّونَ مَدِينَةً، كُلُّ كُورَةِ أَرْجُوبَ مَمْلَكَةُ عُوجٍ فِي بَاشَانَ. كُلُّ هٰذه كَانَتْ مُدُنًا مُحَصَّنَةً بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ.»[1]

«اِسْمَعْ، يَا إِسْرَائِيلُ، أَنْتَ الْيَوْمَ عَابِرٌ الأُرْدُنَّ لِكَيْ تَدْخُلَ وتَمْتَلِكَ شُعُوبًا أَكْبَرَ وأَعْظَمَ مِنْكَ، ومُدُنًا عَظِيمَةً ومُحَصَّنَةً إِلَى السَّمَاءِ.»[2]

ولتسأل، إذا كنت سائلًا: أين تقع تلك «**المُدن العظيمة المُحَصَّنة إلى السماء، بأسوارٍ شامخةٍ، وأبوابٍ ومزاليج**»؟

أ في نواحي قرية (**آل شريم**)؟

أم في جهات (**النماص**)؟

أم في منطقة (**عسير**)؟

لم تُعرَف في تلك الأماكن كلِّها مُدنٌ بتلك الصفات على مرِّ التاريخ!

فليُفسِّر المؤلِّف أسرار خيالاته هو، لا أسرار الكتاب المقدَّس، الذي لا يتَّفِق، ظاهرًا ولا باطنًا، مع ما يطرح من دعاوَى!

وإنه ليزعم- من حصافته الاحتجاجيَّة- أن الجامِعين لأسفار «**التوراة**» والمترجِمين والمحقِّقين في بلاد (**بابل**) بعد السَّبْي، ولبُعد الزمن واختلاف البيئة لم تكن لديهم المعرفة الجغرافيَّة بالبيئة التي وُضِعت فيها نصوص «**التوراة**»![3] أ فيُعقل

---

[1] م.ن، ٣: ٤- ٥.

[2] م.ن، ٩: ١.

[3] انظر: الصَّليبي، حروب داود، ١٤.

هٰذا؟ أ يُعقل أن يجهل هٰؤلاء الكتبة أين كانت أرض أولٰئك المسبيِّين؟ أ يُسلِّم بهٰذا عاقل، ولاسيما حين يعلم أن الجامِعين والمحقِّقين والمترجِمين هم من هٰؤلاء المسبيِّين أنفسهم، أو من نسلهم، أو من أتباع دِيانتهم، والمنتمين إلى تاريخهم. ثمَّ بأيِّ خيالٍ خُرافيٍّ يَسْبَح في سحاب التنظير يتصوَّر غياب أيِّ معلومةٍ عن ذٰلك الحدث التاريخي العظيم من تدمير (**نَبُوخَذْنَصَّر**) مملكة (**بني إسرائيل**)، وعن مكانه ومكانها الذي كانا فيه؟ أ ولم مملكة عظيمة؟ بل هي- حسب وصف الكتابَين المقدَّسين: «**التوراة**» و«**القرآن**»- الأعظم تاريخيًّا، بمقاييس زمانها. أم ترى كان الفاصل الزمني بين ذٰلك الحدث التاريخي المفصلي وبين جمع «**التوراة**» طويلًا جدًّا إلى درجةٍ انطمست بسببها الأخبار عن مكان هٰؤلاء، وعن تاريخ مملكتهم، وعن علاقاتهم بمملكة (**مِصْر**) وغير مملكة **مِصْر**؟! بل ليس هٰذا ما حدث من آفة النسيان المطبق، الذي لم يسبق له مثيل ولم يلحقه مثيل، فحسب، بل حدث الغلط أيضًا بنسبة ذٰلك التاريخ إلى بُلدان أخرى بعيدة ومَواطن نائية.

كلُّ هٰذا لا يُعقَل عند التأمُّل، ولا يستقيم القول بوقوعه، مهما بلغ استخفافنا بالقدماء، وغالينا في تصوُّر الجهل عنهم، والغفلة فيهم، ونعتناهم بالبدائيَّة في أدواتهم المعرفيَّة والتاريخيَّة.

٩- كيف طَمَسَ اللهُ على تاريخ بني إسرائيل؟:

إذا سلَّمنا جَدَلًا بأن الجامِعِين لأسفار «**التوراة**» ومترجميها ومحقِّقِيها في بلاد (**بابل**)،

بعد السَّبْي، ولبُعد الأَمَد واختلاف البيئة لم تكن لديهم المعرفة الجغرافيَّة بالبيئة التي وُضِعت فيها نصوص «**التوراة**»، فكيف ننسَى سؤالًا آخَر، غير معقول الإجابة، هو: كيف حدث أن طَمَسَ اللهُ على العقول حول تاريخ (**بني إسرائيل**)، وحول أرضهم الأصليَّة، هم وحدهم دون سِواهم من الشعوب والتواريخ؟! إن الشعوب عادةً لتعرف أراضيها، مهما غُرِّبت عنها، وتعرف أراضي جيرانها، وأراضي الأعراق المختلفة فيها، الأصيلة والطارئة. تعرف ذٰلك معرفةً نِسبيَّةً لا تتماهَى بحالٍ والجهل التام. والمؤرِّخون يعرفون ذٰلك أكثر، إنْ كانوا مؤرِّخين حقًّا. ما قال أحدٌ، مثلًا، إنَّ (**المِصْريِّين**) كانوا يعيشون في (**اليَمَن**)، ولا إنَّ (**اليبوسيِّين**) كانوا يعيشون في (**بلاد فارس**)، ولا إن (**الأكديِّين**) كانوا يعيشون في (**المغرب**). فما بال **بني إسرائيل**، دون العالَمين، يقع في شأنهم هٰذا الخلط والضَّلال المبين؟! صحيحٌ أنها قد تغيب عن المدوِّن القديم، أو المؤرِّخ، بعض التفاصيل، لٰكنها لا تغيب عنه بالكُلِّيَّة المعلومات الأَوَّليَّة المشتهرة، ولا الأحداث المتواترة أخبارها بالضرورة.

كيف بإمكانك، إذن، أن تُصدِّق رجلًا جاء يقول لك إن (**بني إسرائيل**) كانوا يعيشون في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) على مدى مئات السنين، ناهزتْ الألف عام، وكانت لهم خلالها الممالك وفيهم التحوُّلات الاجتماعيَّة والثقافيَّة الجُلَّى، وكانت لهم فيها الحروب الطاحنة والمصادمات الأُمميَّة، المشهودة، أرضًا وسماءً، ولٰكن لا شعب (**إسرائيل**) يعلم حقائق ذٰلك، ولا غيره من الشعوب يعلمون؛ فلم تحفظ

الذاكرة ولا الأرض ولا المؤرِّخون ولو لمحةً عن ذٰلك التاريخ! بل أبعد من هٰذا، وجدناهم ينسبون تاريخ ذٰلك الشعب وينسبه غيرهم إلى بُلدان أخرى وممالك قُصوَى زورًا وبهتانًا، أو جهلًا واختلاطًا، وهو، أي صاحبك المؤرِّخ الحديث، مَن جاء- بعد أكثر من ألفَي عامٍ وخمسة قرون- ليصحِّح التاريخ؟! يقذف إليك هٰذا التصحيح المؤتفَك، وأنت في كامل وعيك أنه يحدِّثك، لا عن ماضي قبيلةٍ مغمورةٍ من القبائل، ولا عن تاريخ (**الغَجَر**) الملتبس، ولا عن أرض (**وَبار**) الخرافيَّة، بل عن تاريخ ممالك من أشهر الممالك في التاريخ على الإطلاق، وعن أنبياء من أُولي العزم من الرُّسل، وعن صراعات دِينيَّة وحضاريَّة تُعَدُّ مفصليَّة في تاريخ المنطقة قاطبةً والعالم أجمع.

هٰذا، ولقد كان صاحبنا يفرح إذا وجد خلال قراءته حروف اسم قريةٍ، أو قبيلةٍ، أو خبتٍ، أو مزرعةٍ، أو حتى خَرِبَةٍ تُجانِس اسمًا وَرَدَ في «**التوراة**»، جناسًا ناقصًا جِدًّا غالبًا. أمَّا حين لا يوفَّق إلى تشابُه حروفٍ، بشكلٍ أو بآخر، فذٰلك ممَّا حرَّفه (**المسَّوريُّون**) اليهود في «**التوراة**»، كما يقول. كلامًا مرسَلًا، لا يستند فيه إلى دليل. فإذا سمع، أو قرأ، عن مكانٍ اسمه (**الدَّثْنَة**) في جبال (**فَيْفاء**)، على سبيل الشاهد، قلَّبه واعتصره اعتصارًا لربطه باسمٍ توراتيٍّ، «ولا بُدَّ». وإنْ كان في **فَيْفاء** وحدها ثلاثة أمكنة بالاسم نفسه، وفي مواضع مختلفة: موضعٌ في جبل (**آل الثُّوَيْع**)، وآخَر في جبل (**آل بِلْحَكَم/ أبي الحَكَم**)، وثالثٌ في (أسفل جبل **آل ظُلْمَة**). فلا يُدرَى أيُّها المقصود؟! وفي (**بني مالك**) المجاورة **لفَيْفاء** مثل ذٰلك الاسم، وفي غير

فَيْفاء وبني **مالك** أمثاله. فالباحث يجد ذِكرَ إلٰهٍ للقبائل الثموديَّة في شَمال **(الحِجاز)** باسم «**دثن**»، أو «**دثان**»، يَرِد في النقوش الثموديَّة والصَّفَوِيَّة. وكان من أسماء شَمال **الحِجاز**: «**دوثان**»؛ ما دفع بعض المستشرقين إلى ربط هٰذا الاسم بذاك الإلٰه **(دثن)**. ويظهر أن عبادة هٰذا الإلٰه كانت معروفة في أماكن أخرى من الجزيرة، من ذٰلك وسط الجزيرة، ولا يَبعد أن يكون ذٰلك في غير وسطها أيضًا. واقترن **دثن (باللَّات)** أحيانًا، وإنْ لم يُعرَف أصل هٰذا الاسم أو الإلٰه.[1] على أن **(دفنة)** معبودة إغريقيَّة، حوَّلها كبير الآلهة **(زيوس)** إلى شجرة غارٍ ليخلِّصها من ملاحقة **(أبولون)**.[2] وحملت اسمها بلدة **(دفنة)** على **(نهر العاصي)** جنوب **(أنطاكيَّة)**، وفيها غابة من أشجار **الغار**.[3] فهل لاسم **(الدَّثْنَة)** علاقة بذاك؟ ربما، وإنْ تعذَّر التحقُّق من ذٰلك! ومهما يكن من أمر، فهي معلومات للتأمُّل في الميثولوجيا الكامنة خلف هٰذه التسمية. أمَّا لغويًّا، فدَثَنَ فِعلٌ يأتي بمعنى: دَفَنَ، كأنه على سبيل الإبدال الصوتي. ودَثَنَ بمعنى: حَطَّ، أو نَزَلَ؛ ولذٰلك قالوا: دَثَّنَ الطائرُ يُدَثِّن تَدْثِينًا، إذا طار وأَسْرَع السُّقوطَ في مواضِعَ مُتقارِبة وواترَ ذٰلك. ودَثَّنَ في الشَّجرة: اتَّخَذَ فيها عُشًّا. والدَّثِينة: الدَّفينة. و**(الدَّثِيْنَة)**، أو **(الدُّثَيْنَة)**: ماء **(لبني سُلَيم)**، أو **(لبني سيَّار بن**

---

[1] انظر: الروسان، محمود، **القبائل الثموديَّة والصفويَّة: دراسة مقارنة**، ١٦٣.

[2] والاسم **(دفنة)** شائع اليوم في تسمية النساء في **(دولة الاحتلال الإسرائيلي)**، و**(تركيا)**. ويبدو مشتقًّا من تسمية شجر **الغار**.

[3] انظر: نعمة، حسن، **موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ومعجم أهم المعبودات القديمة**، ٢٠٧.

عمرو). قيل كان اسمه: الدفينة، فغُيِّر، تطيُّرًا. وفي الحديث جاء ذِكْر (**الدَّثِيْنة**)، في ناحيةٍ قرب (**عَدَن**)، بينها وبين (**الجَنَد**).[1] وهو موضع (**بمِصْر**) كذٰلك. وفي الحديث ذِكْرٌ لغزوة (**داثِن**)، وهي ناحية من (**غَزَّة الشَّام**)، أَوقعَ فيها المسلمون بـ(**الرُّوم**)، وهي أَوَّل حربٍ جَرَتْ بينهم. و(**الدَّثِيْن**): جَبَل.[2] والدَّثْنَة: الماء القليل يكون في الأرض[3]. ولعلَّ هٰذا الأخير أقرب الاحتمالات وراء اسم **الدَّثْنَة** في جبال **فَيْفاء**. وهٰكذا ترى كثرة الأماكن بالاسم الواحد، أو من المادَّة اللغويَّة الواحدة، في مَواطن شتَّى. فما الذي يُثبت أن أحدها هو المقصود في «**التوراة**» دون غيره؟! أمَّا قرائن المواضع الأخرى المجاورة، فسنرى لاحقًا أنه يتَّفق مجيء المواضع كذٰلك- متشابهة الأسماء والتجاور- في غير مكان واحد.

وكذا إذا سمع (**الصَّليبيُّ**) باسم مكان آخَر في (**فَيْفاء**) هو (**البَثْنَة**)، قال: «**إذا اعتبرنا أن لبنون سِفر زكريا هو لبينان اليَمَن، وليس لبنان الشَّام لا تعود هناك أَيَّة مشكلة بالنسبة إلى موقع (بشن)... وقد ساد الاعتقاد حتى الآن بأنها تُشير إلى مرتفعات «البثينة» بين حَوْرَان والبلقاء، في جنوب الشَّام. وبشن هٰذه لا بُدَّ أنها اليوم «البثنة» في جبل فَيْفا...**»![4]

«**لا بُدَّ**»!

---

[1] شَمالها: يافع العُليا والسُّفلَى، وجَنوبها وغَربها: بلاد الفضلي، وشَرقها: العوالق السُّفلَى. (انظر: شرف الدِّين، ٤٥).

[2] انظر: ابن منظور، **لسان العَرَب المحيط**؛ الزَّبيدي، **تاج العروس**، (دثن).

[3] انظر: الزَّبيدي، (م.ن).

[4] الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٥٢- ١٥٣.

على حين يستعمل اسم (**البَثْنَة**) في موضع آخَر، ليقول إنه من المحتمل أنه «**جبل الأطياب (هري بشميم)**»، الوارد في «**نشيد الأنشاد**»، الذي صار لديه باسم جديد هو: «**نشيد جبال جيزان**»!(1) وهو لا يدري ما «**البَثْنَة**» على كلِّ حال؟ إلَّا أنه اسمٌ يُشبِه «**بشن**»، تارةً، و«**بشميم**»، تارةً أخرى، ولو في حرفين أو حرف واحد. و**البَثْنَة في (فَيْفاء)** اسم بيتٍ عائليٍّ، حوله بُقعةٌ محدودةٌ في غَرب الجبل الأعلى، تابعة لقبيلة (**آل الداثر**)، وتحمل تلك البُقعة الاسم نفسه. والاسم مشتقٌّ من «**بَثَنَ**». وتعني بلهجات **فَيْفاء**: جَلَسَ، أو بَرَكَ، واستقرَّ. ولا نجد هٰذا التعبير في معجمات العَرَبيَّة، وإنَّما تشير إلى أن **البَثْنَة**: الرَّوْضَة، أو الأرض الطيِّبة: جَمْعُها بِثَان. وقيل: هي الرَّمْلَةُ اللَّيِّنَةُ. ويُصَغَّر على: بُثَيْنَة، وبها سُمِّيَتِ المرأةُ بُثَينةَ لِلِينها. والبَثْنَة: النَّعْمَة في النِّعْمَة. والبَثَنِيَّةُ: حِنْطَةٌ مَنْسُوْبَةٌ إلى قريةٍ (**بالشَّام**)، بين (**دمشق**) و(**أَذرعات**). وفي حديث (**خالد بن الوليد**): أنه خَطَبَ فقال: «**إن عُمَرَ استعملني على الشَّام وهو له مُهِمٌّ، فلمَّا ألقَى الشَّام بوانيه وصار بَثَنِيَّةً وعسلًا، عزلني واستعمل غيري.**»(2) وبهٰذا الاسم تُسمَّى أرض (**حَوْرَان**) في **الشَّام** إلى اليوم. فهناك أسماء **البثنة** في غير **فَيْفاء**، ومنها تلك التي استبعدها (**الصَّليبيُّ**) في **الشَّام**؛ لأنه لا يريد **الشَّام** بل القفز يَمَنًا. وإلَّا ما علاقة بيتٍ عائليٍّ سمَّاه أهله في زمن متأخِّر بـ«**البَثْنَة**»- لمعنى من تلك المعاني المشار إليها- بـ«**بشن**» التوراتيَّة أو «**بشميم**»؟!

إنه هوس الحروف والتأويل!

---

(1) انظر: م.ن، ٢٩٢، ٢٨١.

(2) انظر: الفراهيدي، **العَين**؛ الجوهري، **صحاح اللغة**؛ الزمخشري، **أساس البلاغة**؛ ابن عبَّاد، **المحيط في اللغة**؛ ابن دريد، **جمهرة اللغة**؛ الأزهري، **تهذيب اللغة**، (بثن).

١٠- مرعَى الأسماء والحروف:

وإذا سمع (**كمال الصَّليبيُّ**) بمكان اسمه (**الفَرَحَة**)، بالفاء، فَرِحَ بالاسم، واختطفه بسُرعة، وظنَّ الفاء قافًا، وأنه قد وجدَ كنزًا دفينًا، فجاءك ليقول عن المزامير التوراتيَّة المنسوبة إلى (**بني قورح**): «**إن بني قورح هٰؤلاء كانوا قبيلة من قرية القَرْحَة** [كذا!] **الحالية في جبل فَيْفا، أو في قرية القرحان في جبل بني مالك...**»![1]

فإذن، (**القَرْحَة**) في (**فَيْفاء**) كانت مستقرَّ قبيلة (**بني قورح**) الواردة في «**التوراة**»، «ولا بُدَّ»، كالعادة!

وما هناك قريةٌ اسمها (**القَرْحَة**) في (**فَيْفاء**) إطلاقًا، بل هناك نحو ثمانية بيوت باسم (**الفَرَحَة**)، (بالفاء)، في جبالٍ مختلفةٍ من **فَيْفاء**. لٰكن هٰذه أخت (**قرية الجعدة**) السابق ذكرها، التي جعلت من **فَيْفاء**: (**جبل جلعاد**)[2]، على آخر الزمان، في جملة

---

[1] الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٩٢.

[2] ويأتي في كتابه الآخر (**خفايا التوراة**، ١٩٧) فيغيِّر رأيه في أن (**جلعاد**) هي جبال (**فَيْفاء**)، ذاهبًا مذهبًا آخر، هو أنها «**اليوم قرية الجَعَدَة على المنحدرات الجبليَّة لتهامة زَهران**»! ثمَّ يقول من الكتاب نفسه، (ص١٦٠): إن **جلعاد** بلدةٌ في جَنوب (**اليَمَن**) اسمها اليوم: (**الجعديَّة**)! وهٰكذا، لم نعد ندري في هٰذا التخبُّط أين **جلعاد**؟ فحيثما وجد (جيم عين دال) فثَمَّةَ احتمالٌ ما لـ«**جلعاد**»، شريطة أن يجد تلك الحروف في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)، لا في (**البلقاء**) الأردنيَّة، شَرق (**نهر الأردن**)، مع أن هٰذه الأخيرة اسمها «**جلعاد**»، دونما حاجة إلى تمحُّل أو تأوُّل. وبذا، فإذا كان منطلقه البحثيُّ أن الأماكن التوراتيَّة لم تَعُد معروفةً اليوم في (**فِلسطين**)، وهو يريد أن يجد لها أماكن معروفة، فإن الأماكن التوراتيَّة لم تَعُد معروفة حتى من خلال مؤلَّفات (**الصَّليبيِّ**) نفسها؛ لأنه في كلِّ كتاب يُدلي بتحديدات جديدة، بل أحيانًا يفعل ذٰلك في الكتاب الواحد؛ لكثرة البدائل الاسميَّة بين يديه! لم نعُد ندري أين (**مِصْر**)؟ أ بين (**أبها**) و(**الخميس**)؟ أم في (**بِيشة**)؟ أم في (**غامد**)؟ أم في (**الطائف**)؟! وأين **جلعاد**؟ أ في جبال **فَيْفاء**؟ أم في ←

افتراضات المؤلِّف الواسعة؛ التماسًا لنقل المَواطن التوراتيَّة من بلاد **(الشَّام)** و**(العِراق)** إلى **(شِبه الجزيرة العَرَبيَّة)**.

هٰذا بالإضافة إلى قريةٍ أخرى اكتشفها لنا، سمَّاها لنا **(الغدر)!** وهي مكانٌ وَهْمِيٌّ، لا وجود له البتَّة، ولا يعرفه من الثَّقَلَين سِوى **(الصَّليبي)!** فقد قال عن قرية **(جَدُور)**، الواردة في عبارة **(سِفر أخبار الأَيَّام الأَوَّل، ٤: ٣٩)**: **«وسَارُوا إلى مَدْخَلِ جَدُورَ إلى شَرْقِيِّ الوادي لِيُفَتِّشُوا على مَرْعًى لماشيتهم»**، قال بكلِّ ثِقة: **«لا بد أنها اليوم قرية الغدر من جبل فيفا في منطقة جيزان، على وجود عدد من الإمكانات الأخرى!»**[1]. ولا أدري كيف جمع بين «**لا بُدَّ**» و«**على وجود عددٍ من الإمكانات الأخرى**» في صعيدٍ واحد؟**!** ويُلحَظ هنا تكلُّفه ووقوعه في متواليةٍ من الأخطاء الطريفة حقًّا:

١- لا أعرف أين تقع قرية **(الغدر)** التي أشار إليها؟ وما هناك قريةٌ بهٰذا الاسم في **(فَيْفاء)** كلِّها، جبلها وسهلها. لٰكنَّ هناك مكانًا اسمه **(غُرَّة)**، وهو: بيتٌ كبير، يُسَمُّون مثله «قرية» اصطلاحًا. ومكانًا، بل أماكن أخرى، اسمها **(الغُرَز)**: ثلاثة بيوت في أنحاء مختلفة من **فَيْفاء**. على أن هناك بُقعةً معروفةً اسمها: **(العَذَر)**. والأرجح أنه قرأ هٰذا المكان مصحَّفًا إلى: (الغدر)، فبنى خطأً على خطأ، وصارت

(تِهامة زَهران)؟ أم في **اليَمَن**؟! وأين **(الأردن)** من أرياد الجَنوب الكثيرة؟ أ في **(هَروب)**؟ أم في **(عسير)**؟! وأين **(عَمُّون/ عَمَّان)**؟ أ في **فَيْفاء**؟ أم في **عسير**؟ وأين **(الفَلَسَة/ فِلسطين)**؟ أ في **(خثعم)**، أم في **(بلاد غامد وزَهران)**؟ وأين **(أورشليم)**؟ أ هي **(قرية آل شريم)**؟ أم **(قرية آل سلامة)**، في **(النماص)**؟ إنه تِيهٌ جديدٌ أشدُّ من تِيْه **(بني إسرائيل)** القديم!

[1] الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٠٣.

العَذَر- بجرَّة قلم- (**جَدُورَ**) التوراتيَّة**!** أ فلا يكفي الراء بين الكلمتين برهانًا**؟!**

٢- كعادته يرجم بالغيب، متوهِّمًا أن اصطلاح «**قرية**» في (**فَيْفاء**) يعني مساحة واسعة من الأرض فيها مجموعة بيوت، وعدد من السكان، كما هو مفهوم القُرَى المألوف. والواقع أن اصطلاح «**قرية**» إنَّما يطلقونه، حسب تعبيرهم المحلِّي، على مبنى سكنيٍّ واحدٍ كبير، كما سبق القول. أي أن القرية، إذا ذُكِرت بلهجات **فَيْفاء**، فإنها لا تعدو منزلًا كبيرًا واحدًا من منازل الناس. وذٰلك المنزل إنَّما بُنِيَ بالتأكيد منذ عقود، أو قُل: منذ بضعة قرون، على أقصَى تقديرٍ، واتَّخذَ له أهله اسمًا ما، كعادتهم إلى اليوم.

٣- في النصِّ التوراتيِّ أن قرية (**جَدُورَ**) تقع إلى شَرقيِّ وادٍ: «**وسَارُوا إلى مَدْخَلِ جَدُورَ إلى شَرْقِيِّ الوادي**». فكيف أصبح الوادي مكانًا في جبل؟!

٤- هو يخمِّن هٰكذا اعتباطًا، ولو لمجرَّد اشتراك الاسمَين في حرفَين، ثمَّ يقول لك: «**على وجود عدد من الإمكانات الأخرى!**» وهٰذه العبارة كعبارة «**والله أعلم**»، لدَى المؤرِّخين التقليديِّين!

ولقد استمرَّ (**الصَّليبيُّ**) على نهجه القديم في كتابه الآخر «**خفايا التوراة**». ذٰلك أنه يُعمِل جهله بالمواقع لتأويل مجاهل «**التوراة**»، وصناعة تاريخٍ من أوهامٍ مركَّبةٍ، متردِّيًا من منزلقٍ إلى آخَر. فكما رأينا بناءَ افتراضاته سابقًا على معلوماتٍ هُلاميَّةٍ، مشوَّشةٍ، أو خاطئةٍ، دون أن يكلِّف نفسه بالتحقُّق اليسير، أو حتى بأن يستفسر أهلَ المناطق الذين يتحدَّث عن ديارهم- لمعرفة طبيعة الأماكن التي يربط

أسماءها بما وردَ في «**التوراة**»- ظلَّ ينهج نهجه العجيب في الاستخفاف بالمعلومة، وبعقل القارئ، وبالتاريخ.

من ذٰلك زعمه أن اسم (**محايل**)، في منطقة (**عسير**)، يعود إلى الاسم التوراتي (**محويائيل**)، من نسل (**قايين/ قابيل**). وأن (**مشيط**) يعود إلى اسم (**متوشائيل بن محويائيل**). وأن اسم وادي (**كَنَهْبَلة**) نَحْتٌ من اسمَي (**قايين**) و(**هابيل**). إلى آخِر هٰذه الافتراضات، التي لا زمام لها لا من لغة ولا من تاريخ.[1] مع أن «**مشيط**» ليس بمذكور في كتب البلدان القديمة، وإنَّما هو اسم رجلٍ متأخِّر، نُسِب إليه مكان، هو (**خميس امْشيط**)، المدينة المعروفة، ونُسِب إليه أو إلى غيره مكانٌ آخَر، هو (**حوض المشيط**)، من قُرَى (**محايل**). و(**الكَنَهْبَل**): اسمٌ عَرَبيٌّ لنوعٍ من الشَّجَر، وردَ في معلَّقة (**امرئ القيس**)، في بيته:

وأَضحَى يَسُحُّ الماءَ عَن كُلِّ فَيْقَةٍ ... يَكُبُّ على الأَذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

ولعلَّ وادي **كَنَهْبَلة** سُمِّي بذٰلك الشَّجَر.

ومن ذٰلك كذٰلك مسعاه لربط اسم (**طبحيم**)، (**سِفر التكوين، ٣٩: ١**)، بمكانٍ في جبال (**فَيْفاء**)؛ **لأن طبحيم** بزعمه اسم مكان، لا بمعنى «**الشُّرَط**». ففَتَّش عن (طاء باء حاء) مناسِبة، حتى قرأ أن في **فَيْفاء** مكانَين يسمَّى كلُّ واحدٍ منهما: (**بَطْحَان**)، فقال: «**وهناك قريتان في جبال جيزان** [كذا!]... **تحملان اسم بطحان، وقد يكون هٰذا الاسم صيغة مثنَّى من بطح، وهي استبدال من طبح.**

[1] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٣٩- ٤٢.

ولعل المعبد الذي كان يترأسه فوطيفار كان في واحدة من هاتين القريتين.»[1]

و(**فوطيفار**) هٰذا هو المسمَّى في «**القرآن**»: «**عزيز مِصْر**». إذن **عزيز مِصْر** كان مركزه في **بَطْحان بفَيْفاء**، ذٰلك البيت الصغير فوق سوق (**النَّفِيْعَة**) شَرقًا. وما أشكُّ في أن مَن يَعرف حقيقة المكان المشار إليه لن يملك حين يقف على هٰذا الكلام إلَّا الضحك حتى تبين نواجذه، وإنْ لم تكن له نواجذ!

بيت (**بَطْحان**)، ذاك المتواضع، كان قَصْرَ عزيز (**مِصْر**)، إذن، ومسرح الأحداث حول (**يوسف**)، و(**زليخة**)، و(**العزيز**).. إلخ.! كلُّ ذٰلك كان في تلك الأرياد والجُوَر المتجاورة! وعليه فإن لاسم **بَطْحان** هٰذا تاريخًا عريقًا يعود إلى نحو أربعة آلاف عام! وكذٰلك فإن البيت- غير القرية- لا بُدَّ أنه بناه (**عزيز مِصْر**)، لا أهل **بَطْحان الفَيْفيُّون!** فيا للعجب! وطبعًا، ليس ثَمَّة قريتان، ولا واحدة، بل هما بيتان سكنيَّان صغيران متقاربان جِدًّا، لأخوَين من سكَّان المنطقة من قبيلة (**الأبيات**)، يُطِلَّان على طريق المشاة قديمًا، وطريق السيَّارة حاليًّا، يُدعَى أحدهما: (**بَطْحان الأسفل**)، والآخر: (**بَطْحان الأعلى**). وما واحدٌ منهما بقرية، حتى باصطلاح الفَيْفِيِّين، بمعنى: البيت الضخم الواسع، وإنَّما يتكوَّن كلٌّ منهما من دارتَين ومِشْراح، أي من دورَين دائريَّين، وثالثٍ أعلاهما ذي شُرفة مُطِلَّة على الخارج. لا يهمُّ الرجلَ أيُّ شيءٍ من هٰذه التفاصيل، على كلِّ حال، فاهتمامه منكفئٌ على وجود الحروف المتقاربة- ولو مقلوبة أو مستبدلة- في اسمٍ ما: مكانًا كان، أو

---

[1] م.ن، ١٧٦- ١٧٧.

بيتًا، أو قبيلة، أو عشيرة، أو أُسرة، أو شخصًا.

على أننا سنزيده من البَطْحانات بيتًا، وهو دارة- أي طبقة دائريَّة من البناء- اسمها (**بَطْحان**)، تقع في بُقْعَة (**الحَشَى**)، في جبل (**آل ظُلْمَة**) من (**فَيْفاء**). غير أن هٰذه، في الواقع، لا تليق بـ(**عزيز مِصْر**)!

ثمَّ إنه لو كان قد تناهَى إلى (**الصَّليبيِّ**) أن مبنًى، غير بعيد من (**بَطْحان**)، يقع فوق (**النَّفِيْعَة**)، في مكانٍ يُسمَّى (**ذا امْوُدَيْف**)، جُعِل حَبْسًا (سجنًا) في العصر الحديث، فصار يُسمَّى: «**المَحْبس**»، لسارعَ إلى القول: لا بل هو حَبْسٌ قديم، وكان (**عزيز مِصْر**)، الساكن هناك في **بَطْحان**، قد حبس (**يوسف بن يعقوب**) فيه! ولو عرف أيضًا أن بيتًا، يقع على سَمْت البَطْحانَين المذكورَين شَرقًا، اسمه: (**مصر**)، لاكتملت اللعبة التأويليَّة بين يديه، ولما احتاج حتى إلى (**مصرمة عسير**)، التي لا يُدرَى أين تكون، ولا تاريخ لها يُذكر قبل **الصَّليبي**.

وفوق هٰذه المجازفات التي يقذف الرجل بنفسه في مهاويها، لا تستطيع أن تفهم كيف اجتمع في منطقٍ واحدٍ مثلُ هٰذا الشتات؛ بأن يزعم أن (**مِصْر التوراتَّية**) هي قرية (**المصرمة**)، بين (**أبها**) و(**الخميس**)، في حين أن مركز (**عزيز مِصْر** أو **المصرمة**) كان معلَّقًا في (**بَطْحان**) في جبال (**فَيْفاء**)، على مسافة نحو ٤٠٠ كيلًا بالسيَّارة؟! لٰكن هٰذا ليس بغريبٍ منه، ما دام يَمُطُّ مرعَى إخوة (**يوسف**) من منطقة (**القُنفذة**) إلى (**الدَّثْنَة**) في **فَيْفاء**، كما سنرى لاحقًا! والحقُّ أنَّ هٰذا هو مرعَى (**الصَّليبيِّ**) نفسه، راكضًا وراء الأسماء والحروف أنَّى وجدها، لا مرعَى إخوة (**يوسف**).

١١- التكهُّنات والمعلومات الغالِطة:

ما بَرِحَ (**الصَّليبيُّ**) ينثر ضروبَ التكهُّنات في كتبه. ففي كتابه «**حروب داود**»[1] ذهبَ إلى القول: إن (**بني عَمُّون**) كان موطنهم في بيت رجلٍ من (**فَيْفاء**) يقال له (**مُفَرِّح بن جبران**)، في مكان اسمه (**الحَبيل**)، وهو من منازل قبيلة (أهل **الدَّفْرَة**)، في جبال **فَيْفاء!** تخيَّلوا أن (**بني عَمُّون**) كلَّهم كانوا متحاشرين في بيت رجلٍ واحدٍ، لا لشيءٍ إلَّا لأن اسم البيت (**غُمَّان**)! لذٰلك فالأمر قد اختلط على مفسِّري «**التوراة**» فعَدُّوا **بني عَمُّون** أهلَ (**عَمَّان**) عاصمة (**الأردن**). و**الصَّليبيُّ** لا يرى ذٰلك، بل يرى أنهم كانوا يعيشون في بيت (**مُفَرِّح بن جبران**) المذكور. والدليل: (غ/ ع، م، ن)! وقد زعمَ أن ذٰلك البيت قرية. وما هو بقرية، بل هو بيتٌ عاديٌّ واحد. وليس بقريةٍ حتى بمفهوم أهل **فَيْفاء** للقرية، أي البيت الكبير، بل هو مربوعة، أي أنه بيتٌ مربَّع. وليس بالبيت القديم جِدًّا.

إنه، كما ترى، لا يعرف المكان، ولا التاريخ. لم يره، ولا يدري أين يقع، ولم يسأل عنه. كلُّ ما في الأمر أنه، وهو يبحث عن تشابه الحروف، وقع على هٰذا الاسم، وظنَّ الاسم، كعادته، لقريةٍ كاملةٍ اسمها (**غَمَّان**)، أو (**غُمَّان**). وكان قد ذهب في كتابه نفسه «**حروب داود**»[2] وجهةً أخرى، هي أن (**عمَّان**) تقع جَنوب (**خميس امْشيط**) داخل (**عسير**)!

---

[1] ١٤٧.

[2] ١٣٧.

وهٰكذا فإن (**الصَّليبيّ**) لا يبني افتراضاته على تأوُّلات شاطحة فحسب، بل يبنيها على معلومات غالطة أيضًا، لا أساس لها من الصحَّة، فيضطرب فيها هٰذا الاضطراب، الدالَّ في ذاته على أننا أمام ضروبٍ من التخمينات، لا أمام بحثٍ عِلْميٍّ يُركَن إليه. وليت شِعري، أيُّ مفارقةٍ هزليَّةٍ هنا في عملِ مَن يبحث عن أماكن توراتيَّةٍ مجهولةٍ (**لبني إسرائيل**) في أماكن أخرى هو أكثر بها جهلًا؟!

ثمَّ تأمَّل قوله على صفحةٍ واحدةٍ من كتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»[1]، كي تُدرك مقدار ما تكلَّف من تمحُّلٍ لإثبات نظريَّته، فوقع في العجائب. لقد قال، وهو يحاول تفسير نقش (**الحَجَر المُوآبي**)- الذي اكتُشف في المرتفعات الأردنيَّة شَرق (**البحر الميت**)، سنة ١٨٦٨، والموجود في (**متحف اللوفر، باريس**)- مناضِلًا لجعل إشارات النقش الأردنيِّ تُحيل، لا إلى أماكن هناك في تلك البلاد، بل إلى أماكن هنا في غَرب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وجَنوبها:

> **«إن موآب التوراتية قابلة للتعريف اليوم بالاسم بكونها قرية أم الياب في وادي أضم [كذا!]. وأم الياب هٰذه تقع عمليًّا إلى الجنوب من بلدة رابغ... والديبان... هي اليوم قرية في منطقة الطائف، غير بعيدة عن أُمِّ الياب!... وعمري احتل... جميع أرض موآب ابتداءً... من قرية الهُدَبَة، شمال أم الياب، في مرتفعات الطائف المشرفة على وادي أضم!»**

---

(١) ١١٣.

فـ«(**الديبان**) قريةٌ في منطقة (**الطائف**)، غير بعيدةٍ عن (**أُمِّ الياب**) [=(**مُوآب**)، الواقعة جَنوب (**رابغ**)]»! ولا ندري ما مقياس القُرب والبُعد لديه، ما دام ما في **الطائف** غير بعيد عمَّا في **رابغ**؟!

ثمَّ إن «**الهُدَبَة، شمال أُمِّ الياب،** [التي قال إنها في جَنوب **رابغ**]، (**في مرتفعات الطائف!**)».

فماذا يفهم القارئ من هٰذه الخريطة العجيبة التي تقلب الشَّمال جَنوبًا والجَنوب شَمالًا؟!

وكذا البحث والتحقيق، وكذا التدقيق العِلْمي، والتاريخ وإعادة كتابة التاريخ، وإلَّا فلا!

ومن هٰذا القَبيل، وما لا أكثر هٰذا القَبيل، مزاعمه حول (**حبرون**). وهي، كما عرفها الأوَّلون والآخرون: مدينة (**إبراهيم الخَليل**)، بالقُرْب من (**بيت المَقْدِس**)، المسمَّاة اليوم (**الخَليل**). قال (**الزَّبيدي**)[1]:

> **«وقد دخلتُها، وبها غارٌ يقال له: غارُ حَبْرُونَ، فيه قَبْرُ إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، عليهم السلام، وقد غلبَ على اسمها الخَلِيلُ، فلا تُعرفُ إلَّا به، وقد ذكرَ اللُّغتَين فيها ياقوتٌ وصاحبُ المَراصِد... ورُويَ عن كَعْبٍ [الأحبار] أن البناءَ الذي بها من بناء سُلَيمان بن داوودَ.»**

---

[1] (حبر).

وما زال الناس إلى اليوم يزورون ما يعتقدون أنه قبر (**إبراهيم**) و(**إسحاق**) و(**يعقوب**)، وزوجاتهم، في الحَرَم الإبراهيميِّ، في (**حَبْرون/ الخليل**). ولئن لم يكن ثمَّة ما يؤكِّد عِلْميًّا صِحَّة ما توارثه الناس حول ذٰلك، فإنه لا دليل في المقابل على نفي ما توارثوه، بل هو موافق لما تواتر في المصادر الدِّينيَّة والتاريخيَّة. غير أن (**الصَّليبيَّ**)[1] سيضرب بهٰذا كلِّه عرض الحائط، ليزعم أن **حَبْرون** قرية (**الخربان**)، بـ(**المجاردة**)، كما أن (**غابة ممرا**)- موطنَ **إبراهيم** الآخَر- هي (**النَّمِرَة**)، في منطقة (**القُنفذة**). ولا ينسى التأكيد على أن **القُنفذة** تقع بجانب **المجاردة**، و**المجاردة** بجانب (**رجال ألمع**). و**رجال ألمع**- كما ستراه يزعم بعد قليل- بجانب جبال (**فَيْفاء**)، فما بين تلك البقاع من المسافة سِوى «فَرْكَة كَعْب»، يقطعها الراعي بغنمه!

لقد ذهب إلى أن (**إبراهيم**) كان يعيش في قرية (**الخربان/ حَبْرون**)، ثمَّ عاش فيها من بعده (**يوسفُ**) وأبوه. وكان لا بُدَّ له أن يجد هناك مكانًا كان يرعى فيه إخوة **يوسف**، سُمِّي في «**التوراة**»: (**شكيم**). ففَتَّش ثمَّ فَتَّش، فلم يجد، لٰكنه أخيرًا عثر على مكان اسمه (**الكشمة**) في (**رجال ألمع**). فقال: هو هو، لا غير! ولَمَّا كان يوسف، حسب القِصَّة التوراتيَّة، قد ذهب يتفقَّد إخوته في مرعاهم البعيد في (**شكيم/ الكشمة**) في منطقة **رجال ألمع**، فلم يعثر عليهم، تَبِعَهم إلى مكان اسمه: (**دوثان**). فكان لا بُدَّ أيضًا من البحث عن **دوثان** هٰذه، واستخراجها، وإنْ من تحت الأرض. قال: «**هي اليوم الدَّثنَة من قُرى جبل فَيفا**»![2] وأقول: اسم المكان

---

[1] انظر: م.ن، ١٧٥، ٢٤٠- ٢٤١.

[2] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٢٣٩- ٢٤٣.

الصحيح: (**الدَّثْنَة**)، بسكون الثاء. وثَمَّة ثلاثة أمكنة مختلفة المواضع في جبال (**فَيْفاء**)، بهٰذا الاسم، كما تقدَّم. وليست ثمَّة قريةٌ أصلًا، بالمعنى المألوف لكلمة قرية، باسم **الدَّثْنَة**، وإنما هو بيتٌ عائلي.

ونُحِبُّ أن نلفت نظر مَن يحمل تحليلات (**الصَّليبيِّ**) على محمل الجِدِّ إلى أنَّ في جبال (**فَيْفاء**) أربعة أمكنة باسم (**الكشمة**)، تمامًا كذٰلك الذي ذكرَ أنه مرعى إخوة (**يوسف**) في (**رجال ألمع**). أحد تلك الأماكن يقع في جبل (**آل المَشْنِيَة**)، والثاني في جبل (**آل بِلْحَكَم/ أبي الحَكَم**)، والثالث في جبل (**آل ظُلْمَة**)، والرابع في (**الدَّفْرَة**). والأخيران يقعان قريبًا من المكان المسمَّى: (**الدَّثْنَة**). فلِمَ لا تكون (**حَبْرون**)، إذن: مكانًا في **فَيْفاء** يُسمَّى: (**الخرابة**)، وهو اسم بيتٍ في جبل **آل المَشْنِيَة**، أو تكون مكانًا اسمه: (**رحبان**)، وهو اسم بيتٍ في الجبل نفسه، ثم نقول- على طريقة (**الصَّليبيِّ**)- إن **يوسف** قد ذهب من هناك للبحث عن إخوته في **الكشمة**، وهو ذِراعٌ جبليٌّ[1] في جبل (**آل ظُلْمَة**)، فوجدهم في المكان المسمَّى (**الدَّثْنَة**)، وهو مكانٌ مجاورٌ **للكشمة؟!**

وإذا كنَّا قد وجدنا ما يُشبه اسم (**حبرون**) و(**شكيم**) و(**دوثان**) جميعًا في جبال (**فَيْفاء**)، فبوسعنا كذٰلك أن نجد (**للصَّليبيِّ**) اسم (**ممرا**)، و(**مكفلة**)، في **فَيْفاء** أيضًا. فنقول: إن **ممرا**- التي كانت مَوطن (**إبراهيم**)، وقال **الصَّليبيُّ** إنها (**النَّمِرَة**)، شَرق (**القُنفذة**)- يمكن أن نطرح عنها- على طريقته- عِدَّة احتمالاتٍ أقرب ممَّا ذهب إليه: بأنها، مثلًا، مكانٌ في **فَيْفاء** يقال له: (**المرمر**)، أو مكانٌ آخر يُسمَّى: (**المَرْمَى**)،

[1] الذِّراع: ضِلْعٌ جبلي.

أو ثالثٌ اسمه: (**المَرْوَة**)، أو رابعٌ اسمه: (**مذرا**).. إلخ. أمَّا مغارة (**مكفلة**)- التي دَفن فيها **إبراهيمُ** امرأته، ثمَّ لَمَّا مات هو دُفن فيها، وجاءنا **الصَّليبيُّ** زاعمًا أنها (**مَقْفَلَة**) في منطقة **القُنفذة**، ناسفًا التصوُّرَ التاريخيَّ حول **المسجد الإبراهيميِّ في مدينة (الخليل)**، حيث مغارة **المكفلة/ المكفيلة**، وقبر النبي **إبراهيم**- أمَّا تلك المغارة، فيمكن القول: إنها مكانٌ في **فَيْفاء** يسمُّونه: (**امْقَفِلِي/ القَفِلِي**).

وهٰكذا، فإذا كانت المسألة مسألة أسماء، فما أكثرها! ومنها كما ترى بدائل لا تُحصَى، وهي أشدُّ تجاورًا، وأقرب شبهًا ومعقوليَّة من اختيارات (**الصَّليبيِّ**)، المتباعدة مكانًا وصياغة! وهٰذا يَدُلُّ على أن تحليلاته لا تدلُّ على شيءٍ، وأنه يمكن أن نقول مثل قوله عن أماكن أخرى متعدِّدة، أَنَّى ولَّينا وجوهنا.

١٢- بين التاريخ والكِهانة:

ألم يقل (**كمال الصَّليبيُّ**) في كتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»[١]: إن (**شكيم**) هو: (**الكشمة**) في منطقة (**رجال ألمع**)؟

أجل، ثمَّ سيأتيك في كتابه الآخر «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»[٢] فيقف أمام الاسم نفسه (**شكيم**)، الذي تَوجَّه إليه (**إبرام الآراميُّ**)، كما يُسمِّيه، فإذا هو يقول: إن شكيم هي: (**قرية القَسَمَة**)، في (**سَراة زَهران**).

---

[١] انظر: م.ن.

[٢] انظر: ١٠٤.

أ ولم يقل أيضًا إن (**غابة ممرا**)، التي كانت موطن (**إبراهيم**)، هي: (**النَّمِرة**)، شَرق (**القُنفذة**)؟[1]

أجل، لٰكنه سيأتيك في كتابه «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»[2] فيقف أمام المكان الذي أقام فيه مَن يُسمِّيه (**إبراهيم الآرامي**)- ولديه من (**إبراهيم**) ستة: (**إبراهيم العِبراني**)، و(**إبراهيم الآرامي**)، و(**إبراهيم التكوين ١٥**)، و(إبراهيم شباعة)، و(**إبراهيم اليَمَن**)، و(**إبراهيم أو أبو رُهْم السَّراة**)[3].. ويخلق ما لا تعلمون!- وذٰلك المكان هو (**غابة مورة**)؛ فيقول: إنه قرية (**المورة**)، إلى شَمال (**القَسَمَة**)، في (**سَراة زَهران**).

أ ولم يقل كذٰلك إن (**إبراهيم**) كان في (**حبرون**)، وزعمَ أنها قرية (**الخربان**) بـ(**المجاردة**)؟

أجل، ومع ذٰلك سيأتيك في كتابه «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»[4] فيقف أمام مكان كان فيه (**إبراهيم**) يقال له: (**حاران**)- وهو (**حَرَّان**) اليوم، في جَنوب شَرق (**تركيا**)- فيقول: إنه قرية (**خيرين**)، في منطقة (**الطائف**).

ولدَيه أن (**إبرام/ إبراهيم**)، جدَّ العِبرانيِّين، كان في (**القُنفذة**)، ومن نسله هناك كان (**بنو إسرائيل**). وثمَّة (**إبرام/ إبراهيم**) آخَر كان في (**سَراة زَهران**)، وهو

---

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٤٠ مثلًا.

[2] انظر: م.ن.

[3] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٩٦- ١٥٠.

[4] انظر: ١٠٤.

جَدُّ الآراميِّين هناك، ومن نسله هناك (**بنو يهوذا**، أو **اليهود**)! وسبحان الخلَّاق الباري، الرجلان بالاسم نفسه، ومواطنهما متشابهة الأسماء، وأماكن ترحُّلهما كذٰلك. وأولادهما وأحفادهما: (**إسحاق**)، و(**يعقوب**) و(**يوسف**).. إلخ![1]

ومع أن التشابهات، ومهما كانت طفيفة، ما فتئت تلفت (**الصَّليبي**)، وبصورةٍ كثيرًا ما تبدو عجيبةً في افتعالها وتكلُّفها، فإن التشابهات في ظاهرة إبراهيم وآله جاءت غير مؤثِّرة فيه لتوحيد الصورة. بل على النقيض من ذٰلك، دفعته إلى تمزيق الصورة في شخصيَّات شتَّى؛ وذٰلك لأمرٍ في نفس **كمال**! منكِرًا بإصرارٍ بعض ما وردَ في «**التوراة**» حول هٰذه الشخصيَّات؛ لأنه، ببساطة، لا يتَّفق مع قِسمته إيَّاها بين (**عسير**) و(**القُنفذة**) و(**زَهران**).[2] فهو يَقبل «**التوراة**» معتمَدًا للتأويل، ويرفضها في الوقت نفسه حينما لا توافق تأويلاته. وبين القبول والرفض نصٌّ لم يَعُد معتدًّا به وثيقةً تاريخيَّةً أصلًا، حتى من قِبَل الآثاريِّين الإسرائيليِّين أنفسهم[3]، منذ ثمانينيَّات القرن العشرين؛ بل صاروا يفرِّقون بين تاريخ **إسرائيل** وما جاء في «**التوراة**» من تراث، أُعيدَ تحريره وتركيبه أدبيًّا من الكهنة وكتبة السَّبي البابلي، حنينًا إلى ماضيهم في أرض (**كنعان/ فِلسطين**)؛ فداخلته الأساطير الشعبيَّة المنتشرة بين شعوب المنطقة في ذٰلك الزمان، ممَّا هُوِّد وأُسْرِل على أيديهم، مع ما زادوا عليه من

---

[1] انظر: م.ن، ١٠٥.

[2] انظر: م.ن، ١٩٨- ٢٠٠.

[3] ومن أبرز هٰؤلاء عالم الآثار (**إسرائيل فرانكشتاين** Israel Finkelstein).

أكاذيب وتخييلات.[١] وبذا فلا يعني أنْ لا أثر للرواية التوراتيَّة في (**فِلسطين**) أنه كان لها وجودٌ تاريخيٌّ (حرفيٌّ) في مكانٍ آخر. وهي روايةٌ سعَى (**الصَّليبي**) جاهدًا لاختلاق تاريخٍ بديلٍ لها، أشدَّ وهميَّة في (**جزير العَرَب**). وفعل ذٰلك مَن اقتفَى أثره من المؤلِّفين، في حملةٍ تطوُّعيَّةٍ للبحث عن تاريخيَّة «**التوراة**»؛ فكانوا بذٰلك أغرب ادِّعاءً من التوراتيِّين التقليديِّين؛ من حيث إنهم؛ لكي ينفوا تاريخ (**بني إسرائيل**) عن **فِلسطين**، ركبوا رؤوسهم تأويليًّا لغرسه في مكانٍ آخَر، في نزعةٍ لا تخفى سحنتها الإديولوجيَّة.

وكذا شَقَّ صاحبُنا شخصيَّة (**مُوسَى**) نصفَين، فصار موسيَين.[٢] الأوَّل: (**مُوسَى إلوهيم**)[٣]، أو (**مُوسَى يَهْوَهْ**)[٤]. وهٰذا رجلٌ كان في ما يُعرف اليوم

---

[١] شاهد في هٰذا مثلًا الحِوار القيِّم الذي أُجري مع الباحث التاريخي والميثولوجي السُّوري (**فراس السواح**) على قناة «**الميادين**»: https://goo.gl/g9ivWy

[٢] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢١٧- ٢٠٠.

[٣] (**إلوهيم**): أحد أسماء الربِّ في العِبريَّة. ومن أسمائه الأخرى: (**إيل**)، و(**عليون**)، و(**شداي**)، و(**يَهْوَه**). وهي صفات للإلٰه في الأصل أو كنايات عنه، من: الألوهيَّة، والعظَمة، والعُلو، والشِّدَّة، والتفرُّد.

[٤] في (**التوراة**، سِفر الخروج، ١٤- ١٥): «**فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هٰكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ». وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى: «هٰكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلٰهُ آبَائِكُمْ».**» وكأن «**أَهْيَه الَّذِي أَهْيَه**»: «**الحَيُّ الذي أَحْيَى**». وقيل معنى «**أَهْيَه**»: «**أنا هُوَ**». أي: المُطْلَق، الذي عَزَّ عن التسمية إجلالًا. ونستقرئ أصداء هٰذه الدلالات في «**القرآن**»- على الفارق البعيد ما بين صورة (**يَهْوَهْ**) في «**التوراة**» وصورة (**الله**) في «**القرآن**»- من مِثل: «**الحَيُّ القَيُّوم**»، و«**قُلْ: هُوَ الله**». فاستعمل ضمير الغائب، مع أنه لم يسبق ما يشار به إليه، ولم يقل: «**قُل: الله أحد**». وكأن استعمال الضمير إشارة ضِمنيَّة إلى أنه إلٰهٌ غيبي، مُنَزَّه عن أيِّ حضورٍ مباشر، حتى باسمه. ذٰلك أن «**أسماء الله**» هي في حقيقتها صفاته، بما في ذٰلك لفظ الجلالة «**الله**»، الذي أصله: «**الإلٰه**». ولذا تأتي الآية: ﴿**شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.**﴾ ومهما يكن، فالراجح أن «**يَهْوَهْ**» كنايةٌ تنزيهيَّةٌ عن الإلٰه. وما زلنا نسمع في اللهجة المِصْريَّة ←

بـ(**اليَمَن الشَّمالي**). وأمَّا الآخَر، فـ(**مُوسَى بن عَمْرام**)، (بالميم). وهٰذا هو (**مُوسَى العسيري**)، أخو (**هارون**) و(**مَرْيَم**)![1] والمؤلِّف مُصِرٌّ دائمًا- وتلك من عجائبه، أو قُل من تكئاته التي لم يجِد سِواها- أن أسماء الأعلام البَشَرِيَّة تتحَّول باستمرار إلى أسماء أماكن. فتراه لا يذكر اسم إنسانٍ إلَّا حاول البحث له عن اسم مكان. لكأنَّه يرَى هٰذا دليلًا يقوِّي مزاعمه. لا، بل هو يحاول أن يَجِدَ لكلِّ كلمةٍ توراتيَّة- من اسمٍ أو وصفٍ أو سِواهما- معادلًا مكانيًّا، مفتِّشًا في «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**» عن مبتغاه من الأسماء، فإنْ لم يجِد تطابقًا، ففي بعض الأحرف الكفاية. من ذٰلك، على سبيل التمثيل:

- (**عمران**): هناك قريتان في (**الطائف**) باسم: (**آل عَمْرين**)!
- (**مُوسَى**): هناك (**قرية آل مُوسَى**)، [كذا!][2]، على الطريق بين (**الطائف**) و(**أبها**)!
- (**هارون**): هناك قرية اسمها: (**هَوران**)، بتِهامة (**زَهران**).
- (**مَرْيَم**): هناك قرية (**آل مَرْيَم**)، بتِهامة **زَهران** أيضًا.

ثمَّ امضِ، لا تسأل بعد هٰذا مَن (**آل عَمْرين**)، و(**آل مُوسَى**)، و(**آل مَرْيَم**)؟

والحِجازيَّة عبارة شبيهة، هي: «يَهُوْهْ»، في إشارةٍ إلى المجهول، أو الغائب عمومًا: «يا هُوَ»، وإنْ كان هٰذا التعبير يُستعمَل في سياق المخاطَب. وربما جاء ذٰلك تحقيرًا أو تعظيمًا. ومثل ذٰلك في لهجات (**نَجْد**) عبارة: «**يا هِيْهْ**»، التي نسمعها في الشِّعر النَّبَطي. ولا يُستبعَد أن هٰذه التعبيرات ذات أصلٍ واحدٍ، وأن تسمية «يَهْوَهْ» جاءت من مِثل تلك الشواهد التي ما زالت على ألسنة الناس؛ بهدف تقديس الإلٰه وتهويل شأنه، وتنزيهه عن أن يُذْكَر باسم، أو كأنه أعلى من أن يُعرَف اسمه، أو- إنْ عُرِف- أرفع من أن يُسمَّى أو يُوصَف.

[1] انظر: م.ن، ٢٢٩.

[2] هي قرية (**المُوسَى**)، من قُرَى قبيلة (**بني حسن بسَراة زَهران**). (انظر: الزَّهراني، **المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة: بلاد غامد وزَهران**، ٢٣٤).

فـ(**عَمْران ومُوسَى ومَرْيَم**) هٰؤلاء هم: (**عُمْران ومُوسَى ومَرْيَم**) قطعًا، وعلى مرِّ التاريخ، وليسوا بأسماء أشخاص آخَرين أصبحت تُكنَّى بأسمائهم عوائل، فعشائر، نشأت خلال القرون الأخيرة من التاريخ الإسلامي، وسُمِّيت بهم قُراهم! كلَّا، هٰذا ليس لدَى (**الصَّليبيِّ**) بمحلِّ سؤال، أو توقُّف، أو نقاش، فضلًا عن أن يحمله على البحث في تاريخ الأسماء والتحقيق في أصولها، بل يكفي لديه تشابُه الأحرف بينها! وللموسَويِّين إخوةٌ بالأسماء نفسها في عرض البلاد وطولها، وهو تاريخٌ سورياليٌّ لا تنقضي عجائبه! ودائمًا يبدو هٰؤلاء الأعلام لديه آلهة، بصورةٍ أو بأخرى، كلَّما في الأمر أن بعضهم يغلب بعضًا فيستعبده! ذٰلك أن الدِّيانة اليهوديَّة ذات أصول وثنيَّة، كما يرى.[1]

و«**ضاع الهِرُّ في وادي اللَّبن**»، كما يقول المثل الشَّعبي الجَنوبي. هٰكذا ظلَّ (**الصَّليبيُّ**) يترحَّل بالأسماء من مكانٍ إلى مكانٍ ويقسِّم الشخصيَّات، إذا أعياه التوفيق بين الروايات حولها؛ ليصبح (**إبراهيم**) إبراهيمَين، أو أكثر، حسب الظروف، وكذا (**مُوسَى**).

ولولا ذٰلك الداء العَياء الذي استبدَّ بالمؤلِّف، لغَلَبَ على الظنِّ، إنْ لم يكن إلى اليقين العِلْمي من سبيل، أن (**شكيم**) هي (**شكيم الشَّام التوراتيَّة**)[2]، و(**ممرا**) هي (**مورة**)، و(**حبرون**) هي (**حاران**)، و(**إبراهيم**) هو **إبراهيم**، الذي دلَّت الآثار

---

[1] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٢٥٣.

[2] (**شكيم**): ما يُعرف اليوم بـ(**نابلس**)، شَمال (**القُدس**). العاصمة الطبيعيَّة لأرض (**كنعان**). (وانظر: السقا، أحمد، **مقدمة كتاب «التوراة السامريَّة»**، ٤).

وأسماء الدِّيار على شخصيَّته وسيرته ومسيرته وهجراته، في (**العِراق**) و(**الشَّام**) و(**جزيرة العَرَب**).[1] وأن التصحيفات، أو اختلاف الصيغ في الروايات المختلفة، هو- كتشابه الأسماء- لا يُعوَّل عليه عِلْميًّا في إثبات الحقائق التاريخيَّة أو غير التاريخيَّة. أمَّا «**التوراة**»، فستظلُّ حيرة الدارسين؛ لأن نصَّها رُكام من الروايات المتعدِّدة للقصص نفسها، بصيغ مختلفة، وأكداس من المخطوطات والترقيعات عبر التاريخ، لن يجمع بينها افتراض صوابها جميعًا، ثمَّ اللجوء إلى توزيع الأماكن شَرقًا وغَربًا، شَمالًا وجَنوبًا، وتشقيق شخصيَّة البطل الروائي الواحدة إلى شخصيَّات شَتَّى.

ثُمَّ نأتي إلى لَقب «**اليهود**».

أ هو نِسبةٌ إلى (**يهوذا**)، رابع أبناء (**يعقوب**)، من امرأته (**ليئة**)؟

أم إلى مملكة (**يهوذا**)، كما زعم (**الصَّليبي**)؟[2]

أم إلى إلٰهِهم الذي سَمَّوه (**يَهْوَهْ**)؟

أم أصله اسمٌ جغرافيٌّ، من «**يهوده**» بالعِبريَّة، ويعني الأرض المنخفضة، أو «**الوهدة**»؟[3]

أمَّا أن لَقب «**اليهود**» نِسبةٌ إلى (**يهوذا**)، رابع أبناء (**يعقوب**)، فبعيد الاحتمال،

---

[1] انظر: سوسة، ٢٤٨- ٢٦٤.

[2] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٥٥.

[3] انظر: م.ن، ١٥٥- ١٥٦.

كما يرى بعض الدارسين[1]؛ لأن **يعقوب** وأبناءه عاشوا في الألف الثاني قبل الميلاد، ولم يُستعمَل لقب «**اليهود**» إلَّا بعد خروج أتباع (**مُوسَى**) من (**مِصْر**) واستقرارهم في (**فِلسطين**)، بعد عهد **يهوذا بن يعقوب** بقرون.

وأمَّا أن لقب «**اليهود**» نِسبة إلى مملكة (**يهوذا**)، فقولٌ لا دليل عليه. وإنَّما مملكة يهوذا إحدَى مملكتَين يهوديَّتين، (**مملكة يهوذا**) في الجَنوب و(**مملكة إسرائيل**) في الشَّمال؛ أ فليس المنتمون إلى **مملكة إسرائيل** بيهود؟ فضلًا عن أن **يهوذا** اسمٌ لمكان المملكة نفسه، وهو اسمٌ كنعانيٌّ قديم.[2] على أنهم لم يُسَمَّوا «**اليهوذ**»، بل «**اليهود**»، وإنْ كان تبادُل الحروفِ قريبةِ المخارجِ وارد.

وأمَّا أن لقب «**اليهود**» نِسبةٌ إلى إلٰههم الذي سَمَّوه (**يَهْوَهْ**)، فاحتمالٌ غير مستبعد، لٰكنه محفوفٌ بصعوبةٍ تخريجيَّةٍ لغويَّةٍ، أَقَرَّ بها المؤلِّف نفسه.[3]

وأمَّا الزعم أن لقب «**اليهود**» من «**يهوده**»، ويعني الأرض المنخفضة، أو «**الوهدة**»، فتكلُّف، اصطنعه (**الصَّليبيُّ**)[4] كي يقول إن **اليهود** كانوا في (**تِهامة عسير**) ووِهادها. مع أن هناك وهادًا في (**فِلسطين**) أيضًا! وعلاقة **اليهود** كانت بالجبال والوِهاد معًا!

لٰكن ما لنا وهٰذه التأويلات البعيدة. إننا حين نعود إلى نصِّ «**القرآن**»، نُلفيه

---

[1] انظر: سوسة، ٢٣٢- ٢٣٩، ٢٤٩- ٢٥٠، ٢٦٩- ٢٧٠.

[2] انظر: م.ن، ٢٣٩.

[3] انظر: الصَّليبي، م.ن، ١٥٦.

[4] انظر: م.ن.

يُسمِّيهم بـ«**الذين هادوا**»، في عشر آيات[1]، وجاء على لسانهم: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾.[2] وكأنَّ في معنَى «**الذين هادوا**» الذين رجعوا من (**مِصْر**) إلى (**فِلسطين**). بل ما أكثر رجوع القوم من مكانٍ إلى مكان، ومن حالٍ إلى أخرى! كما سمَّاهم «**القرآن**»: «**هُوْدًا**»، جمع هائد، أي راجع: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**﴾[3]. ولا نستشهد بـ«**القرآن**» لسببٍ عاطفيٍّ دِينيٍّ، بَيْدَ أنه ما من ريبٍ في أن النصَّ القرآنيَّ يحمل ذاكرةً لغويَّة، ووثيقةً ثقافيَّة، وبيئيَّة، حول هٰذه المسألة، فيساعد في تفسير تسمية (**اليهود**) بهٰذا الاسم، بل يكشف عنها، وأنها من «**هادَ**»، أي: رَجَعَ. وهٰذا الجذر اللغوي ما زال مستعملًا في بعض لهجات (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، خليقًا أن يكون مستنَدًا في تفسير معنى كلمة «**يهود**»، الذي يطول حوله الجدال. وهو منحدِرٌ من أصلٍ ساميٍّ قديمٍ قطعًا. ففي لهجات جبال (**فَيْفاء**) والمناطق المجاورة لها، على سبيل المثال، يقولون: «**هادَ، يَهُوْد**»، بمعنى: حَضَر.[4]

---

[1] **سورة البقرة**: الآية ٦٢؛ **سورة النساء**: الآيتان ٤٦، ١٦٠؛ **سورة المائدة**: الآيات ٤١، ٤٤، ٦٩؛ **سورة الأنعام**: الآية ١٤٦؛ **سورة النحل**: الآية ١١٨؛ **سورة الحج**: الآية ١٧؛ **سورة الجمعة**: الآية ٦.

[2] **سورة الأعراف**: الآية ١٥٦.

[3] **سورة البقرة**: الآية ١١١. وقارن: الآية ١٣٥، ١٤٠.

[4] تَسمع، مثلًا: «**هادَنْ** [هادتْ] **عَبْلَةْ تَهُوْد**»، أو «**هادَنْ** [هادتْ] **أُمُّ الصُّبْيَان**»، وهما اسما جِنِّـيَّـتَين، يستحضرونهما بهٰذا الدعاء، تذمُّرًا، أو تعبيرًا عن تأزُّمٍ ما. ومن هٰذا تسميتهم «**الهَوْد**»: حفلة الخِتان، أو حفلة النكاح. وكأنَّ أصل الكلمة من: هادَ، إذا رَجَعَ. وهو رجوعٌ إلى ذوي رَحِمٍ، تتجلَّى فيه صِلَة الرَّحِم وعلاقة النَّسب. ولاسيما أن المختون في يوم الخِتان كان يمثِّل الذُّكورة، وما تعنيه عِرقيًّا، وكان لا بُدَّ له، من أجل ذٰلك كلِّه، أن يُلقي بين يدَي عمليَّة الخِتان سلسلة نَسَبه كاملًا، ونَسَب أخواله أيضًا، بثقةٍ تامَّة، في طقسٍ قَبَليٍّ مهيب. أمَّا الشأن في هَوْد النكاح، فواضح. وممَّا يدلُّ على أن «**الهَوْد**» مشتقٌّ من ذٰلك أن ←

وعودًا إلى تأويلات (**الصَّليبي**) للأماكن، فإننا لو افترضنا صحَّة ما فعل، فسنجد الأماكن التي يُشرِّق بها ويُغرِّب معروفةً في أماكن أخرى، ومنها ما هو في جبال (**فَيْفاء**)، على سبيل النموذج. ذٰلك أن (**شكيم**): في **فَيْفاء** وحدها اسمٌ لعِدَّة مَواطن، باسم (**كشمة**)؛ فليختر منها بديلًا لـ(**شكيم**) «**التوراة**». وكذا سيجد عِدَّة مَواطن باسم (**المَرْوَة**)؛ فليختر منها بديلًا لـ(**مورة**) أو (**ممرا**)، إذا شاء. ومثل ذاك بقيَّة الأسماء، لو أردنا مواصلة التتبُّع للأشباه والنظائر.

وقِف بعد هٰذا على مفاخرته بإنجازه التاريخي، لتنال نصيبًا من فُكاهات المؤرِّخين. إنه ليفتخر في كتابه «**خفايا التوراة**» بأنه في كتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» قد أقام الدليل القاطع على أن (**بئر سبع**) أو (**شبعة**) التوراتيَّة لم تكن بلدة **بئر سبع** المعروفة جَنوب شَرق (**غَزَّة**)، بصحراء (**النَّقَب**)؛ **فالنَّقَب** هي، كما يرى: (**ظهران الجَنوب**)، في (**السُّعوديَّة**). ووصْف «الجَنوب» هاهنا، الذي مُيِّز به هٰذا المكان حديثًا عن غيره من الأماكن، كـ(**ظهران**) المنطقة الشرقيَّة، صفةٌ للمكان، حسب زعم البحَّاثة (**الصَّليبي**)، منذ أيَّام (**إبراهيم**)، عليه السلام؛ وهي «**جنب**» المذكورة في «**التوراة**»)، وليست «**جنبُ**» بـ«**النَّقَب**» كما توهَّم الواهمون! بل إن (**بئر سبع**) هي (**قرية الشباعة**) بداخل (**عسير**) في أعالي (**وادي بِيشة**)، وهي اليوم جزء من مدينة (**خميس امْشيط**)!

نَجِدَ في العَرَبيَّة قولهم: إن الهَوَادَة هي الحُرْمَةُ والسَّبَبُ؛ فتَهَوَّدَ، إذا تَوَصَّلَ برَحِمٍ أو حُرْمَة، أو تَقَرَّب بإحداهما. مستشهدين ببيت (**زُهير بن أبي سُلمَى**):

سِوَى رِبَع لَمْ يَأْتِ فيه مَخَافَةً ... ولا رَهَقًا مِنْ عَائِـدٍ مُتَهَوِّدِ

قيل: المُتَهَوِّد: المُتَقَرِّب، أو المُتَوَصِّل بِهَوادَة. (انظر: ابن منظور؛ الزَّبيدي، (هود)).

(بئر سبع)، إذن: حيٌّ معروف من الأحياء في **(خميس امْشيط)**، و**(النَّقَب)**: **(ظهران الجَنوب)!**

كيف «أقام الدليل القاطع» على ذٰلك؟

وَجَدَ أماكن شبيهة أسماؤها بأسماء توراتيَّة ما زالت هناك في أجزاء مختلفة من حوض **(وادي بِيشة)**، كما قال، على ما بينها من بُعد الشُّقة.

ما تلك الأسماء قطعيَّة الثبوت والدلالة؟

قال: **(جرار)**، هي اليوم **(القرارة)**، و**(مصرايم)**، هي **(المصرمة)**، وكلتاهما في الجوار العامِّ لمدينة **(خميس امْشيط)**، وكذٰلك **(بئر لَـحَيْ رُئي)**، هي واحةٌ اسمها اليوم **(رُويَة)** بأسفل **(وادي بِيشة)**. ويضيف أن **بئر لَـحَيْ رُئي**، أو **رُويَة** بأسفل **وادي بِيشة**، هو المكان الذي وُلِد عنده **(إسماعيل)**، لا عند بئر **(زَمْزَم)**، بـ**(مَكَّة)**، حسب الرواية الإسلاميَّة المتواترة![١]

فيا لها من أدلَّة قاطعة حقًّا، تزيد الطِّين بلَّة!

لٰكن الدليل الأقطع، في حقيقة الأمر، أن **(الصَّليبي)** إنما أخذ فكرته حول **(بئر سبع)**- والزعم أن هٰذا المكان الوارد في **«التوراة»** هو إشارة إلى **(قرية شباعة)** في **(خميس امْشيط)**- من **(فِلْبِي)** في كتابه **«مرتفعات الجزيرة العَرَبيَّة»**[٢]؛ فهو مصدره، ويبدو مُلْهِمَه الأساس للتوسُّع في هٰذا الموضوع، وربما لكتابة كتابه كلِّه.

---

(١) انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ١١٥- ١١٧.

(2) See: Philby, 257.

فقد ذكرَ **فِلْبِي** أنه يعتقد أن «**الآبار السَّبعة**»- التي ذكرها (**سترابو**)[1] خلال وصفه حملة (**إيليوس جالوس** Aelius Gallus) الرومانيَّة على (**جزيرة العَرَب**)- يُطابق موقع **خميس امْشيط**، بناءً على المسافات التي أشار إليها **سترابو**. وهناك ذكرَ **فِلْبِي**: «Bir Saba'»، مع أن **سترابو** لم يورد الاسم بهٰذه الصيغة، بل بصيغة « Hepta Phreata»، أو «El-Hasba» في بعض الترجمات، وفي الإغريقيَّة: «Ἑπτὰ φρέατα».

ومهما يكن من احتمال لإيراد **فِلْبِي** ذٰلك الاسم «Bir Saba'»- أ عن خطأ جاء أم عن تصحيف- فلا هو، ولا **سترابو**، كانا يتحدثان عن «**التوراة**»، ولا عن أن **بئر سبع** التوراتيَّ كان في **خميس امْشيط**. ولٰكن يبدو أن هٰذا الاسم قد اقتدح مخيِّلةَ **الصَّليبيِّ** الخصبة، فاستدعى بقية الأسماء، فإذا هو يتكفَّل بنقل (**فِلسطين**) كلِّها وما جاورها إلى (**عسير**)!

١٣- هوس التأويل:

تُرى ماذا لو قلتُ أنا- على غرار صنيع (**الصَّليبي**)- إنِّي، «**وإنْ كنتُ الأخير زمانه**»، قد أقمتُ الدليل القاطع على أن (**بئر سبع**)، أو (**شبعة** التوراتيَّة)، لم تكن ببلدة **بئر سبع** المعروفة جَنوب (**فِلسطين**)، بصحراء (**النَّقَب**)- ولا في (**خميس امْشيط**)، حسب زعم (**الصَّليبي**)- بل هي اليوم محلَّةٌ تُنسب في جبال (**فَيْفاء**) إلى (**آل**

---

[1] See: Strabo, **THE GEOGRAPHY OF STRABO**, (v. 7), Book 16, Chap. 4: 24.
وعن تلك الحملة، انظر: ملحق هٰذا الكتاب.

شباحة)؟ ولا ملامَ علينا من **الصَّليبي**؛ فهو لا يرى فرقًا- في كلِّ حال- بين أسماء العشائر والأماكن. بل إنه ليجد في كلِّ تكنيةٍ بـ(آل) معنى: (الإلٰه). فإذن **(شبعة** التوراتيَّة) هي: ناحية **آل شباحة**. والدليل «القاطع» على ذٰلك، وجود أماكن أخرى توراتيَّة ما زالت بأسمائها في أجزاء متقاربة من جبال **فَيْفاء**. من تلك الأسماء: **(جرار)** التوراتيَّة، وهي اليوم مكانٌ يسمى **(القرار)**، و**(مصرايم)**، وهي اليوم مكانٌ يُسمَّى **(مصر)**، وكلاهما في الجوار العامِّ في جبال **فَيْفاء**. وكذٰلك فإن **(بئر لَـحَيْ رُئي)** هو إمَّا مكان اسمه اليوم: **(اللاوية)**، وإمَّا آخَر اسمه: **(رقية)**، وإمَّا رابع اسمه: **(الرعثة)**، أو حتى مكان اسمه: **(ذراع بير معوان)**، أو آخَر اسمه: **(وادي امْبير)**. وعلى هٰذا النهج نمضي في المقارنات والربط بين الأسماء؛ لنُنشئ تاريخًا ما سبقنا به من أحدٍ من العالَمين!

ولقد يبدو قول **(الصَّليبي)**[1] عن **(بئر لَـحَيْ رُئي)**: إنها واحة **(الرُّوية)** الحاليَّة بمنطقة **(بِيشة)**، مستشهِدًا بما ورد في (**سِفر التكوين**، ١٦: ١٤) من أن **بئر لَـحَيْ رُئي** تقع بين **(قادش)** و**(بارد)**، وأن **الرُّوية** تقع بالفعل بين واحتين أُخرَيين، هما **(الجداس)** و**(البارد)**؛ لقد يبدو هٰذا أمرًا مثيرًا للدهشة، موحيًا بالإقناع في الاستدلال بمثله. ولٰكن على رِسلك! اختبر هٰذا الاستدلال، وتلك القرائن التي استند إليها الرجل، وستجد أنه ممكنٌ العثور على أضرابها في غير منطقة **بِيشة**. وهو ما يُسقِط التعلُّق بها في **بِيشة** وحدها دون سِواها. وسأمثِّل على ذٰلك، كما أسلفت،

[1] انظر: خفايا التوراة، ١٤٧.

من أماكن أعرفها في (**فَيْفاء**)، لن أعدوها. أسوقها نماذجَ لمعرفة أن ما عوَّل **الصَّليبيُّ** عليه لا يعدو تصاقبًا في الأسماء، وليس بالضرورة دالًّا دلالة عِلْميَّة، أو شِبه عِلْميَّة، دع عنك قوله: «**لاشكَّ فيها**» الذي يكرِّره بين فقرة وأخرى.

لقد رأينا من قبل وجود: (**القرار**)، و(**مصر**)، وما يُشبِه أن يكون (**بئر لَحَيْ رُئي**) في جبال (**فَيْفاء**)، فماذا عن (**قادش**) و(**بارد**)؟

إن (**قادش**) في الأصل اسم معبودة كنعانيَّة، يعني «**القدِّيسة**»، وتُصوَّر عاريةً، واقفةً على أسد، ممسكةً باقة زهور باليُمنى وأفعوانًا باليُسرى. وانتقلت عبادتها إلى **مِصْر**.[1] أمَّا وقد أنكر (**الصَّليبيُّ**) ذٰلك، وذهب يلتمس المواضع في (**عسير**)، فبوسعنا أن نجد له كذٰلك أسماء في مناطق أخرى. فهناك، مثلًا، مكانٌ اسمه (**القاد**) في (**فَيْفاء**)، في جبل (**آل المَشْنِيَة**)، ومكانٌ آخر اسمه: (**بَرَدَة**)، في جبل (**آل ظُلْمَة**). وبينهما من الآبار والمناهل ما يعرفه العارفون. فضلًا عن ثلاثة أمكنة في **فَيْفاء** باسم: (**بردان**). فلقائلٍ أنْ يقول، إذن، على طريقة **الصَّليبي**: لِمَ لا تكون (**قادش**) هي: (**القاد**)، و(**بارد**): (**بَرَدَة**)؟ وثمَّة بدائل أخرى، لٰكننا سنكتفي بهٰذه. وفي (**الجزيرة العَرَبيَّة**) أماكن أخرى كثيرة شبيهة. منها، مثلًا، (**جداس**)، في جهة (**يافع**) (**باليَمَن**). ما يعني أن معجم الأسماء بحرٌ لا ساحل له من التشابه، ولا يقوم على مثله استدلالٌ ذو معنى.

بل إن لقائل أنْ يقول: ما دام الكلام حول (**إسماعيل**)، وبئر **إسماعيل**،

[1] انظر: نعمة، ٢٥٥.

ومكان مولده، فإن (**قادش**) هي «**قادس**»، و**قادس** من الأسماء القديمة (**للكعبة**)، كما ذكر (**الأزرقي**).[1]

ولقد عبَّر المؤلِّف بنفسه عن الرصيد الهائل من الأسماء الذي بنى عليه ادّعاءاته، قائلًا: «**خريطة الجزيرة لا تبخل علينا بالمعلومات اللازمة للوقوف على حقيقة الأسرار الكامنة في نصوص «التوراة» عن طريق أسماء الأماكن والقبائل.**»[2] وهي مادَّةٌ غنيَّةٌ يمكن أن يجد فيها، لو شاء، تأويلًا شبيهًا لتاريخ (**الولايات المتحدة الأميركيَّة**)، مثلًا، أو لأيِّ تاريخٍ آخَر، ما دام سيقوم منهاجه على مقارنة الأسماء المكانيَّة بملامح حروفيَّة هنا وهناك، فإذا أعياه ذٰلك استنجد بأسماء القبائل، أو العشائر، أو الأُسَر.

وبذا فإن ما وجده (**الصَّليبيُّ**) في (**عسير**) يوجَد مثله في غير **عسير**. وهو، في غير **عسير**، يبدو، في كثيرٍ من الأحيان، ذا صُوَرٍ أوضح شبهًا بالأسماء التوراتيَّة، لو صحَّ بمثله الاستدلال. فأيُّ دليلٍ قاطعٍ تختصُّ به بُقعةٌ جغرافيَّةٌ دون سِواها؟**!** ومن هنا فإن ما عَدَّه الرجل «دليلًا قاطعًا» يتبيَّن أنْ لا أساس له، وإنَّما هي أوهامه المستمرَّة في دفعه إلى التصوُّر أن تلك الأسماء أسماءٌ تاريخيَّةٌ موغلةٌ في القِدم، لم تتبدَّل عبر الأزمان، وأنه لا نظير لها في أيِّ مكانٍ آخر من العالم، وقد وجدها أخيرًا، وفكَّ «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**» من خلالها**!**

---

[1] انظر: **تاريخ مَكَّة**، ١: ٣٩٣.

[2] **خفايا التوراة**، ١٤٩.

قال: فقبض إخوة (**يوسف**) على أخيهم في (**الدَّثْنة**) في جبال (**فَيْفاء**) وباعوه لقافلة تجَّار متجهة إلى (**مصر/ مصرايم**) بين (**أبها والخميس**)![1]

فانظر، أيُّها القارئ، حاضر الذِّهن، إلى هٰذا المرعَى الواسع الشاسع الذي يشمل ما يُسمَّى اليوم منطقتَي (**عسير**) و(**جازان**) معًا! لقد كان هٰؤلاء العَراجِل من إخوة (**يوسف**) يسرحون غنمهم صباحًا من (**القُنفذة**) فيَصِلون بمرعاهم إلى (**رجال ألمع**)، ثمَّ إلى (**الدَّثْنة**) في (**فَيْفاء**)! وكأنهم كانوا يرعون قطعانهم عبر الأقمار الاصطناعيَّة؛ فيطوفون من (**القُنفذة**)، فـ(**المجاردة**)، إلى جبال **فَيْفاء**، مرورًا بـ(**الكشمة**) في **رجال ألمع**؛ كلُّ ذٰلك في يومٍ أو بعض يوم! ثمَّ انظر إلى **يوسف**، ذٰلك الغلام الصغير المسكين، كيف «شَقَلَ شَقْلةً» خرافيَّة من **القُنفذة**، أو **المجاردة**، إلى **الدَّثْنَة** في جبال **فَيْفاء** للبحث عن إخوته؟ ويا لها من خطوةٍ مباركةٍ قريبة! لا بُدَّ أنه كان يحوم بطائرته (المروحيَّة) ليبحث عن إخوته في تلك المَواطن المتنائية جدًّا، الوعرة المتشعِّبة، أشدَّ الوعورة والتشعُّب، يفتِّش فيها الجبال والوهاد والسهول والتهائم، لا يلوي على شيء، حتى عثر على إخوته أخيرًا في دَثْنَةٍ ما، هنالك في شِعاف **فَيْفاء**!

---

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٤٢- ٢٤٣.
وكرَّر الحكاية هٰذه، بمزاعمها الجغرافيَّة، في كتابه (**خفايا التوراة**، ١٥٩- ٢٠٠). وكتبَ حرفيًّا: «**هناك عقبة عند جبل فيفا تمرُّ عبرها الطريق من منطقة جيزان إلى داخل عسير وتنعطف الطريق نحو الشَّمال بعد هٰذه العقبة، فتصل بلدة خميس مشيط، وفي جوارها المصرمة، وهي مصرايم التوراتيَّة، على بعد حوالي ١٠٠ كيلومتر.**» ولا ندري أين تلك العقبة التي عند (**فَيْفاء**)، ولم يسمِّها؟ ومن الواضح أنه لا يعرف جغرافيَّة المنطقة، وإنَّما يخبط عشوائيًّا، موهمًا أنه يتحدَّث عن معرفة. فإنْ كان يعني (**عقبة ضُلَع**)، فإن المسافة بينها وبين **فَيْفاء** قُرابة ٢٠٠ كيل!

أرأيت إلى أين يمكن أن يودي هوس التأويل بأهله؟!

وإلى هٰذا الادِّعاء والتخليط، كثيرًا ما أصَّلَ المؤلِّف لطبخته النظريَّة ببعض أسماء حادثة من أسماء الأماكن، ليست بالقديمة، فإذا هو يعزوها إلى آلاف السنين. وبعضها ما زال أهلها يعرفون مَن سمَّاها، ولماذا. ولو أنهم علموا عن افتراضاته، لضحكوا منه ومنها، وأنبأوه أنهم هم الذين سمَّوا تلك الأماكن، أو آباؤهم، ولا حاجة به إلى أن يكلِّف نفسه البحث وراء تلك الأسماء فيتمحَّل تاريخها الذي تمحَّل. بل لو أنه فتح معجمات البُلدان القديمة، لما وجد لمعظم ما حمَّله ما لا يحتمل من التأويل والتاريخ ذِكرًا البتَّة، ولربما وجد الإشارة إلى أسماء أخرى في المَواطن نفسها، ما يشير إلى أن الأسماء التي استند إليها في التأويل هي أسماء حادثة. غير أن مَن يقرأ الكتاب، وهو لا يعرف المواضع وأصول تسمياتها وتواريخ نشوئها، قد يُخيَّل إليه، أمام شطرنج (**الصَّليبيِّ**) الحروفيِّ، أنه إزاء اكتشافاتٍ مذهلةٍ حقًّا. وعندئذٍ سيُلفي القُرَى المغمورة قد أصبحت ممالك عتيقة، وإنْ بحجم (**مِصْر**)، والبيتَ العائليَّ الواحدَ قد غدا قريةً كاملة، وأسماءَ الناس من رجالٍ ونساء قد تحوَّلت إلى أسماء مُدُنٍ وعواصم قديمة قِدَم التاريخ.

مثال ذٰلك المكان المسمَّى (**قماشة**) في نواحي (**الطائف**) الذي صار لديه: (**كمس**)- الوارد في أراضي (**مُوآب**)- بوصفه اسم إلٰه أو قرية. أو قرية (**أُمِّ مناحي**)، التي ذكرَ أنها في منطقة (**القُنفذة**)، وزعم أنها (**محنيم**) التوراتيَّة.[1] وفصَّل في كتابه

---

[1] هنا يزعم أنها: «**مَناحي**»، جمع مَنْحَى، التي تَعني مخيَّم! (انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢١١).
ولا ندري أيَّ لغة عَرَبيَّة تلك التي تعني فيها كلمة مَنْحَى: مخيَّم.

«**حروب داود**»[١] عن الاسم، ذاهبًا إلى أن «**أُمَّ مناحي**»، تعني: «**المَناحي**»؛ لأن «أُم»- كما قال- أداة التعريف (الـ). وهنا مزيج من التخليطات؛ أولاها أن أداة التعريف اللهجيَّة (اِم)، لا (أُم). وثانيتها أن التعريف بـ(اِم) لهجةٌ عَرَبيَّةٌ يمانيَّة، لا علاقة لها بالعِبريَّة ولا بأسماء «**التوراة**». وثالثة الأثافي أن اسم القرية هو (**أُمّ مُناحي**)، أي أُمّ شخص اسمه (**مُناحي**).[٢]

وكذا ذهب إلى أن (**قرية عُمَر مقبول**)، في ناحية (**المَضايا**) في منطقة (**جازان**)، هي المكان التوراتي: (**بت عرم**).[٣] مع أن الاسم- لو كان يتأمَّل ما يقول- هو لقريةٍ تُنسَب إلى رجلٍ اسمه (**عُمَر بن مقبول**)، واضح أنه متأخِّر جدًّا، كأسماء البدويَّتين السابقتين: (**قماشة**)، و(**أُمِّ مُناحي**).

ومثل ذٰلك زعمه أن **قرية** (**آل هاشم**)- وهي من قُرَى (**المكارمة**) في (**جازان**)- قد تكون المقصودة بأهالي (**هشم**)، من الجبابرة، سلالة الآلهة الواردة في «**التوراة**»**!**[٤] والمرء يعجب كيف استقام في عقل عاقل، فضلًا عن باحث، أن (**آل هاشم**)، الذين نُسبت إليهم القرية، كانوا هناك، وباسمهم العَرَبيِّ الصميم، منذ عهد ما قبل «**التوراة**»؟! ولعلَّه لم يكن لتلك القرية وجود، ولا لأهلها تاريخ، قبل قرنٍ من تأليف كتاب (**الصَّليبي**).

---

[١] انظر: ١٥٥.

[٢] جاء تحديدها في «**المعجم الجغرافي للبلاد السُّعوديَّة**» على أنها من قُرَى (**العرضيَّة الشَّماليَّة**) في إمارة منطقة (مكَّة). (انظر: الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد السُّعوديَّة** (معجم مختصر)، ٢٣٧ (أُمُّ مناحي)).

[٣] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢١٣- ٢١٤.

[٤] انظر: م.ن، ٢٣٤.

ما كلُّ هٰذا الاستخفاف و«الاستعباط»؟!(١)

إنها لعبة حروفٍ وأسماء، لا أكثر، استحالت إلى لعبةٍ هزليَّة جِدًّا، باسم التاريخ وإعادة استكشافه وتدوينه.

١٤- فأَصْبَحَتْ كالصَّرِيم:

من أغرب ما جاء في كُتب (**الصَّليبي**) زعمُه أن (**مِصْر**) تقع بين (**أبها والخميس**)؛ فهي لدَيه قريةٌ مجهولةٌ سمَّاها: (**المِصرمة/ المصرامة**). والدليل: (ميم، صاد، راء). وسبحان الله، فقد كانت تلك القرية التعيسة المجهولة مملكةً عظيمةً مثل مملكة الفراعنة في (**وادي النِّيْل**)، ولها مَلِكٌ فرعون. تخيَّلوا: مَلِكًا فرعونًا لقرية! وفيها طِبٌّ متطوِّر، وأطباء مهرة، وهي تُحنِّط الموتَى من العظماء، وتستعمل التوابيت. ولذٰلك أَمَرَ (**يوسف**) أطباء **المصرمة** بتحنيط أبيه (**يعقوب**)، كما زعم المؤلِّف في كتابه «**خفايا التوراة**»(٢).

وكان «**القرآن**» قد حسمَ هُويَّة (**فِرعون**) المقصود في قِصَّة (**مُوسَى**)، بعيدًا عن التخرُّصات، وأنه **فِرعون** (**مِصْر وادي النِّيْل**)، لا سِواه، وذٰلك في آيتين

---

(١) الاستعباط تعبيرٌ عَرَبيٌّ فصيح. يقال: عَبَطَ عليَّ فلانٌ الكَذِب، يَعْبِطُه عَبْطًا واعْتبَطَه: افْتَعلَه. واعْتَبَطَ عِرْضَه: شتَمَه وتَنَقَّصَه. والعابِطُ: الكذَّابُ. والعَبْطُ: الكَذِبُ الصُّراح من غير عُذر. والعَبِيط: المشقوق. (انظر: الجوهري؛ ابن منظور، (عبط)).

(٢) انظر: ١٦٠.

وصفت **فِرعون** بأنه ﴿**فِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ**﴾[1]، أي «صاحب المِسَلَّات». ومصطلح «**الأوتاد**»، تعبيرًا عن المِسَلَّات المِصْريَّة، نجده لدَى المؤرِّخ الإغريقي الروماني (**سترابو** [Στράβων] Strabo، -٢٤م)[2]، في إشارة إلى أحد الفراعنة، وأنها كانت له «**أوتاد** (palisades) **في أماكن عديدة**». وكأنَّ تسمية المِسَلَّات الفرعونيَّة بـ«**الأوتاد**» كان المصطلحَ السائدَ في تلك العصور القديمة لدَى العَرَب وسِواهم.[3]

على أن المؤلِّف، لـمَّا تورَّط في الزعم أن (**المصرمة**) هي (**مِصْر**) التوراتِّية، وجدَ بعض التفاصيل المِصْرَّية الدقيقة والصميمة في مِصْريَّتها، لا سبيل إلى نقلها إلى (**عسير**) إلَّا بالإرداف بزعمٍ آخَر: أن **المصرمة** كانت مستعمرةً مِصْريَّة. وهٰذا ما ادَّعاه في كتابه «**خفايا التوراة**»[4]. ومع أن **المصرمة مجرَّد** مستعمرةٍ مِصْريَّة، فقد كان لها مَلِكٌ فرعون. ولَّما لم يكن لقب «**فرعون**» مستعملًا في ذٰلك التاريخ، حتى في **مِصْر** نفسها، فقد زعمَ زعمًا إضافيًّا أن (**مِصْر وادي النِّيْل**) إنَّما استوردت لقب «**فرعون**» من **عسير**، ليُستعمَل فيها منذ ٩٥٠ قبل الميلاد تقريبًا! وهٰكذا أصبح الفرعُ أصلًا، والمستعمَرةُ مستعمِرة.

ولقد كانت (**المصرمة**) نسخةً أخرى مصغَّرةً من (**مِصْر**)، السابقة واللاحقة،

---

(١) **سورة ص**: الآية ١٢؛ **سورة الفَجر**: الآية ١٠.

(2) See: Strabo, (v. 7), Book 16, Chap. 4: 4.

(٣) وقد تُفسَّر «**الأوتاد**» بـ«**الأهرامات**». وذٰلك وارد كذٰلك. وإنَّما الشاهد هو أن النصَّ القرآني قد وضع حدًّا لأيِّ توهُّمات في فهم هُويَّة «**الفِرعون**» المقصود فيه، من نوع ما خاضت فيه الكتُبُ محلَّ دراستنا.

(٤) انظر: م.ن.

في كلِّ شيء، لا تنقصها سِوَى الأهرامات! وكان لها نهرُ نيلٍ خاصٌّ، هو (**وادي لِـيَة**)[1]، كما قال، و«**يبدو** [لاحظ «يبدو» هٰذه!] **أن هٰذا الوادي عُرِف في الأزمنة التوراتيَّة بنهر مصرايم**»![2]

و(**المصرمة**)- التي هي تارة «قرية» وتارة «أرض»- استوعبت من (**بني إسرائيل**) وحدهم ستة آلاف، هٰذا من الذكور فقط! بما يقارب، في الأقل، ١٠٠٠٠ (عشرة آلاف إسرائيلي)، إضافة إلى أبناء البلاد الأصليِّين، الذين هم بالتأكيد أضعاف ذٰلك. ولنقُل مثلًا: نحو ٣٠٠٠٠ (ثلاثين ألف نسمة)، قاطنين في قرية **المصرمة** بين (**أبها والخميس**)! بل سيحدِّثنا «**العهد القديم: التوراة**» عن أن الخارجين من (**مِصْر**) من العِبرانيِّين كانوا يبلغون ٦٠٠٠٠٠ (ست مئة ألف ماشٍ من الرجال فقط)، عدا غيرهم من الوِلدان والنساء، ولَفِيْفًا كثيرًا معهم، والغنم والبقر والمواشي الوافرة جِدًّا.[3] وهٰذه الأرقام تُساق باعتراف (**الصَّليبي**)[4]، لٰكنها لا تُحرِّك لديه استغرابًا. وتقديرًا، فقد كان (**بنو إسرائيل**)، وَفق تلك الروايات، لا يقلُّون عن (مليون نسمة) مع مواشيهم وأمتعتهم. كلُّ هٰؤلاء استوعبتهم قرية **المصرمة** المباركة- حسب تصوُّر **الصَّليبي**- إلى جوار أهلها الأصليِّين! وطبعًا كلُّ

---

[1] (**لِيَة**): وادٍ جَنوب منطقة (**جازان**)، مآتيه من (**اليَمَن**). (انظر: العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة: مقاطعة جازان**، ٢٠٠).

[2] الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٦٠.

[3] انظر: **سِفر الخروج**، ١٢: ٣٧.

[4] **خفايا التوراة**، ٢٦٥.

مكان، كبُر أم صغُر، يتحوَّل لدَى المؤلِّف إلى قريةٍ؛ فدولة **مِصْر**: قرية، والمُدُن: قُرَى، والبيوت العائليَّة: قُرَى، والناس بدَورهم يتحوَّلون إلى: قُرَى!

إن سكان قرية (**المصرمة**)، إذن، كانوا يَرْبُون على ٣٠٠٠٠٠٠ (ثلاثة ملايين)، في أقلِّ تقدير، بناءً على نصِّ «**التوراة**»! فيا لها من قريةِ نملٍ أُسطوريَّةٍ حقًّا، لم يسمع عنها مثلها أحد!

ومع أن (**الصَّليبي**) ظلَّ يزعم أن إقامة (**بني إسرائيل**) كانت في (**المصرمة**= **مِصْر**)، فإننا حين نقرأ في (**سِفر الخروج**)[1]: «**فارْتحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ من (رَعَمْسِيسَ) إلى (سُكُّوت)**»، نفهم أن **رَعَمْسِيس** و**سُكُّوت** تقعان في (**مِصْر**). والسياق يدلُّ على أن نقطة انطلاقهم خارجين من **مِصْر** كانت **رَعَمْسِيس**، وأنها كانت في أرض إقامتهم أو في جوارها. ولَمَّا لم تكن قرية **المصرمة** لتستوعب ما استوعبته **مِصْر** التوراتيَّة- مهما حاول **الصَّليبي** الادِّعاء- فقد ذهب إلى القول إن **رَعَمْسِيس** و**سُكُّوت** كلتيهما تقعان في (**سَراة بلقَرن**)![2] أ فكانت **المصرمة** في (**بلقَرن**)؟ أم في جوار (**خميس امْشيط**)؟

إنه لا يفكِّر إلَّا في الحروف. ولذٰلك لا يسأل لِـمَ سُمِّيت (**المصرمة**) بهٰذا الاسم؟ وإلَّا لوجد احتمالات لغويَّة عَرَبيَّة عديدة، لا علاقة لها لا بـ(**مِصْر وادي النِّيل**) ولا **بمِصْر** التوراتيَّة. أ فلم يعُد في مادة (صرم) أو (مصر) إلَّا (**مِصْر** أو

---

[1] م.ن.

[2] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٢٤٣- ٠٠٠.

مصرايم)؟! إن «الصرم» في العَرَبيَّة: القَطْع. والصَّرامُ والصِّرامُ: جَدادُ النَّخل. وصَرَمَ النَّخلَ والشَّجرَ والزَّرعَ يَصْرِمُه صَرْمًا واصْطَرَمه: جَزَّه. والصَّريمُ: الكُدْسُ المَصْرومُ من الزَّرْع. فيُقال: نَخْلٌ صَريمٌ، أي مَصْرُوُمٌ. وفي «**القرآن**»: ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، ولَا يَسْتَثْنُونَ، فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَبِّكَ وهُمْ نَائِمُونَ؛ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ: أَنِ اغْدُوا علىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ**﴾.[1] وأَصْرَمَ النَّخلُ: حان وقتُ صِرامِه. والصُّرامَةُ: ما صُرِمَ من النَّخل. والصِّرامُ: قَطْعُ الثَّمرة واجتناؤها؛ يقال: هٰذا وقتُ الصِّرامِ والجَذاذِ. وقد يُطلَق الصِّرامُ على النَّخل نفسه لأَنه يُصْرَم. والصَّريمُ والصَّريمةُ: القِطعة المنقطعة من معظم الرَّمل. وصَريمةٌ من غَضىً وسَلَمٍ وأَرْطىً ونخلٍ أي قطعةٌ منه. ويقال للقطعة من الإبل أو الغنم صِرْمةٌ، إذا كانت خفيفة، ويقال لصاحبها: مُصْرِمٌ، وصاحبتها: مُصْرِمة. والصَّريمَةُ: الأَرضُ المحصودُ زرعُها. والصَّريمُ: أرضٌ سوداء لا تُنبت شيئًا. والصُّرامُ: اسمٌ من أسماء الحرب والداهية. وأَصْرَمَ الرَّجلُ: افتقر. ورجلٌ مُصْرِمٌ: قليل المال من ذٰلك، وامرأةٌ مُصْرِمةٌ كذٰلك. وقيل هو مَن بقيتْ له صِرمةٌ من مال. والمِصْرَم، بالكسر: المِنْجَل. والصِّرْم، بالكسر: الأبيات المُجْتَمِعة المنقطعة من الناس، والصِّرْم: الفِرْقة من الناس ليسوا بالكثير. وناقةٌ مُصْرِمةٌ ومُصَرَّمةٌ: مقطوعة الطُّبْيَيْنِ، أو منقطعة اللَّبَن. وأرضٌ صَرْماءُ ومُصْرِمةٌ: لا ماء فيها. وصِرْمَة، وصُرَيْم، وأَصْرَم: أسماء. وفي الحديث: أن النبيَّ غَيَّر اسم (أَصْرَم) فجعله

[1] **سورة القلم**: الآيات ١٧ – ٢٢.

(زُرْعة)؛ كَرِهَه لما فيه من معنى القطع، وسَمَّاه زُرْعة لأنه من الزَّرْع.[١] ويقول الشاعر الجاهلي (**المرار بن منقذ**)، مثلًا:

رَأَتْ لي صِرْمَةً لا شَرْخَ فيها ... أُقاسِمُها المَسائِلَ والدُّيونا[٢]

و(**بنو صَريم**): بطنٌ من (**تميم**)، وبطنٌ من (**ضَبَّة**)، وبطنٌ من (**أزد السَّراة**). و(**بنو صِرْمة**): بطنٌ من (**قيس عيلان**).[٣]

لا معنى، إذن، للقفز على كلِّ هٰذا التاريخ اللغويِّ لافتراض أن (**مصرمة**) تعني: (**مِصْر**) أو (**مصرايم**) التوراتيَّة. بل القفز على اللغة العَرَبيَّة واشتقاقاتها إلى اللغة العِبريَّة، لافتراءٍ متكلَّف جِدًّا، أن **المصرمة تعني: مصرايم**. فإنَّما «**مصرمة**» كمزرعة، سُمِّيت بهٰذا الاسم بالنظر إلى أحد المعاني السابقة. وأقربها الإشارة إلى: أنها أرضٌ مُصْرِمَة، أي قاحلة لا ماء فيها. أو أنها أرضُ تجمُّعٍ سكانيٍّ، فيها صِرَم من الناس والأنعام. أو أنها أرضٌ ذات حصادٍ وصِرام.

أمَّا تسمية (**مِصْر**) باسم «**مصرايم**» في «**الكتاب المقدَّس**»، فله أسبابه الواردة في كُتب التاريخ. من ذٰلك، مثلًا، قولهم: إنه يشير إلى أحد أبناء (**حام بن نُوح**) اسمه: (**مصرايم أو مصريم**). المشار إليه في «**العهد القديم**»[٤] بالقول: «**وبَنُو حَامٍ: كُوشُ، ومِصْرَايِمُ، وفُوطُ، وكَنْعَانُ... ومِصْرَايِمُ وَلَدَ: لُودِيمَ، وعَنَامِيمَ، ولَهَابِيمَ،**

---

[١] انظر: ابن دريد، **الاشتقاق**، ١: ١٥٨– ١٥٩؛ ابن منظور، (صرم).

[٢] انظر: الضَّبِّي، ٧٤/ ١٤.

[٣] انظر: ابن دريد، م.ن، ١: ١٥٩.

[٤] **سِفر التكوين**، ١٠: ٦، ١٣– ١٤.

ونَفْتُوحِيمَ، وفَتْرُوسِيمَ، وكَسْلُوحِيمَ. الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ: فِلِشْتِيمُ[1]**، وكَفْتُورِيمُ.»** وقد فصَّل **(تقيُّ الدِّين أحمد بن علي المقريزي)**[2]- مُحيلًا إلى **(الهمداني)** و**(المسعودي)**- في سبب تلك التسمية. وممَّا سجَّله أن **مِصْر** كان اسمها قبل الطُّوفان: **(جزلة)**، وإنما سُمِّيت باسم **مِصْر** نسبةً إلى: **(مصر بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم)**، وهو **مِصْر الأوَّل**. وقيل: بل سُمِّيت **بمِصْر الثاني**، وهو **(مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الأوَّل)**. وقيل: سُمِّيت بعد الطُّوفان **بمِصْر الثالث**، وهو **(مصر بن بنصر بن حام بن نُوح)**، وهو **(مصريم)** الذي سُمِّيت به.

---

[1] يبدو هٰذا الاسم «**فِلِشْتِيم**» هو الأصل في اسم (**فِلسطين**). وبحسب نصِّ «**العهد القديم**»، **فالفِلِشْتِيم** حاميُّون. غير أن هناك مَن زعم أن **الفِلِشْتِيم** ينحدرون من أصول أوربيَّة، يونانيَّة أو تركيَّة. استوطنوا السواحل ما بين (**يافا**) و(**غزَّة**)، في القرن ١٢ ق.م، وتكنعنوا. وتدلُّ الآثار والأخبار على أنهم أهل حضارة، ومنَعَة، وصناعة، وفنون. حتى لقد حاولوا غَزْوَ (**مِصْر**) في عهد (**رمسيس الثالث، -١١٥٢ق.م**)، فصُدُّوا. واشتهر منهم المحارب (**جالوت**)، الذي قتله (**داوود**)، حسب النصِّ التوراتيِّ والقرآني. (انظر: سوسة، ١٠١- ١٠٦). ومهما يكن من قول حول **الفِلِشْتِيم**، فإن أرض **فِلسطين** المعروفة بهذه التسمية هي أرضٌ كنعانيَّةٌ عَرَبيَّةٌ منذ ما قبل هبوط الوافدين المختلفين إليها؛ لأنها ظلَّت مهوَى أفئدة المهاجرين من مختلف الأُمم، ومنهم (**إبراهيم الخليل**) وأولاده، وقبل استيطان الشعوب العابرة بها، من (**عبرانيِّين**)، و(**إسرائيليِّين**)، و(**موسويِّين**)، و(**فِلِشْتِيم/ فلستينيِّين/ فِلسطينيِّين**)، وسِواهم. بل لقد نصَّ «**العهد القديم**» على أن **فِلسطين** كانت معروفة بهٰذا الاسم قبل هجرة (**إبراهيم الخليل**) إليها. فقد جاء في (**سِفر التكوين، ١٢: ٣٢- ٣٤**): «**ثُمَّ قَامَ أَبِيمَالِكُ وفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِهِ ورَجَعَا إِلَى أَرْضِ الفِلِسْطِينِيِّينَ. وغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ أَثْلًا فِي بِئْرِ سَبْعٍ، ودَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلٰهِ السَّرْمَدِيِّ. وتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَة.**» وكذا جاء في (**سِفر التكوين، ٢٦: ١**) عن (**إسحاق بن إبراهيم**): «**وكَانَ فِي الأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ الجُوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَذَهَبَ إِسْحَاقُ إِلَى أَبِيمَالِكَ مَلِكِ الفِلِسْطِينِيِّينَ، إِلَى جَرَار.**» ما يدلُّ على أن ثَمَّةَ قومًا على هٰذه الأرض اسمهم «**الفِلسطينيُّون**» قبل القرن ١٩ ق.م، تُسمَّى أرضهم: «**أرض الفِلسطينيِّين**»، عليهم مَلِكٌ ذو دولةٍ وجيش، اسمه (**أبيمالك**).

[2] انظر: **المواعظ والاعتبار بذِكر الخِطط والآثار (المعروف بالخِطط المقريزيَّة)**، ١: ٥٦.

وعليه، فلا وجه لا لادِّعاء علاقةٍ بين (**المصرمة**) العسيريَّة و(**مِصْر**)، ولا بينها وبين **مصرايم** أو **مصريم** التوراتيَّة. لٰكنَّ صاحبنا لا يأبه لشيءٍ سِوَى لتجانس بعض الأصوات اللغويَّة، ليربط من خلالها الشَّام باليَمَن والمشرق بالمغرب.

١٥- مُوسَى، والبحر، وتيه بني إسرائيل:

أين يذهب (**الصَّليبي**) من اسم (**مُوسَى**)، وقِصَّته التوراتيَّة، اللذين استنتج منهما بعض الباحثين أصلًا مِصْريًّا لشخصيَّة النبي **مُوسَى** واسمه، لا عِبرانيًّا، فضلًا عن أن يكون عَرَبيًّا عسيريًّا؟! وهو ما حَمَلَ (**سيجموند فرويد**)[١]- اليهوديَّ المحتِد- إلى وضع بحثه حول **مُوسَى**، مرجِّحًا أنه نبيلٌ من أصلٍ مِصْرِي، لا عِبراني؛ فاسم «**مُوسَى**» هو اسمٌ مِصْرِيٌّ، بمعنى: «طفل». وهو اسمٌ عريقٌ في التسميات المِصْريَّة والأوابد الفرعونيَّة، كـ(**آمون مُوسَى**)، أي «**طفل آمون**»، و(**بتاح مُوسَى**)، أي «**طفل بتاح**»[٢]، وكذا في أسماء ملوك الفراعنة المشتقَّة من أسماء بعض الآلهة، مثل: (**أح مُوسَى**)، و(**تحوت مُوسَى**)، و(**رع مُوسَى**).[٣] إضافةً إلى قِصَّة **مُوسَى** التوراتيَّة نفسها التي رأى فيها (**فرويد**) جذورًا مِصْريَّة بيئيَّة وثقافيَّة.

---

[١] انظر: **مُوسَى والتوحيد**، ٧- ١٩.

[٢] في الترجمة: «**الطفل آمون**». ولعلَّ الصواب: «**طفل آمون**»، أي تابع (**آمون**) أو الذي أنجبه **آمون**.

[٣] على أن تسمية (**مُوسَى**) ليست في ذاتها بدليلٍ قويٍّ هاهنا على ما ذهب إليه (**فرويد**)؛ فلئن سلَّمنا بأن الاسم مِصْريُّ الأصل، فمن الطبيعي أن يسمِّي (**بنو إسرائيل**) أولادهم بأسماء الشَّعب الذي كانوا بين ظهرانيه، ولاسيما إذا كان **مُوسَى** قد تربَّى في بيت فرعون، على أنه مجهول الهويَّة. بل لقد صرَّحت التوراة بذٰلك، قائلةً: «**ولمَّا كَبِرَ الوَلَدُ جَاءَتْ بِهِ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ فَصَارَ لَهَا ابْنًا، ودَعَتِ اسْمَهُ «مُوسَى»، وقَالَتْ: «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ المَاءِ».**» (**سِفر الخروج، ٢: ١٠**).

كلَّا، صاحبنا لا يلتفت إلى مثل هٰذه التُّرَّهات![1]

ولَمَّا قاد (**مُوسَى العبراني** «العسيري!») قومه، كما زعم (**الصَّليبي**)- وذٰلك بعد ٤٣٠ سنة وهم متراصُّون كالذَّرِّ بين (**أبها**) و(**الخميس**)، في تلك (**المصرمة**) العجيبة- للخروج إلى أرض (**كنعان**) على حدود (**الحِجاز**)، تاهوا بين ذٰلك في البَرِّيَّة (٤٠ سنة)![2] وتلك هي «**أرض التِّيه**»، حسب قول **الصَّليبي**، لا صحراء (**سيناء**). والطريف أنه لَمَّا أَتَى على النصِّ التوراتيِّ الذي يذكر بوضوح (**طُور سيناء**): «**جبل سيني**»[3]، وحينما لم يجد جبلًا بهٰذا الاسم شَمال (**عسير**)، قال إنه وادٍ اسمه (**سيَّان**) في (**اليَمَن**)؛ لأن الوادي يمرُّ من جانب جبل! لم يجد الجبل فصار الجبل واديًا! وطبعًا، ما من وادٍ إلَّا هو يمرُّ بجانب جبل! فزعمَ أن ذٰلك الجبل هو الذي رأى فيه (**مُوسَى**) نار الإلٰه؛ لأنه جبل بركاني! والنار التي رآها **مُوسَى** نار بركان، كما زَعم![4] ولا تسأل ما الذي ذهب **بمُوسَى** جنوبًا إلى وادي **سيَّان في اليَمَن**؟ **فالصَّليبي** هو الذي ذهب إلى **سيَّان لا مُوسَى**! والسبب واضحٌ

---

[1] في كتابه (**خفايا التوراة، ٢١٥- ٢١٦**) يذهب إلى الاتفاق مع تعليل «**التوراة**» لاسم «**مُوسَى**»، وأنه «**موشه**»، بمعنى «**المنتشَل**» أو «**المخلَّص**»، غير أنه يعتقِد أنه اسم فاعلٍ لا اسم مفعول: «**المنتشِل**» أو «**المخلِّص**»، وأنه لَقَبٌ غلبَ على اسم (**مُوسَى**) غير المعروف.

[2] انظر: **خفايا التوراة، ٢١١- ٢٠٠**.

[3] تسمية «**سيناء**» مشتقَّة من اسم القمر «**سين**»، المعبود قديمًا في بلاد واسعة من (**الشرق الأوسط**). نجده لدَى **السبئيِّين**، في (**اليَمَن**) و(**حضرموت**)، وكذٰلك في (**العِراق**). وبه تلقَّب المَلِك الأكادي «**نارام سين**»، والمَلِك الآشوري «**ريم سين**». (انظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٢٦٢؛ ظاظا، **الساميُّون ولُغاتهم**، ٣٢).

[4] يبدو هنا أن (**الصَّليبي**) كان ينظر إلى مِثل قول (فرويد، ٦٢) إن (**يَهْوَه**) كان إلـٰهًا للبراكين.

وهو أنه لم يجد اسمًا مناسبًا أقرب، يقع إلى شَمال **المصرمة**، ليزعم أنه **طُور سيناء**، فاضطرَّ إلى الاتِّجاه جَنوبًا هٰذه المرَّة.

وقد تاه (**بنو إسرائيل**) ٤٠ سنة، مع أنهم كانوا فقط يريدون النزوح من (**المصرمة**) بين (**أبها والخميس**) إلى (**الفلسة**) في (**خثعم**)! أمَّا (**أورشليم**)، فقد شرح لنا من قبل أنها تقع في (**النماص**)، في قرية (**آل شريم**)، ليست لا في **الفلسة**، ولا في (**فِلسطين**)! إنها لمتاهةٌ فعلًا أشدُّ من متاهة **بني إسرائيل** في (**شِبه جزيرة سيناء**)، كما ضحك علينا التاريخ والنصوص عبر الدهور!

ثمَّ لا تسأل أيضًا: كيف تاه أولٰئك القوم (٤٠ سنة) في البَرِيَّة، بالرغم من قوله في مكانٍ آخر- تقدَّم ذِكره- إن إخوة (**يوسف**) كانوا يقطعون تلك البلاد بغنمهم يوميًّا غدوًّا ورواحًا؟! بل كانوا يَصِلُون إلى أبعد منها؛ فكانوا يسرحون صباحًا من ضواحي (**القُنفذة**)، ويتغدَّون في (**الدَّثْنَة**) في جبال (**فَيْفاء**)! حتى إنك لا تدري أ كانت أغنامهم ترعى، أم كانت تَسْبَح في الفضاء كالطيور المهاجرة! بل إن الطيور المهاجرة قد لا تقطع تلك المسافة كلَّها في يوم واحد.

إنه التناقض، وتيه الهرمنيوطيقا!

إن المسافة (المتاهة)، التي قضَّى فيها (**بنو إسرائيل**) ٤٠ حولًا، كانت أقصر من المسافة التي زعم المؤلِّف من قبل أن الطفل (**يوسف**) قد ركَض وراء إخوته بطولها في سُويعات، من قرية (**الخربان**)، بـ(**المجاردة**)، إلى (**الكشمة**) في (**رجال ألمع**)، وأخيرًا «قَفَشَهم» في (**الدَّثْنَة**) في جبال (**فَيْفاء**)، وما تاه هنالك ولا استراح! فما

قَطَعَه **يوسف** في نحو (٤ ساعات)، تاه في قرابة نصفه **بنو إسرائيل** (٤٠ سنة)**!**

وهٰكذا فـ**(الصَّليبي)** إذا شاء مطَّ الأرض على نحوٍ خرافيٍّ، وإذا شاء اختزلها حتى تُصبِح مرعى غنم أبناء **(يعقوب)**، ومركض الغلام الصغير **(يوسف)**. وهي تناقضاتٌ لا يفسِّرها لك سِوَى هوس الرجل بالأسماء وتشابهاتها حيث عثر عليها، وبلا تفكيرٍ بعدئذٍ في أيِّ شيء؛ فلقد أعماه ذٰلك عمَّا يقول، وعن معقوليَّة ما يَفترض وتناقضات مقتضاه.

ولعلَّه، وقد أدرك هٰذه المفارقة التي قارفها، حاول علاجها ولٰكن بدعوى أخرى أعجب منها، هي قوله إن المِصْريِّين لم يسمحوا لـ**(بني إسرائيل)** بالخروج إلَّا شريطة أن يتوجَّهوا شَمالًا إلى **(الحِجاز)**، لا شَرقًا إلى **(اليمامة)!** أي أن يتوجَّهوا إلى **(الفَلَسَة/ فِلسطين)** مباشرة، و**(أورشليم)** في **(النماص)**. يذهب إلى هٰذا مع أن المعروف، حسب قِصَّة الخروج، أن **بني إسرائيل** خرجوا منتصرين على **(فرعون)**، بعد الأوبئة التي ضربت المِصْريِّين وتلك البلايا التي أُصيبوا بها من الدم، والضفادع، والجراد، و«**الدُّمَّل**»- (حسب الرواية التوراتيَّة، «**سِفر الخروج**»، أو «**القُمَّل**»، حسب ما وردَ في الآية القرآنيَّة، «**سُورة الأعراف**»- والبعوض، والنار، والبَرَد، إلى آخر ما جاء في آيات **(مُوسَى)** و**(هارون)** لإنذار **فرعون**. ثمَّ كانت معجزة الغَرَق. أ لم يَرِد في (**سِفر الخروج**، ١٥: ٢٠- ٢١)، في تصوير احتفال **بني إسرائيل** بالخروج:

«فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ الدُّفَّ بِيَدِهَا، وخَرَجَتْ جَمِيعُ النِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ ورَقْصٍ. وأجابتهم مَرْيَمُ: «رَنِّمُوا للرَّبِّ فإنَّهُ قد تَعَظَّمَ! الفَرَسَ

وراكِبَهُ طَرَحَهما في البَحْر».» وذٰلك بعد التفصيل التوراتي في معجزة البحر ولُجحه التي انجابت عن (**بني إسرائيل**) وانطبقت على المِصْريِّين؟

فأيُّ بحرٍ هناك بين (**عسير**) و(**النماص**)؟ أو بين **عسير** و(**خثعم**)؟ أو غيرهما في الشَّمال أو الشَّرق من قرية (**المصرمة**) الخياليَّة، التي لم يطمثها ذِكْر قبل (**الصَّليبي**)؟! أيُّ بحرٍ يقع في شَرق تلك **المصرمة** على الإطلاق؟!

لا ريب في أن ثمَّة بحرًا مذكورًا في «**التوراة**» شَرق بلاد (**مِصْر**)، التي كان فيها (**مُوسَى**) وقومه؛ فها هو ذا (**سِفر الخروج، ١٠: ١٩**) يقول: «**فَرَدَّ الرَّبُّ رِيحًا غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً جِدًّا، فَحَمَلَتِ الجَرَادَ وطَرَحَتْهُ إلى بَحْرِ سُوفَ. لَمْ تَبْقَ جَرَادَةٌ وَاحِدَةٌ في كُلِّ تُخُومِ مِصْرَ.**»

فأين بحر (**سوف**) هٰذا؟

إنه (**البحر الأحمر**)، وتحديدًا (**خليج السُّوَيْس**) منه. وما زال لفظ «**السِّيفُ**» يُطلَق في العَرَبيَّة على: ساحل البحر. وما زال يقال: أَسافَ القومُ: أي أَتوا السِّيف. والسِّيف أيضًا: الموضع النَّقِيُّ من الماء.[1] ولعلَّ هٰذه المادة اللغويَّة كانت من أسماء البحر الساميَّة القديمة. غير أن صاحبنا، إذ لم يجد ذٰلك البحر باسمه، حكم أنه مكانٌ أخبره به مدرِّسٌ لبنانيٌّ، من غير ذوي الاختصاص، وأنه باسم «**بحر صافي**»، في الشَّمال الغربي من رمال (**الربع الخالي**).[2] إنه مسعِفٌ آخر، إذن،

---

[1] انظر: معجمات العَرَبية، (سيف).

[2] انظر: **خفايا التوراة**، ٢٤٠.

يستنجد به (**الصَّليبي**)، بعد صديقه الباحث (**فرج الله صالح ذيب**)[1]، الذي رأيناه يستعين به من قبل. أمَّا هو، فيظلُّ حظُّه من العِلْم الاكتفاء بشرف النقل والرواية، لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت!

بذا أصبح (**الربعُ الخالي**) وقد صار: (**البحرَ الأحمر**)!

أمَّا ما تلقَّفه الرجل عن «**المدرِّس اللبنانيِّ، من غير ذوي الاختصاص**»، فالصحيح فيه أن الكلمة: «**سافي**»، لا «**صافي**». ذٰلك أن السَّوْفَةُ والسَّائفةُ: من الرَّمل أَلْيَنُ ما يكون منه. والرَّمل السَّافي: الذي تسفوه الرياح.[2] ولا نعلم متى سُمِّي ذٰلك الرَّمل بهٰذا الاسم، لٰكن ما دام «**المدرِّس اللبناني، من غير ذوي الاختصاص**» قد أمدَّ المؤلِّف بهٰذا، فليكن كما قال، وبلا تردُّد، وليكن الرَّمل بحرًا، وبلا مراء!

وأمَّا مفردة «**بحر**»، فلا تُطلَق في العَرَبيَّة على بحر الماء فحسب، بل قد تُطلَق كذٰلك على الأرض الواسعة، والرِّيف. وقد تُسمِّي العَرَبُ المُدُن والقُرَى: البِحار. والبَحْرَة: البلدة. وتقول: «**لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ**»، أي بارزًا ليس بينك وبينه شيء. والبَحَر هو: التحيُّر، وهو كذٰلك العَطَش الشديد. وأمَّا «**البحر**» حين يُطلَق على الماء، فعلى المِلْح منه خاصَّة. ويقال: قد أبحر الماء إذا صار مِلْحًا. قال (**نصيب بن رباح**):

---

[1] سبقَ التعريف بهذا الصديق «الفرج». (راجع ما جاء في الموضوع تحت عنوان: «٤- (عسير/ سعير)، وشهادة التراث العَرَبي»).

[2] انظر: ابن منظور، (سوف)؛ (ساف).

وقد عادَ ماءُ الأرضِ بَحْرًا فزادني إلى مَرَضي أَنْ أبحرَ المشربُ العذبُ

وإنَّما يُطلَق هٰذا اللفظ توسُّعًا على الأنهار الواسعة، الدائمة الجريان، مثل (**دجلة**) و(**الفُرات**) و(**النِّيْل**).[1]

وعليه، فمن تأوَّل، لزمته معرفة اللغة، والوقوف عند حدودها، وإلَّا أفضى إلى محض التقوُّل والتهريج. وعندئذٍ لا غرو أن يغدو (**الربعُ الخالي**) (**البحرَ الأحمر**)!

١٦- اليَمُّ ويام.. والنقل التأويلي للبحر الأحمر:

بعد أن ذهب التأويل بـ(**الصَّليبي**) إلى توهُّم أن (**مصرايم**) التوراتيَّة هي مستعمرة مِصْريَّة في (**عسير**)[2]، وأن (**الربع الخالي**)، أو جزءًا منه، هو (**البحر الأحمر**)، المشار إليه في «**التوراة**» و«**القرآن**» بـ«اليَمِّ»، يذهب بك شوطًا آخر في موضع آخر من كتابه «**خفايا التوراة**»[3]، ليقول إن «**اليَمَّ**» المذكور في «**التوراة**» هو إشارةٌ إلى قبيلة (**يام**) العَرَبيَّة! وهٰذا نهجه في الدوران مع الحروف، لتصبح الرمالُ بحارًا، والقبائلُ مَواطِنَ، و**يام** يَـمًّا!

---

[1] انظر مثلًا: الجوهري؛ الزَّبيدي، (بحر).

[2] وقد كان الجدل القديم بين الباحثين التاريخيِّين حول مكان (**مصرايم**) التوراتيَّة: أ هي (مِصْر الأفريقيَّة) أم (**معن مصران**) في (مَعان)، بـ(**الأردن**). (انظر: علي، جواد، ٢: ١٢١). لٰكن أحدًا لم يشطح شَطْحَ (**الصَّليبي**) في نُجعته النائية الحديثة.

[3] انظر: ٢٤٤.

ولئن لم يكن القارئ مؤمنًا بقِصَّة الخروج تاريخيًّا، فما يسوغ عليه أن يكون ذٰلك الذي أدلَى به المؤلِّف هو تفسير «**التوراة**». هٰذا النصُّ الذي زعمَ صاحبنا أنه إنما جاء ليفسِّر خفاياه، بوصفه وثيقةً تاريخيَّةً، فإذا هو يسعى إلى أن يلغيه إلغاءً لا ليفسِّره. والحقُّ أنَّه ما كان في يديه إلَّا أن يلغيه كي يؤلِّف توراته الخاصَّة؛ لأن «**التوراة**»، على تُرَّهاتها، لا تستقيم وترَّهاته! بيد أنه لن يلغي «**التوراة**»، بل سيحتال في إلغاء معانيها باسم التأويل وكشف الأسرار. ومِن هٰذا لَعِبُه على كلمة «**اليَمِّ**»، قائلًا إنها إشارة إلى قبيلة (**يام**)، ذات المكانة والتاريخ! ولٰكن صدِّق أو لا تُصدِّق أن **يامًا** كانت قبيلة، وكبيرة جدًّا كاليَمِّ، هناك منذ ما قبل عهد الخروج. لا تَقُلْ إن **يامًا** نفسه لم يكن قد خُلِق في ذٰلكم التاريخ! ذٰلك أنه: (**يام بن أصبى بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد**)، من (**همدان**). ولا يُعثَر على ذِكْرٍ لجد **يامٍ** الرابع (**حاشد**) قبل القرن الرابع قبل الميلاد. فكيف كان **ليامٍ** قبل ذٰلك التاريخ بنحو ألف سنةٍ ذِكْرٌ بوصفها قبيلة هائلة، ذات بلادٍ واسعةٍ، يُشار إليها في «**سِفر الخروج**»؟! إلَّا إنْ جاءنا (**الصَّليبي**) بشهادة ميلاد أخرى **ليامٍ** هٰذا. أم تُره ظنَّه (**يامًا بن نُوح**)، أخا (**سام**) و(**حام**)، الذي غَرِق في **طوفان نُوحٍ**، كما ينقل (**ابن كثير**)[1]؟! وكلُّ مَن (أو ما) جَهِل القدماءُ أصلَه جعلوه عادةً من أبناء (**نُوح**)! وتلك حكاية أخرى. غير أن الحكاية الأهمَّ هنا هي أن قبيلة **يامٍ** قد نَظَرَ إليها صاحب «**الخفايا**» كـ«**بَحْرٍ لُجِّـيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ، لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَن لَمْ يَجْعَلِ**

[1] انظر: ١: ٢٦٢.

اللَّـهُ لَهُ نُورًا، فَمَا لَهُ مِن نُور»! كذا كانت قبيلة **يامٍ** في مخيال **الصَّليبي** الواسع. فهي ذٰلك اليَمُّ الذي ضربه (**مُوسَى**) بعصاه فانفلق، فصار كل فِلق كالطَّود العظيم! وهي البحر الذي تكرَّرت الإشارة إليه بإلحاح في «**سِفر الخروج**»!

أمَّا النص التوراتي، فواضح في إشاراته إلى أنه كان في طريق (**بني إسرائيل**)، خارجين من أرض (**مِصْر**)، بحرٌ ما. وما من بحرٍ بين (**عسير**) و(**الفَلَسَة**)، ولا بين (**عسير**) و(**اليمامة**). لٰكنك لن تدري، والكتاب بعنوان «**خفايا التوراة**»، عن أيِّ «**توراة**» يتحدَّث المؤلِّف؟ إنها، بلا شكٍّ، **توراة** جديدة، أراد أن يخترعها من عند نفسه كي تتَّفق، ولو بعض الاتِّفاق، ومزاعمه في تاريخ (**بني إسرائيل**). وإلَّا فاقرأ (**سِفر الخروج**، الإصحاحات ١٤- ١٥، ١٩)، لتعلم أن الرجل لا يقرأ «**التوراة**»، في حقيقة الأمر، بل يقرأ من خيالاته:

> **«وكَلَّمَ الرَّبُ مُوسَى قَائِلًا: «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْجِعُوا ويَنْزِلُوا أَمَامَ فَمِ الحِيرُوثِ بَيْنَ مَجْدَلَ والبَحْرِ، أَمَامَ بَعْل صَفُون. مُقَابِلَهُ تَنْزِلُونَ عِنْدَ البَحْرِ... فَشَدَّ [فرعون] مَرْكَبَتَهُ وأَخَذَ قَوْمَهُ مَعَهُ. وأَخَذَ سِتَّ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ مُنْتَخَبَةٍ وسَائِرَ مَرْكَبَاتِ مِصْرَ وجُنُودًا مَرْكَبِيَّةً على جَمِيعِها. وشَدَّدَ الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ حَتَّى سَعَى وَرَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وأَدْرَكُوهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ وفُرْسَانِهِ وجَيْشِهِ، وهُمْ نَازِلُونَ عِنْدَ البَحْرِ عِنْدَ فَمِ الحِيرُوثِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُونَ... فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. وارْفَعْ أَنْتَ عَصَاكَ ومُدَّ يَدَكَ على البَحْرِ وشُقَّهُ، فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ في وَسَطِ البَحْرِ على اليَابِسَةِ... ومَدَّ مُوسَى يَدَهُ على البَحْرِ، فَأَجْرَى الرَّبُّ البَحْرَ بِرِيحٍ**

شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وجَعَلَ البَحْرَ يَابِسَةً وانْشَقَّ الماءُ. فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ في وَسَطِ البَحْرِ على اليَابِسَةِ، والماءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وعَنْ يَسَارِهِمْ. وتَبِعَهُمُ المِصْرِيُّونَ ودَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ ومَرْكَبَاتِهِ وفُرْسَانِهِ إلى وَسَطِ البَحْرِ... فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ على البَحْرِ لِيَرْجعَ الماءُ على المِصْرِيِّينَ، على مَرْكَبَاتِهِمْ وفُرْسَانِهِمْ». فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ على البَحْرِ فَرَجَعَ البَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إلى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، والمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إلى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ المِصْرِيِّينَ في وَسَطِ البَحْرِ. فَرَجَعَ الماءُ وغَطَّى مَرْكَبَاتِ وفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الذي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ في البَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ ولَا وَاحِدٌ. وأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشَوْا على اليَابِسَةِ في وَسَطِ البَحْرِ، والماءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وعَنْ يَسَارِهِمْ... ونَظَرَ إِسْرَائِيلُ المِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا على شَاطِئِ البَحْرِ... ثُمَّ ارْتَحَلَ مُوسَى بِإِسْرَائِيلَ من بَحْرِ سُوفَ وخَرَجُوا إلى بَرِّيَّةِ شُورٍ... ثُمَّ ارْتَحَلُوا من إِيلِيمَ. وأَتَى كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى بَرِّيَّةِ سِينٍ، التي بَيْنَ إِيلِيمَ وسِينَاءَ في اليَوْمِ الخَامِس عَشَر من الشَّهْرِ الثَّانِي بَعْدَ خُرُوجِهِمْ من أَرْضِ مِصْرَ... في الشَّهْرِ الثَّالِثِ بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ من أَرْضِ مِصْرَ، في ذٰلك اليَوْمِ جَاءُوا إلى بَرِّيَّةِ سِينَاءَ. ارْتَحَلُوا من رَفِيدِيمَ وجَاءُوا إلى بَرِّيَّةِ سِينَاءَ فَنَزَلُوا في البَرِّيَّةِ. هُنَاكَ نَزَلَ إِسْرَائِيلُ مُقَابِلَ الجَبَلِ.»

تلك هي «التوراة» وذٰلك هو نَصُّها: «**مِصْر.. المِصْرِيُّون.. البحر.. الماء.. شاطئ البحر.. بَرِّيَّة سِيناء...**».

فأين مسرح هٰذه الأحداث؟

أ بين (**عسير**) و(**اليمامة**)؟

إمَّا أن يُلغي (**الصَّليبيُّ**) هٰذه التفاصيل من «**التوراة**»، وإمَّا أن يوجِد لنا بحرًا شَرق (**عسير**)، ليؤلِّف وَفْقَه توراته الجديدة، التي يكتبها بيده، ويرسم لفيلمها «السيناريو» الذي يريد. إلَّا إنْ قال إنَّ أرض الميعاد كانت غَربًا، في (**إثيوبيا**) مثلًا**!** وحتى لو قال ذٰلك، فإن هٰذه القِصَّة لن تركب معه يَمَّ تأويلاته. أمَّا (**بحر سافي**)، أو (**قبيلة يام أو اليَمِّ**)، أو قوله إن البحر (سَيْلٌ) **دهمهم في** أثناء مطاردتهم من قِبَل المِصْريِّين؛ أمَّا هٰذا ونحوه من تلك الافتراضات التي بقي يتردَّد بين جنباتها، فآيةٌ من آيات المكابرة النُّصوصيَّة والتاريخيَّة، أعظم من مكابرة **فرعون** وجنوده**!** وهي مكابرةٌ دفعته حين أَتَى إلى شخصيَّة (**بلعام**)- الذي شارك في الاحتفال بخروج شعب (**إسرائيل**) من (**مِصْر**) واتِّحادهم- ولَمَّا أَنْ وجد أن حفريَّات (**دير علَّا**) بأرض الغور من (**المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة**) قد وُجِدت خلالها كتابات آراميَّة تتحدَّث عن **بلعام** وعن أخبار مهارته في العِرافة؛ لَمَّا أنْ وقف على ذٰلكم كلِّه، زعم أن شخصيَّة **بلعام** شِبه أُسطوريَّة، أوَّلًا، ثمَّ ثانيًا: أن ذٰلك إنَّما يدلُّ على انتشار أخبار **بلعام في** غير (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، وصولًا إلى **الأردن!** مع أنه لا ذِكر **لا لبلعام** ولا لغير **بلعام في الجزيرة العَرَبيَّة**، ولا آثار، ولا كتابات، ولن يجد شيئًا من ذاك مطلقًا، ولو احتفرَ سَراة (**زَهران**) حجرًا حجرًا، بل نَخَلَ (**الحِجاز**) كلَّه جباله وتهائمه، أو قَلَبَ (**القصيم**) رأسًا على عقب- الذي حدَّده لنا تحديدًا جديدًا

مبتكرًا على أنه يقع «**بين الحِجاز ونجد**»[1]!- زاعمًا أنه مَوطن **بلعام** (شِبه الأُسطوري سابقًا!)؛ قال: لأنَّ في **القصيم** واحة اسمها «**الطرفية**»، ولم يجد اسمًا أطرف من هٰذا الاسم ليربط بينه واسم «**فتور**» التوراتي. فحكمَ أن تلك الواحة، إذن، هي مَوطن الشاعر العرَّاف (**بلعام بن بَعُور القصيمي!**)، الذي تَغَنَّى قاطعًا القِفار والتِّلاع والوِهاد إلى سَراة (**زَهران**) لِلَعْن (**بني إسرائيل**)، ولٰكن الله سلَّم، فمدحهم في النهاية بضغطٍ من إلـٰههم (**يَهْوَه**)!

أمَّا الأنهار حين تَرِد في «**التوراة**»، فهي ليست بأنهار البتَّة عند (**الصَّليبي**)، بل مجرَّد وديان. كيف لا، والبحار حين تَرِد هي لديه مجرَّد سيولٍ في وديان، أو هي أحيانًا، إنْ كان لا بُدَّ، إشارات إلى قبيلة (**يام**)؟![2] والمؤلِّف معذورٌ في هٰذا؛ فأنَّى له بأنهار وبحار في (**جزيرة العَرَب**) ليتنصَّل بها من حكاية الأنهار المعروفة والبحار في نصوص «**التوراة**»؟! لا بُدَّ هنا من تحريف الكَلِم من بعد مَواضعه، لتحريف التاريخ والجغرافيا كليهما، ومِن ثَمَّ تدبيج سلاسل من المؤلَّفات تُبدئ وتُعيد في هٰذا المضمار المغري والمثير لمن كان له خيالٌ عنكبوتيٌّ أوسعُ من فُوَّهةِ «**التوراة**»، تنبلج أساريره أبدًا لأحاديث الخُرافة! فإذا القارئ عندئذٍ أمام خُرافةٍ على أخرف منها، خرافات **الصَّليبي** على خرافات «**التوراة**».

---

[1] انظر: **خفايا التوراة**، ٢٦٥- ٢٦٦.

[2] انظر: م.ن.

وأمَّا «**التوراة**»، فتُفرِّق بجلاء بين «**البحر**» و«**النهر**». فـ(**مُوسَى**)، مثلما رأينا آنفًا، قد شَقَّ بعصاه (**بحر سُوْف**)، وهو قد ضرب بعصاه نهر (**مِصْر**):

> «**ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ. قَدْ أَبَى أَنْ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى المَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. والعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ. وتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلٰهُ العِبرانيِّين أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلًا: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي البَرِّيَّةِ. وهُوَ ذَا حَتَّى الآنَ لَمْ تَسْمَعْ. هٰكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهٰذا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى المَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. ويَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ ويَنْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ المِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ».**»[1]

وتردَّدَ ذٰلك التفريق بين مفهوم «**البحر**» و«**النهر**» في «**العهد القديم**»، في مثل «**مزامير داوود**»[2]:

> «**هَلُمَّ انْظُرُوا أَعْمَالَ الله. فِعْلَهُ الُمرْهِبَ نَحْوَ بَنِي آدَمَ! حَوَّلَ البَحْرَ إِلَى يَبَسٍ، وفِي النَّهْرِ عَبَرُوا بِالرِّجْل.**»
>
> «**ويَمْلِكُ مِنَ البَحْرِ إِلَى البَحْرِ، ومِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْض.**»
>
> «**كَرْمَةً مِنْ مِصْرَ نَقَلْتَ. طَرَدْتَ أُمَمًا وغَرَسْتَهَا. هَيَّأْتَ قُدَّامَهَا فَأَصَّلَتْ أُصُولَهَا فَمَلأَتِ الأَرْضَ. غَطَّى الجِبَالَ ظِلُّهَا، وأَغْصَانُهَا أَرْزَ الله. مَدَّتْ قُضْبَانَهَا إِلَى البَحْرِ، وإِلَى النَّهْرِ فُرُوعَهَا.**»

---

[1] سِفر الخروج، ٧: ١٤ – ١٨.

[2] المزمور ٦٦: ٥-٦، ٧٢: ٨، ٨٠: ٨- ١١.

غير أن هٰؤلاء القوم المتأوِّلين المكابرين لقلب حقائق الجغرافيا والتاريخ لمآرب أخرى هم من أتباع النظريَّة العربيَّة الشهيرة «**عنزٌ ولو طارت**». ذٰلك أن الإشكال ليس في نصِّ «**الكتاب المقدَّس**»، لٰكنه في مكمنَين اثنين: إديولوجيا عمياء متخشِّبه، وعقول لا تُحسِن القراءة ولا الفهم ولا الحِجاج. حتى ليَوَدُّون، لو استطاعوا، تصنيف كتابٍ جديدٍ يقول ما يودُّون لو أنه قيل في الكتاب القديم، ثمَّ يقدِّسونه، وينسبونه إلى (**بني إسرائيل**). لأن «**الكتاب المقدَّس**» الذي بين أيدينا، بعهدَيه القديم والجديد، لا يُرضِي طموحاتهم؛ من حيث هُم كلَّما فتَّشوه، إنْ فعلوا حقًّا، شَهِد عليهم شاهدٌ منه بالافتراء، والادِّعاء، وبتسويق الأباطيل على أمثالهم من ذوي الأهواء، أو على مَن يُصدِّقون ما يقرأون بغير عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ منير. وإلَّا فلو كان هٰؤلاء المتأوِّلون المكابرون لقلب حقائق الجغرافيا والتاريخ يقرؤون ابتداءً الكتاب الذين أذاعوا أنهم بصدد إعادة قراءته، لوجدوه يردُّ عليهم بنفسه. وإذن، لتوقَّفوا عن تكلُّفاتهم بشأن (**بحر سُوْف**)، على سبيل المثال- وما يلحق ادِّعاءاتهم فيه من ذيول تأويليَّة- عند (الإصحاح الرابع) من «**سِفر المكابيِّين الأوَّل**»[1] الذي ينصُّ بالحرف:

«وقال (يهوذا) للرِّجال الذين معه: لا تخافوا كثرتهم، ولا تهابوا هجمتهم، واذكروا كيف تخلَّص آباؤنا في (البحر الأحمر) عندما كان (فرعون) يطردهم بقوَّة.»

---

(1) ٨- ٩.

أو عند (الإصحاح الخامس) من «**سِفر يهوديت**»[1] الذي ينصُّ بالحرف، تعريفًا بشعب (**بني إسرائيل**):

«**هٰذا الشَّعب هو من قبيلة الكلدانيِّين. سكنَ أوَّلًا بين النَّهرَين؛ لأنهم لم يُريدوا أن يتَّبِعوا آلهةَ آبائهم الساكنين بأرض الكلدانيِّين. وتركوا سننَ آبائهم التي لهم في عبادة آلهةٍ كثيرةٍ، وسجدوا لالٰه السماء، فأخرجوهم من أمام آلهتهم، فذهبوا إلى بين النهرَين وسكنوا هناك أيَّامًا كثيرة. وأمرهم إلٰههم أن يخرجوا من هناك وينطلقوا إلى أرض (كنعان)، فسكنوا هناك وامتلأوا من الذَّهَب والفِضَّة والمواشي كثيرًا جِدًّا. وجاء على أرض كنعان الجوع، فنزلوا إلى (مِصْر)، وسكنوا هناك إلى حينما رجعوا، وصاروا هناك إلى عددٍ كثيرٍ جِدًّا، ولم يكن لقبيلتهم إحصاء. فناصبهم مَلِك مِصْر، واستحكمَ عليهم في عمل الطِّين واللَّبِن لبناء قُراهم، وواضَعهم بالأوجاع واستعبَدهم. فصرخوا لإلٰههم، وضربَ كلَّ أرض مِصْر بضربات مختلفة. فأخرجهم المِصْريُّون من أمامهم، فارتفعتْ الضربات عنهم. ثمَّ سعوا في طلبهم ليردُّوهم إلى عبوديَّتهم. وعندما كانوا هاربين، فَلَقَ لهم إلٰهُ السماء (البحرَ الأحمر)، وجمدت المياه حائطَين، حائطًا عن ميامنهم، وحائطًا عن مياسرهم، وعَبَروا في البحر على اليبس. ودخل جيشُ مِصْر خلفهم بغير[2] عددٍ لطلبهم، فغطَّتهم المياه، ولم يبق منهم أحد. وأخرجهم الله إلى بَرِّيَّة جبل (سيناء)، حيث لا يمكن أن يسكنه أحدٌ ولا يستريح ابنُ البَشَر.**»

---

[1] ٦- ١٤.

[2] في الأصل: «بغيرة».

وكذٰلك نجد في (**سِفر الحكمة**)[1]: «**وأَجَزْتَهم في (البحر الأحمر) وأَعْبَرْتَهم في ماءٍ كثير**».

ولا يعنينا هاهنا الجدل اليهودي أو البروتستانتي حول هٰذه الأسفار المسمّاة «**أسفار الكتاب المقدَّس القانونيَّة الثانية أو المخفيَّة**» من حيث قداستها أو دِينيَّتها؛ بل الأمر الذي يعنينا تاريخ (**بني إسرائيل**) الصريح المتوارث في أجيالهم.

وبناءً عليه، فهٰذه هي رواية القوم المتوارثة، من قَبل السَّبْي، ومن بَعده، حول تاريخهم، والمَواطن التي استوطنوها، أو مرُّوا بها. أمَّا أن يظهر اليومَ من العَرَب يهودٌ أكثر يهوديَّة من اليهود، وصهاينةٌ أشدُّ فِقهًا بالصهيونيَّة من الصهاينة، ومؤرِّخون أعلم من (**بني إسرائيل**) بتاريخ **بني إسرائيل**، فائتفاكٌ طريفٌ حقًّا!

١٧- القويعيَّة أرض الميعاد، والبحث عن يسوع:

إن الأغرب بعد هٰذا أن تعرف أن (**بني إسرائيل**) لم يكونوا ناوين الاتِّجاه إلى أرض الميعاد أصلًا، ولا إلى (**فِلسطين/ الفلسة**)، ولا إلى (**أورشليم/ آل شريم**)، بل كانوا مزمِعين الوصول إلى (**اليمامة**) في (**نجد**).. وتلك كانت غاية أمانيهم! لٰكنهم لسوء الطالع تاهوا في الطريق وهم يسعون خلف الصُّوَى والتحويلات المروريَّة الموصلة إلى **اليمامة!** فما كان منهم إلَّا أن وجدوا أنفسهم أخيرًا لا في **اليمامة** بل في (**اليَمَن**)!

---

[1] ١٠: ١٨. وفيه: «**وأجازتهم**». وقارن من السِّفر نفسه: (الإصحاح ١٩: ٧)، حيث الإشارة إلى «**البحر الأحمر**» أيضًا.

لا لشيءٍ إلَّا لأن واديًا هناك اسمه (**سيَّان**). وسيَّان كان ذٰلك واديًا أو كان جبلًا، فالمهمُّ أن ثمَّة واديًا ما- إلى جانب جبلٍ ما، بطبيعة التضاريس- فلعلَّ اسم الوادي كان اسمًا للجبل، أو لعلَّ اسم الجبل كان اسمًا للوادي؛ فالمراد إثباته- بشكلٍ أو بغيره- هو أن **سيَّان**: (**طورُ سيناء**)!

فأين، إذن، ذهبت الدِّيار المقدَّسة؟!

وأين ذهب الوعد الإلٰهي: «**فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إلى أَرْضِ الكَنْعَانِيِّينَ والحِثِّيِّينَ والأَمُورِيِّينَ والفِرِزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبُوسِيِّينَ، إلى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وعَسَلًا**»؟![1]

أصارت (**القويعيَّة**) أرضَ الميعاد التي يوعدون؟!

ثمَّ أيُّ قائدٍ رسولٍ ملهمٍ هٰذا الذي يريد أن يتَّجه شمالًا، فإذا هو يتَّجه جنوبًا؟!

بل كيف صار **المِصْريُّون** هم الذين يوجِّهون الرَّكْبَ الإسرائيليَّ إلى دياره، التي يفترض أنها ديار آبائه وأجداده وأرض ميعاده، وهو يتأبَّى، ويُراوِغ، ويَفِرُّ عنها جَنوبًا، وبقيادة (**مُوسَى**)؟!

هنا يواصل بنا (**الصَّليبي**) مشواره، قائلًا إن القوم أرادوا أن يخرجوا إلى (**الضبطين**) بمنطقة (**القويعيَّة**) في (**نجد**)؛ غير أن حرس الحدود المصرامي كان لهم بالمرصاد؛ فإذا العبرانيُّون بقيادة (**مُوسَى العسيري!**) يشطحون جهةَ (**نجران**)،

---

[1] سِفر الخروج، ٣: ١٧.

فـ**(الربع الخالي)**، وكان ما كان! قد يقول قائل: إنهم لم يريدوا دخولها حتى يخرج منها القوم الجبَّارون، كما هي القِصَّة المتواترة. غير أن هٰذا القول بالإرجاء، مع بقاء الهدف، شيءٌ، والقول بأن غايتهم كانت وجهةً أخرى، شيءٌ آخر. والواقع أن محرِّك هٰذه البوصلة الخرافيَّة من التيه ليس سوى البحث عن الأسماء من قِبَل **الصَّليبي** نفسه؛ ذٰلك لأن أسماء الأماكن التوراتيَّة لم تنضبط للرجل في اتجاهٍ واحدٍ، ولا على جادَّة مستقيمة سالكة؛ فأصبحت **(فِلسطين/ الفلسة)** في جهة، وأصبحت **(أورشليم/ آل شريم- النماص)** في جهة، وأصبحت بقية الأماكن التوراتيَّة في أماكن أخرى مختلفة، بل صار بعضها لا يتوافر بين يديه في الجَنوب الغَربي من **(شِبه الجزيرة العَرَبيَّة)**، ولٰكن في **(نجد)**، وبعضٌ آخر في عُمق **(اليَمَن)**. وعليه كان مضطرًّا أن يدوخ بنا وبـ**(بني إسرائيل)** السبع دوخات، في حلزونيَّات من المعارج، كان تيه **(مُوسَى)** وقومه أرحم منها. وتبخَّرت وَفْقَ البوصلة الصَّليبيَّة أرضُ الميعاد، وضاعت **(أورشليم)** وغير **أورشليم** في الطريق. فلقد دار المؤلِّف- سامحه الله- بشعب الله المختار شَرقًا وغَربًا، جَنوبًا وشَمالًا، في صورة كوميديَّة؛ تبعًا لمغناطيس الأسماء المترامية الأطراف في كلِّ اتجاهٍ من **جزيرة العَرَب**.[1]

حتى إذا جاء لاحقًا إلى قِصَّة **(يسوع)**، أو **(عيسى بن مَرْيَم)**- ابن أخت **(هارون)**، حسب الرواية القرآنيَّة- رأيناه يذهب مذاهب أخرى؛ لا يعزو فيها الأحداث إلى جَنوب **(الجزيرة العَرَبيَّة)** الغربي كما كان يفعل من قبل. بل سرعان ما

---

[1] انظر: الصَّليبي، **خفايا التوراة**، ٢٣٦- ٠٠٠.

انتقل التاريخ إلى (**فِلسطين**)، حيث الصراع بين (**اليهود**) و(**الرومان**) من جهةٍ و(**عيسى**) وحواريِّيه من جهةٍ مقابلة. وهو بالتأكيد سينفي أن (**مَرْيَم**) **أُمَّ يسوع** هي أخت **هارون** أخي (**مُوسَى**)؛ لأن من المعروف تاريخيًّا أن بين مولد **يسوع** ووجود تلك **المَرْيَم** و**الهارون** و**المُوسَى** أكثر من ألف عام.

على أنه سيُشير إلى أن (**يسوع**) وُلِد في (**الجليل**)، لا في (**بيت لحم**)، وأن **الجليل** هٰذا ليس **بجليل** (**فِلسطين**)، بل (**جليل الطائف**)، وهو وادٍ هناك! وأن (**الناصرة**) فرعٌ من قبيلة (**بلحارث**) في وادي (**ميسان**)، زاعمًا أن كثيرًا من أسماء القبائل أصلها أسماء أماكن! على أنه لم يورد لنا مثالًا واحدًا على تلك الكثرة من أسماء الأماكن التي تحوَّلت إلى أسماء قبائل.[1] كما ذهب في هٰذا المعمعان إلى أن (**يهوذا الإسخريوطي**)، المتَّهم بخيانة **يسوع** وتسليمه إلى اليهود لصَلبه، يعود إلى مكان اسمه (**القَرِيَة**)، من قُرَى (**عُتَيْبَة**)- ولا تسأل لِـمَ هٰذه القَرِيَة تحديدًا دون قُرى أخرى لا تُحصى في الجزيرة؟!- وتقع تلك القَرِيَة في وادي (**لِيَّة**)[2] بمنطقة (**الطائف**)؛ فهو لذٰلك: «**القريوتي**» أو «**القريوي**»، وليس «**الإسخريوطي**».[3] وهٰكذا يستمرُّ منهاج (**الصَّليبي**) في القصِّ واللَّصق، قصِّ الأسماء من الكتاب المقدَّس وإلصاقها بأسماء أماكن أو قبائل في (**الجزيرة العَرَبيَّة**).

أمَّا (**يسوع**)، فيرى أنه ليس بـ(**عيسى بن مَرْيَم**) أصلًا. بل هو (**يسوع**

---

(1) انظر: م.ن، **البحث عن يسوع**، ٥٥- ٥٦، ٦١، ١٢٧- ٢٠٠.

(2) وادي (**لِيَّة**) هٰذا الواقع جَنوب (**الطائف**) غير وادي (**لِيَة**) السابق ذِكره جَنوب منطقة (**جازان**).

(3) انظر: م.ن، **البحث عن يسوع**، ٩٥.

الناصري)، القادم من وادي (**الجليل بالطائف**)، وهو أميرٌ من بيت (**داوود**)، كان يسعَى لاستعادة مُلك جدِّه (**داوود**) في (**بني إسرائيل**). فذهب إلى (**فِلسطين**)، واصطدم باليهود لأسبابٍ دِينيَّةٍ وأسبابٍ سياسيَّة، حتى انتهى به المطاف إلى أن قبضوا عليه فحُوكِم وصُلِب. وأمَّا **عيسى بن مَرْيَم**، فهو (**ابن مَرْيَم بنت عمران**)، أخت (**هارون ومُوسَى**)، من البيت الهاروني اللَّاوي. وهو النبيُّ الموصوف في «**القرآن**»، ذو المعجزات في ميلاده وفي أعماله، وما قَتلوه ولا صَلبوه، ولٰكن مات موتًا طبيعيًّا، فرفعه الله إليه. وكانت قد غَلَتْ في **عيسى** هٰذا فِرقةٌ من شيعته، فزعموا أنه «ابن الله».[1] ولقد كان **يسوع الناصري** نفسه من أتباع **عيسى بن مَرْيَم**، ديانةً. وكان **لعيسى بن مَرْيَم** إنجيلٌ مفقودٌ، لعلَّه اطَّلع عليه (**بولس**) في بلاد العَرَب، التي رحل إليها، كما أشار إلى ذٰلك في «**أعمال الرُّسل**»، وقد مثَّل ذٰلك الإنجيل المصدر لما نسبَه إلى **يسوع** من أمور. ذٰلك أن **بولس** كان يهوديًّا، يضطهد **النصارى** وينكِّل بهم أنَّى ثَقِفَهم، وربما سُمِّي (**شاوُل**)، ثمَّ إذا هو يتحوَّل بقُدرة قادرٍ إلى مبشِّر **بيسوع** (سنة ٤٣م)، بعد رُؤيةٍ مناميَّةٍ رآها، تأسَّست على تصوُّراتها العقيدةُ المسيحيَّة، ومنها بُنوَّة **المسيح**[2] لله!

---

[1] في (**إنجيل لوقا، ٣: ٢٣– ٣٨**) يسرد الكاتب نَسب (**يسوع**)، قائلًا إنه «**كان يُظَنُّ ابنَ يوسف بن هالي**»، ثمَّ لَمَّا ينتهي بسلسلة نَسبه إلى (**آدم**)، يقول: «**شيت بن آدم، [ا]بن الله**»! وهٰذا يعني: أننا جميعًا، إذن، أبناء الله، ببنوَّتنا لـ«**آدم بن الله**»! أمَّا إنْ كان كاتب هٰذا الإنجيل يعني– بعد هٰذه السلسلة النَّسبيَّة– أن **يسوع** «**ابنُ الله**»، فهٰذا تناقض! فما معنى سرد نَسب (**يوسف بن هالي**)، وليس **يسوع** بابنه؟! ما داموا يؤمنون بأنه «**ابن الله**»، فلا معنى لهٰذا النَّسب. ولو كانوا يؤمنون، كما يؤمن المسلمون، بأنه «**ابن مَرْيَم بنت عمران**»، فإن سلسلة نَسبه، إنْ كان لا بُدَّ، تنطلق من اسم **مَرْيَم**.

[2] أصل لقب «**مسيح**»– حسب «**الكتاب المُقدَّس**»– أن مَن في مقام رجل الدِّين الأعظم في (**بني إسرائيل**) كان يَسكب من دُهن المَسْحَة المُقدَّس على رأس مَن يُريدون تنصيبه كاهنًا أو مَلِكًا فيَمْسَحُه؛ فيُطلقون ←

وبذا فإن (**كمال الصَّليبي**) يرى، من خلال كتابه «**البحث عن يسوع**»، أن **النصارى** لفَّقوا بين شخصيَّتين، هما شخصيَّة (**عيسى بن مَرْيَم بنت عمران**) وشخصيَّة (**يسوع الناصري بن يوسف النجار**)، مجهول الأُمِّ. وهو ما انتهى بهم إلى تصويرهما شخصيَّةً واحدةً، وإلى نَسْج قصتَيهما قِصَّةً واحدة، تأخذ تفاصيلها من كلتا الشخصيَّتين والقِصَّتين. ومن ثَمَّ نشأت عقيدةٌ على تلك الشخصيَّة الملفَّقة من شخصيَّتَين والقِصَّة المركَّبة من قِصَّتَين. وبهٰذا يعتمد **الصَّليبي** الروايةَ القرآنيَّة على أنها الرواية الصحيحة حول النبي **عيسى بن مَرْيَم**، وأن ما أُضيف إلى قِصَّة **عيسى بن مَرْيَم** من حكاية الصَّلْب إنما جاء مقتبَسًا من قِصَّة **يسوع**، وما أُضيف إليها من مسألة التأليه والتثليث إنما يعود إلى مذهب الغُلاة في **عيسى** من أشياعه. وفي المقابل فإن ما أُضيف إلى قِصَّة **يسوع**، من حيث مولده، ومعجزاته، وادِّعاء بنوَّته لله، ونسبته إلى أُمِّه العذراء (**مَرْيَم**)، كلَّ ذٰلك لا أصل له، وإنَّما هو مشتقٌّ من قِصَّة **عيسى بن مَرْيَم**، ومن شطحات الغُلاة من شيعته في تلك القِصَّة.[1]

هٰذا ملخَّص موقف (**الصَّليبي**) في هٰذه المسألة. على أنه هنا لم يقدِّم إجابةً شافيةً حول شخصيَّة (**يوحنَّا المعمدان**)؟ ذٰلك أن **يوحنَّا** هٰذا هو (**يحيى بن زكريا**)، حسب إقرار **الصَّليبي**، و(**زكريا**) هو المتكفِّل بشأن (**مَرْيَم بنت عمران**)،

عليه عندئذٍ: «**مسيح الرَّب**». (انظر مثلًا: **العهد القديم**، سِفر الخروج، ٢٩: ٧، سِفر الملوك الأوَّل، ١: ٣٤، سِفر أخبار الأيَّام الثاني، ٦: ٤٢).

[1] انظر: الصَّليبي، **البحث عن يسوع**، ١٠٧– ٠٠٠.

أُمٍّ (**عيسى بن مَرْيَم**). فكيف أضحى **يوحنَّا** هٰذا في براري «**عبر الأردن**» بعد عِدَّة قرونٍ من حياة **زكريا** أبيه، وصار قَرِيْنًا لسيرة (**يسوع**)، ومعمِّدًا له؟!

ومهما يكن من أمر، فليست مناقشة المؤلِّف في هٰذا ممَّا الدارس بصدده، وإنَّما يعنيه في هٰذه القراءة منهاجُه الاستدلاليُّ المضطرِب في نِسبة الأحداث التاريخيَّة إلى بعض المَواطن، وتبنِّيه من المُصادرات ما لا دليل عليه، ولا برهان يعوَّل عليه، ولا مستنَد فيه لديه سِوَى تشابُه الحروف والأسماء.

وهٰكذا فإن المتأمّل في منهاج (**الصَّليبي**) سيلحظ أنه يتأرجح بين حالتين: حالة من الطرح يبدو فيها على مستوًى رصينٍ من العِلْميَّة والموضوعيَّة والرؤية الثاقبة، وحالةٍ أخرى يشتعل فيها رأسه هوسًا بالتأويل، فتسقط الضحايا المنهاجيَّة تباعًا من أجل نكران الصِّلَة الجغرافيَّة لما ورد في «**الكتاب المقدَّس**» بـ(**فِلسطين**)، ونِسبته إلى (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ فإذا هو ينحدر إلى افتراضاتٍ متهافتة، لا مبرهنة، ولا حتى مقنعة افتراضًا. ذٰلك أنه قد انطلق من تلك البِذرة الافتراضيَّة التي استهلكته، فما لبثْ أن تحوَّلت بين يديه إلى عقيدةٍ يقينيَّةٍ تَفرض سلطانها عليه. حتى بدا في أشقى أطواره مُعانيًا من وسواسٍ قهريٍّ، يسوقه قسرًا إلى البحث عن مُقابِلٍ مكانيٍّ في **الجزيرة العَرَبيَّة** لكلِّ عَلَمٍ من أعلام «**الكتاب المقدَّس**»، بما في ذٰلك أعلام الناس. ومن شواهد ذٰلك بحثه عن (**جليلٍ**) و(**ناصرةٍ**) في (**الحِجاز**)، لِنسبة (**يسوع**) إليهما. ثمَّ زعمه أن (**عيسى بن مَرْيَم**) كان يَكْرِز في **الجليل** و**الناصرة** المزعومَين في **الحِجاز**. وذهابه إلى أن **يسوع**، حين قَدِم من **الجليل** و**الناصرة**

الحِجازيَّين إلى (**فِلسطين**)، وجدَ مثلَيهما في **فِلسطين** وباسمَيهما تمامًا! وكان قد حدث مثل هٰذا لدَى **الصَّليبي** من قبل حين قسَّم شخصيَّة (**إبراهيم**) إلى عِدَّة شخصيَّات، ثمَّ وَجَدَ أن أسماء الأماكن تتكرَّر مع تلك الشخصيَّات، فلم يجد بُدًّا من أن يُسلِّم بمعقوليَّة ذٰلك التكرار أيضًا. وبمثل هٰذا ظلَّ يُورِّط أعماله في غير يسيرٍ من التكلُّف والتمحُّل والادِّعاء.

١٨- لِـمَ انطمستْ الآثار المِصْريَّة بالجزيرة وبقيتْ اليَمَنيَّة؟!:

قلنا إن (**الصَّليبي**) كان يسعى إلى نقل (**مِصْر**) إلى(**عسير**) بأيِّ صورة؛ كي تستقيم ترتيباته الغرائبيَّة. وتلك دعوَى وافقت أهواء بعض قُرَّائه من هنا وهناك، لٰكنها لا تستند إلى بُرهان.

أمعنَ في هٰذا إلى أنْ أصبحت أسماء المدن المِصْريَّة الواضحة الانتماء- كـ«**فيثوم**»، أو «**رعمسيس**»- على يديه: (**آل فُطَيْمَة**)، و(**المصاص**)، في (**بِلقَرن**)![1] فماذا تنتظر بعد هٰذا من دلالة على العبث والمكابرة؟! «**أمَّا «النهر الكبير»، (نهر فرت= الفُرات)، فهو بدون أدنى شك** *[لاحظ «بدون أدنى شك»، هٰذه التي يُشهرها في وجهك!]* **وادي (أضم)**»؛ لا لشيء إلَّا لأن هناك إلى اليوم قرية اسمها «**الفرت**». ويَستنتج قائلًا: «**إذن، لم يكن هناك لا نِيْل مِصْري ولا فُرات عِراقي في**

---

[1] انظر: م.ن، **خفايا التوراة**، ٢٤٣.

وعد الرب يهوه لأبرام.»[1] مع أنه تارةً يَعْدِل عن هٰذا التحديد، فلا يستقرُّ على قرار؛ فيزعم أن **الفُرات** وادي (**خارف**) بجوار (**تنومة**). لا بل هو (**طارفة**) من روافد (**بِيشة**).[2] وهٰكذا دواليك في مُضطرَبٍ لا نهاية له؛ لأن مغريات الأسماء كثيرة جدًّا في أماكن شتَّى، وما عليه سِوَى أن يغترف منها ويدبِّج الكُتب، محاولًا أن يوازن الأمور لنقل التاريخ التوراتي كلِّه إلى جَنوب غَرب (**الجزيرة العَرَبيَّة**). وضاع نهر **الفُرات** بين الأودية والشعاب!

أمَّا (**حدقل**)، أو نهر (**دجلة**)، فاسم له علاقة بقرية (**آل جحدل**) في (**سَراة عبيدة**)! **فدجلة** لديه ببساطة: (**وادي تَنْدَحَة**)! فسبحان من يطوي السماء والأرض كطيِّ السِّجِل للكتب!

ولو عَلِم أيضًا أن بيتًا في جبال (**فَيْفاء**)، (عفوًا: في جبل (**جلعاد**) سابقًا!)[3] سمَّاه أهله- كعادتهم في تسمية البيوت-: «**مصر**»، لساعده أكثر لحمل (**مِصْر**) إلينا على طبقٍ من تأويل؛ فهو اسمٌ مطابقٌ لاسم **مِصْر**! وهناك إلى جانبَيه واديان عظيمان، هما وادي (**ضَمَد**) ووادي (**جوراء**)، وهما أكبر من وادي (**لِيَة**). ويبدو أن هٰذين الواديين هما (**النِّيْل الأزرق**) و(**النِّيْل الأبيض**)، وأن أحدهما أو كليهما عُرِف في الأزمنة التوراتيَّة بنهر **مِصْر**! كيف لا، وفي **فَيْفاء** أيضًا أمكنةٌ ترجِّح ذٰلك التأويل جِدًّا، كمكانٍ اسمه (**المحلَّة**)، وآخَر اسمه (**المعادي**)، وثالث اسمه: (**مَنَفَة**)، ورابع

---

[1] انظر: م.ن، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٦٠.

[2] انظر: م.ن، ٢٧٦.

[3] انظر: م.ن، ٢٨٥.

اسمه: (**نَيْد الحَرَم**)، الذي «لا بد» أنَّ أصله: «**نجد الهَرَم**»، أي هضبة (**الهَرَم**)، وخامس اسمه (**نَيْد الصَّعيد**). إضافة إلى أماكن أخرى يمكن تحليلها وتأويلها، على طريقة (**الصَّليبي**) في التحليل والاستنتاج، لاستحلاب تاريخٍ جديدٍ **لِمِصْر** القديمة. ليس هٰذا فحسب، بل لقد عُثِر منذ سنوات على تمثالٍ فرعونيٍّ صغير للمَلِكة (**حتشبسوت**، -١٤٥٨ق.م)[١] في جبال **فَيْفاء** أيضًا. وبهٰذا، فما دامت عبارة «يبدو» كفيلةً بقلب الخريطة الجغرافيَّة والتاريخيَّة رأسًا على عقب، فكلٌّ يستطيع أن يجعل أيَّ شيء «يبدو» أيَّ شيء! لولا أنَّ ثمَّة بَوْنًا بَـيِّنًا بين مفهومَي التأويل وضرب الودع!

إنَّ ربط (**الصَّليبيِّ**) اسم (**مِصرايم**) العِبري بقريةٍ اسمها (**المصرمة**) في (**عسير**) مغالطةٌ لغويَّةٌ وتاريخيَّةٌ كبرى، كما تقدَّم. ذٰلك أن اسم **المصرمة في عسير** اسمٌ عَرَبيٌّ له مبناه الاشتقاقيُّ، ومعناه العَرَبيُّ الخاصُّ[٢]، فيما استعمال «**التوراة**» اسمَ **مِصرايم** للإشارة إلى (**مِصْر**) شأنٌ لغويٌّ خاصٌّ بلغة «**التوراة**». ولم تتفرَّد (**العِبريَّة**) به، بل كان يشار بمثله إلى **مِصْر** في لغات أخرى، كـ(**الأوغاريتيَّة**)، التي تُسمِّي

---

[١] (**حتشبسوت**): ابنة المَلِك (**تحوت مُوسَى الأوَّل**)، والمَلِكة (**أعح مس**). من أشهر مَلِكات الفراعنة وأقواهنَّ نفوذًا؛ لُقِّبت بالمَلِكة العُظمَى. أنشأتْ لـ(**آمون**) معبد الدير البحري الجنائزي، على الشاطئ الغَربي من نهر (**النِّيل**) عند مدينة (**طِيبة- الأُقصر**)، في (**الصَّعيد**)، وأطلقتْ على نفسها: «**زوجة الإلٰه**» أو «**عابدة الإلٰه**»، وكذٰلك ابنتها (**موت أم حات**). وقد نُشِر يوم (الثلاثاء ٦ جمادَى الأُولى ١٤١٥هـ= ١١ أكتوبر ١٩٩٤م) تقرير عن العثور على تمثال (**حتشبسوت**)، بعنوان «***الملكة حتشبسوت تظهر في فَيْفاء***»، (جريدة «**الرِّياض**»، ع٩٦٠٥، ص١٣). وإذا صحَّ انتماؤه إلى الحضارة المِصْريَّة القديمة، فهو يدلُّ على علاقاتٍ كانت للمنطقة **بِمِصْر**، غير أنه لا يكفي للدَّلالة على شيءٍ من افتراضات (**الصَّليبي**) الواسعة.

[٢] راجع تحليلنا اللغوي لهٰذا الاسم.

مِصْر: «م ص ر م»، و(**الفينيقيَّة**)، التي تسمِّيها: «**م ص ر ي م**»، و(**الآراميَّة**)، التي تسمِّيها: «**م ص ر ي ن**». ولا يعني هٰؤلاء **مصرمة عسير**، قطعًا، بل لم يسمعوا **بعسير** برمَّتها؛ فاسم **عسير** نفسه اسم غير قديم الاستعمال كما بيَّنَّا من قبل، فضلًا عن **مصرمته** التي لم يسمع الناس بها قبل **الصَّليبي!** وكأنَّما تلك الزيادات على اسم «**م ص ر**» في بعض اللغات القديمة هي من قَبيل تنوين الاسم في تلك اللغات، أو من قَبيل تعريفه. وهٰذا افتراضٌ يُرجَع فيه إلى علماء اللغات القديمة. بَيْدَ أَنَّنا سنجد (**الأكديَّة**)[1] لا تستعمل مثل تلك الزيادات؛ فهي تُشْبِه العَرَبيَّة فتُسمِّي (**بلاد النِّيْل**) بـ«**مِزْرُ، مُزِر، مُصُرْ، مُصْرِ، مِصِرْ**». بل لم يكن **المِصْريُّون** أنفسهم يطلقون اسم «**مِصْر**» على بلادهم، كيما يُفترَض بالضرورة إطلاق الآخرين هٰذا الاسم عليها، أو يُفترض الاتفاق بين اللغات واللهجات في نُطق الاسم، فإنْ لم يقع الاتفاق بين اللغات واللهجات في نُطق الاسم، استُدِلَّ من ذٰلك على أن المقصودة بلاد أخرى. فقد كان **المِصْريُّون** يسمُّون بلادهم: «**ك م ت**»، أي: «**بلاد السواد**». أو «**ت أ و ي**»، أي: «**البَلَدين**»، إشارة إلى **مِصْر العُليا** والسُّفلَى. أو «**إ د ب و ي**»، أي: «**الضِّفَّتَين**»، إشارة إلى ضِفَّتَي وادي **النِّيْل**.[2] وقد سَبَقت إشارتنا إلى ما سجَّله (**المقريزي**)[3] ممَّا تناهَى إليه حول السبب في تسمية **مِصْر** بهٰذا الاسم.

---

[1] (**الأكاديُّون أو الأكديُّون**): شَعبٌ هاجر من شَرق (**الجزيرة العَرَبيَّة**) إلى (**العِراق**). وهم الساميُّون الأُوَل الذين استوطنوا **العِراق**، خلال الألف الثالث قبل الميلاد. (انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ١٢، ٢٥- ٠٠).

[2] انظر: السعيد، ٢٧- ٢٨.

[3] انظر: **المواعظ والاعتبار بذِكر الخِطط والآثار (المعروف بالخِطط المقريزيَّة)**، ١: ٥٦.

ولا غرو أن تعليق (**الصَّليبي**) براهين مزاعمه على مِشجَب مكتشفاتٍ أثريَّةٍ قد تُثبت فرضيَّته مستقبلًا مغالطةٌ أخرى مفضوحة، وهروبٌ من البرهنة على ادِّعاءاته. والتنقيبات الأثريَّة لا تُجرَى إلَّا في ضوء معلوماتٍ أوَّليَّةٍ يُعتدُّ بها عِلْميًّا، أو لقيام شواهد يقدِّرها ذوو الاختصاص عن احتمال مكتشَفٍ أثريٍّ ذي قيمةٍ في أرض ما. لا على أساس فرضيَّةٍ رأس مالها: هٰذا المكان يحمل اسمًا شبيهًا باسمٍ تاريخيٍّ قديمٍ، فلنحتفره، إذن، لنتأكَّد! هٰذا عبث، لا بحث. والواقع أنه لا معلومات يُعْتَدُّ بها عِلْميًّا، ولا شواهد على احتمال ما أشار إليه **الصَّليبي**. هٰذا على الرغم من العثور على آثار (**مَعِيْنيَّة**)، على سبيل المثال، وعلى كثيرٍ من نقوش **المَعِيْنيِّين** في أماكن مختلفة من (**الجزيرة العَرَبيَّة**). ومنها أماكن في (**الحِجاز**)، كـ(**يثرب**)، و(**فدك**)، و(**العُلا**)، وأخرى خارج الجزيرة، مثل (**فِلسطين**)، و(**العِراق**)، و(**أنطاكيَّة**)، و(**اليونان**). بل عُثِر على بعضها في الصحراء الشَّرقيَّة من (**مِصْر**)؛ إذ كانت بين الحضارتَين المِصْريَّة واليَمَنيَّة علاقاتٌ تجاريَّة.[1] وقد ازدهرت الدولة **المَعِيْنِيَّة** منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

---

[1] مِمَّا عُثِر عليه في (**مِصْر**) من الآثار **المَعِيْنيَّة تابوتٌ** خشبيٌّ، في (**صقارة**) بالقرب من (**القاهرة**)، منقوشًا عليه بالمسند اليماني، يرجع تاريخه إلى ٢٦٣ق.م تقريبًا، لتاجرٍ مَعِيْنيٍّ اسمه (**زيد إل/ زيد اللات**). ويبدو أنه كان لهٰذا الرجل شأنٌ عند المِصْريِّين، فلقَّبوه بـ(**الكاهن المطهَّر**) ودفنوه على الطريقة (**الأوزيريسيَّة**)، في السنة الثانية والعشرين من حُكم الملك (**بطليموس بن بطليموس**)، ولعلَّه **بطليموس الثاني**. والتابوت محفوظٌ الآن في المتحف المِصْري **بالقاهرة**. (انظر حول هٰذا: بافقيه، ٢٤، ٢٩٣- ٢٩٥؛ السعيد، ٦٩- ٧٥، ١١٦- ١١٩؛ علي، جواد، ٢: ١١٩- ١٢٤؛ شرف الدِّين، ٥٩- ٦٠؛ ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ١١١).

فعلامَ، إذن، انطمس تاريخ المستعمرات المِصْريَّة المزعوم في الجَنوب الغَربيِّ من (**الجزيرة العَرَبيَّة**) انطماسًا تامًّا؛ فلا نقش هناك، ولا تمثال يدلُّ عليها، ولا أَثَر؟

لماذا عُثِر على آثار **مَعِيْنِيَّة** هنا وهناك في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وخارجها، في حين لم يُعثَر على أَثَرٍ مِصْريٍّ واحدٍ يشير إلى ما يزعمه (**الصَّليبيُّ**) من مستعمراتٍ مِصْريَّةٍ عريقةٍ قامت في **الجزيرة**، لا مجرد علاقات تجاريَّة كانت بين **الجزيرة** و**مِصْر**؟ هٰذا على الرغم ممَّا يدَّعيه الرجل من تاريخٍ امتدَّ قرونًا، ومن مظاهر حضاريَّة أشدَّ تفوُّقًا من نظيرتها اليَمَنيَّة، ومن مُعاصَرة أحداثٍ جسامٍ خلَّدتها الأساطير، وجاءت في كتابَي **اليهود** و**المسلمين**. فضلًا عن الهيمنة التي جاءت بها الرواياتُ لمملكة (**سُلَيمان**) على ممالك (**سَبَأ**).

لقد كانت مملكة (**مَعِيْن**) إحدى تلك الممالك (الفيدراليَّة) التي انضوت تحت اسم مملكة (**سَبَأ**)، التي واجه (**سُلَيمانُ**) مَلِكتها (**بِلقيس**)، وقضى في النهاية على مُلكها ومملكتها، كما جاء في القِصَّة القرآنيَّة.[1] وإذا صحَّ أن مملكة **مَعِيْن** ازدهرت خلال القرن ١٤ق.م تقريبًا[2]، وأن المَلِك **سُلَيمان** توفي نحو ٩٢٥ق.م، فلعلَّ مملكة

---

[1] مع هٰذا، فإن مملكة (سَبَأ)، كما دلَّت مكتشفات النقوش، بقيت عبر القرون التالية للقرن العاشر قبل الميلاد. بل إن مكربي سَبَأ الثلاثة عشر، وملوكها الستة والعشرين المعروفين، حكموا في (**اليَمَن**) إلى نهاية السنين الألف الأُولى قبل الميلاد: (٨٥٠- ١١٥ق.م). كما استمرَّت معابدهم للشمس وآلهتها، كـ(**شمس**)، و(**ذات بعدان**)، وللقَمَر، كـ(**المُقَة**)، و(**سن/ سين**)، و(**شهر**)، و(**وَدٍّ**)، وللزُّهْرَة، كـ(**عثتر**). (انظر: الجدول بعنوان «**تجربة الإنسان الوثنيِّ الوجوديَّة (أقانيم الرموز الرئيسة وأهم مرادفاتها)**»، في كتاب: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهلية**، ٢٥٩- ٢٦٤). و(انظر: شرف الدِّين، ٦٧- ٠٠).

[2] انظر في هٰذا مثلًا: (شرف الدِّين، ٥٣). وهو يشير إلى أن مملكة (سَبَأ) المعروفة إنما بدأت ٨٥٠ق.م، على أنقاض مملكة (مَعِيْن).

مَعِيْن كانت إذ ذاك جزءًا من اتِّحاد ممالك سَبَأ المشار إليه. ومن الباحثين من يشير إلى ورود ذكرٍ لسَبَأ في نصٍّ سُومَريٍّ يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، باسم «سباو».[١] ومهما يكن من خلاف في تاريخ هٰذه الممالك[٢]، فلقد

---

[١] انظر: م.ن، ٧٣.

[٢] على الرُّغم من اضطراب المؤرِّخين حول تاريخ تلك الممالك فإنهم كثيرًا ما يشيرون إلى أن (**مَعِيْن**) كانت أقدم من (**سَبَأ**). بل هناك من رأى أنها أقدم دولة عَرَبيَّة معروفة، وأن **المَعينيِّين** أقدم عهدًا من **العِبرانيِّين**. وربما كان وجود **المَعينيِّين** يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، كما ذهب إلى ذٰلك المستشرق (**إدوارد جلاسر** Eduard Glaser). (انظر مثلًا: علي، جواد، ٢: ٧٣- ٠٠). كما ذهبَ الأثريُّ الألمانيُّ (**فريتز هومل**) إلى أن مملكة **مَعِيْن** هي المذكورة في نقشٍ مسماريٍّ يعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، عن أحد ملوك (**بابل**)، وهو (**نرام سين**)، نُقِشَ على قاعدة تمثالٍ له، مفاخرًا بإخضاعه «**مجان**»، وأَسْر أميرها (**مانيوم**). فيما يرى باحثون آخرون غير ذٰلك. (انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ١٠٦، نقلًا عن:
Fleisch, Henri, (1947), **Introduction à l'Etude des Langues Sémitiques**, (Paris: ?), p. 90).
في حين يذهب بعضٌ إلى أن مملكة **مَعِيْن** متأخِّرة عن مملكة **سَبَأ**، محتجِّين بأن أقدم النقوش التي عُثِر عليها سبئيَّة. (انظر مثلًا: التركي، هند، «***معبد رصف ومكانته العلميَّة في مملكة معين***»، ١٥٠- ١٥١). وهي حُجَّة لا تَدحض- على كلِّ حال- القول بقِدَم **مَعِيْن**؛ إذ لا يعني عدم العثور على كتابات **مَعِيْنيَّة**، أنها لم توجد بالضرورة، أو أن **المَعينيِّين** لم يكن لهم وجود. بل قد يكون هٰذا دليلًا على عكس ما استُدلَّ به عليه؛ من حيث إن الكتابة طورٌ متأخِّرٌ جِدًّا في التجربة البشريَّة، لا يرقَى إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة وثلاثة قرون من الآن. أي منذ ابتكر (**الفينيقيُّون**) الأبجديَّة، بعد الكتابة التصويريَّة، **كالهيروغليفيَّة**، أو الكتابة المقطعيَّة، **كالمسماريَّة**. وإذا صحَّ أن **مَعِيْن** كانت ذات ازدهارٍ في حدود القرن ١٤ق.م، فلا يُتوقَّع أن يُعثَر لها على نقوش. على أن الكتابة إنَّما كانت، في بداياتها، لضرورات محدَّدة، كالتجارة، ولاسيما البحريَّة، والتعامل مع أُممٍ أخرى، ولم تكن وسيلةً ثقافيَّةً عامَّة، أو مستعملةً في كلِّ الحضارات. ومن ثَمَّ لا يُصبح غيابها دليلًا على عدم وجود حضارةٍ ما، أو على رقيِّها ضروبًا من الرُّقِي. أمَّا سبب الخلاف في تاريخ الدُّوَل اليَمَنيَّة، فوراءه- فيما يظهر- أن تلك الدُّوَل كانت تمرُّ بمَوجاتٍ من القوَّة والضَّعف، ثمَّ استئناف الظهور. وربما عاصر بعضها بعضًا، أو دخل معه في اتِّحادٍ «فيدرالي». وبذا لا غرابة أن نقف على مؤشِّرات على وجود **المَعِينيِّين** خلال الألف الثاني والأوَّل قبل الميلاد، قبل المعروف من تاريخ **السبئيِّين**، ثمَّ في معاصرتهم، أو ضِمن دولتهم، ثمَّ بعدهم، وصولًا إلى القرن الثاني قبل الميلاد. حول (**سَبَأ**)، (انظر: **دائرة المعارف الإسلاميَّة**: **The Encyclopaedia of Islam**, VIII, 663- 665).

ظلَّت **لَمِعِيْن** و**لسَبَأ** آثارٌ في جَنوب **الجزيرة العَرَبيَّة** وغَربها ونقوش مشهودة، وكذا في شَمال **الجزيرة**، وفي خارج **الجزيرة**، وصولًا إلى (**أفريقيا**) و(**أوربا**). وما بقي لمملكة (**سُلَيمان**)، ولا للمستعمرات المِصْريَّة المزعومة، ولا لكلِّ ذٰلك التاريخ «الفانتازيِّ» المدَّعَى، من أثرٍ لا في جَنوب **الجزيرة** ولا في غير جَنوبها.

فإلامَ يشير هٰذا؟

أمَّحى تراثُ الغالبِ عن بكرة أبيه من ذاكرة الزمان والمكان وبقي تراثُ المغلوب؟

كلَّا، لم يَمَّحِ، لٰكنه لم يكن هنالك أصلًا. فشتَّان بين لوثات الخيال المجنَّح ووقائع التاريخ وقرائنه العِلْميَّة وشواهده الخالدة!

١٩- بين شواهد الآثار وغرائب الأحبار:

تشير النقوش العَرَبيَّة المَعِيْنيَّة والسبئيَّة، من جهة، والكتابات المِصْرِيَّة، من جهة أخرى، خلال الألف الأوَّل قبل الميلاد، إلى قيام علاقات تجاريَّة بين جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) و(**مِصْر**)، لاستيراد بعض الصادرات العَرَبيَّة، كالمُرِّ، واللُّبان، والعُطور، والتوابل، والصوف، والشِّياه، والإبل، والأخشاب. وكذا قيام علاقات مصاهرة، أو علاقات دِينيَّة، ولاسيما تلك المتعلِّقة بالمعبودة المِصْريَّة (**إيزيس**)[١].

---

(١) تحكي الأُسطورة المِصْريَّة أن (**أوزيريس**) قتله أخوه الشرير (**ست**)، وقطَّع أعضاءه ورمى بها إلى أنحاء متفرِّقة من (**النِّيْل**). فبكتْه امرأته وأخته (**أيزيس**)، وترحَّلتْ بحثًا عن أشلائه. وبعد تجميع جسده، ←

وقد سُجِّلت هٰذه المعلومات في نقوش (**اليَمَن**)، كما عُثِر على نقشٍ واحدٍ يشير إلى اتِّصالٍ ما بين **مِصْر** و(**مملكة كِنْدَة**)، وذٰلك في (**قرية الفاو**)، جَنوب غَربي (**السُّلَيِّل**)، التي تبعد عن (**الرِّياض**) قرابة ٧٠٠كم إلى الجَنوب الغَربيِّ، و١٥٠كم إلى الجَنوب الشَّرقيِّ من (**الخَـمَاسِيْن**)، في المنطقة التي يتداخل فيها (**وادي الدواسر**) ويتقاطع مع جبال (**طُوَيْق**)، عند فُوَّهَة مجرَى قناةٍ تسمَّى: **الفاو**.[1] لٰكن ذٰلك كلَّه إنما يبدو نتيجةً لإيلاف العَرَب إلى **مِصْر** متاجرين، لا أكثر من ذٰلك. أمَّا حين يَرِد في تلك النقوش مصطلح «م ص ر ن» فإنَّما كان يشير- حسب قول المختصِّين في قراءة النقوش اليَمَنيَّة- إلى (**دادان**، أو **العُلا** حاليًّا، شَمال غَربي **السُّعوديَّة**). وكانت مفردة «**مِصْر**» تُستعمل بمعنى: حَد، أو نِطاق، أو إقليم، مذ ذٰلك التاريخ، كما في (**الأكديَّة**)، وهو ما بقي حاملًا الدلالة ذاتها في العَرَبيَّة الفصحى. وأمَّا في النصوص المِصريَّة **الهيروغليفيَّة**، فظلَّت الإشارات إلى (**الجزيرة العَرَبيَّة**) نادرة، إلى قرونٍ متأخِّرةٍ قبل الميلاد، وغير مؤكَّدة، أو هي عموميَّة الدلالة ومبهمتها. وهٰذا لا ينمُّ على أنها كانت **لِمِصْر** أيُّ مستعمرات تاريخيَّة في جَنوب **جزيرة العَرَب**، فضلًا عن أن تكون بالغة التطوُّر وثيقة الاتصال بحضارة وادي (**النِّيْل**)، من قَبيل ما افترضه (**الصَّليبي**). بل إن عكس ذٰلك هو ما تدلُّ عليه الوثائق المِصْرِيَّة القديمة، (الديموطيقيَّة واليونانيَّة)،

جامعتْه، فحملتْ بابنها (**حورس**)، المخلِّص، الذي سعى للأخذ بثأر أبيه. وبذٰلك وُهِب **أوزيريس**- بحسب الأُسطورة- الألوهيَّة على عالم الأموات والوزن والحساب في الآخِرة، فمَن رجحَ ميزان حسناته، دخل الجنَّة، وإلَّا التهمه الوحش (**عمعموت**). (انظر حول هٰذه الأُسطورة، مثلًا: برت إم هرو، **كتاب الموتَى الفرعوني**، ٧-٨، ١٩٠، ٢٤٩-٢٥٤؛ استيندرف، **ديانة قدماء المِصْريِّين**، ٢٥-٢٧).

[1] انظر في هٰذا: الأنصاري، **أضواء جديدة على دولة كِنْدَة**، ١٦.

وهو وجود جاليات عَرَبيَّة مستوطنة في **مِصْر**، كان أفرادها يعملون في العسكريَّة، أو التعليم، أو الزراعة، أو الرعي، ونحوها من الحِرَف.[1] ما ينفي أن استيطان العَرَبِ **مِصْرَ** ما جاء إلَّا بعد الفتح الإسلامي. والعَرَب معروفون، عبر التاريخ، بحُبِّ الترحُّل والمغامرات في ارتياد الأمصار. ولذٰلك لا غرابة أن نجد المؤرِّخين القدماء- مثل المؤرِّخ الإغريقي (**هيرودوت** [Ἡρόδοτος] Herodotus، -٤٢٥ق.م)[2]، والمؤرِّخ الإغريقي الروماني (**سترابو** [Στράβων] Strabo، -٢٤م)[3]- يُطلِقون على المنطقة الواقعة شَرقي **النِّيْل**، بين النهر وما يسمُّونه إذ ذاك: «**الخليج العَرَبي**»- ويعنون به (**البحر الأحمر**)[4]-: «**العَرَبيَّة** Arabia»، أو إقليم العَرَب، وكأنه جزء من **جزيرة العَرَب**، يستوطنه العَرَب؛ ناصِّين على هٰذا بمثل قول **سترابو**:

«The country between the Nile and the Arabian Gulf is Arabia.»

هٰذا فضلًا عمَّا يذهب إليه بعض الباحثين من أن المِصْريِّين القدماء، الذين أنشؤوا حضارة وادي **النِّيْل** عبر أُسَرهم المتعاقبة، إنما هم أُمَّة ساميَّة، هاجر أسلافها من **جزيرة العَرَب**.[5]

جديرٌ بالإشارة هنا أن (**الصَّليبي**) لم يأت بجديد- في حقيقة الأمر من أصل افتراضاته- وإنَّما ردَّدَ نظريَّةً توراتيَّةً، أكلَ الدهر عليها وشرب، ثمَّ انتسخها من

---

(١) انظر مثلًا: السعيد، ٢٣، ٣٥، ٤١، ٤٩، ٥١-٥٢، ٥٤-٥٧، ٩٩، ١٣٨-١٤٠.

(2) See: Herodotus, **The Histories**, Book 2, Chap. 8, 11, 15.

(3) See: (v. 8), Book 17, Chap. 1: 21, 30.

(٤) هٰكذا كان يُسمَّى (**البحر الأحمر**): «**الخليج العَرَبي**»، وما يُسمَّى اليوم (**الخليج العَرَبي**): «**الخليج الفارسي**».

(٥) انظر مثلًا: السقَّاف، **إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**، ٥٠- ٥٢.

اليهود بعضُ المؤرِّخين العَرَب. كلُّ ما فعله أنه أسرف في تبنِّي تلك النظريَّة واعتقادها ومدِّها وتوسيعها والتماس ما رآه من مؤيِّداتها، ومهما كلَّفه ذٰلك من تعسُّف. تلك النظريَّة النَّسَبيَّة التوراتيَّة تذهب إلى أن (**سَبَأ**) ليس بـ(**سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان**)، كما يقول العَرَب، بل هو (**شبأ بن يقشان بن إبراهيم**)! ففي «**العهد القديم**» نقرأ: «**وعَادَ إِبْرَاهِيمُ فأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، فوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ، ويَقْشَانَ، ومَدَانَ، ومِدْيَانَ، ويِشْبَاقَ، وشُوحًا. ووَلَدَ يَقْشَانُ: (شَبَا)، ودَدَانَ.**»[1] ومن ثَمَّ فإن القبائل اليَمَنيَّة هي من ذٰلك الأصل الإبراهيمي. وما دامت من أصلٍ إبراهيميٍّ، فهي- حسب المقولات اليهوديَّة والمسيحيَّة- تنتسب إلى (**عابِر**)؛ **فعابِر** أحد أجداد (**إبراهيم**)؛ وربما لهٰذا يُلقِّبون **إبراهيم** بالعبراني: «**إبرام العبراني**». وفي مواضع أخرى من «**العهد القديم**»[2] يَرِد قولٌ آخر، هو أن (**شبأ**) شقيق (**حضرموت**)، وأنهما ابنا (**يقطان بن عابِر**):

> «**ولِعَابِرَ وُلِدَ ابْنَانِ: اسْمُ الوَاحِدِ فَالَجُ؛ لأَنَّ في أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الأَرْضُ. واسْمُ أَخِيهِ: يَقْطَانُ. ويَقْطَانُ وَلَدَ: أَلْمُودَادَ، وشَالَفَ، وحَضَرْمَوْتَ، ويَارَحَ، وهَدُورَامَ، وأُوزَالَ، ودِقْلَةَ، وعُوبَالَ، وأَبِيمَايِلَ، وشَبَا، وأُوفِيرَ، وحَوِيلَةَ، ويُوبَابَ. جَمِيعُ هٰؤلاء بَنُو**

---

[1] **سِفر التكوين**، ٢٥: ١- ٣.
وردَّد ذٰلك (**الطبري**) في تاريخه (١: ٣١١)، مسمِّيًا أُمَّ هٰؤلاء: (**قنطورا بنت مقطور**)، من العَرَب العاربة. وفي رواية أخرى: (**قنطورا بنت يقطان**). وكانت له امرأة عَرَبيَّة أخرى، في ما زعموا، اسمها (**حجور بنت أرهير**).

[2] **سِفر التكوين**، ١٠: ٢٥- ٣١. وقارن: **أخبار الأيَّام الأوَّل**، ١: ١٩- ٢٧.

يَقْطَانَ... وكانَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ مِيشَا حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَفَارَ جَبَلِ المَشْرِقِ. هٰؤلاء بَنُو سَامٍ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كأَلْسِنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ.»

و**يقطان** هو الذي يسمِّيه العَرَب (**قحطان**)، وهو أبو **العَرَب** العاربة. و**عابِر** هو: (**ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نُوح**)، وهو أبو العِبرانيِّين. وبذا يبدو أن لا مفرَّ من العِبرانيَّة.[1] فإذا صحَّ هٰذا، فهو يعني أن معظم سكَّان ما يُسمَّى (**الشرق الأوسط**) عِبْريُّون، ما داموا ينتسبون إلى (**عابِر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام**)، وفي طليعة هٰؤلاء **العَرَب**.[2]

---

[1] حول تلقيبهم بالعبرانيِّين أراء مختلفة، منها: أنهم عَبَروا الأنهار من (**العِراق**) إلى (**الشَّام**)، أو أنهم «**عَبْرنهريُّون**». و«**عبر نهر**»: مصطلحٌ جغرافيٌّ، كان يشير إلى البلاد الواقعة غَربي (**الفُرات**)، ولاسيما (**سُوريَّة**) و(**فِلسطين**). ففي (**الأكديَّة**): «**إبرناري**»، وفي «**العهد القديم**»: «**عِبَرْهَنَّاهار**»، وفي (**الآراميَّة**): «**ع ب ر ن هـ ر أ**»، وفي (**المَعِيْنِيَّة**): «**ع ب ر ن هـ ر ن**». (انظر: السعيد، ٤٤). أو لأنهم عَبَروا البحر مع (**مُوسَى**). لٰكن أوضح الأسباب وراء ذٰلك اللقب ما سجَّلته «**التوراة**» من انتسابهم إلى (**عابِر**).

[2] يذهب المؤرِّخون إلى أن (**العَرَب البائدة**) يعود عِرقهم إلى (**إرم بن سام بن نُوح**). (انظر مثلًا: سوسة، ١١٧). وإذا صحَّ هٰذا، أمكن افتراض أن أصل تسمية العَرَب بهٰذا الاسم «**عَرَب**» لا يعود إلى اسم «**يعرب بن قحطان**»- كما ساد القول؛ وهٰذا يُخرِج **العَرَب البائدة** من الانتساب إلى العَرَب، وأوَّل الخارجين (**قحطان**)، الذي لا بُدَّ وَفق هٰذا التصوُّر أن يرتبط نسبه **بإرم بن سام**، أبي العَرَب- ولا يعود إلى تأويلات كلمة «**عرب**» الأخرى المختلفة، نسبةً إلى الرِّمال والصَّحراء وما أشبه، بل تعود تسمية العَرَب إلى جَدِّهم «**إرم**»؛ وكأنه قد أُطلِق على هٰذه السُّلالة منذ **إرم** اسمُ: «**إرم/ عرب/ إرميِّين/ عربيِّين**»، ثمَّ أصبح اللقب يشمل بائدهم، وعاربهم، ومستعربهم، من الآراميِّين نسل (**إسماعيل**). وهي فرضيَّة لا سبيل إلى إثباتها عِلْميًّا، لٰكن القرائن عليها دالَّة. أمَّا إبدال الأصوات بين الحرفَين الحلقيَّين الهمزة والعين والشفويَّين الميم والباء، في «**إرم**» و«**عرب**»، فدارجٌ مسموع إلى اليوم. ولقد يصحُّ القول، في ضوء هٰذا، إن أصل تسمية «**أعراب**» كذٰلك هو: «**آرام**»؛ من حيث إن (**إبراهيم الخليل**) وأولاده كانوا بَدْوًا رُحَّلًا، آرامًا أو أعرابًا. فصارت «**آرام**» تُطلق على البَدْو عمومًا. بقطع النظر عن الأسبقيَّة هاهنا، ما إذا كانت الكلمة العربيَّة «**أعراب**» أصلها «آرام» أو بالعكس. وليس هٰذا التداخل بمستبعَدٍ ما دامت هٰذه اللغات ←

ثمَّ جاء المؤرِّخون العَرَب - كنهجهم المعتاد في النقل والتسليم بما أَلْفُوا عليه آباءهم من الرواة وأهل الكتب- فتبنَّوا الرواية الكتابيَّة في هٰذا النَّسَب، بعجرها وبجرها. بل نقلوا من «**التوراة**» نقلًا حرفيًّا في بعض الحالات[1]، ناسبين (**قحطان**) إلى مَن سُمِّي في «**التوراة**»: (**عابِر**)[2]، ذاهبًا بعضُهم إلى أن **عابِر** هٰذا هو النبي (**هُوْد**).[3] ولسنا ندري كيف صار الرجل ذا اسمين؟ وما أولٰئك- على كلِّ حالٍ- بالمؤرِّخين، بما تعنيه هٰذه الكلمة من معنى، بل هم أشبه بحاطبي الليل، إن استثنينا منهم (**ابن خلدون**)، في بعض ما كَتَب. حسبك من شواهد ذٰلك أن تجد (**ابن كثير**)[4]- وهو من

تنحدر من أصلٍ لغويٍّ واحد، لسلالةٍ واحدة، الساميَّة الأُولَى. فالعَرَب إذن يعود نسبهم إلى: **إرم بن سام**، ويعود نسب **الآرام** إلى: (**آرام بن سام**)، و«**إرم**» و«**آرام**» لفظان لاسمٍ واحدٍ لرجلٍ ساميٍّ واحد، ينتسب إليه **العَرَبُ والآرامُ** كلاهما، وإنَّما اختلف فيهما النطق، كما اختلف بين كلمتَي «**عَرَب**» و«**أعراب**». ويؤيِّد هٰذا ما ينتهي إليه أستاذ اللغات الساميَّة المستشرق الألماني (**هومل** Fritz Hommel، -١٩٣٦): أن ما كان يُسمَّى «**الآراميَّة**»، إبَّان عهد (**يعقوب**)، لا تعدو لهجةً عربيَّةً خالصة، وأن ما ندعوه الآن بـ«**الآرامية**» لم يظهر إلَّا في زمنٍ متأخِّرٍ جِدًّا. (See: Hommel, Fritz, **The ancient Hebrew tradition**, p.202). أي أن «**الآراميَّة**»- في نعت **إبراهيم** وأبنائه وأحفاده أو في وصف لغتهم- كانت تشير، كما قلنا، إلى: «**الأَعرابيَّة**»، في لهجتهم وحياتهم.

[1] يظهر النسخ من «**التوراة**» في نصِّ (الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، ١: ٢٠٥)، مثلًا: «**ووُلِد لعابِر ابنان: أحدهما فالغ** [كذا!]**، ومعناه بالعَرَبيَّة: قاسم؛ وإنما سمِّي بذٰلك لأن الأرض قُسِمَت والألسن تبلبلت فِي أيَّامه. وسمَّى الآخر: قحطان. فوُلِد لقحطان: يعرب ويقطان ابنا قحطان بن عابِر بن شالخ، فنزلا اليَمَن...**». فقارنه بنصِّ «**التوراة**» أعلاه، تجده ينظر إليه وينقل عنه. وهو- على كلِّ حال- يعترف أن مصدره «**التوراة**» وأنه ينسخ عنها. (انظر: الطبري، م.ن، ١: ٢١٠).

[2] انظر: الطبري، م.ن، ١: ٢١١.

[3] انظر: ابن كثير، ١: ٢٨٢. ونبَّه (الهمداني، **الإكليل**، ١: ١٢١) إلى الاختلاف في كون (**عابِر**) (**هودًا**) نبيَّ (**عاد**).

[4] ١: ٢٨٣.

هو لدَى السَّلَف والخَلَف- يقول مثلًا: «**ويُقال: إن هودًا،** عليه السلام**، أَوَّلُ مَن تكلَّم بالعَرَبيَّة. وزعم (وَهْب بن مُنبِّه) أن أباه أوَّل من تكلَّم بها. وقال غيره: أوَّل مَن تكلَّم بها نُوحٌ. وقيل: آدم. وهو الأشبهُ. وقيل غير ذٰلك. والله أعلم.**» فكلُّ الأقوال لديه واردةٌ محتمَلة، لٰكن أشبهها بالصواب: أن آدم أوَّل من تكلَّم بالعَرَبيَّة! وحسبك بهٰذا شاهدًا على عِلْمِيَّة العقل الذي اشتغل بتاريخنا القديم.

ومن خلال تلك الرواية اليهوديَّة، الدائرة حول أن «**سَامًا أَبُو كُلِّ بَنِي عَابِر**»[1]، جاء احتكار الصهيونيَّة المعاصرة للساميَّة، واتِّهام من ينالها بنقدٍ بالعداء للساميَّة. ومن هٰذا المنطلق جاء كذٰلك مشروع (**الصَّليبي**)، غير مكتفٍ بأُسطورة العِبرانيِّين التاريخيَّة في (**فِلسطين**)، بل كأنما ذهب ليؤسِّس من خلال أُسطورة أنسابهم أصلًا أُسطوريًّا عِبرانيًّا أشمل، يلتهم الأُمَّة العَرَبيَّة برُمَّتها! قائلًا، وقد آمن بتلك الأنساب التوراتيَّة:

- ما المانع، إذن، من أن نزعم أن (**بني إسرائيل**) كانوا قبيلةً عَرَبيَّةً بائدةً (أو عِبرانيَّةً، لا فرق)؟!

ونقول: إن المانع هو، أننا- حتى لو سلَّمنا جدلًا بتلك النظريَّة التوراتيَّة الجذور- لن نجد أثرًا لذٰلك التاريخ التوراتي في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**). هٰذا على الرغم من أن (**الصَّليبي**) لم يستطع إنكار أن (**مصر/ مصرايم- مُوسَى**)، التي ينسبها إلى (**عسير**)، كانت ذات حضارةٍ لا تقلُّ عن حضارة (**مِصْر**) الأفريقيَّة، إنْ

---

[1] سِفر التكوين، ١٠: ٢١.

لم تفُقها، ولا أن (داوود) و(سُلَيمان) كان لهما هناك مُلْكٌ مُؤثَّل، وتاريخ، وحضارة، وحروبٌ طاحنة، وشأنٌ أيُّما شأن، ظلَّ ينسبه زورًا إلى مَواطن لا أثر له فيها البتة، لا من قريب ولا من بعيد.

٢٠- هلَّا احْتَلَبْتَ لنا الأَنسابَ من كُـتُبِ؟!:

العِلْم بالأنساب: عِلْمٌ لا ينفع، وجهلٌ لا يَضُر![1] وإذا صحَّ هٰذا في شأن الأنساب عمومًا، فإن الأنساب التوراتيَّة خصوصًا تبقَى محلَّ نظرٍ دقيق، من حيث طبيعتها ووظيفتها. فطبيعتها قائمة على الرواية الشفويَّة، وهي طبيعةٌ معرَّضةٌ للخلط والاختلاط، ووظيفتها قائمة على أهداف إديولوجيَّة وعنصريَّة لا ريب فيها. وهٰذا هو الأساس في سردها، لا تسجيل معلومات الأنساب على نحوٍ عِلْميٍّ أو شِبه عِلْمي.

كما أن القَصص في الكُتب الدِّينيَّة عمومًا ذو طبيعة خاصَّة، ووظيفة محدَّدة. فهو يندرج في عِداد النصوص التي أسميتها في مقاربةٍ سابقةٍ بـ(النصُّوص الاعتباريَّة)، التي لا تهدف إلى القصِّ، ولا إلى التاريخ، ولٰكن إلى التعليم والوعظ

---

[1] وردَ هٰذا في حديثٍ نبويٍّ، وقد قيل لدَى النبي: «فلانٌ علَّامةٌ بالنَّسَب». (يُنظر: الآبي، **نثر الدُّر**، ١: ٢٦٨؛ ابن عبدالبر، **جامع بيان العلم وفضله**، ٧٥٢ (١٣٨٥)؛ البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ١٠: ٢١٨ (٢٩١٥٦)). وإذا كان (**ابن عبدالبر**) قد ضعَّف سنده، فإن معناه صحيح. من حيث إن تداخل الأنساب مَضِلَّة، والانشغال بها ليس ممَّا يقوم من العِلْم على معطيات صلبة. كما أنه ليس ممَّا ينفع الناس، إلَّا في حدودٍ محدودةٍ جِدًّا. هٰذا إنْ لم يكن مفسدةً بين الناس؛ بما يبعثه من العصبيَّات والنعرات والمنابزات. ولا تَفاضُل في أصلٍ أصله تُرابٍ، ومآله إلى تُراب.

والاعتبار. ومن ثَمَّ فإنه لا يصحُّ الاستناد إلى مثل هٰذا النصِّ تاريخيًّا، ولا أن يُقرأ قراءةً حرفيَّةً ظاهريَّةً واقعيَّة. ذٰلك أن هٰذا الضرب من النصوص يأتي عادةً في ما يُطلَق عليه في «**القرآن**»[1] مصطلح (**النَّبَإ**): ﴿**كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ما قَدْ سَبَقَ**﴾. وتتبلور خصائص النَّبَإ في مجموعتَين من الخصائص، تتَّصل بالشكل الخارجي والداخلي. تبرز المجموعة الأولى في: خاصيَّة الشكل الوظيفي، والطبيعة الرساليَّة. وتكمن خصائص الشكل الداخلي في: الشِّفْرَوِيَّة، والتناصِّيَّة، وربما تدخَّل صوت المؤلِّف، ولُعبة الالتفات، المتعلِّقة ببنية الأسلوب. فيما تتمثَّل الخصائص المتعلِّقة ببنية الخيال في: الاتِّكاء على المرجعيَّة الماضويَّة، وربط النَّبَإ بمصدرٍ ما، ورائيٍّ، والدَّوَران على الأحداث الإعجازيَّة، والفانتازيَّة الخياليَّة، والتوظيف الميثولوجي، وعلى الرمزيَّة، مع الارتكاز في مخاطبة المتلقِّي على التأثيريَّة الإيمانيَّة، لا على الإقناعيَّة الواقعيَّة.[2] وتلك شؤون نصيَّة، لا يبدو أن المؤرِّخين مؤهَّلون غالبًا للوعي بها؛ بل كلُّ نصٍّ لديهم تاريخ! يفعلون هٰذا حتى في تعاملهم مع المستوى الأدبي الخالص من النصوص، أو الشِّعريِّ المحض منها؛ فتراهم يتعاملون مع تلك النصوص ببراءةٍ قرائيَّة، وسذاجةٍ استقباليَّة، لا تميز الأدبيَّ من المعرفي، ولا التخييليَّ من التاريخي.

ونعود إلى القول إن (**كمال الصَّليبي**)- إلى ذٰلك العِيِّ النقديِّ في التعامل مع

---

[1] سورة طٰه: الآية ٩٩.

[2] انظر بحثي: (١٩٩٩)، «*في بنية النصّ الاعتباري (قراءة جيولوجيَّة لنبإ حيِّ بن يقظان: نموذجًا)*»، (مجلَّة «**أبحاث اليرموك**»، جامعة اليرموك، الأردن، م١٧، ع١، ص ص٩- ٥٢).

النصّ التوراتي- كان يَفِرُّ كعادته من البرهنة على ادِّعاءاته، إلى القول إن الأيَّام حُبلَى بما سيُثبِت افتراضاته. مع أن أرجاء الجزيرة قد تمخَّضت عن كثيرٍ من آثارها المهمَّة هنا أو هناك، غير أنها لم تُؤْذِن وإنْ بدليلٍ واحدٍ على ما حملتْه تأوُّلاتُ الرجل من مزاعم. في حين تحمِل الآثار إشارات شتَّى عن تاريخ الجزيرة وعلاقاتها الخارجيَّة، منذ فجر التاريخ، وما قبل التاريخ. أضف إلى هٰذه المغالطة أن ما يحلُم به **الصَّليبي** من آثار، ليس بآثار قبيلةٍ نَصبتْ مضاربها ذات يومٍ في مكان ثمَّ ارتحلت، بل هو تاريخ قرونٍ (**للمِصْرِيِّين**) في (**عسير**)- بزعمه- بكلِّ ما يعنيه **المِصْرِيُّون** القدماء من حضارة: بطبِّها، وسِحرها، ومدافنها، ومراكبها، ومعابدها، وآطامها. وهم قومٌ مشهورون بحُبِّهم لإقامة التماثيل، والمسلَّات، والنُّصُب، وتشييد المقابر، والأهرامات، حيثما حلُّوا. وهو كذٰلك تاريخُ قرونٍ متطاولةٍ جدًّا لـ(**بني إسرائيل**)، في **عسير** و(**الحِجاز**)، كما يدَّعي **الصَّليبي**، بأنبيائهم، ورسلهم، وكُتبهم، وصناعاتهم، وملوكهم وممالكهم، ولاسيما مملكتَي (**داوود**) و(**سُلَيمان**). هٰذا المَلِك الذي ورد في «**القرآن**»[1] قوله: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّاب. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب. والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاص. وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَاد. هـٰذا عَطَاؤُنَا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب.**﴾ وما يَرِد عن **سُلَيمان** في «**التوراة**» لا يقلُّ عن ذٰلك. فهل جاء **الصَّليبي** لتأويل هٰذه النصوص، أم لمحوها محوًا، واختلاق نصوصٍ أخرى من عنده، ثمَّ

---

[1] سورة ص: الآيات ٣٥- ٣٩.

تأويلها؟! كان يلزمه تحديد أهدافه والالتزام بها. إنْ كان جاء لتأويل «**التوراة**»، فتأويلاته تناقض «**التوراة**»، كما بيَّنَّا من قبل. وإذا كان يرى أن «**العهد القديم**» يسوق معلومات عن مُلك **سُلَيمان** ينبغي أن نَعُدَّها ذات أصلٍ تاريخيٍّ، ومن هنا كان مُنْطَلَقه في البحث عنها، وعن جغرافيتها، فكذٰلك كان يلزمه أن يَعُدَّ ما وَرَدَ في «**القرآن**» ذا أصلٍ تاريخي، وإنْ لدَى غير المؤمن به دِينيًّا. وبذا كان عليه، جدلًا، أن يخبرنا: أين ذهبت تلك المملكة العظيمة؟ وأين تلك الأبنية التي بناها عفاريت الجِنِّ **لسُلَيمان**؟ وأيُّ غوصٍ أو غوَّاصين بين شماريخ (**النماص**)، حيث زعم **الصَّليبيُّ** أن مملكة **سُلَيمان** كانت؟ أ غوصٌ في الصخور؟!

إنها مملكة بجِنِّها، وإنسها، وتماثيلها، ومحاريبها، ودروعها، وحروبها، وبهيكلها وأورشليمها. فأين مسرح ذٰلك كلِّه؟ أ في قرية (**آل شريم**)؟! ثمَّ هو تاريخُ قرونٍ طويلةٍ لأنبياء من أُولي العزم من الرسل: (**إبراهيم**)، و(**إسحاق**)، و(**يعقوب**)، و(**يوسف**)، و(**مُوسَى**)، و(**عيسى**)، وغيرهم. بل قبل ذٰلك، تاريخ (**نُوح**) وما قبل **نُوح**؛ فكلُّ أولٰئك قد كدَّسهم (**الصَّليبي**)، متحاشرين في تلك الخُبوت والجِراد والشِّعاف، حسب «فيلمه» الغرائبي، في سينما الخيال التاريخي الأكثر شعبيَّة في العصر الحديث.

ولقد حظيت أعمال (**الصَّليبي**) بإعجابٍ لا ينكَر، ووافقت أهواء عاميَّة وميولات رغبويَّة لا عقال لها. كانت تنبثق عن أسباب إديولوجيَّة، أو أسباب قوميَّة، أو أسباب قُطريَّة سياسيَّة، أو لأسباب خياليَّة محضة، أو لخليط من هٰذا وذاك. أوهاها شأنًا

وأطرفها تلك التي استخفَّت أصحابها لأن افتراضات المؤلِّف تمنحهم تاريخًا مؤثَّلًا لا نظير له، وإنْ كان تاريخًا من الأوهام. قائلين في أنفسهم، أو في بني أهوائهم: وما لنا أنْ لا نفخر بأن نكون أرض الأنبياء والرسل، ومَعْدِن التاريخ الدِّيني القديم؟! أيُّ مجدٍ أسمَى، وأيُّ نَسَبٍ أشرف، وأيُّ تاريخٍ أعرق، وأيُّ بلادٍ أكرم وأقدس؟! فأمَّا هٰؤلاء، فلا يعنيهم منهاج، ولا يؤمنون بتاريخ، ولا يحتكمون إلى منطق، وإنما تُدغدغ عواطفهم المغالطات، وتغيب عن أفهامهم المقدِّمات والمآلات. وإلَّا فلو سألهم سائلٌ- وقد تُيِّمهم **الصَّليبي** بافتراضاته، فإذا هم يُقيمونه رائد مذهبٍ في البحث ورأس مدرسةٍ في التاريخ الحديث، بما تفتَّقت عنه مخيِّلته الخرافيَّة من طرائق قِدَدٍ في الاستقراء والاستدلال- بل لو سأل السائل أستاذهم نفسه: هلَّا جئتَ لنا بنقشٍ صغيرٍ دالٍّ على ما تقول؟ أو برسمة صخرية؟ أو ببناءٍ شاخصٍ؟ أو بتمثالٍ؟ أو بعُشر تمثال؟ لو سألَ ذٰلك أو بعضَه، لما ألفَى من إجابةٍ قط، لا عند المسؤول ولا أستاذه. على حين بقيتْ في (**جزيرة العَرَب**) بعض الرسوم الصخريَّة، والنُّصُب التذكاريَّة، وبقايا الآثار، وإنْ كانت لأعرابٍ حفاةٍ عراةٍ، من رعاة الشاء والإبل. هٰذا فضلًا عن آثار أُممٍ أخرى وحضاراتٍ مرَّت على ثرَى الجزيرة، أو كانت بينها وبين العَرَب علائق، ولو عابرة. أفيُعقل أن ذٰلك التاريخ الهائل، تاريخ (**بني إسرائيل**)، قد تبخَّر كلُّه هٰكذا، أو ابتلعته الأرض؟ ألم تبق له من باقية، غير أسماء الأماكن، التي هي رأس مال **الصَّليبي**، يقلِّبها بين صفحات كتبه؟ أسماء شُبِّهت إليه ببعض مفردات «**التوراة**»، أو بالأصح حاول هو أن يشبِّهها إلى القارئ، فظلَّ يُبدئ القول حولها ويُعيد، هو ومَن تبعه بتقليدٍ إلى يوم الناس هٰذا، وإلى ما شاء الله! أكان ذٰلك

التاريخ أتفه من أن يخلف لنا أثرًا شاخصًا واحدًا، ولو كالآثار (**المَعِيْنيَّة**)، ولن نقول كالآثار (**الثموديَّة**)، أو الآثار (**السبئيَّة**)، التي بقيتْ دالَّةً على أهلها وعلى تاريخهم وعلاقاتهم، من دون حفائر في بعض الحالات أو تنقيب، على الرغم من سيل العَرِم وجميع السيول التاريخيَّة المتعاقبة. مع أن تلك الآثار هي أقدم، في معظمها، من ممالك **بني إسرائيل** المزعومة. ولقد عُثِر كذٰلك على بعض آثار **المِصْريِّين** القدماء في الأماكن التي مَرُّوا عليها، وإنْ مرورًا، فكيف بمستعمرةٍ استوطنوها لعدَّة قرون، وأسَّسوا فيها دولةً وحضارةً، فكان لهم فيها العمران والمراكب والجيوش؟!

أسئلةٌ لا مفرَّ من مجابهتها والتأمُّل فيها بجديَّةٍ قبل التورُّط في افتراضات الخيال التاريخي، غير العِلْمي.

نعم، عُثِر على بعض الآثار المِصْرِيَّة في شَمال (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، لٰكنه لم يُعثر على شيءٍ منها ذي بال في جَنوبها. فماذا يعني هٰذا بالنظر إلى ادِّعاءاتٍ كادِّعاءات (**الصَّليبي**) الطويلة العريضة؟!

هل من إجابةٍ، سِوى أنها محض اختلاق؟!

عِلْمًا بأن المناطق التي نَسَبَ إليها استيطان **المِصْرِيِّين**، ونَسَبَ إليها تاريخ (**بني إسرائيل**) المقترن بتاريخ **المِصْرِيِّين**، هي مناطق صخريَّة جَبَلِيَّة، لا صحارَى ولا رمال ليقال باحتمال انطماس الآثار فيها، واندثار الشواخص، وامِّحاء الكتابات والنقوش والرسوم، بحيث لا تُعرَف إلَّا بالحَفر والتنقيب. ولقد بقيتْ آثار (**ثمود**)، على سبيل المثال، وغير **ثمود**، في شَمال الجزيرة وجَنوبها وشَرقها وغَربها ووسطها،

ماثلًا بعضها في الصحراء إلى اليوم، فيما لم يبق مثقالُ ذرَّةٍ من تاريخ (**الصَّليبيِّ**) المخترع، مع ما يُفترض من أنه تاريخٌ لما هو أعظم، ولما هو أطول وأكبر وأخطر!

والسبب واضح، وهو أنه لا يعدو تاريخًا هُلاميًّا مؤلَّفًا من الكلمات والأسماء والخيالات والأوهام. إنه عجزٌ عن إثبات شواهد التاريخ على الأرض، فلجوءٌ إلى ادعائها من بعض اللمسات الحروفيَّة، مقارنةً بين الأسماء في «**العهد القديم**» والأسماء في «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**».

٢١- أين تقع جَنَّة عَدْن؟:

أمَّا (**جَنَّة عَدْن**)، فقال (**الصَّليبي**): إنها (**جُنَيْنة عدنة**)، في (**بِيشة**)!

نحن، إذن- لا في الأرض المباركة فحسب، بل قبل ذٰلك، ومنذ الأزل- نعيش في (**جَنَّة عَدْن**)، أو في ضواحيها، والحمدلله ربِّ العالمين! لٰكننا لم نشعر بهٰذه النعمة، وما ذٰلك إلَّا لخُذلانٍ مُبِيْن! وقد عبَّرَ (**الصَّليبي**) عن أسفه لأن (**المستر فِلْبِي**) مَرَّ **بجَنَّة عَدْن** مرورًا ولم يُدرِك أنه قد دخل الجَنَّة برجليه ومن باب الرَّيَّان![1]

أين أنتَ يا باغي (**جَنَّة عَدْن**) ونعيمها؟ عليك (**ببِيشة**)!

وأقول: لعلَّ جُنَيْنة (**بِيشة**)- إنْ كان اسمها هٰذا قديمًا- هي جُنَيْنة الشاعر (**خُفاف بن نُدبة**)، التي أشار إليها في قوله:

---

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٧١- ٢٨٠.

بِغُرِّ الثَّنايا خَيَّفَ الظَّلْمُ نَبتَهُ وسُنَّةِ رِئمٍ بالجُنَيْنَةِ مُونِقِ[1]

لأن المواضع التي ذكرها **خُفاف** في قصيدته، مثل (**نجران**)، و(**رهوة**)، و(**جلذان**)، و(**لِيَّة**)، و(**وَج**)، تُرشِّح ذٰلك أكثر من غيره، وإنْ على طريقة (**الصَّليبي**) في الاستدلال! مع أن (**الحموي**)[2] يزعم أن تلك الجُنَيْنَة من منازل (**عقيق المدينة المنوَّرة**). وأزعم- على كلِّ حال- أن الشعراء يقولون ما لا يعقلون! وإنَّما الشاهد من هٰذا أن الجنائن، بهٰذا الاسم، كثيرةٌ في (**جزيرة العَرَب**)، لٰكن ما يدري المرء أن أسماءها عُرِفت مذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد؟!

ونضيف أن في جبال (**فَيْفاء**) مكانًا باسم (**عدن**) كذٰلك، في جبل (**آل عبدل**). وهو أجمل من (**عدنة بِيشة**)، وأجدر أن يُفترَض (**جَنَّةَ عَدْن**)، إن لم يكن بُدٌّ من هٰذا الافتراض!

وهٰكذا، فإذا كنَّا سنبني تاريخًا- واقعيًّا وميتافيزيقيًّا- على وجود الأسماء، فحدِّث ولا حرج! على أن (**العَدَن**): شجر، وصفَه (**فِلْبي**)[3] في رحلته إلى جبال (**فَيْفاء**) بقوله: إنه «**ذو زهرٍ أحمر ورديٍّ غريب المظهر، وهو مصدر لبخورٍ زكيٍّ، ينمو إلى ارتفاعٍ يصل ما بين ستة أقدام إلى اثني عشر قَدَمًا، مستدقًّا تدريجيًّا من لَدُن قاعدته الدرنيَّة المنتفخة إلى أطرافه العُليا.**» وشجر **العَدَن** من الأشجار المنتشرة في

---

[1] الأصمعي، **الأصمعيَّات**، ٢٤/ ٤.

[2] انظر: الحموي، **كتاب معجم البلدان**، (الجُنينة).

[3] Philby, **Arabian Highlands**, 601.
وقارن ترجمتنا من رحلة (فِلْبي): **جبال فَيْفاء وبني مالك والمرتفعات الحُدوديَّة السُّعوديَّة اليَمَنيَّة**، ١٤٢.

جَنوب (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) عمومًا، وبالاسم نفسه. وله استعمالات طبيَّة.

ومهما يكن، فلا غرابة في ذاك النهج العجائبيِّ ممَّن دأب على ضَرْب العِبريَّة بالعَرَبيَّة في خلَّاط تركيب الأسماء. بل دأب على تلفيق الأسماء واختلاقها- كما رأينا مرارًا- كيما يفرض أضحوكةً نظريَّة، بَيَّتها ثمَّ جعل يصطاد لها فَراش القرائن والحروف من هنا وهناك، وإنْ بأوهى الأسباب. وقديمًا نبَّه البلدانيُّون العَرَب إلى المؤتلِف لفظًا المختلِف صِقْعًا من أسماء الدِّيار، لَفْتًا إلى تشابُه الأسماء على اختلاف المواضع الكثيرة، وأنها مَضِلَّة لمن اتَّخَذَ بضاعته الحروف في تحديد المَواطِن والتواريخ.[1] وإذا كان مِثل هٰذا التهوُّر المُريع يقع من أستاذٍ جامعيٍّ في التاريخ وفي عِلْم الآثار، بل كان رئيسَ قسمٍ جامعيٍّ في التاريخ، ومديرَ معهدٍ ملكيٍّ للبحوث التاريخيَّة، فكيف بغيره؟! بَيْدَ أن الملهاة الكبرى تظهر حين يوظَّف التلبيس التاريخي لأغراض (إديو-سياسيَّة)، مهما تكن تلك الأغراض!

وأمَّا ما أداره صاحبنا من جَدَلٍ- في فصلٍ بعنوان «**تهامة في التوراة**»، من كتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»- ليُثبت أن الإشارة إلى «**تهوم**» في «**التوراة**» تعني «**تِهامة**» في الجزيرة تحديدًا، فليس بشيءٍ، ولا ينمُّ على معرفةٍ باللغة. ذٰلك أن كلَّ منخفضٍ من الأرض يُوصَف بأنه «**تِهامة**»، سواء أكان في الجزيرة أم في (**فِلسطين**) أم في أيِّ مكان. فهٰذا وصفٌ لطبيعة الأرض، وليس بعَلَمٍ على

---

[1] من ذٰلك مثلًا كتاب (ياقوت الحموي، -٦٢٦هـ= ١٢٢٩م): «**المشترك وضعًا والمفترق صقعًا**». وصولًا إلى كتاب (محمَّد بن عبدالله بن بليهد، -١٣٧٧هـ= ١٩٥٧م): «**ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبِقاعه**».

مكانٍ بعينه، لا غير. وأصل الكلمة مشتقٌّ من «تَهِمَ»، أي تغيَّر، والتَّهَمُ: شِدَّة الحَرِّ وسكونُ الرِّيح. قيل سُمِّيت **تِهامة** بذٰلك لأَنها سَفُلتْ فَخَبُثَ ريحُها. ومن جهة أخرى، يشير أستاذنا المرحوم (**الدكتور حسن ظاظا، ١٣٣٧- ١٤٢٠هـ= ١٩١٩- ١٩٩٩م**)[١] إلى أن الاسم يَمُتُّ بصِلَةٍ لُغويَّةٍ إلى الآلهة في الوثنيَّة العِراقيَّة القديمة: (**تِيامَت**)، وكانوا يعتقدون أنها المهيمنة على السواحل والشطوط ومصائد السمك. و(**الصَّليبي**)- كعادته- لا يقدِّم أيَّ دليلٍ عِلْميٍّ أو لغويٍّ، لا بشأن **تِهامة** التوراتيَّة، ولا بما يدعم افتراضات بحثه بصفةٍ عامَّة.

ومِثل ذٰلك في البُطلان زعمُه أن (**إسرائيل**) تعني «**سراة الله**»، ومن ثَمَّ فهي تشير إلى جبال (**السَّراة**)! ذٰلك أن كلمة «**السَّراة**» في الأصل وصفٌ كـ«**تِهامة**»، وليست باسم؛ فكلُّ مرتفعٍ سَراة. ولذا فالسَّرْوُ: المُرُوْءَة والشَّرَف. مأْخوذٌ من سَرَاةِ كلِّ شيء، وهو ما ارْتَفَعَ منه وعَلا. وجمعُ السَّراةِ سَرَواتٌ. والسَّرْوُ: ما ارْتَفَع عن موضع السَّيْل وانْحَدَر عن غلظ الجبَل. وفي حديث (**عُمر بن الخطَّاب**): «**لئِنْ بَقِيتُ إلى قابلٍ لَيَأْتِيَنَّ الراعِيَ بِسَرْوِ حِمْيَر حَقُّه لم يَعْرَقْ جَبِينُـهُ فيه**». وفي رواية: «**لَيَأْتِيَنَّ الراعِيَ بسَروَات حِمْيَر...**». و(**سَراةُ اليَمَن**): معروفة.[٢] والباحث لو استعرض الشِّعر الجاهلي كلَّه، لما كاد يعثر على أن شعراء العَرَب كانوا يُسمُّون جبال (**الحِجاز**): «**السَّراة**»، ولا «**السَّرَوات**». غير أنه في العصر الأُموي

---

[١] انظر: **الساميُّون ولُغاتهم**، ١٦.

[٢] انظر: ابن منظور، (سرا).

سوف يعثر على قول (**العَرْجِي**، -نحو ١٢٠هـ=٧٣٨م)[١]:

لَو أَنَّ ما بِيَ مِن حُبِّكُمْ عُدِلَتْ ... بِهِ جِبالُ السَّراةِ ما اعتَدَلا

ثمَّ في العصر العبَّاسي قال (**التِّهامي**، -٤١٦هـ= ١٠٢٥م)[٢]:

أَيا حَبَّذا أرضُ السَّراةِ وحَبَّذا ... تَهائمُها مِن أَجلِها ونُجودُها

وقال (**المَعَرِّي**، -٤٤٩هـ= ١٠٥٧م)[٣]، يصف درعًا:

قَلَعِيَّةٌ وكأَنَّ مَشْتَى الأَزْدِ في ... أرضِ السَّراةِ سَخَا بها لِقِلاعِها

فلقد كان العَرَبُ يسمُّون تلك الجبال: «**الحِجاز**» غالبًا. على أن السَّرَوات كثيرة في الجبال وغير الجبال. فكلُّ ظَهر شيءٍ: سَراته. كما في قول (**عَبيد بن الأبرص**، -٥٥٤م)[٤]:

وأَميرِ خَيْلٍ قَد عَصَيتُ بِنَهدَةٍ ... جَرداءَ خاظِيَةِ السَّراةِ جَلوسِ

وإنما قيل لأعلى الجبل سَراة كما قيل لظهر الدابَّة سَراة. ثمَّ ترسَّخ الاسم وانتشر في القرون المتأخِّرة، واشتهر في العصر الأخير اصطلاحُ (**جبال السَّرَوات**). وهناك من السَّرَوات: (**سَراة الأزد**)، و(**سَراة ثقيف**)، و(**سَراة حِمْيَر**)، و(**سَراة عدوان**)، و(**سَراة فَهْم**)، و(**سَراة اليَمَن**). من حيث إنها كلمة عَرَبيَّة صميمة، اشتُقَّ منها وصف تلك الجبال، ولا علاقة لها باسم (**إسرائيل**).[٥]

---

[١] **ديوانه**، ٢٨٨/ ٢١.

[٢] **ديوانه**، ١٧٩/ ١٣.

[٣] **شروح سَقْط الزَّنْد**، ١٩٨٨/ ٣١.

[٤] **ديوانه**، ٦٩/ ١١.

[٥] قيل في معنى «**إسرائيل** יִשְׂרָאֵל» غير تفسير واحد. منها أنه بمعنى «**عبدالله**»؛ لأن «**إسر**» بمعنى «**عبد**»، ←

ومن الشواهد الإضافيَّة على أن كلمة «**سَراة**» عَرَبيَّة صميمة، **لا علاقة لها** باسم «**إسرائيل**»، أننا نجدها في النقوش اليَمَنيَّة القديمة، إشارةً إلى (**السَّراة**). ذٰلك أن «**سهرتم**» و«**سهرتن**» كان يُشار بهما في تلك النقوش إلى: (**منطقة السَّراة**)، أو (**سُكَّان السَّراة**)، كما يُرجِّح قارئو تلك النقوش.[1] وأصل الكلمة في اللغات الساميَّة قديمٌ جِدًّا؛ فعند الساميِّين في (**العِراق**)، خلال الألف الرابع أو الثالث قبل الميلاد، كانوا يُسمُّون «**المَلِك**»: «**شرو**»، أي «**السَّرِي**»، السيِّد، الرئيس في قومه. ولذا كان المَلِك الأكدي (**سرجون الأوَّل**)، الذي حكمَ بين (٢٥٨٤ و٢٥٣٠ق.م)، يُدعَى بالأكاديَّة: «**شرو- كينو**»، أي: «**المَلِك المَكين**».[2]

بيد أن تخيُّلات (**الصَّليبي**) وتلفيقاته لا تحدُّها حدود، لا تاريخيَّة ولا جغرافيَّة ولا لغويَّة. وبات كلُّ اسمٍ في (**جزيرة العَرَب**) فيه الحروف (**ي س ر**)، جميعها أو

و«**إيل**»: «**الإلٰه**» أو «**الله**». (انظر: سوسة، ٢٣٤). ومن أطرف التفسيرات ربط ذٰلك بالقِصَّة التوراتيَّة حول المصارعة «الحُرَّة» التي جرت بين (**يعقوب**) والرب، أو مع ملاك الرب، ليلةً كاملةً إلى الفجر؛ فكان تفوُّق **يعقوب** سببًا في استحقاقه لقب (**إسرائيل**)**!** وكأن معنى هٰذا اللقب: «**يصارع/ يصرع الله**»**!** (انظر: **العهد القديم**، سِفر التكوين، ٣٢: ٢٤- ٣٠). والحقُّ أنَّ ذٰلك الإصحاح الذي وردت فيه الحكاية غير صريح في الأمر، بل نصُّه: «**وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ**». ومن هٰذا يبدو أن ادِّعاء تلك المصارعة مع الربِّ محض تأوُّلٍ طائفيٍّ ساخر، يتَّكئ على عبارة **يعقوب** في آخر هٰذه الحكاية: «**فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ** «**فَنِيئِيلَ**» **قَائِلًا: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي**».» وهي لا تعني بالضرورة ذٰلك المعنى. غير أن (**النصارى**) يتقبَّلون التأويل الشائع للنص. ويفسِّرونه على أن الربَّ إنَّما أراد تقوية معنويَّات **يعقوب**، كما يفعل أبٌ مع طفله**!** (انظر مثلًا على «الإنترنت»: القمص يعقوب، حلمي، **كتاب النقد الكتابي**: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها: https://goo.gl/tqL3Ws).

[1] يُنظر: بافقيه، ٤٣٧.

[2] انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ٣١- ٣٢.

بعضها، يبدو لديه على صِلةٍ بـ«**إسرائيل**». ومن ذٰلك عشيرة اسمها: (**آل سلامة**)! كما باتت (أل التعريف)، والتكنية بـ(آل)، تعنيان لديه (**إيل**) أو (**إلٰه**). وعليه فكلُّ أسماء القبائل والعشائر والأفخاذ والأُسَر المصدَّرة بأداة التكنية (آل) هي لديه أسماء آلهة! حتى قرية (**سُرَيْوِيْل**) في (**نَجْد**)، لم يُعفِها من الاستلحاق والتأميم التوراتي، فلم يَعُد اسمها تصغير «سروال»، بل هي- كما يرى- إشارة إلى: **إسرائيل!**[1]

وهٰكذا أصبحت (**إسرائيل**) وأشباح تاريخها يتراءيان إلى الرجل من كلِّ شيء، نتيجة اللَّوثة التأويليَّة التي أصابته. هٰذا فضلًا عن أسماء الأماكن التوراتيَّة التي ظلَّ يربطها بأسماء أماكن واضحة الحدوث. ذٰلك أنك لو بحثت في كتب البلدان الإسلامية عمَّا ينسبه إلى أسماء توراتيَّة لما عثرت على كثيرٍ منها، أو لوجدت أسماء كانت لها قد اندرست اليوم. فأيُّ باحثٍ، أو محقِّقٍ، هٰذا الذي يكتفي بشَبَهٍ بين اسمٍ اليوم واسمٍ توراتيٍّ ليفترض علاقة تاريخيَّة بينهما، ثمَّ يُقيم على ذٰلك نظريَّة تاريخيَّة؟! بل أيُّ باحثٍ، أو محقِّقٍ، هٰذا الذي يربط اسم مكانٍ تاريخيٍّ باسم فخذٍ من قبيلةٍ نُسِبَ المنتمون إليه إلى جَدِّهم، الذي عاش منذ عقود، أو منذ بضعة قرون على الأكثر، ليقول لك مثلًا: إن (**أورشليم**) هي: (**آل شريم**) في (**النماص**)؟! إن تخريفةً صليبيَّةً واحدةً كهٰذه كافية لتشطب على مِصْداقيَّة العمل العِلْمي، اللَّـٰهُمَّ إلَّا لدَى مَن كان ذا موهبةٍ في تصديق ما يتوهَّم من تُـرَّهات.

هٰذا، ولئن صحَّت القاعدة الذاهبة إلى أنه «**لا اجتهاد مع النصِّ**»، فلا مراء في

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرَب**، ١٩٦- ١٩٧.

أن ما ناقض العقل واللغة والتاريخ والمنهاج لا يصحُّ أن يُعَدَّ من الاجتهاد في شيءٍ، بحالٍ من الأحوال، بل هو الاجتراء على المَخْرَقَة والاستخفاف بالعقول.

٢٢- اليهود.. وخِتان بني إسرائيل:

رأينا كيف كان (**الصَّليبيُّ**) يسعى جاهدًا، وبصورةٍ اعتباطيَّة، لإلصاق الكلمات التوراتيَّة بأيِّ مفردةٍ في معجم اللغة العَرَبيَّة. لا يعنيه بعدئذٍ أكانت اسم مكان، أم قبيلة، أم كانت وصفًا، قديمة أو حديثة؟ بل لا يسأل أهي صحيحة أم مصحَّفة؟ فلقد فتنته افتراضاته واستغوته عن كلِّ تلبُّثٍ أو تأمُّلٍ أو تدبُّرٍ أو منهاج؛ فأراد أن يَمضي في تأويله إلى أقصاه، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلَّا أوَّلها وأصَّلها في (**الجزيرة العَرَبيَّة**).

في خضمِّ ذٰلك ذهبَ إلى أن كلمة «**يهود**»، تعني: «**شَعْب الوِهاد**»، جمع «**وَهْدَة**»، إشارة إلى الجانب البحري لجَنوب وغَرب (**الحِجاز**)![1] مع أنَّ كلمة «**وَهْدَة**» وصفٌ لمنخفضٍ أرضيٍّ، حيثما كان. غير أن المؤلِّف إذا لم تُسعفه الأسماء، لجأ إلى الصفات. ومن الواضح أنه لم يلجأ إلى صِفَةٍ هٰذه المرَّة إلَّا حين أعياه العثور على اسم مكانٍ يَنْسِب إليه ما يشاء. أمَّا اسم «**اليهود**»، فكأنما «**القرآن**» كان يشير إلى اشتقاقه في قوله، على لسان اليهود: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾[2]. وقد مرَّ تحليلنا هٰذا الاسم وما يترجَّح في أصله.[3]

---

[1] انظر: الفصل ٨، «أرض يهوذا»، من كتابه: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٥٥- ١٧٤.

[2] **سورة الأعراف**: الآية ١٥٦.

[3] راجع ما جاء سابقًا تحت عنوان «**١٢- بين التاريخ والكِهانة**».

ومع هٰذا، ولكي ندُلَّ (**الصَّليبيَّ**)، ومَن في سِربه، على أن بحر الأسماء بحرٌ طامٍ بلا ساحل، عَلِمَه من عَلِمَه وجَهِلَه من جَهِلَه، سنُمِدُّه متطوِّعين باسمٍ جديدٍ عليه. موقنين أنه لو عَلِمَه، لفرح به، ولما فوَّت الربط بينه وبين اسم «**اليهود**». ولا غرو فقد نسبَ مواضع من حوله إلى أسماء توراتيَّة وقِصص توراتيَّة شتَّى. ذٰلك المكان اسمه (**امْوَهْدَة/ الوَهْدَة**)، في جبال (**فَيْفاء**). مع أنه ليس بوَهْدَة، بل هو في أعلى جبل. وهٰذا كان سيُعفي **الصَّليبيَّ** من مغبَّة القذف باليهود إلى (**تِهامة عسير**) أو (**الحِجاز**)، لا لشيءٍ إلَّا لأنه لم يعثر على اسمٍ مناسب! فبدائل التأويل تبدو دائمًا أوضح لمن شاء وأقرب من تكلُّفات **الصَّليبي**، رابطًا بين أسماء «**التوراة**» وأماكن في (**شِبه جزيرة العَرَب**)، بلا أدلَّةٍ ولا عِلْمٍ ولا منطق.

وأطرَف ممَّا سبق ربطه اسم (**الأُرْدُنِّ**) بأماكن في جَنوب (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) تحمل حروف مادَّة (**ريد**)، كـ«**رَيْدَة**»، و«**رَيْدان**». ومن ذاك ذهابه إلى أن (**أردنَّ لوط**)، (سِفر التكوين، ١٣: ١٠- ١٢)، هو: قِمَّة جبل (**هَرُوب**). لماذا؟ قال: لأن مكانًا هناك اسمه (**رَيْدان**).[1] على الرغم من أن «**الرَّيْد**» في العَرَبيَّة يعني: حَرْف الجبل عمومًا، أنَّى كان. وفي جبال (**فَيْفاء**) وحدها- على سبيل النموذج- آلاف الأرياد. وهي المدرَّجات الزراعيَّة على حروف الجبال وسفوحها. ويُطلِقون عليها: «**أريادًا**»، مفردها: «**رَيْد**»، ومثنَّاها (**رَيْدان**). ومثل ذٰلك في جبال جَنوب **الجزيرة العَرَبيَّة**. أضف إلى ذٰلك عشرات المواضع المشتقَّة أسماؤها من هٰذه المادَّة في

[1] انظر: الصَّليبي، م.ن، ١٣٣- ١٣٤، ١٤٢- ١٤٣.

جزيرة العَرَب. منها بمنطقة (**جازان**) مواضع يُطلَق عليها: (**رَيْدان**)، في جهة (**هَرُوْب**)، و(**الرَّيْث**)، تلالًا ووديانًا. وبمنطقة (**عسير**): جبلٌ اسمه (**رَيْدان**)، في محافظة (**بارق**)، شَمالي مدينة (**أبها**). و(**رَيْدان**): أُطْمٌ من آطام (**المدينة المنوَّرة**)، مذكورٌ قديمًا لـ(**آل حارِثةَ بن سَهْل**) من (**الأَوْس**).[١] و(**رَيْدان**): حصنٌ تاريخيٌّ عظِيمٌ في (**اليَمَن**)، بـ(**ظَفار**)، من محافظة (**إب**)، لا تزال ماثلةً بعضُ أطلاله. لعلَّه سُمِّي باسم مَلِك. ونُسِبت إلى «**رَيْدان**» مملكة (**ذي رَيْدان**)، أي «**صاحب رَيْدان**»، التي صارت (١١٥ق.م- ٢٧٥م) دولةَ (**حِمْيَر**) المسمَّاة: (**مملكة سَبَأ وذي رَيْدان**)، ثمَّ (**مملكة سَبَأ ورَيْدان وحضرموت ويمنات، ٢٧٥- ٥٣٣م**). إلى غير هٰذه من أسماء المواضع والاستعمالات، قديمًا وحديثًا.

وفي هٰذا السياق يصل بنا (**الصَّليبي**) إلى قِصَّة خِتان (**بني إسرائيل**) على (**تلِّ القلَف: جبعت هـ- عرلوت**). ليزعم أنها (**قرية الغلف**)، في وادي (**أضم**)[٢] بمنطقة (**اللِّيث**). ولٰكنَّ (**الغلف**)، أصلًا: نباتٌ معروفٌ، لعلَّ القرية نُسِبت إليه، ولا علاقة لها لا بالقُلَف ولا بالغُرَل! والغَلِف/ الغَلْف: نبتةٌ متسلِّقة، أوراقها عريضة ملساء، كالأَكُفِّ، تكثر في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) عمومًا.[٣] ثمَّ يستنجد

---

[١] انظر: ابن منظور، (ريد).

[٢] ظلَّ(**الصَّليبي**) يضبط الاسم بهمزة مفتوحة. وهو، حسب وروده عن العَرَب، بكسر الهمزة. كما في قول (النابغة الذبياني، ٦١/ ١):

بانَت سُعادُ وأَمسى حَبلُها انجَذَما ... واحتَلَّتِ الشَّرعَ فالأَجزاعَ مِن إِضَما

[٣] جاء في معجم (ابن منظور، (غلف)): «**الغَلْفُ: شجر يُدْبَغُ به مثل الغَرْف، وقيل: لا يُدْبغُ به إلّا مع الغَرْف. والغَلِفُ، بفتح الغين وكسر اللام: نبت شبيه بالحَلَق ولا يأكله شيء إلا القُرود؛ حكاه أَبو**

←

المؤلِّف هنا بما نقله بعض المستشرقين عن منطقة (**عسير**) وما جاورها من أن محفل الخِتان كان يُجرَى فيها على بعض المرتفعات. فإذا هو يفسِّر ما ذكروه بأنه تقليدٌ قديمٌ مذ عهد (**مُوسَى**)! بل يذهب إلى أن تسمية أهل **عسير** الخِتانَ بـ«**التَّعْلِيَة**» هو بمعنى: أخذ المختونين إلى مكانٍ عالٍ، اتِّباعًا لذٰلك التقليد الإسرائيلي العتيق.(١) والواقع أن منطقة **عسير** وما جاورها معظمها تلال ومرتفعات وأماكن عالية، وإنَّما يُقام الخِتان في مكانٍ بارزٍ من أجل العلانية والإشهار. فيوم الخِتان «**يومٌ شاهرٌ**»، كما نقول في (**فَيْفاء**)، وليس كسائر الأيَّام. ولا علاقة للأمر بطقسٍ من الطقوس الإسرائيليَّة التي خُيِّلت إلى **الصَّليبي**. بل كانت حفلة الخِتان حفلةً مشهودةً، يُتَّخذ لها المكان المناسب؛ ولأنها أيضًا تصاحبها بعض الألعاب الاستعراضيَّة والرقصات الشعبيَّة. ويمكن، بالتأكيد، أن تقام في سهلٍ أو في وادٍ، ولا يُشترط لإقامتها أن تكون على مكانٍ مرتفعٍ. أمَّا الاصطلاح على الخِتان بـ«**التَّعْلِيَة**»، فإشارة إلى تَعْلِيَة القُلفة عن الذَّكَر، أي أَخْذ الغُرلة إلى موضعٍ عالٍ منه بقطع جزئها السُّفْلي. فـ«**عُلِّيَ**» في تعبيرهم هو كقول العَرَب: «**أُطْحِرَتْ خِتانَتُه**»، أي استُقْصِيتْ في القَطْع. وقد كانوا يُطْحِرون الخِتان ويُعَلُّونه جِدًّا، ويتفاخرون بذٰلك، في ما كان يُعرف بـ«**التجليد**»، وهو أن يُؤخَذ من الجِلْد وصولًا إلى العانة، وربما إلى الفخذَين فالبطن. تلك هي التَّعْلِيَة وذٰلك معناها، ولا علاقة لهٰذا التعبير

حنيفة.» والحقُّ أنَّ الناس كانوا يأكلونه في سِني القحط والجوع الشديد، وهو شديد الحموضة، ذو مذاق حرَّاق جدًّا.

(١) انظر: الصَّليبي، م.ن، ١٣٦– ١٤٢.

بمكان حفلة الخِتان، أو أخذ الخَتِيْن إلى مكانٍ عالٍ. غير أن تلك من افتراضات **الصَّليبي**، التي لا أوَّل لها ولا آخر، والتي لا تقوم على معرفةٍ بيئيَّةٍ أو ثقافيَّة، وإنَّما التخمينات، اعتمادًا على الحروف والكلمات.[1]

أضف إلى هٰذه «الفانتازيا» التاريخيَّة، ذهاب المؤلِّف إلى أن (**سدوم**): وادي (**دامس**)[2]، و(**عَمُورَة**): (**الغَمْر**)، على منحدرات **هَرُوب**، فوق **دامس**! أمَّا (**مِصْر**)، فقد عرفنا مكانها من قبل، وهو: (**المصرامة**)، بين مدينتَي (**أبها والخميس**)![3] وإنْ ظلَّ متردِّدًا في تحديد **مِصْر**، بين **المصرامة** المذكورة ومكان اسمه

---

[1] عُرِف الخِتان لدَى (**المِصْريِّين**) القدماء ثمَّ (**العِبريِّين**). ولم يكن من عادات الشعوب الساميَّة أو غير الساميَّة شرق المتوسِّط. ولقد أكَّد (**هيرودوت**) تفرُّد **المِصْريِّين** بعادة الخِتان، التي ربما انتقلت عنهم إلى غيرهم من الشعوب. (See: Herodotus, Book 1, Chap. 36). و«**التوراة**» تنفي الخِتان عن غير اليهود، وعن (**الكنعانيِّين**) تحديدًا. وتحكي عن غضب (**يَهْوَه**) لتهاون (**مُوسَى**) في خِتان ابنه، من (**صفُّورة المَدْيَنيَّة**). وكان الأصل المِصْري للخِتان أبلغَ دليلٍ عوَّل عليه (**فرويد**) في قوله بأن **مُوسَى** مِصْري. أمَّا الرواية التوراتيَّة عن خِتان (**إبراهيم**)، فيراها حيلةً لادِّعاء أصالة الخِتان في الأسلاف. على أنه لا معنى لكونها علامةً إبراهيميَّة؛ لا لخفائها وسخفها فحسب، ولٰكن لأن **المِصْريِّين** كانوا يحملون تلك العلامة أيضًا. (انظر: فرويد، ٣٦، ٥٩- ٦٠). وتبدو عادة الخِتان مرتبطة قديمًا بالزواج، ولعلَّ ذٰلك ما أشير إليه بـ«**عريس الدَّم**» في (**التوراة**، الخروج، ٤: ٢٥). وعلى الرَّغم من شيوع القول- بلا دليل- بأن العَرَب كانوا يختتنون قبل الإسلام، (انظر: ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العَرَب**، ٧٨)، فإننا لا نعرف أثرًا قوليًّا يدلُّ على ذٰلك. ولو كان الخِتانُ لدَى العَرَب عادةً مطَّردة، لكان لها صدًى في ثقافتهم. وهٰذا مؤكِّدٌ ثقافيٌّ إضافيٌّ على أن (**بني إسرائيل**) لم يكن تاريخهم في (**جزيرة العَرَب**). أمَّا موضوع الخِتان بعد الإسلام، فيمكن الرجوع فيه، مثلًا، إلى كتاب (الغطيس، نضال، (٢٠١٤)، **ختان الذكور**، (بغداد/ بيروت: منشورات الجمل)).

[2] وادي (**دامس**) ينحدر من جبال (**مَنْجِد**) وجهات (**هَرُوْب**). ويلتقي واديَ (**صَبْيا**) وواديَ (**قَصْي**) في موضعٍ يُسمَّى (**مجْمَع الأودية**)- شَرقي قرية اسمها (**جَرُّ جبريل**)، أو (**الجَـرُّ الأعلى**)- لتصُبَّ مياه تلك الأوديةِ في ما يُعرف بـ(**وادي صَبْيا**).

[3] انظر: الصَّليبي، م.ن، ١٤٦.

(**مَصر**) في وادي (**بِيشة**) و(**المَضْرُوْم**) في مرتفعات (**غامد**) و(**آل مَصْري**) في (الطائف)! وقد أضفنا إليه أيضًا مكانًا خامسًا في (**فَيْفاء**) لا يعرفه، اسمه: «**مَصر**».

أمَّا الفراعنة، فيرجِّح أنهم من قبيلة (**الفرعا**) في وادي (**بِيشة**)! كيف لا، و(الفاء والراء والعين) خير برهان؟! ومن حقِّنا أن نقول كذٰلك، على غِرار هٰذه المهزلة التأوليَّة: لِـمَ لا يكون الفراعنة من (**وادي الفَرْع**)، في جبال (**فَيْفاء**)؟! ليُصبح **وادي الفَرْع** هو وادي الفراعنة، بدل (**وادي النِّيْل**). لِـمَ لا، ولدينا في الجِوار من **وادي الفَرْع** شواهد بأسماء مِصْريَّة شهيرة، مثل: (**المعادي**)، و(**المَحَلَّة**)، و(**مَنَفَة =منف**)، و(**الحَرَم =الهَرَم**)، و(**القَهر =القاهرة**)، و(**الصَّعيد**)، وفوق ذٰلك مكان باسم: (**مصر**)؟! وعادةُ صاحبنا أنْ لا يفتِّش عن تاريخ المواضع والتسميات، فليتقبَّل هٰذا الافتراضَ الإضافيَّ بصدرٍ تاريخيٍّ رحب، كما عهدناه! إن الفراعنة، إذن، كانوا «ولا بُدَّ» من أهل **وادي الفَرْع** وما جاوره، وإنْ وهم الواهمون!

وهٰكذا نستطيع بيُسر أن نُجري بحثًا كبحث (**الصَّليبي**) يحمل (**مِصْر الكنانة**) وغيرها على بساط الريح إلى مكانٍ آخر؛ لأن كل اسمٍ هناك لن نعدم له مشابهًا- أو حتى مطابقًا- هنا. فإنْ كان التشابه بين أسماء المواضع كافيًا وحده لنَقْل الأُمم عن مَواطنها التاريخيَّة، فأَرِّخ ولا حَرَج!

حتى إذا ختم (**الصَّليبيُّ**) كتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، ألحقَه

بمُلحقٍ تحت عنوان «**آثار اسميَّة ليعقوب والأسباط في غَرب شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**»، جاء فيه بالعجب العجاب. من ذٰلك أنه قال: «**يبدو أن الوطن الرئيسي لقبيلة (شمعون) كان في الجزء الجنوبي من منطقة جيزان** [كذا!]، **عند حدود اليَمَن، حيث هنالك قرية تسمَّى الشَّعْنون (ولعله تحريف للاسم)!**»[1] وعلى هٰذا أصبحت ألفبائيَّة اللغة العَرَبيَّة حيثما وردت بها الأسماء قابلةً لتستوعب «**التوراة**» جميعها، بـ«**يبدو**» و«**لعلَّ**» وأخواتها. فيما هو- في مَواطِن غالبة- ما يفتأ يؤكِّد يقينه المطلَق بما يَستنتِج، في عبارات مثل: «**لا شك**»، و«**بالتأكيد**»، و«**لا بُدَّ**». حتى إنه ليَصِحُّ أن يُسمَّى كتابه كتاب «**لا شكَّ ولا بُدَّ**»؛ لكثرة ما يكرِّر هاتين العبارتين ومرادفاتها. هٰذا في الوقت الذي لا يقدِّم على«**لا شكِّه**» و«**لا بُدِّه**» أدلَّةً يُعتدُّ بها عِلْميًّا. وهو ما يدلُّ على أنه يقينٌ مبيَّتٌ، سابقٌ على البحث والأدلَّة. بل لا مجاوزة للحقِّ في تشخيص حالته إنْ قلنا: إنه يتبع منهاجًا مقلوبة نتائجه على مقدماته؛ من حيث هو قد انطلق من افتراضات جاهزة، باتت لديه عقيدةً راسخةً؛ فلم يَعُد يبحث، ولا يشكُّ، ولا يتساءل، ولا يُراجِع، وإنَّما بات هدفه: كيف يلتمس الإثباتات لتلك الافتراضات «المحتَّمة»، ومهما كلَّفه الأمر؟ حتى إنه إذا عجز عن العثور على أحرفٍ من كلمةٍ يمكنه أن يربط بها المفردات التوراتيَّة بـ(**الجزيرة العَرَبيَّة**)، صاح قائلًا: أنا متيقِّنٌ أن الدليل هناك لٰكني لم أهتد إليه! وهٰذا فِعلُ مؤمنٍ، معتقِدٍ عقيدةً عمياء، لا فعل باحثٍ موضوعيٍّ يلتزم المنهجيَّة. ولو أنه

---

[1] م.ن، ٣٠١.

توقَّف عند طرح الأسئلة الجوهريَّة لأطروحته، واكتفى بتسجيل الملحوظات الإشكاليَّة، والقضايا المثيرة، الجديرة بالبحث والتأمُّل، ثمَّ ترك تأكيد إجاباتها لعِلْم الآثار والبحث العِلْمي المستقبلي، لبدا إلى سَمْت العِلْم والباحثين أقرب. ولٰكن ما هٰكذا سبيل المؤمنين! ولأجل نزوعه ذٰلك لا غرابة أنْ بقيَ عند تصوُّراته الأُولى، لا يتراجع عنها ولا يتزحزح طَوال العمر، حتى وافاه الأجل. فلا هو قدَّم براهينه المقنعة ابتداءً، ولا هو بعدئذٍ واصل البحث، فسعَى لاستدراكٍ، أو تَحَرٍّ، أو برهنةٍ، ولا هو ناقشَ بعض الردود على كُتُبه خلال خمسة وعشرين عامًا. وكأن ذٰلك كلَّه لا يعنيه في شيء، بل ما يعنيه تثبيت دعاواه الوهميَّة، ولو بالصمت المطبِق. وما يفعل هٰذا باحثٌ، بل يفعله دُغمائيٌّ، يتوكَّأ على عصا التاريخ، ويهشُّ بها على غنمه، وربما كانت له فيها مآرب أخرى!

٢٣- المؤتلِفُ لفظًا المختلِفُ أرضًا.. وحقائق التاريخ:

ربما توهَّم قارئُ كُتب (**الصَّليبيِّ**) أن استنتاجات المؤلِّف معقولة، وأنها مقنعة حين يذكر الأماكن المتجاورة في «**التوراة**» فيجد إزاءها نظائر متجاورة في جَنوب غَربيِّ (**الجزيرة العَرَبيَّة**). فيقول: إذن النصُّ التوراتيُّ يتحدَّث عن تلك الأماكن. بيد أن الأمر ليس كذٰلك بالضرورة، وليس بدليل على ما استُدِلَّ به عليه بإطلاق؛ فكما أن أسماء الأماكن تتشابه في أماكن متعدِّدة، فإنها قد تتجاور أسماء متشابهة بالترتيب نفسه في بُقعتَين جغرافيَّتَين متباينتَين. ولنأخذ مثالًا، يُضاف إلى ما سبق من أمثلة:

أصرَّ المؤلِّف على أن ثلاث كلمات واردة في (**سِفر صموئيل الثاني، ٥: ٨**)، «**صنور، وفسحيم، وعوريم**»، هي أسماء أماكن، مخالفًا علماء «**التوراة**» ومترجميها الذين لم يَعُدُّوها أسماء أماكن جميعًا، بل الكلمة الأُولى: اسم مكان، والثانية والثالثة بمعنى: «**العرجان**»، و«**العميان**». ثمَّ طَفِق يفتِّش في «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**» لإلصاق هٰذه الأسماء الثلاثة بأماكن في جَنوب غَربيِّ (**الجزيرة العَرَبيَّة**). وبَعْدَ لَأْيٍ، زعمَ أنها، في ما يُعرف اليوم بمنطقة (**جازان**): فـ(**صنور**) هي: قرية (**الصرَّان**)، في (**هَرُوْب**)، و(**فسحيم**): قرية تُسمى (**صحيف**)، في جبل (**الحَشَر**)، و(**عوريم**): جبل (**عوراء**)، في **هَرُوْب**.[1] هٰكذا قال. أ فلا توجد مثل هٰذه الأسماء في أماكن أخرى؟ بلى، نستطيع أن نجد مثل تلك الأسماء الثلاثة، وربما على نحوٍ أوضح، في مكانٍ واحدٍ، هو جبال (**فَيْفاء**)، دون أن نبتعد إلى جهات أخرى. فنقول مثلًا، على طريقة (**الصَّليبي**): (**عوريم**: أحد ثلاثة مواضع يُسمَّى كلُّ واحدٍ منها: **امْعَرام/ العَرام**). و(**فسحيم**: أحد مكانَين إمَّا **اِمْصفيحة/ الصَّفيحة**، وإمَّا **اِمْصافح/ الصافح**). أمَّا (**صنور**: فربما بُقعة **اِمْسَنْدَر/ السَّنْدَر**، أو لعلَّها **نَيْد اِمْصَدر/ الصَّدر**، وحدثَ التحوير والتقديم والتأخير في الأصوات، وهٰذا أمرٌ معتادٌ متوقَّع). وهٰكذا يفعل **الصَّليبي** عادةً في عزو الأماكن التوراتيَّة إلى (**الجزيرة العَرَبيَّة**). فها هي تي أسماء ثلاثة مواضع أشبه

---

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٨١.

بالأسماء التوراتيَّة، وهي بألفاظها إلى اليوم، في أماكن متجاورة من المنطقة نفسها في جبال **فَيْفاء**، ولم تضطرنا للقفز من **هَرُوْب** إلى جبال **الحَشَر**، التماسًا للاسم الثاني. وعلى ذٰلك قِس. ما يدلُّ على أن هٰذا منهاجٌ سهلٌ، ولا يُثبِت شيئًا في ذاته، فضلًا عن أن يقلب التاريخ وجغرافيَّته رأسًا على عقب.

ولينظر القارئ إلى مثالٍ آخر أوضح. إذا كان ما أجراه (**الصَّليبي**) من مقارنات دليلًا عِلْميًّا، لأنَّ أسماء في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) مشابهة لأسماء توراتيَّة- إضافةً إلى اتِّساقها بالترتيب نفسه تقريبًا، وكونها متجاورة في مواضع متدانية- إذا كان ذٰلك دليلًا، فكيف يُفسَّر أن في جبال (**فَيْفاء**)، مثلًا، أماكن بأسماء كهٰذه: (**القَعبة، الكعبة، الصَّفا، المَرْوَة، الحَرَم**)؟! وأنَّ هناك أماكن بأسماء كهٰذه: (**مَنَفَة، المعادي، المحلَّة، القَهر، مصر**)؟! ولا يُعلَم، على وجه التحديد، متى سُمِّيت تلك المواضع بتلك الأسماء؟ ولماذا؟ ويبدو أن هٰذه تقاليد قديمة في التسميات، تَحْدُث إمَّا لأسباب دِينيَّة، أو حنينًا إلى مَواطن سابقة، أو لمجرد الطرافة. فإذا سُمِّي مكان: (**الصَّفا**)، جاء من يُسمِّي مكانًا مقابلًا: (**المَرْوَة**)، وهلمَّ جرًّا. وبالقياس إلى استقراء **الصَّليبي**، فلو أن أسماء الأماكن الأصليَّة القديمة المشهورة اندثرت، أو وقع حولها الجدال، لربما جاء صليبيٌّ في المستقبل ليؤلِّف كتابًا يقول فيه: إن (**الكَعبة**، و**الصَّفا**، و**المَرْوَة**، و**الحَرَم**) ليست في (**مكَّة**)، بل في جبال (**فَيْفاء**)! لماذا؟ لأنها هناك معروفة بأسمائها إلى اليوم، ومتجاورة على نحوٍ مدهشٍ في بقعةٍ طبغرافيَّةٍ واحدة. وسوف يقول أيضًا: إن (**مِصْر**) التاريخيَّة ليست في قارة

(أفريقيا)! لماذا؟ لأن (**مَنَفَة**، و**المعادي**، و**المحلَّة**، و**القَهر (القاهرة)**، و**مصر**) كلّها معروفة بأسمائها إلى اليوم متجاورة على نحوٍ مدهشٍ في بقعةٍ طبغرافيَّةٍ واحدة. إذن، «لا بُدَّ»، و«لا شكَّ» و«لا ريب»، أنها هناك، وأن المؤرِّخين السابقين واهمون، والنصوص التي ذكرتْها في أماكن أخرى قد حرَّفت فيها وخلطت! ما يعني أن هٰذه الطريقة في تسمية المواضع والدِّيار محتملةٌ جِدًّا، وهي نتاجٌ ثقافيٌّ قديم، نَبَّه إليه البلدانيُّون العَرَب، وألَّفوا حوله الكُتب، كما تقدَّم. ومن هنا لا تَصِحُّ هٰذه الظاهرة دليلًا على تحديد المَواطن التاريخيَّة، بحالٍ من الأحوال، دونما شواهد أثريَّة قاطعة، يمكن الركون إليها عِلْميًّا.

وعليه، فإن تشابُه الأسماء، بل حتى تطابقها، وتراتبها متجاورةً بالطريقة نفسها الواردة في روايةٍ ما، لا يعني أن الرواية تُشير إلى تلك الأماكن العتيقة، بالضرورة، ولا يَصلح ذٰلك مستنَدًا يُستدلُّ به، وحدَه، على حقائق الجغرافيا والتاريخ. ذٰلك أن الاستقراء يدلُّ على أن المكان يُلبَس اسمَه عادةً لسببٍ أو لأكثر من الأسباب الآتية:

١- تسميةً باسم ساكنيه، أو باسم عَلَمٍ مشهور منهم. وهٰذا كثيرٌ شائعٌ مشهور.

٢- تسميةً بنعت المكان أو وصف طبيعته، وهو كذٰلك من الشيوع بمكان.

٣- اقتباسًا من اسم مكانٍ هاجرَ منه أهله. وأشهر النماذج على ذٰلك في الثقافة العَرَبيَّة انتقال الأسماء الشاميَّة إلى **(الأندلس)**، مع العَرَب الأُمَوِيِّين الشاميِّين المهاجرين إلى **الأندلس**.

٤- تسميةً باسم مكانٍ آخر مشهور. مثل تسمية مكانٍ في جبال (**فَيْفاء**) باسم «**مِصْر**»، أو باسم «**الطائف**».

٥- لأسبابٍ دِينيَّةٍ أو رمزيَّة، كتسمية مكان في جبال (**فَيْفاء**) باسم «**الكعبة**»، أو اسم «**الصفا**»، أو اسم «**المروة**».

هٰذا السلوك الثقافي في آليَّة تسمية المَواطن ملحوظٌ عبر التجربة البشريَّة بامتداد التاريخ. ولا يصحُّ إغفال ذٰلك عند مقاربة الأسماء؛ كيلا تُفَسَّر بسذاجةٍ على أنها أوتادٌ ثابتةٌ لخيمة التاريخ، لا تنتقل، ولا تتزحزح، ولا تتحوَّل، ولا تتغيَّر.

إن أسماء المواضع كثيرًا ما تكون، إذن، استعارات ثقافيَّة، مثلما أنها استعارات شِعريَّة في القصيدة القديمة. وكما ضلَّ البلدانيُّون السبيل إذ قرأوا أسماء المَواطن في قصائد الشعراء الجاهليِّين على أنها بالضرورة إشاراتٌ حقيقيَّة، لا مجازيَّةٌ شِعريَّةٌ، وفهموا أنها تُحيل إلى معالم الجغرافيا وحقائق التاريخ، ضلَّ مَن يعقد الربط بين أسماء المَواطن التوراتيَّة وأشباهٍ لفظيَّةٍ لها في مناطق من (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، دونما دليلٍ تنهض عليه الحُجَّة سِوَى تشابهٍ في بعض الحروف. ويزداد المنزلق التأويليُّ تورُّطًا في الوهم والإيهام نظرًا إلى أن بعض النصوص التوراتيَّة نفسها ذاتُ طبيعةٍ شِعريَّةٍ رمزيَّةٍ أصلًا، فضلًا عن نزوعاتها الأُسطوريَّة والإديولوجيَّة في التعبير والتصوير والتخييل.

وبذا تتضافر الانزياحات النصوصيَّة مع الانزياحات الثقافيَّة في مدِّ هٰذه المتاهة القرائيَّة التأويليَّة، منذ كُتبت «**التوراة**» وصولًا إلى (**الصَّليبي**) ومن سار في

ركابه من المعاصرين، مؤرِّخين وغير مؤرِّخين. ويبدو أنها متاهةٌ كمتاهة **(بني إسرائيل)**، لٰكنها ستستمرُّ هٰذه المرَّة إلى يوم الدِّين؛ لأنها إنَّما تركض وراء سرابٍ لغوي، إذا ما وُزِنت عِلْميًّا بميزان التاريخ والجغرافيا.

ثمَّ خلص **(الصَّليبي)**[1]، مستنتِجًا بعد تحليلاته السابقة، إلى القول: «**في ضوء ما قيل حتى الآن** [يعني ما قاله هو حتى الآن!] **يجب البحث عن «أورشليم» التوراتيَّة... في منطقة ما إلى الشمال من قعوة الصيان (وهي «جبل صهيون» في رجال ألمع)**»**!**[2] وواضحٌ أنه قد تعِب في البحث عن اسمٍ يُلصِق به اسم (**أورشليم**). لٰكنه في النهاية لم يجد إلَّا اسم فخذٍ قَبَليٍّ يكنى بـ(**آل شريم**) في (**النماص**). فلم يفوِّت الفرصة، فقال: «**والأرجح هو أن «أورشليم» هٰذه... يمكن أن يعثر عليها فورًا على مسافة حوالي ٣٥ كيلو مترًا إلى الشمال من بلدة النماص في سَراة عسير، شمال أبها. إنها القرية التي تسمى اليوم آل شريم (ءل شريم)، التي يحتوي اسمها على بعض التحريف التعريبي عن الأصل يورشليم!**»[3]

تُرى من (**آل شريم**) هٰؤلاء؟

---

[1] م.ن، ١٨٣.

[2] وراجع ما قيل سابقًا حول اسم (**الصيَّان**)، وأنه اسم إنسان، وإنما سُمِّي المكان باسمه. وقد عاش في العصور المتأخِّرة، ولا علاقة له بـ(**صهيون**). وتُعَدُّ عشيرته فخذًا من (**رجال ألمع**).

[3] الصَّليبي، م.ن.

لقد آن أن يعرف القارئ هٰؤلاء الذين ينسب إليهم المؤلِّف (**أورشليم**).

إِنْهم إلَّا فخذٌ قَبَلِيٌّ متأخِّر الزمن. وليس (**آل شريم**) باسم مكان، لٰكن القرية قد تُسمَّى باسم أهلها. وهم من (**آل عازب**)، و**آل عازب** من قبيلة (**آل لَصْلَع**)، و**آل لَصْلَع** من قبائل (**بني سفار**)، و**بنو سفار** من قبائل (**المجنب**)، وهي من قبائل (**ابن الأحمر/ بلَّحمر**)، من قبائل رجال (**الحَجْر**).[1] وبذا فإنهم فرعٌ من فرعٍ من فرعٍ من فرعٍ من فرعٍ من **بلَّحمر**. على حين أعاد (**الصَّليبي**) وجودهم إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وذهب إلى أنهم: «**أورشليم**»! وهٰكذا يفعل حين يجد اسم قبيلةٍ أو عشيرةٍ تتفق بعض حروفه مع اسم مكانٍ توراتيٍّ، فيزعم أنه اسم مكان، ثمَّ يعزوه إلى آلاف السنين. ولله في خلقه شؤون!

٢٤- آلهة بلا حدود:

استمرَّ (**الصَّليبي**) في كتبه على النهج نفسه من عدم التثبُّت ممَّا يبني عليه استنتاجاته. يتجلَّى لك هٰذا في كتابه بعنوان «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»، الذي جاء بمثابة استثمارٍ لكتابه الأوَّل «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» لتفسير بعض خفايا «**التوراة**» وأسرار (**إسرائيل**). وسنتوقف من هٰذا الكتاب على نماذج مقتضبة ممَّا

---

[1] حول (**بلَّحمر**)، انظر مثلًا: العمروي، **المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة، الجزء الثالث، بلاد رجال الحَجْر**، ٥٢- ٥٧.

زَجَّه المؤلِّف فيه من معلومات مغلوطة، كان حريًّا بأن يتحقَّق منها، ولاسيما بعد مضيِّ قرابة عشرين سنة على كتابه الأوَّل، وظهور بعض التنبيهات والنقود على ما ساقه في ذٰلك الكتاب، وتطوُّر وسائط الاتصال والاطِّلاع والتحقُّق، أكثر ممَّا كان متاحًا من قبل.

لقد ذهب، مثلًا، وهو يفسِّر بعض ما ورد في «**سِفر التكوين**» من قصصٍ ومفردات حول خَلق (**آدم**) وإخراجه من الجنَّة- والجنَّة لديه، كما سبق، تقع في (**بِيشة**)، التي تتمركز فيها وحولها الدنيا والآخرة!- إلى أن بعض القُرَى، مثل (**آل دعيا**)، و(**آل حياة**)، تشير إلى ما ورد في «**التوراة**» حول (**شجرة المعرفة**)، و(**حَوَّاء**) في جنة (**عدن**). وأضاف:

> **«أضف إلى هٰذا أن هناك قرية في وادي بيشة بالذات اسمها آل حيَّة (ءل حيه)، وهو اسم حوَّاء (حوة) ليس كامرأة عادية، بل كإلٰهة، ناهيك عن قرية في جبل فيفا، بجنوب عسير، اسمها آل سلعي تحمل اسم «الضلع» (صلعه) كإلٰه، وإن بقلب الصاد العبرية إلى السين العَرَبية في اللفظ. (...) ووجود قرية آل سلعي، والظاهر أن الاسم كان في الأصل آل صلعي (صلع)، أي «إلٰه الضلع»، مما يشير إلى أن هٰذا «الضلع» كان من المعبودات الثانوية المعروفة في وقت ما في جزيرة العَرَب.»![1]**

أجل، لم يكن ينقص (**جزيرة العَرَب**)، على كثرة آلهتها، إلَّا الإلٰه (**صلعة**)!

---

[1] الصَّليبي، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، ٣١- ٣٢.

وأؤكِّد لك، أيُّها القارئ، أنْ ليس في جبال (**فَيْفاء**) قرية اسمها (**آل سلعي**) على الإطلاق. بل ليست في **فَيْفاء** قُرى بالمعنى الذي يفهمه (**الصَّليبي**) البتة، بل هي بيوتٌ عاديَّةٌ لعوائل، اصطلحوا على تسمية الكبير منها، وذي الطراز العمراني المخصوص: «**قرية**». أمَّا (**آل امْسَلَعِي/ آل السَّلَعِي**)، فعشيرةٌ تعود إلى بطنٍ من قبيلة (**آل خُساف**)، اسمه (**آل أحمد بن شريف**)، وليس ذٰلك باسم مكانٍ أو قريةٍ أو حتى بيت. وإنَّما قد يقال: «**بيت آل امْسَلَعِي**»، نِسبةً إلى هٰؤلاء الناس، الذين ينتسبون إلى جدِّهم (**يحيى بن السَّلَعي**). ثمَّ إن (**آل السَّلَعي**) هٰؤلاء لم يكونوا، منذ عهدٍ قديمٍ جدًّا، من أهل المكان المُسمَّى باسمهم، بل حلُّوا ذٰلك البيت وسُمِّي باسمهم. ومن ثَمَّ فلعلَّ هٰذا الاسم لم يكن له وجود هناك قبل أربعة قرون، إذا استظهرنا غاية الاستظهار. ويُروَى أن هٰؤلاء القوم إنما جاؤوا إلى **فَيْفاء** من (**قطابر**)[1]، في زمنٍ متأخِّر- وربما كانوا من أصلٍ هاشميٍّ- فاندمجوا في بطن القبيلة، المشار إليه.[2] ولقد أدركتُ أنا ابنَ حفيد جدِّهم، الذي سُمِّي المكان باسمه. فلا يعود وجود هٰذا الاسم، إذن، ولا وجود المنتمين إليه، إلى بداية الخليقة، أو قِصَّة الخليقة، كما توهَّم **الصَّليبي**، بل بالأحرى كما تجاهل مقتضيات البحث العِلْمي، من ضرورة معرفة الحقائق من أهلها قبل أن يهرف بما لا يعرف، فيُسطِّر في كتابه ادِّعاءات كهٰذه، ذاهبًا إلى أن الاسم اسم قرية، وأنها قديمة في جبال **فَيْفاء** قِدَم التاريخ، بل ما قبل التاريخ.

---

[1] تقع (**قطابر**) في قلب (**بني جُماعة**)، في (**بني مُنَبِّه**)، شَمال غَربي (**صَعْدَة**) بنحو ٧٠ كيلًا.

[2] انظر: الفَيْفي، علي بن قاسم، **فَيْفاء بين الأمس واليوم**، ٢٢٨.

ولئن كنَّا لا نعلم أصل تسمية «**السَّلَعِي**» بهٰذا الاسم، فإن من المعروف- على كلِّ حال- أن (**السَّلَع**) ضربٌ من النبات، واحدته: سَلَعْيَة، ولعلَّ لاسم الرجل علاقة به. ذٰلك من نحو ما اقترحناه حول (**جنينة عدنة**)، في (**بِيشة**)، واحتمال علاقة التسمية بشجر (**العَدَن**)، أو ما قلناه حول (**قرية الغلف**)، في (**اللِّيث**)، واحتمال علاقة التسمية بشجر (**الغَلْف**). ذٰلك أن **السَّلَع**: نبات، وقيل شجرٌ مُرٌّ، كانت العَرَب في جاهليَّتها تأْخُذُ حَطَبَه وحَطَب (**العُشَر**) في المَجاعاتِ وقُحُوط القَطْر فَتُوقِرُ ظهور البقر منها، وقيل: يُعَلِّقون ذٰلك في أَذنابها، ثم تُلْعج النار فيها؛ يَسْتَمْطِرون بلهب النار المشبه بِسَنى البرق. وقيل: يُضْرِمُون فيها النار وهم يُصَعِّدُونها في جبلٍ، فيُمْطَرون بذٰلك، حسب توهُّماتهم. وذكرَ (**أبو حنيفة الدِّينَوري**): أن **السَّلَعُ** سمٌّ كلُّه، وله ورقة صُفَيْراءُ شاكَّة كأنَّ شوكها زَغَبٌ، وهو بَقْلَة تنفرش.[1] قال: «**وأخبرني أَعرابيٌّ من أهل السَّراة أن السَّلَعَ شجر مثل السَّنَعْبُق إلَّا أنه يرتقي حِبالًا خُضرًا لا ورق لها، ولٰكن لها قُضْبان تلتف على الغصون وتَتَشَبَّكُ، وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار، فإِذا أَينع اسوَدَّ فتأكله القُرود فقط.**» وقد كان الناس أيضًا يأكلون السَّلَع في سنيِّ الجوع. والسَّلَعُ كذٰلك: البَرَصُ. والسَّلَعُ: آثار النار بالجسَد.[2] وبذا فلو كنتُ من هُواة الإبحار وراء الكلمات،

---

[1] نجد في معجم (ابن منظور، **لسان العَرَب**، (سلع)): «**وهو بَقْلَة تنفرش، كأنها راحة الكلب**». كذا في طبعتَي (القاهرة: دار المعارف)، و(بيروت: دار صادر). ولعلَّ الصواب «**راحة الكف**». غير أنه- إنْ كان من أنواع (**السَّلَع**) ما له ورق، ولم يكن في الوصف خلطٌ بين **السَّلَع** و(**الغَلْف**)- فإن ما يُشبِه «**راحة الكف**» الورقة من النبتة، لا النبتة نفسها.

[2] انظر: ابن منظور، (سلع).

كـ(**الصَّليبي**)، لذهبت في هٰذا المعنى للسَّلَع كلَّ مذهب؛ وبخاصَّة أن بيت (**آل السَّلَعي**) اسمه: (**جِحْم**)! وغير بعيدٍ من **جِحْم** مكانٌ اسمه (**نُعَيْمَة**)! إذن، لأمكن- وَفْقَ منهاج **الصَّليبي**- أن نجد تأويلًا يتصل بالجَحيم والنَّعيم، والجنَّة والنار!

هٰذا، وقد كان يمكن للمؤلِّف- إنْ كان لا بُدَّ فاعلًا- أنْ يلتمس ما سمَّاه «**إلٰه الضلع**» وراء أسماء أخرى كثيرة، أقرب شَبَهًا، فيها مادة «**ضلع**»، أو «**ضالع**»، مثل: (**نَيد الضَّالع**)، في (**فَيْفاء**)، أو (**عقبة ضُلَع**)، في (**عسير**)، أو (**الضَّالع**)، في (**اليَمَن**). لولا أنه يريد أيضًا أن يؤوِّل أداة التكنية «**آل**» بمعنى «**إلٰه**»، لا بمعناها المعروف، وهو أن جماعة من الناس يَؤُوْل نسبُهم إلى جَدِّهم. على أنه قد أورد الاسم بطريقة غير صحيحة أصلًا، وهي: «**آل سلعي**»، والصواب «**آل امْسَلَعي/ السَّلَعي**»؛ ما يدلُّ على أن **السَّلَعيَّ** شخصٌ بعينه، معرَّفٌ، مُشتقٌّ من مادة «**سَلَع**». وليس بنكرةٍ، كما أورده المؤلِّف، ليسوغ قوله- جَدَلًا- إن الأصل (**آل صلعي/ صلع**)، وأن «**آل**» تعني «**إلٰه**».

ومثل ذٰلك تفسيره ما وردَ في «**التوراة**» من أن الربَّ (**يَهْوَه**) أوكلَ حِراسة الجنَّة إلى «**لهيب (لهط) سيف متقلِّب**»، وأن (**لهط**)- كما زعم- إلٰهٌ تابع **ليَهْوَه**، ولعلَّه اليوم قريتا (**آل بو هَتَلَة**)، في وادي (**بِيشة**)، وهو في رأيه مسرح جميع الأحداث في قِصَّة الخلق والفردوس، ذاهبًا إلى أن أصل الاسم «**هطل**»، استبدالًا عن «**لهط**».[1]

---

[1] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٣٣.

وليس في حاجة إلى ذٰلك، فلو سألني لأعلمته بمكانَين في جبال (**فَيْفاء**)، يسهِّلان عليه عمليَّة التفسير تمامًا، وَفْقَ هوسه المألوف. أوَّلهما مكان اسمه (**امْلاهِط/ اللَّاهِط**)، والآخر اسمه (**امْهُطْل/ الهُطْل**). وهٰذا الأخير يقع إلى جوار بيت (**جِحْم**) لـ(**آل السَّلَعي**)، الذين ذكرهم آنفًا، وهو بيت جدِّي (**عليِّ بن سالم آل حالية**). وبذا يمكن نقل مسرح الأحداث بسهولة إلى تلك المنحدرات في جبال (**فَيْفاء**)، ما دامت القرائن والأدلَّة لا تعدو أسماء أماكن تُشابِه مفردات «**التوراة**»! فتلك أسماء في وادي **بِيشة**، ومثلها لدينا، ولدَى غيرنا منها الكثير.

أمَّا ترديده القول إن أداة التكنية العَرَبيَّة (**آل**) تعني: «**إلٰه**»، فإن من المعروف أن كلَّ قبيلةٍ هناك أو فخذٍ من قبيلة، كما في أنساب العَرَب جميعًا، يصدَّر اسمها غالبًا بأداة التكنية (**آل**)، معزوِّين إلى جَدٍّ لهم أو جَدَّة. فكاتب هٰذه السطور، على سبيل المثال، هو من (**آل حالية**)، و(**آل حالية**) هٰؤلاء- مع (**آل السَّلَعي**) الذين نسبهم (**الصَّليبي**) إلى بدء الخليقة- هم من قبيلة (**آل خُساف**)، وتعود هٰذه القبيلة إلى عمارة (**آل المَوْدَحِيِّ**)، من (**آل المُغامِر**)، من (**آل عُبَيْد بن أحمد**)، الذي يعود نسبه إلى رجلٍ اسمه (**هانئ**)، من نسل (**خَوْلان بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان**). فانظر، في ضوء هٰذا المثال، إلى الفرع المتأخِّر جدًّا، **آل السَّلَعي**، أين قفزت به توهُّمات **الصَّليبي**- لمجرَّد تشابُه حروفه مع ما أراد أن يؤوِّل إليه كلمة «**الضلع**» (**صلعه**)، الذي خُلِقت منه أُمُّنا **حَوَّاء**- فإذا هو يعزو وجوده إلى نشأة الخليقة والأساطير؟!

وسنجد له من أسماء القبائل والأماكن في جبال (**فَيْفاء**) وحدها ما يُغذِّي شهوته التأويليَّة الفردوسيَّة، وممَّا هو أقرب لفظًا ومكانًا ممَّا ذهب إليه، مثل: (**آل بِلْحَكَم**)؛ (**آل امْحِنَيْش**)؛ (**آل حَيَّان**)؛ (**آل ظُلْمَة**)؛ (**آل دانعة**)؛ (**ثاهر العَدَن**)، إلى غيرها من الأسماء، التي لعلَّه يرَى وراءها إشارات إلى: (**آلهة الحِكمة**)، و(**آلهة المعرفة**)، و(**آلهة الحياة**)، و(**جَنَّة عَدْن**)، وإلى قِصَّة (**حَوَّاء**)، و(**الحيَّة**)، و(**الحَنَش**)، إلى غير ذٰلك من المفردات التوراتيَّة، أو القرآنيَّة! فما أسهل التأويل، وأسهل العثور على الأسماء التي يُبْنَى عليها التأويل، وَفْقَ هٰذا المذهب.

إنه لا يتورَّع عن التماس أيِّ اسمٍ ليربط به خيالاته، مهما كان حاله أو تاريخه. وكما جعل في كتابه الأوَّل «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» كلَّ تاريخ (**بني إسرائيل**) يعود إلى جَنوب غَربي (**الجزيرة العَرَبيَّة**)- لا يحمل من دليلٍ على ذٰلك، لٰكنها شُبِّهت له ظواهرُ أسماء بأسماء- فقد جعل في كتابه «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**» كلَّ اسمٍ يعود إلى اسم إلٰهٍ من الآلهة، لا يحمل من دليلٍ على ذٰلك سِوَى ظواهر شَبَهٍ بين الأسماء كذٰلك، مع ترائي الإحالة إلى آلهةٍ وراء كلِّ حَرْفَي أَلِفٍ ولام. ولئن صحَّ ذٰلك، فلدينا في (**فَيْفاء**)، إذن، أكثر من آلهة (**الهند**) بكثير! إنَّ لدينا- كما لدَى غيرنا- مئات الآلهة، بل آلافها، ما دامت كلُّ كلمة (**آل**) تُحيل إلى اسم (**إلٰه**) قديم. بل إن (**الصَّليبي**) يرى أحيانًا أنه يحيل إلى اسم الإلٰه مجرد (الـ التعريف) من الاسم المقترن به.[1]

---

[1] على الباحث التفريق بين نشأة اللغات السحيقة- وما قد يكون ترسَّب عنها من آثارٍ لغويَّة- وبين إسقاط ←

وهو- في هٰذا السِّياق حول (**آدم**) وذَويه- يُمعِن في عزو الأسماء إلى مَواطِن في (**جزيرة العَرَب**). وإذن، لم يكن (**بنو إسرائيل**) فقط من عاشوا في **جزيرة العَرَب**، بل إن قِصَّة التاريخ البَشريِّ، الواردة في الرواية التوراتيَّة، تُحيل برمَّتها إلى مَواطِن في الجزيرة! من حيث إن «**التوراة**» كتابٌ يحكي عن **بني إسرائيل في جزيرة**

ذٰلك على مراحل تالية، وتعميمه على النحو الذي اتَّبعه (**الصَّليبي**). وإلَّا فإن (**إل**)، أو (**إيل**)، من أسماء **الآلهةً** لدَى الساميِّين، وكان من أسماء القَمَر (**إل/ إيل**)، وزوجه (**اللَّات**)، الشَّمس. لٰكن (**إل**)، أو (**إيل**)، أصبح يعني «**الله**»، وإنْ اختلفت الدِّيانات في نُطقه؛ اسمًا لـ«**الإلٰه**» المُطْلَق، وهو الإلٰه الذي دعا إليه (**إبراهيم الخليل**). وجاءت أسماء مركَّبة، مثل إسماعيل، وصموئيل، وإسرائيل، وغيرها، مقترنةً بـ(**إيل**)؛ فهي مثل: عبدالله، وخيرالله، وسعدالله، ونحوها. ولقد أشار «**القرآن**» إلى تلك المرحلة المتعلِّقة بالكواكب في عقيدة **إبراهيم**: ﴿**وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً؟! إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِين. وكَذٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِين. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، رَأَىٰ كَوْكَبًا، قَالَ: هَـٰذَا رَبِّي. فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغًا، قَالَ: هَـٰذَا رَبِّي. فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّين. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ: هَـٰذَا رَبِّي؛ هَـٰذَا أَكْبَر. فَلَمَّا أَفَلَتْ، قَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، حَنِيفًا، ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِين.**﴾ (**سورة الأنعام**: الآيات ٧٤- ٧٩). وللشَّبه الظاهري بين رِحلة الخليل التوحيديَّة ورِحلة (**أخناتون**) التوحيديَّة- الداعية إلى (**آتون**)، إلٰه الشمس، وحده لا شريك له- بلغ الأمر ببعض الباحثين إلى الزعم أنهما شخصيَّة واحدة. (انظر كتاب: العدل، سعد عبدالمطلب، **أخناتون أبو الأنبياء**). وأطلقتْ الأُمم الوثنيَّة (**إل**)، أو (**إيل**)، على إلٰهها الوثنيِّ، توهُّمًا أن الإلٰهَ قمرٌ أو شمس. كما فعل (**الكنعانيُّون**) في عبادتهم الإلٰه (**إيل**)، جاعلين له زوجًا اسمها (**عاشيرة**)، وابنًا: (**بعل/ بعليم**)، وبنتًا: (**عانات**). وربما كان أصل (الـ) التعريف: «**إل**» تلك الساميَّة، فكلمة «**البيت**»، مثلًا، أصل معناها: «**بيت الله**»، لا بمعنى إضافته إلى (**الله**)، ولٰكن بمعنى أنه معرَّف بمعرفة **الله**، وكأن المعرفة في الوجود تنتمي إلى **الله**. وستجد مثل هٰذا في الإنجليزيَّة كذٰلك؛ فربما كان أصل The: Theos بالإغريقيَّة، ومنها جاءت ἄθεος (atheos)، أي «**لا إلٰه**»، والمصطلح: Atheism، أي «**اللَّا إلٰه**»، أو الإلحاد. والحقُّ أنَّ بعض مفردات اللغات التي تُسَمَّى الساميَّة هي في الأصل أسماء آلهة، أو أن أسماء الآلهة اشتُقَّت منها- وهو الراجح لأسبقيَّة اللغة على التفكير الدِّيني- مثل (**بعل**)، إلٰه الخِصب، و(**موت**)، إلٰه الموت، و(**يم**) إلٰه البحر. غير أن هٰذا يعود إلى طفوليَّة التاريخ اللغوي، ولا يسوغ أن يُبنَى عليه ما بناه عليه **الصَّليبي** من استنتاجات تتعلَّق بمراحل متأخِّرة جدًّا من التاريخ الإنساني.

العَرَب، كما تخيَّل صاحبنا، ويحكي عن أسلافهم من البشر الذين عاشوا فيها كذٰلك. وتلك «**خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**»، كما سمَّى بها كتابه الثاني. وقد سبقت الإشارة إلى أن هٰذه القصص في الكُتُب المقدَّسة عمومًا إنَّما تُساق من قَبيل ما أُسمِّيه القَصص الاعتباري؛ أي الذي لا تعنيه التفاصيل، بل هو يركِّز على العِبَر المستقاة من خلال نماذج القِصَّة، لا على الأحداث والشخوص.[1]

ومِمَّا يورده (**الصَّليبي**) في هٰذا السياق، مثلًا، ما جاء تحت عنوان «**قِصَّة قايين وهابيل**»، و«**أُسطورة قايين**».[2] وقِصَّة ابنَي (**آدم**) هٰذين معروفة، إذ تُقُبِّل قُربان (**هابيل**)، ولم يُتَقَبَّل قُربان (**قابيل**)، وإذ أدَّت الخصومة بينهما إلى أن قتل **هابيلُ قابيل**. على أن قِصَّة **آدم**، وقِصَّة ابنيه، محض «خرافتَين»[3]، كما يرى المؤلِّف. ولعلَّ المفارقة أنه لم يُتَقَبَّل من **قابيل**- على الرغم مِمَّا يدلُّ عليه اسمه من القبول، أو من القَبَليَّة، والقوَّة المستمدَّة من العصبيَّة، والأرض التي يحرثها ويزرعها- بل تُقُبِّل من أخيه الأصغر **هابيل**، راعي الغنم، المتواضع، المُسالِم، «**الهَبَل**» في النهاية. وقد يكون اسمه أصل هٰذه الصِّفَة في العَرَبيَّة، لكلِّ متواضع من الناس، طيِّب القلب إلى درجة السذاجة.[4] على أن قبول القرابين ليس مرهونًا بمكانة صاحبها، ولا بنوع

---

[1] انظر بحثي: (١٩٩٩)، «*في بنية النصِّ الاعتباري (قراءة جيولوجيَّة لنبإ حيِّ بن يقظان: نموذجًا)*»، (مجلَّة «**أبحاث اليرموك**»، جامعة اليرموك، الأردن، م١٧، ع١، ص ص٩- ٥٢).

[2] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٣٤- ٠٠.

[3] هو لا يُميِّز بين مصطلح «**خرافة**» و«**أُسطورة**». للتمييز بينهما انظر كتابي: (**هِجرات الأساطير**، ٤-٨).

[4] الهَبَل: الثُّكْل، ويُستعار لفقد المَيْز والعقل. (انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ٥: ٢٤٠).

قُربانه، بالضرورة، ولٰكن بأمور أخرى، من مثل صدق النِّيَة، وكيفيَّة التقديم. في حين يرى المؤلِّف وراء اسمَي **قابيل** و**هابيل** غير ذٰلك. فهابيل: «**هو الإلٰه العَرَبي القديم هُبَل**»![1] هٰكذا يزعم. وليس (**هُبَل**) بإلَـٰهٍ عند العَرَب، وإنَّما كان صنمًا من أصنام (**قُريش**)، وقد يُعَدُّ كبير أصنام العَرَب في (**مكَّة**). وهو تعريبٌ للاسم (**أبولُّو** Apollo)، إلَـٰه الشمس والشِّعر والفنِّ في حضارة (**اليونان**) و(**الرومان**)[2]، وإنْ كان يبدو عند العَرَب إلـٰهًا قَمَريًّا.

ثمَّ يُتْبِـع ذٰلك بزعمٍ أغرب، هو أن هناك قريةً في وادي (**بِيشة**) تحمل اسم (**هابيل**)! أمَّا (**قابيل**)، فهو الجَدُّ الأعلى لقبيلة (**القين**)، طبقًا للاسم العِبْري «**قين**»، وهي قبيلة، حسب قوله، وَضِيْعَة، شأنها شأن (**الصُّلَبَة**) في الوقت الحاضر.[3] لم يحدِّد مَن **القَيْن** المذكورون؟ ولعلَّه يقصد: (**بني القَيْن بن جَسْر**)، من (**بني أسد**)، من نسل (**الحاف بن قضاعة**). وقد قيل، في سبب تسمية **القَيْن** بهٰذا الاسم: إن اسمه (**نُعمان**)، وإنه لمَّا وُلِد **لجَسْر** حَضَنَه عبدٌ له، يُقال له **القَيْن**، فغلب عليه هٰذا الاسم.[4] فما علاقة هٰؤلاء **بقابيل**؟! وأنَّى له ما وصفهم به من الوضاعة؟! وإنما كانت وضاعة **القَيْن** عند **العَرَب**؛ لأنه عبدٌ وحدَّاد. أفكان (**بنو القَيْن**) من نسل **قابيل بن آدم**، أم من نسل

---

[1] انظر: الصَّليبي، م.ن، ٣٧.

[2] يُنظر: ابن الكلبيّ، **الأصنام**، ٢٧- ٢٨؛ سفر ومصطفى، **الحَضْر مدينة الشمس**، ١٨؛ ظاظا، **المجتمع العَرَبيُّ القديم من خلال اللغة**، ١٧٨. ويُقارَن: الأنصاري وآخران، **مواقع أَثَرِيَّة**، ٣١- ٣٢.

[3] انظر: الصَّليبي، م.ن.

[4] انظر: ابن حزم، **جمهرة أنساب العَرَب**، ٤٥٣- ٤٥٤.

الحاف بن قضاعة؟! فإنْ كان الأوَّل، فيا للأصل القديم، ويا للقبيلة العريقة!

ترى، بعد هٰذا، أين قبيلة (**هابيل**)؟ أم أين قبيلة (**آدم**) نفسه؟

ألا إنَّ هٰذا التأويل ذاته هو الملهاة الخرافيَّة، ما قال بمثله أحدٌ من العالمين، **عَرَب** أو غير **عَرَب**.

٢٥- شهادة هيرودوت:

إنَّ السؤال الذي يبدو أنَّ المؤرِّخ (**الصَّليبي**) لم يوجِّهه إلى نفسه، أو لعلَّه أصمَّ عنه أذنيه، هو:

إذا كان يزعم أنَّ مملكة (**بني إسرائيل**) قامت في (**عسير**) بين أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ومطلع القرن العاشر، فكيف تصوَّر أن تلك المملكة زالت، وبادت، وامَّحى ذِكرها نهائيًّا وأثرها، كما امَّحت مملكة (**مِصْر**)، «بين **أبها والخميس!**»، وتبخَّر كلُّ تاريخها؟

كيف امَّحى ذٰلك من الذاكرة الأدبيَّة للعَرَب، وامَّحى من الذاكرة الأدبيَّة للعجم، ومن الذاكرة التاريخيَّة للعالَم أجمعين؟

كيف لم يتناهَ إلى أبي التاريخ، المؤرِّخ الإغريقيِّ (**هيرودوت**، -٤٢٥ق.م)، أيُّ أثارةٍ من عِلْم، أو بصيصِ خبر، يشيان بتلك الأحداث الجسام، والتحوُّلات العظام، بما في ذٰلك قيام مملكتَي (**داوود**) و(**سُلَيمان**) في (**عسير**) وانهيارهما؟! عِلمًا بأن **هيرودوت** عاش غير بعيد زمنيًّا، بمقاييس العِلْم التاريخي، عن تلكما المملكتَين

اللتين يشير إليهما (**الصَّليبي**)، فلا يفصله عنهما إلَّا نحو أربعة قرون. بل هو قريب جِدًّا من تاريخ قضاء (**نَبُوخَذْنَصَّر**) على مملكة (**إسرائيل**) «في **عسير!**»، ٥٨٦ق.م. فكيف لم يسمع بما افترضه **الصَّليبي**، ولم تَرِد منه إشارةٌ عنه ولو من بعيد؟

كيف استقام في ذهن الباحث أن (**هيرودوت**)- الذي جاب برحلاته أقطار ما يُسمَّى (**الشرق الأوسط**)- ظلَّ يحدِّثنا عن تاريخ (**مِصْر**) كما نعرف **مِصْر**، في مكانها المعروف من (**وادي النِّيْل**)، بأهراماتها وفراعنتها، دونما ذِكرٍ لمستعمراتٍ مِصْريَّة في (**عسير**)، كادت تطغى بعظمتها على **مِصْر**. بل هي، لو صحَّت، طاغيةٌ بالفعل على تاريخ **مِصْر** في الذاكرة الكتابيَّة. انبثقت فجأةً من قريتها المجهولة المغمورة، التي لا ذِكر لها في الأوَّلين ولا في اللاحقين.

أجل، لقد ظلَّ (**هيرودوت**) يُحدِّثنا عن منطقة (**الشرق الأوسط**)، بأماكنها وقاطنيها، وتوزيعها الجغرافي والسُّكَّاني المعهود. وظلَّ يشير إلى (**الفُرس**)، وإلى (**العَرَب**)، كما نعرفهما، وبما يتماشى إجمالًا مع المعروف تاريخيًّا. لم يسمع قطُّ شيئًا عن مملكة (**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، ولم يعلم شيئًا عن تاريخٍ لهم كان هناك، ولم يمرَّ به خبرٌ عن علاقة «استيطانيَّة» في **جزيرة العَرَب**، لا لـ(**مِصْر**) ولا لغيرها، ولا عن غزوٍ آشوريٍّ استهدف **بني إسرائيل** في أقصَى جَنوب الجزيرة، حدثَ في عصر أبي **هيرودوت**، أو جدِّ **هيرودوت**، إنْ لم يكن هو نفسه قد أدركَ بعضَ دخانه. لئن كان هٰذا العَمَى والصَّمَم والبَكَم قد اعترى **هيرودوت**، فلا شأن له، إذن، بالتاريخ، ولا يصلح أبـًا للتاريخ ولا ابنًا، ولا قيمة لتاريخه، وقد فاتته

التفاتةٌ، ولو عابرةٌ، إلى ما كان يتفجَّر أمام أنفه التاريخي؛ وعلى مسافةٍ منه بالأمس القريب، ممَّا اكتشفه (**الصَّليبي**) بعده بأكثر من ألفَي سنة وخمس مئة.

وأكثر من هٰذا، فقد حَدَثَ- معاصرًا **هيرودوت** تقريبًا- في سنة ٥٢٠ق.م، وهي السنة الثانية من مُلك (**داريوش**) مَلِك الفُرس، أن استأنف (**زَرُبَّابل**) العملَ في إعادة هيكل (**أورشليم**)، (**سِفر عَزْرا، ٥: ١- ٢**)، بمساندة المَلك المذكور.

فأين أُعيدَ بناؤه، يا تُرى؟

أ في (**النماص**)، حيث كانت (**أورشليم**)، بزعم (**الصَّليبي**)؟ ذٰلك أنه يزعم أنه قد دُمِّر الهيكل في **النماص** قبل ذٰلك بقرنٍ من السنين.[1]

كلَّا، بل أُعيدَ بناؤه في مكانٍ آخر، هو (**أورشليم**) المعروف في مدينة (**القُدْس**).

أَمَّحت ذاكرة القوم عن معرفة ديارهم السابقة، وأرضهم المقدَّسة، وعن مكان قُدْس أقداسهم؟! أم انتهت قداسة الأرض الإلٰهيَّة الموعودة لديهم، وأصبح أيُّ مكانٍ يصلح (**أورشليمَ**)، وأيُّ بلدٍ أرضًا مقدَّسة، وأيُّ هيكلٍ هيكلَ (**سُلَيمان**)؟!

أ أصبحوا يقبلون بناء الهيكل في أيِّ مكانٍ والسلام؟!

وكيف عُبِّرَ بـ«**إعادة بناء**»، والهيكلُ الأصل في مكانٍ والهيكلُ المُعاد في مكانٍ آخر؟!

أما وقد أصبح التاريخ مكشوفًا، وصار منذ الحقبة هٰذه مدوَّنًا، وما عاد من

---

(١) انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٣٩.

مجال فيه للقيل والقال، ولا لفراغ التأويلات، ولا سبيل إلى نِسبة التاريخ إلى أرضٍ غير أرضه، فقد كَفَّ (**الصَّليبي**)[1] نهائيًّا عن خيالاته السورياليَّة في (**جزيرة العَرَب**). بل من اللافت أنه أصبح في كتابه «**البحث عن يسوع**»[2]يسمِّي الأشياء بأسمائها، فـ(**فِلسطين**) غدت عنده أرض (**إسرائيل**)، في مقابل أرض السَّبْي، في (**العِراق**). أ فنسي ما قدَّم في كتابَيه السابقَين؟ أم أن غياب المعلومة يفتح باب القراءات التأويليَّة بلا ضوابط؟

لئن غابت المعلومة، فما يُفترض بالعقول أن تغيب!

هٰذا، وإن (**هيرودوت**)[3] ليحدِّثنا، مثلًا، عن بعض ديانات (**العَرَب**) و(**الفُرس**) وعاداتهما، كما نعهدها ميثولوجيًّا. ومن ذٰلك أنها لم تكن **للفُرس** تصوُّرات عن الآلهة، بل كانوا يستحمقون مثل تلك لتصوُّرات؛ لأنهم لم يتخيَّلوا طبيعة الآلهة كطبيعة البشر، على غرار تصوُّرات (**الإغريق**). وبالرغم من ذٰلك فقد كان من عادة **الفُرس** أن يرتقوا قِمم الجبال لتقديم الأضاحي لكوكب (**المشتري**)، الذي كان يعبِّر اسمه لديهم عن السماء كلِّها. كما كانوا يقدِّمون الأضاحي إلى الشمس والقمر والأرض والنار والمياه والرِّياح. وتلك كلُّ آلهتهم التي تحدَّرت إليهم من العصور القديمة. غير أنها نجمتْ لدَى **الفُرس** في حقبةٍ لاحقةٍ عبادة الآلهة (**أورانيا** Urania)، التي اقترضوها من (**العَرَب**) و(**الآشوريِّين**)، والتي

---

(١) انظر: **البحث عن يسوع**، ٢٨– ٢٩.

(٢) انظر: ٣٠.

(3) See: Herodotus, Book 1, Chap. 131.

تُسمَّى لدَى **الآشوريين**: (**ميليتَّا** Mylitta)، ولدَى **العَرَب**: (**اللَّات** Alitta)، ولدَى **الفُرس**: (**ميترا** Mitra).[(١)]

فأين ذهب (**بنو إسرائيل**) العسيريُّون الموحِّدون؟

وأين اختفى ما وصفه (**الصَّليبي**) من اضطلاعهم بنشر دِيانتهم اليهوديَّة التوحيديَّة في أرجاء (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؟!

وفي هٰذا السياق يؤكِّد (**هيرودوت**) أن العَرَب إنَّما كانوا يعبدون آلهتين فقط، هما: (**باخوس/ ديونيسوس** Dionysus)، و(**أورانيا**). قال: وكانوا يُسَمُّون **باخوس** بلغتهم: «Orotal»، ويُسَمُّون **أورانيا**: «Alitta»، (**اللَّات**).[(٢)]

---

(١) هٰذه الآلهة (**أورانيا، وميليتَّا، واللَّات، وميترا**) ترمز إلى (**الشمس**)، بوصفها آلهة الأُنوثة والأُمومة والخِصب. فـ(**أورانيا**) لعلَّها: (**رنية/ رنيا**)، ربَّة الشمس عند العَرَب. (انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٧٧– ١٧٨). و(**ميليتَّا**) تظهر من تسميتها علاقتُها بآلهة العَرَب (**اللَّات**). و(ميترا) هي: «**أمريت**»، أو «**مرت**»، أو «**مريم**»، أو «**ماريا**»، وكلُّها تعني في الساميَّات القديمة: السيِّدة والربَّة والمعبودة، ومنها جاءت كلمة «**مرأة**» أو «**امرأة**»، في العَرَبيَّة. ومن ذٰلك جاء اسم مدينة (**عمريت**)، وهي من أقدم مدن العالم، على الساحل السوري جَنوبي (**طرطوس**)، وفيها معبد لـ(**عشتار**)، وكذا (**ماري**) في الشَّمال السوري. (انظر: م.ن، ٣٠– ٣١). في حين كانت زوجة (**شمش**)- إلٰه الشمس في مدينة (**الحَضْر**) بـ(**العِراق**)- اسمها: (**مرتا**)، أو (**مرتن**)، أي المرأة، إلٰهة الأنوثة، ورمزها كوكب (**الزُّهْرَة**)، كـ(**عشتار**). ذٰلك أن المرأة كانت كاهنة البيت وربَّته ومخصبته، إبَّان العصور الزراعيَّة، التي كان يعمل فيها الرجال خارج البيوت، وتبقى النساء في البيوت، لا بعسفِ الرجال وقمعهم إيَّاهنَّ، بل بسُلطانٍ للمرأة في تلك العصور على الرجل. ففي تلك العصور الأُنثويَّة كان الرجال يعملون ويحاربون ويسعون في مناكب الأرض، فيما كانت المرأة في سُدَّة المُلك والحُكم، أو حتى الأُلوهيَّة، أو رُبوبيَّة البيت، على أقل. ومن هناك جاءت ظاهرة الآلهة المؤنَّثة والمِلكات المتوَّجات. وأمَّا (**اللَّات**)، فربَّة الأُنوثة الشمسيَّة المعروفة في (**جزيرة العَرَب**). (انظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٧٩– ٠٠).

(2) See: Herodotus, Book 3, Chap. 8, 9.

ومن المعلوم أن من آلهة العَرَب التي وصلَ إلينا خبرها: (**رضى أو رضو**)، وكان معبودًا في شَمال (**الجزيرة العَرَبيَّة**) لدَى (**الثموديِّين**)، إلى القرن الأوَّل الميلادي، ولدَى (**التدمريِّين**)، إلى ٢٧٣م تقريبًا، ولدَى (**الصَّفَوِيِّين**) إلى القرن الرابع الميلادي. كما كان هنالك معبودٌ باسم (**رضاء**)، في وسط الجزيرة، لقبيلتَي (**تميم، وطَيِّـئ**)، إلى ظهور الإسلام. فلعلَّ ما وردَ بلفظ «Orotal»، لدَى (**هيرودوت**)، هو إشارة إلى (**الرضى**، أو **الرضو**، أو ربما **الرضاء**). ومعروف أن (**باخوس**) كان إلـٰهًا للخمر والمرح والنشوة؛ ولذٰلك أصبح رمزًا للاحتفالات الصاخبة والمهرجانات البهيجة. وهٰذا ما يتفق مع ما يوحي به اسم الآلهة العَرَبيَّة المسماة **الرضى**. غير أن هٰذه الآلهة العَرَبيَّة كانت ترمز لـ(**الزُّهْرَة**)، أي أنها مؤنَّثة، على حين أن (**باخوس**، أو Orotal) إلٰهٌ مذكَّر؛ فالاحتمال الأقرب أنه رمزٌ قَمَري، في مقابل الرمز الشَّمسي (**أورانيا**: «Alitta»، (**اللَّات**)). يدلُّ على ذٰلك أن **باخوس** كان يظهر في صورة القمر، أو في صورة الثور، أو التيس ذي القرنَين. وهٰذان الأخيران من الرموز القَمَرِيَّة. ومن أسماء الآلهة القَمَرِيَّة عند العَرَب القريبة لفظًا إلى Orotal: (**تالب**)، وعُرِف مقدَّسًا في (**اليَمَن: ريام/ ترعة**)، في عهد مملكتَي (**سَبَأ وذي ريدان**). والاحتمال القَمَري الآخر: (**هكهل**)، وكان مذكورًا في آلهة العَرَب **الثموديِّين**، التي عُثِر على أسمائها في شَمال الجزيرة: (**تيماء، وتبوك، وحائل**)، إلى القرن الأوَّل الميلادي.[1]

---

[1] انظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٢٥٩- ٢٦٤.

ولقد كُنَّا حلَّلنا في كتابنا (**مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٨٨- ٨٩) لوحةً جداريَّةً عُثِر عليها في (**قرية الفاو**) الأثريَّة، قائلين: «**قد تكون [اللوحة] ذات دلالة دِينيَّة، وتمثِّل صورةَ وجهٍ بيضاويٍّ، يُحيط به سوادُ الشَّعر**

←

أمَّا ما يتعلَّق بـ(**اللَّات**)، فقد كانت (**الشمس**)- في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) وما جاورها- أبرز المعبودات من الكواكب، التي اتَّخَذُوا الأصنامَ رموزًا لها: **كاللَّات** رمز الشمس، و(**وَدّ**) رمز القَمَر، و(**العُزَّى**) رمز الزُّهْرَة. وكان رمز (**الشمس- اللَّات**) يُعرَف عند (**اليونان**) بـ«**أورانيا**»- كما ذَكَرَ (**هيرودوت**)- أو (**أفروديت**)[1]. وتُصَوَّر **أورانيا** في التماثيل الميثولوجيَّة الإغريقيَّة امرأةً فاتنة، تحمل بيسارها كُرَةً تمثِّل الأرض، وعصًا في يمينها. وترتبط رمزيَّتها بالأفلاك والسماوات. فرمزيَّتها، إذن، إلى الأنوثة الشمسيَّة والخِصب واضحةٌ لديهم كما هي **اللَّات** لدَى العَرَب.[2]

(=اللَّيل)، بهالةٍ محيطةٍ كهالة قَمَر، وفتاتان تُطعمانه عِنَبًا، بدا كأنه يُتَوِّجُه، فتقتطفانه من فوق رأسه. وقد خُطَّت بإزاء الرسمة عبارة «زكي» بالمُسْنَد، بين قَلبَين عن يمينٍ وشِمال. وكأنَّما هٰذا الوجه ما هو إلَّا كَهْل/ وَدٌّ (القَمَر)، الذي نُقِش رسمه على سفح جبل (طُوَيْق) بالفاو، فارسًا متمنطقًا سيفًا، في يُمناه رمحٌ طويلٌ وفي اليُسرى ما يُشبه حَرْبَة- والفتاتان هما اللَّات وعثتر (=الشمس والزُّهْرَة). أي أن هٰذه اللوحة تمثِّل- بعبارة الحَضْرِيِّين- «المرأ، والمرأة، وابن المرأين»، أو بلغتهم: «مرن، ومرتن، وبر مرين». أمَّا عبارة «زكي» فدُعاءُ مباركةٍ بالخِصب، أي كُنْ في هناءةٍ وتَنَعُّم وخِصب؛ فالزَّكاء في اللغة هو: الخِصب والنَّماء والطُّهر.»
وبإمكاننا الآن الربط بين صورة الرمز القَمَري في تلك اللوحة وبين (**باخوس/ ديونيسوس/** Orotal)، الذي يصوَّر كذٰلك مُمسِكًا رمحًا، متوَّجًا بحِليةٍ تُحيط بها أوراق الكَرْم وحبَّات العنب. وعلى الرغم من أن (**ذا الشَّرَى**) كان يبدو إلٰـهًا شمسيًّا، فقد كان بدَوره إلٰـه خِصبٍ وزراعة- ولا سيما شجرة الكَرْم- عند (**الأنباط**)؛ فهو بمنزلة (**باخوس**) عند (**الإغريق**)، المكلَّل بالغار على رأسه، وقد اقترن عند (**الصَّفَوِيِّين**) كذٰلك بـ(**اللَّات**)، إلَـٰهة الخِصب والشمس، متَّخذين شِعارَه معصرةَ نبيذ. (يُنظر: م.ن، ٨٩).

[1] ويذكر (**هيرودوت**) أن تقصِّيه قد دلَّه على أن أقدم معابد (**فينوس/ أفروديت**) كان في (**عسقلان**)، بأرض (**فِلسطين**)، وأن معبدها في (قبرص) ليس سِوَى تقليدٍ لمعبدها في **عسقلان**. (See: Herodotus, Book 1, Chap. 105). ممَّا يشي بعراقة هٰذه المعبودات المؤنَّثة في ديانات (**الشرق الأوسط**). ويقف الباحث- بعد تسجيل هٰذه الملحوظة- على تصريح **هيرودوت** الأشمل، الذاهب إلى أن أسماء الآلهة الإغريقيَّة، كلَّها أو جُلَّها، جاءت من (**مِصْر**). (See: Herodotus, Book 2, Chap. 50). ومعروفة علاقة **مِصْر بالشرق الأوسط، وبالعَرَب** على وجه الخصوص.

[2] وتُلاحظ هنا علاقة بعض آلهة (**العَرَب**) بآلهة (**الإغريق**). وهو ما تأكَّد من مكتشفات (**قرية الفاو**) الأثريَّة.

وما يعنينا من هٰذا كلِّه هو ما يتبيَّن، بالتاريخ النقلي والأثري، من أن العَرَب ظلُّوا وثنيِّين غالبًا في تلك الحِقب العتيقة، كما عُرِفوا تاريخيًّا، لا يهودًا. وإلَّا فأين ابتلعت الأرضُ الممالك والأديان والأنبياء والرُّسل، فضلًا عن (**مِصْر**) و(**إسرائيل**)؛ حتى صار ذٰلك جميعه نَسيًا منسيًا في (**جزيرة العَرَب**)؟ هٰذا في الوقت الذي زعمَ (**الصَّليبي**) أن دعوة **بني إسرائيل** إلى عبادة (**يَهْوَه**)، إلٰـههم القومي، كانت قد غزت الجزيرة شَمالًا وجَنوبًا وشَرقًا وغَربًا، فتوغَّلت إلى (**اليمامة**)، بل بلغت (**عُمان**)، فدخلت (**ظُفار**)، أو (**صلالة**)، ووصلت (**نِزوة**).[1]

فأين ذٰلك؟

أم أين انتشار اليهوديَّة مع القوافل انطلاقًا من جَنوب غَربي الجزيرة، الذي دندن حوله (**الصَّليبيُّ**)[2] نحوًا من ربع قرن؟! أما هو إلَّا السَّبْيُّ البابلي، وامَّحَى من الجزيرة كلُّ ذٰلك التاريخ السماوي الأرضي بقَضِّه وقضيضه، وإلى الأبد، حتى نَبَشَه لنا **الصَّليبيُّ** مؤخَّرًا؟! وما هو إلَّا السَّبْي البابلي، حتى أصبح تاريخ (**بني إسرائيل**) خارج الجزيرة في بِضع سنين، كأنه لم يتأسَّس فيها، ولم يعش قرونًا متطاولة؟! وأغرب من ذٰلك أنْ انتقلت كلُّ الدِّيار والأسماء والمعاهد والمعابد والمقدَّسات إلى بلاد (**الشام**) و(**الهلال الخصيب**)!

---

[1] انظر مثلًا: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٥٨- ١٥٩، والفصل العاشر من كتابه: **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**، بعنوان «**نبي من عُمان**»، ص٢٨١- ٢٠٠.

[2] انظر مثلًا: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٣١- ٣٣، ٨١، ٨٣.

ويحدِّثنا (**هيرودوت**)(١) أيضًا عن العَرَب واستقلالهم السياسي، وأنهم لم يخضعوا لغيرهم، ولم يَدينوا لـ(**فارس**) بولاء قط، ولم يكونوا يدفعون إليها ضرائب، كسائر الأُمم في قارَّة (**آسيا**)، بل كانوا لبعض ملوكها أصدقاء وأعوانًا في بعض الحروب، وكانوا يُقدِّمون إلى ملكها هديَّةً كلَّ عام، مقدارها ألف طالِنٍ(٢) من البخور. هٰذا إلى جانب بعض المرويَّات غير المعقولة التي ساقها عن حياة العرب وبيئتهم.(٣) ومن التعاونِ العربي الفارسي ما ذَكَرَ عن أحد ملوك العَرَب،

---

(1) See: Herodotus, Book 3, Chap. 9; 88; 91; 97.

(٢) talents، وحدة وزن قديمة.

(٣) ذكرَ (**هيرودوت**) أن بلاد العَرَب تقع في أقصى جَنوب المعمورة. وهٰذا يؤكِّد أنه يعني عَرَب شِبْه الجزيرة لا سِواهم. ووصف زِيَّهم، وأنهم يلبسون الأُزُرَ، أو العباءات الطِّوال، مُثَبِّتين لباسهم حوالي أحقائهم بالأحزمة. كما كانوا يتنكَّبون أقواسًا طِوالًا عن ميامنهم، يجعلونها محنيَّةً إلى الوراء عندما تكون مشدودة الأوتار. وأن بلادهم المَصْدَر الوحيد لـ(**لُبان البخور**) و(**المُرِّ**) و(**السَّنا**)، و(**القِرْفَة**)، و(**الصمغ**)، الذي يسمُّونه (**اللَّاذَن**). ثمَّ شرعَ في وصف حصولهم على هٰذه الموادِّ. مشيرًا إلى تكبُّدهم المشاقَّ في سبيلها، عدا مادَّة **المُـر**. فلجمع **البخور**، يُحرِقون (**صمغ المَيْعَة** styrax)؛ فيُبعِد دخانه (**الأفاعي الطائرة**)، الكثيرة في بلاد العَرَب، التي لولا لُطف الآلهة لأهلكت العالَمَ كُلَّه، بزعم العَرَب. وتلك الأفاعي صغيرة متعدِّدة الألوان، تَحُطُّ على أشجار **البخور**. ولجمع **السَّنا**، يقوم العَرَب بتغطية أجسامهم ووجوههم بجلود الثيران وغيرها من الحيوانات، تاركين فتحات للأعين فقط؛ لأن تلك النبتة تنمو في بُحيرة ضحلة، تَعُجُّ مع شواطئها بكائنات مجنَّحة، تُشبِه (**الخفافيش**) إلى حَدٍّ كبير، شَرِسة تُطلِق أصواتها الصاخبة، وعلى جامعي **السَّنا** حماية أعينهم منها في أثناء جمع **السَّنا**. أمَّا **القِرْفَة**، فيزعمون أنها تجلب عيدانها طيورٌ ضخمةٌ لعمل أعشاشها الطينيَّة على حوافِّ الصخور الجبليَّة التي لا يُمكِن الوصول إليها. لٰكنَّ العَرَب ابتدعوا طريقةً للحصول عليها؛ وذٰلك بأن يقطِّعوا لحوم ثيرانٍ أو حُمُرٍ أو غيرهما من المَيْتَة، ثمَّ يضعونها في أماكن قريبة من أعشاش تلك الطيور؛ فتَنْقَضُّ لحمل قِطَع اللُّحوم إلى أعشاشها. ولثقل ما اختطفتْ من اللُّحوم تسقط من أعشاشها أعواد **القِرْفَة**، فيُسرِع الرجال لالتقاطها، وهم يُصدِّرون **القِرْفَة** إلى مختلف البلدان. وأمَّا **اللَّاذَن**، فهو مادَّة زكيَّة العَرْف، تَعْلَق- كما زَعَمَ- كالصمغ بلِحَى ذُكور الماعز. ويدخل **اللَّاذَن في** صناعة أنواع من العطور، ويُعَدُّ البخورَ الأوَّلَ لدَى العَرَب، الذين تتضوَّع بلادهم بأصناف الطِّيب. وممَّا أضافه من الغرائب أن في بلاد العَرَب نوعين من الغنم، لم تُرَ في بلادٍ أخرى، نوعًا طويل الذَّنَب جِدًّا، لا ←

ولم يُسَمِّه، وعلاقته بـ(**قمبيز**، -٥٢٢ق.م) مَلِك (**فارس**)، وتعاونه معه على غزو (**مِصْر**)، عام ٥٢٥ق.م، في عهد ملكها (**أح مُوْسَى الثانـي/ أمازيـس** Amasis، -٥٢٥/ ٥٢٦ق.م)[١]، وتزويد مَلِكِ العَرَب **قمبيزَ** بالمياه من خلال مَلء عددٍ من القِرَب، مصنوعة من جلود الإِبِل، ونقلها بإبله لإمداد الجيش الفارسي بالمياه. وفي روايةٍ أخرى- بعيدة الاحتمال، كما رأى **هيرودوت**، وإنْ كان لا ينبغي استبعادها- أنه كان في (**جزيرة العَرَب**) نهرٌ عظيمٌ يُسمَّى (**كُريس** Corys)[٢]، يَصُبُّ في (**البحر الإريتيري/ الخليج العَرَبي**)[٣]، فأَعَدَّ مَلِكُ العَرَب أنبوبًا، صُنِع

يَقِلُّ طُولُ ذَنَبه عن ثلاثة أذرع، يحتال الرعاة دون ملامسةِ ذَنَبه الأرضَ وتقرُّحِه بعمل دعامة له مِن تحت الذَّنَب، والنوع الآخر من الغنم عريض الذَّنَب، يَبلغ عرض ذَنَبه ذراعًا. (See: Herodotus, Book 3, Chap. 107- 113; Book 7, Chap. 67).

(١) يُشير (Herodotus, Book 3, Chap. 10) إلى أن (**أح-مُوْسَى الثاني**) مات خلال حملة (**قمبيز**). ولذا فإن تاريخ وفاته هنا تقريبيَّة، بين ٥٢٥ و٥٢٦ق.م.

(٢) لا نعرف نهرًا كان في الجزيرة بهٰذا الاسم. وربما كان المقصود واديًا، كوادي (**الرُّمَّة**). على أنه اكتُشِف فضائيًّا في نهايات القرن الماضي نهرٌ عظيمٌ كان يخترق (**شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**) من غَربها إلى شَرقها، لٰكن الظاهر أن ذٰلك إنَّما كان في العصور الجيولوجيَّة السحيقة. (انظر: الشاذلي، محمَّد، (١٢ أبريل ١٩٩٣م= ١٩ شوَّال ١٤١٣هـ)، ***«العالم المصري فاروق الباز لـ«الوسط»: هٰذه قِصَّة النهر الكبير بين السُّعوديَّة والكويت»***، (مجلَّة **«الوسط»**، ع٦٣، ص ص٧٦- ٧٧). ويمكن الاطِّلاع على ذٰلك عبر «الإنترنت»: https://goo.gl/wjEZ0f). وأقرب لفظٍ محتمَلٍ إلى الاسم الذي أورده (**هيرودوت**) هو «**قَرِيس**»، وهو الماء القارس البرودة، أو الجامد. ومنه قيل: «**سَمَك قَرِيس**». (انظر: الجوهري، (قرس)). فربما كان ثمَّة مصدرٌ مائيٌّ في القرن السادس قبل الميلاد يُعرف باسمٍ كهٰذا.

(٣) ذَكَرَ (هيرودوت): «**البحر الإريتيري**». وهٰذه التسمية يشير بها تارةً إلى (**البحر الأحمر**)، وتارةً إلى (**الخليج العَرَبي**)، (See: Herodotus, Book 1, Chap. 1)؛ بوصفهما امتدادَين لمياه ما يسمِّيه **البحر الإريتيري**. ويعني **بالبحر الإريتيري** ما يُسمَّى اليوم بـ(**بحر العَرَب**)، لمحاذاته أرض (**إريتيريا**). وقد ذكرَ ما يوضِّح مقصوده بهٰذه البحار، (Book 2, Chap. 11). والراجح أن إشارته هاهنا إلى **الخليج العَرَبي**؛ لاحتمال أنه يعني بنهر (**كُريس**) ذٰلك النهر القديم، المشار إليه في الحاشية السابقة، أو وادي (**الرُّمَّة**) ووادي (**الباطن**).

من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات، يمتدُّ من النهر إلى بعض الصهاريج التي احتُفِرت في الصحراء. وكان بين النهر والصهاريج مسافةٌ تُقطَع في اثني عشر يومًا. ويُقال إن المياه جُلِبت عَبر ثلاثة أنابيب مختلفة إلى ثلاثة أماكن منفصلة.

كما امتدحَ (**هيرودوت**)، خلال وصفه العَرَب، وفاءَهم بالعهود، وأنه لا يحترم العهود ويقدِّسها مثل العَرَب، واصفًا طقوسهم في توثيق العهود بالدَّم.[١] وذٰلك بأن المتعاهدَين أو المتحالفَين يَقِفان إلى جانبَي موثِّق العهد بينهما، فيَجرح راحتيهما بحجرٍ حادٍّ في أسفل الإصبع الوُسطى، ثمَّ يأخذ من ثيابهما بعض القِطَع يغمسها في دمهما، فيمسح بها سبعَ قِطَعٍ من الحجارة بينهما، داعيًا في أثناء ذٰلك الآلهتين (**باخوس** Bacchus) و(**أورانيا**). ويوصي المعاهِدُ قومَه وأصحابه بالالتزام التامِّ بما قطعه على نفسه من عهد.[٢]

---

[١] وممَّا ذكره من عادات (**العَرَب**)، ما أشار إليه في سياق المقارنة بين عادات (**البابليِّين**) و(**المِصْريِّين**) من جهة، و**البابليِّين** و**العَرَب** من جهةٍ أخرى؛ قائلًا: إن **البابليِّين** يدفنون موتاهم في العسل**!** ويقيمون على مواتاهم مناحات **كالمِصْريِّين**. وأن البابليَّ إذا أراد معاشرة امرأته جلس أمام مِبْخَرةٍ تتضوَّع بالبخور، وجلست المرأة قُبالته. وفي الفجر يغتسلان، ولا يمسَّان آنية طعامهما قبل الاغتسال. وكأنه يشير هنا إلى الاغتسال من الجنابة. وأن هٰذه الممارسة كانت ملحوظةً كذٰلك لدَى **العَرَب**. (See: Herodotus, Book 1, Chap.198).

[٢] وممَّا ذكَره هنا عن (**العَرَب**) أيضًا أنهم كانوا يحلقون رؤوسهم بطريقة دائرية من الحوافِّ، متَّبعين في ذٰلك الإلٰه (**باخوس**). وقد أدركتُ أنا بعض الفِتيان من بعض بوادي جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) محلوقةً رؤوسهم على تلك الشاكلة. مستبْقين من شَعر الرأس ما يُسمُّونه «**زِعْلَة**»، وهي ذُؤابة في مؤخرة الرأس، و«**مقستير/ مَقْصِيْر**»، وهو غُرَّة شَعر الرأس، التي تُقَصُّ فوق الجبهة، وما عداهما من شَعر الرأس يحلقونه. وهي صورةٌ من بعض قَصَّات الشَّعر الشبابيَّة «الغربيَّة» اليوم. وكانت تستمرُّ حلاقة الرأس بتلك الطريقة حتى يُختَن الفتَى. فلعلَّ هٰذه العادة بقيَّةٌ ممَّا ذكرَ (**هيرودوت**)، وليست محض نمطٍ جماليٍّ في حلاقة الشَّعر.

وتعاوُن مَلِك العَرَب، أو ملوك العَرَب، مع **(قمبيز)** على غزو **(مِصْر)**، عام ٥٢٥ق.م، كان قد سبقه تعاونهم مع المَلِك الآشوري **(أسرحدون)** في حملته على **مِصْر** أيضًا، عام ٦٤٧ق.م، كما وردَ في أحد نصوص هٰذا المَلك.[١] والتلاحم بين **(العَرَب)** و**(الآشوريِّين)** خلال هٰذه الحقبة متواترةٌ أخباره، إنْ بالتعاون أو بالتبعيَّة. حتى إن **(هيرودوت)**[٢] كان يصف المَلِك الآشوري **(سنحاريب،** ٧٠٥- ٦٨١ق.م) بـ«**مَلِك العَرَب والآشوريِّين**»، وذٰلك في حديثه عن غزو **سنحاريب** **(مِصْرَ)**، خلال عهد المَلِك المِصْري **(سيتوس** Sethos).

وهٰذا يعني أن العَرَب كانوا على تعاونٍ استراتيجيٍّ، سياسيٍّ وعسكريٍّ واسع، مع الجبهة الشرقيَّة، فارسيَّةً وعِراقيَّةً، خلال القرنَين السابع والسادس قبل الميلاد. ولذا تثور جملةٌ من الأسئلة:

كيف يستقيم الزعم أنهم كانوا بين ذٰلك وقبله عُرضةً للغزو في عُقر جَنوبهم، منذ القرن التاسع قبل الميلاد، على يد مُلوك **(آشور)** و**(بابل)**؟ وصولًا إلى المَلِك الآشوري **(سرجون الثاني)** الذي غزا **(بني إسرائيل)** «**الشمرانيِّين**»، في عاصمتهم بلاد **(شمران)!**، عام ٧٢١ق.م، واستاق الأعيان من سكَّان **شمران** أُسارَى إلى **(بلاد فارس)**. ثمَّ في عام ٥٨٦ق.م جرى تقويض دولة اليهود نهائيًّا، وتدمير مدينتهم المقدَّسة **(أورشليم-النماص)**، وسبيهم إلى **(بابل)**، على يد المَلِك **(نَبُوخَذْنَصَّر)**؟!![٣]

---

[١] انظر السعيد، ١٢. نقلًا عن: Borger, **Historische Texte**, p.399.

(2) See: Herodotus, Book 2, Chap. 141.

[٣] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٣٩.

←

وما الذي يدفع (**نَبُوخَذْنَصَّر**) إلى غزو أقصَى الجَنوب، والتعاونُ مع الشَّمال قائمٌ على قدمٍ وساق، وعلاقته مع مَلِك العَرَب في الجزيرة تبدو كالسَّمن على العسل؟!

وأيُّ تهديدٍ كان يشكِّله (**بنو إسرائيل**)، ما داموا في أقصَى جَنوب الجزيرة، على دولةٍ في (**العِراق**)، لتقفز متخطِّية الصحراء لغزوهم، مع أن قومهم (**العَرَب**) ليسوا مع **العِراق** في عداء، بل في تعاونٍ استراتيجيٍّ متين؟![1]

والواقع أن مملكة (**إسرائيل**) انقسمت على نفسها بعد وفاة المَلِك (**سُلَيمان**)، فصار قِسمٌ من الأسباط (القبائل) يحكم في الشَّمال، وهم عشرة أسباط، وعليهم (**يربُعام بن نباط**) مَلِكًا، وقِسمٌ يحكم في الجَنوب- في (**أورشليم**) وما جاورها، يتكوَّن من سبط (**يهوذا**) و(**بنيامين**) فقط- وعليه مَلِكٌ آخر. وقد نشبت بين القِسمين حروب. فـ(**سرجون الثاني**) هاجم القِسم الشَّمالي (**مملكة إسرائيل**)، و(**نَبُوخَذْنَصَّر**) أجهز على الجَنوبي (**مملكة يهوذا**). (انظر في هٰذا: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم، ٧٤- ٧٥**).

[1] لم تكن من مصلحةٍ لـ(**نَبُوخَذْنَصَّر**) في أن يغزو جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، ولا تهديدَ عليه من قِبله. غير أن مطامعه التوسعيَّة- ومِن قَبله أبوه (**نبوفالصر**)- كانت في (**العِراق**)، وفي بلاد (**الشَّام**). في (**سُوريَّة**)، التي شكَّلت اتِّحادًا مع (**مِصْر**)، تحت حُكم الفرعون (**نخاو الثاني**)، الذي أعلن الحرب على **العِراق**. وجرت بين هٰذا الاتِّحاد وجيش **نبوفالصر**، بقيادة ابنه **نَبُوخَذْنَصَّر**، موقعة (**قرقميش**) على (**الفرات**)، خسرها المصريُّون، لولا أن **نَبُوخَذْنَصَّر** اضطرَّ إلى الانسحاب لوفاة والده، ٦٠٥ق.م. ثمَّ جاءت حملات **نَبُوخَذْنَصَّر** المضادَّة، بهدف فتح الطريق إلى **مِصْر**، فشنَّ حملته على (**فِلسطين**)، التي كانت تُعَدُّ جزءًا من **سُوريَّة** القديمة، المتَّحدة مع **مِصْر**، وقضى على دولة اليهود فيها، كما جاءت مهاجمته لـ(**صُوْر**)، وغيرها، ومحاولته الفاشلة لغزو **مِصْر**، في عُقر دارها. هٰذا، إذن، هو تاريخ الصراع المعروف في المنطقة، المسجَّل تاريخيًّا، والمسوَّغ سياسيًّا واستراتيجيًّا. (انظر في هٰذا مثلًا: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم، ٤٤- ٤٥**). أمَّا ما يَرِد في بعض كتب التاريخ العَرَبيِّ- مثل (الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك، ١: ٥٥٨**)- من غزو **نَبُوخَذْنَصَّر** بلاد العَرَب، وأن الله سلَّطه عليهم لكُفرهم، فلا دليل عليه، وإنما تبدو وراءه ثلاثة أسباب:

النقل الأعمى عن أخبار الأوائل، ومنها الإسرائيليَّات، بلا دليل أو منطق. والملحوظ أن معظم تراثنا الإخباري- ومنذ ما قبل الإسلام- كان العَرَب يتكئون فيه على اليهود، مصدرًا رئيسًا؛ بحُجَّة أنهم أهل عِلْم وكتاب، والعَرَب أُمَّة أُمِّيَّة، لا عِلْم لها بأخبار الأوائل، فرِحين بما استنسخوه، مسلِّمين بأن التوراتيَّات تاريخٌ لا يأتيه الباطل؛ فتروَّوا بكل خُرافات «**التوراة**» وأساطيرها وترَّهاتها، حتى طفحت به مدوَّناتهم، ولاسيما في التاريخ والتفسير.

←

بل أيُّ قوَّةٍ بابليَّةٍ عُظمَى استطاعت اختراق الصحراء إلى أغوار الجزيرة الجَنوبيَّة، وهو ما عجزت عنه محاولاتٌ لدولٍ أعظم من (**بابل**) بكثير، ليست آخرها حملة الإمبراطور الروماني (**أوغسطس**) الفاشلة، في سنة ٢٤ قبل الميلاد، بقيادة (**إيليوس جالوس**)، على جَنوب الجزيرة؟![1]

تُرى هل تعاونَ العَرَب مع (**نَبُوخَذْنَصَّر**) على هٰذه المهمَّة من غزو بلادهم الجَنوبيَّة، والقضاء على بعض بني جلدتهم، كما تعاونوا مع (**أسرحدون**) و(**قمبيز**) في غزو (**مِصْر**)؟! والعَرَب- كما وصفهم (**هيرودوت**)- أهل الوفاء بالعهود، يحترمونها إلى درجة التقديس، فكيف خاب وفاؤهم هٰكذا للأهل والعشير في (**عسير**)؟!

كلَّا، لا يستقيم بهٰذا كلِّه لا تاريخ ولا جغرافيا ولا منطق.

وإنَّما لتدمير (**أورشليم**) أسبابٌ تاريخيَّةٌ معروفة. وهي أن مملكة (**يهوذا**) كانت بين شِقَّي الرَّحَى: (**مِصْر**) و(**بابل**). يَقتل أهلَها هٰؤلاء تارةً وأولٰئك تارة. فقد حاول (**نَخْو**)، فرعون **مِصْر**، أن يمرَّ من (**فِلسطين**) زاحفًا على (**سُوريَّة**)، ثمَّ على مَلِك (**آشور**)، وصولًا إلى (**الفُرات**)، فوقف مَلِك **يهوذا** (**يُوْشِيَّا بن آمون**)، الذي حكم نحو ٦٣٨ق.م، في

لأسباب دينيَّة، حتى إنهم يصوِّرون تسليط الله طاغيةً ليُهلِك الحرث والنسل، لا لشيء سِوَى أن جماعةً لم تصدِّق نبيًّا من الأنبياء! زاعمين أن نبيًّا ذهب إلى **نَبُوخَذْنَصَّر** ليبلغه أمر الله في شنِّ الغزو على العَرَب وتنفيذ الانتقام منهم، كما ساق (**الطبري**). وهٰذه العقليَّة في تصوير الله وتعامله مع خلقه هي العقليَّة الإسرائيليَّة المعروفة من خلال «**العهد القديم**».

كان **نَبُوخَذْنَصَّر** قد أصبح بطلًا أسطوريًّا شعبيًّا، كثيرًا ما يُستدعَى في القصص التاريخي لتُنسب إليه الأحداث شَرقًا وغَربًا، شَمالًا وجَنوبًا.

[1] See: Strabo, (v. 7), Book 16, Chap. 4: 22- 24.

وعن تلك الحملة، انظر: ملحق هٰذا الكتاب.

طريقه، فقُتِل **يُوْشِيَّا** بمكان اسمه (**مجِدُّو**).[١] وبعد بضع سنين انتصر (**نَبُوخَذْنَصَّر**) على **نَخْو** في (**قرقميش**)، واستولى على **يهوذا**، وجعلها ولايةً من ولايات **بابل**. فسعى (**صِدْقيًّا بن يُوْشِيًّا**)- آخر ملوك **يهوذا** الذي نصَّبه **نَبُوخَذْنَصَّر**، من السنة ٥٩٧ إلى ٥٨٧ق.م- إلى التعاون مع مَلِك **مِصْر** ضِدَّ **بابل**، على الرُّغم من تحذيرات نبيِّهم (**إرميا**، -٥٨٥ق.م). فعَلِم **نَبُوخَذْنَصَّر** بالمؤامرة، فزحف على **أورشليم**، فحاصرها. ولَمَّا تمكَّن من اقتحامها، أحرقها، ودمَّرها تدميرًا. وحُوكِم **صِدْقيًّا**، بعد أن أُدرِك فارًّا إلى شرق (**الأردن**)، فأُدين، وقُتل أولاده أمامه، ثمَّ سُمِلت عيناه، واقتيد المتآمرون- **صِدْقيًّا** وعشرة آلاف من شعبه- إلى **بابل**. ثمَّ أعادهم الملك الفارسي (**قورش**) إلى **أورشليم** بعد مئة عام.[٢]

تلك هي الحكاية.

وفي ختام وقفتنا هٰذه مع شهادة (**هيرودوت**)[٣] نُشير إلى اسمٍ ذكرَه في فصلَين من تاريخه لمدينة كبيرة في أرض الشَّعب (**الفِلسطيني**). حيث ذكرَ أن الأرض الممتدَّة من (**فينيقيا**) إلى حدود مدينة «**قديتس** Cadytis» هي للشَّعب (**الفِلسطينيِّ**)، وأن مدينة (**قديتس**) مدينة واسعة، تضاهي في عظمتها (**سادريس**)، عاصمة (**ليديا**) القديمة- الواقعة غرب (**تركيا**) اليوم- وأن جميع الموانئ في تلك المنطقة من (**الشَّام**)، وصولًا إلى مكان سمَّاه (**جينيسيوس** Jenysus)، هي مُلْكٌ للعَرَب. ومن الباحثين مَن يرى أن اسم «**قديتس**» إشارة

---

(١) انظر: **سِفر الملوك الثاني**، ٢٣: ٢٩- ٣٠.

(٢) انظر: ديورانت، **قِصَّة الحضارة**، ج٢ م١: ٣٥٧، ٣٦٤.

(3) See: Herodotus, Book 2, Chap. 159; Book 3, Chap. 5.

إلى «**القُدْس**»، وأن هٰذا الاسم موغلٌ في القِدَم، وقد جاء لدَى **هيرودوت** تحريفًا في اليونانيَّة عن النطق الآرامي لكلمة «**قُدْس**» بلفظ: «**قديتشا**».[١]

٢٦- شهادة سترابو:

يشير (**سترابو**، -٢٤م)[٢] إلى قيام (**أورشليم**) في (**فِلسطين**)، وإلى أنها «**مدينة اليهود** The metropolis of the Judaeans». وهو يعتمد في كتابه الجغرافي على معارفه، وعلى ما ينقل عن سالِفيه من المؤرِّخين.

وكما رأينا لدَى (**هيرودوت**)، فإن (**سترابو**)[٣] يشير إلى أن (**العَرَب**) كانوا مستقلِّين سياسيًّا، ولم يخضعوا لسُلطةٍ أجنبيَّة، حتى إنهم كانوا الشَّعب الوحيد على الأرض الذي لم يبعث سفراء إلى (**الإسكندر**)[٤]، وإنْ كان في الحقيقة قد أصبح ربَّ العالم. ولَمَّا عَلِم **الإسكندر** أن **العَرَب** إنَّما يَعبدون إلٰهَين- هما: (**زيوس** Zeus) و(**ديونيسوس** Dionysus)- طَمِع في أن يعبدوه هو أيضًا بوصفه ربَّهم الثالث**!** ومع أن **سترابو** لم يُشِر إلى (**اللَّات**)، فإنه- فيما يبدو- كان يشير إليها باسم **زيوس**، بوصفه كبير الآلهة عند (**الإغريق**)، كما كانت **اللَّات** كبيرة الآلهة عند **العَرَب**.

---

[١] انظر: ظاظا، **القدس**، ٨.

[2] See: Strabo, (v. 7), Book 16, Chap. 2: 28.

[3] See: (v. 7), Book 16, Chap. 1: 11.

[٤] Alexander. إشارة إلى (**الإسكندر المقدوني**، -٣٢٣ق.م). والعَرَب يقدِّمون السين في اسمه، فيصبح «**الإكسندر**»: «**الإسكندر**».

وفي ما أورده (**سترابو**)[1] في وصف بلاد (**العَرَب**)، وما ألمح إليه حول (**اليهود**)، ما يدلُّ على أنه لم يكن لليهود من مكان في (**جزيرة العرب**) في عصره، (القرن الأوَّل قبل الميلاد)، وأن تاريخهم المزعوم قبل ذٰلك لا أثر له في ذاكرة المكان وحضارات المنطقة.

ومن جهةٍ أخرى، فإن في ما رواه (**سترابو**) من وصفٍ لبلاد (**العَرَب**) دليلًا أيضًا على أن مملكة (**السبئيِّين**) كانت تتوغل شَمالًا في نفوذها، وربما وصلت إلى أطراف (**الحِجاز**) الشَّماليَّة. وإذا قيل إن ذٰلك كان خلال النِّصف الأوَّل من الألفيَّة الأُولى قبل الميلاد (٥٠٠ ق.م)، أفلم يكن شأنُ **السبئيِّين** كذٰلك خلال القرون السابقة، أو قريبًا من ذٰلك؟ وهو ما يجعل التصوُّر أنها كانت لـ(**سُلَيمان**) مملكةٌ في عُقْر مناطق النفوذ في (**المملكة السبئيَّة**)، بل إلى جوار مركزها الرئيس في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)- ومع هٰذا تجهل إحدى المملكتَين عن الأخرى أكثر ممَّا تعلم- ضَرْبًا من اللا معقول التاريخي.[2]

٢٧- شهادات مانيثو، وأليـنيوس، ويوسيفُس، وابن مُنَبِّه:

إلى نحو ما وردَ عن (**هيرودوت**) من التاريخ القديم المتواتر المعروف نجد لدَى مَن تلاه من المؤرِّخين، كالمؤرِّخ المِصْري (**مانيثو** Manetho، القرن ٣ق.م)، في

---

[1] See: (v. 7), Book 16, Chap. 4: 1- 24.

[2] طالِع في (ملحق هٰذا الكتاب) ترجمتنا لما سجَّله (**سترابو**) حول الموضوع خلال وصفه بلاد العَرَب.

مدوَّناته بعنوان «**تاريخ مِصْر**»[1]، التي يتناول فيها تاريخ (**مِصْر**) و(**بني إسرائيل**) في المَواطن الجغرافيَّة المعروفة.

وكذا لا نُلفي لدَى (**كلاديوس ألينيوس** Claudius Aelianus، -٢٣٥م)[2]، في كتاب «**تاريخه المتنوِّع**» أيَّ لمحةٍ من ذٰلك التاريخ المبتكر الذي أُلهِم به (**الصَّليبي**) على غفلةٍ من التاريخ!

فكيف لم يتفجَّر هٰذا العِلْم اللدُنِّيِّ الجديد حول تاريخ العَرَب المقلوب إلَّا في نهايات القرن العشرين؟!

أم لعلَّ هٰؤلاء المؤرِّخين تآمروا مع (**آل شريم**) في (**النماص**) لإخفاء الحقائق؟!

على أن (**الصَّليبي**) حين يصل إلى (**هيرودوت**) يفسِّر لنا الأمر بأن تدمير المَلِك (**نَبُوخَذْنَصَّر**) مملكة (**يهوذا**)، في (**عسير**) وغَرب الجزيرة، خلال القرن السادس قبل الميلاد، قد قضى على كلِّ شيء. أمَّا وجود إشارات إلى اليهود في (**فِلسطين**)، فإنَّما هو إلى مملكةٍ بديلةٍ قويَّةٍ أُقيمت هناك من قِبَل المهاجرين من

---

[1] See: Manetho, **MANETHO'S HISTORY OF EGYPT**.
(**مانيثو السمنودي**): كاهن مِصْريٌّ، أَلَّفَ كتابه في تاريخ (**مِصْر**) بالإغريقيَّة، نقلًا روائيًّا بالتواتر إلى عصره، أو عن وثائق مكتوبة. وكثيرًا ما نجد اسمه في المراجع العَرَبيَّة: (**مانيتون**). أصله من مدينة (**سمنود**)، بمحافظة الغَربيَّة. عاصر (**بطليموس الثاني**)، نحو ٢٨٠ ق.م، الذي كلَّفه بكتابة تاريخ **مِصْر**. واعتمد على الوثائق التي ضمَّتها دُور الوثائق بالمعابد، ووثائق الحكومات القديمة. فُقِد إنجازه في حريق مكتبة (**الإسكندرية**)، ولم تصل منه سِوَى مقتطفات منقولة، من أهمها ما نقله المؤرِّخ اليهودي (**يوسيفُس**)، في كتابه «**Against Apion**»، الذي يَرُدُّ فيه على كاتب إسكندري اسمه (**إبيون**)، مدافعًا عن تاريخ اليهود في **مِصْر**، مستعينًا بها في مدوَّنات **مانيثو**. (انظر: Manetho, vii؛ فخري، **مِصْر الفرعونيَّة**، ٥٣).

[2] See: Aelian, Claudius, **Various History**.

الجزيرة إلى (**الشَّام**).[1] لٰكن لماذا يقيمون دولتهم البديلة هناك؟! أما كانت ديارهم في **عسير** أَولَى بهم، وآمَن لهم، وأجدر أن يعودوا إليها، لا أن يُلقوا بأنفسهم إلى التهلُكة، بين أيدي أعدائهم؛ فيكونوا بين كمَّاشتَي مَلِك (**مِصْر**) من جانب ومَلِكَي (**بابل**) و(**فارس**) من جانب؟! إنه الغباء بعينه! فلو كانت افتراضات **الصَّليبي** معقولة، لما كان من الحكمة مطلقًا- لا بالقياس إلى إرث (**سُلَيمان الحكيم**)، ولا حتى بالقياس إلى إرث (**هبنَّقة**)- أن يؤسِّسوا مملكتهم في **فِلسطين**، في أحضان أعدائهم! بل أن يعودوا إلى دِيَرَتهم في **عسير**، أرض الآباء والأجداد، والنبوَّات والأنبياء والرسل، أرض الميعاد و(**أورشليم**) المقدَّسة.

ولم يشِر المؤرِّخ اليهودي (**يوسيفُس** Josephus، -١٠٠م)، لا من قريب ولا من بعيد، إلى مزاعم (**الصَّليبي**) حول تاريخ بني قومه من (**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، وإنَّما كان يتحدَّث عن تاريخهم في (**فِلسطين**) و(**مِصْر**). فما منعه من ذٰلك؟! إن **الصَّليبي**[2] حين يرتطم بمثل هٰذا يُصِرُّ على القول إن **يوسيفُس** كان يعرف معرفةً تامَّةً أن أرض **بني إسرائيل** الأصليَّة في مكانٍ آخر، لٰكنه يكتم عِلْمه. وكذا غيره من علماء اليهود كانوا يفعلون. غير أنه لا يخبرنا عن سِرِّ هٰذا الكتمان المُطبِق الذي لم يبُح به للعالم إلَّا هو؟!

ثمَّ لنأتِ إلى مؤرِّخٍ آخر ذي مرجعيَّةٍ يهوديَّةٍ، وهو إلى ذٰلك يمانيٌّ. وما نحسب أن

---

[1] انظر: الفصل المعنون بـ«**النقلة إلى فِلسطين**»، من كتاب (الصَّليبي، **البحث عن يسوع**، ٣٣- ٥٠).
[2] انظر: م.ن، ٣٩.

مثله كان سيفوته ولو طَرَفٌ من التاريخ الطويل جدًّا لـ(**بني إسرائيل**)، الذي زعمه (**الصَّليبي**) في (**جزيرة العَرَب**). إنه (**وَهْب بن مُنَبِّه**)، صاحب كتاب «**التِّيجان**». فلقد ظلَّ **ابن مُنَبِّه**، بخلاف مزاعم **الصَّليبي**، يشير إلى أن مسارح الأحداث، على عهد (**داوود**) و(**سُلَيمان**)، كان مركزها (**الشَّام**) و(**العِراق**). كما يشير إلى غزوات كانت **لبني إسرائيل** تُشَنُّ من بلاد **الشَّام** على **الجزيرة العَرَبيَّة**، وعلى (**مَكَّة**) تحديدًا، مستلئمين بأنصارهم من (**الرُّوم**). مشيرًا إلى مناوشات بينهم وبين عَرَب **مَكَّة** و(**الحِجاز**) عمومًا، من (**الجرهميِّين**) و(**العماليق**). كلُّ ذٰلك وبنو **إسرائيل** قاطنون في بلاد **الشَّام** لا في **جزيرة العَرَب**، فضلًا عن أن يكونوا في جَنوبها وغَربها. ذاكرًا أن بيت المَقْدِس (**أورشليم**) هو في مكانه المعروف تاريخيًّا، وكان موطن قداستهم الأَوَّل منذ القِدَم، لا في أيِّ مكانٍ آخر.[1]

فكيف يُتصوَّر غياب ذٰلك العِلْم «**الصَّليبي**» المستحدَث عن المؤرخ اليهوديِّ الأصل دِيانةً، العَرَبيِّ اليمانيِّ الأصل انتماءً، (**وَهْب بن مُنَبِّه**)؟!

هٰذا، وكنَّا قد رأينا كيف أن (**الصَّليبي**)، حين استشهد ببعض كلام (**ابن مُنَبِّه**)، قد عمل على اقتصاص ما في سياق كلامه من إشارات صريحة إلى أن موطن (**بني إسرائيل**) كان في بلاد (**الشَّام**) منذ كانوا، وأن علاقاتهم بالجزيرة إنَّما كانت علاقات غزوٍ أو تجارة.[2] وذٰلك، للأسف، هو نهج **الصَّليبي** مع ما لا يُعجبه من النصوص، وإن اضطُرَّ إلى الاستشهاد به.

---

[1] انظر: ابن مُنَبِّه، **التِّيجان**، ١٧٨- ٢٠٠.

[2] راجع كلامنا حول ذٰلك في الموضوعَين السابقَين: «**٦- التقوُّل والتدليس**»، «**٧- غزو (بني إسرائيل) للحِجاز وحكاية التابوت**».

وما جاء عن (**وَهْب بن مُنَبِّه**) هو المتواتر على مدى التاريخ، العَرَبيِّ وغير العَرَبي. وهو ما يشير إليه (**الهمداني**) في كتابه «**صفة جزيرة العَرَب**»[1]، نقلًا عمَّا «**أتى عن بطليموس القلوذي في طبائع أهل العمران من الأرض على التبعيض والتجزئة**»، مشيرًا إلى دولتَي اليهود قبل السَّبي البابلي: (**مملكة إسرائيل** في **سُوريَّة**، ومملكة **يهوذا** في **فِلسطين**)، قائلًا:

> «وأما سائر أجزاء هٰذا الربع الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة وما يقع في جزيرة العَرَب منها مثل إيدوما وأرض سُوريَّة وأرض فِلسطين وبلاد اليهود العتيقة من إيليا، وتسمى بالعِبرانيَّة يرشلم، وتعربها العَرَب فتقول أُوراشلم، وبلاد الأعراب الخصيبة، يريد فلاة العَرَب من نَجْد والحجاز والعَروض وبلاد فونِيقا، يريد اليَمَن، وما والى هٰذه البلدان، فإنه يَقبل أيضًا مشاكل المثلث المنسوب إلى ناحية الشمال والدبور وهو مثلث الحمل والأسد والرامي، الذي يدبره المشتري والمرِّيخ وعطارد أيضًا. ولذٰلك صار أهل هٰذه البلدان أكثر تقلُّبًا في التجارة من غيرهم، أصحاب معاملات وأصحاب مكرٍ وغشٍّ، متهاونين للأموال، للسخاء الذي فيهم، ومعهم رجاحة عقل وذكاء وتدبير في الأخذ والعطاء، ويحِبُّون أنفسهم. وهم بالجملة ذوو وجهَين ولسانَين لأجل مشاكلتهم لهٰذه الكواكب، فمَن كان منهم في بلاد سُوريَّة، وهي أرض بني إسرائيل، وبلاد إيدوما، وبلاد اليهود العتيقة، فهم يشاكلون الحمل والمرِّيخ خاصَّة؛ ولذٰلك صار هٰؤلاء متهوِّرين، لا يعرفون الله عزَّ وجلَّ حقَّ معرفته.»

---

[1] ٤٣ - ٤٤.

هٰذا، ويؤكِّد الدارس ما سبق الإلماع إليه من أن الإشكال الجوهري في محاولة (**الصَّليبي**)، وسابقيه ولاحقيه من الباحثين عن الأماكن الواردة في «**التوراة**»، أو «**العهد القديم**»، أنهم لا يلتفتون إلى طبيعة النصِّ نفسه. ذٰلك أنهم، أوَّلًا، يسلِّمون بأن الكتاب المُقدَّس سليمٌ من التحريف والخلط، ويسلِّمون، ثانيًا، أنه مصدرٌ تاريخيٌّ وجغرافيٌّ، ووثيقةٌ لا تنطق إلَّا بالحقائق والمعلومات الزمانيَّة والمكانيَّة. ولا يُسلَّم بتلكما المسلَّمتَين كلتيهما؛ فلقد اعتورتْ الكتابَ الأيدي والتغييراتُ والتبديلاتُ والتلفيقات. ليس «**القرآن**»[1] وحده القائل: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾، بل هٰذا (**سيجموند فرويد**)[2] يقول كذٰلك: إن ذٰلك التحريف ما كان يعني «(**تعديل مظهر شيء ما) فحسب، بل أيضًا (النقل إلى مكان آخر، الانتقال)**.» وهو، إلى ذٰلك، كتابٌ غاصٌّ بالأساطير المجتلبة من هنا وهناك. وهو، نفسه، ذو أسلوبٍ أُسطوريٍّ وبناءٍ شاعريٍّ. بل هو في بعض أجزائه شِعرٌ أُسطوريٌّ خالصٌ، كما في «**نشيد الأنشاد**»، والمزامير، وأضرابهما. والشِّعر لغة الخيال والمجاز والتصوير، لا لغة الإخبار وسرد الحقائق التاريخيَّة والجغرافيَّة. فإذا أُضيفت الأُسطورةُ إلى طبيعة الشِّعر، صِرنا إزاء نصٍّ ملتبسٍ أشدَّ الالتباس، وصرنا إزاء نصٍّ لا يصحُّ أن يُؤخذ مأخذ الحقائق المسلَّمة، ولا المعلومات التحقيقيَّة. وعلاقة المؤرِّخ بنصوص كهٰذه هي- عادةً- علاقةٌ في غاية

---

[1] **سورة النساء**: الآية ٤٦.

[2] ٥٩. وانظر: ٥٦- ٠٠.

السذاجة؛ تنطلق من ذهنيَّةٍ لا تفقه طبيعة النصِّ الذي تتعامل معه أصلًا؛ فقد أَلِفَتْ التعامل مع وثائق نثريَّة، إخباريَّة وتقريريَّة، لا تخييليَّة ولا شِعريَّة ولا أُسطوريَّة؛ حين تقول إن الحدث وقع في مكان كذا، فهو قد وقع هناك، ولم يبق إلَّا أن نحفر لنتقصَّى الحقائق أثريًّا. وذاك هو الضَّلال المبين. من حيث إن القصيدة الشِّعريَّة، وما في حُكمها، وما في شِبه حُكمها، لا تُصبِح مصدرًا تاريخيًّا إلَّا حين تُقرأ قراءةً نقديَّةً تأويليَّةً من متخصِّص في النقد الأدبي. وهي، حتى بعد تلك القراءة، لا تمنحنا الحقيقة التاريخيَّة أكيدةً، وعلى طَبَقٍ من احتمالٍ وحيد. ومن ثَمَّ فإنها لا تصلح وثيقةً تاريخيَّةً إلَّا على سبيل الاستئناس، الذي، ما لم تدعمه شواهدُ أثريَّةٌ ملموسة، بقيَ خيالًا أدبيًّا، يقول ما لا يفعل، ويهيم في كلِّ وادٍ، فيتَّبعه الغاوون من المؤرِّخين! ونحسب أن «**العهد القديم**»، بملاحمه وأناشيده وقصصه وأساطيره، من هٰذا الضَّرب الإشكالي من النصوص. وكما كان يخطئ البلدانيُّون العَرَب في الاعتماد على الشِّعر في تتبَّع الأماكن، يخطئ من يسعى من وراء «**العهد القديم**» إلى تعيين الأماكن التي تَرِد فيه على وجه اليقين.

إن الشاعر- ومن تقمَّص صنعته- كذَّابٌ فنِّيٌّ، حِرفته الكذب. فلقد يذكر في بيتٍ واحدٍ اسمَي مكانَين أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، لا للإخبار عنهما، ولٰكن بوصفهما رمزَين، أو لأنهما موحيان بظِلالٍ دلاليَّة تعتلج في نفسه. وقد لا يعرفهما، ولا يدري أين يقعان بالضرورة.[1] تلك طبيعة الشِّعر الخاصَّة، وما

---

[1] من شواهد ذٰلك ما أورده (الأصفهاني، **الأغاني**، ١٨: ١٣٠- ١٣١)، عن الشاعر (**ابن مناذر**)، الذي ←

شاكله من النصوص. وكذا الطبيعة النصوصيَّة في «**نشيد الأنشاد**»، أو ملاحم (**داوود**)، وأساطير (**بني إسرائيل**)، ونحوها ممَّا أَجْهَد الباحثين في معرفة بيئاته؛ لأنهم إنَّما يحرثون في بحور الشِّعريَّة وسراب الخيال. لم يهتدوا إلى شيء، ولن يهتدوا؛ من حيث جهلوا الفارق النوعي بين الطبيعة الشِّعريَّة وغيرها من طبائع النصوص. أضف إلى هٰذا أن القَصَّاص القديم، أو الإخباري، أو الراوي- وإنْ لم تكن طبيعة نصوصه شِعريَّة- لم يكن بذٰلك الجغرافيِّ المدقِّق، ولا المؤرِّخ الحاذق. فالاضطراب في تحديد المواضع والجهات والأسماء واردٌ عليه جِدًّا. لأن أحدهم إنَّما يأتينا ناقلًا، لا عالمًا بحقائق ما يقول، ولا باحثًا ميدانيًّا. هٰذا مع ضحالة المعرفة، وضآلة القُدرات التوثُّقيَّة في تلك الأزمان. فيقع الخلط والوهم، ويظهر ازدواج الحقيقيِّ بالخياليِّ أو الخرافي. فكيف إذا كان النصُّ فوق ذٰلك كلِّه قد صار مأثورًا شعبيًّا، لعبت فيه عشرات الأيدي والأقلام والرؤوس؟!

قال: «**قلتُ: «يَقدَحُ الدَّهرُ في شماريخ رَضْوَى»، ثمَّ مكثتُ حَوْلًا لا أدري بِمَ أُتَمِّمُه، فسمعتُ قائلًا يقول: هبُّود، قلت: وما هبُّود؟ فقال لي: جُبَيْل في بلادنا، فقلت: «ويَحُطُّ الصُّخورَ من هَبُّودِ». قال إسحاق: وسمِع أعرابيٌّ هٰذا البيت، فقال: ما أجهل قائله بهَبُّود! والله إنها لأُكيمة ما توارى الخارئ، فكيف يحُطُّ منها الصخور؟!**» وقال له آخر: قلتُ له: «**هَبُّود، أي شيء هو؟ فقال: جبل، فقلتُ: سَخِنت عينُك، هَبُّود، والله، بئر باليمامة ماؤها مِلْح لا يَشرب منه شيءٌ خلقَه الله، وقد والله خريتُ فيها مرَّات! فلمَّا كان بعد مُدَّة وقفتُ عليه في مسجد البَصْرَة وهو ينشدها، فلمَّا بلغ هٰذا البيتَ، أنشدها: «ويحُطُّ الصُّخورَ من عَبُّودِ». فقلتُ له: عَبُّود، أيُّ شيءٍ هو ذا؟ فقال: جبل بالشَّام، فلعلَّك، يا ابن [الفاعلة]، خريتَ عليه أيضًا؟! فضحكتُ، ثمَّ قلتُ: لا ما خريتُ عليه ولا رأيتُه، وانصرفتُ عنه وأنا أضحك.**» وممَّن نبَّه إلى هٰذه الظاهرة (ابن رشيق، **العُمدة في صناعة الشِّعر ونقده**، ٢: ١٢١- ١٢٢)، قائلًا: إن «**للشُّعراء أسماء تَخِفُّ على ألسنتهم وتَحْلُو في أفواههم، فهُم كثيرًا ما يأتون بها زُورًا.**»

٢٨- شهادة «العهد القديم»:

إن كُتب التاريخ القديمة شواهد بنقيض ما ذهب إليه (**الصَّليبي**)، مثلما رأينا لدَى (**هيرودوت**)، و(**مانيثو**)، و(**سترابو**)، و(**ألينيوس**)، و(**يوسيفُس**)، و(**ابن مُنَبِّه**)، و(**الهمداني**). ثمَّ لنعُد إلى الكتاب المقدَّس نفسه الذي جاء الرجل ليُؤوِّله تأويلًا جديدًا، متَّخِذًا إيَّاه وثيقة تاريخ، وسنجده شاهدًا عليه لا له أيضًا.

لنأتِ هنا إلى قراءةٍ واقعيَّةٍ أمينةٍ لـ«**العهد القديم**»، بعيدةً عن التأويلات أو التخرُّصات المجَّانيَّة. ها هو ذا بين أيدينا «**العهد القديم**»- على الرغم ممَّا يكتنفه من التباسٍ وغموضٍ أحيانًا- ناطقٌ بالبيئة التي دارت فيها الأحداث التي يرويها. فهو، أوَّلًا، ينقل إلينا جغرافيَّة الأرض المقصودة فيه، من (**البحر الأحمر**) جَنوبًا إلى (**البحر الأبيض المتوسِّط**) شَمالًا، ومن (**صحراء سيناء**) غَربًا إلى نهر (**الفُرات**) شَرقًا: «**وَأَجْعَلُ تُخُومَكَ مِنْ بَحْرِ سُوفٍ إلى بَحْرِ فِلسطين، ومِنَ البَرِّيَّةِ إلى النَّهْرِ.**»[1]

ويشير «**العهد القديم**» في سِفره الأوَّل «**سِفر التكوين**» إلى أصل (**بني إسرائيل**)، وأنهم قَدِموا من (**العِراق**)، واستولوا على (**فِلسطِين**)- أرض (**كنعان**) العَرَبيَّة، التي كانت تمتدُّ من (**غَزَّة**) حتى (**رأس شمرة**) شَمال (**اللاذقيَّة**)[2]- مبرِّرين احتلالهم بوعدٍ إلٰـهي:

---

[1] **العهد القديم**، سِفر الخروج، ٢٣: ٣١.

[2] هٰكذا تُحدِّد (**التوراة**، سِفر التكوين، ١٠: ١٩) أرض (**كنعان**): «**وكَانَتْ تُخُومُ الكَنْعَانِيِّ مِنْ صَيْدُونَ، حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى غَزَّةَ، وحِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَدُومَ وعَمُورَةَ وأَدْمَةَ وصَبُويِيمَ إِلَى لَاشَعَ.**»

«وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ ونَاحُورَ وهَارَانَ. ووَلَدَ هَارَانُ لُوطًا. ومَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلَادِهِ فِي أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ... فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى حَارَانَ وأَقَامُوا هُنَاكَ... وقَالَ لَهُ: «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هٰذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا».»[1]

فأين «**أُور الكلدانيِّين**»؟ وأين «**أرض كنعان**»؟ أفي (**عسير**)، أم في (**جازان**)؟!

وينقل إلينا «**العهد القديم**» من تاريخ (**بني إسرائيل**)- قبل تدمير (**نَبُوخَذْنَصَّر**) (**أورشليمَ**)- ملامحَ تاريخيَّة لا ريب في أنها كانت تدور في بلاد (**الشَّام**)، لا في أيِّ مكانٍ آخر، وتبدو أبعد ما تكون عن (**الجزيرة العَرَبيَّة**). من ذٰلك، على سبيل النموذج، ما يأتي:

ما ساقه عن المَلِك (**سُلَيمان**)- مشيرًا إلى بناء الهيكل والقصر في (**أورشليم- القُدْس**)، وتحالفه مع مَلِك مدينة (**صُوْر**) اللبنانيَّة، المعاصر له (**حِيرام الأوَّل، ٩٣٥- ٩١٩ق.م**)، وتزويده **سُلَيمانَ** بأخشاب الأرز والسَّرو من جبال (**لبنان**). وإرساله الأيدي الفنيَّة والصنَّاع والذهب إلى **أورشليم،** لأعمال البناء والطلاء والزخرفة. وقد منحه **سُلَيمان** لِقاء ذٰلك تنازلًا عن عشرين مدينة في (**الجليل**)، بشَمال (**فِلسطين**). ثمَّ يُعقِب «**العهد القديم**» ذٰلك في (**سِفر الملوك الأوَّل**)[2] بقُدوم ملكة (**سَبَأ**) على **سُلَيمان،** وما دار بينهما:

---

[1] **سِفر التكوين،** ١١: ٢٧- ٢٨، ٣١، ١٥: ٧.

[2] من الإصحاحات ٥، ٧، ٩، ١٠.

«وأَرْسَلَ حِيرَامُ مَلِكُ صُوْرَ عَبِيدَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ... فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ إِلَى حِيرَامَ يَقُولُ: «...وهأَنَذَا قَائِلٌ عَلَى[1] بِنَاءِ بَيْتٍ لاسْمِ الرَّبِّ... والآنَ فَأْمُرْ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزًا مِنْ لُبْنَانَ... لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قَطْعَ الخَشَبِ مِثْلَ الصَّيْدُونِيِّينَ». فَلَمَّا سَمِعَ حِيرَامُ كَلَامَ سُلَيْمَانَ، فَرِحَ جِدًّا... وأَرْسَلَ حِيرَامُ إِلَى سُلَيْمَانَ قَائِلًا: «...أَنَا أَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِكَ فِي خَشَبِ الأَرْزِ وخَشَبِ السَّرْوِ. عَبِيدِي يُنْزِلُونَ ذٰلك مِنْ لُبْنَانَ إِلَى البَحْرِ، وأَنَا أَجْعَلُهُ أَرْمَاثًا فِي البَحْرِ إِلَى المَوْضِعِ الذي تُعَرِّفُنِي عَنْهُ وأَنْقُضُهُ هُنَاكَ، وأَنْتَ تَحْمِلُهُ، وأَنْتَ تَعْمَلُ مَرْضَاتِي بِإِعْطَائِكَ طَعَامًا لِبَيْتِي»... وسَخَّرَ المَلِكُ سُلَيْمَانُ مِنْ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ، وكَانَتِ السُّخَرُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُل. فَأَرْسَلَهُمْ إِلَى لُبْنَانَ عَشَرَةَ آلَافٍ فِي الشَّهْرِ بِالنَّوْبَةِ. يَكُونُونَ شَهْرًا فِي لُبْنَانَ وشَهْرَيْنِ فِي بُيُوتِهِمْ. وكَانَ أَدُونِيرَامُ عَلَى التَّسْخِيرِ. وكَانَ لِسُلَيْمَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَحْمِلُونَ أَحْمَالًا، وثَمَانُونَ أَلْفًا يَقْطَعُونَ فِي الجَبَلِ... وأَمَرَ المَلِكُ أَنْ يَقْلَعُوا حِجَارَةً كَبِيرَةً، حِجَارَةً كَرِيمَةً لِتَأْسِيسِ البَيْتِ، حِجَارَة مُرَبَّعَةً. فَنَحَتَهَا بَنَّاؤُو سُلَيْمَانَ، وبَنَّاؤُو حِيرَامَ والجِبْلِيُّونَ[2]، وهَيَّأُوا الأَخْشَابَ والحِجَارَةَ لِبِنَاءِ البَيْتِ... وأَرْسَلَ المَلِكُ سُلَيْمَانُ وأَخَذَ حِيرَامَ مِنْ صُوْرَ... فَأَتَى إِلَى المَلِكِ سُلَيْمَانَ وعَمِلَ كُلَّ عَمَلِهِ. وصَوَّرَ العَمُودَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ... وعَمِلَ حِيرَامُ المَرَاحِضَ والرُّفُوشَ والمَنَاضِحَ. وانْتَهَى حِيرَامُ مِنْ جَمِيعِ العَمَلِ الَّذِي عَمِلَهُ لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ لِبَيْتِ الرَّبِّ... والقَوَاعِدَ العَشَرَ والمَرَاحِضَ العَشَرَ عَلَى القَوَاعِدِ. والبَحْرَ الوَاحِدَ والاثْنَيْ عَشَرَ ثَوْرًا تَحْتَ البَحْرِ. والقُدُورَ والرُّفُوشَ والمَنَاضِحَ. وجَمِيعُ هٰذِهِ الآنِيَةِ الَّتِي عَمِلَهَا حِيرَامُ لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ لِبَيْتِ الرَّبِّ هِيَ مِنْ نُحَاسٍ

---

(١) قائلٌ على: مُقبِلٌ على.

(٢) (الجِبْلِيُّون): أهل (جبيل/ بيبلوس)، في (لُبنان).

مَصْقُول. فِي غَوْرِ الأُرْدُنِّ سَبَكَهَا المَلِكُ، فِي أَرْضِ الخَزَفِ بَيْنَ سُكُّوتَ وصَرَتَانَ... أَعْطَى حِينَئِذٍ المَلِكُ سُلَيْمَانُ حِيرَامَ عِشْرِينَ مَدِينَةً فِي أَرْضِ الجَلِيلِ. فَخَرَجَ حِيرَامُ مِنْ صُورَ لِيَرَى المُدُنَ الَّتِي أَعْطَاهُ إِيَّاهَا سُلَيْمَانُ، فَلَمْ تَحْسُنْ فِي عَيْنَيْهِ. فَقَالَ: «مَا هٰذِهِ المُدُنُ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي، يَا أَخِي؟» ودَعَاهَا «أَرْضَ كَابُولَ» إِلَى هٰذا اليَوْمِ... وعَمِلَ المَلِكُ سُلَيْمَانُ سُفُنًا فِي عِصْيُونَ جَابَرَ الَّتِي بِجَانِبِ أَيْلَةَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ سُوفٍ[1] فِي أَرْضِ أَدُومَ... وسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَأَ بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ لِتَمْتَحِنَهُ بِمَسَائِلَ. فَأَتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِدًّا، بِجِمَالٍ حَامِلَةٍ أَطْيَابًا وذَهَبًا كَثِيرًا جِدًّا وحِجَارَةً كَرِيمَةً. وأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا. فَأَخْبَرَهَا سُلَيْمَانُ بِكُلِّ كَلَامِهَا. لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مَخْفِيًّا عَنِ المَلِكِ لَمْ يُخْبِرْهَا بِهِ. فَلَمَّا رَأَتْ مَلِكَةُ سَبَأَ كُلَّ حِكْمَةِ سُلَيْمَانَ، والبَيْتَ الَّذِي بَنَاهُ... لَمْ يَبْقَ فِيهَا رُوحٌ بَعْدُ. فَقَالَتْ لِلْمَلِكِ: «...زِدْتَ حِكْمَةً وصَلَاحًا عَلَى الخَبَرِ الَّذِي سَمِعْتُهُ. طُوبَى لِرِجَالِكَ...». وأَعْطَتِ المَلِكَ مِئَةً وعِشْرِينَ وزْنَةَ ذَهَبٍ وأَطْيَابًا كَثِيرَةً جِدًّا وحِجَارَةً كَرِيمَةً. لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِثْلُ ذٰلك الطِّيبِ فِي الكَثْرَةِ... وكَذَا سُفُنُ حِيرَامَ الَّتِي حَمَلَتْ ذَهَبًا مِنْ أُوفِيرَ، أَتَتْ مِنْ أُوفِيرَ بِخَشَبِ الصَّنْدَلِ كَثِيرًا جِدًّا وبِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ. فَعَمِلَ سُلَيْمَانُ

---

[1] (**أَيْلَة**): الميناء الساحلي المحتلُّ من قِبَل الكيان الإسرائيلي، جَنوب (**فِلسطين**)، على (**خليج العَقَبَة**). و(**بحر سُوف**) هنا يؤكِّد ما سبق أن قلناه من أنه إشارة إلى (**البحر الأحمر**)، وأن «**سُوف**» اسمٌ كان يُطلقه كاتب «**التوراة**» على هٰذا البحر بخليجَيه: (**السُّوَيْس**)، الذي روت «**التوراة**» عُبُور (**بني إسرائيل**) ماءه، و(**العَقَبَة**) المشار إليه هاهنا. وفي هٰذا ما يدحض أيضًا ما ذهبت إليه (السقاف، ١٥٤) من أن «**سُوف**» (**بُحيرة المنزلة**). وهي بُحيرة ضحلة تُطِلُّ عليها محافظات (**الدقهليَّة**)، و(**بورسعيد**)، و(**دمياط**)، و(**الشَّرقيَّة**). فأين **المنزلة** من **أَيْلَة (العَقَبَة)**؟! فضلًا عن أنها، كما قالت الباحثة نفسها، ضحضاحٌ مائيّ. أ فكان (**فرعون**) وجنوده ومراكبه قد غرِقوا في «شِبْر ماء»، كما يُقال؟! وأيُّ معجزة في نجاة **بني إسرائيل** إذن؟! إن الغرق في مثل ذٰلك الماء هو المعجزة، لا النجاة من الغرق!

خَشَبَ الصَّنْدَلِ دَرَابَزِينًا لِبَيْتِ الرَّبِّ وبَيْتِ المَلِكِ، وأَعْوَادًا ورَبَابًا لِلْمُغَنِّينَ... وأَعْطَى المَلِكُ سُلَيْمَانُ لِمَلِكَةِ سَبأَ كُلَّ مُشْتَهَاهَا الَّذِي طَلَبَتْ، عَدَا مَا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ حَسَبَ كَرَمِ المَلِكِ سُلَيْمَانَ. فَانْصَرَفَتْ وذَهَبَتْ إِلَى أَرْضِهَا هِيَ وعَبِيدُهَا. وكَانَ وَزْنُ الذَّهَبِ الَّذِي أَتَى سُلَيْمَانَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ سِتَّ مِئَةٍ وسِتًّا وسِتِّينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ. مَا عَدَا الَّذِي مِنْ عِنْدِ التُّجَّارِ وتِجَارَةِ التُّجَّارِ وجَمِيعِ مُلُوكِ العَرَبِ ووُلَاةِ الأَرْضِ... وعَمِلَ المَلِكُ كُرْسِيًّا عَظِيمًا مِنْ عَاجٍ وغَشَّاهُ بِذَهَبٍ إِبْرِيزٍ. ولِلْكُرْسِيِّ سِتُّ دَرَجَاتٍ. ولِلْكُرْسِيِّ رَأْسٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ وَرَائِهِ، ويَدَانِ مِنْ هُنَا ومِنْ هُنَاكَ عَلَى مَكَانِ الجُلُوسِ، وأَسَدَانِ وَاقِفَانِ بِجَانِبِ اليَدَيْنِ. واثْنَا عَشَرَ أَسَدًا وَاقِفَةً هُنَاكَ عَلَى الدَّرَجَاتِ السِّتِّ مِنْ هُنَا ومِنْ هُنَاكَ. لَمْ يُعْمَلْ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ المَمَالِكِ. وجَمِيعُ آنِيَةِ شُرْبِ المَلِكِ سُلَيْمَانَ مِنْ ذَهَبٍ... وجَعَلَ المَلِكُ الفِضَّةَ فِي أُورُشَلِيمَ مِثْلَ الحِجَارَةِ... وكَانَ مَخْرَجُ الخَيْلِ الَّتِي لِسُلَيْمَانَ مِنْ مِصْرَ... وكَانَتِ المَرْكَبَةُ تَصْعَدُ وتَخْرُجُ مِنْ مِصْرَ بِسِتِّ مِئَةِ شَاقِلٍ مِنَ الفِضَّةِ، والفَرَسُ بِمِئَةٍ وخَمْسِينَ. وهٰكَذَا لِجَمِيعِ مُلُوكِ الحِثِّيِّينَ ومُلُوكِ أَرَامَ كَانُوا يُخْرِجُونَ عَنْ يَدِهِمْ.[1]»

أ فنُلغي كتاب (**بني إسرائيل**) هٰذا لنقرأ كتاب (**كمال الصَّليبي**)؟!

ويُلحظ هنا أن «**العهد القديم**» يتحدَّث عن العَرَب بوصفهم أُمَّةً أخرى، مستقلَّةً عن (**بني إسرائيل**): «**وجَمِيعِ مُلُوكِ العَرَبِ ووُلَاةِ الأَرْضِ**». وأنهم كانوا

[1] كانوا يعتقدون أن هٰذا الهيكل أعظم هيكل في عصره، وما ذٰلك إلَّا لأنهم لم يروا غيره، كهياكل أكثر عظمة في (**مِصْر**) أو (**العِراق**)، بل لا يُعَدُّ هيكلهم إلى جانبها شيئًا مذكورًا. (انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٣٥).

يدفعون الأموال لـ(**سُلَيمان**) ويفِدون عليه كغيرهم من الأُمم، كما فعلتْ مَلِكة (**سَبَأ**).[1] ومَقْدم ملكة **سَبَأ** دالٌّ على نأي أراضيها عن أرض **سُلَيمان**، لا أنها مجاورةٌ له. بل لو كان **سُلَيمان** مستوطِنًا في (**عسير**)، لكان في حقيقة الأمر في مملكتها! لأن أرضه داخلةٌ في نطاق ما كان يُسمَّى «**اليَمَن**» في تلك الأيَّام. فكان ينبغي أن يكون تابعًا لها، أو هي تابعة له، لا أن تكون لهما مملكتان عُظميان- بمقاييس ذٰلك الزمان- في منطقة واحدة، ولا يدري أحدهما عن الآخَر، إلَّا بالطَّير، وبمساعدة الجِنِّ والعفاريت، حسب القِصَّة القرآنيَّة! ولذا جاء في «**العهد الجديد**»، «**إنجيل لوقا**»[2]: أن المَلِكة أتت إلى **سُلَيمان** «**مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ**». فكيف يُقال بعد هٰذا إن **بني إسرائيل** كانوا عشيرة من العَرَب البائدة، تعيش في **عسير** وسط محيط من أهلهم العَرَب؟!

وكذٰلك نجد ذِكر العَرَب بعدئذٍ في «**سِفر أخبار الأيَّام الثاني**»[3]، مع مَلِكٍ آخر، هو مَلِك (يهوذا): (**يَهُوشافاط بن آسا**)، الذي حكم (٨٧٥- ٨٥٠ق.م. تقريبًا)، حيث نقرأ: «**وبَعْضُ الفِلسطينيِّينَ أَتَوْا يَهُوشَافَاطَ بِهَدَايَا وحِمْلِ فِضَّةٍ، والعُرْبَانُ أَيْضًا أَتَوْهُ بِغَنَمٍ: مِنَ الكِبَاشِ سَبْعَةِ آلَافٍ وسَبْعِ مِئَةٍ، ومِنَ التُّيُوسِ سَبْعَةِ آلَافٍ وسَبْعِ مِئَةٍ.**» ولمَّا خلَفَ **يَهُوشافاطَ** ابنُه (**يَهُورامُ**) على المُلك، تحالف عَرَبُ (**الجزيرة العَرَبيَّة**)- كما يقصُّ علينا «**العهد القديم**»- مع الفِلسطينيِّين في محاربته.

---

[1] ويتكرَّر ذِكر ذٰلك بتفاصيله في: (**سِفر أخبار الأيَّام الثاني**، الإصحاح التاسع).

[2] ١١: ٣١.

[3] ١٧: ١١.

فجاء: «**وأَهَاجَ الرَّبُّ عَلَى يَهُورَامَ رُوحَ الفِلسطينيِّينَ والعَرَبَ الَّذِينَ بِجَانِبِ الكُوشِيِّينَ**[1]**، فَصَعِدُوا إِلَى يَهُوذَا وافْتَتَحُوهَا، وسَبَوْا كُلَّ الأَمْوَالِ المَوْجُودَةِ فِي بَيْتِ المَلِكِ مَعَ بَنِيهِ ونِسَائِهِ أَيْضًا، ولَمْ يَبْقَ لَهُ ابْنٌ إِلاَّ يَهُوآحَازُ أَصْغَرُ بَنِيهِ.**»[2]

كما يمكن التوقُّف أيضًا مع ما ساقه «**العهد القديم**» عن تاريخ المَلِك (**سُلَيمان**)- مشيرًا إلى علاقته بـ(**مِصْر**)، و(**بعلبك**)، و(**تَدْمُر**)، و(**لبنان**)، والشعوب التي كانت مستوطنةً في بلاد (**الشَّام**)- قائلًا:

> «**وهٰذا هُوَ سَبَبُ التَّسْخِيرِ الَّذِي جَعَلَهُ المَلِكُ سُلَيْمَانُ لِبِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ وبَيْتِهِ والقَلْعَةِ وسُورِ أُورُشَلِيمَ وحَاصُورَ ومَجِدُّو وجَازَرَ. صَعِدَ فِرْعَوْنُ مَلِكُ مِصْرَ وأَخَذَ جَازَرَ وأَحْرَقَهَا بِالنَّارِ، وقَتَلَ الكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي المَدِينَةِ، وأَعْطَاهَا مَهْرًا لابْنَتِهِ امْرَأَةِ سُلَيْمَانَ. وبَنَى سُلَيْمَانُ جَازَرَ وبَيْتَ حُورُونَ السُّفْلَى وبَعْلَةَ وتَدْمُرَ**[3] **فِي البَرِّيَّةِ فِي الأَرْضِ، وجَمِيعَ مُدُنِ المَخَازِنِ الَّتِي كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ، ومُدُنَ المَرْكَبَاتِ ومُدُنَ الفُرْسَانِ، ومَرْغُوبَ سُلَيْمَانَ الَّذِي رَغِبَ أَنْ يَبْنِيَهُ فِي أُورُشَلِيمَ وفِي لُبْنَانَ وفِي كُلِّ أَرْضِ سَلْطَنَتِهِ. جَمِيعُ الشَّعْبِ البَاقِينَ مِنَ الأَمُورِيِّينَ والحِثِّيِّينَ والفِرِزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبُوسِيِّينَ...**»[4]

---

(1) «**الكوشيُّون**» إشارة إلى الأفارقة السُّودان، من الأحباش وما شاكلهم. وكان «**العهد القديم**» يشير إلى عَرَب جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) بخاصَّة، وربما (**الحِجاز**) أيضًا، بأنهم «**بجانب الكوشيِّين**»؛ لأنه لا يفصل بينهم وبين (**أفريقيا**) إلَّا مضيق (**باب المندب**)، أو (**البحر الأحمر**)، الذي كان يُطلَق عليه قديمًا وصف: «**خليج**». ربما أضيف إلى (**العَرَب**)، كما عند (Herodotus, Book 2, Chap. 11)، و(Strabo, (v. 7), Book 15, Chap. 1: 4 ; (v. 8), Book 17, Chap. 1: 1).

(2) أخبار الأيَّام الثاني، ٢١: ١٦- ١٧. وقارن: م.ن، ٢٢: ١.

(3) بناء (**تَدْمُر**) من قِبَل (**سُلَيمان**) هو ما سبقت الإشارة إليه في شِعرِ (**للنابغة الذبياني**، -٦٠٤م).

(4) **سِفر الملوك الأوَّل**، ٩: ١٥- ٢٠.

وقال «**العهد القديم**» عن (**سُلَيمان**)- مقارِنًا إيَّاه بأبيه (**داوود**) في الاستقامة الدِّينيَّة، متطرِّقًا إلى بعض الإمارات المجاورة في بلاد (**الشَّام**)، التي حاربت اليهود، مثل إمارة (**صُوبَة**) الآراميَّة، في (**سُوريَّة**)، وإمارة (**عمُّون**)، في (**الأردنّ**)، ذاكرًا في أثناء ذٰلك أسماء أماكن معروفة إلى اليوم: كـ(**صيدا**)، و(**عمَّان**)، و(**مِصْر**)، و(**دمشق**)-:

«**فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلٰـهَةِ الصَّيدُونِيِّينَ، ومَلْكُومَ رِجْسِ العَمُّونِيِّينَ... وأَقَامَ الرَّبُّ خَصْمًا لِسُلَيْمَانَ: هَدَدَ الأَدُومِيَّ... [ثمَّ إن] هَدَدَ هَرَبَ هُوَ ورِجَالٌ أَدُومِيُّونَ مِنْ عَبِيدِ أَبِيهِ مَعَهُ لِيَأْتُوا مِصْرَ... وقَامُوا مِنْ مِدْيَانَ وأَتَوْا إِلَى فَارَانَ، وأَخَذُوا مَعَهُمْ رِجَالًا مِنْ فَارَانَ وأَتَوْا إِلَى مِصْرَ، إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ... فَوَجَدَ هَدَدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ جِدًّا، وزَوَّجَهُ أُخْتَ امْرَأَتِهِ، أُخْتَ تَحْفَنِيسَ المَلِكَةِ. فَوَلَدَتْ لَهُ أُخْتُ تَحْفَنِيسَ جَنُوبَثَ ابْنَهُ، وفَطَمَتْهُ تَحْفَنِيسُ فِي وَسَطِ بَيْتِ فِرْعَوْنَ... وأَقَامَ اللهُ لَهُ خَصْمًا آخَرَ: رَزُونَ بْنَ أَلِيدَاعَ، الَّذِي هَرَبَ مِنْ عِنْدِ سَيِّدِهِ هَدَدَ عَزَرَ مَلِكِ صُوبَةَ، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رِجَالًا فَصَارَ رَئِيسَ غُزَاةٍ عِنْدَ قَتْلِ دَاوُدَ إِيَّاهُمْ، فَانْطَلَقُوا إِلَى دِمَشْقَ وأَقَامُوا بِهَا ومَلَكُوا فِي دِمَشْقَ. وكَانَ خَصْمًا لإِسْرَائِيلَ كُلَّ أَيَّامِ سُلَيْمَانَ، مَعَ شَرِّ هَدَدَ. فَكَرِهَ إِسْرَائِيلَ، ومَلَكَ عَلَى أَرَامَ.**»[1]

وبعدئذٍ تحدَّثَ عن مَلِكٍ آخر، هو (**المَلِك آسا**)، مَلِك (**يهوذا**)، الذي حكمَ (٩١٢- ٨٧١ق.م)، وتعاملِه مع (**ابن هَدَد الأوَّل بن طَبْرِيمُون بن حَزْيُون**)، مَلِك

[1] م.ن، ١١: ٥، ١٤، ١٧- ٢٠، ٢٣- ٢٥.

(**آرام**) السَّاكنِ فِي (**دمشق**).[1] ويبدو أن مَلِك **آرَام** هٰذا، الذي شنَّ حربًا على مُدُن (**إسرائيل**) وأراضيها، قد توسَّع مُلكُه شمالًا عن **دِمشق**؛ فقد عُثِر على نقشٍ يحمل اسمه في (**حَلَب**).[2] لا في (**عسير**) ولا في (**جازان**)! فإنْ كان مؤلِّف كتاب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» يبحث عن الآثار حقًّا، فها هي تي الآثار شاهدة بضِدِّ افتراضاته المجنَّحة.

وفي السياق نفسه نقرأ: «**فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ والعِشْرِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ زِمْرِي سَبْعَةَ أَيَّامٍ فِي تِرْصَةَ. وكَانَ الشَّعْبُ نَازِلًا عَلَى جِبَّثُونَ الَّتِي لِلْفِلسطينيِّينَ.**»[3]

فأين (**جِبَّثُون**)؟

أليست في قرية (**عنبة**)، المعروفة في لواء المزار الشَّمالي بشَمال غَربي (**المملكة الأردنيَّة**) اليوم؟!

ومن ذٰلك أيضًا ما ساقه «**العهد القديم**» من أخبار المَلِك (**أَخْآب بن عُمْري**)، مَلِك (**إسرائيل**)، الذي بدأ حُكمه ٨٧٥ ق.م تقريبًا. ففيه أن هٰذا المَلِك تزوَّج بـ(**إيزابل**)، ابنة (**أثبعل**)، ملك (**صيدا**) بجنوب (**لبنان**)، وكانت هٰذه المرأة وثنيَّة، تعبد (**الإلٰه بعل**)، فتَبِع مَلِكُ **إسرائيل** دِيانتها. وجرى جَمْع **إسرائيل** كلِّها والوثنيِّين إلى (**جبل الكَرْمَل**)، للنظر في هٰذا الشأن الجَلل، وذٰلك بطلبٍ من النبيِّ (**إيليَّا**). فعاد شعب **إسرائيل** إلى ربِّهم، بعد أن أراهم **إيليَّا** آيةَ ألوهيَّته، ونبذوا

---

[1] انظر: م.ن، ١٥: ١٠، ١٢- ١٣، ١٨.

[2] انظر: ظاظا، **الساميُّون ولُغاتهم**، ٩١.

[3] **العهد القديم**، سِفر الملوك الأوَّل، ١٦: ١٥.

الوثنيَّة؛ «**فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: «أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ البَعْلِ، ولَا يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ». فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرِ قِيشُونَ وذَبَحَهُمْ هُنَاكَ.**»[1] ثمَّ تاب المَلِك (**أَخْآب**) وأناب.[2]

ويُخبرنا «**العهد القديم**» كذٰلك عن مَلِك (**إسرائيل**): (**يربُعام بن يوآش**)، الذي حكمَ (٧٤٦- ٧٨٦ق.م)، أنه «**اسْتَرْجَعَ إِلَى إِسْرَائِيلَ دِمَشْقَ وحَمَاةَ الَّتِي لِيَهُوذَا**».[3]

ويُخبرنا عن مَلِك (**إسرائيل**): (**يَهُورام بن أَخْآب**) في (**السامرة**) وحربه مع مَلِك (**مُوآب**): (**ميشع بن كموش**)، بمؤازرة مَلِك (**يهوذا**): (**يَهُوشافاط**):

> «**ومَلَكَ يَهُورَامُ بْنُ أَخْآبَ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ، فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ لِيَهُوشَافَاطَ مَلِكِ يَهُوذَا... وعَمِلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَي الرَّبِّ، ولٰكِنْ لَيْسَ كَأَبِيهِ وأُمِّهِ، فَإِنَّهُ أَزَالَ تِمْثَالَ البَعْلِ الَّذِي عَمِلَهُ أَبُوهُ... وكَانَ مِيشَعُ مَلِكُ مُوآبَ صَاحِبَ مَوَاشٍ... وعِنْدَ مَوْتِ أَخْآبَ عَصَى مَلِكُ مُوآبَ عَلَى مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. وخَرَجَ المَلِكُ يَهُورَامُ فِي ذٰلك اليَوْمِ مِنَ السَّامِرَةِ وعَدَّ كُلَّ إِسْرَائِيلَ. وذَهَبَ وأَرْسَلَ إِلَى يَهُوشَافَاطَ مَلِكِ يَهُوذَا يَقُولُ: «قَدْ عَصَى عَلَيَّ مَلِكُ مُوآبَ. فَهَلْ تَذْهَبُ مَعِي إِلَى مُوآبَ لِلْحَرْبِ؟» فَقَالَ: «أَصْعَدُ. مَثَلِي مَثَلُكَ. شَعْبِي كَشَعْبِكَ وخَيْلِي كَخَيْلِكَ». فَقَالَ: «مِنْ أَيِّ طَرِيق نَصْعَدُ؟». فَقَالَ: «مِنْ**

---

[1] م.ن، ١٨: ٤٠.

وهٰذه صورة «داعشيَّة» عتيقة، دالَّةٌ على أنْ لا تفاضُل بين الأديان في مثل هذا السلوك الإرهابي.

[2] انظر: م.ن، ١٦: ٢٩- ٣٤.

[3] **سِفر الملوك الثاني، ١٤: ٢٨.**

طَرِيقِ بَرِّيَّةِ أَدُومَ». فَذَهَبَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ ومَلِكُ يَهُوذَا ومَلِكُ أَدُومَ وَدَارُوا مَسِيرَةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ...».[١]

فأين كانت مملكة (**مُوآب**) ومَلِكها؟

الوثائق التاريخيَّة تدلُّنا على أنهما كانا في (**الأردنِّ**)، شَرقيِّ (**البحر الميت**)، لا في (**عسير**) ولا في غيرها من (**جزيرة العَرَب**). وذٰلك من خلال وثيقةٍ مهمَّةٍ جِدًّا، تُعَدُّ من أقدم الوثائق الساميَّة المكتوبة، منقوشة على مسلَّة، عُثِر عليه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، تمثَّلت في نقشٍ جنائزيٍّ طويل، مكتوب بالأبجديَّة الفينيقيَّة، وباللغة الفينيقيَّة والكنعانيَّة، يتضمَّن تاريخ الملك المُوآبي (**ميشع بن كموش**)، وانتصاراته على مملكة (**إسرائيل**)، ومَلِكها (**عُمْري**) وابنه (**أَخْآب**)، ذاكرًا أسماء المدن التي احتلَّها أو بناها. وهو ما يُثبِت أن مَوطنه ومملكته كانا في **الأردنّ**.[٢]

ويُخبرنا «**العهد القديم**» عن مَلِك (**إسرائيل**): (**هُوشَع بن أَيْلَة**). وهم يَعُدُّونه من «صغار الأنبياء»[٣]؛ لأنه، على كلِّ حال، قد تنبَّأ بخراب **إسرائيل**

---

[١] م.ن، من (الإصحاح الثالث).

[٢] انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ٥٧؛ سوسة، ٤٩٨.

[٣] كان أنبياء (**بني إسرائيل**) من الكثرة بلا حصر. على أن كثيرًا منهم، كما يقول (ديورانت، ج٢ م١: ٣٤٩)، كانوا أشبه بالدراويش والمشعوذين والعرَّافين والمتنبِّئين، يسترزقون من الناس بادِّعاء النبوَّة. و(انظر: سيجال، **حول تاريخ الأنبياء في بني إسرائيل**، ٥٥- ٩٤)، الذي يُناقش الفَرْق بين مفهوم «**النبيِّ**» و«**الرائي**»، مشيرًا إلى أن ثمَّة مَن يقول: إن الأوَّل مصطلحٌ متأخِّرٌ في **بني إسرائيل**، توسَّعوا في استعماله، حتى إن (**مُوسَى**)- حسب هٰذا التصوُّر- إنما كان رائيًّا لا نبيًّا؛ فالأصل أن النبيَّ: إنسانٌ ذو مَسٍّ روحاني، وشَطْح، يجرِّده من طبيعته الماديَّة، فيما الرائي: حكيمٌ باطنيٌّ، وعرَّافٌ، متنبِّئٌ بالمستقبل والغيب، من منطلقات معرفيَّة وعِرْفانيَّة. وهو يفنِّد هٰذا القول، مبيِّنًا أطوار تاريخ الأنبياء في **بني إسرائيل** ووظائفهم.

و(**يهوذا**)، للانحلال الخُلقي والعقدي، إلى درجة ممارسة الزِّنَى في المعابد! وكان قد تعرَّض لغزو الآشوريين على يد (**سلما نصر الخامس**)، و(**سرجون الثاني**)، في القرن الثامن قبل الميلاد:

> **«وصَعِدَ عَلَيْهِ شَلْمَنْأَسَرُ مَلِكُ أَشُّورَ، فَصَارَ لَهُ هُوشَعُ عَبْدًا ودَفَعَ لَهُ جِزْيَةً. ووَجَدَ مَلِكُ أَشُّورَ فِي هُوشَعَ خِيَانَةً، لأَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلًا إِلَى سَوَا مَلِكِ مِصْرَ، ولَمْ يُؤَدِّ جِزْيَةً إِلَى مَلِكِ أَشُّورَ حَسَبَ كُلِّ سَنَةٍ، فَقَبَضَ عَلَيْهِ مَلِكُ أَشُّورَ وأَوْثَقَهُ فِي السِّجْنِ. وصَعِدَ مَلِكُ أَشُّورَ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وصَعِدَ إِلَى السَّامِرَةِ وحَاصَرَهَا ثَلاثَ سِنِينَ. فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِهُوشَعَ أَخَذَ مَلِكُ أَشُّورَ السَّامِرَةَ، وسَبَى إِسْرَائِيلَ إِلَى أَشُّورَ وأَسْكَنَهُمْ فِي حَلَحَ وخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ وفِي مُدُنِ مَادِي.»**[1]

وعن (**حَزَقِيَّا بن آحاز**) مَلِك (**يهوذا**)، في الحقبة نفسها، نقرأ: **«وعَصَى عَلَى مَلِكِ أَشُّورَ ولَمْ يَتَعَبَّدْ لَهُ. هُوَ ضَرَبَ الفِلسطينيِّينَ إِلَى غَزَّةَ وتُخُومِهَا، مِنْ بُرْجِ النَّوَاطِيرِ إِلَى المَدِينَةِ المُحَصَّنَةِ.»**[2]

ويتحدث «**العهد القديم**» عن (**يوشيَّا بن آمون**) مَلِك (**يهوذا**)، الذي حكمَ ٦٣٨ق.م تقريبًا، ومقتله من قِبَل فرعون (**مِصْر**): **«فِي أَيَّامِهِ صَعِدَ فِرْعَوْنُ نَخْوُ، مَلِكُ مِصْرَ، عَلَى مَلِكِ أَشُّورَ إِلَى نَهْرِ الفُرَاتِ. فَصَعِدَ المَلِكُ يُوشِيَّا لِلِقَائِهِ، فَقَتَلَهُ فِي مَجِدُّو حِينَ رَآهُ. وأَرْكَبَهُ عَبِيدُهُ مَيْتًا مِنْ مَجِدُّو، وجَاءُوا بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ ودَفَنُوهُ فِي قَبْرِهِ.»**[3]

---

[1] سِفر الملوك الثاني، ١٧: ٣- ٦.
[2] م.ن، ١٨: ٧- ٨.
[3] م.ن، ٢٣: ٢٩- ٣٠.

ثمَّ اقرأ سِفر النبي (**صَفَنْيا بن كُوشِي بن جَدَلْيا بن أَمَرِيَا بن حَزَقِيَّا**)- الذي عاصر مَلِك (**يهوذا**): (**يُوشِيَّا بن آمُون**، ٦٠٩- ٦٤٠ق.م)، أي أنه عاش قبل خراب (**أورشليم**) والسَّبي إلى (**بابل**)- وستجده يذكر بعض المَواطن الفِلسطينيَّة بأسمائها المعروفة إلى اليوم، متنبِّئًا بما سيحلُّ بها من دمار، إذ يقول:

> **«لأَنَّ غَزَّةَ تَكُونُ مَتْرُوكَةً، وأَشْقَلُونَ (عَسْقَلان) لِلْخَرَابِ. أَشْدُودُ[1] عِنْدَ الظَّهِيرَةِ يَطْرُدُونَهَا، وعَقْرُونُ[2] تُسْتَأْصَلُ. وَيْلٌ لِسُكَّانِ سَاحِلِ البَحْرِ أُمَّةِ الكرِيتِيِّينَ! كَلِمَةُ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ: «يَا كَنْعَانُ أَرْضَ الفِلسطينيِّينَ، إِنِّي أَخْرِبُكِ بِلَا سَاكِنٍ». ويَكُونُ سَاحِلُ البَحْرِ مَرْعًى بِآبَارٍ لِلرُّعَاةِ وحَظَائِرَ لِلْغَنَمِ. ويَكُونُ السَّاحِلُ لِبَقِيَّةِ بَيْتِ يَهُوذَا. عَلَيْهِ يَرْعَوْنَ. فِي بُيُوتِ عَسْقَلان عِنْدَ المَسَاءِ يَرْبُضُونَ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلٰهَهُمْ يَتَعَهَّدُهُمْ ويَرُدُّ سَبْيَهُمْ. «قَدْ سَمِعْتُ تَعْيِيرَ مُوآبَ وتَجَادِيفَ بَنِي عَمُّونَ الَّتِي بِهَا عَيَّرُوا شَعْبِي، وتَعَظَّمُوا عَلَى تُخُمِهِمْ. فَلِذٰلك حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ رَبُّ الجُنُودِ إِلٰهُ إِسْرَائِيلَ، إِنَّ مُوآبَ تَكُونُ كَسَدُومَ وبَنِي عَمُّونَ كَعَمُورَةَ، مِلْكَ القَرِيصِ، وحُفْرَةَ مِلْحٍ، وخَرَابًا إِلَى الأَبَدِ... ويَمُدُّ يَدَهُ عَلَى الشَّمَالِ ويُبِيدُ أَشُّورَ، ويَجْعَلُ نِينَوَى خَرَابًا يَابِسَةً كَالقَفْرِ.»**[3]

وينصُّ «**العهد القديم**» على أن المسبيِّين «**رجعوا**» إلى (**أورشليم/ القُدس**)، التي كانوا فيها قبل السَّبي، ولم «**يذهبوا**» إليها ابتداءً، أو لم يكن لهم بها سابق

---

[1] (**أشدود**): ميناءٌ فِلسطيني معروف باسمه إلى اليوم.

[2] (**عقرون**): إحدى المدن الكنعانيَّة الفِلسطينيَّة إلى الجَنوب الغَربي من (**القُدس**).

[3] **سِفر صَفَنْيا**، ٢: ٤- ٩، ١٣.

تاريخ. فجاء في «**سِفر نَحَمْيا**»[1]: «**هٰؤلاء هُمْ بَنُو الكُورَةِ الصَّاعِدُونَ مِنْ سَبْيِ المَسْبِيِّينَ الَّذِينَ سَبَاهُمْ نَبُوخَذْنَصَّرُ مَلِكُ بَابَلَ ورَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ويَهُوذَا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ.**»

وقد استمرَّ العداءُ بين العَرَب واليهود- الذي رأيناه قبل السَّبي، في عهد مَلِك يهوذا (**يَهُورام**)- بعد السَّبي أيضًا. فيتطرَّق «**سِفر صَفَنْيا**»[2] إلى تحالُف الملك العَرَبي (**جُشَم**) مع ملوك (**حَوْرَان**) و(**عمَّان**) و(**أشدود**) ضدَّ اليهود ومدينتهم (**أورشليم**) إبَّان إعادة بنائها. قال: «**ولَمَّا سَمِعَ سَنْبَلَّطُ وطُوبِيَّا والعَرَبُ والعَمُّونِيُّونَ والأَشْدُودِيُّونَ أَنَّ أَسْوَارَ أُورُشَلِيمَ قَدْ رُمِّمَتْ والثُّغَرَ ابْتَدَأَتْ تُسَدُّ، غَضِبُوا جِدًّا.**»[3] وهٰذا يدلُّ على حقيقة المكان المُسمَّى **أورشليم**، من حيث جاءت الإشارة إلى «**العَرَب**» ومَلِكهم **جُشَم** بوصفهم جنسًا قائمًا بذاته، إلى جانب الأعراق الأخرى والملوكِ الآخَرين المجاورين **لأورشليم**. وهٰذا، إذن، ليس بحديث عن مكانٍ في (**شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**)، حيث العَرَب هم العِرق الوحيد ذو السيادة فيها. وإذا كان هٰذا هو الحال بعد السَّبي، فقد كان كذٰلك قبله. وتصوُّر تأسيس تاريخٍ جديدٍ بعد السَّبي، ومدينةٍ مقدَّسةٍ أخرى شاميَّةٍ بعد مدينةٍ مقدَّسةٍ يمانيَّة، ليس سِوَى فرارٍ بائسٍ من المأزق التاريخي في مواجهة الحقائق، بلا دليلٍ أو منطقٍ، في الآخرة أو الأُولى.

---

[1] ٧: ٦.

[2] انظر: ٢: ١٩، ٤: ١-٨، ٦: ١-٩.

[3] م.ن، ٤: ٧.

ويأتي، في هٰذا السياق، (**سِفر حزقيال**) ليُلقي الضوء أكثر على علاقات الجوار والصراع التاريخي بين (**بني إسرائيل**)- بمملكتَيهم (**إسرائيل ويهوذا**)- و(**بابل**)، من جهة، وبينهم و(**مِصْر**)، من جهةٍ أخرى، من خلال مثال الزانيتَين (**أُهُولَة**) و(**أُهُولِيبَة**)، اللتين ترمزان إلى (**السَّامرة**) و(**أورشليم**):

«وكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. واسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الكَبِيرَةُ، وأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وكَانَتَا لِي، ووَلَدَتَا بَنِينَ وبَنَاتٍ. واسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ». وزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلَاةً وشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الخَيْلَ. فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ولَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. لِذٰلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وبَنَاتِهَا، وذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا.

«فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذٰلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا. عَشِقَتْ بَنِي أَشُّورَ الوُلَاةَ والشِّحَنَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ أَفْخَرَ لِبَاسٍ، فُرْسَانًا رَاكِبِينَ الخَيْلَ كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ. فَرَأَيْتُ أَنَّهَا قَدْ تَنَجَّسَتْ، ولِكِلْتَيْهِمَا طَرِيقٌ وَاحِدَةٌ. وزَادَتْ زِنَاهَا. ولَمَّا نَظَرَتْ إِلَى رِجَالٍ مُصَوَّرِينَ عَلَى الحَائِطِ، صُوَرُ الكَلْدَانِيِّينَ مُصَوَّرَةً بِمُغْرَةٍ، مُنَطَّقِينَ بِمَنَاطِقَ عَلَى أَحْقَائِهِمْ، عَمَائِمُهُمْ مَسْدُولَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. كُلُّهُمْ فِي المَنْظَرِ

رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ شِبْهُ بَنِي بَابِلَ الكَلْدَانِيِّينَ أَرْضُ مِيلَادِهِمْ، عَشِقَتْهُمْ عِنْدَ لَمْحِ عَيْنَيْهَا إِيَّاهُمْ، وأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلًا إِلَى أَرْضِ الكَلْدَانِيِّينَ. فَأَتَاهَا بَنُو بَابِلَ فِي مَضْجَعِ الحُبِّ ونَجَّسُوهَا بِزِنَاهُمْ، فَتَنَجَّسَتْ بِهِمْ، وجَفَتْهُمْ نَفْسُهَا. وكَشَفَتْ زِنَاهَا وكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي، كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. وأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. وعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِم الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الحَمِيرِ ومَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الخَيْلِ. وافْتَقَدْتِ رَذِيلَةَ صِبَاكِ بِزَغْزَغَةِ المِصْرِيِّينَ تَرَائِبَكِ لأَجْلِ ثَدْيِ صِبَاكِ.

«لأَجْلِ ذٰلِكَ يَا أُهُولِيبَةُ، هٰكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُهَيِّجُ عَلَيْكِ عُشَّاقَكِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ، وآتِي بِهِمْ عَلَيْكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ: بَنِي بَابِلَ وكُلَّ الكَلْدَانِيِّينَ، فَقُودَ وشُوعَ وقُوعَ، ومَعَهُمْ كُلُّ بَنِي أَشُّورَ، شُبَّانُ شَهْوَةٍ، وُلَاةٌ وشِحَنٌ كُلُّهُمْ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ وشُهَرَاءُ. كُلُّهُمْ رَاكِبُونَ الخَيْلَ. فَيَأْتُونَ عَلَيْكِ بِأَسْلِحَةٍ مَرْكَبَاتٍ وعَجَلَاتٍ، وبِجَمَاعَةِ شُعُوبٍ يُقِيمُونَ عَلَيْكِ التُّرْسَ والمِجَنَّ والخُوذَةَ مِنْ حَوْلِكِ، وأُسَلِّمُ لَهُمُ الحُكْمَ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْكِ بِأَحْكَامِهِمْ... وأُبَطِّلُ رَذِيلَتَكِ عَنْكِ وزِنَاكِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَلَا تَرْفَعِينَ عَيْنَيْكِ إِلَيْهِمْ ولَا تَذْكُرِينَ مِصْرَ بَعْدُ...».[1]

فأين كان سرير هٰذه الفواحش، التي لا يستحي الكاهن **(حزقيال)** أن يصفها، إنْ مجازًا أو حقيقة؟

أسماء المَواطن في هٰذا السِّفر شاهدةٌ بجلاء على مسرح ذٰلك التاريخ، وأسماء الشعوب والأُمم شاهدةٌ على أماكن تلك الأحداث.

---

[1] **سِفر حزقيال**، (من الإصحاح الثالث والعشرين).

٢٩- شهادات الحوليَّات الآشوريَّة، والكتابات الكنعانيَّة والسُّوريَّة:

تعال لنذهب بعيدًا، إلى وثائق قديمة ومحايدة تطرَّقت إلى **(بني إسرائيل)** وإلى علاقاتهم بغيرهم من الشعوب المجاورة، وذٰلك كالحوليَّات الآشوريَّة، وسنجدها كذٰلك شاهدة على **(الصَّليبي)** لا له. فلقد وردَ في الكتابات الآشوريَّة، التي عثر عليها الآثاريُّون فوق نُصب في عاصمة **(آشور)**: **(كالخو/ كلخ)**- **(النَّمْرُود)** حاليًّا، جَنوب **(الموصل)**- ضِمن ما كتبه مَلِك **(آشور)**: **(سلما نصر الثالث)**، تخليدًا لانتصاراته الحربيَّة: أن مَلِك **(إسرائيل)**، واسمه **(أَخْآب)**، أرسل **(ألفي مركبة)**، و(عشرة آلاف من المُشاة)، ليشتركوا مع جيش مملكة **(دمشق)** الآراميَّة، ومَلِكها **(هَدَد عَزَرَ** Hadad-ezer)[١]، ومملكة **(حماة)**، الآراميَّة، ومَلِكها **(إرحوليني** Irhuleni)؛ فشكَّل الثلاثة حِلفًا حربيًّا شاميًّا ضدَّ مَلِك **آشور**، الذي كان يُهدِّد بلاد **(الشام)** و**(مِصْر)**.[٢] ويذكر مَلِك **آشور** أنه قد انضمَّ إلى ذٰلك

---

(١) هٰكذا وردَ اسم هٰذا المَلِك في ما نُقل عن سِجلَّات المَلِك الآشوري. على حين نجد أن **(هَدَد عَزَرَ)** في «**التوراة**» كان معاصرًا للمَلِك **(داوود)**، أي قبل هٰذه الأحداث بقَرنٍ وزيادة! ومَلِك الآراميِّين الدمشقيِّين المعاصر لمَلِك **(إسرائيل)**: **(أَخْآب)** اسمه في «**التوراة**»: **(بَنْهَدَد)**، أي **(ابن هَدَد)**. ويُلحظ أن (ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ٤٢) يسمِّيه «**أداد إيدو**»، ويتحدَّث عن **هَدَد عَزَر** على أنه معاصر للمَلِك **داوود**، كما ورد في «**التوراة**». (انظر: م.ن، ٩٠). فإذا صحَّ النقل عن الوثيقة الآشوريَّة، فهي أوثق من غيرها؛ لأنها دُوِّنت خلال تلك الأحداث، ومن المستبعَد أن يجهل المَلِك الآشوري أسماء الملوك الذين حاربوه.

(٢) كانت هٰذه الأحداث تقع في غضون الصراع التاريخي على النفوذ في منطقة **(الهلال الخصيب)**. ذٰلك الصراع ثلاثيُّ الأقطاب، بين (الدُّول الأكاديَّة اللغة، الساميَّة الجذور، القادمة غالبًا من **شِبه الجزيرة العَرَبيَّة** إلى **العِراق**: **بابل** و**آشور**)، من جهة، و**(مِصْر)**، من جهةٍ أخرى، و**(فارس)**، من جهةٍ ثالثة. وفي ←

الحِلف مَلِك العَرَب (**جِنْدِبُ** 'Gindibu)[1]، بألف جَمَّال. ويفتخر المَلِك **سلما نصر الثالث** بأنه انتصر على هٰذا التحالف في معركة «**قرقر** Karkar»- لعلَّه (**تل قرقور**) على نهر (**العاصي**)، بالقرب من **حَماة**- وذٰلك نحو عام ٨٥٣ق.م.[2]

أ فكان ذٰلك التاريخ الذي يُسجِّله الكتاب المقدَّس، وهٰذا الذي تُسجِّله سِجلَّات الحوليَّات الآشوريَّة، يدور في منطقتَي (**عسير**) و(**جازان**) حقًّا؟!

ولَيسَ يَصِحُّ في الأَفهامِ شَيءٌ ... إِذا احتاجَ النَّهارُ إِلى دَليلِ!

وممَّا يدلُّ على الأعراق التي كانت تستوطن بلاد (**الشَّام**) في الألف الثاني قبل الميلاد تلك اللوحات المسماريَّة التي عثر عليها الأثريُّون، عام ١٨٨٧، في (**تلِّ العمارنة/ أخت أتون**)، في شَمال صَعيد (**مِصْر**)، وترجع إلى القرنَين الخامس عشر

النهاية اكتسح (**الفُرس**) الجناح العِراقي من **الهلال**، ومنذ وقتٍ مبكِّر، ثمَّ اكتسح (**الرُّوم**) الجناح الشَّامي، ولم يعودا ساميَّين عَرَبيَّين مستقرَّين إلَّا على عهد (**عُمر بن الخطَّاب**).

[1] الجُنْدَبُ والجُنْدُبُ والجِنْدَب: ضَرْبٌ من الجَراد. وقيل: هو الصَّدَى الذي يَصِرُّ. وقيل: إنه إذا رَمِضَ طار، فَتَسْمَع لرجلَيه صَرِيرًا. (انظر: ابن منظور، (جدل)). ولعلَّهما ضربان مختلفان من الجراد. أمَّا الحشرة التي تَصِرُّ، فنُسمِّيها في لهجات (**فَيْفاء**): «**صَرَّار الغُبْرَة**»؛ لا تَصِرُّ إلَّا في موسم الغُبْرَة في قيض الصيف. وهي تَصِرُّ ليلًا ونهارًا. ويزعمون أنها تَصِرُّ حتى تنشقَّ إلى نصفَين. لم أرها قط، ولم أسمعها في غير المناطق الجَنوبيَّة من (**السُّعوديَّة**)، غير أني أظنها الصَّرَّار المسمَّى «**الصَّدَى**» في مدوَّن العَرَبيَّة. وكأنها المذكورة في قول (الأعشى، **ديوانه**، ٩٧/ ٣١):

قَطَعْتُ إِذا سَمِعَ السامِعو ... نَ لِلجُندُبِ الجَونِ فيها صَريرا

أمَّا زعمهم أن الصَّرير صوتُ رجلَي ذٰلك الجندب، فيبدو وهمًا من الأوهام. والشاهد أن جندب من أسماء العَرَب. ولعلَّ «**جِنْدِب**»- كما ورد في النص الآشوري- لغةٌ رابعةٌ في هٰذا الاسم، إلى جانب: جُنْدَبُ، وجُنْدُبُ، وجِنْدَب، التي سجَّلها اللغويُّون العَرَب.

[2] See: Luckenbill, **Ancient Records of Assyria and Babylonia**, v1: XII. Shalmaneser III, 611, p. 223.

والرابع عشر قبل الميلاد. وهي مكتوبة بالأكاديَّة والكنعانيَّة. وتتضمَّن مراسلات إلى فراعنة **مِصْر** من بعض ولاة الكنعانيِّين وحكَّامهم في **(سُوريَّة)** و**(فِلسطين)**. وتتطرَّق تلك المراسلات إلى شعوب إقليم **(الهلال الخصيب)**، مع الشكوَى من شنِّ تلك الشعوب غزوات على الكنعانيِّين. ذاكرةً من بينهم: **(الأموريِّين)**، و**(الحيثيِّين)**، و**(الحابيرو/ الهابيرو/ الآبيرو/ العابيرو)**، الذين يذهب بعض الباحثين وعلماء «**العهد القديم**» إلى أن المقصود بهم **(العبريُّون)**.[1]

وإذا رجعنا كذٰلك إلى النقوش المعثور عليها في النصف الأوَّل من القرن العشرين، في **(رأس شمرة)**- الواقعة في المدينة المعروفة بـ**(أوغاريت)**، شَمال ميناء **(اللاذقيَّة)** السُّوري، وهي تعود إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد- وجدناها تشير إلى ما يُفهم منه أن **(الكنعانيِّين)** عاشوا حينًا من الدَّهر في جَنوب **(فِلسطين)**، في **(صحراء النَّقَب)**، وأنهم مهندسو المدن في تلك المنطقة، مثل: **(بئر سبع)**، و**(أشدود)**، المتردِّد ذكرهما في «**التوراة**». وقد استمرَّت سُلطة **الكنعانيِّين** على هٰذا الإقليم إلى القرن السابع قبل الميلاد.[2] على حين يتجاهل **(الصَّليبي)** كلَّ هٰذا، محاولًا إقناعنا في كتبه أن **بئر سبع**: هو **(حي شباعة)** في **(خميس امْشيط)**، وأن **صحراء النَّقَب** هي **(ظهران الجنوب)!** وكان بإمكانه أن يُضيف، إذن، أن المقصود بـ«**أرض جاسان**»[3]: «**أرض جازان**»، كي تكتمل الطَّرافة التأويليَّة!

---

[1] انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٢٣؛ ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ٤٨.

[2] انظر: ظاظا، م.ن، ٤٨- ٥٠.

[3] **(جاسان)**: حسب **(التوراة**، سِفر الخروج، ٨: ٢٢، ٩: ٢٦)، مَوطِن شَعب **(إسرائيل)** في **(مِصْر)**، ربما في ←

٣٠- شهادة العاديَّات المِصْريَّة:

يذهب بعض المؤرِّخين إلى أن (**بني إسرائيل**) هبطوا (**مِصْر**) في إثر سيطرة (**الهكسوس**)[١] عليها، وأن هٰؤلاء الآسيويِّين الساميِّين قد وفَّروا للإسرائيليِّين بعض الحماية. ويُرجَّح أن هبوط **الهكسوس مِصْرَ** كان عام ١٦٥٠ق.م، وأن خروجهم كان ١٢٢٠ق.م، استنادًا إلى ما وردَ في «**التوراة**» من أن إقامتهم في **مِصْر** استمرَّت ٤٣٠ سنة.[٢] وهٰذا ما سنبحث أمره لاحقًا. ولعلَّ هٰذه الخلفيَّة تفسِّر لنا اضطهاد العِبرانيِّين من قِبَل المِصْريِّين بعد تحرير **مِصْر** من **الهكسوس**؛ إذ عدَّوهم جزءًا من أولٰئك الغزاة، أو متعاونين معهم، أو أنهم كانوا يحظون في عهدهم برعاية ومكانة.

ويذكر المؤرِّخ المِصْري (**مانيثو** Manetho، القرن ٣ ق.م)[٣]، أن (**مُوسَى**) كان كاهنًا مِصْريًّا. قال: وكان قد فشا بين (**بني إسرائيل**)، المستعبَدين الملِقين، وباءُ الجُذام، فخرج الكاهن **مُوسَى** مبشِّرًا فيهم، ومعلِّمًا إيَّاهم قواعد النظافة

الشَّمال الشَّرقي على الحدود إلى (**سيناء**). فالدارسون يذهبون إلى أنه يقع في المكان المعروف بـ(**وادي الطميلات**)، الممتدُّ من شَرق (**الزقازيق**) إلى غَرب (**سيناء**).

(١) اختُلف في أصل (**الهكسوس**). وأغلب الظَّنِّ أنهم أقوام من عَرَب شَمال (**الجزيرة العَرَبيَّة**) و(**العِراق**) و(**الشَّام**)، كما تشي بذٰلك أسماؤهم والجِهة التي غزو منها (**مِصْر**). وقد وُصِفوا عادةً بأنهم بَدْوٌ رُعاة وفُرسان خَيْل. وتقنيتهم الحربيَّة التي جلبوها إلى مِصْر، المتمثِّلة في العَرَبات الحربيَّة التي تجرُّها الخَيْل، تُذكِّرنا بعَرَبات الآشوريِّين الحربيَّة. (وانظر: سوسة، ٧٣- ٧٥).

(٢) انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٢٤- ٣٢٥.

(3) See: Josephus, **Josephus: Against Apion**, v1, p.257, 261, 265.

المتَّبعة لدَى الكهنة المِصْريِّين. ويفسِّر **مانيثو** سبب خروج **بني إسرائيل** من (**مِصْر**) برغبة المِصْريِّين في نفيهم من أرضهم، اتقاءً لذٰلك الوباء الذي أصابهم. وقد نقلَ عنه المؤرِّخ اليهودي (**يوسيفُس**، -١٠٠م) تلك الأخبار.

على حين ينقل (**ول ديورانت**)[١] عن (**جارستانج**)، عضو بعثة (**مارستن** Marston)، التابعة لـ(**جامعة ليفربول**)، أنها كُشفت في مقابر (**أريحا**) المَلَكيَّة أدلَّة تُثبِت أن (**مُوسَى**) قد أنقذته من الموت[٢] المِلِكَةُ (**حتشبسوت**)، عام ١٥٢٧ق.م، فتربَّى في بلاطها، ثمَّ فرَّ من (**مِصْر**) حين تولَّى المُلْكَ (**تحوت مُوسَى الثالث**)، عدوُّ **حتشبسوت**. ويذهب **جارستانج** إلى أن الخروج كان في عام ١٤٤٧ق.م.[٣] ولقد أشير في «**التوراة**» و«**القرآن**» إلى أن **مُوسَى** تربَّى في القصر المَلَكي فعلًا، وأنه كان تحت رعاية ابنة فرعون، حسب «**التوراة**»[٤]، وامرأة فرعون، حسب «**القرآن**»[٥]: **﴿وقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَىٰ أَنْ يَنفعَنَا، أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.﴾** وجاء كذٰلك: **﴿وضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ: رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، ونَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ، ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ.﴾**[٦] و**حتشبسوت** هي ابنة الفرعون (**تحوت مُوسَى**

---

(١) انظر: م.ن.

(٢) في الكتاب: «**أنجبته**». ووَفْقَ «**القرآن**»، الصواب: «**أنجته**» من القتل، وانتشلته من اليَمّ.

(٣) انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٢٦.

(٤) انظر: **سِفر الخروج**، الإصحاح الثاني.

(٥) **سورة القَصص**: الآية ٩.

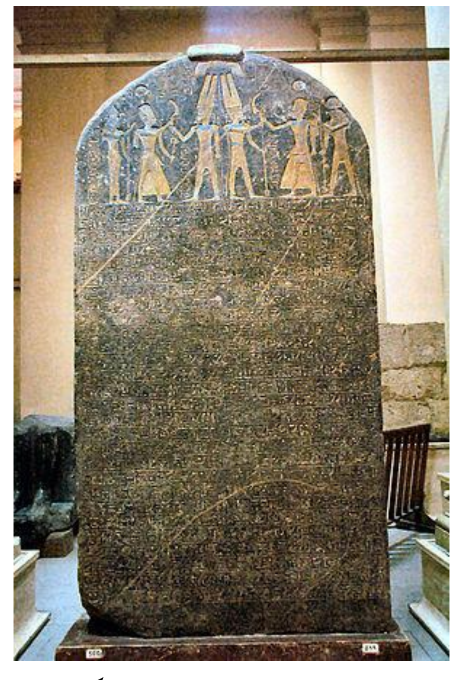
(٦) **سورة التحريم**: الآية ١١. ويَرِد في التراث الإسلامي أن اسم امرأة فرعون هٰذه: (**آسية**).

الأوَّل)، من المَلِكة (**أعح مس**)، وهي امرأة الفرعون (**تحوت مُوسَى الثاني**)، والوصية على الفرعون (**تحوت مُوسَى الثالث**)، الذي حكمتْ باسمه، لصِغر سِنِّه، بوصفها مَلِكة.

غير أنه لم يُعثَر لـ(**مُوسَى**) على ذِكرٍ في الآثار المصريَّة المكتوبة. وهٰذا غير مستغرَب؛ لأمرَين: أوَّلهما، أن المِصْريِّين ما كانوا ليحتفلوا بذِكر رجلٍ يعدُّونه من العُصاة المتمرِّدين، وإنَّما كانت أثارهم وكتاباتهم تحتفي بالملوك وعظماء القوم وما يفتخرون به من أحداث. والأمر الآخَر، أنه كان من المألوف في التاريخ المِصْري طمس ما لم يكن مَرْضِيًّا عنه لأسباب دِينيَّة أو سياسيَّة. ولقد حاولوا طمس آثار (**أخناتون**)، مثلًا، لمَّا خرَج عن تقاليدهم الدِّينيَّة. وكان هو قد فعلَ ذٰلك بمحاولته طمس آثار سلفه وهدم تماثيلهم ومعابدهم لأسباب دِينيَّة كذٰلك. فكيف **بمُوسَى**، وهو الابن الغريب والعاقّ؟!

على أنه قد جاء في كلمات الفرعون المِصْري (**مرنبتاح**، الذي حكمَ من ١٢١٣ إلى ١٢٠٣ ق.م)- وهو ابن الفرعون (**رمسيس الثاني**)- التي سجَّلها على لوحته الشهيرة بـ«**لوحة بني إسرائيل**»، ذِكرٌ لـ(**بني إسرائيل**)، في قوله: «**يسرائر/ يسرائل/ إسرئيل ضائعة، وبذرتها عقيم**». وذٰلك في نصٍّ منه النقوش الآتية وبعض ترجمتها:





«لقد غُلب الملوكُ وقالوا: سلامًا!
وخربت تحينو،
وهُدِّمَتْ أرض الحثيِّين،
وانتهت كنعان، وحلَّت بها كل الشرور، ...
وخربت إسرائيل، ولم يعُد لأبنائها وجود،
وأضحت فِلسطين أرملة مِصْر،
وضُمَّت كلُّ البلاد، وهُدِّئتْ،
وكلُّ من كان ثائرًا قيَّده الملك مرنبتاح.»[1]

فهل كان عرش (**مرنبتاح**) في (**المصرامة**)، التي اكتشفها (**الصَّليبي**) بين (**أبها**) و(**الخميس**)؟! أم كان يقصد (**بني إسرائيل**) الذين يعيشون في (**عسير**)؟!

كلَّا، لا هٰذا ولا ذاك. بل كان يسجِّل انتصاراته على الشعوب المجاورة لـ(**مِصْر**)، ومنها انتصاراته على أرض (**كنعان**) والقضاء على (**إسرائيل**)، مستكملًا انتصارات أبيه. وهي المرَّة الأُولى التي تظهر فيها كلمة «**إسرائيل**» في أَثَرٍ مِصْري.

---

[1] ديورانت، ج٢ م١: ٣٢٤.
فيه: «**وهدئت أرض الحثيين**».

يُذكَر أن اللوحة كانت في الأصل للفرعون (**أمنحُتِب الثالث**، -١٣٥٣/ ١٣٥١ق.م)، لٰكن (**مرنبتاح**) استخدمها. وقد اكتشفها عالم المِصْريَّات الإنجليزي (**ويليام فليندرز بتري**)، في معبد **مرنبتاح** الجنائزي، عام ١٨٩٦م، وهي محفوظة اليوم بالمتحف المِصْري.

وكنَّا قد أشرنا إلى تلك المراسلات بين (**الكنعانيِّين**) في (**فِلسطين**) و(**أخناتون**) في (**مِصْر**)، التي عَثَرَ عليها أيضًا (**ويليام فليندرز بتري**) في (**تلِّ العمارنة**) **بمِصْر**، وتضمَّنت شكوى **الكنعانيِّين** من غزو بعض الشعوب، ذاكرين من بين الغزاة: (**العِبرانيِّين**). لٰكن **أخناتون** لم يُوْلِ شكواهم اهتمامًا.

فكيف نفهم هٰذه النصوص والآثار؟

يقع (**تلُّ العمارنة**)[1] في (**دير مواس**)، بمحافظة (**المِنْيا**)، في الجهة الجَنوبيَّة من (**القاهرة**)، شَمال (**أسيوط**)، على الضفَّة الشَّرقيَّة لنهر (**النِّيْل**). وكان موقعه عاصمةً للفرعون الشاعر (**أمنحُتِب الرابع**)، الذي غيَّر اسمه إلى (**أخناتون**، -١٣٣٦/ ١٣٣٤ق.م)[2]، ويعني اسمه: «**الأَهْنَأ بآتون**»، وهو زوج المَلِكة (**نفرتيتي**). وسمَّى **أخناتون** عاصمته: (**أخت آتون**)، وجعلها مركزًا يدعو منه لربِّه (**آتون**، أو **آتوم**)،

---

[1] نسبة إلى قبيلة تُكنَى بـ(**بني عمران**).

[2] يكتنف نهاية هٰذا الفِرعون وتأريخها الغموض. على أن بعض الباحثين يحدِّد فترة حُكمه بين عامَي (١٣٧٩– ١٣٦٢ق.م)، أو (١٣٧٥– ١٣٥٨ق.م). (انظر: سوسة، ٤١٦). ويبدو أنه عاش سنوات بعد انتهاء حُكمه؛ للاضطرابات في الحقبة التي حكم فيها، نتيجة ثورته على العقائد المِصْريَّة والثورة المضادَّة التي اندلعت عليه من قِبَل الكهنة الآمونيِّين. لذا يُرجَّح أن (**سمنخ كا رع**، -**١٣٣٤ق.م**)، الذي لم يحكم أكثر من ثلاث سنوات تقريبًا، اعتلى العرش قبل وفاة (**أخناتون**). (انظر: ألدريد، سيريل، **أخناتون**، ١٩٦).

الذي كان يمثِّل قُرصَ الشمس. و(**آتون**) هو (**أَتُّوْن**)، بالعَرَبيَّة، أي: المَوْقِد، والجمع: أَتاتين.[١] وتُشبِهِ تجربة **أخناتون** في هٰذا تجربة (**إبراهيم الخليل**)، حسب قِصَّته القرآنيَّة، الذي لَمَّا رأى الشمس بازغةً، قال: «**هٰذا ربِّي**»، لولا أن **أخناتون** ظلَّ على اعتقاده، ولم يصدَّه عن ذٰلك أن رأى الشمس من الآفلين.[٢]

اتَّخذَ (**أخناتونُ**) (**آتونَ**) اسمًا لربِّه، وحَظَرَ الشِّركَ به على المِصْريِّين، ومنعَ المعابد القديمة، وصادرَ أملاكها، وحطَّمَ التماثيل، وحرَّمَ الرُّقَى، وأحرقَ ما تبقَّى من ألوان السِّحر والشعوذة، ساعيًا إلى ديانةٍ توحيديَّة. لٰكن مذهبه هٰذا قُوِّض من بعده، واضطَهد الانقلابيُّون- مِن أتباع الآلهة المتعدِّدة التقليديَّة- أتباعَه، وتحوَّل ابنُه من عبادة **آتون** إلى عبادة (**آمون**)، وغيَّر اسمه من (**توت غنخ آتون**) إلى (**توت غنخ آمون**)[٣]، وجرى نعت **أخناتون** بـ«**المجرم الأكبر**». ويُروى أن اليهوديَّة في (**مِصْر**) كانت على تداخُلٍ حميمٍ مع الآتونيَّة، مؤثِّرة أو متأثِّرة، إلى درجة التطابق، كما يُرجِّح (**فرويد**).[٤] ويظهر مصداق ذٰلك في «**التوراة**»؛ فإذا كان **أخناتون** قد اتَّخذَ **آتون** ربًّا-

---

[١] انظر: ابن منظور، (أتن).

[٢] وقد دفع هٰذا الشَّبَهُ بعضَ الدارسين إلى الزعم أن (**أخناتون**) هو (**إبراهيم**).

[٣] أعلن (**زاهي حواس**)، الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار في (**مِصْر**)، عام ٢٠١٠، أن نتائج الحمض النووي DNA أثبتت أن (**توت عنخ آمون**) هو ابن (**أخناتون**)، ولم تكن أُمُّه الملكة (**نفرتيتي**)- كما كان الاعتقاد سائدًا- وهو حفيد (**أمنحُتِب الثالث**) والمَلِكة (تي).
(انظر: «***الأستراليون يتعرَّفون على تفاصيل عائلة «توت عنخ آمون»***»، (جريدة «**الرِّياض**»، ع١٥٤٦٩)، على شبكة «الإنترنت»: http://www.alriyadh.com/572949).

[٤] انظر في هٰذا: فرويد، ٢٧- ٠٠؛ ديورانت، ج٢ م١: ١٦٨- ١٧٩؛ نعمة، ١٣٣؛ السواح، **مغامرات العقل الأُولى**، ١٣١- ٠٠٠.

بل إن (فرويد، ٨٤- ٠٠، ١٢٣) يذهب إلى أبعد من هٰذا، وهو أن اليهوديَّة دِيانة مِصْريَّة الجذور، عقيدةً ←

وهو الشمس، كـ«**أَتُّوْن/ أَتُوْن**» بالعَرَبيَّة، أي: النار الموقدة- فإن «**التوراة**» تحكي عن (**يَهْوَه**) شيئًا شبيهًا، كما في قولها: «**وكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وارْتَجَفَ كُلُّ الجَبَلِ جِدًّا.**»[1]

على أن افتراض أن كلمة «**العابيرو**»، في المراسلات المعثور عليها في (**العمارنة**) تعني: «**العِبرانيِّين**» مُشْكِل؛ لأنه إذا كانت الرسائل من عهد (**أخناتون**)، فالمفترض السائد أن **العِبرانيِّين** لَمَّا يكونوا- على بعض الآراء، ووَفْقَ تصوُّرات (**فرويد**) عن علاقة **أخناتون** بـ(**النبي مُوسَى**)- قد خرجوا من (**مِصْر**) بَعد. إلَّا إنْ قيل إنها كانت في (**الشَّام**) قبائل أخرى منهم وأنهم المقصودون. أو قيل إن «**العابيرو**» وصفٌ كان يُطلَق على البدو في شَمال (**الجزيرة العربيَّة**) و(**بادية الشَّام**) عمومًا، من الشُّعث الغُبر العابرين من بلدٍ إلى آخَر.[2]

بيد أنِّي سأطرح فرضيَّةً أخرى هاهنا، تبدو قابلةً للتوفيق بين هٰذه الأحداث والآثار:

لعلَّ الفرعون الذي خرج على عهده (**مُوسَى**) هو الفرعون السابع من الأُسرة الثامنة عشرة (**أمنحُتِب الثاني**، الذي حكمَ في الفترة ١٤٢٧-

---

وشريعة، وأن (**مُوسَى**) لا يعدو تلميذًا لـ(**أخناتون**)، وأن المسيحيَّة إنَّما تُمثِّل عودةَ كهنةِ (**آمون**) وانتصارَهم على **أخناتون!**

[1] **سِفر الخروج**، ١٩: ١٨.
وظاهرة الجبال في «**التوراة**» لافتة؛ فلا بُدَّ للربِّ من جبلٍ مقدَّس: (**الطُّور، صهيون، جرزيم**).. إلخ. إضافة إلى الصخور المقدَّسة.

[2] انظر: سوسة، ٢٤٢- ٢٤٥.

١٤٠١ق.م)[١]، وهو الجَدُّ الثاني لـ(**أمنحُتِب الرابع/ أخناتون**). وكأن أباه (**تحوت مُوسَى الثالث**، -١٤٢٥ق.م) هو فرعون التسخير. ويؤيِّد هٰذا ما ورد في مخطوطٍ بَرديٍّ هيروغليفيٍّ، يعود إلى عهد **تحوت مُوسَى الثالث**، يشير إلى أقوام يسمِّيهم المخطوط (**الآبيروس** Apiru، أو **الهابيرو** Hapiru، أو Habiru)، ليسوا بمِصْريِّين، كانوا يعملون بالسُّخرة في (**مِصْر**)، في أعمال البناء، والفلاحة، وقطف الكروم.[٢] ويبدو أن هٰذا اللقب يشير إلى العِبرانيِّين، الذين جاءت الإشارة إليهم باللقب نفسه في رسائل الكنعانيِّين المعثور عليها في (**تلِّ العمارنة**). وقد وردت الإشارة إلى هٰذا التسخير في «**سِفر الخروج**»[٣] هٰكذا: «**فاسْتَعْبَدَ المِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، ومَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ في الطِّينِ واللَّبِنِ وفي كُلِّ عَمَلٍ في الحَقْلِ. كُلّ عَمَلِهِم الذي عَمِلُوهُ بِوَاسِطَتِهِم عُنْفًا.**» وربما كان من أسباب ما عُثِر عليه من اتِّخاذ (**الهابيرو**) لقبًا لطبقة العمَّال في عهود لاحقة للعهد الذي قدَّرنا أن العِبرانيِّين خرجوا فيه من **مِصْر**، أي بعد عهد (**أمنحُتِب الثاني**)، هو أنه قد أصبح لقبًا مهنيًّا شعبيًّا لهٰذه الطبقة العاملة، وإنْ لم يكن أفرادها من العِبرانيِّين بالضرورة.[٤] بل ربما صحَّ القول: إن لقب «**هابيرو**»، بمعنى عبرانيِّين، ظلَّ يُطلق في منطقة (**الهلال الخصيب**) و(**مِصْر**) على طائفة من البَدْو الرُّحَّل، من (**بني إسرائيل**) أو من

---

(1) See: Shaw, Ian; Paul Nicholson, **Dictionary of Ancient Egypt**, p.28.

(٢) انظر: بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن والعِلْم**، ٢٦٥.

(٣) ١: ١٣- ١٤.

(٤) وانظر: بوكاي، ٢٦٦.

سِواهم. ولذا وجدنا لقب (**عبراني**) يقترن بـ(**إبراهيم الخليل**) وأبنائه؛ لأنهم كانوا بَدْوًا جوَّابي آفاق عابري سُبُل.[1]

وعليه، فإنه، بناءً على الوثائق التاريخيَّة المتمثِّلة في:

- ما سبقت الإشارة إليه ممَّا نقله (**ديورانت**) عن (**جارستانج**)، عضو (**بعثة مارستن** Marston، التابعة لـ(**جامعة ليفربول**): أنها كُشفت في مقابر (**أريحا**) المَلَكيَّة أدلَّة تُثبت أن (**مُوسَى**) قد تربَّى في بلاط المِلِكَة (**حتشبسوت**، -١٤٥٨ق.م)، وأنه فرَّ من (**مِصْر**) حين تولى المُلْكَ (**تحوت مُوسَى الثالث**، -١٤٢٥ق.م)، عدوُّ **حتشبسوت**.
- ما أشير إليه حول ما وردَ في المخطوط البَردي الهيروغليفي، الذي يعود إلى عهد (**تحوت مُوسَى الثالث**)، والذي يشير إلى أن (**الآبيروس**، أو **الهابيرو**) كانوا يعملون بالسُّخرة في (**مِصْر**).
- رسائل الكنعانيِّين إلى (**أخناتون**، -١٣٣٦/ ١٣٣٤ق.م)، المعثور عليها في (**تلِّ العمارنة**)، وشكواهم من غزو (**الهابيرو: العِبرانيِّين**)، الدالَّة على أن هٰؤلاء باتوا يمثِّلون قوَّة غازية تُهدِّد ممالك (**الشام**).
- ما جاء في كلمات الفرعون المِصْري (**مرنبتاح**، الذي حكمَ من ١٢١٣ إلى ١٢٠٣ق.م)، التي سجَّلها على لوحته الشهيرة بـ«**بلوحة بني إسرائيل**»،

---

[1] انظر: سوسة، ٥٥.

مع عدم إغفال تفسيرات أخرى للقب «عبراني» سبق التطرُّق إليها. (راجع ما وَرَدَ تحت عنوان: «**١٩- بين شواهد الآثار وغرائب الأحبار**»).

الدالَّة على أن (**بني إسرائيل**) قد أصبحوا في عهده عدوًّا خارجيًّا لـ(**مِصْر**)، لا عدوًّا داخليًّا، أو مجرَّد متمرِّدين على سُلطانه. هٰذا مع الإشارة المهمَّة إلى «**ضياعهم**» في قوله: «**يسرائر/ يسرائل/ إسرئيل ضائعة، وبذرتها عقيم**»، الموحية بـ«**تِيْه**» **بني إسرائيل** المشهور، وكأن ذاك قد صار سُبَّتهم بين الشعوب، منذ ذٰلك التاريخ.

بناء على ذٰلك يمكن استنتاج الآتي:

١-كانت الملِكَة (**حتشبسوت**، -١٤٥٨ ق.م)- وهي خامسة الفراعنة من عصر الأُسرة الثامنة عشرة- هي المرأة التي تربَّى (**مُوسَى**) في كنفها. ويبدو أنها امرأة فرعون المذكورة في «**القرآن**» باسم (**آسية**).[1]

٢- كان الفرعون (**تحوت مُوْسَى الثاني**، -١٤٧٩ق.م)، زوج (**حتشبسوت**)، هو الفرعون الذي عاش (**مُوسَى**) صِباه في عهده. وكان حُكم هٰذا الفرعون قصيرًا (١٤٩٣- ١٤٧٩ق.م)، فقد اعتلَّ فور اعتلائه العرش، ومات في الثلاثين من العمر. ودلَّ فحص مومياءه على احتمال أنه كان مصابًا ببعض القروح الجِلديَّة، وربما بالجُذام.[2] ولم يكن لهٰذا الفرعون حين تولِّيه العرشَ ابنٌ يرث عرشه؛ ولذٰلك كانت

---

[1] كانت لهٰذه الملِكة علاقات تجاريَّة خارج (**مِصْر**)؛ شهدت بذٰلك جداريَّات (**طِيبة**)، مثلًا: عن بعثتها التجاريَّة إلى بلاد بنت (**الصومال**)، أرض العطور. وسبقت الإشارة إلى تمثال هٰذه الملِكة المعثور عليه في جبال (**فَيْفاء**)، جَنوب (**السُّعوديَّة**).

[2] انظر: بوكاي، ٢٦٨.

حتشبسوت هي المَلِكة الفعليَّة في عهده ومن بعده، حتى تُوفِّيت. وقد يَصِحَّ القول إن صدَى هٰذا يظهر في قول امرأة فرعون عن **مُوسَى**: ﴿**قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.**﴾[1] الدالَّة على أن فرعون المذكور لم يكن له ولدٌ حينئذٍ، فكان تبنِّي **مُوسَى** مسوَّغًا لهٰذا السبب. وهٰذا ينطبق على (**تحوت مُوسَى الثاني**)، دون سِواه.

٣- إن في اسم «**مُوسَى**» نفسه مؤشِّرًا على الفترة التي عاش فيها. فهو قد وُلِد في عصر الفرعون (**تحوت مُوسَى الثاني**)، وعاش صِباه في بلاطه، تحت رعاية امرأة هٰذا الفرعون (**حتشبسوت**). وكان (**تحوت مُوسَى الثالث**) هو ابن (**تحوت مُوسَى الثاني**)، وابن (**إست**) ضرَّة **حتشبسوت**. وواضح من هٰذا أن (**مُوسَى**) و(**تحوت مُوسَى الثالث**) تِرْبان، نَشَآ معًا في قصرٍ واحد، الأوَّل ابن **حتشبسوت** بالتبنِّي، والثاني ابن ضرَّتها **إست**. ومن هنا فقد أُطلِق على **مُوسَى** هٰذا الاسم بالنظر إلى أنه الاسمُ العائليُّ المَلَكِيُّ الرسميُّ المتوارث في هٰذه الأُسرة التي عاش فيها؛ فهو اسم الجَدِّ (**تحوت مُوسَى الأوَّل**)، واسم أبي **مُوسَى** بالتبنِّي (**تحوت مُوسَى الثاني**)، واسم أخيه بالنشأة (**تحوت مُوسَى الثالث**)، وصولًا إلى حفيد هٰذه الأُسرة (**تحوت مُوسَى الرابع**)، الذي حكمَ بعد خروج (**مُوسَى**) بقومه من (**مِصْر**).[2]

---

[1] **سورة القَصص**: الآية ٩.

[2] اختُلف في معنى (**مُوسَى**)، من ذاهبٍ إلى أنه بمعنى «**انتُشِل**»؛ لأن **مُوسَى** انتُشِل من الماء، كما في قِصَّته التوراتيَّة، وذاهبٍ إلى أنه بمعنى «**ابن**»؛ لأن اسمًا كـ(**تحوت مُوسَى**)، معناه: «**ابن الإلٰه تحوت**»، أو «**تحوت** ←

٤- فرَّ (**مُوسَى**) من (**مِصْر**) إلى (**مَدْيَن**) حين تولَّى المُلْكَ (**تحوت مُوسَى الثالث، -١٤٢٥ق.م**)، عدوُّ (**حتشبسوت**)، وابنُ ضرَّتها (**إست**)[١]، ولعلَّه إلى ذٰلك خصيم صِباه. وذٰلك بسبب قتل **مُوسَى** رجلًا مِصْريًّا، كما تُخبرنا «**التوراة**» ويُخبرنا «**القرآن**». و**تحوت مُوسَى الثالث** هو الفرعون الإمبراطور، الذي يُعَدُّ أعظم فراعنة (**مِصْر**)، والمَلِك التوسُّعي، والمحارب الأُسطوري الشهير. وكان عهد هٰذا الفرعون عهد اضطهاد العِبرانيِّين وتسخيرهم في الأعمال، كما مَرَّ. ويظهر على موميائه مثلما ظهر على مومياء والده من القروح الجِلديَّة، وربما كان مصابًا بالجُذام.[٢]

٥- عاد (**مُوسَى**) بعد وفاة (**تحوت مُوسَى الثالث**)- أي في عام ١٤٢٥ق.م، أو بُعَيده- إثْرَ تَولِّي (**أمنحُتِب الثاني، -١٤٠١ق.م**). وهٰذا الفرعون الجبَّار هو مخضِع الثائرين وطالبي الحُريَّة، وهو ذابح الملوك للآلهة بيده.[٣] قاد الحملات القاسية على (**فِلسطين**) و(**سُوريَّة**)، واقتاد ٣٦٠٠ من أولٰئك (**الهابيرو/ العِبرانيِّين**) مغلولين من أرض (**كنعان**) إلى

(**أنجبَ) ابنًا**». وربما كان لاسم مُوسَى بقيَّة كأسماء المصريِّين المركَّبة، تقرنه ببعض الآلهة، ثُمَّ أُسقِطت تحرُّجًا دِينيًّا. (انظر: فرويد، ٨- ٩؛ استيندرف، ١٢٦).

[١] يبدو من هٰذا أن (**تحوت مُوسَى الثالث**) حين وفاة أبيه لم يكن في سِنٍّ تؤهِّله للحُكم، فاستمرَّت (**حتشبسوت**) مَلِكةً، ثمَّ خلَفها في الحُكم.

[٢] انظر: بوكاي، ٢٦٩.

[٣] انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٨٠.

(**مِصْر**).[1] وقد لوحظ على مومياء هٰذا الفرعون ما لوحظ على مومياء أبيه وجَدِّه من القُروح الجِلديَّة، وربَّما الجُذام.[2] وهنا بدأت مطالبات **مُوسَى** فرعونَ بالخروج من **مِصْر**، بعد عودته من (**مَدْيَن**).[3] وفي عهد **أمنحُتِب الثاني** خرج العبرانيُّون من **مِصْر**. وذكرت «**التوراة**»[4] أن عُمْرَ **مُوسَى** إذ ذاك كان ثمانين سنة. وهٰذا متَّفق تقريبًا مع المدَّة الفاصلة بين عهد (**تحوت مُوسَى الثاني**، -١٤٧٩ق.م)، الذي وُلِد فيه **مُوسَى**، وعهد (**أمنحُتِب الثاني**، -١٤٠١ق.م)، الذي خرج فيه. ولا يتعارض هٰذا

---

[1] انظر: بوكاي، ٢٦٥.

[2] انظر: م.ن، ٢٦٨- ٢٦٩.

[3] تختلف الروايات في سبب خروج (**بني إسرائيل**) من (**مِصْر**)، أكان طردًا، أم تمرُّدًا؟ فعلى حين تصوِّر «**التوراة**» الأمر على أنه كان مطلبًا **لبني إسرائيل**، واجهه فرعون بالممانعة، وأن خروجهم كان خلاصًا تاريخيًّا، ما كادوا يصدِّقون تحقُّقه، فإنها تستعمل مصطلح «**الطَّرْد**» أيضًا، في مثل: «**فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "الآنَ تَنْظُرُ مَا أَنَا أَفْعَلُ بِفِرْعَوْنَ. فَإِنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ يُطْلِقُهُمْ، وبِيَدٍ قَوِيَّةٍ يَطْرُدُهُمْ مِنْ أَرْضِهِ.**" (**سِفر الخروج**، ٦: ١، وانظر: ١١: ١). وينقل المؤرِّخ اليهودي (**يوسيفُس**) عن المؤرِّخ المِصْري (**مانيثو**، القرن ٣ق.م)، أن خروجهم كان برغبة المِصْريِّين في نفيهم اتقاءً لوباء الجُذام الذي أصابهم. (انظر: Josephus, v1, p.257, 261). وكذا يُعَنْوِن بعض الباحثين المحدَثين هٰذا الحدث بـ«**طرد بني إسرائيل من مِصْر**». (انظر مثلًا: السقَّاف، ١١٥). وأنا أميل إلى أنه كان خروجًا، لا طردًا، بما تعنيه هٰذه الكلمة. ذٰلك أنه لو سُلِّم جَدَلًا بوقوع الوباء، فلا يُتصوَّر انحصاره فيهم، وهم مخالطون للشعب المِصْري، ومن ثَمَّ فلا فائدة صِحيَّة من نفيهم. ولقد بدت علامات الأوبئة الجِلديَّة على المِصْريِّين أنفسهم في تلك الحقبة، كما شهدتْ على ذٰلك مومياوات الفراعنة. ثُمَّ إنه لم يكن من مصلحة المِصْريِّين الاقتصاديَّة طردهم، وهم الأيدي العاملة الرخيصة والمستعبَدة في أعمال البناء والفِلاحة والصناعة. ولذٰلك سنرى بقاء طوائف منهم في **مِصْر** حتى بعد تاريخ الخروج. و«**التوراة**» تُحِلُّ هٰذا الإشكال في موضع آخر (**سِفر الخروج**، الإصحاحات ١٢- ١٤) ذاكرةً أن الخروج كان مطلبًا **لبني إسرائيل**، قوبل بالمنع من فرعون، فلمَّا وقعت بالمصْريِّين البلايا، طردَ فرعونُ (**مُوسَى**) وقومه، ثُمَّ نَدِم، وتذمَّر الشَّعبُ إليه لفقدانهم الخَدَمَ منهم، فذهب فرعون وجنوده في طلبهم لإرجاعهم، فأدركوهم على البحر.

[4] انظر: **سِفر الخروج**، ٧: ٧.

والإيمان بحادثة غَرَق فرعون لدَى من يؤمن بها؛ لأن فرعون- حسب «**القرآن**»- قد نجا ببدنه. ولا يتعارض كذٰلك مع العثور على مومياء هٰذا الفرعون محنَّطةً في مقابر الفراعنة؛ لأنه من المتصوَّر أن قومه قد حنَّطوه بعد نجاته ودفنوه في وادي الملوك، كغيره من ملوكهم.

لٰكن هل نصَّ «**القرآن**» على غَرَق فرعون أصلًا؟

كلَّا لم ينصَّ على ذٰلك نصًّا قطعيَّ الدلالة! وإنَّما التفاسير التي تتَّخذ القصص التوراتي مرجعًا هي التي فرضت هٰذا الفهم على النصِّ، ورسَّخت هٰذا الاستنتاج ترسيخًا، حتى صار كأنه من المسلَّمات البدهيَّة.[١] ثمَّ تعال ابحث عن مومياء الفرعون الغريق، كما يُحاول بعض المعاصرين، فلا يُوفَّقون!

إن «**القرآن**»[٢] دقيقٌ في تعبيره هاهنا؛ فهو لا ينصُّ على غَرَق فرعون، وإنَّما على أنه «**أدركَ فرعونَ الغَرَقُ**»، ثمَّ نجا. ذٰلك أنها جاءت

---

[١] يذهب أستاذهم (**الطبري**)، في تفسيره، ذٰلك المذهب المتزيِّد على النصِّ من وارد ما ينظر إليه في «**التوراة**» وينقل منه، ديدنه في تفسيره وتاريخه معًا، ممَّا سبق تمثيلنا عليه. فيزعم أن «**في الكلام متروكًا**»! وليتهم تركوا ما تُرِك، إذن لكان استقام النصُّ مع العقل والعِلْم والتاريخ! لٰكن هيهات، لا بُدَّ من إضفاء حكاياتهم ومرويَّاتهم الإسرائيليَّة. وانظر مرجع **الطبري** التوراتي في الغرق، وأنه «**رَجَعَ الماءُ وغَطَّى مَرْكَبَاتِ وفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي البَحْرِ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ ولَا وَاحِدٌ**»، في (**سِفر الخروج**، ١٤: ٢٨). و**الطبري** إلى ذٰلك مُصِرٌّ على أنه لولا (**جبريل**) بالمرصاد لكان الله غفر لفرعون؛ فقد كان **جبريل** يحشو فَمَ فرعون بالطِّين، حتى لا «**يصل كلامه إلى الربِّ**»، فتُدركه الرحمة! إلى غير هٰذا من التصوُّرات الساذجة والخيالات البدائيَّة، والغريبة في حقِّ الله وملائكته. عقولٌ محشوَّةٌ بالأساطير، يُتطفَّل بها حتى على «**القرآن**»، تحت مظلَّة: «**في كلام (الله) متروك**».

[٢] انظر: **سورة البقرة**: الآية ٥٠؛ **سورة الأنفال**: الآية ٥٤؛ **سورة الشعراء**: الآية ٦٦؛ **سورة طٰه**: الآية ٧٨؛ **سورة الأعراف**: الآية ١٣٦؛ **سورة القَصص**: الآية ٤٠.

الإشارات القرآنيَّة مجملةً إلى «**غَرَق آل فرعون**»، أو «**غَرَق الآخَرين**»، أو «**إغراقهم في اليَمِّ**»، أو أنه «**أُخِذَ فرعونُ وجنودُه فنُبِذوا في اليَمِّ**»، أو أنه «**غَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُم**»، وجاء التفصيل في «**سُورة يونس**»[1]:

> ﴿وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا. حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ: «آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ.» «آلآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ؟!» فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ.﴾

فهل نجا (**فرعون**) قبل الغَرَق، أم بعده؟

هل النجاة المشار إليها: من الغَرَق، أم من تَلَفِ البَدَن في البحر؟

ذٰلك غير منصوص عليه. ومن هنا، فإن «**القرآن**» إنَّما ينصُّ على أنه أدرك (**فرعون**) الغَرَق، فنجا. فمن المحتمل، إذن، أنه لم يغرق غَرَقَ الموت، أو لم يمُت مباشرة. أمَّا نجاته، فكانت «آية لمن خلفه من المعاصرين له»، كما يشير ظاهر الآية القرآنيَّة، لا لغيرهم في كلِّ العصور بالضرورة، كما يتكلَّف من يبحثون اليوم عن مومياء **لفرعونٍ** غريق، فلا يجدون. كما أن قِصَّة الغَرَق لا تنصُّ على أن الفراعنة قد انقرضوا، أو أن مُلْكهم قد زال، أو حتى ضعف من بعد تلك الحادثة. وكذا فإن خروج (**مُوسَى**) ومَن

---

[1] الآيات ٩٠- ٩٢.

معه لا يقتضي في المقابل أنه لم يبق بعض العِبرانيِّين في (**مِصْر**). ولا يقتضي أيضًا أنْ قد انتهت علاقة **مِصْر** بالعِبرانيِّين، أو أن العثور على إشارات إلى وجودهم في **مِصْر** بعد عهد (**أمنحُتِب الثاني**)- وأنهم كانوا يعملون في السُّخرة- دالٌّ على أن ذٰلك كان قبل الخروج من **مِصْر**. بل لا يعني وجودُ هٰؤلاء الكادحين من العِبرانيِّين في الحِرَف أنهم مقهورون على ذٰلك في كلِّ حال، بل قد لا يكونون إلَّا حِرفيِّين مَهَرَة، متكسِّبين.

هٰذا، ولقد اتَّصل نفوذ (**مِصْر**) في (**فِلسطين**) و(**سُوريَّة**)، واستمرَّ الصراع مع الإسرائيليِّين والكنعانيِّين، بين مَدٍّ وجَزْرٍ، خلال العهود اللاحقة. وإنَّما يمكن القول إن حادثة الخروج قد مَثَّلت تمرُّدًا صارخًا على السُّلطة المِصْريَّة، وخَلاصًا من القهر الذي مارسته على العِبرانيِّين، أَفْلَتَ بسببه المؤمنون برسالة (**مُوسَى**) والناقمون على (**فرعون**)، من عبرانيِّين وغير عبرانيِّين، من قبضة **فرعون**، خارجين شَمالًا جهةَ أرض (**كنعان**): (**فِلسطين**)، وبقي في **مِصْر** مَن بقي مِن بني جِلدتهم أو دِينهم. ليقضي أولٰئك الخارجون في التِّيه عمرًا، انقضى بموت **مُوسَى**[1] و(**هارون**)، قبل أن يستطيعوا دخول ما عدُّوه أرض ميعادهم.

٥- ثمَّ لنتوقَّف عند هٰذه الظاهرة من الأمراض التي ألمَّت بهٰؤلاء الفراعنة. فالفرعون الأوَّل، الذي عاش (**مُوسَى**) صِباه في عهده (**تحوت مُوسَى**

---

(١) في بعض الأقوال إن (مُوسَى) قُتِل غيلةً. (انظر: فرويد، ٤٩).

الثاني)، اعتلَّ فور اعتلائه العرشَ، ومات في الثلاثين من العمر، ومومياؤه تدلُّ على أنه كان مصابًا بمرضٍ جِلدي. وكذٰلك ابنه **(تحوت مُوسَى الثالث)**، وحفيده **(أمنحُتِب الثاني)**، الذي قدَّرنا أنه فرعون الخروج. أمَّا ابن هٰذا الأخير، **(تحوت مُوسَى الرابع)**- الذي تولَّى بعد أبيه، وعَقِب خروج **(بني إسرائيل)** المفترض، والذي لم يكن وريث العرش، بل وصل إليه بحيلةِ رؤيا مناميَّة، ادَّعَى أنه جاءه فيها البشير من **(أبي الهَول)** بأحقيَّته بتاج **(مِصْر)**، وظلَّ خامل الذِّكر سياسيًّا- فقد كان عليل الصِّحة، هزيل الجسم بصورةٍ لافتة، كما دلَّت على هٰذا مومياؤه، وسرعان ما توفي شابًّا في الثلاثين من العمر، وذٰلك بمرض غير معروف.[١] وربما قال قائل إنه إلى هٰذا كانت إشارة «**التوراة**»[٢] إلى ما حذَّر الله به فرعونَ قائلًا: «**فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ الْبِكْر.**»

لقد دعت ظاهرة تلك الأمراض بعضَ الدارسين إلى افتراض أن هٰذا كلَّه كان عن مرضٍ عائليّ.[٣] غير أن المؤمن بما جاء في «**التوراة**» و«**القرآن**» حول ما أصاب المِصْريِّين من أوبئة وأمراض- والآخِذ بفرضيَّتنا حول

---

[١] انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٨٠؛ موسوعة «**الويكيبيديا**»:
https://ar.wikipedia.org/wiki/تحوتمس_الرابع

[٢] **سِفر الخروج**، ٤: ٢٣.

[٣] انظر: بوكاي، ٢٦٩.

فرعونَي التسخير والخروج- يمكن أن يكون له تفسيرٌ آخر لتلك الظواهر الصحيَّة. فحسب (**سِفر الخروج**) أن الأوبئة ضربت المِصْريِّين، ومنها «**الدُّمَّل**»[1]، في عِداد آيات (**مُوسَى**) و(**هارون**) لإنذار (**فرعون**):

> «**ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وهَارُونَ: «خُذَا مِلْءَ أَيْدِيكُمَا مِنْ رَمَادِ الأَتُونِ، ولْيُذَرِّهِ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ، لِيَصِيرَ غُبَارًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. فَيَصِيرَ عَلَى النَّاسِ وعَلَى البَهَائِمِ دَمَامِلَ طَالِعَةً بِبُثُورٍ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَأَخَذَا رَمَادَ الأَتُونِ ووَقَفَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ، وذَرَّاهُ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ، فَصَارَ دَمَامِلَ بُثُورٍ طَالِعَةً فِي النَّاسِ وفِي البَهَائِمِ. ولَمْ يَسْتَطِعِ العَرَّافُونَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مُوسَى مِنْ أَجْلِ الدَّمَامِلِ، لأَنَّ الدَّمَامِلَ كَانَتْ فِي العَرَّافِينَ وفِي كُلِّ المِصْرِيِّينَ. ولٰكِنْ شَدَّدَ الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى.**»[2]

فلماذا يستبعد بعض الدارسين أن يكون وباءٌ قد اجتاح هٰؤلاء، بقطع النظر عن سببه، إعجازيًّا كان أو غير إعجازيّ؟

٦- بذا فكأن (**أمنحُتِب الرابع/ أخناتون**، -١٣٣٦/ ١٣٣٤ق.م) إنَّما تأثَّر في ثورته الدِّينيَّة اللاحقة بعاملَين، هما:

أ. دعوة (**مُوسَى**) التي أدرك آثارها وأخبارها من عهد أبيه (**أمنحُتِب الثالث**)، وجدَّيه الأدنَين (**تحوت مُوسَى الرابع**)، و(**أمنحُتِب الثاني**).

---

[1] الوارد في الآية القرآنيَّة، (**سورة الأعراف**: الآية ١٢٣): «**القُمَّل**».

[2] **سِفر الخروج**، ٩: ٨- ١٢.

ب. ما لعلَّها وقعت من أحداثٍ إبَّان الخروج وأعقابه، ممَّا دفعه لإعادة التفكير بجرأة في عقائد المِصْريِّين، فوُصِم بالهرطقة، وانقُلب على توجُّهه التوحيدي.

والمؤرِّخون يشيرون إلى أن حركة الإصلاح الدِّيني كان تيَّارها قد بدأ بعد (**أمنحُتِب الثاني**) مباشرةً، منذ عهد ابنه (**تحوت مُوسَى الرابع**)، وذٰلك نحو الاتِّجاه إلى التوحيد[1]، وصولًا إلى نضج هٰذا التيار في عهد (**أخناتون**)، الذي انقلب عليه لاحقوه من الفراعنة، عائدين إلى ما وجدوا عليه أسلافهم قبل (**تحوت مُوسَى الرابع**).[2]

فماذا يعني هٰذا (بداية التوحيد بعد وفاة **أمنحُتِب الثاني**)؟

ألا يشي بأنه بأثر الدعوة الموسويَّة، وما تمخَّض عنها من آثار في الوجدان المِصْري، في عهد (**تحوت مُوسَى الثالث**)، فرعون الاضطهاد، و(**أمنحُتِب الثاني**)، فرعون الخروج؟! يبدو ذاك.

---

[1] مفهوم «**التوحيد**» هنا لا يُطابق مفهومه الإسلامي. فكثيرًا ما نقف على القول بـ«**التوحيد**» في اللاهوت المِصْري القديم، حتى ليبلغ الزعم في ذٰلك إلى القول بالاعتقاد في «**إلٰهٍ أحدٍ فردٍ صَمَد**»! (انظر مثلًا: استيندرف، ٣٣). ويزداد الإلحاح على ذٰلك لدَى الحديث عن (**أخناتون**) وحركته الدِّينيَّة. وتعليل ذٰلك إمَّا أن الكاتب ذو خلفيَّة مسيحيَّة، لها تصوُّرها الخاص للتوحيد، وإمَّا أن ذٰلك بمعنى توحيد بلدات (**مِصْر**) في تصوُّرٍ واحدٍ للآلهة الوثنيَّة، كما فعل **أخناتون في** جعل (**آتون**)، الإلٰه الرسمي الوحيد **لمِصْر**، بل للعالم أجمع، وتنحيته (**آمون**) وغيره من الآلهة، وتغيير اسمه- الذي كان مقترنًا بآمون: (**أمنحُتِب**)- إلى (**أخناتون**)، المقترن **بآتون**، ونقل عاصمته من (**طِيبة**)، مدينة **آمون**، إلى (**أخت-آتون**)، في (**تلِّ العمارنة**). و**آتون** هو (**الشمس**)، التي عُبِدت في الدِّيانات الوثنيَّة القديمة. و(استيندرف، ١٢٧) نفسه يحذِّر من مقارنة مفهوم التوحيد الساذج لدَى **أخناتون** بالتوحيد الموسوي، بَلْهَ نِسبة العقيدة الموسويَّة إلى مقتبَسٍ مِصْري. وإنْ كان هٰذا لا ينفي ملامح من التأثُّر والتأثير، في المستويات الثقافيَّة على أقلِّ تقدير.

[2] انظر: حسن، **موسوعة مِصْر القديمة**، ٥: ٤.

٧- من هٰذا يتَّضح أن رسائل الاستغاثة التي وردت إلى (**أخناتون**) من الكنعانيِّين في (**فِلسطين**) تنسجم مع هٰذا التحليل؛ إذ يكون قد مضى على خروج العِبرانيِّين من (**مِصْر**) نحو ٦٠ سنة. فالرسائل تعبِّر عن وصول هٰؤلاء الخارجين إلى **فِلسطين** وبدئهم في مناوشة الكنعانيِّين على أرضهم. لٰكن **أخناتون** لم يُعِرهم التفاتًا؛ لأنه من جهةٍ كان مشغولًا بالإصلاح الدِّيني الداخلي، ومن جهةٍ أُخرى كان يبدو على مِلَّةٍ توحيديَّةٍ تقترب من دعوة (**مُوسَى**)، وليس بخصيمٍ لها، كسابقيه ولاحقيه من الملوك.

٨- ثمَّ جاءت لوحة (**مرنبتاح**، -١٢٠٣ ق.م)، التي تشير إلى انتصاره على أرض (**كنعان**) و(**إسرائيل**) معًا، والقائلة: «**إسرائيل ضائعة، وبذرتها عقيم، أو لا تنمو**»، لتدلَّنا على أن الصراع مع أولٰئك الفارِّين من (**مِصْر**) كان لا يزال مستمرًّا، بعد قرابة قرنَين. غير أن ذٰلك النصَّ يحمل دلالات على أن (**العِبرانيِّين**) قد صاروا يمثِّلون قوةً خارجيةً- إلى جانب (**الكنعانيِّين**) و(**الحثيِّين**)- وأنهم أصبحوا كيانًا مستقلًّا عن **مِصْر**؛ ولذٰلك قال: «**وخربت إسرائيل**»، كما وصفهم بالتِّيه والضياع. وفي هٰذا إشارات واضحة إلى أنهم باتوا خارج **مِصْر**، وأنهم صاروا كيانًا يُحسب له حساب، وأن خروجهم، إذن، كان قبل عهده بأمد طويل.

٩- ثمَّ إذا رجعنا إلى «**العهد القديم**» وجدناه قائلًا: «**وكَانَ فِي سَنَةِ الأَرْبَعِ مِئَةٍ والثَّمَانِينَ لِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِمُلْكِ**

سُلَيْمَانَ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فِي شَهْرِ زِيُو وهُوَ الشَّهْرُ الثَّانِي، أَنَّهُ بَنَى البَيْتَ لِلرَّبِّ.» فإذا علمنا أن (**سُلَيمان**) توفي في بدايات القرن العاشر قبل الميلاد، بدا هٰذا التاريخ منسجمًا مع تقديرنا خروج (**العِبرانيِّين**) في عام ١٤٠١ق.م. ويكون بناء الهيكل عام ٩٢١ق.م تقريبًا: [١٤٠١-٤٨٠= ٩٢١ق.م]. وهنا لا بُدَّ من إعادة النظر في تاريخ وفاة **سُلَيمان** أيضًا، الذي يُذهَب فيه إلى أنه ٩٢٥ق.م، أو قبل ذٰلك. فإذا صحَّ ما تقدَّم، لزم أن تكون وفاة **سُلَيمان** بعد ٩٢٠ق.م بسنوات. وهو- على كلِّ حال- لم يُعمَّر طويلًا، بل توفي عن نيِّف وخمسين سنة.[١]

١٠- أمَّا ما وردَ في «**التوراة**»[٢] من أن «**إِقَامَة بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ كَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وثَلَاثِينَ سَنَةً**»، ففيه نظر، وقد يبدو تقديرًا ارتجاليًّا خاطئًا. ولعلَّ إقامتهم في (**مِصْر**) لا تتجاوز قرنَين ونصف، خلال حكم (**الهكسوس**)، ثمَّ جاءت الأُسرة الفرعونيَّة الثامنة عشرة فطردت **الهكسوس**، وسرعان ما لَحِق بهم (**العبرانيُّون**)، بعد سبعة ملوك، وذٰلك في عام ١٤٠١ق.م تقريبًا. على أنه ينبغي أن تُؤخَذ الأرقام التي تَرِد في

---

[١] مَلَكَ ٤٠ سنة. (انظر: **العهد القديم**، سِفر الملوك الثاني، ١١: ٤٢؛ الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، ١: ٥٠٣). ومن الطريف هنا أن نجد في تاريخ (ابن كثير، ٢: ٣٥٦)- عند الوقوف على المعلومة المتعلِّقة بالمُدَّة التي حكم فيها (**سُلَيمان**)، ومتى بَنَى الهيكل، أو (**بيت المَقْدِس**)- إحالةَ القارئ إلى (**الطبري**)، وكأنه مصدر المعلومة! والحقُّ أنَّ مصدرهما معًا هو «**العهد القديم**»، فعنه اغترفا في التاريخ وفي التفسير، ونقلا من الحقائق والأساطير، وإنْ لم يوثِّقا، بل اكتفيا بعبارة: «**فيما ذُكِر**».

[٢] **سِفر الخروج**، ١٢: ٤٠.

«**التوراة**»، وفي «**العهد القديم**» عمومًا، بتحفُّظٍ شديد، لا بدلالاتها الحَرفيَّة. ذٰلك أنه- فضلًا عن المبالغات الفاحشة في الأرقام الواردة في حروب (**بني إسرائيل**)، وما تُساق فيها من أرقامٍ خياليَّة، الهدف منها التهويل والترهيب- يُلحَظ أن الرقم «**أربعة**» بخاصَّة كان يمثِّل رقمًا نمطيًّا يتكرَّر في «**العهد القديم**»، على نحوٍ لافت، وكأنه لا يعني حقيقة الرقم، بل تعظيم العدد؛ فهو يبدو من هٰذه الناحية مثل الرقم «**سبعة**» في العَرَبيَّة. فأنت تجد، مثلًا، القول: إن مطر الطُّوفان استمرَّ أربعينَ يومًا وأربعينَ ليلةً. وإن (**أَرْفَكْشَاد**) عاشَ، بعد ما وَلَدَ (**شالَحَ**)، أربعَ مِئَةٍ وثلاثَ سِنينَ، وعاشَ **شالَحُ**، بعد ما وَلَدَ (**عابِرَ**)، أربعَ مِئَةٍ وثلاثَ سِنينَ، وعاشَ **عابِرُ**، بعد ما وَلَدَ (**فالَجَ**)، أربعَ مِئَةٍ وثلاثينَ سنة.[1] وهٰذا الرقم الأخير هو نفسه عُمْر إقامة **بني إسرائيل في مِصْر!** وقال الربُّ لـ(إبراهيم): «**اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، ويُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ**».[2] «**وكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَـمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً**».[3] «**ولَـمَّا كَانَ عِيسُو ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً اتَّخَذَ زَوْجَةً**».[4] «**وكَمُلَ لِيعقوبَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، لأَنَّهُ هٰكَذَا تَكْمُلُ أَيَّامُ**

---

(1) انظر: سِفر التكوين، ٧: ٤، ١١: ١٣، ١٥، ١٧.

(2) م.ن، ١٥: ١٣.

(3) م.ن، ٢٥: ٢٠.

(4) م.ن، ٢٦: ٣٤.

المُحَنَّطِينَ».[1] وكانت «**إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وثَلَاثِينَ سَنَةً**»[2]، «**وأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ المَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً**».[3] «**وكَانَ مُوسَى فِي الجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وأَرْبَعِينَ لَيْلَةً**».[4] وكان بناء الهيكل «**فِي سَنَةِ الأَرْبَعِ مِئَةٍ والثَّمَانِينَ لِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ**».[5] وهٰكذا كان الرقم «**أربعة**» يتردَّد بطريقةٍ تجعل حقيقة معناه محلَّ شكٍّ.[6]

غير أنه لو قيل إن تأريخ دخول (**الهكسوس**) إلى (**مِصْر**) كان عام ١٧٩٠ق.م[7]، وأن دخول (**بني إسرائيل**) إلى **مِصْر** كان مزامنًا لهٰذا التأريخ- أو لعلَّهم دخلوا مع **الهكسوس**، بل ربما قيل إنهم جزءٌ من شعوب **الهكسوس** المختلطة الجنسيَّات- إذا قيل بهٰذا، وسُلِّم به، أمكن أن نُجري العمليَّة الحسابيَّة التالية:

كان دخول (**بني إسرائيل**) إلى (**مِصْر**): ١٧٩٠ق.م.

---

(١) م.ن، ٥٠: ٣.

(٢) **سِفر الخروج**، ١٢: ٤٠.

(٣) م.ن، ١٦: ٣٤.

(٤) م.ن، ٢٤: ١٨. قارن: ٣٤: ٢٨.

(٥) **سِفر الملوك الأوَّل**، ٦: ١.

(٦) بعد تسجيل ملحوظتي هٰذه بمُدَّة عثرتُ على دراسات حول رمزيَّات الأرقام، ومنها رمزيَّة الرَّقم «٤» في «**الكتاب المُقدَّس**». من تلك الدراسات دراسة بعنوان «**دلالة الرقم أربعة The Significance of the Number Four**» من إعداد (**الحاخام الدكتور هيليل بن ديفيد** Rabbi Dr. Hillel ben David)، يذهب فيها إلى أن هٰذا الرَّقم يدلُّ على (الاكتمال، والتَّمام، والامتلاء). (انظر الدراسة على «الإنترنت»: http://www.betemunah.org/four.html).

(٧) من الذاهبين إلى هٰذا (السقَّاف، ١٣٩).

فإذا افترضنا أن الرقم الذي ذُكِر في «**التوراة**» حول مُدَّة إقامة (**بني إسرائيل**) على أرض (**مِصْر**) (٤٣٠ سنة) صحيحًا، وأنه كان يتضمَّن سنوات إقامة **بني إسرائيل** تحت الحُكم المِصْري بالإضافة إلى سنوات التِّيه (٤٠ سنة)، أي إلى أن خرجوا نهائيًّا من (**صحراء سيناء**)، فذٰلك يعني أن مُدَّة إقامتهم الحقيقيَّة (تحت الحُكم المِصْري) هو: ٤٣٠- ٤٠= ٣٩٠ سنة. إذن: كان خروج **بني إسرائيل** من **مِصْر**: ١٧٩٠- ٣٩٠= ١٤٠٠ق.م. فخروجهم من **مِصْر** كان ١٤٠٠ تقريبًا أو ١٤٠١ق.م. وهو التأريخ نفسه الذي توصَّلنا إلى تقديره من قبل.

لٰكنها ستعترض هٰذا تقديراتٌ سابقة تتعلَّق بتاريخ (**إبراهيم**)، و(**إسحاق**) و(**يعقوب**). كالقول، مثلًا: إن **إبراهيم** وُلِد ١٨٥٠ق.م. إلَّا أن تقديراتٍ أخرى تذهب إلى أنه عاش قبل عام ٢٠٠٠ق.م.[1] فإذا صحَّت هٰذه التقديرات الأخيرة، كانت تقديراتُنا السابقة حول دخول (**بني إسرائيل**) إلى (**مِصْر**) وخروجهم منها مقبولةً جِدًّا، ومتساوقةً مع التواريخ من قَبل ومن بَعد.

وأمَّا تاريخ بناء الهيكل، وأنه كان بعد عام الخروج بنحو ٤٨٠ سنة، فيبدو مقاربًا للحقيقة أيضًا، إنْ لم يكن مطابقًا. وهي- على كلِّ حال-

---

[1] هناك من يذهب إلى أنه وُلِد ٢٢٠٠ق.م وتُوفي ٢٠٠٠ق.م. (يمكن الاطِّلاع على ملخَّص ما ورد حول هٰذا في: **موسوعة «الوكيبيديا»**، على «الإنترنت»: https://ar.wikipedia.org/wiki/إبراهيم).

مسألة يحكمها التاريخ هاهنا، بين حدثَين مهمَّين في حياة القوم، هما الخروج وبناء الهيكل السُّلَيماني، من المستبعَد أن يقع الغلط فيهما أو المبالغة. وقد رأيناه مصادِقًا بالفعل لافتراضنا أن فرعون الخروج هو (**أمنحُتِب الثاني**)، لا قبله ولا بعده.

هٰذا، إذن، ما يمكن تقديره حول إقامة (**بني إسرائيل**) في (**مِصْر**)، إذا اعتمدنا على الوثائق العِلْميَّة، والإشارات النصوصيَّة، المؤكِّدة وجود (**العِبرانيِّين**) في **مِصْر**، والمرجِّحة تاريخ ذٰلك الوجود، بعيدًا عن التمسُّك الحرفي بمرويَّات «**التوراة**».

أمَّا الرأي الذاهب إلى أن الفرعون الثالث من الأُسرة التاسعة عشرة (**رمسيس الثاني**، -١٢١٣ق.م) هو فرعون التسخير، وأن (**مرنبتاح**، -١٢٠٣ ق.م)، ابنه، هو فرعون الخروج[1]، ففرضيَّة جديرة بالتقدير، لولا تعارضها مع المعطيات السابقة، منذ رسائل (**تلِّ العمارنة**). وأوَّل المشكِّكات في صِحَّة هٰذه الفرضيَّة أنه من غير المعقول تصوُّر بقاء (**العِبرانيِّين**) في (**مِصْر**)- بعد طرد (**الهكسوس**) الذين كانت لهم الحظوة في عهدهم- ليُعاصروا أُسرتَين من الفراعنة، الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وتحت نير ثمانية عشر فرعونًا. فهٰذه مُدَّة طويلة جِدًّا على نحوٍ غير محتمل. وإنَّما الأقرب إلى طبائع الأمور أنهم أقاموا في **مِصْر** بعد **الهكسوس**، كرهًا أو طوعًا، تحت نير سبعة فراعنة، ثُمَّ تَمَّ لهم الخلاص.

---

[1] انظر: بوكاي، ٢٦٦- ٢٧٠.

فلقد كان المفترض أن يخرجوا من **مِصْر** مع **الهكسوس**، لٰكنهم بَقُوا لسببين: أوَّلهما، يبدو أنه كان قد تغلغل في المجتمع المِصْريِّ من الصُّنَّاع **العِبرانيِّين** والحِرَفيِّين مَن آثروا، هُم ومشغِّلوهم، أن يَبقوا، وكان ذٰلك هو خيارهم المفضَّل. والسبب الآخر، يبدو في سياسة المِصْريين، التي كانت وُجهتها، بعد تطهير البلاد من **الهكسوس** الغزاة، أن يُبقوا على تلك الأيدي العاملة الرخيصة أو المستعبدة من **العِبرانيِّين** من أجل إعادة الإعمار والتنمية. فاستمرَّ هٰؤلاء لسبعة عهود من حكم الأُسرة الثامنة عشرة. أمَّا أن بقاءهم استمرَّ لثمانية عشر عهدًا فرعونيًّا، فأمر بعيد التصوُّر.

على أن من مسوِّغات الفرضيَّة القائلة بأن (**رمسيس الثاني**) هو فرعون التسخير وابنه (**مرنبتاح**) هو فرعون الخروج، المطروحة لدَى القائلين بها أو المحتملة، ما يأتي:

- أن زوجة (**رمسيس الثاني**) اسمها (**إيزيس نوفرت**). فربما قيل إنها المعروفة في التراث الإسلامي بـ(**آسية**)، مع بعض التحريف المحتمل في الاسم (**إيزيس = آسية**).
- أنه أعقب (**مرنبتاح**) فراغٌ في حكم (**مِصْر**)، استمر أربع سنوات، قبل أن يتسنَّم مُلك **مِصْر** (**سيتي الثاني**). وهو فراغٌ غامض، قد يفسَّر بالأحداث التي وقعت **لمرنبتاح**. لٰكن هٰذه ليست بقرينة كافية، ولاسيما في مواجهة النصوص الوثائقيَّة المشار إليها. على أنها قد دلَّت مومياء

مرنبتاح على أنه توفي شيخًا كبيرًا، موتًا طبيعيًّا، وإنَّما يبدو أنه كان يعاني في آخر حياته من التهاب المفاصل وتصلُّب الشرايين. ولئن كان في مثل تلك قرينة يُعتدُّ بها، فلقد أعقب (**أمنحُتِب الثاني**) كذٰلك مَلِكٌ خامل الذكر، عليل الصحة، هزيل الجسم، وإنَّما استولى على السلطة بدعوى رؤيا مناميَّة، ثمَّ سرعان ما توفي شابًّا في الثلاثين من العمر، بمرضٍ غامض، واسمه (**تحوت مُوسَى الرابع**). فربما قيل هنا إن ذٰلك بسبب ما كَرَثَ **مِصْر** من بلايا وأمراض، ومن انكسارٍ مُريعٍ لفرعون الخروج (**أمنحُتِب الثاني**) وجنوده. كما أنها قد جَعلتْ أُسرة الفراعنة الثامنة عشرة هٰذه تنحدر بعد (**أمنحُتِب الثاني**) نحو الاضمحلال والضعف والتنازع الدِّيني، إذا استثنينا عهد (**أمنحُتِب الثالث**).

- قد يُستدلُّ بنصِّ (**مرنبتاح**) حول (**بني إسرائيل**) على هٰذه الفرضيَّة. لٰكنه، كما قرأناه آنفًا، شاهد على أن خروج **بني إسرائيل** كان في عهد سابق لا في عهده.
- ما ورد في «**التوراة**» من إشارة إلى بناء اليهود مدينة (**رمسيس**) و(**فيثوم**)، في المنطقة الشرقيَّة من دلتا (**النِّيل**).[1] غير أنَّنا حينما نعود إلى ما جاء حول ذٰلك نفهم أنه كان في عهد (**يوسف**)، لا في عهد (**مُوسَى**):

«**ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ:**

[1] انظر: م.ن، ٢٦٦.

«هُوَ ذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلَّا يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا ويَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ». فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ.»[1]

فهٰذا ما ورد في الإصحاح الأوَّل من «**سِفر الخروج**». والسياق دالٌّ على أن ذٰلك كان قديمًا في عهد (**يوسف**)، أو عَقِبَه، وليس في عهد (**مُوسَى**). ولقد جاء ذكرٌ لأرض (**رعمسيس**)، من قَبل في «**سِفر التكوين**»، وأنها الأرض التي أسكن فيها **يوسفُ** أباه (**يعقوب**) وإخوته: «**فَأَسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وإِخْوَتَهُ وأَعْطَاهُمْ مُلْكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ، فِي أَرْضِ رَعَمْسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ.**» ما يؤكِّد ما قلناه من أن الإشارة في «**سِفر الخروج**» ليست إلى عهد **مُوسَى** بل إلى عهد **يوسف**. ثمَّ سيأتي بعد هٰذا الحديثُ عن **مُوسَى**، وأنه وُلِدَ في وقتٍ لاحق، وعن تَتابُع صراعه وقومه مع فرعون. فكيف تُجعَل تلك الإشارة دليلًا على أن هاتين المدينتَين بُنيتا في عهد (**رمسيس الثاني**)، دون دليل، سِوَى تشابُه اسم «**رعمسيس**» باسم «**رمسيس**»؟! وما أكثر «الرماسيس» في (**مِصْر**)، وما أكثر مثل هٰذه الحروف في أسماء المِصْريِّين القدماء عمومًا! ومعروف أن «**رعمسيس**» كان لقبَ (**رمسيس الأوَّل**، -١٢٩٠ق.م)،

[1] سِفر الخروج، ١: ٨- ١٤.

جَدِّ **رمسيس الثاني**. ولذا وقع الخلاف حول مكان **رعمسيس**، ومتى بُنيت؟ بل أيُّ مدينةٍ هي المقصودة بهٰذا الاسم؟ ذٰلك أن هٰذا الاسم قد وُجِد أيضًا قبل زمن **رمسيس الأوَّل** و**الثاني**، في اسم أخي (**حور محب**). ولَمَّا كان «**رع**» اسمًا قديمًا «**للشمس**»، فإنه من المحتمل جِدًّا أن تحمل مدينة قديمة اسم «**رعمسيس**»، الذي يعني: «**رع قد خلقها**». ويذهب بعض الباحثين إلى أنه قد كانت هناك ثلاث مدن، على الأقل، في **مِصْر السُّفلَى** باسم «**با–رمسيس**»، أي (**مدينة رمسيس**).[1] أمَّا **رمسيس الثاني**، فإنَّما أنشأ مدينةً حربيَّةً باسم (**بر رعميسو**) في شَرق الدلتا، في حين وُجِدت آثاره ومعابده في الجَنوب، ما يدحض الزعم أن عاصمته كانت (**بر رعميس**)، أو (**رعمسيس**)، بل كانت عاصمته هي العاصمة التقليديَّة (**طِيبة**). ثمَّ لو سُلِّم بأن **رمسيس الثاني** اتخذ **رعمسيس** عاصمة له، فلا يعني ذٰلك أن نفهم إشارة «**التوراة**» إلى بناء اليهود **رعمسيس** على أنها إشارة إلى عهد **رمسيس الثاني** بالضرورة، وأنه فرعون الاضطهاد. **فرعمسيس** مدينة مبنيَّة من قَبل، منذ عهد **يوسف**، كما يدلُّ سياق النص التوراتي، وإنَّما لعلَّ **رمسيس الثاني** أعاد بناءها، أو ترميمها. كما لا يعني القول إنَّ (**بني إسرائيل**) انطلقوا في خروجهم من (**رعمسيس**) أنَّ

---

[1] انظر: «**قاموس الكتاب المقدس | دائرة المعارف الكتابيَّة المسيحيَّة**»، شرح كلمة مدينة (رَعمسيس)، على «الإنترنت»: https://goo.gl/Taj4ak.

بناءهم إيَّاها كان حتمًا في عهد **رمسيس الثاني**، أو (**مرنبتاح**)، وأنَّ خروجهم كان في عهد الأوَّل أو الأخير. فكلُّ هٰذه قرائن لا تصمد لإثبات حقيقة تاريخيَّة، فضلًا عن تناقضها مع الحقائق التاريخيَّة الأخرى المشار إليها. بل المتصوَّر أن اضطهاد **بني إسرائيل** كان قديمًا ومستمرًّا، ومنه تكليفهم ببناء مدن، منها **رعمسيس** في عهد النبي **يوسف**. وكأنَّ **رمسيس الثاني** أعاد إحياء تلك المدينة، أو ترميمها، أو تسميتها باسمه. وبما أنها مدينة قديمة، كان طبيعيًّا أن يكون وجود **العِبرانيِّين** فيها بكثافة إبَّان الخروج. وهٰذا مؤكِّد آخر على أنها ليست بالمدينة الحديثة البناء، بل هي قديمة، استوطن فيها **العبرانيُّون** وتناسلوا. وبما أنها في جهة الشَّرق، أو الشَّمال، أي على طريق (**فِلسطين**)- حيث يبدو أن مُقام **العِبرانيِّين** كان في تلك الجهة- كان طبيعيًّا كذٰلك أن تكون منطلَقًا لتجمُّعهم وتوجُّههم للخروج.

خلاصة القول: إن ما ورد في «**التوراة**» من إشارة إلى بناء اليهود مدينة (**رعمسيس**) و(**فيثوم**) لا شاهد فيه على عصر (**رمسيس الثاني**)، ولا على اضطهاد اليهود في زمنه، ولا على أنه فرعون الاضطهاد، بل هو دالٌّ على أن العِبرانيِّين كانوا في مكان اسمه «**رعمسيس**»، منذ (**يوسف**) حتى الخروج. لأن ما ورد في «**التوراة**» هو الآتي:

(**سِفر التكوين، ٤٧: ١١**): أن (**يوسف**) أسكن أباه وإخوته أرض «**رعمسيس**»، بناءً على أمر فرعون. وبذا أصبحت هٰذه الأرض مدينة للعبرانيِّين، كما يُفهم من هٰذه الإشارة وما تلاها من إشارات حول (**رعمسيس**).

ثُمَّ جاء في (**سِفر الخروج، ١: ١١**): أن فرعون كلَّفهم ببناء مدينتَي (**رعمسيس**) و(**فيثوم**)، لتكونا مخازن للحبوب. وهٰذا في عهد (**يوسف**) أيضًا، الذي كان قائمًا على خزائن الأرض، حسب طلبه، المشار إليه في «**القرآن**»[١]: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾. **ففيثوم** تقع في منتصف المسافة بين (**السُّوَيْس**) و(**بورسعيد**) عند (**بحيرة التمساح**)، وتُدعَى الآن (**تلّ المسخوطة**)[٢]، و**رعمسيس** تقع على بُعد ٣٠ كيلًا جَنوب غَربي **بورسعيد**، ويقال إنها الآن (**صان الحجر**)، بمحافظة الغربيَّة، قُرب ما يُعرف بمدينة (**الزقازيق**) حاليًّا. وهي التي اتَّخذها (**الهكسوس**) عاصمةً لهم، ثمَّ أنشأ فيها (**رمسيس الثاني**) توسُّعات وأقام فيها مخازن للغلال. على حين يرى باحثون آخرون أن **رعمسيس** هي (**قنتير**)، على بُعد نحو عشرة كيلات شَمالي مدينة (**فاقوس**) على الطريق إلى **صان الحجر**.[٣]

---

[١] **سورة يوسف**: الآية ٥٥.

[٢] كانت (**أتوم**) الآلهة الرئيسة لهٰذا الإقليم؛ فلعلَّ اسم (**فيثوم**) مشتقٌّ منها. (انظر: **برت إم هرو، كتاب الموتَى الفرعوني**، ٢٦٢).

[٣] انظر: القمص يعقوب، حلمي، **كتاب النقد الكتابي**: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها، على «الإنترنت»: https://goo.gl/bXW7GJ.

ثُمَّ في (**سِفر الخروج**، ١٢: ٣٧، و**العدد**، ٣٣: ٣، ٥): جاء أنهم ارتحلوا من مدينة (**رعمسيس**). أي من المدينة التي كانوا فيها منذ **يوسف**، متَّجهين إلى (**سُكُّوت**)، في طريقهم للخروج.

- هٰذا ويمكن أن يُضاف- من منغِّصات الفرضيَّة الذاهبة إلى أن (**رمسيس الثاني**) هو فرعون التسخير و(**مرنبتاح**) فرعون الخرج- أن الدلائل التاريخيَّة، وتلك المسجَّلة في «**التوراة**» و«**القرآن**»، تشير إلى أن فرعونَي التسخير[1] والخروج كانا طاغيتين، يحكمان إمبراطوريَّة مستقرَّة مستبدَّة ظاهرة. حتى بلغ الأمر بغرور فرعون إلى القول: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾[2]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ، وإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ**﴾.[3] وهٰذا ما ينطبق على الفرعون (**أمنحُتِب الثاني**)، وقَبْله (**تحوت مُوسَى الثالث**)، أكثر بكثير من انطباقه على (**رمسيس الثاني**) و(**مرنبتاح**)، اللذين كانت الإمبراطوريَّة المِصْريَّة في عهدهما-

---

[1] تسخير العبرانيِّين كان في شؤون الفِلاحة والبناء ونحوها من الأعمال المهنيَّة. أمَّا شؤون العمران الهائلة، من قبيل الأهرامات، فلم يكن لهم بها شأن؛ بل كانت تراثًا سالفًا على نزولهم (مِصْر)، بُنيت خلال ما يُعرَف بعصر الأهرامات، الذي يعود إلى الدولة القديمة، قبل الألف الثاني قبل الميلاد، ولاسيما عصر (خوفو)، و(خفرع)، و(منقرع)، في الأُسرة الرابعة.

[2] **سورة النازعات**: الآية ٢٤.

[3] **سورة القَصص**: الآية ٣٨.

وعلى الرغم من بقاء مظاهر القوَّة والعنفوان الحضاري والعمراني[1]- قد بدأت تتضعضع شيئًا فشيئًا، وتفقد جاهها، وقواها الحربيَّة، ويضمحلُّ اقتصادها كثيرًا، ويتجاذبها الخصوم؛ فيغزو حدودها الجيرانُ من الغَرب، ويهدِّدونها من الشَّمال، وتتمرَّد عليها البلدان التي كانت خاضعة لـ(مِصْر) في عهد الأُسرة الثامنة عشرة. أجل، لقد كانت الإمبراطوريَّة المِصْريَّة في عهد الرعامسة هٰؤلاء تعيش مخاضًا تحوُّليًّا خطيرًا نحو الأُفول، ولم تعُد في غلواء النفوذ التوسُّعي والمنعة والكبرياء والجبروت، كما كانت عليه من قبل. وما فرعون الذي ملأت أصداء جبروته أسماع التاريخ، وكانت نهايته آيةً إعجازيَّةً من آيات ما ينتهي إليه الجبابرة المتألِّهين الظالمين، بفرعونٍ من هٰذه الأُسرة الضعيفة المتداعية. زِدْ على هٰذا أن **مرنبتاح** لم يتولَّ المُلْك إلَّا طاعنًا في الستين من عُمره، ويُرجَّح أنه كان قد ناهز الثمانين حين تُوفي، وتدلُّ مومياؤه على أن وفاته كانت طبيعيَّة. فأيُّ فرعون مثل هٰذا العجوز- على ما يظهر أيضًا من أنه كان يعاني أواخر أيَّامه من التهاب المفاصل وتصلُّب الشرايين- يستطيع أن يطارد **(بني إسرائيل)** بنفسه برًّا وبحرًا؟!

---

[1] استنزف **(رمسيس الثاني)** خزائن الدولة في مظاهر شكليَّة من صناعة التماثيل والمعابد والأنصاب، إلى جانب حروبه. ولبقاء تلك الآثار وشهرتها، جرى الربط، لدَى بعض الكُتَّاب، بين عهده وخروج **(بني إسرائيل)**، أو اضطهادهم. لٰكن تلك المظهريَّات لا علاقة لها بحقيقة الدولة وقوَّتها التي كانت في تراجعٍ مطَّرد، داخليًّا وخارجيًّا، في عهده وعهد ابنه **(مرنبتاح)**.

من أجل هٰذا يبدو لنا رجحانُ تسلسل الأحداث على النحو الذي وصفناه في فرضيَّتنا، وأن (**مُوسَى**) وقومه خرجوا من (**مِصْر**) في عهد الفرعون (**أمنحُتِب الثاني**)، عام ١٤٠١ أو ١٤٠٠ق.م.

ولعلَّ من بواعث الاطمئنان إلى ما توصَّلنا إليه من استنتاج، أنْ نطَّلع- بعد تقديرنا هٰذا أن (**أمنحُتِب الثاني**) هو فرعون الخروج، واجتهادنا في طرح ما نراه من مسوِّغات ذٰلك- على معلومة قديمة مهمَّة تؤيِّد قولنا. وذٰلك في ما ذكره المؤرِّخ المِصْري (**مانيثو**، القرن ٣ ق.م)[1]، الذي- على ما يكتنف مدوَّناته التاريخيَّة من غرائب كانت محلَّ جدلٍ بين الدارسين[2]- أشار بوضوح إلى روايةٍ متوارثةٍ تذكر أن الفرعون الذي عاصره (**مُوسَى**)، ودار بينه وبينه الصراع، اسمه (**أمنحُتِب**)[3]. ومع أن القِصَّة التي ساقها **مانيثو** يلفُّها الغموض، وعلى الرُّغم من زعمه أن **لأمنحُتِب** هٰذا ابنًا اسمه (**رمسيس**)، فإن ما يستوقفنا، بين مزيج الحقائق

---

(1) See: Josephus, v1, p.257.

(٢) من ذٰلك زعمه أن (**مُوسَى**) كاهنٌ مِصْريُّ الأصل، تابعٌ للإلٰه (**أوزيريس**). وكان اسمه (**أوسارسيف** Osarseph)، فغيَّر اسمه إلى (**مُوسَى**). وأن (**أوسارسيف/ مُوسَى**) قاد حملةً تمرُّديَّةً دِينيَّةً وسياسيَّةً، بالتألُّب مع من سمَّاهم (**مانيثو**): «**الرُّعاة**»، متحالفًا مع موالين له من (**فِلسطين**)، في إشارة إلى (**الهكسوس**) الذين كان قد طردهم (**تحوت مُوسَى**) من (**مِصْر**)، ليثور هٰؤلاء جميعًا ضِدَّ (**أمنحُتِب**)، واعدًا إيَّاهم **مُوسَى** باحتلال **مِصْر**. وبعد ١٣ سنة، عاث فيها هٰؤلاء الرُّعاة خرابًا في **مِصْر**، قاد ضدَّهم **أمنحُتِب** وابنُه جيشًا عرمرمًا من (**إثيوبيا**)، التي كان **أمنحُتِب** قد لجأ إلى مَلِكها، فشرَّد بهم إلى حدود بلاد (**الشَّام**). ويفنِّد المؤرِّخ اليهوديُّ (**يوسيفُس**) ما رواه (**مانيثو**)، مع ما يبدو من أنه لا يخلو من بعض أصداء حقيقيَّة. (See: Josephus, v1, p.257, 261, 263, 265). لٰكن لا ننس أن **مانيثو** كاهنٌ مِصْريٌّ، أوَّلًا، ومدفوعٌ بالتعصُّب لِمِصْريَّته، ثانيًا، فليس بذٰلك المؤرِّخ المتجرِّد.

(٣) يُطلِق الإغريق عادةً: «**أمينوفيس** Amenophis» على (**أمنحُتِب**)، وقد كتبَ (**مانيثو**) ما كتبَ بالإغريقيَّة.

والخيالات التي سردها، هو أن فرعون الخروج كان اسمه: **أمنحُتِب**. وقد وافقه على إيراد هٰذا الاسم المؤرِّخ والفيلسوف السكندري (**كرمون** Chaeremon، القرن الأوَّل الميلادي).[1] ويبدو أن **مانيثو** كان يعتقد أن **أمنحُتِب** الذي أورد قصته هو (**أمنحُتِب الرابع/ أخناتون**)، ولعلَّ هٰذا ما فهمه عنه (**يوسيفُس**). غير أنه من المستبعد أن يكون المقصود (**أمنحُتِب الرابع**)؛ لأنه مَلِكٌ موحِّد، ومُصْلِحٌ دِينيٌّ، حتى قيل إنه موسويُّ الهوى والأثر، ولم يشهد عهده مثل تلك الأحداث المتعلِّقة بالخروج. وهناك من ذهب إلى أن المقصود (**أمنحُتِب الثالث**).[2] لٰكنه لا يمكن أن يكون المقصود (**أمنحُتِب الثالث، ولا الأوَّل**)؛ لما عُرف عهدهما به من استقرارٍ نِسبيٍّ ودَعَةٍ ورخاء. فلم يبق، إذن، إلَّا أن ما تناهَى إلى هٰؤلاء المؤرِّخين هو عن (**أمنحُتِب الثاني**)، كما استقرأنا، وإنْ اختلطت بعض الحقائق لديهم بالمرويَّات الخياليَّة الشعبيَّة، التي يُصَدِّرونها بعبارة: «**ويُقال**» أو «**ويُحكى**».[3] وقد رأينا تاريخ (**أمنحُتِب الثاني**) دالًّا بالفعل على أنه الأقرب إلى أن يكون هو فرعون الخروج.[4]

---

[1] See: Josephus, 279.

[2] See: Josephus, 257.

[3] For example: Josephus, 265.

[4] ربما حمل القارئَ الفضولُ على التساؤل هنا عن (**هامان**) الذي وردَ ذِكره في «**القرآن**» قرينًا لفرعون؟ والواقع أن هناك شخصيَّات عدَّة في حياة (**أمنحُتِب الثاني**) قد يكون أحدها: **هامان**. فمُربِّي هٰذا الفرعون اسمه: (**مين**). وكان ضابطًا، حارب مع أبيه (**تحوت مُوسَى الثالث**)، ثمَّ صار حاكمًا لإحدى المدن. وثمَّة: (**قن أمون**)، الذي كان من موظَّفي (**أمنحُتِب الثاني**) ذوي النفوذ الواسع. وهناك (**أمون إم أبت**)، الذي كان وزيرًا لهٰذا الفرعون. (انظر: فخري، **مِصْر الفرعونيَّة**، ٢٢٧- ٢٢٩). وفوق هٰذا فإن (**آمون**) ←

ومهما يكن من أمر، فإن ما يعني الدارسَ من ذٰلك كلِّه أن الوثائق تُثبِت أن إقامة (**بني إسرائيل**) في (**مِصْر وادي النِّيْل**) هي حقيقة تاريخيَّة وجغرافيَّة. ومن ثَمَّ فإن من الإيغال في الافتراض، ومن الهزل في التحليل، تجاهل هٰذا لاختلاق مسارح أخرى للأحداث من نسج الخيال، كالقول إن قِصَّة (**بني إسرائيل**) مع الفراعنة كانت في (**عسير**)!

وقد كان من آثار الميثولوجيا المِصْريَّة على (**بني إسرائيل**)- التي صاحبتهم عَقِب الخُروج من (**مِصْر**)- اتِّخاذهم العِجْل إلٰـهًا. فما كان العِجل الذي عبدوه سوى (**أبيس**)، المقدَّس لدَى الإمبراطوريَّة الحديثة التي عايشوها في (**مِصْر**)، وخرجوا عليها. وكان العِجْل **أبيس** محلَّ تقديس الفرعون الذي خرجوا عليه، وهو (**أمنحُتِب الثاني**)[1]، ومَن تلاه من الفراعنة. وقبل **أبيس** كان لدَى المِصْريِّين العِجْل المقدَّس باسم (**منفيس**)، بمدينة (**منف**)، خلال الدولة المِصْريَّة القديمة،

هو كبير الآلهة في العاصمة (**طِيبة**). أمَّا «**هامان**»، بهٰذا اللفظ، فوزيرٌ للمَلِك الفارسي (**أَحَشْوِيروش**)، اسمه: (**هامان بن هَمَداثا الأَجَاجِي**)، كان يضطهِد اليهود بعد السَّبي البابلي، فكان **لأستير** اليهوديَّة، بعد أن أصبحت زوج المَلِك، دَورُها في تليين عريكة المَلِك وقلب الأمور لصالح اليهود- انتقامًا من **هامان** لما كان يُدَبِّره لهم من إبادة- فأمر المَلِك بصلب **هامان** وأبنائه العشرة، وقتل امرأته، وخمس مئة من رجاله، وفوَّض اليهودَ في أن «**يُهْلِكُوا ويَقْتُلُوا ويُبِيدُوا قُوَّةَ كُلِّ شَعْبٍ وكُورَةٍ تُضَادُّهُمْ (حَتَّى الأَطْفَالَ والنِّسَاءَ!)، وأَنْ يَسْلُبُوا غَنِيمَتَهُمْ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فِي كُلِّ كُوَرِ المَلِكِ أَحَشْوِيرُوشَ!**» (**العهد القديم**، سِفر أستير، ٨: ١١- ١٢). حتى أبادوا ٧٥٠٠٠ خمسة وسبعين ألفًا! (انظر: م.ن، ٩: ١٦). وتلك المجزرة من مفاخر الكتاب المقدَّس، التي اتَّخذ اليهودُ ذكراها عيدًا كرنفاليًّا للفرح والشراب، في ١٤ من آذار، باسم (**الفوريم**).

(1) See: Josephus, 263, 271.

قبل الألف الثاني قبل الميلاد، يتقمَّصه إلـٰههم (**فتاح**). وهما- إلى ذٰلك- معبودان متعلِّقان بالثقافة الفِلاحيَّة، التي كان يشتغل بها العبرانيُّون في **مِصْر**. وكان المِصْريُّون يُمثِّلون **أبيس** عِجْلًا أسود، منقَّطًا ببياض، على جبهته مُربَّع أو مثلَّثٌ أبيض، وفي جانبه الأيمن هلال، ويغطِّي ظهرَه رداءٌ أحمر عادةً مع صورة عُقاب، وشَعر ذَنَبه مضاعَف، وفوق لسانه خُنفسة سوداء. وقد أَسْطَروا أن **أبيس** نشأ من قبضةٍ من نور، هبطت من السماء في رحم بقرة، فحملتْ به، ولم تحمل بعده نهائيًّا.[1] بل لقد كانوا يتصوَّرون السماء نفسها بقرةً حلوبًا، تتدلَّى النجوم من أثدائها، ويَمْخَر إلٰهُ الشمس في زورقه عُباب ظهرها نهارًا![2] ويظهر في تماثيلهم بين قرنَي **أبيس** قرصُ الشمس؛ من حيث هو رمزٌ شمسيّ. أمَّا اليهود، فقد صنعوه- وهم ما برِحوا (**سيناء**)، قريبي عهد بالعقائد المِصْريَّة- عِجْلًا ذهبيًّا شمسيًّا خالصًا![3] أي أن عِجْل **بني إسرائيل** يبدو رمزًا شمسيًّا، أتونيًّا مِصْريًّا، نقيضًا للرمزيَّة الميثولوجيَّة العَرَبيَّة القديمة لمثل هٰذا الحيوان. ذٰلك أن الثور (**شهر**) في ميثولوجيا العَرَب كان رمزًا قمريًّا، لا شمسيًّا.[4]

---

(1) انظر: Herodotus, Book 3, Chap. 28؛ استيندرف، ٢٠، ٦٣.

(2) انظر: استيندرف، ٢٨.

(3) يشير (**هيرودوت**) إلى تقديس المِصْريِّين للبَقَر، وأنهم لا يذبحونها. وكانوا يصوِّرون الإلٰهة (**إيزيس**) امرأةً ذات قرنَين. (See: Herodotus, Book 2, Chap. 41). ولذا، فلعلَّ تردُّد (**بني إسرائيل**) في الاستجابة للأمر بذبح البَقَرة، الذي حكى عنه «**القرآن**»، هو بسبب تلك العقيدة المِصْريَّة المتوارثة، كما كان اتخاذهم العِجل من آثار العقائد المِصْريَّة في (**أبيس**).

(4) انظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٨٧، ٢٦٢.

ولا ينفي هٰذا أن الثور في الميثولوجيا المِصْريَّة نُظِر إليه أحيانًا بوصفه رمزًا قمريًّا أيضًا. (انظر: فخري، ←

وهٰكذا تأتي الآثار المِصْرية لتُؤيِّد القول إن (**بني إسرائيل**) كانوا في أرض (**كنعان**) من بلاد (**الشَّام**)، وكانوا في (**مِصْر**). وأن **مِصْر** التي وقع الصراع بينها وبينهم هي **مِصْر** المعروفة في وادي (**النِّيْل**). وإذن، فإن الإشارة إلى (**مصرايم** Mestraim) لدَى العِبرانيِّين يُقصَد بها: **مِصْر**. وهو ما يؤكِّده المؤرِّخ المِصْري (**مانيثو**)[١]. وتسقط بذاك المزاعم التلفيقيَّة لهٰذا التاريخ في مكانٍ آخر.

ولقد كان تصوُّر المِصْريِّين لجغرافيَّة العالم ساذجًا ومحدودًا جِدًّا؛ فكانت (**مِصْر**) في تصوُّرهم هي العالم بأسره، والسماء ترتكز على الجبال الشامخة التي تكتنف **مِصْر**.[٢] ومن هنا يُمكن أن نفهم العقليَّة التي كمنت وراء قول فرعون: ﴿**يَا هَامَانُ، ابْنِ لِي صَرْحًا، لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ، فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ، وإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا.**﴾[٣] بل تصوَّروا إلٰه الكون كالجُعل (**خفرع**) الذي يُدحرِج أمامه بُويضاته في كُرَة من الروث.[٤] وبذا رمزوا إليه في جداريَّاتهم ونقوشهم، وأطلقوا هٰذا الاسم على الملك (**خفرع**، ٣٠٦٧- ٣٠١١ق.م). ويبدو أن ذٰلك لتصوُّرهم الإلٰه- في إدارته الكون، ولاسيما الشمس- كالجُعل الذي

مِصْر الفرعونيَّة، ٢٠٦). وكان المِصْريُّ القديم يعبِّر بالثور عن القوَّة والفُحولة، تمامًا كما كان العربيُّ القديم يفعل. (انظر: **برت إم هرو، كتاب الموتَى الفرعوني**، ٢٢، ١٩٦).

(1) See: Manetho, p.7.

(٢) انظر: استيندرف، ٢٧.

(٣) **سورة غافر**: الآيتان ٣٦- ٣٧.

(٤) هٰذه الحشرة تُسمَّى في لهجات (**فَيْفاء**): «**مقَلْفِع امـخِرِي**». تعيش على الروث، وتقوم بدحرجة كُتَلٍ منه. ذٰلك أنها تخبِّئ بُويضاتها في كُرَيَّة من الروث، وتظلُّ تُدحرجها في الشمس حتى تفقس.

يُدحرِج أمامه كُرةَ بُويضاته.[1] ولعلَّه من أجل هٰذه التصوُّرات المعرفيَّة الضيِّقة، والعقائد الدِّينيَّة المحافظة، إلى درجة الانغلاق، والمستمرَّة في أجيال المِصريِّين القدماء، باغت (**الهكسوس**) المصريِّين من حيث لم يحتسبوا، واجتاحوهم فاحتلُّوا أرضهم، على حين عُزلةٍ وجهلٍ بالعالم المحيط. ثُمَّ اكتشف المِصْريُّون أن هناك جيرانًا لهم في (**الشَّام**)، وجيرانَ جيرانٍ في (**العِراق**)، ثُمَّ في (**ليبيا**)، وقارَّة (**أوربا**)، وهلمَّ جرًّا. ومَن كانت تلك حاله المعرفيَّة الدِّينيَّة لا يُتصوَّر أن يؤسِّس مستعمرات عريقة عتيقة في قارات أخرى، كما يدَّعي مؤلِّف «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**».[2]

٣١- القُدس/ أورشليم:

تتضافر الشهادات والآثار- مذ (**هيرودوت**)، فـ(**مانيثو**)، و(**سترابو**)، و(**أَلينيوس**)، و(**يوسيفُس**)، و(**وَهْب بن مُنبِّه**)، و(**الهمداني**)، إلى جانب نصوص «**العهد**

[1] كان اللاهوت المِصْري القديم بالغ التعقيد والغرابة. ففي الوقت الذي اعتقدوا أن (رع) هو الشمس، أو إلٰهٌ ساكنٌ في الشمس، يبدو أنهم تخيَّلوا فوقه إلٰـهًا أعظم، هو الذي يُديره، وهو (**خفرع**)، «**الرعاية الخفيَّة**»، وصوَّروا عملَه من خلال عمل الجُعل المشار إليه! ويَعجب المرء من التناقض في الذِّهنيَّة المِصْريَّة القديمة بين الإبداعيَّة الصناعيَّة المُذهلة، حتى بمقاييس عصرنا، والطفولة العقلانيَّة الغارقة في بدائيَّتها. ويكفي المرءَ، لمعرفة مدَى طُفولة العقليَّة المِصْريَّة القديمة وما استبدَّ بها من رُكام العقائد والأساطير الغريبة، مراجعةُ ما كتبه (**هيرودوت**) في تاريخه عن خفايا الثقافة المِصْريَّة. وتلك آيةٌ على أن (الإبداع الفنِّي التِّقاني) و(الوعي الفِكري) لا يجتمعان، بالضرورة، في رأسٍ واحدٍ.

[2] هٰذا ما يَرْجُح من خلال الاستقراء الثقافيِّ لمُجمَل أطوار التاريخ المِصْري القديم، وإنْ كُنَّا لا نَعدم في المقابل إشارةً أوردها (**سترابو**) تزعم من خلال بعض الروايات أن الفرعون (**سنوسرت** أو **سيزوستريس الأوَّل**، -١٩٢٦ق.م) اجتاز (**البحر الأحمر**) إلى (**جزيرة العَرَب**)، وغزا (**قارَّة آسيا**)، خلال القرن العشرين قبل الميلاد. (See: Strabo, (v. 7), Book 16, Chap. 4: 4).

القديم»، فنصوص الحوليَّات الآشوريَّة، والعاديَّات المِصْريَّة- على نقض ما خُيِّل إلى صاحب كتاب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**». فلا تاريخ لـ(**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، ولا علاقة لهم بها، إلَّا علاقة بعض الغزو والعدوان، الذي صُدَّ صَدًّا كاسحًا، حتى إنهم أَلقَوا تابوتهم على آثارهم فارِّين إلى بلاد (**الشَّام**)، كما تقدَّم في ما سجَّلته كتب التاريخ من ذٰلك. ثمَّ كانت تلك الهِجرات التي حدثت بعد ميلاد (**السيِّد المسيح**) فارِّين من بلاد **الشَّام** بسبب اضطهادهم من قِبَل (**الرومان**)، مستوطنين بشَمال (**الحِجاز**)، في (**تيماء**) وضواحي (**يثرب**) حينًا من الدهر، حتى أُجْلُوا مرَّةً أخرى عائدين من حيث أَتوا. أمَّا مَن تهوَّدَ من العَرَب، فشأنٌ مختلف؛ لأن اعتناق دِينٍ أمرٌ، والأَعراق وتاريخ الأَعراق وأوطانها أمرٌ آخر.

ثُمَّ ليَحُلَّ لنا صاحب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**» المعادَلة الآتية، أو ليَحُلَّها أحد أتباعه أو معجبيه، في ضوء زعمه السورياليِّ: أن (**أورشليم**) كانت في (**النماص**)، جنوب غربي (**المملكة العَرَبيَّة السُّعوديَّة**)، وأنها قرية (**آل شريم**):

لقد وردَ اسم (**أورشليم**) في رسائل الكنعانيِّين الفِلسطينيِّين إلى الفراعنة في (**مِصْر**)، خلال الألف الثاني قبل الميلاد. ذٰلك أن من أقدم النقوش إشارةً إلى اسم (**أورشليم**)، والموجودة اليوم في المتحف المِصْري بـ(**القاهرة**)، تلك اللوحات المكتوبة بالخط المسماري، وباللغة البابليَّة والكنعانيَّة الفِلسطينيَّة، التي سبقتْ إليها الإشارة في ما عُثِر عليه في (**تلِّ العمارنة**) من رسائل الكنعانيِّين إلى فرعون. وفي

تلك الرسائل، القادمة من (**فِلسطين**)، لا من جنوب غربي (**الجزيرة العَرَبيَّة**)!، إلى (**مِصْر وادي النِّيْل**)، لا إلى (**مصرامة عسير**)!، يذكر المرسِلُ- واسمه (**عبد يحيبا** Abdi-khiba)[1]، حاكمُ (**أورشليم**) في **فِلسطين**- اسمَ مدينته بلفظ: «**أوروسالم**»، مستنجِدًا بفرعون **مِصْر** لصَدِّ مهاجمة العِبرانيِّين، كما عرفنا من قبل.

إن ورود اسم (**أورشليم**) في تلك الرسائل الفِلسطينيَّة، التي تعود إلى ما قبل عام ١٣٣٦ق.م، يُسقِط أيَّ زعم بأن **أورشليم** كانت في مكانٍ آخر. وهو يدلُّ على أن هٰذا الاسم أقدم استعمالًا من تاريخ خروج الإسرائيليِّين من (**مِصْر**) ودخولهم محتلِّين أرض (**فِلسطين**)، فضلًا عن تاريخ (**داوود**) أو (**سُلَيمان**). بل هو أقدم من ورود (**إبراهيم الخليل**) إلى **فِلسطين**. ولمَّا كان كذٰلك، وكان الاسم غير عِبريِّ الأصل، تعثَّرت به العِبريَّة في البدء، فوُجِد يُكتَب أحيانًا: «**يروشالام**»، وأحيانًا «**يروشالايم**». وأغلب الظن أن «**سالمًا/ شالم**» هٰذا اسم إلٰهٍ وثنيٍّ كنعانيٍّ، ولعلَّه إلٰهٌ مختصٌّ بالسلام لا بالحرب.[2] وقيل: إن الأصل في ذٰلك أن (**ملكي صادق**)- المَلِك الكنعاني الذي استقبل (**إبراهيم الخليل**) حين مَقْدَمه إلى (**أرض كنعان**)، وباركه، وقدَّم له الخُبز والخمر، وناصره- كان أَوَّل من اختطَّ (**أورشليم**). وكان هٰذا المَلِك يُعرف بالبِرِّ والتقوَى ويُوصَف بمَلِك السَّلام. فعُرِفت المدينة التي اختطَّها بمدينة السَّلام.[3] أمَّا «**أور**»، فنعرفها كلمةً في

---

[1] وقد يُورِده بعض الدارسين بصيغة «**عبد خيبا**». (انظر: سوسة، ٤١٦).

[2] انظر: ظاظا، **القُدس**، ٩- ١٠.

[3] انظر: سوسة، ٣٨٦- ٣٨٧.

الساميَّات العِراقيَّة بمعنى «**مدينة**»، أو «**بلدة**»، حتى إن (**العِراق**) كان يُسمَّى: «**أُور الكلْدانِيِّين**»، كما في العبارة التوراتيَّة: «**وأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، ولُوطًا بْنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ.**» وقال الربُّ لـ(**إبراهيم**)- بزعمهم-: «**أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هٰذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا**».[1] ومن هنا فكأن **إبراهيم** لَّما جاء (**فِلسطِين**) قادمًا من **العِراق** سمَّى المحلَّة التي فيها الإلٰه (**سالم**)- أو التي تتَّصف بالسَّلام المنسوب إلى مَلِكها **ملكي صادق**- باللسان العِراقي: «**أور سالم**»، أي «**مدينة سالم**»، أو «**بلدة سالم**»، أو «**مدينة السَّلام**».

وقد ظلَّت (**أورشليم**) مدينةً فِلسطينيَّةً لليبوسيِّين، لم يستول عليها اليهود إلَّا في عهد (**داوود**)، عَقِب قتله البطل الفِلسطيني (**جالوت**). ثُمَّ توالَى الاستيلاء على ديار الفِلسطينيِّين، أرباب الأرض الأصليِّين، بالشراء تارةً وبالسطو المسلَّح تارة.[2] وحاول المَلِك **داوود** تغيير الاسم الكنعاني (**أورشليم**)، فسمَّاها (**مدينة داوود**)، لٰكن اسمها العتيق هو الذي بقي، منذ مجيء (**إبراهيم الخليل**) إليها، أو قبله، إلى اليوم.[3]

وكذا ورد اسم (**أورشليم**) في نقوش أخرى، كما في النقوش الآشوريَّة. ففي عهد الإمبراطور الآشوري (**سنحاريب**، ٧٠٥- ٦٨١ق.م)، ورد اسم

---

[1] **سِفر التكوين**، ١١: ٣١، ١٥: ٧. وانظر أيضًا: م.ن، ١١: ٢٨.

[2] انظر: ظاظا، م.ن، ١٧- ١٨.

[3] انظر: سوسة، ٣٩٠.

أورشليم بلفظ: «**أوروسليمو**».[1] وهٰذا قبل تاريخ تدمير (**نَبُوخَذْنَصَّر**) **لأورشليم**، وسبْي اليهود إلى (**بابل**). أم لعلَّه أصاب **نَبُوخَذْنَصَّر** الحَوَلُ والخَبَلُ؛ فترك (**أورشليم فِلسطين**) غَربًا واتَّجه جَنوبًا يقصف استباقيًّا قرية (**آل شريم**) البائسة في (**النماص**)، التي لم يكن لها وجودٌ على وجه البسيطة، ولم يكن للسيِّد (**شريم**) نفسه الذي سُمِّيت القرية باسمه ، إلَّا بعد ذٰلك بأكثر من ألفي عام؟!

***

التساؤل الذي يفرض نفسه هاهنا: ما سِرُّ مثل ذٰلك الاهتمام منقطع النظير بالبحث عن تاريخ (**بني إسرائيل**) والإصرار على التنقيب وراء سِيرة اليهود؟ وما جدواه؟

ما الذي تستفيده البشريَّة إذا عرفت أن (**بني إسرائيل**) كانوا في (**الشَّام**)، أو في (**اليَمَن**)، أو في (**الصومال**)، أو في (**الهونولولو**)؟!

أ ليس لكلِّ أُمَّةٍ من الأُمم تاريخٌ، ولها ما لها من تراثٍ وماضٍ مجهول؟ فلماذا انصباب الاهتمام على أُمَّةٍ واحدة، تبقى الشغل الشاغل للباحثين والمؤرِّخين والآثاريِّين، من عَرَبٍ ومستشرقين وسِواهم؟

إنه نبشٌ يبدو وراءه ما وراءه من إعادة ماضٍ لن يعود، اللَّـٰهُمَّ إلَّا باستعادة التطاحن بين الشعوب؛ حين يأخذ كلُّ شعبٍ في الركض خلف أساطيره البائدة قبل آلاف السنين، وخلف حكاياته التاريخيَّة، ومواطنه القديمة، صحيحةً أو

[1] انظر: ظاظا، م.ن، ٧– ٨.

مزعومة، ساعيًا إلى تصفية حسابات الأمس البعيد، ممَّا أكلَ الدهر عليه وشرب.

إن بعض البحث لا يُعَدُّ ترفًا معرفيًّا فحسب، بل هو إلى ذٰلك تشريعٌ غير مسؤول لأبواب من الشرور والخراب، ولو على المدى البعيد. ومطامع **(إسرائيل)** في العالم العَرَبي معروفة، وبلا حدود، وهي تأتي في تصريحات قادة هٰذا الكيان الغاصب لأرض **(كنعان/ فِلسطين)**، بلا مواربة، منذ تأسيسه في العصر الحديث. على لسان **(هرتزل)**، فـ**(وايزمان)**، و**(مناحيم بيجن)**[1]، إلى آخر الوصاوص الصهيونيَّة، التي لم تَعُد وصاوص اليوم، بل أضحت وجوهًا سافرة، ومرحَّبًا بها في بعض البلاطات العَرَبيَّة. وهي دعاوَى تاريخيَّة لا ترى **فِلسطين** إلَّا قلب إمبراطوريَّة شاسعة، تشمل **(مِصْر)**، و**(الشَّام)**، و**(العِراق)**، و**(الجزيرة العَرَبيَّة)**. حالمةً بإعادة عجلة التاريخ إلى الوراء الأُسطوري؛ كي يعود مَن كان قبل ثلاثة آلاف عام في مكانٍ إلى ذٰلك المكان. في فوضى تاريخيَّة، لو نشبت لوازمُ معناها الأرعن، لتحوَّل العالم بأسره إلى مجازر لا أوَّل لها ولا آخِر، ولا نَصْر فيها سوى لفكرةٍ حمقاء، مهووسة بالأساطير التاريخيَّة المقدَّسة.

أَنْ يأتي المؤرِّخ العَرَبيُّ المعاصر بعد هٰذا التآمر العالمي على أرض العَرَب ليفرش بدَوره سجَّاده الأحمر- المرقَّع بالتأوُّلات، والتخمينات، والظنون، واللا منهاج إجمالًا، بل بالافتراءات الكالحة- لمواطئ تلك الدعاوَى والمطامع، التي ما

[1] انظر في هٰذا مثلًا: كتاب **(السقَّاف)**. مع التحفُّظ على المنزع السياسي الطاغي على المنهج العِلْمي المتجرِّد وراء هٰذا الكتاب.

كانت يومًا لتفتقر إلى خدماته البلهاء.. أَنْ يحدث مثل ذٰلك، فما يملك عاقلٌ تعليلًا مقبولًا لهٰذا السلوك النابي عن كلِّ القِيَم العِلْميَّة والحضاريَّة. وتلك مشاريع لم يتبنَّها الصهاينة أنفسهم؛ لا تعفُّفًا، ولٰكن لأنهم- وإنْ غَلَوْ في أمرهم- من الفِطنة بحيث يحترمون العقل العامَّ، ويحترمون الحدَّ الأدنَى من المنهاج الاستقرائي، رابئين بطرحهم عن الإسفاف التفسيري، وعن الانحطاط إلى ضروب من الشعوذات التاريخيَّة؛ لكيما يُبقوا على مصداقيَّةٍ ما لما يزعمون. وهو ما لا يحسب له الفاتكُ العَرَبيُّ الهُمام حسابًا؛ فإذا هو يتردَّى في مهاوي التآليف المجَّانيَّة، غاية طموحه إثارة الدهشة، وكسب الصيت، وأن يُمْسي حديث الأسمار والمجالس، وإنْ على حماقةٍ ارتكبها، أو فضيحةٍ اقترفها؛ شأنه شأن أجداده من ذؤبان العَرَب وصعاليك الصحراء. والعِرق دسَّاس! ذٰلك أن الصِّيت في ثقافةٍ كهٰذه كَسْبٌ عظيمٌ لا يَعْدله كَسْب، وغايةٌ جُلَّى تبرِّر في سبيلها كلَّ وسيلة؛ فلبئس خامل الذِّكر، من حيث كان:

ذِكرُ الفَتى عُمرُهُ الثاني، وحاجَتُهُ ما قاتَهُ، وفُضولُ العَيشِ أَشغالُ!

والعَرَب لم يعودوا «**ظاهرة صوتيَّة**»، فحسب، بل هم إلى ذٰلك «**ظاهرة صيتيَّة**»، بما جمُل من صيتٍ أو قبُح. وهٰذه من تلك، على كلِّ حال. لأجل هٰذا، لم يكن من فراغٍ أن امتلأت مكتبتنا العَرَبيَّة بما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على ذهن بَشَر، ممَّا أكثره لا وزن له عند التحقيق، لا في عِلْم ولا في أدب، ولا نظير له في تراث أُمَّةٍ من الأُمم.

٣٢- أَسْرَلَة التاريخ:

كيف البحث عن تاريخٍ وجغرافيا أهلُهما أنفسُهم غير مستيقنين منهما؟

إن الكتاب المقدَّس لمضطربٌ في شأن التاريخ الإسرائيليِّ والجغرافيا ومتناقضٌ غاية الاضطراب والتناقض. إلى درجة أنه يقول لك إن (**بني إسرائيل**) من نسل (**سام**)؛ فـ«**سَامٌ أَبُو كُلِّ بَنِي عَابِر** »[١]، وهو (**عابِر بن شالح بن أَرْفَكْشَاد بن سام**)، الذي تقول عنه «**التوراة**»: «**عَاشَ شَالَحُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ووَلَدَ عَابِرَ. وعَاشَ شَالَحُ بَعْدَ مَا ولَدَ عَابِرَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وثَلَاثَ سِنِينَ، ووَلَدَ بَنِينَ وبَنَاتٍ. وعَاشَ عَابِرُ أَرْبَعًا وثَلَاثِينَ سَنَةً ووَلَدَ فَالَجَ. وعَاشَ عَابِرُ بَعْدَ مَا ولَدَ فَالَجَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وثَلَاثِينَ سَنَةً، ووَلَدَ بَنِينَ وبَنَاتٍ.**»[٢] ما يُفهم منه أن (**عابِر**) هٰذا هو جدُّ العِبرانيِّين. لٰكن (**مُوسَى**) سيأتيك لاحقًا- حسب كتابهم- ليقول: إن **بني إسرائيل** من نسل (**أرام بن سام**)، أخي (**أَرْفَكْشَاد بن سام**): «**أَرَامِيًّا تَائِهًا كَانَ أَبِي، فَانْحَدَرَ إِلَى مِصْرَ وتَغَرَّبَ هُنَاكَ فِي نَفَرٍ قَلِيل؛ فَصَارَ هُنَاكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وعَظِيمَةً وكَثِيرَةً. فَأَسَاءَ إِلَيْنَا المِصْرِيُّونَ، وثَقَّلُوا عَلَيْنَا وجَعَلُوا عَلَيْنَا عُبُودِيَّةً قَاسِيَةً...**».[٣] وكذا ستخبرك «**التوراة**» عن لسان **بني إسرائيل** وأنه لغة (**عابِر**) السامي، غير أنها ستخبرك في موضع آخر أن لسان **بني إسرائيل** هو لغة (**كنعان**) الحامي. فمع أنها كانت قد

---

[١] سِفر التكوين، ١٠: ٢١.

[٢] م.ن، ١١: ١٤- ١٧.

[٣] سِفر التثنية، ٢٦: ٥- ٦.

قالت لك إن (**كنعان**) من نسل (**حام**): «**وبَنُو حَامٍ: كُوشُ ومِصْرَايِمُ وفُوطُ وكَنْعَان**»[1]، وأن العِبرانيِّين من نسل (**سام**)، فإنه لا يبدو إشكالٌ في ذٰلك التاريخ حين يرجع إلى القول: إن العِبريَّة كانت لغة (**كنعان**): «**وتَكُونُ أَرْضُ يَهُوذَا رُعْبًا لِمِصْرَ. كُلُّ مَنْ تَذَكَّرَهَا يَرْتَعِبُ مِنْ أَمَامِ قَضَاءِ رَبِّ الْجُنُودِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهَا. فِي ذٰلك الْيَوْمِ يَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ خَمْسُ مُدُنٍ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ كَنْعَانَ وتَحْلِفُ لِرَبِّ الْجُنُودِ، يُقَالُ لإِحْدَاهَا (مَدِينَةُ الشَّمْس)**».[2]

تاريخٌ يضرب بعضه بعضًا، وكتابٌ في كلِّ سِفْرٍ له لسان.

لكأنما هاجسٌ من التملُّك التاريخي ظلَّ يختلج في نفوس الكهنة الكَتَبة اليهود؛ بسبب عُقَدٍ تاريخيَّةٍ من عدم امتلاك وطنٍ، فجعلوا (**بني إسرائيل**) هم العِبريِّين، وهم الآراميِّين، وهم الكنعانيِّين، وهم الحاميِّين، وهم الساميِّين- كلِّ الساميِّين- بل إنهم في نهاية الأمر شعب الله المختار، وجنوده، وأَحِبَّاؤه. ربُّ الكون نفسه محتكَرٌ لهم وحدهم، يأمرونه فيأتمر.

---

(1) **سِفر التكوين**، ١٠: ٦.

(2) **سِفر إشعيا**، ١٩: ١٨.

ولا تفسير لهٰذا التضارب إلَّا من خلال التصوُّر القائل بأنها لم تكن لـ(**بني إسرائيل**) من لُغةٍ مستقلَّة، وإنْ صُوِّر هٰذا في التراث التوراتي. ذٰلك أن اللغة في طور (**إبراهيم**) و(**إسحاق**) و(**يعقوب**) كانت لغةً «**عبرانيَّة**»، أي بدويَّة آراميَّة، ثمَّ باستيطان (**يعقوب**) وأبنائه في (**أرض كنعان/ فِلسطين**) صارت لغتهم وثقافتهم خليطًا من لغتهم البدويَّة السابقة واللغة الكنعانيَّة، وهما على كل حال تنحدران من أصلٍ ساميٍّ واحد، ثمَّ لَمَّا ارتحلوا إلى (**وادي النِّيْل**) أصبحت لغتهم مِصْريَّة غالبًا، مع بقايا محتملة من تراثهم اللغوي، ثُمَّ لَمَّا خرجوا من (**مِصْر**) إلى بلاد **كنعان** ثانية، غدت الكنعانيَّة هي المهيمنة، بوصفها لغة أهل البلاد الأصليِّين. (انظر حول هٰذا مثلًا: سوسة، ف- ..، ٢٢٥).

إنها دِيانة الطوطم/ الأبِ البدائيِّ المتوارث، التي ورثتها دِيانةُ الابنِ الأضحيةِ الفادي في المسيحيَّة[1]. وكما هم متعدِّدو الهويَّات، فإنهم متعدِّدو الأوطان؛ فهم في (**الشَّام**)، وهم في (**مِصْر**)، وهم في (**العِراق**)، وهم في (**الحبشة**)، وهم أخيرًا في (**جزيرة العَرَب**)، ببركة بحوث (**الصَّليبي**)، وصحابته من المؤلِّفين وأتباعه.

وما عاد اليوم من شكٍّ في أن ادِّعاءات «**العهد القديم**» مُريبة، بصفةٍ عامَّة. فقد مضت قرونٌ متطاولة عليه وهو ينسب إلى (**بني إسرائيل**) ممالك هائلة، وأبنية عظيمة، ثمَّ إذا نُقِّب عن آثار ذٰلك في العصر الحديث، لم يوجد منه شيء. في حين بقيت شواهد الأُمم الأخرى ماثلةً للعيان، في (**مِصْر**) و(**الشَّام**) و(**العِراق**) و(**الجزيرة العَرَبيَّة**). ولا تفسير لهٰذا إلَّا أن الأَسطرة- ذات الأغراض الدِّينيَّة والإديولوجيَّة- قد لعبت دَورها في تلك الصورة الخياليَّة المضخَّمة جِدًّا عن تاريخ (**بني إسرائيل**). لذا ما كان من منطقٍ في افتراض أن ذٰلك التاريخ- إذْ لم يُعثَر على آثاره الحرفيَّة في (**فِلسطين**)- هو في مكانٍ آخر، أشدَّ بؤسًا في شواهده، بل هو خلوٌ منها تمامًا!

على أن جنون العظَمة الأُسطوريَّة القديمة، وهوس الاستئثار والاستيطان، ما زالا قائمَين اليوم على أَشُدِّهما، منذ احتلال (**فِلسطين**)، بحُجج تاريخيَّة أُسطوريَّة واهية، ولا تمتُّ إلى العِبرانيِّين الساميِّين القدماء بصِلة، سِوَى صِلة الدِّين

[1] انظر: فرويد، ١١٩، ١٢٢.

المؤدلَج والموظَّف سياسيًّا. بل إن أولٰئك العِبرانيِّين الساميِّين القدماء أنفسهم إنَّما كانوا من الساميِّين الذين هاجر أسلافهم من (**الجزيرة العَرَبيَّة**) إلى بلاد الرافدَين، ثمَّ قَدِموا من (**العِراق**)- أو من (**أُور الكَلْدانِيِّين**)، حسب نصِّ «**التوراة**»- واستوطنوا في (**فِلسطين**)، أرض (**كنعان**)، التي لم تكن بأرضهم، بل هم غرباء عنها، بنَصِّ توراتهم: «**وسَكَنَ يَعْقُوبُ في أَرْضِ غُرْبَةِ أَبِيهِ، في أَرْضِ كَنْعَان**»[1]. ثُمَّة احتلُّوها بعد خروجهم من (**مِصْر**)، مُبيدين مِن أهلها آلافًا مؤلَّفة، حسب مفاخرهم الدمويَّة المقدَّسة، وذٰلك وَعْدُ (**يَهْوَه**) لهم، بأن «يُبِيْد» الشُّعوبَ في سبيلهم![2] مبرِّرين ذٰلك بمِنحة أرضٍ إلٰـهيَّةٍ خاصَّة.[3] فلقد دعموا المطامع الاحتلاليَّة بالدِّين من أوَّل يوم، ليُصبح الدِّين سياسة والسياسة دِينًا.

لم يستطيعوا قديمًا احتلالها بسهولة، لمناعتها وصلابة الدِّفاع اليبوسيِّ عنها. ويؤكِّد (**بيرون** S. W. Perowne) أن (**أور سالم**) كانت قبل مجيء (**الموسويِّين**) من (**مِصْر**)، بقيادة (**يشوع**)، مدينةً كنعانيَّةً خالصة، ذات أهميَّة كبيرة ومَنَعة.[4] وحتى بعد استقرارهم، وتأسيس الممالك، لم يكن لهم من سبيلٍ إلى مكانٍ يبنون فيه الهيكل إلَّا بالشراء من (**اليبوسيِّين**). وذٰلك ما حدث في عهد المَلِك (**داوود**).[5]

---

(1) **سِفر التكوين**، ٣٧: ١.

(2) انظر مثلًا: **سِفر الخُروج**، ٢٣: ٢٣- ٢٤.

(3) انظر: **سِفر التكوين**، ١١: ٢٧- ٢٨، ٣١، ١٥: ٧؛ ديورانت، ج٢ م١: ٣٢٤.

(4) انظر: سوسة، ٢٩٢. نقلًا عن:

S. W. Perowne, "**Jerusalem**," Ency. Brit., Vol. 12, 1965, p. 1007.

(5) انظر: **سِفر صموئيل الثاني**، ٢٤: ٢٤- ٢٥.

ثمَّ احتلُّوها ثانيةً بتمكين (**الفُرْس**)، إذا أعادهم الملك الفارسي (**قورش**) من (**بابل**) إلى (**أورشليم**) بعد مئة عامٍ من السبْي وتدمير **أورشليم** على يد (**نَبُوخَذْنَصَّر**)، وذٰلك مقابل عمالتهم- جاسوسيَّةً، وتآمرًا، وحراسةً، وتموينًا، ومساندةً عسكريَّةً- للإيرانيِّين كي يحتلُّوا (**العِراق**) و(**الشَّام**)، ثمَّ يتوغَّلوا في احتلال **مِصْر**.

وما أشبهَ الليلة بالبارحة!

وهم لا يجدون حرجًا في تسجيل احتلال أوطان الآمنين، بل يفاخرون به في أسفارهم. على غرار ما يرد في «**سِفر القُضاة**»[1]:

> **«وفي تِلْكَ الأَيَّام كَانَ سِبْطُ الدَّانِيِّينَ يَطْلُبُ لَهُ مُلْكًا لِلسُّكْنَى لأَنَّهُ إِلَى ذٰلِكَ اليَوْمِ لَمْ يَقَعْ لَهُ نَصِيبٌ فِي وَسَطِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ. فَأَرْسَلَ بَنُو دَانَ مِنْ عَشِيرَتِهِمْ خَمْسَةَ رِجَال مِنْهُمْ، رِجَالًا بَنِي بَأْسٍ مِنْ صُرْعَةَ ومِنْ أَشْتَأُولَ لِتَجَسُّسِ الأَرْضِ وفَحْصِهَا... فَذَهَبَ الخَمْسَةُ الرِّجَالِ وجَاءُوا إِلَى لَايِشَ. ورَأَوْا الشَّعْبَ الَّذِينَ فِيهَا سَاكِنِينَ بِطَمَأْنِينَةٍ كَعَادَةِ الصِّيْدُونِيِّينَ مُسْتَرِيحِينَ مُطْمَئِنِّينَ، ولَيْسَ فِي الأَرْضِ مُؤْذٍ بِأَمْرٍ وَارِثُ رِيَاسَةً. وهُمْ بَعِيدُونَ عَنِ الصِّيْدُونِيِّينَ ولَيْسَ لَهُمْ أَمْرٌ مَعَ إِنْسَانٍ. وجَاءُوا إِلَى إِخْوَتِهِمْ إِلَى صُرْعَةَ وأَشْتَأُولَ... فَقَالُوا: «قُومُوا نَصْعَدْ إِلَيْهِمْ، لأَنَّنَا رَأَيْنَا الأَرْضَ وهُوَ ذَا هِيَ جَيِّدَةٌ جِدًّا وأَنْتُمْ سَاكِتُونَ. لَا تَتَكَاسَلُوا عَنِ الذَّهَابِ لِتَدْخُلُوا وتَمْلِكُوا الأَرْضَ. عِنْدَ مَجِيئِكُمْ تَأْتُونَ إِلَى شَعْبٍ مُطْمَئِنٍّ، والأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرَفَيْنِ. إِنَّ اللهَ قَدْ دَفَعَهَا**

[1] الإصحاح الثامن عشر.

لِيَدِكُمْ. مَكَانٌ لَيْسَ فِيهِ عَوَزٌ لِشَيْءٍ مِمَّا فِي الأَرْضِ»... فَأَجَابَ الخَمْسَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا لِتَجَسُّسِ أَرْضِ لَايِشَ وقَالُوا لإِخْوَتِهِمْ: «أَتَعْلَمُونَ أَنَّ فِي هٰذه البُيُوتِ أَفُودًا وتَرَافِيمَ وتِمْثَالًا مَنْحُوتًا وتِمْثَالًا مَسْبُوكًا. فَالآنَ اعْلَمُوا مَا تَفْعَلُونَ»... فَصَعِدَ الخَمْسَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا لِتَجَسُّسِ الأَرْضِ ودَخَلُوا إِلَى هُنَاكَ، وأَخَذُوا التِّمْثَالَ المَنْحُوتَ والأَفُودَ والتَّرَافِيمَ والتِّمْثَالَ المَسْبُوكَ... فَقَالَ لَهُمُ الكَاهِنُ: «مَاذَا تَفْعَلُونَ؟» فَقَالُوا لَهُ: «اخْرَسْ! ضَعْ يَدَكَ عَلَى فَمِكَ واذْهَبْ مَعَنَا وكُنْ لَنَا أَبًا وكَاهِنًا. أَهُوَ خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَكُونَ كَاهِنًا لِبَيْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، أَمْ أَنْ تَكُونَ كَاهِنًا لِسِبْطٍ ولِعَشِيرَةٍ فِي إِسْرَائِيلَ؟» فَطَابَ قَلْبُ الكَاهِنِ... ولَمَّا رَأَى مِيخَا أَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنْهُ انْصَرَفَ ورَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ. وأَمَّا هُمْ فَأَخَذُوا مَا صَنَعَ مِيخَا، والكَاهِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ، وجَاءُوا إِلَى لَايِشَ إِلَى شَعْبٍ مُسْتَرِيحٍ مُطْمَئِنٍّ، وضَرَبُوهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ وأَحْرَقُوا المَدِينَةَ بِالنَّارِ. ولَمْ يَكُنْ مَنْ يُنْقِذُ لأَنَّهَا بَعِيدَةٌ عَنْ صِيدُونَ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَمْرٌ مَعَ إِنْسَانٍ، وهِيَ فِي الوَادِي الَّذِي لِبَيْتِ رَحُوبَ. فَبَنَوْا المَدِينَةَ وسَكَنُوا بِهَا. ودَعَوْا اسْمَ المَدِينَةِ «دَانَ» بِاسْمِ دَانٍ أَبِيهِمِ الَّذِي وُلِدَ لإِسْرَائِيلَ. ولٰكِنَّ اسْمَ المَدِينَةِ أَوَّلًا «لَايِشُ». وأَقَامَ بَنُو دَانٍ لأَنْفُسِهِمِ التِّمْثَالَ المَنْحُوتَ. وكَانَ يَهُونَاثَانُ ابْنُ جَرْشُومَ بْنُ مَنَسَّى هُوَ وبَنُوهُ كَهَنَةً لِسِبْطِ الدَّانِيِّينَ إِلَى يَوْمِ سَبْيِ الأَرْضِ. ووَضَعُوا لأَنْفُسِهِمْ تِمْثَالَ مِيخَا المَنْحُوتَ الَّذِي عَمِلَهُ، كُلَّ الأَيَّامِ الَّتِي كَانَ فِيهَا بَيْتُ اللهِ فِي شِيلُوهَ.»

هٰذا نهج القوم وتاريخهم الدموي، يُلبِسونه مُسوح المِنَح السماويَّة لشعب الربِّ وجنوده وأحبَّائه، من أراضي الشعوب المُستريحين المُطمئنِّين، ممَّن ليس في الأرض مؤذٍ لهم سِوَى أطماع شعب الله المختار، المتقلِّبين في تاريخهم بين العبوديَّة

لطغاة الأُمم تارةً وممارستهم الطغيان والعدوان على الشعوب الأضعف تارةً تالية، في حالات مَرَضيَّة من عُقَد النقص الجمعيَّة ونزوعات التعويض. وفي العصر الحديث جاء الاحتلال الرابع، ١٩٤٨، بوعدٍ من ربِّ الجنود الجديد هٰذه المرَّة، وهو (**بلفورد**)، ومن ورائه (**المملكة المتَّحدة** الاستعماريَّة **البريطانيَّة**) و(**الولايات المتَّحدة** المتصهينة **الأميركيَّة**) والغرب عامَّة، لتحقيق ثلاث مصالح غربيَّة، تخبط في غياهب اللؤم والمكر، المتجرِّد من القِيَم الأخلاقيَّة والحضاريَّة:

١- كي تكوِّن (**إسرائيلُ**) دولة وظيفيَّة، تقوم بدَور الخليفة عن الغَرب في رعاية مصالحه القائمة في مستعمراته القديمة في (**الشَّرق الأوسط**) و(**أفريقيا**).

٢- ليتخلَّص الغَرب من (**الخَزَر**)[1] اليهود الذين كانت لهم إمبراطوريَّة في شَرق (**أوربا**)، وكانت امتداداتهم آخذةً في التغلغل المقلق في دول **أوربا**، تاريخًا وتركيبةً سُكَّانيةً وعقيدةً، فكان لا بُدَّ من إلقاء ذٰلك العِبْء عن كاهل **أوربا** بعيدًا.

٣- لتصبح تلك الجريمة بمثابة كفَّارةٍ للغَرب- وإنْ ظاهريًّا- عن جريمته في (**الهولوكوست**) النازيَّة، وغيرها من الجرائم ضدَّ اليهود والمظالم

---

[1] (**الخَزَر**): شعبٌ اختُلِف في أصوله. والغالب أنه من قبائل تنحدر من جذور تركيَّة، تُخالطها قبائل أوربيَّة أخرى مترحِّلة. كوَّن **الخَزَر** بين القرنَين الثامن والعاشر الميلاديَّين إمبراطوريَّةً منداحةً في القارَّة الأوربيَّة، قَلْبُها بين (**بحر قزوين**) و(**البحر الأسود**)، وتتَّخذ من (**أتيل**)، شَمالي **بحر قزوين**- الذي كان يُسمى: «**بحر الخَزَر**»- عاصمةً لها.

التاريخيَّة[1]، وذٰلك بابتكار **هولوكوست** أخرى مستمرَّة في (**فِلسطين**)، تغدو أضحيةَ الاستغفار الأخير للغَرب، ومُحرقته الحديثة في مرضاة الرب.

وهٰكذا سلَّمت (**بريطانيا**) (**الدولةَ العَرَبيَّةَ الفِلسطينيَّةَ**)، التي كانت تحت انتدابها منذ ١٩٢٣م إلى ١٩٤٨م، لا إلى أهلها الأصليِّين- كما هو مقتضَى جميع الشرائع الحقوقيَّة- بل إلى أعدائهم من الصهاينة، بكلِّ صفاقةٍ واستخفافٍ بالحقوق والقوانين والتواريخ! فالحقوق والقوانين والتواريخ محكومة بمنطق القُوَّة والمصالح، تسير في ركابها أنَّى سارا، لا بمنطق الحقِّ والعدل والإنصاف، وَفْقَ المبادئ النظريَّة لهٰذه القِيَم. وأنَّى لمحتلٍّ مستعمرٍ، مثل **بريطانيا**، أن يفقه إلَّا لغته في احتلال بلدان الشعوب وقوانينه في استعمارها؟!

وخرجت الأرض من يد سارقٍ قديم إلى يد سارقٍ جديدٍ أقدم، وجرَى تقسيم الكعكة الفِلسطينيَّة- حسب قرار (**الجمعيَّة العامَّة التابعة لعُصبة الأُمم المتحدة**)، رقم ١٨١ الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧- واستمرَّ ما بعد التقسيم من توسُّعات الاحتلال الإسرائيلي من جهةٍ، وتنازلات العَرَب، من جهةٍ أخرى، المنحدرة من هزائم عسكريَّة إلى هزائم نفسيَّة وتاريخيَّة أحطَّ وأردَى. وفي هٰذا يَبرز الوجهُ التطبيقيُّ الصارخُ لمنهجيَّات «**العابثين بالتاريخ**» على قارعة الجغرافيا وفوق أشلاء الشعوب.

---

[1] معروفٌ تاريخيًّا- على سبيل الشاهد- أن ترحيب اليهود في (**إسبانيا**) بالفتح الإسلامي، بل تعاونهم مع المسلمين، إنَّما كان لما وجدوا فيهم من مخلِّصٍ تاريخيٍّ من مظالم كانت تحيق بهم واضطهادٍ كانوا يتجرَّعون ويلاته من أتباع الكنيسة.

لقد كانت، إذن، سياسةً مزدوجةً لضرب اليهود والعَرَب معًا، ومن ثَمَّ إرضاخهما واستغلالهما واستنزافهما في آن. وإلَّا فقد كان الرئيس السوفييتي (**جوزف ستالين** Joseph Stalin، -١٩٥٣) منحَ جمهوريَّة (**بيروبيجان** Биробиджан)، الواقعة جَنوب شَرقي (**روسيا**)، ليهود العالم، لحلِّ مشكلتهم التاريخيَّة، ووهبهم فيها حُكمًا ذاتيًّا، عام ١٩٣٤. وتوافدَ المهاجرون اليهود إليها من كلِّ العالم لعِدَّة أعوام. غير أن الإرادة السياسيَّة الغَربيَّة كانت ذات أهداف أخرى، ترتكز على الأهداف الثلاثة المشار إليها آنفًا.

أمَّا لو أراد العالم الإنصاف، وإحقاق الحقِّ، ولو سُلِّم بمشروعيَّة العودة بالتاريخ إلى مجاهل الماضي السحيق- قبل ثلاثة آلاف عام وبضعة قرون- وعلى فرض التسليم بانتماء اليهود اليوم إلى (**يعقوب بن إبراهيم**)، فإن أقرب البلاد علاقةً بذٰلك التاريخ: أرض (**حَرَّان**) الآراميَّة- جَنوب شَرقي (**تركيا**)- مهاجَر (**إبراهيم الخليل**) من (**بابل**)، وبلاد المَنشأ لابنه (**إسحاق**)، وحفيده (**يعقوب**)، ومسقط رؤوس أبناء **يعقوب** (**إسرائيل**)، الاثني عشر.[1] وأمَّا (**فِلسطين**) فقد ظلُّوا مغتربين فيها، طارئين على بلداتها، ثمَّ بعد حين محتلِّين لأرضها. بدليل ما نقرأ في «**العهد القديم**»[2] نفسه، حيث ذكرَ أن (**إبراهيم الخليل**) لم يكن يملك في **فلسطين** مكانًا، حتى لدفن زوجه (**سارة**)، وإنَّما اشتراه من (**عفرون بن صوحر**

---

[1] انظر: سوسة، ٢٣٠- ٢٣١.

[2] **سِفر التكوين**، ٢٣: ٢- ١٦.

الحِثِّي) من شَعب الأرض الأصليِّين، الذين أكرموه وبجَّلوه، ووهبوه مكانًا لدفن امرأته:

«ومَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَعَ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ... وقَامَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامِ مَيِّتِهِ وكَلَّمَ بَنِي حِثَّ قَائِلًا: «أَنَا غَرِيبٌ ونَزِيلٌ عِنْدَكُمْ. أَعْطُونِي مُلْكَ قَبْرٍ مَعَكُمْ لأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي». فَأَجَابَ بَنُو حِثَّ إِبْرَاهِيمَ قَائِلِينَ لَهُ: «اِسْمَعْنَا، يَا سَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا ادْفِنْ مَيْتَكَ، لَا يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْرَهُ عَنْكَ حَتَّى لَا تَدْفِنَ مَيْتَكَ». فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ، وكَلَّمَهُمْ قَائِلًا: «إِنْ كَانَ فِي نُفُوسِكُمْ أَنْ أَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي، فَاسْمَعُونِي والتَمِسُوا لِي مِنْ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ أَنْ يُعْطِيَنِي مَغَارَةَ المَكْفِيلَةِ الَّتِي لَهُ، الَّتِي فِي طَرَفِ حَقْلِهِ. بِثَمَنٍ كَامِلٍ يُعْطِينِي إِيَّاهَا فِي وَسَطِكُمْ مُلْكَ قَبْرٍ». وكَانَ عِفْرُونُ جَالِسًا بَيْنَ بَنِي حِثَّ، فَأَجَابَ عِفْرُونُ الحِثِّيُّ إِبْرَاهِيمَ فِي مَسَامِعِ بَنِي حِثَّ، لَدَى جَمِيعِ الدَّاخِلِينَ بَابَ مَدِينَتِهِ قَائِلًا: «لَا، يَا سَيِّدِي، اسْمَعْنِي. الحَقْلُ وَهَبْتُكَ إِيَّاهُ، والمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ لَكَ وَهَبْتُهَا. لَدَى عُيُونِ بَنِي شَعْبِي وَهَبْتُكَ إِيَّاهَا. ادْفِنْ مَيْتَكَ». فَسَجَدَ إِبْرَاهِيمُ أَمَامَ شَعْبِ الأَرْضِ، وكَلَمَ عِفْرُونَ فِي مَسَامِعِ شَعْبِ الأَرْضِ قَائِلًا: «بَلْ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ إِيَّاهُ فَلَيْتَكَ تَسْمَعُنِي. أُعْطِيكَ ثَمَنَ الحَقْلِ. خُذْ مِنِّي فَأَدْفِنَ مَيْتِي هُنَاكَ». فَأَجَابَ عِفْرُونُ إِبْرَاهِيمَ قَائِلًا لَهُ: «يَا سَيِّدِي، اسْمَعْنِي. أَرْضٌ بِأَرْبَعِ مِئَةِ شَاقِلِ فِضَّةٍ، مَا هِيَ بَيْنِي وبَيْنَكَ؟ فَادْفِنْ مَيْتَكَ». فَسَمِعَ إِبْرَاهِيمُ لِعِفْرُونَ، ووَزَنَ إِبْرَاهِيمُ لِعِفْرُونَ الفِضَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي مَسَامِعِ بَنِي حِثَّ. أَرْبَعَ مِئَةِ شَاقِلِ فِضَّةٍ جَائِزَةٍ عِنْدَ التُّجَّارِ.»

ذاك كان تاريخ (**بني إسرائيل**) في أرض (**فِلسطين**). وصولًا إلى احتلالهم إيَّاها، ثمَّ السطو على ثقافات الشعوب، فيها ومن حواليها، وادِّعاء تراث تلك الشعوب وتاريخها وصناعاتها وفنونها. وبذا يتبيَّن أن علاقة اليهود **بفِلسطين** علاقة استيطان واحتلال منذ الأزل، ولا صِلة لهم **بفِلسطين** مطلقًا خارج منطق «**الاحتلال**»، منذ أن جاءها العِبرانيُّون هائمين على وجوههم من بلاد الرافدَين أوَّل مرَّة، بَدْوًا رُحَّلًا، فاحتلوا أرض (**كنعان**) تدريجيًّا، بغيًا وعدوانًا- ولم تكن لهم بها من حقوقٍ قط، ولا من سالف عهدٍ، في أيِّ حقبةٍ من حِقَب التاريخ. هٰذا في جانب الأرض، أمَّا في الجانب الثقافي، فتجلَّى السطو الثقافيُّ قديمًا في غير وجهٍ، حتى من خلال «**العهد القديم**»، بما اقتبسه هٰذا الكِتابُ منتحَلًا من تراث **كنعان** و(**مِصْر**) و(**بابل**)، وغيرها من تراثات الحضارات في (**الشَّرق الأوسط**). أَسْطَرَه، وأَسْرَلَه، وانتسبه لـ(**بني إسرائيل**) وتاريخهم، مُلبِسًا أبطاله- مصريِّين كانوا أو شاميِّين أو عِراقيِّين- طاقية اليهود الدِّينيَّة التقليديَّة. هٰذا فضلًا عمَّا احتواه مصدرُ تشريع اليهود المرادفُ لـ«**التوراة**»، المسمَّى «**التلمود**»[1]، من تعاليم عُنصريَّة، لا نظير لها في أيِّ مِلَّة أو كتاب.

---

[1] انظر حول هٰذا: ظاظا، **الفِكر الدِّيني الإسرائيلي**، ٧٨- ١٠٨؛ السقاف، ٣٠٣- ٣١١.
«**للتلمود**» نسختان (عِراقيَّة/ بابليَّة) و(فِلسطينيَّة). أُلِّفتا بين ٢٠٠ق.م و٥٠٠م. ويتألَّف «**التلمود**» من قسمَين: الأوَّل، «**المشنا**»، ويعني: «**المردَّد**» من التعاليم. وعرفه العَرَب قديمًا بـ«**المثناة**»، كما جاء في نَهْي (**عُمَر بن الخطَّاب**) عن تدوين الحديث النبوي، مشبِّهًا إيَّاه بـ«**مثناة أهل الكتاب**». ذٰلك أن بعض اليهود يعتقدون في «**المشنا**»- من نحو اعتقاد بعض المسلمين في الحديث- أنه مصدرٌ ثانٍ للتشريع، وشريعة شفويَّة أُنزلت مع «**التوراة**» على (**مُوسَى**). والقسم الآخَر: «**الجمارا**»، وهي شروح الكهنة وتفسيراتهم ←

٣٣- الراكضون في التاريخ بلا أقدام:

لا يُلِحُّ على ادِّعاء ما ليس له إلَّا شاعرٌ بالنقص، مسكونٌ بالتوحُّد، محاصَرٌ بالفراغ التاريخي. وإلَّا فمَن ذا لا يُسَلِّم بما قرَّره الباحثون في التاريخ والحضارة من أن **(جزيرة العَرَب)** كانت مهد الجنس السامي ومرباه، تدفَّقتْ منها موجات الشعوب الساميَّة موجةً إثر موجة، في هجراتٍ متتاليةٍ عبر مدارج التاريخ، وبقي من الساميِّين جنسٌ واحد في **الجزيرة العَرَبيَّة**، هو الجنس العَرَبي.[١] وكان من تلك الموجات هٰؤلاء العبرانيُّون الذين نبتوا في الموجة الساميَّة المهاجرة نحو بلاد الرافدَين، ثمَّ، لأسباب دِينيَّة، فرُّوا من هناك إلى **(فِلسطين)**، وما لبثوا أن استولوا عليها. أمَّا الانطلاق تحت شِعار الساميَّة للقول بحقوق تاريخيَّة لتلك الشعوب المهاجرة في **الجزيرة العَرَبيَّة**، فكالقول بحقوق تاريخيَّة للبشر كافَّة في جبل **(سرنديب بالهند)**؛ لأن (آدم) أُهبِط عليه، حسب بعض الأساطير[٢]، أو القول بحقوق تاريخيَّة للبشر كافَّة في **(الحِجاز)**؛ لأن **آدم** و**(حَوَّاء)** تعارفَا على جبل **(عرفات)**، ودُفِنت أُمُّنا **حَوَّاء** في **(جُدَّة)**، على حسب أساطير أخرى.[٣] وما يقول بهٰذا رجل رشيد.

«**للمشنا**». وقد تُرجِم القسم الأوَّل، بأجزائه الستة: «**زراعيم/ الزروع، موعيد/ الأعياد، ناشيم/ النساء، نزيقين/ الأضرار، قداشيم/ المقدسات، طهاروت/ الطهارات**»، من قِبَل (مصطفى عبدالمعبود سيد منصور)، (القاهرة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٨). ومؤخَّرًا صدرت ترجمةٌ عَرَبيَّةٌ متكاملة «**للتلمود**»، في عشرين مجلَّدًا من القطع الكبير، عن «**مركز دراسات الشَّرق الأوسط**»، (عَمَّان- الأردن، ٢٠١١).

[١] انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٠٩.

[٢] انظر: المسعودي، **أخبار الزمان**، ٧٢؛ الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، ١: ١٢١- ٠٠٠.

[٣] هٰذا اعتقادٌ قديم. ويُذكَر أن **(الفُرس)**- المنسوب إليهم تأسيس **(جُدَّة)**- بَنَوا على الضريح المزعوم بنيانًا ←

إن الأصلَ التاريخي للساميِّين المهاجرين العائدَ إلى (**جزيرة العَرَب**) إنَّما كان قبل التاريخ المعروف بعصور سحيقة، وهو أمرٌ يتعلَّق برجُلٍ اسمه (**سام بن نُوح**)، قيل إنه كان وأولاده في بقعةٍ تاريخيَّة ما، ثمَّ صار هٰؤلاء الأولاد قبائل وشعوبًا شتَّى، تفرَّقت بهم الهجرات والأوطان والأقاليم، كسُنَّة الله في خَلقه. منهم (**الأكاديُّون**)، و(**الكنعانيُّون**)، و(**الفينيقيُّون**)، و(**الآراميُّون**)، و(**الساميُّون**) في بلاد (**الحبشة**)، وربما كان منهم (**الفراعنة**)[1] أيضًا

من الآجُرِّ والجصِّ، بقي إلى سنة ٦٢١هـ، ثمَّ تهدَّم. وكان الناس يتبرَّكون بالقبر من أجل ذٰلك، بل ربما تبرَّكوا بالمدينة كلِّها؛ لأن فيها مثوى أُمِّ البَشَر! ومن هنا قال مَن قال بتسميتها (**جَدَّة**)، بفتح الجيم، بناءً على ذٰلك المعتقد. (انظر: ابن المجاور، ٦١، ٦٥). وإنَّما نشأت شُهرة هٰذا وأمثاله في عصور الانحطاط العقلي في العالم الإسلامي، إبَّان شيوع القبوريَّات، والادِّعاءات الغيبيَّة الكثيرة، التي لا دليل عليها من عقلٍ صحيحٍ أو نقلٍ يُعتَدُّ به. ولا غرو؛ فالحقُّ أنَّ الزعم أن الوهَّابيَّة إنَّما بالغت حماسيًّا في تثريبها على العالَم الإسلامي في جهالاته- اعتقاديَّةً وعقلانيَّة- يدحضه ما سجَّله المستشرقون عن أحوال (**الجزيرة العَرَبيَّة**). صحيح أنها نَشِبَتْ مبالغاتٌ حماسيَّة، تمارِس التكفير وما يتبعه من عُنف، غير أن الواقع كان بانحطاطه المزري ذريعةً لتأجيج الثورة عليه. حتى إن الإنجليزي (**ويليام جيفورد بلجريف** William Gifford Palgrave، ١٨٢٦- ١٨٨٨م) أشار خلال مشاهداته المباشرة إلى أن العقائد المرتبطة بعبادة (**الشمس**) كانت لا تزال على ما كانت عليه قبل الإسلام في بعض بادية الجزيرة. (انظر: **وسط الجزيرة وشَرقها**، ١: ٢٥- ٢٦). وكذٰلك المستشرق التشيكي (**ألويس موزل** Alois Musil)، في ما سجَّله (١٩٢٨) حول الاعتقاد في (**القَمَر**). (انظر: **أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم**، ١- ٢).

[1] ممَّن يذهب إلى أن المِصْريِّين القدماء ساميُّون، أو «**عَرَب**»: (استيندرف، ٦- ٧). وهو يذكر أن سكَّان (**مِصْر**) كانوا- قبل أن يجتاحهم بدوُ (**الجزيرة العَرَبيَّة**) الغُزاة- أفارقةً زنوجًا. والواقع أن آثارًا لغويَّةً عَرَبيَّةً في المِصْريَّة القديمة دالَّةٌ على تلك العلاقة. من ذٰلك، على سبيل المثال، كلمة (**قمحو**)، وهي بالعَرَبيَّة: (**قَمْح**)، و(**كرمو**)، وهي بالعَرَبيَّة: (**كَرْم**)، و(**أُنُّ**)، وهي بالعَرَبيَّة: (**عَين**)، وهي كذٰلك في اللغات المسمَّاة الساميَّة، ومنها البابليَّة: «**إينو**». وكانت في **مِصْر** تعني تحديدًا: (**عين الشمس**)، التي كانت لها قداستها. كما سَمَّى المِصْريُّون الشمس نفسها: (**آتون**)، وما (**آتون**) سِوَى (**أتون**)، بالعَرَبيَّة، كما تقدَّم في الحديث عن (**أخناتون**). ونادَوا الإلٰه الواحد الذي اعتقدوا أنه الموجِد للكون بـ«**آتوم**»، أي: «**الأَتَمّ**». وهو ما يمكن أن تلمح ظِلاله بنِسب متفاوتة وراء أسماء آلهة أخرى، كـ(**رع**)، و(**فتاح**)، و(**آمن**). ومن ←

و(**الأمازيغ**)[1]. فما (**العِبرانيُّون**) ببِدْعٍ من الشعوب التي انحدر أسلافها الأوَّلون من **جزيرة العَرَب**، شَرقًا وغَربًا، شَمالًا وجَنوبًا، منذ فجر التاريخ. وإنْ رأى بعض الباحثين أن (**سامًا**) الذي يفاخر **العبرانيُّون** بانتمائهم إليه- بل يُظهر الصهاينةُ في العصر الحديث احتكارَ ذٰلك الانتماء، ويعلنون في العالم حساسيَّةً عنصريَّةً مفْرطةً، يصنِّفونها بـ«**اللَّا ساميَّة**»، أصبحت تُهمة يوظِّفونها سياسيًّا لتصفية المفكرين وأصحاب الرأي المختلفين مع خزعبلاتهم التاريخيَّة أو المعاصرة[2]- ليس بـ(**سام بن نُوح**)، بل هو (**سومو أبوم**)، المَلِك البابليُّ الذي

مفرداتٍ شتَّى نجد كذٰلك اسم (**نون**)، بمعنى: الحُوْت، أو الماء الأزلي، و(**هُوَّة**)، بمعنى: الهُوَّة، أو الهواء. ومن ذٰلك أيضًا «**خمنو**»، وهو الاسم المِصْري لمدينة (**هرموبوليس**)، ويعني «**ثمانية**»، إشارة إلى الآلهة الثمانية، الذين اعتقدوا أن العالَم نشأ من خلالهم. وكذا نجد ظاهرة التأنيث بتاء التأنيث في أسماء آلهتهم مثلًا: (**نو**)، وزوجته: (**نوت**)، و(**هيهو**)، وزوجته: (**هيهوت**)، و(**كك**)، وزوجته: (**كيكيت**)، و(**نونو**)، وزوجته: (**نونت**). إلى غير هٰذه من الظواهر المعجميَّة والصرفيَّة. (في هٰذا يمكن الرجوع إلى سلسلة كتب (**علي فهمي خشيم**)، مثل: «**البرهان على عُروبة اللغة المِصْريَّة القديمة**»؛ «**العَرَب والهيروغليفيَّة**»؛ «**القِبطيَّة العَرَبيَّة**»؛ «**آلهة مِصْر العَرَبيَّة**»؛ «**بحثًا عن فرعون العَرَبي**»). كما أن كتابتهم كانت تُكتَب كالعَرَبيَّة من اليمين إلى الشِّمال، وهو ما لحظه (**هيرودوت**)، مشيرًا إلى مفاخرتهم بذٰلك، ذاهبين إلى أن كتابة (**الإغريق**)، التي تتَّجه من الشِّمال إلى اليمين، فيها تكلُّف، وكأنها نهج العُسْران من الناس. (See: Herodotus, Book 2, Chap. 36). واتِّجاه الكتابة (**الهيروغليفيَّة**) من اليمين هو الغالب، لٰكنَّهم قد يكتبون من الشِّمال، أو من فوق إلى تحت. وسبب كتابة **الإغريق** من الشِّمال إلى اليمين أنهم احتفظوا بطريقة الكتابة الأصليَّة التي تعلَّموها من (**الفينيقيِّين**)؛ فكذٰلك كانت الكتابة الفينيقيَّة. ومثل هٰذا اتُّبِع في الكتابة اللاتينيَّة ووريثاتها من الكتابات الأوربيَّة.

[1] يُذكَر في الأخبار التراثيَّة أن (**صنهاجة**) - على سبيل المثال- قبيلةٌ يمانيَّة؛ أصلها غُزاةُ أحد التبابعة لشَمالي (**أفريقيا**)، وهو (**سعد الخُزاعي**)، طاب لهم هناك المقام. (انظر: ابن المجاور، ١٨٦). ويمكن الرجوع في هٰذا أيضًا إلى كتاب «**سِفر العَرَب الأمازيغ**»، لـ(**علي فهمي خشيم**).

[2] في حين هم مُقدِّسو العُنصريَّة، وجاعلوها دِينًا تاريخيًّا، يصنِّفون غيرهم من الشعوب بلقب «**الجوييم**»، أي الحُقراء، أو «**الأُمِّيِّين**»، الذين لا كرامة لهم، وليس عليهم فيهم سبيل. حول نشوء «**اللَّا ساميَّة**» ←

حكمَ ما بين النَّهرَين، ٢٢٢٥- ٢٢١١ق.م. ويعني اسمه: «**الأب سام**»، وهو الذي عبَّرَتْ عنه «**التوراة**» بأنه «**أَبُو كُلِّ بَنِي عَابِر**»[١]. ومعلومٌ أنَّ البابليِّين أنفسهم ساميُّون، والأكاديِّين من قبل، والآشوريِّين من بعد كذٰلك. فأولٰئك جميعًا من نسل تلك الهجرات البشريَّة التي انبثَّت من شِبه **الجزيرة العَرَبيَّة** إلى بلاد الرافدَين قبل نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. فلئن صحَّ ذٰلك الافتراض بأن ساميَّة **العِبرانيِّين** انتسابٌ إلى (**سومو أبوم**)، فذٰلك يعني أن لا صِلة لهم- إلَّا عن بُعدٍ سحيق- **بجزيرة العَرَب**، ولا حتى لجدِّهم (**عابِر**) أو (**سام= سومو أبوم**)، بل هم ينحدرون من أصول بابليَّة عِراقيَّة.[٢]

هٰذا، ولقد أراد اليهود أن يُحرِّفوا مسار الدعوة الموسويَّة من حركةٍ إنسانيَّةٍ ضِدَّ الظُّلْمِ والطغيان، وضِدَّ استعباد البشَر للبشَر، وثورةٍ في وجه السِّحر والشعوذة والخُرافة وتأليه الأصنام، إلى محض حركةٍ عُنصريَّةٍ، تُرابيَّةٍ، موجَّهةٍ إلى شعبٍ مختارٍ إلـٰهيًّا، ومن أجل أرضٍ موعودةٍ إلـٰهيًّا كذٰلك.[٣] لم تكن ثورةً

وأسبابه، (انظر: ظاظا، **أبحاث في الفِكر اليهودي**، ١١١- ١٢٣). ولقب «**الأُمِّيِّين**» يعني في الأصل: أولٰئك الذين ليس لهم كتابٌ مقدَّس، في مقابل «**أهل الكتاب**». وقد استعمله «**القرآن**» بهذا المعنى: ﴿**وقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟**﴾ (**سورة آل عمران**: الآية ١٩. وقارن: الآيتين ٢٠، ٧٥، و**سورة الجمعة**: الآية ٢). غير أن اليهود يحمِّلون المعنى إشاراتٍ من الازدراء لهٰؤلاء الأُمِّيِّين؛ بوصفهم همجًا وأحطَّ عُنصرًا من «**شعب الله المختار**».

[١] **سِفر التكوين**، ١٠: ٢١. وانظر حول هٰذه الفرضيَّة: السقَّاف، ٥٨- ٥٩.

[٢] على أن النصَّ التوراتيَّ صريحٌ في أن (**سامًا**) المقصود هو ابن (**نُوح**). (انظر: **سِفر التكوين**، ٥: ٣٢).

[٣] بل حوَّلوا الموسويَّة إلى حركةٍ من الظُّلْمِ والطغيان والانتقام. تُعامِل الشُّعوب والناس بأفظع ممَّا كانت تئنُّ من الشكوى منه في حِقَب الاستعباد. ونسبوا إلى ملوكها وأنبيائها من الحماقات والعسف ما لا ←

اعتقاديَّةً فِكريَّةً في (**مِصْر**)، إذن، وإنَّما كانت هَبَّةً إنقاذيَّةً لمستضعفي (**بني إسرائيل**)، وحدهم، من العبوديَّة، لا أكثر. هٰكذا رسموا الصورةَ في كتابهم، الذي كتبوه بأيديهم ثمَّ قدَّسوه. وهٰكذا جعلوا دِينهم دِينًا عنصريًّا، لا بشَريًّا ولا تبشيريًّا. وهنا يأتي المؤرِّخ العَرَبيُّ- حسب نماذجنا محلَّ الدراسة- ليزيد الطِّين بِلَّة؛ فيُمعِن أكثر في تقميء رسالة (**مُوسَى**)؛ حين يجعله شيخ عشيرةٍ متخلِّفةٍ في صِقْعٍ ما من مجاهل الجُغرافيا، وكذا يُصوِّر سائر الأنبياء من قبله ومن بعده. فلا الكاتب اليهوديُّ كان عقلانيًّا مُنصِفًا، ولا المؤرِّخ العَرَبيُّ- في ردَّة فعله- كان قادرًا على الموازنة بين هوسه التأويليِّ لما اقترفته يد الكاتب اليهوديِّ وبين تقدير هٰؤلاء الأبطال الإصلاحيِّين التاريخيِّين، وإنْ لم يُؤمِن لهم بنُبوَّة. غير أنه، في هٰذا المعمعان، لا يمتلك دليلَه العِلميَّ على ما ينقض به الصورة التوراتيَّة، ولا دليلَه

يُصدِّقه عاقل ولا عادل. من ذٰلك، مثلًا، ما يحكيه (**سِفر صموئيل الثاني**، الإصحاح الأوَّل)، من أن المَلِك (**شاوُل**) أصدر أمره إلى فتًى عماليقيٍّ بالإجهاز عليه؛ منتحِرًا بعد يأسه من الحياة في إحدى المعارك؛ فلمَّا لَبَّى العماليقيُّ أمرَ المَلِك، وجاء مسلِّمًا الأمانة إلى سيِّده (**داوود**)، من إكليل **شاوُل** وسواره، ظانًّا الخير **بداوود**، إذا هو يأمر أحد غلمانه بقتله فورًا؛ لأنه تجرَّأَ على «**مسيح الربِّ**»! مع أن «**مسيح الربِّ**» هٰذا هو الذي أمر العماليقيَّ بأن يقتله! هٰذا فضلًا عن اتِّهام **داوود** بالقتل وبالزِّنَى، في قِصَّته مع امرأة (**أوريَّا الحِثِّي**)، وجعْل الكفَّارة أن يموت ابنُ الخطيئة نفسُه بذنب أبيه وأُمِّه! لٰكنَّ الربَّ الكريمَ يُعوِّض **داوودَ** بـ(**سُلَيمان**)، ابنًا آخرَ من (**بَثْشَبَع**)، التي زَنَى بها ثُمَّ قتلَ زوجها! ثُمَّ جاء انتقامه من شعب (**عَمَّان**) بأن جعلهم «**تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وفُؤُوسِ حَدِيدٍ وأَمَرَّهُمْ فِي أَتُونِ الآجُرِ**»! (انظر: م.ن، الإصحاح ١١- ١٢؛ **سِفر أخبار الأيَّام الأوَّل**، ٢٠: ٣). إلى غير هٰذا من الأقاصيص التي تحكي قتل بعض الإخوة في الأُسرة المالكة بعضًا، وتَفَشِّي زِنَى المحارم بينهم وزِنَى غير المحارم، ووصايا التصفيات الجسديَّة، التي لم يرضَ **داوود** أن يغادر الحياة قبل أن يُحمِّل بها **سُلَيمان**؛ فكان أن بدأ بقتل أخيه (**أَدُونِيَّا**). فيا له من تاريخٍ نبويٍّ ومن كتابٍ مقدَّس!

العِلْميَّ على ما يشيد به بديلًا كُلِّيًّا مقنِعًا عِلْميًّا. وربما، في الوقت نفسه، لم تتركه نعرتُه الإديولوجيَّةُ المضادَّةُ لليهود ليتَّخذ بين ذٰلك سبيلًا؛ بحيث لا يُؤسطِر الرواية برُمَّتها، ولا يقبلها على عواهنها، كما سيقت في «**العهد القديم**».

وما هٰذه النماذج إلَّا شواهد على ما يعتمل منذ سنين في ردهات التاريخ وبطون المكتبات، وبطوايا مختلفة. ومع أنها قد سيقت في بعض مزاعم (**الصَّليبي**) تفنيدات متباينة منذ صدور كتابه الأوَّل، فنحسب أن قراءتنا في أعماله هي أوسع مراجعة لمزاعمه حول جغرافيَّة «**التوراة**» وعلاقتها بـ(**جزيرة العَرَب**). إضافة إلى ما سيأتي في الفصلين التاليين من ربط تلك الأعمال بمتواليةٍ من الأعمال على الدرب نفسه.

وفي نهاية هٰذا الفصل، نخلص إلى القول: لقد طرح (**الصَّليبي**) أسئلةً مهمَّة، وشُبَهًا مثيرة، ما في ذٰلك شك، لٰكن لا هو برهنَ على إجاباتها عِلْميًّا، ولا هي واجهتها ردودٌ تحقيقيَّة، تساويها نفيًا أو إثباتًا. إذ لا إشكال، من وجهةٍ عِلْميَّةٍ- كما فصَّلنا من قبل- في أن يكون (**بنو إسرائيل**) أو غيرهم قد عاشوا في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، بل الإشكال هو الإشكال المنهاجي؛ حينما يتصدَّى باحثٌ لافتراضاتٍ يُفضي من خلالها إلى نتائج عُظمَى، يُوهِم فيها بقلب حقائق تاريخيَّةٍ وجغرافيَّةٍ متواترة، ثمَّ لا يقدِّم بين يدَي دعواه من أدلَّةٍ سِوَى افتراضاتٍ أخرى عامَّة، وتشابهاتٍ حروفيَّةٍ سطحيَّة، لا تتأسَّس في ذاتها على بحوثٍ ميدانيَّةٍ يُعْتَدُّ بها، ولا على معرفةٍ بيئيَّة، ولا على درايةٍ لغويَّة، ولا على استقصاءاتٍ معرفيَّةٍ

تاريخيَّة، تتناسب في جملتها مع الدعوَى الكبرَى التي شادها عليها، فضلًا عن أن تقوم دعواه على براهين أثريَّة، تقطع جهيزتُها قولَ كلِّ خطيب.



الفصل الثاني

العَرَب والعِبرانيُّون

«كان يُقال (للشَّام): «جَنَّة الدُّنيا».

ولمـَّا أَفْرَجَ (هِرَقْلُ) عن (بلاد الشَّام) للمسلمين، وخرجَ منها هاربًا إلى (الرُّوْم)، بكَى حتَّى اخضلَّت لحيتُه، وغُشِيَ عليه.

فلمَّا أفاقَ، قال: «السَّلامُ عليكِ، يا (سُوريا)، يا جَنَّة الدُّنيا، سلامَ غيرِ مُلاق!».»

(الثعالبي، ثِمار القُلوب، ٥٥٥).

١- «العَرَب والسَّاميُّون والعِبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهود»:

أُلِّـفَت بعدَ قراءات (**كمال الصَّليبي**) في «**التوراة**» كُتبٌ كانت أشبه بتهميشات على جهوده، أو استدراكات، وشروح. وخَلَفَ من بعده خَلْفٌ ردَّدوا مقولاته، ولاسيما حول (**الأقصَى**) ومكانه. وربما تصدَّروا للزعم أنهم أبناء بجدتها، غير معترفين بالفضل للمتقدِّم! وثَمَّة تظهر الأزمة العَرَبيَّة في الأمانة العِلْميَّة إلى الأزمة في الموضوعيَّة والتحقيق. ومن أهم تلك الكُتب كتاب (**أحمد داوود**)، «**العَرَب والسَّاميُّون والعِبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهود**»، ١٩٩١.

وقد امتاز هٰذا الكتاب بنزوعٍ قوميٍّ صارخٍ، يوظِّف ما كان بدأه (**الصَّليبيُّ**) لينسب التاريخ كلَّه إلى العَرَب وحدهم: على أنهم كانوا أوَّل.. وأوَّل.. وأوَّل. حتى بلغت به المفاخرة إلى القول: إن العَرَب أوَّل من شرب الخمور! ولا شكَّ أنهم أيضًا أوَّل من فَعَلَ أشياء كثيرة بعد شُرب الخمور! ولا فضل في أن يكون إنسانٌ أوَّلًا في شيء؛ ليس إلَّا لأنه في التاريخ البَشَريِّ أوَّلٌ زمانيًّا، وواتته الظروف المناخيَّة والبيئيَّة ليعيش التجربة البدائيَّة، فكان أوَّل من فَعَلَ وأوَّل من تَرَك. الأبُ سبق ابنه في إنجاز أشياء كثيرة، وارتكاب موبقات جمَّة، ولا فضل له في ذٰلك ولا فخر؛ ولو لم يكن أبـًا لما كان أوَّلًا في شيء. ولا مِدحة له، ما لم يكن أوَّلًا وآخِرًا معًا. فأنْ تكون أوَّلًا ثمَّ تتخلَّف، فذٰلك هو الخسران المبين، وهو أَدْعَى إلى الحياء من نفسك، لا إلى المفاخرة بها. وأنْ تكون آخِرًا ثمَّ تتقدَّم الصفوف، فذٰلكم هو الفخر الحق. غير أنه التعويض الحضاريُّ الطُّفولي، بترداد: نحن العَرَب كنَّا وكنَّا

وكنّا. وما انفكَّ صاحبنا يعيد غرض الفخر في الشِّعر العَرَبي القديم من خلال ما يمكن أن نسمِّيه « **الفخر الأصوليُّ التاريخيُّ العَرَبيُّ المعاصرة**».

وليس ما لدَى الرجل الفخر التاريخي بإنجازات العَرَب فحسب، بل هو يرى أن البشَر كلَّهم عَرَبٌ أيضًا. ذٰلك أنه يقول إن (**سامًا بن نُوح**) عَرَبيٌّ اللغة، وهو وأبناؤه وأحفاده عشيرة بدويَّة عَرَبيَّة؛ لأن العُروبة سابقة على **سام** بعِدَّة آلاف من السنين، وإخوته مثله بالطبع، و(**نُوح**) قبله عَرَبيٌّ كذٰلك.[1] فكيف يصحُّ هٰذا؟ لٰكنَّ هٰذا كلَّه ليس بمستغربٍ ممَّن يزعم في أحد كتبه أن (**العَرَب العاربة**) كانوا قبل (**آدم وحَوَّاء**)![2]

وإذا صحَّ القول بما ترتَّب على قِصَّة الطُّوفان عِرقيًّا ولغويًّا، فمعنى زعم (المؤلِّف) هو: أن البشَر بعد (**نُوح**) كلَّهم أجمعين عَرَبُ الأرومة واللغة، انبثُّوا في الأرض من (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)! ومؤدَّى ذٰلك أن البشَر الآن كلَّهم عَرَب! وكأنه في هٰذا يأخذ بالرواية التوراتيَّة الذاهبة إلى أن الطُّوفان وقعَ في بدايات الألف الثالث قبل الميلاد تقريبًا. ومعروفٌ تاريخيًّا أنه كان للعَرَب حضورٌ أقدمُ من تاريخ الطُّوفان هٰذا؛ فكان لـ(**سَبَأ**)، ولـ(**مَعِيْن**)، كليهما أو لأحدهما على الأقل، ذِكرٌ

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٦٧- ٠٠.

[2] اكتفينا في هٰذه الدراسة بمناقشة كتاب (**أحمد داوود**) «**العَرَب والسَّاميُّون**»، الذي خصَّصه لهٰذا الموضوع، وإلَّا فإن غرائبه تتردَّد في أعماله الأخرى. ومنها كتابه «**تاريخ سُوريا القديم**»، الذي يَرِد فيه قوله: إن «**وجود العَرَب العاربة السريان في شِبْه الجزيرة العربيَّة وفي منطقة الخليج... قبل آدم وحَوَّاء بأزمنةٍ موغلةٍ في القِدَم.**»! (ص٢١٧).

حضاريٌّ قبله، حسب ما يذكره بعض المؤرِّخين.[1] إضافة إلى أن التاريخ التوراتي لوقوع الطُّوفان- مع تصوير إنهائه الجنس البشَريَّ على كوكب الأرض، عدا من ركبوا مع **نُوحٍ** الفُلْكَ- يتناقض مع قيام حضارات قبل ذٰلك التاريخ، ممتدَّةً خلاله، وبعده، في (**العِراق**)، وفي (**مِصْر**)، وفي (**اليَمَن**). وعليه، فمَن سلَّمَ بقِصَّة الطُّوفان، وَفْقَ الصورة الأُسطوريَّة التوراتيَّة، اقتضاه الأمر أن يذهب إلى حدوثه قبل ما لا يقلُّ عن خمسة آلاف عام قبل الميلاد. فهل السُّلالة العَرَبيَّة تعود إلى ما قبل خمسة آلاف عام قبل الميلاد؟! نعم، إذا سلَّمنا بمثل الهرطوقة التي أدلَى بها (**ابن كثير**)[2] القائلة إن الأشبه أن (**آدم**) أوَّلُ من تكلَّم بالعَرَبيَّة! وعندئذٍ يمكن أن نقول: إن بني آدمٍ «العَرَبيِّ» هم جميعًا عَرَب! ومن باب أولَى أن تُصدِّق أن بني **نُوحٍ** «العَرَبيِّ» جميعًا من العَرَب. والحقُّ أنَّ كثيرًا من أئمتنا في التأليف قديمًا، ممَّن يغلو بعض السلفيِّين في تمجيدهم، لا يَعْدُون حكَّائين سَذَجَة، ليسوا بباحثين ولا بمحقِّقين ولا بعلماء، بما تعنيه هٰذه الكلمة من معنى، ولا حتى بعقلانيِّين هم، متجرِّدين من الجهالات والأهواء، بدءًا من (**ابن إسحاق**) إلى مَن شئت منهم، ولاسيما في حقل التاريخ والغيبيَّات.

لأجل هٰذا كان الأَولى بصاحب كتاب «**العَرَب والسَّاميُّون...**» أنْ لا يأخذ من «**التوراة**» بعضًا ويدَع بعضًا. ذٰلك أن قِصَّة الطُّوفان التوراتيَّة، بتفاصيلها-

---

[1] راجع ما قيل حول هٰذا من قبل، (الفصل الأوَّل، تحت عنوان «١٨- **لِـمَ انطمستْ الآثار المِصْريَّة بالجزيرة وبقيتْ اليَمَنيَّة؟!**»).

[2] انظر: **البداية والنهاية**، ١: ٢٨٣.

ومنها إنهاء الحياة البشَريَّة، وبَدْء سلالات بشَريَّة وحيوانيَّة جديدة على الأرض من بعد (**نُوح**)- تتعارض مع العِلْم والتاريخ والآثار. كما تتعارض مع زعم المؤلِّف أن العَرَب كانوا سابقين عليها.

أجل، لقد وردت قِصَّة (**نُوح**) في «**القرآن**»، ولٰكن دونما إشارة إلى كلمة «**طُوفان**»، بما تعنيه هٰذه الكلمة من معنى شُمولي، ولا زعم أن الغرق قد عمَّ جميع العالم، وإنما أُغرِق قوم **نُوح**: ﴿**وقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ**﴾[1]، وفي آية أخرى، يُحدَّد المغرقون ببعض قوم **نُوح**: ﴿**الذين كذَّبوا بِآيَاتِنَا**﴾[2]. بل إن «**الطُّوفان**» لا يعني في المصطلح القرآني سِوَى فيضان. بدليل أنها قد جاءت الإشارة إلى «**الطُّوفان**» في ما أصاب قوم فرعون أيضًا: ﴿**فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ**﴾[3]. من هٰذا يُفهَم أن ما حدث- ومهما بلغ عِظَمُه- إنَّما كان فيضانًا كبيرًا صاحبته أمطارٌ غزيرة، جاء على قوم **نُوح** فأغرق بعضهم. هٰذا كلُّها في الأمر، حسب الرواية القرآنيَّة. وهي رواية غير أُسطوريَّة البناء، ولا تَعارُض بينها وبين العِلْم، ولا بينها واحتمالات التاريخ. لٰكن ما بقيت في حدود النصِّ القرآني، بعيدًا عن الأُسطورة التوراتيَّة، وإسرائيليَّات التفاسير الإسلاميَّة والتواريخ. وبرهان الأمر يسيرٌ- وكان جديرًا بأن يُدركه عامَّة الناس، دون عِلْمٍ ولا تاريخ- وهو أن ذٰلك الحدث الذي أَلَمَّ بقوم **نُوح** لم يقضِ

---

[1] **سورة الفرقان**: الآية ٣٧.

[2] **سورة الأعراف**: الآية ٦٤.

[3] م.ن: الآية ١٣٣.

حتى على تراث قوم **نُوحٍ** أنفسهم بصورة نهائيَّة؛ فظلَّت آلهتهم، مثل (**ودٍّ**، **وسُواع**، **ويغوث**، **ويعوق**، **ونَسْر**)، معروفة في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وما جاورها، وهي من آلهة بعض القبائل العَرَبيَّة إلى ظهور الإسلام.[1] فأين ذٰلك **الطُّوفان** الكوني الأُسطوري التوراتي، الذي قضَى على الأخضر واليابس، وأنهى تاريخ الحياة السابقة على **نُوح**، وما ترتَّبت من خيالات عليه وأوهام؟!![2]

من هنا لا يستقيم التسليم بالقصص التوراتي الأُسطوري المتعلِّق بـ(**نُوح**) و(**سام**) وسلالاتهما مع القول بأنهم من العَرَب، فضلًا عن التمادي في الزعم أن وجود العَرَب كان سابقًا عليهما بآلاف السنين.

---

(1) من التخريفات التي أحدثتها الإسرائيليَّات في التراث الإسلامي أنه: لَمَّا تعارضت الحكاية التوراتيَّة حول الطُّوفان مع بقاء أصنام قوم (**نُوح**) إلى ظهور الإسلام، اضطرَّ بعض الرواة إلى اختلاق أكذوبة، تزعم: أن الطُّوفان لَمَّا طبَّق الأرضَ كلَّها، أهبط هٰذه الأصنام إلى الأرض، ثمَّ حملها الموجُ حتى قذفها إلى شطِّ (**جُدَّة**)، فسَفَتْ الريحُ عليها الرِّمالَ حتى وارتها، حتى دلَّ شيطانٌ من الجِنِّ (**عَمْرًا بن لُحَيٍّ**) عليها، وأمره أن ينبش الأرض عنها، ويدعو العَرَب إلى عبادتها، ففعل، وذهب إلى الحَجِّ، فدعا العَرَبَ قاطبةً إلى عبادتها! (انظر: ابن الكلبي، **الأصنام**، ٥٣- ٥٤).

(2) ولعُنصر (**الماء**) في الميثولوجيَّات القديمة دِلالاته الرمزيَّة، بوصفه عُنصر الحياة الأوَّل، ورمزًا للخِصب، والخلاص، والتجدُّد، والتطهُّر. وتدلُّ الآثار الدِّينيَّة، في مختلف الثقافات، على علاقة تقديسيَّة كانت لدَى الشعوب القديمة بين **الماء** وتلك الأفكار المرتبطة بالحياة والخِصب والولادة من جهة، والخلاص والتجدُّد والطُّهوريَّة من جهةٍ أخرى. وهي أفكارٌ متداخلةٌ في التصوُّر الإنساني. وقد ظلَّت تلك القِيَم الرمزيَّة عالقةً باللغة، وبالتراث الشعبي. يُلحَظ ذٰلك، مثلًا، من خلال مفردات «**ماء**»، و«**أُم**»، و«**امرأة**»، في العَرَبيَّة، وتشهد به الجذور الأُسطوريَّة لعقائد العَرَب قبل الإسلام وشِعرهم. (يمكن تتبُّع ذٰلك من خلال مفردة (**ماء**)، في كشَّاف كتابي: **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٣٣٣- ٣٣٤). ولهٰذا لم يكن من فراغ أن نجد لعنصر **الماء** حضورًا نمطيًّا دالًّا في القصص التوراتيَّة، ومصيريًّا في معناه الدِّيني، بدءًا بقِصَّة الطُّوفان، وعبورًا بقِصص عبور (**بني إسرائيل**) المياه، مياه الأنهار والبحار، وانتشال (**مُوسَى**) من الماء، ثمَّ ما تمخَّض عن ذٰلك في النصرانيَّة من فكرة المعموديَّة، وسَير (**يسوع**) على الماء. إلى غير ذٰلك.

ثمَّ إن الإشكال في ما يردِّده صاحب «**العَرَب والسَّاميُّون...**» إثر (**الصَّليبي**) أن مزاعمه التاريخيَّة الكبيرة لا يدعمها أيُّ دليلٍ أثري، وإنَّما كلُّ ما لديه أسماء وحروف متشابهة. ولا جديد يُذكَر بعد دعاوَى **الصَّليبي**، بل إن الكتب التي وُضِعت بعده على هٰذا النهج عيال عليه في معظمها، وإنْ تنكَّرت لذٰلك.[1]

وعلى الرغم من أن (**داوود**) يذهب إلى أن جميع الجهات الأثريَّة أجمعت على أنه لا وجود لأحداث «**التوراة**» أثريًّا، لا في (**فِلسطين**) المحتلَّة ولا خارجها، في أيِّ بُقعةٍ من الوطن العَرَبي[2]، فإنه يعود ليزعم وجودها داخل (**الجزيرة العَرَبيَّة**) تخصيصًا، وذٰلك- كما قال حرفيًّا-: «**في منطقة عسير من شَرق بلاد غامد في شِبْه جزيرة العَرَب!**»[3] ولا لافت هنا ولا عجيب؛ فهو، كـ(**الصَّليبي**)، لا يعرف شَرق هٰذه الدِّيار من غَربها؛ فإذا رأيت (**عسيرًا**) وقد أضحت شَرق (**غامد**)، فغُضَّ الطَّرْف؛ فإنك مع جيلٍ من المؤرِّخين التائهين. ومع هٰذا فما زال الكفاح مستمرًّا لإعادة رسم خريطة التاريخ من جديد، لجعل الشَّرق غَربًا والشَّمال جَنوبًا. ولٰكن عَدِّ عمَّا ترى من هٰذا الاضطراب، ولنَعُد بك إلى السؤال:

تُرَى لِـمَ هٰذا التناقض بين نفي الوجود للأحداث التوراتيَّة والإثبات؟

---

(1) حتى إن بعضها ليصل إلى درجة السطو على أفكار (**الصَّليبي**) وجهوده، دونما ذِكْرٍ لسبقه. فـ(**داوود**) في كتابه «**تاريخ سُوريا القديم**» الذي صدر متأخِّرًا جِدًّا عن سلسلة كتب **الصَّليبي** في هٰذا الموضوع، ٢٠٠٣، لا يشير إلى **الصَّليبي** في مراجعه، وحينما أحال القارئ في حواشيه إلى كتاب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، أحاله إلى «**جريدة القبس**» الكويتيَّة! (انظر: **تاريخ سُوريا القديم**، ٧٥٦).

(2) انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٢، ٩١.

(3) م.ن، ٩٥.

إنَّما هٰذا كيما ينافح عمَّا يسمِّيه «**دولة سُوريا العَرَبية التي مركزها بابل**»، والعالَم أجمع- بحسب تصوُّره- مَدِينٌ لهٰذه الدَّولة حتى بطُلوع الشمس والقمر. ويبدو أنه يتَّكئ في هٰذا على بعض الفرضيَّات الحديثة، من مثل فرضيَّة المستشرق الأميركي (**كلاي**)، الذاهبة إلى أن الموطن الأوَّل للساميِّين هو شَمال (**سُوريَّة**)، في البلاد التي كانت تُسمَّى في النقوش القديمة: «**آمورو**». وكان من قرائن هٰذه الفرضيَّة أن الأُسرة البابليَّة الأُولى، التي أسَّست (**بابل**)- أي «**باب الله**»- كانت نازحةً من غَربيِّها، من **آمورو**. وهي فرضيَّة- فضلًا عن عدم نهوضها على أُسسٍ عِلْميَّةٍ برهانيَّة- تقف دون التسليم بها حقائقُ تاريخيَّةٌ وجُغرافيَّةٌ من الصعب تخطِّيها. ومنها، كما يرى بعض الدارسين، أن انتشار الأُمم الساميَّة جَنوبًا لم يكن بالأمر المتصوَّر في تلك العصور إلَّا بمطايا الإبل. والإبل لم تكن قد استُؤنِست في هٰذه المنطقة واستُخدِمت في تلك الحِقَب.[1]

٢- البُوق التاريخي!:

لَمَّا استقرَّ رأي المؤلِّف على ما استقرَّ عليه، رأى أن البشَريَّة قد تواطأت على تزوير التاريخ ضدَّ العَرَب، وقد آن الأوان لتصحيح ذٰلك التاريخ. إنه، كما قال، مشروعٌ

[1] انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ١٤- ١٥.

على أننا لا نرى هٰذه بالحُجَّة القويَّة. وهي إنَّما تقوم على افتراض أن (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، وما جاورها من بادية (**الشَّام**) و(**العِراق**)، كانت صحاري، كما آلت إليه من بَعد.

في «**صميم المعركة المصيريَّة التي تخوضها أُمَّتنا ضدَّ الإمبرياليَّة والصهيونيَّة**».[1] بهٰذا الاحتقان جاءت لهجة الكتاب، وبسببه تحوَّل العمل إلى مرافعةٍ للمحاماة عن أمجاد العَرَب العريقة ضدَّ الإمبرياليَّة والصهيونيَّة وأذنابهما كافَّة لبترها من الجذور. تعرَّى الكتاب من رصانة المنهاج العِلْمي، الذي لا شأن له بالمزايدات السياسيَّة، ولا بالمعارك الأُمميَّة المصيريَّة الفاصلة، مهما برَّرتها العواطف وجيَّشتها الأنظمة. يأتي هٰذا الخطاب طِبْق ما يمكن أن أسميه بـ«عقليَّة الصَّهْيَنَة»، لتعليق كلِّ سوأة على الغرب والصهيونيَّة. وهٰذا مَرضٌ ثقافيٌّ عضال، يهدف إلى خلع المسؤوليَّة عن كاهل الذات أو القوم وإلقائها على العدو.[2] ولا غرو؛ فحينما يتحوَّل الباحثُ إلى بُوقٍ إديولوجيٍّ، والعالِـم إلى مروِّجٍ لمنشورِ مَذهبٍ أو تيَّارٍ، والمُثقَّفُ إلى مِذياعٍ حِزبيٍّ سياسيٍّ، فاقرأ على البحث والعِلْم والثقافة السلام!

على أن الكتاب لا يعدو تاريخَ حروفٍ وأسماء، وتلاعبٍ خلالها، كما رأينا في كُتب (**الصَّليبي**). وهو، إذن، تكرارٌ للخواء الاستدلاليِّ الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع، بل البالغ درجةً من التزييف المكشوف. سِوَى أنه يتزحزح بالأماكن التوراتيَّة عن (**عسير**)- التي جاس خلالها **الصَّليبي**- شَمالًا صوب (**غامد**

---

[1] داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٩٤.

[2] ولمَّا كان الشيء بالشيء يُذكَر، فقد بلغ هٰذا المرض الثقافي بأهله إلى تصوير تنظيم (**داعش**) الإرهابي، مثلًا، على أنه صناعة صهيونيَّة أو حتى إيرانيَّة! مع أنه تنظيمٌ لم يأتِ بجديد؛ إذ يمتح من بئرٍ عتيقةٍ معروفة، غير معطَّلة إلَّا «تكتيكيًّا» في بعض الحِقَب. وما عشعش هٰذا التفكير التنصُّليُّ التآمريُّ غير النقدي، فسيظلُّ التاريخ يُعيد نفسه؛ وسيظلُّ للعَرَب في كلِّ حِقبةٍ مِشْجَبٌ و(**ذاتُ أنواط**).

و**زَهران**)؛ فقد وَجَدَ، هو الآخر، أسماء قابلة للتأويل والفكِّ والتركيب، ولو افتعالًا وتكلُّفًا شديدًا. فـ(**مِصْر**) ليست بـ(**المصرمة/ المصرامة**)، التي دندن حولها **الصَّليبي** طَوال حياته، وليست في **عسير** هٰذه المرَّة، بل هي: جبل، أو ربما وادٍ، لا ندري، سمَّاه هو: «**مصريم**»، وادَّعى أنه يقع في بلاد (**غامد**).[1]

تُرى أين يقع (**مصريم**) هٰذا في بلاد (**غامد**)، وليكن جبلًا أو سهلًا أو واديًا أو حتى بيتًا عائليًّا، كما كان (**الصَّليبي**) يلتمس الأسماء حتى في بيوت الناس؟!

لا يُتعبنَّ القارئ نفسه بالبحث؛ لأنه لن يجد (**مصريمًا**) لا في بلاد (**غامد**) ولا في غيرها. هو مكان متخيَّل، مبتكر التسمية، لا وجود له على أرض الواقع. وإنَّما ثَمَّةَ قرية اسمها: (**المَضْرُوْم**)، من قُرى (**رغدان**)، بسراة **غامد**، وجبل اسمه: (**المَضْرُوْم**)، في بلاد (**بالشهم**) من **غامد**.[2] وهٰذا **المَضْرُوْم** سبق أن ذكره (**الصَّليبي**)[3] في احتمالاته المتعدِّدة لاسم «**مصرايم**»، (**مصريم**)، التوراتي. لٰكنَّه رجَّح أنه (**المصرمة**) في جوار (**أبها**)، أو (**مصر**) في وادي (**بِيشة**)، أو (**آل مَصْري**) في جهة (**الطائف**). أمَّا (**داوود**)، فلم يعُد متردِّدًا في أن **المَضْرُوْم** هو **مصرايم**. غافلًا عن أن العلاقة بين الكلمتَين، لو صحَّت، لا بُدَّ أن تكون صوتيَّةً، لا بَصَريَّةً من خلال الرسم الكتابي. وشتَّان صوتيًّا بين الصاد والضاد.

على أن المؤلِّف لا يحلِّل شيئًا، كسَلَفه على الأقلّ، ولا يُعلِّل قولًا، وإنَّما ينطلق

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٩٨، ١٣٧- ٢٠٠.

[2] انظر: الزَّهراني، ٢٢٦.

[3] انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢٤٧.

من مُسلَّمات لديه جاهزة، مفروغ منها. كأنْ يقول لك: إن (**الفُرات**)- ذٰلك النهر العِراقي العظيم- هو (**الثرات**)، وأن هٰذا **الثرات** وادٍ في (**غامد**).

تُـرَى أين يقع (**الثرات**) هٰذا في بلاد (**غامد**)؟!

لا يُتعِبنَّ القارئ نفسه بالبحث؛ لأنه لن يجد (**الثرات**) لا في بلاد (**غامد**) ولا في غيرها. وإنَّما هناك واديان باسم (**ثَراد**)، لا **ثرات**. أوَّلهما وادٍ يُسمَّى (**ثَراد الزُّهران**)، أُقيم عليه سَدٌّ، افتُتح ١٤٢٨هـ، يقع في محافظة (**العقيق**) بمنطقة (**الباحة**)، وهو من روافد وادي (**تُرَبَة**). ووادٍ آخر باسم **ثَراد** أيضًا يقع جَنوب **العقيق**؛ لذٰلك يُسمُّونه: (**ثَراد الجَنوبي**)، من روافد **تُرَبَة** كذٰلك.[١] واسم هٰذا الوادي وسابقه ذو معنى عَرَبيٍّ، مشتقٌّ من مادَّة (**ثَرَدَ**). وليس في العَرَبيَّة (**ثَرَتَ**) البتَّة، كما ليس ثمَّة وادٍ بتلك التسمية المحرَّفة الواردة في كتاب (**داوود**). ذٰلك أن من معاني الثَّرْد: المَطَر الضَّعيف. وأَرْضٌ مَثْرودةٌ ومُثَرَّدة: أَصابَهَا تَثْرِيدٌ مِنْ مَطَرٍ، أَي لَطْخٌ من الثَّرْد. والثُّرْدُود بالضَّمِّ: المطَر الضَّعيف كذٰلك.[٢] فمعنى تسمية الوادي بـ«**ثَراد**» مشتقٌّ من هٰذه المعاني المائيَّة، ولا علاقة له بـ(**الفُرات**)، المعروف باسمه هٰذا منذ القِدَم (Euphrates)، الذي وصفه (**هيرودوت**) بأنه ينبع من (**أرمينيا**) ويَصُبُّ في (**الخليج العَرَبي**).[٣] وفي اسم «**ثَراد**» إيحاءٌ بأنه رافد محدود

---

(١) انظر: الزَّهراني، ٥٦.

(٢) انظر: الزَّبيدي، (ثرد).

وما زلنا بلهجتنا الفَيْفيَّة نقول: «**ثَرْوَدَ**» بالماء ونحوه ثَرْوَدَةً، أي خَوَّضَ فيه، فاختلط وَحلُه بصافيه.

(3) See: Herodotus, Book 1, Chap. 180.
←

نِسبيًّا، والثَّرَادان كذٰلك بالفعل، وليسا بالوادِيَين العظيمَين، فضلًا أن يكون أحدهما نهرًا عظيمًا **كالفُرات**، الذي جاء وصفه في «**التوراة**» على النحو الآتي:

> **«ويَكُونُ السَّمَكُ كَثِيرًا جِدًّا لأَنَّ هٰذِهِ المِيَاهَ تَأْتِي إِلَى هُنَاكَ فَتُشْفَى، ويَحْيَا كُلُّ مَا يَأْتِي النَّهْرُ إِلَيْهِ. ويَكُونُ الصَّيَّادُونَ واقِفِينَ عَلَيْهِ. مِنْ عَيْنِ جَدْي إِلَى عَيْنِ عِجْلايِمَ يَكُونُ لِبَسْطِ الشِّبَاكِ، ويَكُونُ سَمَكُهُمْ عَلَى أَنْوَاعِهِ كَسَمَكِ البَحْرِ العَظِيمِ كَثِيرًا جِدًّا. أَمَّا غَمِقَاتُهُ وبِرَكُهُ فَلا تُشْفَى. تُجْعَلُ لِلْمِلْحِ.»**[1]

أ فهٰذه من صِفات (**وادي ثَرَاد**) في شيء؟!

وبالطبع لا يمكن أن يُعَدَّ عُبور مثل وادي (**الثَّرَاد**) حَدَثًا فارقًا استأهل عليه العِبرانيُّون تلقيبهم بهٰذا اللقب. ولكَم عَبَروا أمثالَه، وأكبر منه، من الأودية في ترحُّلهم المستمر! لا يُتصوَّر أن يُعَدَّ عُبوره، إذن، أمرًا ذا بالٍ أصلًا، لا بالنظر إلى عِظَمه، ولا بالنظر إلى ما يمثِّله من فاصلٍ جغرافيٍّ حَدِّيٍّ بارز. هٰذا من حيث الدلالة اللغويَّة، وطبيعة المكان، ومنطق الربط بين المفردة التوراتيَّة ومعناها.

ثمَّ ما الذي بقي من اسم (**الفُرات**) نفسه؟

ما بقي: الراء فقط. الفاء هي ثاء، والتاء دال. تمحُّلًا، قَلَبَ الثاء فاءً والدال تاءً، وصَيَّرَ الوادي المتواضع نهرًا عظيمًا، هو (**الفُرات**)، هٰكذا اعتباطًا. فإذا صحَّ

وقد ذَكَرَ (هيرودوت) هنا أن (**الفُرات**) يصبُّ في (**البحر الإريتيري**)، في إشارة إلى (**الخليج العَرَبي**)، كما سلفَ، بوصفه امتدادًا لمياه ما يسمِّيه (**البحر الإريتيري**)، ويعني به ما يُعرف اليوم بـ(**بحر العَرَب**).

[1] **سِفر حزقيال**، ٤٧: ١٠- ١٢.

مثل هٰذا الصنيع، صار أيُّ شيءٍ يعني أيَّ شيءٍ آخَر، ولا يصحُّ في الأذهان شيءٌ بعدئذٍ، ما بلغ الأمر هٰذا المبلغ من التماس الشَّبَه بين التسميات، ونَحْل العلاقات بين المَواطن. بل لَمَا عاد للوثائق من معنى، ولا للُّغة من وظيفة، لو جاز الاعتداد بذاك «السيرك» الحروفي الذي ظلَّ يرقص على حباله أولٰئك المؤلِّفون.

ومثل اختلاقه الرابط بين (**الثَّرَاد**) و(**الفُرات**)، وبين (**المَضْرُوْم**) و(**مصرايم**)، فعلَ بادِّعائه أن (**وادي طُوَى**) هو الواقع في (**عَقيق غامد**)، وأنْ «**ليس في الوطن العَرَبي كلِّه أيُّ وادٍ آخر يحمل هٰذا الاسم غيره**»![1] فلا المعلومة الأُولى صحيحةٌ ولا الأخرى! ذٰلك أن اسم الوادي هو: «**وادي الطَّوِيِّ**»، لا «**طُوَى**»، من روافد (**كراء**). وهناك أماكن شبيهة أسماؤها بهٰذا الاسم في غير (**بلاد غامد**)، وليس كما زَعَمَ أنْ «**ليس في الوطن العَرَبي كلِّه أيُّ وادٍ آخر يحمل هٰذا الاسم**». منها- على سبيل المثال، إذا تبعنا منهجه في التماس الأشباه-: وادي (**طِيَـة**)، غَرب جبال (**بني مالك**)، في منطقة (**جازان**)، على الحدود مع (**بلغازي**). وفي شَرق (**عُمان**) وادٍ رائعٍ بعيونه وشلَّالاته اسمه: (**وادي طوي**)، أو (**طِيْوِي**)، في (**ولاية صُوْر**). وهناك قرية (**الطَّوا**) في (**تِهامة عسير**)، وهو المكان الذي كان (**الصَّليبي**)[2] من قبل قد زعم أنه المشار إليه **بوادي طُوَى**. بل هناك من أودية (**مكَّة**) وادٍ اسمه: **وادي طُوَى**، و(**وادي ذي طُوَى**).[3] و(**الطَّوِيُّ**) أيضًا: بئرٌ بأعلى **مكَّة**، عند (**البيضاء**)، دار (**محمَّد**

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٦٠.

[2] انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٧٠.

[3] انظر: الأزرقي، **تاريخ مكَّة**، ٩٥٩، ٩٦٣.

بن يوسف الثَّقفي)، احتفرها (**عبدشمس بن عبدمناف**)، كما جاء عن (**ابن إسحاق**) في «**السِّيرة النبويَّة**».[1] إلى غير هٰذا. فما أكثر الأسماء وما أكثر تشابهاتها! فإذا أضيف إلى ذٰلك تلك العمليَّات العبثيَّة من لَـيِّ الأحرف وتحريف الأسماء، أمكن عندئذٍ أن يُقال أيُّ شيءٍ عن أيِّ مكان، ممَّا لا وزن لقوله، تاريخًا ولا لغة. بل لقد ذهب بعض المفسِّرين إلى أن كلمة «**طُوَى**» في الآية القرآنيَّة ليست باسمٍ للوادي المقدَّس أصلًا، وأن ذٰلك الفهم محض وهمٍ قرائيٍّ، وإنما معنى الكلمة أن القداسة فيه مضاعفة، فهٰذا مثل قول (**عَدِيِّ بن زيد العبادي**):

أَعاذِلُ، إِنَّ اللَّوْمَ في غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَـيَّ طُوًى مِنْ غَيِّكِ الْمُـتَرَدِّدِ

وقيل معناه: إنكَ بالوادي المقدَّس، فاطوِه بسَيرك طُوًى، أي طَيًّا. وقيل: اللفظ إشارة إلى أن النداء إلى **مُوسَى** جاء طُوًى، أي مكرَّرًا مرَّتَين.[2]

٣- البحث العِلْمي وأتون الأدلجة:

لَمَّا كان (**أحمد داوود**) قد ربط أسماء المواضع التوراتيَّة ببلاد (**غامد وزَهران**)، فقد سلكَ مسلكَ (**الصَّليبي**) في ربطه تلك الأسماء بـ(**عسير**)؛ فغدا يتلمَّس المفردات التوراتيَّة المتباينة في أسماء المواضع هناك، دونما تساؤلٍ عن علاقة الاسم بذٰلك التاريخ التوراتي؟ وما أصله؟ ومتى وُجِد؟

---

[1] انظر: ابن هشام، **السِّيرة النبويَّة**، ١: ١٤٨.

[2] انظر: الطبري، **تفسير الطبري**، (سورة طٰه: الآية ١٢).

من أمثلة ذٰلك ربطه بين «**بلاد زاهي**»، الوارد ذكرها في «**التوراة**»، واسم (**زَهران**). إذ ذهبَ يحلِّل اسم «زه-ران»؛ فـ«**زه**» **بالكلدانيَّة** يعني: **الشمس**، و«**رن**»: **الشمس** أيضًا، أو العَين، أو الراني؛ فيكون المعنى: «**بلاد الشمس المشرقة، أو** «**شمس رنيا**»، و(**شمس رنيا**) **كان أكبر الأرباب في تلك المنطقة!**»[1] هٰذا ما انتهى إليه. فإذن «**بلاد زاهي**» لا علاقة لها بـ(**فينيقيا**) ولا بـ(**فِلسطين**)، بل هي: «**زَهران**» الحاليَّة. غير أنه لم يسأل، قبل الإبحار إلى **الكلدانيَّة**، ما معنى هٰذا الاسم «**زَهران**»؟ ولما هو، أو لَمن هو؟ ومتى وُجِد؟ ولو سأل، لكانت الإجابة أن «**زَهران**» اسم إنسانٍ، لا اسم مكان. وهو: (**زَهران بن كعب بن الحارث بن كعب**)، من (**أزد شنوءة**). ولَعَرَفَ أن عبارة «**بلاد زاهي**» حين ذُكِرت في «**التوراة**» لم يكن **زَهران بن كعب** هٰذا قد خُلِق أصلًا. بل لعلَّ (**الأزد**)، أجداده أنفسهم، لم يكونوا قد نزحوا من (**اليَمَن**)، متفرِّقين في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وخارجها.[2] ولَعَرَفَ أن تسمية **بلاد زَهران** بهٰذا الاسم ليست بالقديمة، حتى في التاريخ العَرَبي، الإسلامي والجاهلي، بل كانت تُسمَّى سَراة (**دَوْس**)، أو سَراة (**فَهْم وعَدْوان**).[3] بيدَ أن «مؤرِّخينا» هٰؤلاء ما فتئوا يقفزون قفزاتهم البهلوانيَّة بين الأسماء المعاصرة

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٧٧– ١٧٨.

[2] معروف، من غالبيَّة الأخبار التاريخيَّة، أن (**الأزد**) إنما نزحوا عن (**اليَمَن**)، نزوحهم الأوسع، بعد (**سيل العَرِم**)، المشار إليه في «**القرآن**»، الذي حدث بعد ميلاد (**المسيح**)، وقيل قُبيل الإسلام بقرنٍ من السنين. (انظر مثلًا: ابن هشام، ١: ١٣؛ الأصفهاني، ٢٢: ٧٩).

[3] وانظر مثلًا: الهمداني، **صِفَة جزيرة العَرَب**، ٢٥٨، والزَّهراني، ٧.

ومجاهل التاريخ؛ لربط أَوَّل التاريخ بآخِره اعتسافًا، دون أن يحفلوا بعدئذٍ بقرائن خارج تشابهات الأصوات والأسماء.

وكـ(**زَهران**) خاض المؤلِّف بعيدًا في تأويل اسم (**غامد**). معتقِدًا أن كلمة «**غامد**» تعني: أرض النجاة/ أرض الخلاص/ أرض المخلِّص. ثمَّ شَرَعَ يحلِّل، فزعم أن أصل الاسم «**جيا= أرض، وميدو= ناجٍ/ مخلِّص/ منقذ/ منجِّي**»، حسب «**القاموس الكلداني**»، رابطًا ذٰلك ببعض الأساطير السُّوريَّة القديمة.[1] فأين ذهب (**غامِد بن عبدالله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد، الأزدي الشَّنُوئي**)، جَدُّ هٰذه القبيلة الذي نُسبت إليه ونُسبت أرضها إليه؟ لقد ذهب أدراج «**القاموس الكلداني**» والأساطير السُّوريَّة المندثرة**!**

إن «**غامدًا**» اسم إنسانٍ في الأصل، لا اسم مكان. وهٰذا الاسم من أسماء الرجال المعروفة عند العَرَب. منها، مثالًا: جَدُّ (**الدُّوْل**)، من (**عَنَزَة**): (**الدُّوْل بن سعد بن مَنَاة بن غامد**). ولا علاقة لهٰؤلاء بـ(**غامِد السَّراة**). وكذٰلك (**غامِدَة**) أبو قبيلة من (**جُهَينة**)، على ما قيل. وهو اسمٌ متداوَل، للناس والمواضع أيضًا، كـ(**غُمْدان**)، في (**اليمامة**)، و(**غُمْدان**) و(**الغُـِماد**)- بضمِّ الغين وكسرها- في (**اليَمَن**). وهو اسمُ نَعْتٍ للشيء بالامتلاء والتمكُّن على الأرجح؛ ولذٰلك سَمَّى العَرَب السفينة المشحونة: غامِد، وغامِدة. ويذهب (**ابن الكلبي**) إلى أن جَدَّ قبيلة **غامد** سُمِّيَ **غامِدًا** لأَنه تَغَمَّدَ أَمرًا كان بينه وبين عشيرته، أي سَتَرَه أو أصلحه،

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٢٤- ٢٢٥.

فسمَّاه مَلِكٌ من ملوك (**حِمْير**) **غامدًا**؛ وأَنشد **لغامد**:

تَغَمَّدْتُ أَمرًا كان بَينَ عَشِيرَتي، فَسَمَّانيَ القَيْلُ الحَضُورِيُّ غامِدا

وقيل اسمه الأصلي: (**عمرو بن عبدالله، أو عُمَر**). ونفَى (**الأصمعي**) أن اشتقاقه ممَّا ذهب إليه (**ابنُ الكلبي**)، وإنَّما هو من قولهم: غَمَدَتِ البئرُ غَمْدًا، إذا كثُر ماؤُها.[1]

ومهما يكن من أمر، فإن (**داوود**) لا يلتفت إلى تاريخ العَرَب ولا إلى لغتهم، بل إلى ما يوصله، قِشْريًّا، إلى ما بَيَّتَ من غايات. ومن ذاك أنه- وكما ربط (**الصَّليبي**) بين اسم «**السَّراة**» و«**إسرائيل**» تارةً واسم «**سارة**» تارةً أخرى- جاءنا (**داوود**)[2] ليربط اسم «**السَّراة**» بـ«**السِّريان**» و«**السُّوريِّين**»! والمسألة لدَيهما كليهما حُروفيَّة تأوُّليَّة بحتة، لا تستند إلى أدلَّة. وإذ يلتمسان العلاقات الصوتيَّة البعيدة بين الأسماء العَرَبيَّة ولغات سامِيَّة أخرى، لا تراهما يُعِيران تاريخ العَرَبيَّة، الذي سُكَّت تلك الكلمات في إطاره اللغويِّ والبيئيِّ والثقافيِّ والزمنيِّ، التفاتًا. وقد تقدَّم النقاش حول مفردة «**سَراة**» في العَرَبيَّة، أصلها وتاريخها، اللذين لا يحتملان تلك الافتراضات أو التخرُّصات التأويليَّة.

ثمَّ إنَّ المؤلِّف يُضيف إلى معلوماتنا أن جبل (**لبنان**) يقع في (**بلاد غامد**)، غربي (**الثرات/ الفرات= ثَراد**)، وأن الإشارات التوراتيَّة هي إلى هٰذا المكان، لا إلى

---

[1] انظر: ابن دريد، **الاشتقاق**، ٢: ٤٩٢؛ الزَّبيدي، (غمد)، وغيرهما.

[2] انظر: **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٢٧.

لبنان المعروف. أمَّا كيف؟ ومن أين له هٰذا؟ فلا يكاد يحير جوابًا، ولا تجد لديه غَناءً. ليس أكثر من أن يزعم أن المَواطن خارج (**الجزيرة العَرَبيَّة**) إنَّما سُمِّيت بأسمائها المشهورة «تيمُّنًا» بأسماء قديمة داخل الجزيرة، ولاسيما في (**سراة غامد**)؛ حيث يرى تاريخ البشريَّة جمعاء، منذ (**آدم**)، فـ(**نُوح**)... وهَلُمَّ جرًّا، مشبِّهًا لك تلك الأسماء تارةً ومخترعًا إيَّاها تارةً أخرى.

وهٰذا النهج لديه، ولدَى (**الصَّليبي**) من قَبل، نهجٌ مغالِطٌ على نحوٍ عابثٍ ومستخفٍّ حقًّا. ذٰلك أنهما إذا لم يجدا الأسماء التوراتيَّة في (**الشَّام**)، قالا: أ لم نقل لكم؟ إن الأحداث لم تكن هناك، و(**بنو إسرائيل**) لم يكن لهم تاريخ في بلاد **الشَّام**، وإلَّا لبقيت الأسماء التوراتيَّة مستعمَلةً إلى الآن، وذهبا يتكلَّفان التفتيش عن تلك الأسماء في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) بصُوَرٍ عجيبة، وإذا وَجدا الأسماء التوراتيَّة ماثلةً في **الشَّام** أو في (**العِراق**) أو في (**مِصْر**)، قالا: كلَّا، ليست هٰذه المعنيَّة، بل المعنيَّة أسماء في **شِبه الجزيرة العَرَبيَّة!** يفعلان ما يفعلان مهما كانت الأسماء صريحة وواضحة وراسخة في التاريخ، ولو كان الاسم اسم: (**فِلسطِين**)، و(**أورشليم**)، و(**الناصرة**)، و(**الأُردن**)، و(**عَمَّان**)، و(**دمشق**)، و(**لُبنان**)، و(**صُوْر**)، و(**الفُرات**)، و(**مِصْر**)، و(**سيناء**). فكلُّ هٰذه وغيرها لا تشير لديهما إلى تلك الأسماء التاريخيَّة المشهورة، بل إلى أسماء نكرات مجهولة، لا يعرفها أكثر الناس، حتى من أهلها من أبناء الجزيرة. فأيُّ مكابرةٍ فوق هٰذه يأتفكان؟!

وفي غضون هٰذا، كثيرًا ما يُعيدنا (**داوود**)- مستشهِدًا- إلى ما رواه (**الطبري**)

في تاريخه من خزعبيلات إسرائيليَّة، أو إلى ما ثَقِف من أساطير سُومَرِيَّة. وهٰذه الأخيرة قد ظلَّت نبع التُّرَّهات الشعبيَّة في الأوَّلين والآخِرين.. ولبئس الرِّفْد المرفود! كأنما هو يفترض أن على القُرَّاء أن يؤمنوا بما ساقَ ويسلِّموا له تسليمًا، لعلَّهم ينجون معه من تهمة المؤامرة التاريخيَّة الصهيونيَّة العالميَّة! أو لعلَّه يتصوَّر قارئ اليوم- مؤرِّخًا أو غير مؤرِّخ- ما زالت تفتنه الحكايات التي يسردها **الطبري**، حول بداية الخلق، وأحوال الكون، وتاريخ الأُمم البائدة والملوك والرسل، أو تقع منه محلَّ الاحترام العِلْمي، وتبدو له مصدرَ توثيقٍ يُعتدُّ به في شأن ماضٍ من التاريخ، لا عِلْم به لا **للطبري** ولا لمصادره من الرواة والكَتَبة. تُراه يظنُّ قارئَ اليوم يولِّي وعيه شطرَ مصنَّفاتٍ لا تعدو نثرًا لأقاصيص متوارثة، واستكثارًا من التدوين لأساطير بائدة، من نحو ما حشره «الإمام» **الطبري**، بلا حِسٍّ نقديٍّ، في الجزء الأوَّل من «**تاريخ الرسل والملوك**»؟[1] ذٰلك السِّفر الذي من حقِّه أن يُحسَب من السَّوءات التاريخيَّة الفاضحة، التي تجدر بها الغربلة النقديَّة الفاحصة، قبل التوجُّه باللائمة إلى الكتابات التاريخيَّة المعاصرة، أو صبِّ جام التجريم على أعمال الغربيِّين ودسائس المستشرقين.

بذا يشهد كتاب **(داوود)** على نفسه أنه أقرب إلى أن يكون استعراضًا إعلاميًّا قوميًّا، لنفي أيِّ تاريخ لـ**(إبراهيم)** وذريَّته في **(الشَّام)** و**(العِراق)**، وقذفهم جميعًا إلى **(جزيرة العَرَب)**.[2] هو إلى ذٰلك أقرب منه إلى أن يكون كتاب بحثٍ منهاجيٍّ

---

[1] وما يُعفيه الاعتذار بالنقل. فما آفة التاريخ إلَّا حاطبوه، أمثال **(الطبري)**!

[2] و**(إبراهيم)**، كما يذهب إلى ذٰلك في كتابه الآخر **(تاريخ سُوريا القديم، ٨٦)**، شيخٌ قَبَليٌّ من شيوخ القبائل العَرَبيَّة.

وتحقيقٍ عِلْمي.[١] يَضرب في هٰذا الدُّجَى، على الرغم من نصِّ «**التوراة**»[٢] الصريح على هجرة **إبراهيم** من **العِراق** إلى (**فِلسطين**): «**وأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، ولُوطًا بْنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ.**»

والحقُّ أنَّ (**الصَّليبي**)، وإنْ اختلفنا حول طرحه، كان خيرًا من (**داوود**) عَرْضًا، وأَلْفَتَ منه اجتهادًا في التأويل، ومحاولةً للإقناع، وتحرُّرًا من النعرات القوميَّة والسياسيَّة. وفي هٰذه النزعة الداووديَّة الأخيرة ينسَى صاحبنا أو يتناسى- حين ينسب التزوير في تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى **الصهيونيَّة** العالميَّة تارة، وإلى **المستشرقين** ومَن لفَّ لفَّهم تارة أخرى- أنه تاريخٌ لدَى العرَب منه قِسْطٌ لا يُستهان به. من حيث هو مشترَكٌ روائيٌّ، من قبل وجود **الصهيونيَّة** العالميَّة، وقبل الاستعمار و**المستشرقين**. وقد تقدَّمت نماذج منه لدَى (**وَهْب بن مُنبِّه**)، و(**ابن هشام**)، و(**ابن المجاور**)، و(**الهمداني**)، حرصَ **الصَّليبي** على إسقاطها من شواهده أنَّى ثقفها. فهل كان **وَهْب بن مُنبِّه**، و**ابن هشام**، و**ابن المجاور**، و**الهمداني**، وغيرهم من مؤرِّخي

---

[١] يَعْلَم (**داوود**) أن (**سُوريَّة**) كانت تُسمَّى قبل السَّبْي: «**أرض إسرائيل**»؛ لأن (**مملكة إسرائيل**) كانت في أرضها، في مقابل (**مملكة يهوذا**) في (**فِلسطين**). (انظر مثلًا: الهمداني، **صِفَة جزرة العرَب**، ٤٣- ٤٤). ولسبر الدوافع إلى تأليفه كتابه هٰذا- وهو البعثيُّ القوميُّ السُّوريُّ المودلَج- لا يخفَى أن هٰذا البُعد التاريخيَّ من عوامل حماسته لإبعاد هٰذا التاريخ عن (**بلاد الشَّام**) بأيِّ وسيلة، إبعادًا لمطامع حاضرة أو مستقبلة. والدارس، إذ يُقدِّر فيه وطنيَّته الحميدة وقوميَّته الغيورة، لا يراه قد وُفِّق في مسعاه؛ فما هٰكذا تُورَد يا **داوود** الإبِل! ما بِنَفْي التاريخ يُدافَع عن الأوطان، ولا يتحقَّق الدِّفاع عن الأوطان بِرَمْي التاريخ إلى أوطان الآخَرين!

[٢] **سِفر التكوين**، ١١: ٣١.

العَرَب القدماء وجغرافيِّيهم، من ضحايا **الصهيونيَّة** و**المستشرقين** والجامعات الغربيَّة؟! على حين كان مؤلِّفنا يرتضي آراء الكثير من **المستشرقين** عندما يُدْلُون بما يشاء، فتراه يحيل قارئه إلى أمثال: (**وينكلر**)، و(**كريمر**)، و(**كون**)، و(**إدوارد دورم**)، وغيرهم ممَّن يزيِّن بأسمائهم صحائفه، ويتقوَّى بأقوالهم.[1] وفي هٰذا انتقائيَّةٌ صلعاء، تُزري بالبحث العِلْمي، وإنْ قذفته في أتون الأدلجة.

٤- فرعون/ وكيل محطَّة:

إن مؤلِّف كتاب «**العَرَب والسَّاميُّون**»- إذ ينسب التزوير إلى **الصهيونيَّة** وأذنابها في نِسبة تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى (**الشَّام**) و(**العِراق**)، محتجًّا بأن الحفريَّات الأثريَّة لم تستطع أن تقدِّم لنا دليلًا أثريًّا على ذٰلك التاريخ، مردِّدًا كلام (**الصَّليبي**)، دون إشارةٍ إليه- يُغمِض عينَيه عن أن آثار ذٰلك التاريخ لا وجود لها في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) كذٰلك؛ وهو ما ألجأه وسَلَفَه إلى تقليب الأسماء والحروف. وقد أسلفنا أن المناطق التي نُسِب إليها ذٰلك التاريخ في الجزيرة هي مناطق صخريَّة جبليَّة، لا صحارَى ولا رمال، لتندثر الآثار والشواخص فيها بسهولة، لو وُجِدت؛ بحيث لا

---

[1] من ذٰلك استرفاده الألماني (**وينكلر**)، الذي عزَّز به رأيه في أن (مِصْر) و(**كُوْش**) الواردتَين في «**التوراة**» هما في (**جزيرة العَرَب**). (انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٨٠). مع أن **وينكلر** إنَّما أشار إلى أمثلةٍ لوقوع بعض الإشارات التوراتيَّة في القسم الشَّمالي من **جزيرة العَرَب**. والقسم الشَّمالي من **جزيرة العَرَب** لا يعني جوف **جزيرة العَرَب**، فضلًا عن أن يعني جَنوبها. ولا جديد في القول بعلاقة شَمالي الجزيرة- ممَّا جاور (**تيماء**) فما يليها شَمالًا- بالتاريخ التوراتي أو البابلي أو المِصْري.

تُعرَف إلَّا بالحفر والتنقيب بالضرورة. ولقد بقيتْ آثار أقوامٍ آخَرين ماثلةً في الصحراء العَرَبيَّة إلى اليوم، فيما لم يبق مثقال ذرَّة من تاريخ **الصَّليبي** و(**داوود**) المختلَق، مع أنه تاريخٌ لما هو أعظم وأطول وأخطر! والسبب واضح، وهو أنه محض تاريخٍ من الكلمات والأسماء والخيالات والأوهام، مع حوافز إديولوجيَّة على نفيه هناك وإثباته هنا.

أما وقد استند (**داوود**)[1] إلى «**القرآن**» في أن (**مِصْر**) التي قصدها (**بنو إسرائيل**) مجرَّد قريةٍ أو محطَّةٍ هامشيَّة لعشيرة المِصْريِّين في بلاد (**غامد**)، فليفسِّر لنا ما وصفَ به «**القرآنُ**» **مِصْرَ** تلك. ذٰلك أنه قد حوَّل الإشارات التوراتيَّة إلى **مِصْر** أو (**العِراق**) أو (**الشَّام**) إلى محطَّات تجاريَّة للقوافل في **الجزيرة العَرَبيَّة**، عليها وكلاء تابعون لتلك البلدان، (وهو اختراعٌ خياليٌّ طريف)، ثمَّ لم يشأ أن يمضي غير معزِّزٍ مزاعمه بالاستناد إلى «**القرآن**». فليفسِّر لنا الآيات الآتية:

﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿ونَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ، قَالَ: يَا قَوْمِ، أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي؟! أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟!﴾.[2]

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي

---

[1] انظر: **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٣٧- ٠٠٠.

[2] **سورة الزخرف**: الآيتان ٤٦، ٥١.

إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا، ودَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ ومَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.[1]

﴿وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وأَخِيهِ: أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ. وقَالَ مُوسَىٰ: رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ ومَلَأَهُ زِينَةً وأَمْوَالًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

﴿وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا، حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ، قَالَ: آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ. الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ؟! فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.[2]

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَىٰ وفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾.[3]

﴿وقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ، فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ، وإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ. واسْتَكْبَرَ هُوَ وجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ؛ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، ويَوْمَ القِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ. وأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً،

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٦ – ١٣٧.

(٢) سورة يونس: الآيات ٨٧ – ٨٨، ٩٠ – ٩٢.

(٣) سورة القَصص: الآيتان ٣ – ٤.

ويَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِنَ المَقْبُوحِينَ. ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولَىٰ، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وهُدًى ورَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[1]

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ، فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّـهِ إِنْ جَاءَنَا؟ قَالَ فِرْعَوْنُ: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ومَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.[2]

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ وعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا؛ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ. وقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا هَامَانُ، ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ، وإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا، وكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ، ومَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.[3]

﴿وقَارُونَ وفِرْعَوْنَ وهَامَانَ، ولَقَدْ جَاءَهُم مُوسَىٰ بِالبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ ومَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.[4]

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾.[5]

﴿وعَادٌ وفِرْعَوْنُ وإِخْوَانُ لُوطٍ. وأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وقَوْمُ تُبَّعٍ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ. أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.[6]

---

[1] سورة القَصص: الآيات ٣٨- ٤٣.
[2] سورة غافر: الآية ٢٩.
[3] م.ن: الآيات ٣٥- ٣٧.
[4] سورة العنكبوت: الآية ٣٩.
[5] سورة ص: الآية ١٢.
[6] سورة ق: الآيات ١٣- ١٥.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ. وثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ. وفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾.[1]

أ فتلك الآيات تشير إلى عشيرةٍ في (**المَضْرُوْم**) في بلاد (**غامد**)، لم يسمع بها بَشَرٌ قطُّ سِوَى (**أحمد داوود**)؟! حتى إنَّ اسمها لا أثر له، وإنَّما ألصقه هو اعتسافًا باسم **المَضْرُوْم**. أم تلك الآيات مبالغاتٌ قرآنيَّة، لا أساس لها من التاريخ؟!

أ (**مِصْر**) محض قرية، أو محطَّة في الصحراء، عليها شيخٌ اسمه (**فرعون**)، هو «**وكيل المحطَّة**»، كما يدعوه (**داوود**)؟!

تُرى ما كلُّ ذٰلك الاهتمام الربَّاني بإرسال (**مُوسَى**) إلى تلك القرية أو المحطَّة بآياته؟! وما تلك الخصوصيَّة، أو الأهميَّة الاستثنائيَّة، لتلك العشيرة البائسة، حسب وصفها في كتاب (**داوود**)؟!

ويا لها من قريةٍ ذات مُلكٍ عظيم، ينادي به فرعونُ، «**وكيل المحطَّة!**»، مفاخِرًا في قومه، حتى إنه ليقول: «**أنا ربُّكم الأعلى**»، بل يطمح إلى بلوغ أسباب السماء بصرحٍ مبنيٍّ، لعلَّه يطَّلع إلى إلٰـه (**مُوسَى**)! وهي قريةٌ تَجري الأنهارُ من تحتها، أفلا تُبصرون؟!

ثمَّ أين اليَمُّ الذي أُغرِقوا فيه؟

---

[1] سورة الفجر: الآيات ٦- ١٤.

إنْ هو إلَّا سيل، إذن، أو هو (**قبيلة يام**)، أو (**بحر سافي**) في جهة (**الربع الخالي**)، كما كان (**الصَّليبي**) يزعم من قَبل؟

إن اليَمَّ، والبحر، لدَى هٰؤلاء، قد يعني سيلَ وادٍ، كما أن النهر، وإنْ كان كـ(**الفُرات**)، إنَّما يعني وادي (**ثَرَاد**) في محافظة (**العقيق**) بمنطقة (**الباحة**)! لأن اللغة لم تَعُد لغة، ولم يَعُد لكلماتها معنى، لا عَرَبيَّة ولا عِبْرِيَّة. كما أن النهر، أو «**اليَمَّ**»- الذي أُلقي فيه (**مُوسَى**) في سفط من البَردي، بين الخيزران- إنَّما هو وادٍ آخَر، لم يسمِّه هٰذه المرَّة؛ فالبحث عنه ما زال مستمرًّا في تلك الجهات من (**غامد**)! ويبدو أنه يعتقد أن البَردي والخيزران المذكورَين في القِصَّة التوراتيَّة كانا معروفَين في وِديان **غامد**، تمامًا كما كانا في (**وادي النِّيْل**) في (**مِصْر**)!

ثمَّ ليخبرنا: ما تلك المعجزة الإلٰهية العظيمة فيما دَمَّره الله ممَّا كان يَصنعُ (**فرعونُ**) وقومه وما كانوا يَعْرِشون؟! إن ما دمَّره ليس سِوَى عشيرةٍ عَرَبيَّةٍ بدويَّةٍ، في جبلٍ تقطن أو في وادٍ، لم يعلم بها أحدٌ ولم يسمع، ولا أثر لها في التاريخ على الإطلاق، حتى إن اسمها غير معروف، لا في الأوَّلين ولا في الآخِرين.

بيدَ أنها قريةٌ قُرِنت في «**القرآن**» وقُورنت بقوم (**نُوح**)، و(**عاد**)، و(**ثمود**)، وبقوم (**تُبَّع**)، وبغيرهم من عظماء الخَلْق الأوَّل، حسب وصْف «**القرآن**». ليقول لـ(**قريش**) إنكِ لستِ بأعظم من تلك الأُمم، ولا تدانين حضاراتها وما صنعتْ وعَرَشَتْ. ومع ذٰلك يأتيك هٰذا المؤلِّف بأَخَرَةٍ ليقول: إنها لا تعدو عشيرةً كانت في قريةٍ في بلاد (**غامد**)، بعد مؤلِّف سابق قال إنها عشيرةٌ كانت في قريةٍ في (**عسير**). لم

يتحدَّد الموقع، طبعًا؛ لأن اسم (م ص ر) يُطلَق على غير ما موضع، ولو بقلب الصاد ضادًا!

وهي قريةٌ يُوصَف فِرعونها، أعني «**وكيل المحطَّة!**»، بأنه «**ذو الأوتاد**»، وقد طَغَى أهلها في البلاد، ﴿**فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ**﴾. لعلَّ «**الأوتاد**»، إذن، أوتاد الخيام في مضارب تلك العشيرة! بَيْدَ أن «**القرآن**» قد حسم هُويَّة (**فِرعون**) المقصود، وأنه **فِرعون** (**مِصْر وادي النِّيْل**)، لا سِواه، بوصفه إيَّاه بـ﴿**فِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ**﴾، أي «صاحب المِسَلَّات». وقد تقدَّم أن مصطلح «**الأوتاد**» يَرِد بهٰذا المعنى لدَى المؤرِّخ (**سترابو**)[1]، في إشارة إلى أحد الفراعنة.[2]

٥- هل كان المَلِك داوود زعيم عصابة؟:

حقًّا إنَّ قول (**أحمد داوود**)، ومِن قبله (**الصَّليبي**)، بالغٌ من انحطاط التصوُّر وسخافة التفكير إلى الحضيض. ذٰلك من حيث تقبَّل عقلُ الأوَّل أن حضارة (**مِصْر**) العظيمة، التي جُعِلت آيةً في «**التوراة**» و«**القرآن**»، وجُعل تدميرها عِبرةً للمعتبرين، لا تعدو قريةً لا وجود لها على خريطة العالم، ولا أثر لها في التاريخ على الإطلاق، كانت في (**عسير**)، التي هي بمجملها لا ذِكر لها في الحضارات ولا خطر

---

(1) See: (v. 7), Book 16, Chap. 4: 4.

(٢) راجع: (الفصل الأوَّل، تحت عنوان «**١٤- فأَصْبَحَتْ كالصَّرِيم**»).

لها على مرِّ التاريخ، وتقبَّل عقلُ الآخَر أن تلك الآية الحضاريَّة قريةٌ لم يسمع بها أحد في (**غامد**)، التي لا ذِكر لها كذٰلك في الحضارات ولا خطر لها على مرِّ التاريخ.

إن ما قالاه كلاهما استهزاءٌ صارخٌ بما وردَ في الكتابَين المقدَّسَين، «**القرآن**» و«**التوراة**»، من قِصَّة (**مُوسَى**) و(**فرعون**)؛ قائلَين للناس إنَّ أعتَى طاغيةٍ[1] تحدَّث عنه الله لم يكن إلَّا شيخ عشيرةٍ في (**عسير**) أو في (**غامد**)، وإنَّ جبروت الله الذي أراد التخويفَ به إنَّما كان ضِدَّ قريةٍ بائسةٍ عميلةٍ، مندسَّةٍ في مكانٍ مجهولٍ من خبوت **عسير** أو **غامد** وشعافهما، ولم تكن ضِدَّ قوَّةٍ تُذكر أو حضارةٍ يشار إليها بأيِّ بنان. كما أنَّهما قائلان، بمقتضى مزاعمهما: إنَّ الله قد دمَّر ذٰلك الذَّنَب- إنْ صحَّ وجوده، وهٰذا مشكوك فيه أصلًا- وتركَ الأصل الهائل الذي لا تزال شواهده شامخةً في (**وادي النِّيْل**) إلى اليوم تتحدَّى العصور. وبذا فقد اتَّخذا الآيات الواردة عن **فرعون** و**مُوسَى** في «**التوراة**» و«**القرآن**» هُزُوًا؛ إذ هي لديهما أشبه بحكايات الأطفال. وإذا كان لا يتقبَّل هٰذا الزعمَ مؤمنٌ بألوهيَّة الكتابَين، فإنه كذٰلك لا يتقبَّله مؤمنٌ بعقلانيَّة مَن سردَ ذٰلك القَصص عن **فرعون** وقومه وعن صراعه مع (**بني إسرائيل**)، بل هو زعمٌ يقتضي أنَّ مَن حكى تلك الحكايات أحد ثلاثة:

---

[1] وليست عُتُوُّ الفراعنة وطغيانهم بحكايةٍ دِينيَّة فحسب، بل هي آيات حضاريَّة شاهدة إلى اليوم أيضًا، وتواتر أخبارٍ تاريخيَّة عن عسف أولٰئك الملوك وتجبُّرهم في الأرض. ومن آثار ذٰلك ما رواه (**هيرودوت**) حول (**خوفو**) و(**خفرع**)- اللذين حكما خلال الدولة المِصْريَّة القديمة، قبل الألف الثاني قبل الميلاد- وما تركاه في الآخِرين من ذكرى تشمئز منها نفوس المصريِّين. (See: Herodotus, Book 2, Chap. 128).

- إمَّا بدائيٌّ لا يعرف من الدُّنيا والحضارة إلَّا ما يعرف في حدود قريته؛ فهو يظنُّ توافهها آياتٍ بيِّنات.
- وإمَّا جاهلٌ بأصل الحكاية؛ تلقَّف أطرافها فنَسبها إلى غير موطنها الأصلي.
- وإمَّا متعمِّدٌ للتزوير من أجل إيهام البسطاء، والتدجيل على العوامِّ من الأُمم السالفة، بأحداث عظام لم تقع في التاريخ، اللَّـٰهُمَّ إلَّا على نحوٍ بدائيٍّ ومتخلِّفٍ جدًّا.

ونعود إلى القول: إن النصَّ القرآني لا يخدم ادِّعاءات (**أحمد داوود**) بحالٍ من الأحوال، فليته لم يستدعه، حتى لا يبدو شاهدًا فاضحًا على زيف ما توخَّاه. على أن الرجل لم يكتف بالتقليل من شأن تلك الحضارات والأُمم التي تحدَّثت عنها «**التوراة**» وتحدَّث عنها «**القرآن**» بإسهاب- فحوَّلَها إلى قُرًى صغيرة ومحطَّات هامشيَّة ووكلاء محطَّات في (**السَّراة**)- لٰكنه أمعن أيضًا في تحقير شأن (**بني إسرائيل**) أنفسهم، واصفًا إيَّاهم بأنهم كانوا «**أكثر العشائر البدويَّة (العَرَبيَّة** [كذا!]**) تخلُّفًا وأقلَّها شأنًا في المنطقة.**»[1] فإذا كان يطعن في ما وردَ في «**التوراة**»، فلِمَ لا يطعن في ما وردَ في «**القرآن**»؟ في مثل الآيات:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾.[2]

﴿وأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ

---

(1) داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٧٠.

(2) **سورة البقرة**: الآية ٤٧.

ومَغَارِبَهَا، الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا، ودَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ ومَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.[1]

﴿ولَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ، ورَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ العِلْمُ؛ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.[2]

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ورَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾.[3]

﴿وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ، وجَعَلَكُمْ مُلُوكًا، وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ﴾.[4]

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ؛ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.[5]

وكذا يصِف المؤلِّفُ المَلِكَين (**داوودَ**) و(**سُلَيمانَ**) بأنهما تزعَّما عشيرةً بدويَّةً متخلِّفة، قائلًا: «**وهي أشدُّ العشائر العَرَبيَّة البدويَّة تخلُّفًا في بَرِّيَّة العَرَب**»! ومعيار التخلُّف في مملكتَي **داوود** و**سُلَيمان** لديه أنَّ أفرادهما لم يكونوا ماهرين في قَطْع الخشب وفنِّيَّات تصنيعه![6] فأين يذهب من النصوص- التي يستشهد بها هو-

---

[1] **سورة الأعراف**: الآية ١٣٧.

[2] **سورة يونس**: الآية ٩٣.

[3] **سورة الجاثية**: الآية ١٦.

[4] **سورة المائدة**: الآية ٢٠.

[5] **سورة النساء**: الآية ٥٤.

[6] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٦٨، ٢٧٣.

بشأن مملكتَي **داوود** و**سُلَيمان**؟ أين يذهب من دعاء **سُلَيمان** ربَّه فاستجاب له: ﴿**قَالَ رَبِّ: اغْفِرْ لِي، وهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي؛ إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ**﴾[1]. كلُّ ذٰلك لا شيء لدَى المؤلِّف، فقد كانوا «**أكثر العشائر البدويَّة تخلُّفًا وأقلَّها شأنًا في المنطقة!**»، والمَلِك فيهم ما كان يعدو ربَّ أُسرةٍ أو عشيرةٍ بدويَّةٍ تافهة، أو مَلِكًا على بطَّالين في مغارة! إن (**المَلِك داوود**)- بزعم صاحبنا- كان مجرَّد كبير جماعة من البطَّالين في مغارة (**عدلام**). عاش حافيًا، يسكن المغاور، لا مملكة له ولا دولة![2] هٰكذا يقول المؤلِّف.

وهو يزعم أن (**بني إسرائيل**) كانوا يعيشون في الكهوف، وفي الجبال، وهم يقطنون الخيام في الوقت نفسه! ولا أدري كيف يتَّفق هٰذا بيئيًّا؟ ومتى كانت (**سَراة غامد**)، أو أيُّ سَروات جبليَّة في العالم، صالحةً لَمضارب الخيام؟! ذٰلك أن «**التوراة**» تشير حقًّا إلى خيامٍ كانت **لبني إسرائيل**، وتشير إلى علاقة تاريخهم ببعض الجبال والمغارات، ولاسيما (**طور سيناء**)، غير أن هٰذا شيءٌ والقول إنهم كانوا يعيشون بصفةٍ مستمرَّة في مغارات الجبال وفي الخيام شيءٌ آخر، غير منسجم، بل غير معقول. ذاك أنَّ سُكنَى الخيام لا يتلاءم أبدًا مع الأمكنة الجبليَّة التي يعزو إليها المؤلِّف تاريخ **بني إسرائيل** في جبال (**غامد**)، كما لم يكن ليتلاءم من قَبل مع الأمكنة الجبليَّة التي عزا إليها (**الصَّليبي**) تاريخ **بني إسرائيل** في جبال (**عسير**) وما جاورها.

---

[1] سورة ص: الآية ٣٥.

[2] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٥٧.

هنا وهناك خلطٌ بين طبيعةِ بيئةٍ بَرِّيَّةٍ بدويَّة، وطبيعةِ بيئةٍ ريفيَّةٍ زراعيَّة، لربط **بني إسرائيل**- الغالب على حياتهم، وَفْقَ وصفها التوراتي، التبدِّي والبَرِّيَّة- بتركيباتٍ سكانيَّةٍ مغايرةٍ بضرورة التضاريس والبيئة، من حيث هي ريفيَّة زراعيَّة؛ لأنها تعيش في المرتفعات والشِّعاف.

ومن العجيب أن (**أحمد داوود**) مع تلك الثقة المطلقة في مزاعمه الغرائبيَّة- التي لا تستند على وثائق أو براهين- يظلُّ يستشهد لنا بـ«**القرآن**» بين فقرةٍ وأخرى من كتابه! فكيف يستشهد بنصٍّ يشهد بنقيض ما يستشهد به عليه؟! أ فما قرأ- وهو يهوِّن كثيرًا جدًّا من تاريخ المَلِكَين (**داوود**) و(**سُلَيمان**)- ما جاء عنهما في «**القرآن**»؟! أم هو يكذِّبه، مع استشهاده به؟! أما قرأ، مثلًا، آيات «**سُورة الأنبياء**»[1]، عن (**داوود**) وعن ابنه (**سُلَيمان**):

﴿وكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وعِلْمًا. وسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ، وكُنَّا فَاعِلِينَ. وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ؟ ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

وهي مملكةٌ تشتمل، لا على الإنس وحدهم، بل على الجِنِّ، والطير، والحشرات، وسائر المخلوقات. هٰذا ما جاء في «**سُورة النمل**»[2]:

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وسُلَيْمانَ عِلْمًا، وقَالَا الحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي فَضَّلَنَا

(١) الآيات ٧٩- ٨١.

(٢) الآيات ١٥- ١٩.

عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ووَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُودَ، وقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ، وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ الْمُبِينُ. وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإِنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ، قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا، وقَالَ: رَبِّ، أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَىٰ وَالِدَيَّ، وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

أهٰذا المَلِك الذي ألانَ الله له الجِنَّ والجبال والطبيعة والحديد، فأنشأَ من الصناعات ما ظلَّ التاريخ يعزوه إليه، كان معلِّمَ عصابة، يمشي حافي القدمين، ويسكن في كهف؟! نعم، هٰكذا يجزم المؤلِّف: زعيم عشيرةٍ «**هي أشدُّ العشائر العَرَبيَّة البدويَّة تخلُّفًا في بَرِّيَّة العَرَب**»؛ لأنهم- كما يستدلُّ- لا يُحسِنون الصناعات الخشبيَّة، ولا «**سَكْب المَعْدِن**»![1] فماذا يفعل بالآيات الآتية:

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ، وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وقَدِّرْ فِي السَّرْدِ، واعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ورَوَاحُهَا شَهْرٌ، وأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ، ومِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، ومَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وتَمَاثِيلَ وجِفَانٍ كَالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا، وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.[2]

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٣٣٩.

[2] سورة سَبَأ: الآيات ١٠- ١٣.

(داوود) ذو الأيدي، والمُلك المشدود، والحُكم، والحِكمة، والصناعات، وفَصْل الخطاب، كما في «**سُورة ص**»[1]:

> **﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ، واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِي، إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْرَاقِ. والطَّيْرَ مَحْشُورَةً، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ. وشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ﴾**.

(داوود) الذي خاطبه الله بالخِلافة في الأرض: **﴿يَا دَاوُودُ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ؛ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ، ولَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ﴾**.[2] هٰذا المَلِك العظيم ظَهَرَ، آخر الزمان، أنه إنما كان زعيم عصابةٍ من الصعاليك، من أهل الكهوف في جبال **(السَّرَوات)!** فإذا كان «**العهد القديم**» قد أسرف في تعظيمه، فإن المبالغة في التقليل من شأنه إسرافٌ مقابل. وإذا كان للمتجرِّد من الاعتداد التاريخيِّ بما جاء في النصِّ القرآنيِّ أن يطرح ما ينتهي إليه بحثه واستنتاجه الخالص من شواهد الآيات، فليس لمن يستشهد بتلك الآيات تاريخيًّا أن يؤمن ببعض الكتاب ويَكفُر ببعض؛ فينتقي ما يراه يخدم طرحه ويُغمض عينيه عن سِواه، ممَّا يهدم بُنيانه، شاهدًا عليه لا شاهدًا له.

---

(١) الآيات ١٧ – ٢٠.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦.

٦- أين يقع المسجد الأقصَى؟!:

لقد كان أمام مؤلِّف «**العَرَب والسَّاميُّون**» أحد خيارَين، إنْ أَحَبَّ أن يكون باحثًا جادًّا لا عابثًا: إمَّا أن يكذِّب نصوص «**القرآن**» البيِّنة في مكانة (**آل داوود**) العظيمة في (**بني إسرائيل**)- مضيفًا ذٰلك إلى تكذيبه «**التوراة**»؛ كي ينتهي منهما معًا جملةً واحدة- وإمَّا أن يكذِّب نفسه! فلا تجتمع دعواه واستشهاده بـ«**القرآن**» في كتابٍ واحدٍ، مهما لجأَ إلى أنابيب الانتقاء والاجتزاء والتأويل. غير أنه- ديدنَ هٰؤلاء المؤرِّخين المتناسلين المعاصرين- إنَّما يتبع منهاج انتقاء ما يريد حين يريد، ممَّا يخدم أفكاره، متخطِّيًا ما سِواه. بدليلٍ لافتٍ للقارئ، هو أنه، مثلًا، لا يعرِّج في كتابه على علاقة (**سُلَيمان**) بالملكة (**بِلقيس**)؛ لأن هٰذا يتنافى مع زعمه أن مملكة **سُلَيمان** هي محض زعامةٍ على عشيرةٍ من البطَّالين، يعيشون في مغارة، وأن عشيرتهم هي أكثر العشائر البدويَّة تخلُّفًا في بَرِّيَّة **العَرَب**، كانوا عالةً على الآخَرين، لا صناعات لهم، وأنَّ نفوذهم لم يكن يعدو حدودهم الضيِّقة، (ربما حدود مغاراتهم)! وهٰذا مُناقِض تمامًا لجميع ما وردَ عن مملكتَي **داوود** و**سُلَيمان** في «**التوراة**» و«**القرآن**». ومنافٍ لما تضمَّنه «**الإنجيل**» من إشارات، مثل قول (**المسيح**، عليه السلام)، «**إِنَّهُ ولا سُلَيْمانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا**»[1].

وعليه، فإن مصطلح «**مدينة**» في «**التوراة**» قد لا يعدو الإشارة إلى «**مغارة**»؛

---

[1] إنجيل متَّى، ٦: ٢٩.

فـ(**أورشليم**) كانت مجرَّد مغارةٍ- بزعمه- في بلاد (**غامد**)![1] فما أعجب العمَى الإديولوجيَّ وما يصنع بعقول أهله! وإلَّا فلقد كان عليه إمَّا أن يكفَّ عن الاستشهاد بـ«**القرآن**»، أو أن لا يناقض ما جاء فيه، ولو لأسباب تاريخيَّة؛ إذ ما كان «**القرآن**» من جملة ما يكرِّر عَزْوَه إلى **الصهاينة** و**الاستشراق الاستعماري** الذي زوَّر تاريخنا العَرَبي القديم!

وبذا يتبيَّن أن هٰذا الصنيع من التقليل من تاريخ (**بني إسرائيل**) هو النقيض الدُّغمائي لذٰلك الصنيع التوراتي من التهويل من ذٰلك التاريخ؛ يَؤُزُّ الصنيعَين أزًّا إلى المبالغة التعصُّبُ السياسيُّ الأعمى. الأوَّل، صنعَ من ذٰلك التاريخ مَحْضَ عشيرةٍ من الحُفاة العُراة الذين يعيشون في مغارات. والآخَر، صنعَ مِن ذٰلك التاريخ ممالِك خُرافيَّة، وجيوشًا أُسطوريَّة، وعُمرانًا إعجازيًّا، ممَّا لم يعثر عِلْم الآثار له على أثر إلى اليوم! أمَّا التصوُّر التاريخي المتجرِّد من الأغراض، فهو القائل: إن **بني إسرائيل**- كما تتضافر الشواهد والأحداث والأخبار- قد أُوتوا من الطيِّبات حقًّا، وفُضِّلوا بأعلام الأنبياء والحكماء، ونُصِروا على كثيرٍ من معاصريهم، وأُوتوا من المُلك ما أُوتوا، بمقاييس زمنهم، وعُرِفوا تاريخيًّا ببعض الصناعات النوعيَّة. وهٰذا القول هو ما يسجِّله «**القرآن**» عن **بني إسرائيل**، غير

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٠١- ٢٠٠.

وقد مضى أن النصوص التاريخيَّة العَرَبيَّة وغير العَرَبيَّة المتواترة تُكَذِّب هٰذا الزعم حول (**أورشليم**)، بما تؤكِّده من أنها في (**إيليا**) بـ(**فِلسطين**). (وانظر مثلًا: ابن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق**، ٢٧٤؛ الهمداني، **الإكليل**، ٨: ١٦٩- ١٧٠؛ **صِفَة جزيرة العَرَب**، ٤٣- ٤٤).

مُزْدَرٍ شأنهم، ولا بالغٍ بهم في المقابل عنانَ السماء، كما تفعل «**التوراة**».[1]

ولقد أمعنَ المؤلِّف، إمعانًا نابيًا عن المعقول، في لَـيِّ أعناق النصوص اعتسافًا. من ذٰلك ما نسبه غلطًا إلى «**سِفر الملوك الثالث**»!- وليس في «**العهد القديم**» سِفر بهٰذا العنوان!- من أن ما وردَ في النصِّ القائل: «**عَمِلَ المـَلِكُ سُلَيْمانُ سُفُنًا فِي عِصْيُونَ جَابَرَ، الَّتِي بِجَانِبِ أَيْلَةَ، عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ سُوفٍ، فِي أَرْضِ أَدُومَ. فَأَرْسَلَ حِيرَامُ فِي السُّفُنِ عَبِيدَهُ النَّوَاتِيَّ العَارِفِينَ بِالبَحْرِ مَعَ عَبِيدِ سُلَيْمانَ، فَأَتَوْا إِلَى أُوفِيرَ، وأَخَذُوا مِنْ هُنَاكَ ذَهَبًا، أَرْبَعَ مِئَةِ وَزْنَةٍ وعِشْرِينَ وَزْنَةً، وأَتَوْا بِهَا إِلَى المَلِكِ سُلَيْمانَ**»[2]، هو إشارةٌ إلى أماكن في (**بلاد غامد**) وما جاورها! قائلًا في غضون ذٰلك إن «**بحر سوف**»- أو «**بحر القلزم**» حسب الترجمة التي اعتمد عليها- ليس بـ(**البحر الأحمر**)، بل هو نهرٌ كان هناك في مكانٍ ما من **بلاد غامد** أو ضواحيها! إلى آخر ما أدلَى به من تلفيقات.[3] وما سمعنا أنها كانت في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) أنهار في القرن العاشر قبل الميلاد، بل جداول مائيَّة وأودية. ولقد نسي هنا ما وردَ من الإشارة إلى «**السُّفن**»: «**فَأَرْسَلَ حِيرَامُ فِي السُّفُنِ عَبِيدَهُ النَّوَاتِيَّ العَارِفِينَ بِالبَحْرِ مَعَ عَبِيدِ سُلَيْمانَ...**». أو يبدو أنه قد صدَّقَ- إلى جانب تصديقه أن الأودية

---

[1] يذهب (سوسة، ٢٩٦- ٢٩٧، ٥٠٧- ٥٠٩)، استنادًا إلى باحثين سابقين، إلى أن مملكة (**سُلَيمان**) كانت أشبه بمحميَّة مِصْريَّة على حدودها الشَّرقيَّة، وأن **سُلَيمان** إنما كان يحاول إظهار العَظَمة مجاراةً للفراعنة. وهو استنتاجٌ معتدلٌ نِسبيًّا، لٰكنه يفتقر إلى الدليل العِلْمي.

[2] **سِفر الملوك الأوَّل**، ٩: ٢٦- ٢٨.

[3] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٦٥- ٠٠٠.

المحيطة بـ(**سَراة غامد**) كانت أنهارًا، بل بحارًا- أن الناس كانوا يمخرون تلك الأودية على متون السُّفن! وما الغريب، ما دام قد صدَّقَ نفسه «الأمَّارة بالتاريخ»: أن نهر (**الفُرات**) هو وادي (**ثَرَاد**)، في محافظة (**العقيق**) بمنطقة (**الباحة**)، وأنه ينطبق عليه الوصف التوراتي: «**وَيَكُونُ السَّمَكُ كَثِيرًا جِدًّا... ويَكُونُ الصَّيَّادُونَ وَاقِفِينَ عَلَيْهِ. مِنْ عَيْنِ جَدْيٍ إِلَى عَيْنِ عِجْلَايِمَ يَكُونُ لِبَسْطِ الشِّبَاكِ، ويَكُونُ سَمَكُهُمْ عَلَى أَنْوَاعِهِ كَسَمَكِ الْبَحْرِ الْعَظِيمِ كَثِيرًا جِدًّا...**»![1]

إن التاريخ حين يحوَّل إلى بوقِ سياسة، وإلى خطابٍ قوميٍّ متعصِّب، يغدو أضحوكة الأزمان، ولا يُعيد إلينا سِوَى مأساة هٰذا العِلْم، الذي ظلَّ يكتبه المؤرِّخ، طَوال التاريخ، وسيف السلطان على رقبته، وها هو ذا يكتبه اليوم وسيف الإديولوجيَّات على رقبته. والإديولوجيَّات أفتك بالعقول من السلاطين. ولا يستقيم شأن عِلْمٍ إلَّا بأن تُرفَع الوصاية السياسيَّة والفكريَّة عنه، وأن يتجرَّد الباحثون تمامًا من الأغراض، مهما أفضى البحث بهم إلى نتائج صادمةٍ لعقائدنا ومسلَّماتنا وعواطفنا، وإلَّا بات مِذياعًا موجَّهًا، لا يمتُّ إلى البحث العِلْمي الصحيح بصِلة، وسيغدو التاريخ حينئذٍ شعوذة، كلٌّ يوظِّفها في مصلحته، ادِّعاءً واستعلاءً.

وبناءً على ما تقدَّم يذهب المؤلِّف إلى أن (**أورشليم**)، أو (**بيت المَقْدِس**)، يقع في (**سَراة غامد**)؛ فثمَّة (**المسجد الأقصَى**) «الحقيقي»، الذي بارك الله حوله، وهناك ثالث

[1] سِفر حزقيال، ٤٧: ١٠- ١٢.

الحرمَين الشريفَين، وموطن الأنبياء والرسل! محتجًّا تاريخيًّا بأن **المسجد الأقصَى** في (**فِلسطين**) إنَّما بُني في العهد الأُموي![1] والحقُّ أنَّه قد سبقَ (**أحمدَ داوود**) ولـَحِقَه إلى مثل هٰذه الهرطقة آخرون، من إسرائيليِّين وعَرَب ومستشرقين. من بين هٰؤلاء (**أهارون بن شيمش**)، الذي تولَّى ترجمة «**القرآن**» إلى العِبريَّة، على الطريقة اليهوديَّة المعروفة تاريخيًّا في الأمانة النَّصِّيَّة! ومنهم المؤرِّخ الصهيوني (**مردخاي قيدار** Mordechai Kedar)، الأستاذ بجامعة (**بار إيلان**) في الكيان المحتلِّ، والباحث في (**مركز بيجن- السادات للدراسات الاستراتيجيَّة!**)، الذي ذهب إلى أن (**المسجد الأقصَى**) يقع في وادي (**الجِعِرَّانة**)، بين (**مكَّة**) و(**الطائف**)![2] ذٰلك أن الرجل قد ابتهج جِدًّا بالعثور على وصفٍ أورده (**الواقدي**)[3] لمسجدٍ **بالجِعِرَّانة** بـ«**الأقصَى**»، يقع بالعُدْوة القُصوَى من الوادي، في مقابل مسجدٍ آخَر يوصف بـ«الأدنَى»، مُشيرًا إلى أن النبيَّ أحرم منه بالعُمرة، بعد رجوعه من (**غزوة حُنَين**)، في السنة الثامنة للهجرة. فطفق (**مردخاي**) قائلًا: إذن، هو المسجد الأقصَى المقصود في «**سُورة الإسراء**»! وما وردَ قطُّ على امتداد التراث والتاريخ، لا في شِعرٍ ولا في نثر، مثل هٰذا القول بأن في الدنيا مسجدًا يسمَّى باسم «**المسجد الأقصَى**» عدا مسجد (**القُدْس**).[4]

---

(١) انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٥٠- ٠٠٠.

(٢) شاهد قوله المبثوث على موقع «اليوتيوب»، في ٢٧ أغسطس ٢٠٠٨:

https://www.youtube.com/watch?v=6VwQg3JhA7g

(٣) **كتاب المغازي**، ٩٥٨- ٩٥٩.

(٤) أمَّا الوصف بـ«**الأقصَى**» فما كان يومًا حصرًا على مكان. وإنما وَصْفُ مسجد (**الجِعِرَّانة**) بالأقصَى كوصف (**أبي طالب**) (**عَرَفَة**) بـ«**المَشعر الأقصَى**» في بيته:

←

وقد مرَّ بنا من هٰؤلاء الزاعمين: (**الصَّليبيُّ**)، الذي ذهب إلى أن (**أورشليم**) تقع في (**النماص**)، في بلاد (**بني شِهر**)، جَنوبي (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، ملصِقًا الاسم بقرية (**آل شريم**). ثمَّ جاءنا (**داوود**) فأراد أن يقذف **أورشليم** مقذفًا آخَر شَمالًا، إلى مغارةٍ ما في بلاد (**غامد**)!

وهٰكذا، فإن هٰؤلاء الكُتَّاب يختلفون في المكان الذي يزعمونه (**القُدْسَ**) أو (**المسجدَ الأقصَى**)، ويتفقون في تهافت القول، وما وراء القول من لوثات الفكر والمآرب.[1]

وبِالمَشعَرِ الأَقصَى إذا عَمَدوا لَـهُ (إلالٍ) إلَى مُفضَى الشِّراجِ القَوابِلِ

غير أن نصوص الحديث النبوي الواردة في شأن الإسراء تحسم المقصود بـ(**المسجد الأقصَى**) وأنه في «**بيت المَقْدِس**»، كما سيأتي لاحقًا. على أن (**الواقدي**) لم يُشِر من قريب ولا بعيد إلى ما أراده (**مردخاي**)، وادَّعاه دليلَه المكتشف. ولم يكن وَصْفُ هٰذين المسجدَين بالأقصَى والأدنَى إلَّا تعريفًا بمكانَيهما؛ ولذٰلك قال: «**فأحرم من المسجد الأقصَى الذي تحت الوادي بالعُدْوَة القُصْوَى، وكان مصلَّى رسول الله**، ﷺ، **إذا كان بالجِعِرَّانة، فأمَّا هٰذا المسجد الأدنَى، فبناه رجلٌ من قريش**». ولم نقف على ذٰلك الوصف لدَى (الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، ٣: ٩٤- ٩٥)، مع أنه ممَّن نقلوا الخبر عن **الواقدي**. أمَّا **الجِعِرَّانة**، فتقع في حدود الحَرَم المكِّي، شَمالًا شَرقًا، لا تبعُد عن الكعبة إلَّا مسافة ٢٥ كيلًا تقريبًا؛ فلا تعدو ضِعف المسافة بين الكعبة و(**جبل النور**) تقريبًا. ولذٰلك هي ميقات أهل (**مكَّة**) للعُمرة. وقد كان النبيُّ يُحْرِم بالعُمرة من هناك بصفةٍ اعتياديَّةٍ، وربما عاد إلى **الجِعِرَّانة** من فوره، ليلًا أو نهارًا. وما كان أمرًا استثنائيًّا، أو إعجازيًّا، الانتقال بين المكانين، لنبيٍّ أو غير نبيٍّ! بل أغلب الظنِّ أن مسجدَي **الجِعِرَّانة**، الأقصَى والأدنَى، لم يكن لهما وجودٌ إبَّان قِصَّة الإسراء، وذٰلك قبل الهجرة النبويَّة.

[1] من آخر ما وصل إلينا من الزحام مؤخَّرًا تلك الزوبعة السياسيَّة في (**مِصْر**)، مِن زعم بعض الكُتَّاب- مرجِّعًا كلام (**مردخاي قيدار**) نفسه- أن (**الأقصَى**) مسجدٌ مختلَق، أصله في (**الجِعِرَّانة**)! إذ من الواضح أن (**كامب ديفد**) قد جعلتْ تُؤتي أُكلها، وأن طَور التطبيع قد أفضى إلى طَور البَيع. وهو اليوم بيعٌ عَلَنيٌّ في السوق البيضاء، عبر وسائل النشر والإعلام والتأليف. كأنما يُخيَّل إلى هٰؤلاء أن إلغاء قُدسيَّة (**القُدس**) لدَى المسلمين هو مفتاح السلام الذي ينشده المهزوم عسكريًّا وفكريًّا! غير أن إلغاء القُدسيَّة لن يلغي القضيَّة الحقوقيَّة الإنسانيَّة، المتمثِّلة في أن اليهود محتلُّون لتلك الأرض، وأن علاقتهم بـ(**فِلسطين**) هي تاريخ احتلال مستمر، قديم حديث، ومنذ أن ←

ومهما يكن من زعم، فإنَّ ما هٰذه المراجعات بصدده هاهنا ليس سِوَى نموذجٍ قد خَلَتْ من قبله النماذج، وتَلَتْ من بعده نماذج، لٰكنه من أشدها تطرُّفًا وإغرابًا.

٧- إنكار الإسراء إلى بيت المَقْدِس:

احتجَّ مؤلِّف «**العَرَب والسَّاميُّون**» على أن (**المسجد الأقصَى**) في (**فِلسطين**) ليس هو المقصود في نبإ الإسراء والمِعراج[١] بأنه إنما بُني في العهد الأُموي[٢]؛ لأنه لا

كان لهم وجودٌ في (**الشَّرق الأوسط**). إن مساعي المتاجرين بالتاريخ لتصفية القضيَّة الفِلسطينيَّة، وفي سبيل إراحة الأنظمة من الديزنتاريا السياسيَّة لينعموا باسترخائهم الأبدي، وتخدير ضمائر الشعوب ضدَّ الزُّحار القومي، كلُّ هٰذا لن يسكِّن أوجاع القضيَّة. لأن حقوق الشعوب لا تموت بتصريح مسروقٍ، أو بندوةٍ، أو بكتابٍ، أو بثورةٍ مضادَّة، وإنَّما التنظير التاريخيُّ لسياسات الاستسلام فضيحةٌ أكاديميَّةٌ تتوَّج بها الفضائح العسكريَّة والحضاريَّة العَرَبيَّة الحديثة. ولسوف يتحوَّل الزُّحار إلى سرطان في الأقطار العَرَبيَّة عمَّا قريب، مهما داهن الساسة ونظَّر لهم أُجَراء المؤرِّخين. وما تلك سِوَى حكمة النعامة، تبتغي- بدسِّ رأسها في الرمال- سلامًا بَصَريًّا مؤقَّتًا، لعجزها عن مواجهةٍ واقعيَّةٍ ضارية. ثمَّ لن يُجدي (**أبناءَ العَلْقَمِي**) تاريخُهم؛ لأن عواقب دَورهم مع (**هولاكو**) ستحلُّ بهم أنفسهم بعد أداء دَورهم من أجل سيِّدهم. أمَّا دَورهم مع الحقِّ والتاريخ، فأدهَى وأمرُّ، لو كانوا يعقلون. وبذا يَظهر أمامنا خطابان معاصران، يتوسَّلان التاريخ، أحدهما يسعى إلى شطب قداسة **القُدس** عن المسلمين خاصَّة، وإنْ أمكن عن اليهود وعن النصارى في آن، يتبنَّى هٰذا مِصْريُّون غالبًا، همُّهم السلام مع (**إسرائيل**)، (**يوسف زيدان**، نموذجًا). وخطابٌ آخَر يذهب إلى أبعد من ذٰلك، فيسعى إلى نقل (**بني إسرائيل**) وتاريخهم ومقدَّساتهم جميعًا من (**الشَّام**) إلى (**جزيرة العَرَب**)؛ كي ينقل مسرح الصراع بعيدًا عنه فيستريح، ويتبنَّى هٰذا غالبًا شاميُّون أو عِراقيُّون، منهم مَن درسنا في هٰذا الكتاب ومنهم مَن لم ندرس. وهٰذان النمطان من الخطاب سياسيَّان في الجوهر، لا عِلْميَّان هما ولا تاريخيَّان.

[١] عَرَج يعرُج عُروجًا ومَعْرَجًا: ارتفعَ وعلا. والمِعْراج: شِبْه سُلَّم. جمعه: مَعارِج ومَعاريج. (انظر: الجوهري؛ الأزهري؛ ابن منظور، (عرج)). فالإسراء إلى (**بيت المَقْدِس**)، والمِعراج إلى السماء، كما ورد في «**السيرة النبويَّة**»: «...**سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: لمـَّا فرغتُ ممَّا كان في (بيت المَقْدِس)، أُتِـيَ بالمِعراج، ولم أَرَ شيئًا قطُّ أحسنَ منه، وهو الذي يمدُّ إليه ميتكم عينيه إذا حُضِر، فأصعدني صاحبي فيه.**» (ابن هشام، ١: ٤٠٣).

[٢] وهٰذا هو كلام اليهودي (**مردخاي**) نفسه، السابقة إليه الإشارة. فواضح هنا أننا أمام جوقة من المؤرِّخين ←

يفهم «**المسجد**» إلَّا البناء، على حين أن «**المسجد**» في العَرَبيَّة مكان الصلاة والسجود، في بناءٍ أو في غير بناء. ولذٰلك جاء في الحديث: «**جُعِلَتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا**»[1]. ومفهوم «**المسجد الأقصَى**» ليس، لدَى من عرفَ اللغة والتاريخ، ما بناه (**عبدالمَلِك بن مروان**) أو غير **عبدالمَلِك**، بل الأصل أنه يشمل تلك البُقعة المباركة التي بُنِيتْ فيه (**قُبَّة الصخرة**) الذهَبيَّة وغيرها من القباب والمساجد المشيدة. ولٰكن إذا سلَّمنا مع صاحبنا بأن المسجد بناءٌ بالضرورة، فأيُّ مسجدٍ مبنيٍّ كان في (**سَراة غامد**) إبَّان الإسراء والمِعراج؟! بل أيُّ مسجدٍ مبنيٍّ كان في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) كلِّها إبَّان الإسراء والمِعراج ليُسرَى بالرسول إليه، أي قبل الهجرة النبويَّة؟! ذٰلك أن أوَّل مسجدٍ بُنِيَ في الإسلام هو مسجد (**قُباء**) في (**المدينة المنوَّرة**)، بعد الهجرة، وبعد خبر الإسراء بعِدَّة سنوات. تُرى مَن الذي قفز ليبني مسجدًا أقصَى في **سَراة غامد** في ذٰلك التاريخ المبكِّر؟! لا أحد، لٰكنَّ الرجل يعتقد- كما مرَّ- أن (**أورشليم**) هناك في **سَراة غامد**، ما دام تاريخ (**بني إسرائيل**) كان هناك!

ثمَّ ألا يتساءل: لِـمَ كانت (**القُدْس**) أُولَى القبلتَين؟ أم لعلَّه يرَى أن (**بلاد غامد**) كانت أُولَى القبلتَين؟! ثمَّ لماذا شُيِّد (**المسجد الأقصَى**) في (**القُدْس**) في العهد الأُمويِّ، ولم يُشيَّد في **غامد**؟ وكيف جهِل ذٰلك الجيلُ، وهو جيل الصحابة

اليهود والمؤرِّخين العَرَب، يَتبارون في ترديد هٰذا النشيد الهزلي. وقائد الأوركسترا (المايسترو) معروف الهويَّة، يُدير هٰذا العزفَ الشجيَّ على أشلاء الوطن العَرَبي منذ سنين.

[1] البخاري، ١: ١٦٨ [الحديث ٤٢٧].

والتابعين، مكان الإسراء الحقيقي، و**المسجد الأقصَى** المشار إليه في «**القرآن**»؛ فظنُّوه في (**فِلسطين**) وهو إلى جوارهم في **غامد**؟!

تُرَى كيف جَهِلَ (**عُمَر بن الخَطَّاب**)، مثلًا، مكان (**المسجد الأقصَى**)، فظنَّ أنه إلى جانب الصخرة، وأن النبيَّ صلَّى هناك وعُرِج به، حسب القِصَّة القرآنيَّة؛ إذ صعد **عُمَر** الهضبة التي يسمِّيها اليهود جبل (**موريا**)، واختطَّ مسجده إلى جانب الصخرة، لاعتقاده أن ثمَّة موضع ما جاء عن الإسراء والمِعراج النبوي؟!

وهو جهلٌ تمتدُّ تهمته إلى الرسول نفسه، الذي لم يعلم إلى أين أُسري به، أو أنه عَلِمَ فأخفى أن أرض الإسراء والمِعراج، في حقيقة الأمر، (**سَراة غامد**)، القريبة من (**مكَّة**)، وأن (**حائط البُراق**) ثمَّةَ في أحد الجبال، لا في (**إيليا**) البعيدة جِدًّا في أقصَى الأرض!

ثمَّ ما دام المؤلِّف يأخذ عن (**الطبري**)، محتفيًا بـ«**تاريخه**»، فلِمَ لَم يأخذ عنه محتفيًا بما جاء في تفسيره حول قِصَّة الإسراء والمِعراج؟!

ولِـمَ لَم يَعتدَّ بما وردَ حول الإسراء والمِعراج في السيرة النبويَّة، ولا بما جاء حول الإسراء والمِعراج في الأحاديث النبويَّة الصحيحة، وما فيها من ذِكْرٍ صريحٍ لـ«**فِلسطين**» ولـ«**الشَّام**»، وأن «**المسجد الأقصَى**» هو في «**بيت المَقْدِس**»؟!(1)

ولِـمَ لَم يَعتدَّ بما ورد في تلك المصادر من تفاصيل، منها، على سبيل المثال، أنه

---

(1) من مراجع لا حصر لها، انظر، مثلًا، تفسير الآيات، والأحاديث التي وردت في شأن الإسراء: (الطبري، **تفسير الطبري**، (سورة الإسراء)).

حين كذَّبت (**قُريش**) (**محمَّدًا**)، مُثِّل له (**بيت المَقْدِس**)، الذي يعرفونه من خلال أسفار تجارتهم في الصيف إلى (**فِلسطين**)، فوصفه لهم كأنه يراه؟ وهي نصوصٌ مشهورةٌ في تلك الكتب، لا ضرورة للتذكير بها هنا.[1]

أم هو الانتقاء من قِبَل المؤلِّف؟

وأمَّا ما يتعلَّق بقداسة (**بيت المَقْدِس**) في (**فِلسطين**)، واستعمال التعبير بـ«**بيت المَقْدِس**» عند العَرَب، منذ ما قبل الإسلام، ثمَّ استعمال «**المسجد الأقصَى**» منذ «**سُورة الإسراء**»- في إشاراتٍ صريحةٍ إلى المكان المعروف في **فِلسطين**- فكثيرةٌ شواهده. وهي تدحض أيَّ شكٍّ في أن ذٰلك المكان كان هو المقصود في «**القرآن**»، وفي الحديث النبوي، وفي التراث العَرَبي والإسلامي. ونسوق منها ما يأتي:

١- لقد كان (**أورشليم**) أو (**بيت المَقْدِس**) في (**فِلسطين**) معروفًا باسمه هٰذا لدَى العَرَب قبل الإسلام، بوصفه مركز الدِّيانات الكتابيَّة، كما كان ذٰلك إرثًا موغِلًا في التاريخ لدَى اليهود والنصارى. وقد تحدَّثنا عن وجود اسم **أورشليم** قبل مجيء (**إبراهيم الخليل**) إلى أرض (**كنعان**)، وأن اسم مدينة **أورشليم** وردَ في رسائل الكنعانيِّين الفِلسطينيِّين إلى الفراعنة في (**مِصْر**)، خلال الألف الثاني قبل الميلاد، بقلم (**عبد يحيبا**)، حاكم **أورشليم** في **فِلسطين**، بين ١٣٧٥- ١٣٥٨ق.م، بلفظ: «**أوروسالم**». وتعود تلك الرسائل

---

[1] في شأن الإسراء والمِعراج، يمكن أن يُراجَع أيضًا: (القُشَيري، **كتاب المِعراج**، ويليه «**مِعراج أبي يزيد البسطامي**»).

إلى ما قبل عام ١٣٣٦ق.م.[١] وكذا وردَ اسم **أورشليم** في نقوش الإمبراطور الآشوري (**سنحاريب**، ٧٠٥- ٦٨١ق.م)، بلفظ: «**أوروسليمو**». ووَصْفُ المدينة بـ«**القُدْس**» أو «**المَقْدِس**» قديمٌ جِدًّا أيضًا، يشير إليه المؤرخ الإغريقي (**هيرودوت**، -٤٢٥ق.م)، بلفظ «**قديتس**»، وقيل إنه محرَّفٌ من النطق الآرامي «**قديشتا**».[٢]

ولن نستشهد هنا بورود «**مدينة أُورُشَلِيم**» ووصفها بـ«**القُدْس**» أو «**المَقْدِس**» في «**العهد القديم**»؛ لأن (**أحمد داوود**) سيقول لنا ببساطة إنَّ هٰذا كلَّه إشارةٌ إلى كهفٍ في (**بلاد غامد**)! وإلَّا فلقد وردَ من ذٰلك في «**سِفر إشعيا**»[٣]: «**البَسِي ثِيَابَ جَمَالِكِ يَا أُورُشَلِيمُ، المَدِينَةُ المُقَدَّسَةُ**». وفي «**سِفر نَحَمْيا**»[٤]: «**جَمِيعُ اللاَّوِيِّينَ فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ مِئَتَانِ وثَمانِيَةٌ وأَرْبَعُون**». وفي السِّفر نفسه: «**وسَكَنَ رُؤَسَاءُ الشَّعْبِ فِي أُورُشَلِيمَ، وأَلْقَى سَائِرُ الشَّعْبِ قُرَعًا لِيَأْتُوا بِوَاحِدٍ مِنْ عَشَرَةٍ لِلسُّكْنَى في أُورُشَلِيمَ، مَدِينَةِ القُدْسِ، والتِّسْعَةِ الأَقْسَامِ في المُدُنِ.**»[٥]

وجاء وصف المدينة في «**سِفر الخروج**»[٦] بـ«**القُدْس**» و«**المَقْدِس**»:

«**تُرْشِدُ بِرَأْفَتِكَ الشَّعْبَ الَّذِي فَدَيْتَهُ. تَهْدِيهِ بِقُوَّتِكَ إِلَى مَسْكَنِ**

---

(١) انظر: ظاظا، **القدس**، ١٧- ١٨؛ سوسة، ٣٨٧.

(٢) انظر: ظاظا، م.ن، ٧- ٨.

(٣) ٥٢: ١.

(٤) ١١: ١٨.

(٥) **سِفر نَحَمْيا**، ١١: ١.

(٦) ١٥: ١٣- ١٧.

(قُدْسِكَ). يَسْمَعُ الشُّعُوبُ فَيَرْتَعِدُونَ. تَأْخُذُ الرَّعْدَةُ سُكَّانَ فِلسطين. حِينَئِذٍ يَنْدَهِشُ أُمَرَاءُ أَدُومَ. أَقْوِيَاءُ مُوآبَ تَأْخُذُهُمُ الرَّجْفَةُ. يَذُوبُ جَمِيعُ سُكَّانِ كَنْعَانَ. تَقَعُ عَلَيْهِم الهَيْبَةُ والرُّعْبُ. بِعَظَمَةِ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ. حَتَّى يَعْبُرَ الشَّعْبُ الَّذِي اقْتَنَيْتَهُ. تَجِيءُ بِهِمْ وتَغْرِسُهُمْ فِي جَبَلِ مِيرَاثِكَ، المَكَانِ الَّذِي صَنَعْتَهُ يَا رَبُّ لِسَكَنِكَ (المَقْدِسِ) الَّذِي هَيَّأَتْهُ يَدَاكَ يَا رَبُّ.»

كما جاء في «**سِفر الخروج**»[1] وغيره نِسبةُ وزن (**الشاقل**) إلى (**القُدْس**): «**وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «إِذَا أَخَذْتَ كَمِّيَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ المَعْدُودِينَ مِنْهُمْ، يُعْطُونَ كُلُّ وَاحِدٍ فِدْيَةَ نَفْسِهِ لِلرَّبِّ عِنْدَمَا تَعُدُّهُمْ، لِئَلاَّ يَصِيرَ فِيهِمْ وَبَأٌ عِنْدَمَا تَعُدُّهُمْ. هٰذا مَا يُعْطِيهِ كُلُّ مَنِ اجْتَازَ إِلَى المَعْدُودِينَ: نِصْفُ الشَّاقِلِ بِـ(شَاقِلِ القُدْسِ)**».»

إنَّ الإشارات التاريخيَّة إلى مدينة (**أورشليم**) في مكانها المخصوص من (**فِلسطين**)، ثمَّ وصفها بـ«**القُدْس**» أو «**المَقْدِس**»، لا يدعان مندوحةً لشاكٍّ في مكان المدينة أو قدسيَّتها، ولا لزاعمٍ أنها كانت في (**بلاد غامد**) أو غير بلاد **غامد**.

٢- حين نعود إلى أدب العَرَب قبل الإسلام، ماذا نجد؟ نجد أن الشاعر الجاهلي (**السموأل بن عادياء**)[2]- اليهودي، المضروب بوفائه المَثَل،

---

[1] ٣٠: ١١- ١٣.

[2] انظر: ديوانَي عروة بن الورد والسموأل، ١٠١- ١٠٢.

صاحب حِصن (**الأبلق الفَرد**)، في (**تيماء**)، وقد قيل إنه من نسل (**هارون بن عمران**) أخي (**مُوسَى**)- قد سمَّى تلك المدينة الفِلسطينيَّة باسمها: «**القُدْس**»، في قصيدةٍ منسوبةٍ إليه، منها:

فَـهٰذا خَـلِـيْـلٌ صَـيَّـرَ النَّـاسَ حَـوْلَـهُ

رَيـاحِـينَ جَـنَّـاتِ الغُـصُونِ الذَّوابِـلِ

وهٰـذا ذَبِـيْـحٌ قَـدْ فَـدَاهُ بِـكَـبْـشِـهِ

بَــراهُ بَـديهـًـا لا نِـتَـاجَ الـثَّـيَـاتِــلِ

وهٰـذا رَئـيـسٌ مُجـتَــبًـى ثَـمَّ صَـفْـوُهُ

وسَـمَّـاهُ (إِسرائـيلَ) بـكـرَ الأَوائِــلِ

ومِن نَسْلِهِ السَّامي أَبو الفَضلِ (يوسُفُ) [م]

الذي أَشبَـعَ الأَسـبـاطَ قَـمْحَ السَّنابِـلِ

وصـارَ بِـ(مِـصْرٍ) بَعـدَ فِـرعَونَ أَمـرُهُ

بِـتَـعـبـيرِ أَحــلامٍ لِـحَـلِّ الـمَـشاكِـلِ

أَلَـسنـا بَـني مِـصْرَ الـمُـنَـكَّـلَـةِ الَّتي

لَـنا ضُرِبَـتْ مِـصْرٌ بِعَـشرِ مَـنـاكِـلِ؟

أَلَـسنـا بَـني البَحـرِ الـمُـغَـرِّقِ والَّذي

لَـنا غُـرِّقَ الفِرعَـونُ يَـومَ التَّحـامُلِ؟

أَلَسنا بَني (القُدْسِ) الَّذي نُصِبَت لَـهُم
غَـمامٌ تَـقـيـهِمْ في جَـمـيعِ المَـراحِـلِ؟
أَلَـسنـا بَـني السَّلـوَى مَعَ المَـنِّ والَّذي
لَـهُم فَـجَّـرَ الصَّوَّانُ عَـذْبَ المَـناهِـلِ؟
أَلَـسنـا بَـني (الطُّـوْرِ) المُقَدَّسِ والَّذي
تَـدَخْـدَخَ لِلـجَـبَّـارِ يَـومَ الـزَّلازِلِ؟

فقائل هٰذه الأبيات (عَرَبيُّ اللسان، جاهليٌّ، يهوديٌّ)، ينطق بثقافةٍ سائدةٍ في زمنه، تمتح من ماضٍ سحيق، لا يصحُّ الاستخفاف بما تحمله من إشارات تاريخيَّة. وكان المستشرق الألماني (**هرشفلد**) أوَّل من نشر هٰذه القصيدة في مجلَّة «المشرق، ٩: ٤٨٢»؛ إذ وجدها في مخطوطاتٍ مكتوبةٍ بالعِبريَّة. ثمَّ نشرها بالعَرَبيَّة المستشرق الإنجليزي (**مرجليوث**) في «المجلَّة الآسيويَّة، نيسان ١٩٠٦، ص٣٦٣». ونقلها عنه (**الأب لويس شيخو**)، في «المشرق، ٩: ٦٧٤». وعُثِرَ منها على نُسَخٍ أخرى، منسوبة إلى (**السموأل القُرَظي**)، نِسبةً إلى (**بني قُريضة**).[1] ولا غرو؛ فإن «**القُدْس**» لفظٌ واردٌ في «**التوراة**» إشارة إلى (**مدينة القُدْس**)، في مِثل ترنيمة (**مُوسَى**) و(**بني إسرائيل**) ابتهاجًا بالخروج من (**مِصْر**): «**تَهْدِيهِ بِقُوَّتِكَ إِلَى مَسْكَنِ قُدْسِكَ**»[2].

---

[1] انظر: م.ن، ١٠٠.

[2] سِفر الخروج، ١٥: ١٣.

ولا يعنينا أن تكون القصيدة منحولةً لـ**(السَّموأل)** أو غير منحولة؛ لأن مَن ينحل فإنَّما ينحل وَفْقَ تراثٍ متداولٍ، وثقافةٍ متوارثة. وما تضمَّنه النصُّ من إشاراتٍ مكانيَّة- سواء أكان قائل القصيدة **السموأل** أم نُسِبت إليه قُبيل الإسلام أو في صدره- دالٌّ على خلاف ما يذهب إليه هٰؤلاء المؤرخون الساعون إلى نقل تاريخ (**بني إسرائيل**) من (**العِراق**) و(**الشَّام**) و(**مِصْر**) إلى (**جزيرة العَرَب**).

٣- حين نعود إلى أدب العَرَب في صدر الإسلام، ماذا نجد؟ نجد، مثلًا، (**أبا بكر الصِّدِّيق**)[١] يقول- مضمِّنًا الآية الأُولى من «**سُورة الإسراء**»، مستبدِلًا باسم «**المسجد الأقصَى**» الإشارة إلى «**بيت المَقدِس**»-:

عَجِبتُ لِما أَسرى الإِلٰهُ بِعَبدِهِ ... مِنَ البَيتِ لَيلًا نَحوَ (بَيْتٍ مُقَدَّسِ)
كِلا طَلَقَيهِ كانَ مَنًّ بِبَعضِها ... ذَهـابـًا وإِقـبالًا ومـا مِن مُعَـرَّسِ

٤- حين نعود إلى أدب العَرَب في العصر الأُموي، ماذا نجد؟ نجد قول (**نصر بن سيار**، ٤٦- ١٣١هـ= ٦٦٦- ٧٤٨م)[٢]:

وبَيتُ خليفةِ الرحمٰنِ فينا ... وبَيتاهُ المُقَدَّسُ والحَـرامُ

٥- حين نعود إلى التراث الإسلاميِّ المبكِّر، ماذا نجد؟ نجد أنها تَرِد إضافة بيت (**إيليا**) إلى «**المَقْدِس**» في ما لا يُحصَى من أُمَّهات الروايات والكتابات والكُتب الأُولَى من التراث الإسلامي.

---

[١] **ديوانه**، ٨١.

[٢] **ديوانه**، ٤٣/ ١٢.

في طليعة تلك الروايات الأحاديث النبويَّة الصحيحة بأسانيدها. منها ما وردَ في «**باب الإسراء**» و«**باب المِعراج**» من «**صحيح البُخاري**»، (-٢٥٦هـ). ففي الأوَّل نقرأ: «**حدَّثنا يحيى بن بُكير، حدَّثنا اللَّيث، عن عُقيل، عن ابن شهاب: حدَّثني أبو سلمة ابن عبدالرحمٰن: سمعتُ جابر بن عبدالله، رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: «لمَّا كذَّبتْني قريش، قُمتُ في الحِجْر، فجلا الله لي (بيت المَقْدِس)، فطفقتُ أُخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه**».»[1] ولم يقُل: «**بيت المَقْدِس في بلاد غامد**»! لعلَّ ذٰلك سقطَ سهوًا من الرواية، أو عمدًا عن مؤامرة استشراقيَّة صهيونيَّة! بل ما كان في حاجةٍ إلى أن يجلوه الله له، لو كان في (**بلاد غامد**)، وما كان المشركون في حاجةٍ إلى أن يختبروه بشأن الإسراء، وهو إنَّما أُسري به إلى مكانٍ إلى جوارهم.

كما جاء في «**باب المِعراج**» من «**صحيح البخاري**»[2]: «**حدَّثنا الحُميدي: حدَّثنا سُفيان: حدَّثنا عمرو، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، قال هي رؤيا عَينٍ، أُرِيَها رسول الله، ﷺ، ليلة أُسرِي به إلى (بيت المَقْدِس).**» وهنا كذٰلك لم يقل عن (**بيت المَقْدِس**) «**في بلاد غامد**»! والراجح أن ذٰلك لم يسقط سهوًا من الرواية ولا عمدًا، لٰكنَّ الناس كانوا يعلمون تمامًا أين يقع (**بيت المَقْدِس**)،

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، ٣: ١٤٠٩- ١٤١٠ [الحديث ٣٦٧٣].

[2] ٣: ١٤١٢ [الحديث ٣٦٧٥].

وإلى أين أُسري بالرسول، وما كان يخطر في بال بَشَرٍ أن الأمر سوف يستدعي التحديد في يومٍ من الأيَّام، وأن أدعياء تاريخٍ سوف يظهرون بعد ١٤٠٠ سنة فيتساءلون، للوثات سياسيَّة سخيفة:

تُرَى أين يقع (**بيت المَقْدِس**)؟

وأين يقع (**المسجد الأقصَى**)؟

أفي (**النماص**)؟ أم في (**بلاد غامد**)؟ أم في (**الجِعِرَّانة**)؟

إذ حين أعيَى العَرَبَ تحريرُ (**الأقصَى**)، إنْ كان ذٰلك في نيَّاتهم أصلًا، تفتَّقت عبقريَّات مؤرِّخيهم النحارير عن ضرورة تهجير الاسم والمسمَّى إلى بلاد أخرى، أو حتى إلى «السماء».. وكفَى الله المهزومين القتال!

كما يرِد تحديد مكان الإسراء بـ«**بيت المَقْدِس**» في «**السيرة النبويَّة**»، لـ(**ابن إسحاق**، -١٥١هـ). وهنا يبدو أن **ابن إسحاق**، وهو أوَّل مؤرِّخي الإسلام، قد رأى بظهر الغيب ضرورةَ تحديد المكان؛ لاستشرافه أن مؤرِّخين ممخرقين سيأتون بعد مئات السنين فيثيرون الغبار حول مكان (**المسجد الأقصَى**). فحرص على ذِكر «**بيت المَقْدِس**»، وأنه يقع فيه «**المسجد الأقصَى**»، وأنهما يقعان معًا في مدينة «**إيليا**» بـ(**فِلسطين**).[1] ولم يبق، إذن، إلَّا أن يرسم

---

[1] على الرغم ممَّا أُثير حول «**سيرة ابن إسحاق**» من طعنٍ في رواياته، فعندي أنها ذات قيمة مائزة لمن لا يبحث عن صِحَّة المعلومة التوثيقيَّة، فقط، بل عن ثقافة الناس ولغتهم ومخيالهم الشعبي، بما فيه من حكايات وخُرافات وأساطير. وأزعم أن مَن وقفوا موقفهم ممَّا دوَّنه (**ابن إسحاق**) لم تكن مآخذهم عليه عِلْميَّة دائمًا، بل لأن الرجل كان صادقًا، أمينَ الرواية، فسجَّل ما بلغه دون تدخُّل، وممَّا سجَّل ما لم يكن ←

لنابتة مؤرِّخينا الخريطة ويحدِّد لهم عليها الموقع. وهو لو فعل، لما اهتدوا أيضًا؛ لأن التعصُّب عمًى، والمكابرة داءٌ عياء، والغَرَض مَرَض. فذكرَ بالنصِّ: أن «**رسول الله**، ﷺ، **أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى (المسجد الأقصَى)، وهو (بيت المَقْدِس)، من (إيليا).**»[1] هٰذا إلى جانب إشارته ثلاث مرات أخرى إلى «**بيت المَقْدِس**»، منها اثنتان في ذِكْر أن الصلوات الخمس فُرِضت في «**بيت المَقْدِس**»، ليلة الإسراء، وأن الرسول صلَّى بعد الهجرة سبعة عشر شهرًا نحو (**بيت المَقْدِس**) قبل تغيير جهة القِبلة إلى الكعبة.[2] وهو ما يرِد كذٰلك في «**صحيح البخاري**»[3]، أن النبيَّ «**صلَّى إلى (بيت المَقْدِس) ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا**». وما زال (**مسجد القِبْلَتين**) في (**المدينة المنوَّرة**)- ذو القِبْلَتين: جهة الشَّمال نحو **بيت المَقْدِس** وجهة الجَنوب نحو (**مَكَّة**)- شاهدًا باسمِه وقِصَّته وقِبلتَيه على تلك المرحلَة من تاريخ الإسلام.

وكذا كان يصلِّي الرسول قبل الهجرة إلى (**بيت المَقْدِس**)، كما يدلُّ على ذٰلك ما ساقه (**ابن إسحاق**) عن إسلام (**عُمَر بن الخطَّاب**)- برواية (**عطاء**)، و(**مجاهد**)- حيث رَوَيا أنه قال: «**جئتُ المسجد أُريد أن أطوف بالكعبة، فإذا**

مرضيًّا عنه، دِينيًّا أو اجتماعيًّا. فكان لاحقوه مضطرِّين إلى أن يُعمِلوا في كتابه مشارط التهذيب والتشذيب والحذف، فضلًا عمَّا أضاعوه من الكتاب، ربما عن عمدٍ أحيانًا، حتى لم يبق منه في العالم اليوم إلَّا قِطَعٌ غير كاملة.

[1] ابن إسحاق، ٢٧٤.

[2] انظر: م.ن، ٢٦٦، ٢٧٧.

[3] ١: ١٥٥ [الحديث ٣٩٠].

رسول الله، ﷺ، قائمٌ يصلِّي، وكان إذا صلَّى استقبل (الشَّامَ)، وجعل الكعبة بينه وبين الشَّام...».[1]

ومن شواهد هٰذا، الماثلة إلى اليوم، مساجد في (**الجزيرة العربيَّة**) قِبْلَتها إلى (**بيت المَقْدِس**)، لا إلى بلاد (**غامد**). ومنها مسجدٌ في بلاد (**غامد وزَهران**) نفسها، في أعلى جبل (**شَدا الأعلى**)، تظهر جهة القِبْلَة فيه إلى **بيت المَقْدِس**![2]

أمَّا قِصَّة الإسراء، كما رواها (**ابن إسحاق**)[3]، فتقول:

> **«قال محمَّد بن إسحاق، وكان فيما بلغني عن (أُمِّ هانئ بنت أبي طالب، رضي الله عنها)، واسمها (هند)، في مَسْرَى (رسول الله، ﷺ)، أنها كانت تقول: «ما أُسْرِي برسول الله، ﷺ، إلَّا وهو في بيتي، نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلَّى العِشاء الآخِرة، ثمَّ نام ونِمْنا، فلمَّا كان قُبَيل الفجر، أهبَّنا رسولُ الله، ﷺ، فلما صلَّى الصبحَ وصلَّينا معه، قال: يا أُمَّ هانئ، لقد صلَّيتُ معكم العِشاء الآخِرة، كما رأيتِ بهٰذا الوادي، ثمَّ جئتُ (بيتَ المَقْدِس)، فصلَّيتُ فيه، ثمَّ صليتُ صلاةَ الغَداة معكم، كما ترين. ثمَّ قام ليخرج؛ فأخذتُ بطرَف ردائه... فقلتُ له: يا نبيَّ الله، لا تُحدِّث بهٰذا الناس، فيكذِّبوك ويؤذوك! قال: والله، لأُحَدِّثَنَّهُمُوه! قالت: فقلتُ لجاريةٍ لي حَبشيَّة: ويحكِ، اتبعي رسولَ الله، ﷺ، حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له! فلمَّا خرج رسول الله، ﷺ، إلى الناس،**

---

[1] ابن هشام، ١: ٣٤٧.

[2] انظر: الشدوي، ناصر، *«شدا الأعلى، هل هو جبل (ق)؟»*، ٨٧١.

[3] انظر: ابن هشام، ١: ٤٠٢ – ٤٠٣.

أخبرهم، فعجبوا، وقالوا: ما آية ذٰلك يا محمَّد؟ فإنَّا لم نسمع بمثل هٰذا قَط! قال: آية ذٰلك أني مَرَرْتُ بِعِير بني فلان، بوادي كذا وكذا، فأَنْفَرَهم حِسُّ الدابَّة، فنَدَّ لهم بَعيرٌ، فدَلَلْتُهم عليه، وأنا مُوجِّه إلى (الشَّام). ثمَّ أقبلتُ حتى إذا كنتُ بـ(ضَجْنَان)، مررتُ بِعِير بني فلان، فوجدتُ القومَ نيامًا، ولهم إناءٌ فيه ماءٌ، قد غطَّوا عليه بشيءٍ، فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه، ثمَّ غطَّيتُ عليه كما كان، وآية ذٰلك أن عِيرَهم الآن يُصوِّب من (البيضاء)، ثنيَّة (التنعيم)، يَقْدُمها جَمَلٌ أَوْرَق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء والأخرى بَرْقاء. قالت: فابتدر القوم الثنيَّة، فلم يَلْقَهم أوَّلَ من الجَمَل، كما وَصَفَ لهم، وسألوهم عن الإناء؟ فأخبروهم أنهم وَضَعوه مملوءًا ماءً ثمَّ غطَّوه، وأنهم هَبُّوا فوجدوه مُغطًّى كما غطَّوه، ولم يجدوا فيه ماءً. وسألوا الآخَرين، وهم بمكَّة، فقالوا: صدقَ، والله، لقد أُنفِرنا في الوادي الذي ذكرَ، ونَدَّ لنا بَعيرٌ، فسَمعنا صوتَ رجُلٍ يدعونا إليه، حتى أخذناه.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني مَن لا أَتَّهم، عن (أبي سعيد الخُدري، رضي الله عنه)، أنه قال: سمعتُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لمـَّا فرغتُ ممَّا كان في (بيت المَقْدِس)، أُتِـيَ بالمِعراج، ولم أَرَ شيئًا قطُّ أحسنَ منه، وهو الذي يَمُدُّ إليه ميتُكم عَيْنَيْه إذا حُضِر، فأصعدني صاحبي فيه.»

وسَردُ هٰذا الاقتباس الطويل لبيان وُجهة الإسراء. غير أن إنكار الشمس ما عاد مستغرَبًا من بصير، وتكذيب النصوص ما عاد مستهجَنًا ممَّن مَردوا على إعادة تعبئة التاريخ في قوارير مستطرقة، على أشكال أهوائهم السياسيَّة وتحيُّزاتهم الذهنيَّة. فهبْ أن (**بيت المَقْدِس**) في بلاد (**غامد**)، وأن (**الشَّام**)

في جبال (**السَّرَوات**)، فأين يقع (**ضَجْنَان**)؟ وأين تقع (**البيضاء**)، أو (**ثنيَّة التنعيم**)؟ المكانان اللَّذان ذُكِرا في النَّبأ، وحُكِي عن النبيِّ أنه مَرَّ بقافلتين لديهما؟ إنهما مكانان معروفان شَمالي (**مكَّة**)، على طريق قوافل **الشَّام**، ما تزحزحا بَعْدُ من مكانيهما كي تستقيم أباطيل المبطلين. **فضَجْنَان**: بشَمالِيِّ **مكَّة**، على مسافة ٥٤ كيلًا، على طريق (**المدينة المنوَّرة**)، وهو حَرَّة، تُعرَف اليوم بـ(**حَرَّة المُحْسِنيَّة**).[١] وربما ذُكِر **ضَجْنَان** قديمًا بلفظ «**الضَّجَن**»، كما في بيت الشاعر (**ابن مُقبل**)[٢]:

فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي دَهْيٍ مُصَعِّدَةٍ ... ومِنْ قَنَانٍ تَؤُمُّ السَّيْرَ لِلضَّجَنِ

و(**البيضاء**): ثنيَّة على طريق (**المدينة المنوَّرة**) أيضًا، فيها مسجدٌ اسمه (**مسجد عائشة**)، ويُسمَّى المكان اليوم: (**العُمْرة**)، أو (**عُمْرة التنعيم**)؛ لأن الناس يُحرِمون بالعُمْرة منه. ولم تعُد تُعرَف الثنيَّة اليوم باسم **البيضاء**. **والتنعيم**: وادٍ يمتدُّ من ثنيَّة (**البيضاء/ العُمرة**) نحو الشَّمال.[٣]

فإلى أين اتَّجهَ طريقُ الإسراء، إذن؟

أ إلى جهة (**الجِعِرَّانة**)، فـ(**الطائف**)؟

أم إلى جهة (**السَّرَوات**)؟ أم إلى جهة (**الشَّام**)؟

ونقف على الإشارة إلى «**بيت المَقْدِس**» كذلك لدَى قدماء المؤلِّفين. ومنهم:

---

[١] انظر: البلادي، **معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرة النبويَّة**، ١٨٣؛ **معالم مكَّة التاريخيَّة والأثريَّة**، ١٥٩- ١٦٠.

[٢] **ديوانه**، ٣٠٥/ ١٦. وانظر دراستنا في شِعر ابن مُقبل: (الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **شِعر ابن مقبل**، ١: ٢٥٧-٢٥٨).

[٣] انظر: البلادي، **معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرة النبويَّة**، ٥٤- ٥٥.

(**وَهْب بن مُنبِّه**، -١١٤هـ)، في كتاب «**التيجان في مُلوك حِمْيَر**»[١]، خلال كلامه حول (**سُلَيمان بن داوود**، عليه السلام). ومنهم: (**أبو عبيد القاسم بن سلَّام**، -٢٢٤هـ)، الذي أورد في «**كتاب الأمثال**»[٢]: «**ومن التصديق حديث أبي بكر، رحمه الله، حين قالت له (قُرَيش): «هٰذا صاحبُك يُخبِر أنه سَرَى في ليلةٍ إلى بيت المَقْدِس وانصَرَف»، فقال: «إنْ كان قاله، فقد صَدَق؛ فسُمِّي بذٰلك (الصِّدِّيق)»**.» وكذا في كُتب (**الجاحظ**، -٢٥٥هـ) المتعدِّدة[٣]، وكُتب (**ابن قتيبة**، -٢٧٦هـ)، وغيرهما. وممَّا ذكره الأخير أن العَرَب كانوا يسمُّون بلاد (**الشَّام**): «**ذات الإلٰه**». ما يدلُّ على نظرة التقديس إليها لدَى العَرَب منذ ما قبل الإسلام؛ قال: «**لأنها مقدَّسة، ويقال بيت المَقْدِس؛ لأنه موضع الأنبياء**».[٤] وأورد في ذٰلك قولَ الشاعر الجاهلي (**النابغة الذبياني**)[٥]:

مَحَـلَّتُـهُمْ (ذاتُ الإِلَـٰهِ) ودِينُهُمْ ... قَوِيْمٌ فَما يَرْجُوْنَ غَيرَ العَواقِبِ

كما أوردَ (**ابن قتيبة**) في «**عيون الأخبار**»[٦] خرافة شجرة الخَرُّوبة، التي جاء في المأثور الشَّعبي أنها قالت لـ(**سُلَيمان**): «**أنا الخرُّوبة. فقال سُلَيمان: الآن نَعيتِ إليَّ نفسي وأُذن في خراب بيت المَقْدِس**». وكذا أن البيوت المقدَّسة لدَى

---

(١) انظر: ١٦٩- ١٧٠.

(٢) ٥٠.

(٣) انظر مثلًا: البيان والتبيين، ٢: ٣٦؛ الحيوان، ٣: ٥٣٧.

(٤) ابن قتيبة، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، ٥٤٩.

(٥) ٤٧/ ٢٤.

(٦) انظر: ١: ١٥٠- ١٥١، ٢: ٧٦، ٢٧٢.

العَرَب وغيرهم: «**بَكَّة، وإيلياء، ومن إيلياء بيت المَقْدِس**». وأن (**عُزيرًا**) كان يدعو ربَّه: «**اللهُمَّ فإن لك من كلِّ خَلْقٍ خلقتَه خِيْرَةً اخترتها، وإنك اخترتَ من... البيوت بيتَ إيلياء، ومن إيلياءَ بيتَ المقدِس.**»

فهٰذا تراثٌ ممتدٌّ، لدَى العَرَب وغير العَرَب، لدَى أهل «**القرآن**» وأهل الكتاب، من تقديس تلك الأرض، واتِّخاذ أسمائها الراسخة رموزًا في الذاكرة الإنسانيَّة. مَن حاولَ شطبها، أو شطب دلالتها، فقد حاول شطب عقله وذاكرته التاريخيَّة.

أ وليس من سُخرية التاريخ أن يجد الباحث نفسه مضطرًّا إلى إثبات مثل هٰذه البدهيَّات؟! أجل، ولٰكن لا بُدَّ ممَّا ليس منه بُدٌّ في مواجهة غُثاءٍ من التشغيبات المستحمقة لبعض العقول. ولربما كان إثبات البدهيَّات أعسر من إثبات المُشكِلات؛ لأنك حين تصل إلى درجة الاضطرار إلى إثبات البدهيَّات تكون في مواجهة أذهان لم يعُد يَصِحُّ فيها شيء؛ فتكون عندئذٍ كمن كُتِب عليه، قبل البرهنة، أن يستبدل عقولًا بعقول، لو استطاع، وهيهات!

٦- أبعدُ ممَّا سبق، فإن ادِّعاء أن التعبير بـ«**المسجد الأقصَى**» لم يُستعمل إشارةً إلى (**بيت المَقْدِس**) إلَّا في زمنٍ متأخرٍ بعد صدر الإسلام، وبعد أن شَيَّد المسجدَ هناك (**عبدالملك بن مروان، -٨٦هـ= ٧٠٥م**)، وإرداف ذٰلك بالتماس معنًى آخر «**للمسجد الأقصَى**» المذكور في «**سُورة الإسراء**»، وإحالته إلى موطنٍ آخر، كلُّ ذٰلكم محض هذيانٍ جريءٍ على انتهاك العقل والنقل في آن. وهو

هذيانٌ ينطلق- إلى جانب أغراضه غير الخافية- من جهلٍ بتراث التداول اللساني والأدبي قبل بناء **عبدالملك بن مروان** المسجدَ في **بيت المَقْدِس**، داخل الساحة المعروفة **بالمسجد الأقصَى**. ذٰلك التراث الدالُّ على إطلاق «**المسجد الأقصَى**» على مسجد **بيت المَقْدِس**، وأنه ليس بتعبيرٍ انفرد به «**القرآن**»، ولا كان غائبًا عن الأذهان يوم نزلت آيات الإسراء، وأن تلك الآيات إنَّما تشير إلى مكانه المعلوم في (**فِلسطِين**). من ذٰلك قول الشاعر (**زياد بن حنظلة التميمي**)، الذي عاصرَ الرسولَ و(**أبا بكر**) و(**عُمَر**):

ونحنُ تركنا (أرطبونَ) مطـرَّدًا ... إلى (المسجدِ الأقصَى) وفيه حُسُورُ
عشيَّـةَ (أجـنادينَ) لـمَّا تـتابَعـوا ... وقـامتْ عليهـمْ بالعَـراءِ نُـسُورُ[1]

و(**زياد بن حنظلة**) هٰذا: شاعرٌ فارس، معدودٌ من الصحابة، شارك في قتال المرتدِّين في عهد (**أبي بكر الصِّدِّيق**)، ثمَّ في المعارك التي دارت بين المسلمين و(**الرُّوم**) في بلاد (**الشَّام**)، مثل (**أجنادين**)، من ناحية (**فِلسطِين**)، كما أشار في أبياته.[2] فليس القارئ في حاجةٍ إلى معرفة متى عاش هٰذا الشاعر، بل يكفيه أن يُدرِك أنه يشير إلى أحداث وقعت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، قبل وفاة (**الصِّدِّيق**). وها هو ذا يذكر «**المسجد الأقصَى**»، ويحدِّد مكانه، بما لا يدع مجالًا للشكِّ فيه. أ فيأتيك بعد هٰذا من يهرف بأن «**المسجد**

---

[1] انظر: الحموي، (أجنادين).

[2] انظر: الطبري، **تاريخ الرُّسُل والملوك**، ٣: ١٨٧، ٦٠٢، ٤: ١٣٨- ١٣٩، ١٥٦، ٤٤٥، ٤٤٨.

الأقصَى» لم يُستعمل إشارة إلى (**بيت المَقْدِس**) إلَّا بعد أن شَيَّد المسجدَ هناك (**عبدُالملك بن مروان**)؟!

ونجِد مثل ذٰلك في شِعر شعراء آخرين، مثل (**عمر بن أبي ربيعة، ٢٣-٩٣هـ= ٦٤٣- ٧١١م**)[١]، المخضرم بين صدر الإسلام والعصر الأُموي، كقوله:

والمَسْجِدِ الأَقْصَى المُبارَكِ حَولَـهُ والطُّوْرِ، حَلْفَةَ صادِقٍ لَمْ يَأثَمِ

وفي الإشارة إلى «الطُّور» قرينةٌ سياقيَّةٌ دالَّةٌ على «**المسجد الأقصَى**» المقصود، وأن الدلالة المكانيَّة القارَّة في الأذهان لـ«**المسجد الأقصَى**» كانت، خلال الزمن الذي عاش فيه ذٰلك الرعيل الأوَّل، لا تنصرف إلَّا إلى مكانه المعهود في (**فِلسطين**).

وقد جاءت الإشارة إلى «**المسجد الأقصَى**»، بلفظه، في الحديث النبوي الصحيح، الوارد في «**صحيح البخاري**» و«**صحيح مسلم**» وغيرهما: «**لا تُشَدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ﷺ، ومسجد الأقصَى**». كما جاء في «**باب فضل الصلاة في مسجد مكَّة والمدينة**»، من «**صحيح البخاري**»[٢]. وفيه، من «**باب مسجد بيت المَقْدِس**»: «... **مسجد الحرام، ومسجد الأقصَى، ومسجدي**».[٣] في حين يرى (**داوود**)، حسب

---

[١] **شرح ديوان عُمَر بن أبي ربيعة المخزومي**، ٢٣٠.

[٢] ٢: ٣٩٢ [الحديث ١١٣٢]. وانظر: مسلم، **صحيح مسلم**، ١: ٦٠٩ [الحديث ٨٢٧].

[٣] البخاري، ٢: ٤٠٠ [الحديث ١١٣٩].

المقتضَى ممَّا تجشَّم من مزاعم، مشروعيَّة أن تُشدَّ الرِّحال إلى مكانٍ مجهولٍ في (**سراة غامد**)، فثمَّة مسجدُ أقصاه الخاص!

أمَّا الحديث الوارد في «**صحيح البُخاري**»[1]: «**حدَّثنا مُوسَى بن إسماعيل: حدَّثنا عبدالواحد: حدَّثنا الأعمش: حدَّثنا إبراهيم التَّيمي، عن أبيه، قال: سمعت أبا ذرٍّ،** رضي الله عنه، **قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوَّل؟ قال: (المسجد الحرام). قال: قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: (المسجد الأقصَى). قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة)**»، أمَّا هٰذا الحديث، فلا ريب أنه نصٌّ ماحِقٌ محقًا لائتفاك مَن زعمَ أن (**المسجد الأقصَى**) مسجدٌ إسلاميٌّ من مساجد (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، وأنه في (**الجِعِرَّانة**)، أو في غير **الجِعِرَّانة!** اللَّـٰهُمَّ إلَّا لو أخذَ صاحب هٰذه الفكاهة التاريخيَّة بتمهيدٍ أوغل في الادِّعاء، كذٰلك الذي ذهب إليه (**داوود**) في القول إن (**أورشليم**)، بقَضِّها وقضيضها وتاريخها العتيق، تقع في (**بلاد غامد**)، أو ذٰلك الذي ذهب إليه قبله (**الصَّليبي**) من أن **أورشليم** كانت في (**النماص**)! ذٰلك أن أرباب الادِّعاءات كُثْر، غير أن فِطَنهم متفاوتة في التأتِّـي إلى ما يدَّعون.

هٰذا، وإنَّما سُمِّي (**بيت المَقْدِس**) بـ«**المسجد الأقصَى**» لأنه كان إبَّان البعثة النبويَّة أقصَى مسجدٍ عن (**المسجد الحرام**) صلَّى فيه النبي. ولا معنى لإطلاق هٰذه التسمية في العصر الأُموي، والمساجد قد أصبحت في بقاع

---

[1] ٣: ١٢٣١ - ١٢٣٢ [الحديث ٣١٨٦]. وقارن: مسلم، ١: ٢٣٦ [الحديث ٥٢٠].

الأرض المختلفة، وصار كثيرٌ منها أقصَى من الأقصَى شَمالًا، وفي كلِّ اتِّجاه من المعمورة. وكان كذٰلك أقصَى بيتٍ من بيوت الله يُزار وتُبتغَى في زيارته الفضيلة، بعد **المسجد الحرام**، و(**المسجد النبوي**).[1]

وقد كانت «**سُورة الإسراء**»، لأجل علاقتها بـ(**بني إسرائيل**) وتاريخهم، تُسمَّى «**سُورة بني إسرائيل**»[2]. وسياق «**سُورة بني إسرائيل**» وحديثها المستفيض عن **بني إسرائيل** وأنبيائهم من القرائن الإضافيَّة على أن مكان الإسراء هو (**بيت المَقْدِس**). اللّٰهُمَّ إلَّا لدَى مَن يعتقد أن تاريخ بني **إسرائيل** كان في مكان آخر، كـ(**أحمد داوود**)!

وقد فُسِّرتْ الآية السابعة من «**سُورة بني إسرائيل/ الإسراء**»: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوْؤُوا وُجُوهَكُمْ، ولِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ولِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾، على أن المسجد في الآية هو (**المسجد الأقصَى**)، وأن السُّورة، وإنْ لم تُذكَر (**فِلسطِين**) فيها صراحةً، تُحيل إلى الأحداث التاريخيَّة التي وقعت في **فِلسطِين**، وإنْ اختلف المفسِّرون حول تاريخ إفساد (**بني إسرائيل**) مرَّتين، وما لحِق بهم، عقابًا على ذٰلك، من تدمير، بين قائل إنَّ في الآية إشارة إلى ما سلَّطه الله على **بني إسرائيل** من البطل الفِلسطيني (**جالوت**)، أو من الإمبراطور الآشوري (**سنحاريب**، ٧٠٥- ٦٨١ق.م)،

---

[1] انظر: الطبري، **تفسير الطبري**، ١٤: ٤٢٠.

[2] بهٰذا عَنْوَن (الطبري، م.ن) تفسيره هٰذه السورة: «**تفسير سورة بني إسرائيل**».

في المرَّة الأُولى، وقائل بأن الآية تشير إلى قضاء (**نَبُوخَذْنَصَّر**) على (**أورشليم**) ومملكتها عام ٥٨٦ق.م، وسَبْي **بني إسرائيل** إلى (**بابل**).[١] لٰكنَّ أحدًا، للأسف، لم يتفطَّن، قبل صاحب «**العَرَب والسَّاميُّون**»، إلى أن **المسجد الأقصَى** الذي بارك الله حوله، وما أحاط به من تاريخ، يقع في مكان ما من (**سَراة غامد**)، لا في (**فِلسطين**)، وأن الآية ﴿**ولِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ولِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾ إشارةٌ إلى مسجدٍ ما في (**سَراة غامد**)، لا يعرفه أحدٌ على الإطلاق، ولا يعرف حكايته التاريخيَّة!

من أجل ذٰلك طَفِق (**داوود**) تأويلًا لآيات «**القرآن**»، لكي تتماشَى مع ما بيَّنه سَلَفًا من نقل (**فِلسطين**) وتاريخ (**بني إسرائيل**) إلى مكانٍ آخر؛ فالنصُّ لا يستقيم مع كلِّ تلك المزاعم الغريبة دون إعمال تأوُّلٍ متعسَّفٍ متكلَّفٍ قَصِيٍّ، يضرب عُرْضَ الحائط باللغة بعد التاريخ. مستدِلًّا على زعمه بدليلٍ في غاية الطرافة حقًّا. وهو أن «**أَسْرَى**» في آية الإسراء هي بمعنى «**ذهب إلى السَّراة**»؛ لأن النصَّ القرآني قال: «**أَسْرَى ليلًا**»، ولو كان «**أَسْرَى**» بمعنى السَّير ليلًا لكانت كلمة «**ليلًا**» في الآية زائدةً وحشوًا![٢]

وسنَعرض على صاحبنا آياتٍ أخرى فيها «زياداتٌ وحشو»، قياسًا إلى كلامه. ومسألة الزيادات والحشو تلك مسألةٌ بلاغيَّةٌ لا يفقهها مَن لا يفقه البلاغة، على كلِّ حال. من ذلك ما وردَ في «**سُورة طٰه**»[٣]: ﴿**ومَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ، يَا مُوسَىٰ**؟

[١] حول هٰذا يمكن الرجوع، مثلًا، إلى ما سيق في تفسير السورة لدَى (الطبري، م.ن).
[٢] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٥١.
[٣] الآيات ١٧- ١٩.

قَالَ: هِيَ عَصَايَ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي، ولِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ. قَالَ: أَلْقِهَا، يَا مُوسَىٰ.﴾ أفلم يكن الله يعلم ما تلك بيمين (**مُوسَى**)؟! فلِمَ سأله؟! وهٰذا الأسلوب نجِده في «**التوراة**»[1] أيضًا: «**فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ**: «**مَا هٰذِهِ فِي يَدِكَ؟**» **فَقَالَ**: «**عَصًا**». **فَقَالَ**: «**اطْرَحْهَا إِلَى الأَرْضِ**».» ثمَّ لِـمَ يظلُّ يناديه: «**يا مُوسَى**».. «**يا مُوسَى**»، وليس معهما ثالث؟!

ونموذجٌ آخَر: في «**سُورة النحل**»[2]: ﴿**وقَالَ اللَّـهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ؛ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾؟ أفما كان في الإمكان القول: «**وقَالَ اللَّـهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ؛ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**»، لولا مراعاة أساليب من التأثير البلاغيِّ تتخطَّى في وظيفتها مجرد إيصال الفكرة الذهنيَّة الباردة؟!

هٰذه واحدة، لعلَّها تكفي في ما يتعلَّق بأساليب قد يظنُّها الساذج في إدراكه لبلاغيَّات الخطاب زيادةً وحشوًا، وهي لدَى العارفين، من عَرَبٍ وعجم، أساليب مقصودة.

وأمَّا زعمه أن العَرَب لا تقول «**سَرَى ليلًا**»، و«**أَسْرَى ليلًا**»، فزعمٌ باطلٌ. بل العَرَب تقول ذٰلك كثيرًا، ولا تَعُدُّ ذِكْـرَ «**الليل**» حشوًا. يقول (**المرقِّش الأكبر**)[3]، مثلًا:

سَرَى لَيْلًا خَيالٌ مِنْ سُلَيْمى　　　فأَرَّقَني وأصحابي هُجُودُ

---

[1] سِفر الخروج، ٤: ٢- ٣.

[2] الآية ٥١.

[3] ديوان المُرَقِّشَين، ٥١/ ١.

وتقول (**أُمُّ ناشب الحارثيَّة**)[١]:

لحا اللهُ قومًا جشَّموا أُمَّ ناشبٍ سُرَى الليلِ تغشاهُ بغيرِ دليلِ

ومن شواهد اللغويِّين:

سَرَى مُتَوَكِّفًا عَنْ آلِ سُعْدَى ولَوْ أَسْرَى بلَيْلٍ قاطِـنِـينَـا[٢]

وكذا قول (**مُلَيْح بن الحَكَم الهذلي**)[٣]:

وخَفُّوا فأَمَّا الجامِلُ الجَوْنُ فاسْترَى بلَيلٍ، وأَمَّا الحَيُّ بَعْدُ، فأَصْبَحُوا

على أن (**داوود**) قد غفل عن أن «**القرآن**» نفسه استعمل «**أَسْرَى ليلًا**» في غير «**سُورة الإسراء**» ونَبإِ الإسراء والمِعراج. من ذٰلك في «**سُورة الدُّخَان**»[٤]: ﴿**فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُتَّبَعُون**﴾. فلِمَ لَمْ يكتف هنا بالقول: «**فَأَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُتَّبَعُون**»، ما دامت كلمة «**ليلًا**» زائدة لفظيَّة، وحشوًا بلا معنى، حسب اكتشافات **داوود** البلاغيَّة/ التاريخيَّة؟! وفي «**سُورة هود**»[٥]: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْل**﴾. وكذا في «**سُورة الحجر**»[٦]. أم لعلَّ الإسراء في كلِّ هٰذه الآيات إنَّما يعني الاتجاه إلى (**جبال السَّرَوات**)؟! فكلَّما حزَبَ أمرٌ، أمرَ الله الأنبياء بالاتجاه إلى

---

[١] ابن طيفور، **بلاغات النساء وطرائف كلامهن ومُلَح نوادرهن**، ١٠٥.

[٢] انظر: الصَّغاني، **العُباب الزاخر**، (وكف).

[٣] السكَّري، **شرح أشعار الهُذليِّين**، ٣: ١٠٣٧/ ٦/ ٢.

[٤] الآية ٢٣.

[٥] الآية ٨١.

[٦] الآية ٦٥.

(سَراة غامد) وضواحيها! في حين لم يستعمل «**ليلًا**» في «**سُورة طٰه**»[1]: ﴿**ولَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ: أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي البَحْرِ يَبَسًا، لَا تَخَافُ دَرَكًا ولَا تَخْشَىٰ**﴾، ولا في «**سُورة الشُّعَراء**»[2]: ﴿**وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُتَّبَعُون**﴾. ما يعني أنه خيارٌ أسلوبيٌّ، لوظيفةٍ بيانيَّةٍ بحسب السياق، فلا حشو هناك، ولا علاقة لجبال **السَّراة** بالموضوع على الإطلاق.

بل لقد عَبَّر «**القرآن**»[3] عن أن اللَّيل نفسه يسري في اللَّيل، في قوله تعالى، مُقْسِمًا: ﴿**واللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾. قيل معناه: اللَّيل الذي يُسرَى فيه.

وليس ما تعلَّل به **(داوود)** في هٰذا باكتشاف، لم يلتفت إليه الأسلوبيُّون العرَب قبل مئات السنين. فلقد ذكروا أنه إنَّما قال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا**﴾، وإنْ كان السُّرَى لا يكون إلَّا بالليل، للتأكيد، كقولهم: «سِرْت أَمسِ نهارًا، والبارِحةَ ليلًا».[4] وهو تأكيدٌ لكيلا يتوهَّم متوهِّمٌ- **كداوود**- أنَّ «**أَسْرَى**» بمعنى: صار إلى جبال **(السَّرَوات)**، بل بمعنى سار بِليل. لٰكنَّ **داوود**- مع الأسف- لم يُفِده لا ذٰلك التأكيد النصِّي، ولا ذٰلك التنبيه القرائي القديم جدًّا، فظلَّ يُصِرُّ على نفي التأكيد، ليزعم أنه بمعنى صار إلى **(سَراة غامد)**. وقد قيل أيضًا إن «**أَسْرَى**» بمعنى: «**سَيَّر**». وحتى مَن أَغْرَبَ في تفسيره: فقال إن «**أَسْرَى**» من «**السَّراة**»، إنَّما

---

(1) الآية ٧٧.

(2) الآية ٥٢.

(3) **سورة الفَجْر**: الآية ٤.

(4) انظر: الجوهري، (سرى)، وابن منظور، (سرا).

قال: إنَّ (**السَّراة**) أرضٌ واسعةٌ، وإنَّ المعنى: «ذهبَ به في سَراة من الأرض، وسَراة كلِّ شيء أعلاه».[1] ومعنى السَّراة- على هٰذا التأويل- يحتمل ارتفاع المكان تضاريسيًّا أو رِفعته قداسةً. ولم يخطر ذٰلك الشطحُ القَصِيُّ في «**أَسْرَى**»- بمعنى صار إلى جبال **السَّراة** تحديدًا، وأن (**المسجد الأقصى**) كان في **سراة غامد**- على قلب بَشَر، قبل **داوود**، الذي يقول، في عقيدةٍ راسخةٍ رسوخ **السَّراة**: «**ونحن هنا (لا نشكُّ لحظةً) في أن هٰذا هو المعنى المقصود بالكلمة**»**!**[2] يجزم بهٰذا، لا لأنه ذٰلك اللغويُّ والمفسِّرُ النحرير، ولٰكن لأن جَعْلَ **السَّراة** الأرضَ المقدَّسةَ أمرٌ قد بَيَّتَ له و«**أَسْرَى عليه بِلَيْل**»[3]، شاء مَن شاء وأَبَى مَن أبَى، ما دفعه إلى هٰذا التكلُّف والإصرار.

ومن هنا يبدو أنه قد جانبَ المسلمين الفهمُ، منذ عرفوا «**القرآن**»، حتى في تسمية السُّورة نفسها: «**سُورة الإسراء**»، وكان الصواب أن يسمُّوها: «**سُورة السَّراة**»، نسبة إلى (**سَراة غامد**)**!** وجانَبَ المحدِّثين والرواةَ المعنى، إذ كانوا يُطلِقون على حديث الإسراء: «**حديث الإسراء**» تارةً، و«**حديث المَسْرَى**»[4] تارةً أخرى، وكان حقُّهم، لو أدركوا أن «**أَسْرَى**» في الآية إنَّما تعني قصدَ (**سَراة غامد**)، أن

---

[1] انظر: الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، (سرى).

[2] داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٥١.

[3] تقول العَرَب: «**هٰذا أمرٌ أُسْرِيَ عليه بِلَيْل**»، يُضرب مَثَلًا لما احتيل في طلبه. وهٰذا دليلٌ إضافيٌّ على بُطلان الزعم أن العَرَب لا تقول: «**سَرَى ليلًا**»، و«**أَسْرَى ليلًا**»**!**

[4] انظر: الطبري، **تفسير الطبري**، ١٤: ٤١٦، (سورة الإسراء/ بني إسرائيل).

يسمُّوه: «**حديث السَّراة**»! إنه تراثٌ من الجهل اللغوي والتاريخي، لم يستضئ إلَّا على يد المؤرِّخ المعاصر!

أمَّا مسألة (**الحشو**)- لو صحَّت- فلها وظيفتها الأسلوبيَّة الأدبيَّة المعروفة، التي يُقدِّرها النقَّاد، وليس كلُّ **حشوٍ** بمعيب.[1] ولقد أجاب المفسِّرون عن آية الإسراء بما لا مزيد عليه. وممَّا قالوه- إلى جانب ما سبق- قول (**الزمخشري**)[2]: «**فإنْ قلتَ: الإسراء لا يكون إلَّا بِليل، فما معنى: ذِكر الليل؟ قلتُ: أراد بقوله «ليلًا» بلفظ التنكير: تقليل مُدَّة الإسراء، وأنه أُسريَ به في بعض الليل من مَكَّة إلى الشَّام، مسيرةَ أربعين ليلةً؛ وذٰلك أن التنكير فيه قد دلَّ على معنى البعضيَّة؛ ويشهد لذٰلك قراءةُ عبدالله وحذيفة: «من الليل»، أي بعض الليل...**».

وعقَّب (**عبدالقادر البغدادي**)[3] على هٰذا بقوله:

> «**الصواب أن تنكيره لدفع توهُّم أنَّ الإسراء كان في ليالٍ، وإلى هٰذا جَنَحَ عَلَمُ الدِّين السَّخاوي في تفسيره**[4]**؛ فقال: وإنَّما قال ليلًا والإسراء لا يكون إلَّا بالليل لأن المُدَّة التي أُسري به فيها لا تُقطَع في أقلِّ من أربعين يومًا، فقُطِعَتْ به في ليلٍ واحد، فكان المعنى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ في ليلٍ واحدٍ من كذا إلى كذا، وهو موضع التعجُّب، وإنَّما عَدَل عن ليلةٍ إلى ليلٍ لأنهم إذا قالوا أَسْرَى**

[1] انظر مثلًا: كوهن، بنية اللغة الشِّعريَّة، ١٣١-٠٠٠.

[2] **الكشاف**، ٣: ٤٩١- ٤٩٢.

[3] **حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام**، ١: ٦١٢.

[4] لم يَرِد هٰذا الذي نَسَبَه إلى السَّخاوي في تفسيره السورة! (انظر: السَّخاوي، **تفسير القرآن العظيم**، ١: ٤٧٠- ٠٠٠).

ليلةً كان ذٰلك في الغالب لاستيعاب الليلة بالسُّرَى، فقيل ليلًا أي في ليلٍ. انتهى. وهٰذا توجيهٌ حَسَنٌ لا كُلْفَةَ فيه.»

ذُكِر الليل، إذن- فوق كونه سائغًا في كلام العَرَب- لا لأن كلمة «أَسْرَى» في الآية لا تعني السَّير ليلًا، وإنَّما لأن موضع التعجُّب والإعجاز يتمثَّل في أنه أُسْرِيَ به من (مَكَّة) إلى (الشَّام) في جزءٍ من ليلةٍ واحدة. أمَّا الإسراء من **مَكَّة** إلى **(الطائف)** أو إلى **(السَّراة)**، فليس بذٰلك الحدث الإعجازي، حتى بمقاييس ذٰلك الزمان. لا خارقةَ فيه تُذكر، ولا إعجازَ نُبُوَّةٍ تُستفاد، ولا معنى لأنْ يُتعجَّب منه بـ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا**﴾. من حيث إنَّ أيَّ صعلوكٍ من صعاليك العَرَب كان بإمكانه أن يسري ليلًا- بالروح وبالجسد وبغيرهما ممَّا شاء- من **(المسجد الحرام)** إلى **السَّراة**، وربما إلى ما هو أبعد من **السَّراة!** فما الذي حمل المشركين على أن يكذِّبوا **(محمَّدًا)** في ذٰلك الحدث الاعتيادي، أو يُنكروه عليه، أو يُفتَنوا بإنبائه عنه؟! بل ما الذي جعل كثيرًا ممَّن كانوا أسلموا يرتدُّون، صدمةً لخبر الإسراء، مع أنه مشوارٌ قريبٌ، كان يمكن أن يقع من أيِّ إنسان؟! فقال أكثر الناس، مستغربين: «**هٰذا، والله، الإمْرُ البيِّن، والله إنَّ العِير لتطرد شهرًا من (مَكَّة) إلى (الشَّام) مُدْبرةً، وشهرًا مُقْبلةً، أ فيذهب ذٰلك محمَّدٌ في ليلةٍ واحدة، ويَرجع إلى مَكَّة؟!**» حتى إن **(أبا بكر الصِّدِّيق)** لم يصدِّق الخبر أوَّل سماعه، بل قال: «**إنكم تكذبون عليه**»، ثمَّ قال: «**لئن كان قاله، لقد صَدَق**». ولكي يتمَّ تصديقه الرسولَ طلب إليه أن يصف له **(بيت المَقْدِس)**، الذي كان خَبِرَه من أسفاره.[1] وهو

---

[1] انظر: ابن هشام، ١: ٣٩٨- ٣٩٩.

ما استحقَّ عليه (**أبو بكرٍ**) لقب «**الصِّدِّيق**». فما الذي كان يستحقُّ عليه لقبه هٰذا بتصديق مثل ذٰلك الإسراء المألوف، من **مكَّة** إلى **السَّراة**؟!

والمؤلِّف يُفضي من هٰذا المهيع إلى أن (**أورشليم**) مغارةٌ في (**غامد**)! وأن (**بيت المَقْدِس**) في **غامد**! وأن **غامدًا**، إذن، هي أرض الإسراء والمِعراج! وعليه، فإن **بيت المَقْدِس** في (**فِلسطين**) ليس ببيتٍ مقدَّسٍ على الإطلاق، لا لليهود، ولا للنصارى، ولا للمسلمين! كلُّ ذٰلك التاريخ من تقديس **بيت المَقْدِس في فِلسطين** لا أصل له، وقد ضلَّ العالَمون جميعًا، المتقدِّمون منهم والمتأخِّرون، وعَمُوا، بمَن فيهم الأنبياء، حتى فَقَّح عيونهم (**أحمد داوود**)! كما أن الصِّراع التاريخي للأديان الثلاثة حول تلك الأرض المقدَّسة، قديمه والحديث، لا أصل له؛ فلا (**القُدْس**) قُدْسٌ ولا الديار ديار!

يا لهٰذا من اكتشافٍ ثوريٍّ.. وإنْ جاء متأخِّرًا جدًّا، بعد آلاف السنين!

٨- التراث وشظايا العقل الخُرافي:

مثلما وجدنا (**الصَّليبيَّ**) يزعم تأييد التراث العَرَبي لمزاعمه- ثُمَّ إذا فحصنا ما زَعَمَ، وقفْنا على الانتقاء والاجتزاء والتعويل على الأساطير والخرافات- نجِد لدَى (**أحمد داوود**). فالمنهاج هو المنهاج، والسبيل هي السبيل، سِوَى أن الأوَّل أراد توطين التاريخ الإسرائيلي في (**عسير**)، والآخَر أراد توطين التاريخ الإسرائيلي في (**سَراة غامد**). إنهما لا يدعان سبيلًا، أو مغارةً تأويليَّة، أو مدَّخَلًا إلَّا التمسا فيه

ما يؤيِّد دعواهما. وهٰذا دليل الإفلاس، وشِعار الشعور بالتعطُّش إلى الدليل بأيِّ طريق، على دعاوَى كبيرةٍ وكثيرةٍ تقوم على فراغ من الدليل. ففي (الفصل الثالث عشر) من كتاب (**داوود**)[1] تقرأ:

«**إن هٰذه الحقيقة** [يعني زعمه أن بني إسرائيل كانوا في (سَراة غامد)] **كانت أمرًا عاديًّا بديهيًّا ومألوفًا في فجر الإسلام وزمن الدولة العَرَبية الكبرى الأُمويَّة والعبَّاسيَّة. ففي تفسير الصافي عن الإمام جعفر الصادق أنه «لمَّا انقضت أيام مُوسَى أوصى الله إليه أن يستودع الألواح جبلًا يقال له (رنيا)، فأتى مُوسَى الجبل فجعل فيه الألواح ملفوفة... فلم تزل في الجبل حتى بعث الله نبيه (ص)، فأقبل ركب من اليَمَن يريدون الرسول، فلمَّا انتهوا إلى الجبل انفرج عن الألواح، وكانت ملفوفة كما وضعها مُوسَى، فأخذها القوم... فلمَّا قدموا على النبي أخرجوها ووضعوها بين يديه، فنظر إليها وقرأها وكانت بالسريانية».**»

هٰذه هي الحقيقة التي كانت أمرًا «**عاديًّا بديهيًّا ومألوفًا في فجر الإسلام وزمن الدولة العَرَبيَّة الكبرى الأموية والعبَّاسيَّة**». لٰكن ماذا نجد حين نعود إلى «**تفسير الصافي**» نفسه، الذي لم يجد (**داوود**) غيره للاستدلال؟

أوَّلًا، ما نجده حكايةً أُسطوريَّة، وغير عقلانيَّة، إنْ كان في الأساطير ما هو عقلانيٌّ، إنَّما أريد بها ادِّعاء عِلْم (**آل البيت**) بكلِّ شيء، بما في ذٰلك عِلْم الغيب. وهي دعوَى غُلاة الشيعة المعروفة، التي لا يُقِرُّها عقلٌ ولا نقل.

---

[1] **العَرَب والسَّاميُّون**، ٢٨٧.

فهي، إذن، كتلك الخرافة التي استند إليها (**الصَّليبيُّ**) في شأن (**الملك داوود**)، الواردة في كتاب «**الإكليل**»، وعرضناها في الفصل الأوَّل. فحين ترجع إلى «**تفسير الصافي**» لا تجد إلَّا خبرًا أُسطوريًّا، اجتزأه (**داوود**) وهذَّبه بطريقته حتى لا ينكشف عواره الذي يُسقِط الاستشهاد به جملةً وتفصيلًا. هٰذا فضلًا عن تضخيم أهميَّة ذٰلك الشاهد بعبارات من قَبيل القول بـ«**بدهيَّته**»، و«**حقيقته**»، و«**عاديَّته**»، و«**مألوفيَّته**» في فجر الإسلام وزمن الدولة العَرَبيَّة الكبرى الأُمويَّة والعبَّاسيَّة. وكثيرًا ما يُلِحُّ على مثل هٰذه العبارات الضخمة في كتابه، محاولًا تثبيت ما يقول وترسيخه في ذهن القارئ، ولو بمثل هٰذه الكلمات الفارغة من المعنى العارية من الدليل المُعْتَدِّ به، من مثل وصفه ما يقول: بـ«**النتيجة الحاسمة**»، و«**الحقائق الثابتة**»، التي «**لا يشك لحظة في صحتها**»، وأنها ممَّا «**لم يعد خافيًا**»، وممَّا قد «**صار معلومًا**» بالضرورة، ونحوها من العبارات النمطيَّة، يكرُّها في كتابه لعلَّه يُثبِّت من خلالها فؤاد القارئ وعقله الشاكِّين المتسائلَين.

ثانيًا، نجد حين نعود إلى «**تفسير الصافي**»، أن المكان الذي أورده (**داوود**)، زاعمًا أن ألواح (**مُوسَى**) كانت فيه، ليس بالاسم الذي ذَكره. فقد ذَكر **داوود** «**جبلًا يقال له (رنيا)**»؛ ليقول إن المقصود: (**جبل رنية**) أو (**وادي رنية**)، لٰكن المكان المذكور في «**تفسير الصافي**» هو: «**جبل يقال له: زينة**»، (بالزاي)!

ثالثًا، الحكاية التي لوَّح بها (**داوود**)، بوصفها الدليل الدامغ على مزاعمه التاريخيَّة،

وعدَّها من الحقائق البدهيَّة، إنَّما جاءت، ككلِّ الأقاصيص من هٰذا النوع، لغرضٍ إديولوجيٍّ، لا يخفَى. فهي تزعم- ناسبةً ذٰلك إلى (**العياشي**) عن (**جعفر الصادق**) في «**الجَفْر**»- أن الله أمر (**مُوسَى**) أن يستودع الألواح، وهي زبرجدة من الجَنَّة، جبلًا يقال له (**زينة**)، فلم تزل في الجبل حتى مبعث (**محمَّد**)، فانفرج الجبل عن الألواح لرَكْبٍ يمانيٍّ إلى الرسول، فهابوها وأخذوها إليه؛ فنزل (**جبريل**) فأخبره خبرهم، فأخرجوها له، فنظر فيها وقرأها، «**وكانت بالعِبْرانيَّة**». وهنا يُلحظ أن (**داوود**) قد غيَّر العبارة، فكتبَ: «**وكانت بالسريانيَّة**»، بدل «**وكانت بالعِبْرانيَّة**»، الواردة في «**تفسير الصافي**»! لماذا؟ لأنه لا يريد الإشارة إلى «**العِبْرانيَّة**» أصلًا؛ فـ(**السريانيَّة**) لديه هي لغة اللغات، لغة (**سُوريَّة**) الكبرى[1]، و(**السَّراة**)، والتاريخ أجمع! وإلَّا فروايته شاهدة عليه؛ إذ أيُّ **سريانيَّة** كانت في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؟!![2] أم أن **مُوسَى** كان يتكلَّم بلغة

---

[1] وقد تجلَّى هٰذا الدافع البَعْثيُّ السُّوريُّ في كتابه الآخر «**تاريخ سُوريا القديم**». ولا مشاحَّة، ما قام الدليل على ما يذهب المؤرِّخ إليه.

[2] على أنها ظهرت مزاعم استشراقيَّة معاصرة تدَّعي أن عَرَب الجزيرة لم تكن لغتُهم العَرَبيَّةَ الفصحى في صدر الإسلام، بل تغلب عليهم (**السريانيَّة**). وقد بلغ بهم الادِّعاء إلى القول إن «**القرآن**» كان **بالسريانيَّة** ثمَّ عُرِّب! كما وردَ لدَى (**كريستوف لوكسِمبِرج**) في كتابه: (**The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran**, (Berlin: Verlag Hans Schiler, 2007). ومزاعم (**أحمد داوود**) تلتقي مع **لوكسِمبِرج**. وفي هٰذا نوعٌ من المصادرة على المطلوب، وهو سَرْيَنَة التاريخ واللغات؛ بدوافع إديولوجيَّة، قوميَّة أو دِينيَّة، وإلَّا فما (**العَرَبيَّة**) وما (**السِّريانيَّة**)؟ إنْ هما إلَّا لغتان ساميَّتان في النهاية، تنحدران من نبعٍ واحد، وطبيعيٌّ أن تظهر بينهما مشترَكاتٌ لغويَّة؛ لأصلهما المشترَك. فمن المغالطة الفاضحة تعليل ما يبدو من ملامح تشابُهٍ بين أبناء عائلةٍ واحدةٍ بالزعم أن أحدهما أصلٌ والآخَر فرعٌ، بالضرورة! بل إنَّ الأقرب إلى منطق التطوُّرِ ←

(السِّريان)، وهو من أبناء **الجزيرة العَرَبيَّة**، كما يزعم **داوود؟!** وللقارئ هنا- على كلِّ حال- أن يقيس مدَى الأمانة العِلميَّة، حتى في النقل من كتابٍ مطبوع. وتمضي تلك الخرافة إلى القول إن الرسول دعا **(عَلِيًّا)**، وأخبره أن الله قد أمره أن يدفعها إليه؛ لأن فيها عِلْم الأوَّلين والآخِرين. ولَمَّا اعتذر **عليٌّ** بعدم إحسانه قراءتها، تدخَّل **جبريل** فأمرَه بحلٍّ بسيطٍ جدًّا، فما عليه سِوَى أن يضعها مخدَّةً تحت رأسه وينام عليها ليلته؛ فإنه ما أن يصبح حتى يكون قد عَلِم قراءتها؛ ففعل فأصبح وقد علَّمه الله كلَّ شيء فيها، فأمر الرسولُ بنَسخها. قال الراوي: «**فنَسخَها في جِلْد، وهو الجَفْر، وفيه عِلْم الأوَّلين والآخِرين، وهو عندنا، والألواح عندنا، وعصا مُوسَى عندنا، ونحن ورثنا النبيِّين أجمعين**»[(١)]**!**

أفإلى مثل هٰذا يستند المؤرِّخ المعاصر؟!

أجل، لقد وردَ من الجهالات بالكون والتاريخ في كُتب التراث العَرَبي ما لا أوَّل له ولا آخِر. فإذا كان الباحث المعاصر سيتكئ على ذٰلك، فأرِّخ ولا حرج! ذٰلك أن أولٰئك القدماء لا عِلْم لهم، بحقيقة ما يعنيه هٰذا المصطلح «عِلْم»، وهم في الوقتِ نفسه لا يتورَّعون عن نقل الخُرافات والأساطير الشعبيَّة على أنها حقائق عِلْمِيَّة، يسردونها في كتب التاريخ والتفسير

اللغويِّ تصوُّرُ أن لغةً ظلَّت معزولةً في صحرائها أحرَى بالمحافظة على النبعِ اللغويِّ الأُمِّ من لغاتٍ شقيقةٍ تعاقبت عليها الأُمَم والحضارات، وتفاعلت بكثافةٍ مع محيطها اللغويِّ العامِّ، القريب منه والبعيد.

(١) انظر: الكاشاني، **التفسير الصافي**، ٢: ١٠٤- ١٠٥.

والمعجمات، دون أن يكلِّفوا أنفسهم السؤالَ عن أصل تلك المرويَّات، وصِحَّتها، ونصيبها من الواقع والطبيعة والعقل. يكفي أنها متوارثة عن السَّلَف، بعنعنات مألوفة، ليحشو أحدهم بها مصنَّفاته. وتلك عقليَّة أولٰئك الذين كانت تُضفَى عليهم صِفة الإمامة والتبحُّر في العِلْم، أيَّام كانت هاتان الصِّفتان لا تعدوان معنى الحِفظ والترديد لمزيج من الحقائق والأباطيل.[1]

رابعًا، إنَّ أسطورة الألواح الموسويَّة التي استند إليها (**أحمد داوود**)، زاعمًا أنه عُثِر عليها في (**جزيرة العَرَب**)، تستثير عددًا من الأسئلة التاريخيَّة الأساسيَّة حول الخطِّ الذي كُتِبت به «**التوراة**»، بل حول لغة (**مُوسَى**)، وهذا ما سنفرده بالمناقشه في الوقفتين التاليتين.

---

[1] من ذٰلك ما سبقت إليه الإشارة ممَّا أورده (**الطبري**) في تاريخه وتفسيره، ولاسيما في شأن «**بدء الخَلْق**». وقد تناثرت شظايا العقل الخرافي في كتب التراث على اختلاف مجالاتها، ومن ذٰلك ما جاء في قِصص الأنبياء والتاريخ وتفسير «**القرآن**». ويكفي مَن شاء أن يعود إلى كتاب كـ«**عرائس المجالس في قصص الأنبياء**»، لـ(**أبي إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم الثعلبي، -٤٢٧هـ**)، أو «**قصص الأنبياء**»، لـ(**محمّد بن عبدالله الكسائي، ق١١م**)، ليجد من ذٰلك العجب العُجاب في قِصصٍ كقصص «**ألف ليلة وليلة**»، كانت تجارةَ القُصَّاص منذ العصر الأُموي، ومعظمها من الإسرائيليَّات، التي ما يفتؤون ينسبونها إلى (**كعب الأحبار**) أو (**وَهْب بن مُنبِّه**)، وأحيانًا إلى (**ابن عبَّاس**). وقد غلا السلَف في هٰذا الأخير غُلوًّا عظيمًا، حتى صاروا يستسيغون أن ينسبوا إليه من غرائب الغيب ما لم يَرِد في كتابٍ قطُّ ولم يأتِ عن رسول. مع أن الرسول توفي و**ابن عبَّاس** طفل، لم يبلغ الحُلم. وإنما أصل تلك الأَسْطَرَة لشخصيَّته الدعايةُ السياسيَّةُ العبَّاسيَّة، كما كان أصل الأَسْطَرَة لشخصيَّته (**عليٍّ**) الدعاية العَلويَّة. وما أكثر ما يرثُ الخلفُ السياساتِ على أنها أديان! من نماذج تلك المؤتفَكات– على سبيل الشاهد– قولهم إن (**قافًا**) جبلٌ محيطٌ بالأرض، مخلوقٌ من ياقوتةٍ خَضْراء، وإن السماء كانت بيضاء، وإنما اخضرَّت من خُضْرة جبل **قاف**. وبهٰذا فسَّر بعضهم كلمة «**قاف**» المستهلَّة بها «**سورة ق**»! (انظر: الطبري، **تفسير الطبري**، ١١: ٤٠١؛ الكسائي، **قصص الأنبياء**، ١: ٩؛ الفراهيدي، (عمد)؛ الأزهري، (حقف)؛ ابن سيده، **المحكم**، (قوف)؛ الصَّغاني، (حقف)؛ ابن منظور؛ الزَّبيدي، (قوف)، وغيرهم).

٩- «التوراة» في ضوء تاريخ الكتابة:

متى عاش (**مُوسَى**)؟

وأيُّ خطٍّ كان في العالم أجمع في عهده؟

أكانت في عصر **مُوسَى** كتابةٌ عِبريَّةٌ أو سريانيَّةٌ أصلًا؟

إنَّ تعامل الباحث هنا هو مع التاريخ، ولتاريخ نشوء الكتابة في العالم مسارٌ معروف. وفَنُّ الكتابة في عصر (**مُوسَى**) كان إمَّا الكتابة التصويريَّة، وإمَّا الكتابة المقطعيَّة، وربما الكتابة الحروفيَّة الأبجديَّة. الأُولَى هي الهيروغليفيَّة التصويريَّة المِصْريَّة، والثانية المسماريَّة المقطعيَّة العِراقيَّة، والثالثة الأبجديَّة، التي كانت قبل القرن العاشر قبل الميلاد في بداياتها، وبالفينيقيَّة غالبًا، وهي محدودة الاستعمال، وفي الأغراض التجاريَّة أكثر من أيِّ مجالٍ آخَر. وكانت قد نشأت الأبجديَّةُ الفينيقيَّةُ قُبيل القرن العاشر قبل الميلاد، في مدينة (**جبيل/ بيبلوس**) اللبنانيَّة، الواقعة على ساحل المتوسِّط بين (**بيروت**) جَنوبًا و(**طرابلس**) شَمالًا.[1] فكانت

---

[1] (**الفينيقيُّون**) عَرَبٌ، هاجروا من جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، أو، بالأحرى، من جَنوبها إلى شَرقها ثمَّ إلى شَمالها. وللقارئ أن يجد في أسماء المواضع إشارات- معضَّدة بالتاريخ هاهنا، لا بمحض التأوُّل- إلى خريطة تلك الهجرات الفينيقيَّة. ومن ذٰلك أن (**الجُبَيْل**) ما زال اسمًا لإحدى المُدن السُّعويَّة المُطِلَّة على (**الخليج العَرَبي**)، و(**صُوْر**)، كذٰلك، وِلايةٌ في شَرقيِّ (**سلطنة عُمان**). وإلى هٰذا، فإن بعض الآثار المكتشفة تأتي مؤكِّدةً أنَّ **الفينيقيِّين** استوطنوا سواحل **الخليج العَرَبي** قبل هجرتهم إلى سواحل (**البحر الأبيض المتوسِّط**). ويشير (**هيرودوت**) إلى أن الموطن الأصليَّ **للفينيقيِّين** شواطئ (**البحر الإريتيري، أي الخليج العَرَبي**)، كما كان يسمِّيه أحيانًا، بوصفه امتدادًا لمياه ما يُسمِّيه **البحر الإريتيري**، ويعني به ما يُعرَف اليوم بـ(**بحر العَرَب**). (See: Herodotus, Book 1, Chap. 1). ومن الملحوظ المماهاةُ أحيانًا بين **الفينيقيِّين** ←

فتحًا حضاريًّا، اقتبسته الثقافات الكتابيَّة شَرقًا وغَربًا.[1]

تلك هي الضروب الثلاثة من الكتابة التي كانت متاحة في العالم خلال الحقبة التي عاش فيها (**مُوسَى**)، أو قُل خلال القرن ١٣ و١٤ ق.م.

فأيُّ كتابةٍ عِبريَّة، وأيُّ سِريانيَّة، كانت في عصر (**مُوسَى**)؟!

و(**الكنعانيِّين**)، وكأنها شعبٌ واحد، أو حضارةٌ واحدة. لأن تسمية **الفينيقيِّين** هي التسمية اليونانيَّة للمُدن الكنعانيَّة الساحليَّة: (**فينيقيا**)، التي كانت تحترف الصناعة والتجارة الخارجيَّة. (انظر: سوسة، ١٩). لذٰلك نجد (ولفنسون، **تاريخ اللغات الساميَّة**، ٥٢) ينسب اختراع الكتابة الألفبائيَّة إلى **الكنعانيِّين**، كما يُسمِّي (**مازيل**) كتابه: «**تاريخ الحضارة الفينيقيَّة (الكنعانيَّة)**». وللتفصيل عن (**الفينيقيَّة**) و**الفينيقيِّين** يمكن الرجوع إلى هٰذا الكتاب الأخير.

[1] لم تنشأ الكتابة الألفبائيَّة منفصلةً عن أصولها التصويريَّة القديمة، غير أنها أصبحت أكثر اختزالًا وتجريدًا؛ فتلحظ مثلًا علاقة بعض الحروف العربيَّة، في أشكالها ومعانيها، بأصلٍ تصويريٍّ قديم، كان في ذهن مبتكر الحرف، من مثل (الباء) في دلالة شكله ومعناه على صورة: بَيْت، أو علاقة الكاف بـ: كفّ، أو العَين بـ: عَين، وهٰكذا. بيد أن تطوُّر الرسم عبر العصور قد باعد ما بين ملامح هٰذا الأصل، العربيِّ أو السَّاميِّ، وشكله المرسوم. ثمَّ حدثَ بعد الإسلام أن أُجريت تحسينات كثيرة على الحرف العربي، وأضيفت إضافات، زادت الشُّقَّة اتساعًا بين شكل الحرف وأصله التصويري. ثمَّ تحوَّل رسم الحرف العربيِّ إلى فنٍّ تشكيليٍّ قائمٍ بذاته، فابتعد أكثر فأكثر عن أصله التصويريِّ العتيق، ليبدو محض رمزٍ تجريديٍّ للصوت اللغوي. وفي الوقت نفسه، يُلحظ أن الكتابة (**الهيروغليفيَّة**) لم تكن بلغةٍ تصويريَّةٍ صِرف، ولا بغافلةٍ عن فائدة الألفبائيَّة الحروفيَّة، لٰكنها، فيما يبدو، كانت تطمح إلى أمرَين إضافيَّين: ابتكار كتابةٍ أكثر تطوُّرًا، أبجديَّةٍ وتصويريَّةٍ معًا، بحيث تُوفِّر قَدرًا من الاختزال، بجعل حرفَين أو أكثر في رمزٍ واحد، ومن ناحيةٍ أخرى أنْ تُوفِّر قَدرًا من الوسائل الإيضاحيَّة؛ كي يخمِّن المتلقِّي المعنى من خلال الصورة، وإنْ لم يعرف اللغة أو يعرف القراءة، من خلال ما كانوا يضيفونه من صُوَرٍ إيضاحيَّةٍ في نهاية الكلمات، اصطُلِح عليها بـ«المخصِّصات»؛ لتحديد ما إذا كانت الكلمة تشير إلى رجلٍ أو امرأة، أو إلى معنويٍّ أو حسِّي، أو لها علاقة بطائر، أو بمركبٍ بحريٍّ، إلى غير ذٰلك من الوظائف الإيضاحيَّة الكثيرة التي يتوخَّونها. لٰكن هٰذا الخليط المعقَّد قد حال دون نجاح **الهيروغليفيَّة** في ما نجحت فيه **الفينيقيَّة** من انتشار، فضلًا عن نجاحها في تحقيق طموحها التعبيريِّ المتجاوز للرمزيَّة الحرفيَّة المجرَّدة. (يمكن للمهتم متابعةُ بعض الشروح حول الكتابة الهيروغليفيَّة بالبحث عن مادتها في موقع «اليوتيوب»).

بل أيُّ كتابةٍ أو قراءةٍ كانت في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) في عصر (**مُوسَى**)؟!

إن القفز على هٰذه الحقائق قفزٌ على العِلْم والتاريخ إلى ضروب من الأساطير المجَّانيَّة. وبذا، فإننا حين نتأمَّل في تاريخ كتابة «**التوراة**»، يتبدَّى جليًّا عَوَارُ أيِّ فرضيَّة لتاريخ (**بني إسرائيل**) في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) بالنظر إلى تأمُّل ما يأتي:

بأيِّ فنٍّ كتابيٍّ كان يكتب (**مُوسَى**) أو يقرأ؟

أ بالمسماريَّة المقطعيَّة العِراقيَّة؟

أم بالهيروغليفيَّة التصويريَّة المِصْريَّة؟

أم بالأبجديَّة ؟

أمَّا المسماريَّة، فبَعيدة الاحتمال جِدًّا في استعمال (**مُوسَى**) و(**بني إسرائيل**) في ذٰلك الطَّور المبكِّر، القرن ١٤ و١٣ قبل االميلاد. واحتمال الكتابة بالأبجديَّة الرمزيَّة الحروفيَّة يبدو أبعد من المسماريَّة؛ لتأخُّر نشوئها المعروف قياسًا إلى عصر (**مُوسَى**) أو انتشارها. وعلى افتراض أنها قد عُرِفت في عصره، فلا بُدَّ أنها كانت نادرةً جدًّا ومحدودة الأغراض.[1] فإنْ كانت من كتابةٍ في **بني إسرائيل** إذ ذاك،

---

(1) عُثِر على ألفبائيَّتين بدائيَّتَين، بسيطتَين ومحدودتَي الانتشار، تعودان إلى بضعة قرون قبل الألفبائيَّة الفينيقيَّة، هما (**كتابة طُور سيناء**)، والكتابة (**الأوغاريتيَّة**). الأُولى بالكنعانيَّة القديمة، عُثِر عليها في (**شِبه جزيرة سيناء**)، في (**سرابيط الخادم**)، اختُلِف في تاريخها، فهناك مَن أعادها إلى القرن ١٩ق.م، ومَن لا يراها تتعدَّى في قِدَمها القرن ١٥ق.م. كما عُثِر على هٰذا النمط من الكتابة في بعض أماكن من جَنوب (**فِلسطين**). أمَّا **الأوغاريتيَّة**، فبالكنعانيَّة القديمة أيضًا، وعُثِرَ عليها في تل (**رأس شمرة**)، على ساحل (**البحر الأبيض المتوسِّط**)، شَمال (**اللَّاذقيَّة**)، في (**سُوريَّة**). وتعود إلى القرن ١٥ أو ١٤ق.م. وهي كتابة ←

فبالكتابة التصويريَّة المِصْريَّة. و«**التوراة**» تشير إلى أن وسيلة ذٰلك كانت النقش على الحجر.[1]

ومؤدَّى ذٰلك أن الاعتماد الأكبر كان بالضرورة على الحِفظ والترديد، بحسب الثقافة الشفاهيَّة البدائيَّة. ومن هنا كان لا بُدَّ من النَّظم الموسيقي، والإنشاد الشِّعري، والمزامير والغناء، في ذٰلك الجيل وما تلاه. ومثالب الذاكرة الشفاهيَّة، والرواية السماعيَّة، وآليَّات عملهما- القابلة للخلط والنسيان، والإضافة والنقصان، وترديد الصِّيَغ الجاهزة- أمورٌ يعرفها ذوو الاختصاص.[2] وهي إلى ذٰلك آليَّةٌ جماعيَّةٌ، تذوب فيها الفرديَّة غالبًا في اللسان الجمعي. ولها تأثيراتها في أنماط الوعي والتفكير والتعبير، المنعكسة بِدَورها على مخرجات هٰذه الثقافة الشفاهيَّة بشتَّى حقولها وأشكالها. ولذا كانت عوامل الاضطراب متضافرةً جدًّا، وأسباب الضياع كثيرة، وطُرق التناقض واردة، وبخاصَّة مع عدم الاستقرار، والكوارث التي تتالت على (**بني إسرائيل**). أمَّا تلك الأسفار المسطورة في مجلَّدها الضخم، فنتاج قرون لاحقة من التدوين التاريخي الجماعي، تمخَّضت عن معظمه سِنِيُّ السَّبي البابليِّ وما أعقبته من ذكريات، كانت ترتبك بها

تستعمل المسماريَّة في شكل الحروف، وإنْ لم تكن مسماريَّةً مقطعيَّة. (انظر: سوسة، ١٣٠- ١٣٣، ٤٦١). غير أن هاتين الألفبائيَّتَين البدائيَّتَين المحدودتَين لم تحظيا بالانتشار كالألفبائيَّة الفينيقيَّة. وبذا فإن استعمال (**كتابة طور سيناء**) في تدوين «**التوراة**» ربما عُدَّ محتملًا، وإنْ كان استعمالهم الكتابة التي جاؤوا من بيئتها، وهي (**الهيروغليفيَّة**)، يظلُّ الأرجح. أمَّا **الأوغاريتيَّة** فاستعمالهم إيَّاها بعيد الاحتمال جِدًّا.

[1] انظر: **سِفر الخُروج**، ٢٤: ١٢.

[2] يُنظر في هٰذا مثلًا: (**Lord, The Singer of Tales**؛ أونج، **الشفاهيَّة والكتابيَّة**).

الأقلام والأساليب بين كاتب وكاتب. وإليك مثالٌ على ارتباك الأسلوب، الدالِّ على تعدُّد الكَتَبَة، وترقيع النصِّ من واحدٍ إلى آخر. نقرأ في (**سِفر الخروج**، ٤: ٢١- ٢٦)، ما يأتي:

> **«وقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «عِنْدَمَا تَذْهَبُ لِتَرْجعَ إِلَى مِصْرَ، انْظُرْ جَمِيعَ العَجَائِبِ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِي يَدِكَ واصْنَعْهَا قُدَّامَ فِرْعَوْنَ. ولٰكِنِّي أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّى لَا يُطْلِقَ الشَّعْبَ. فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هٰكذا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي البِكْرُ. فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ البِكْرَ». وحَدَثَ فِي الطَّرِيقِ فِي المَنْزِلِ أَنَّ الرَّبَّ التَقَاهُ وطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَهُ. فَأَخَذَتْ صَفُّورَةُ صَوَّانَةً وقَطَعَتْ غُرْلَةَ ابْنِهَا ومَسَّتْ رِجْلَيْهِ. فَقَالَتْ: «إِنَّكَ عَرِيسُ دَمٍ لِي». فَانْفَكَّ عَنْهُ. حِينَئِذٍ قَالَتْ: «عَرِيسُ دَمٍ مِنْ أَجْلِ الخِتَانِ».»**

فمَن الذي التقاه الربُّ؟ وطلبَ ممَّن؟ وأَنْ يَقتل مَن؟

شُرَّاح «**التوراة**» يقولون: إن المطلوب قتله هو (**مُوسَى**)!

لماذا؟! مع أن الربَّ كان مذ قليلٍ قد وجَّهه إلى (**مِصْر**) لدعوة (**فرعون**) لإطلاق سراح (**بني إسرائيل**) للخروج معه، وهو في طريقه لتنفيذ الأوامر؟!

لأن (**مُوسَى**) لم يختِن ابنه؛ فبادرت امرأته (**صَفُّورَة**) إلى إنقاذ الموقف «الانقلابي» بين **مُوسَى** وربِّه، بختان الطفل، واسترضت بدمه **مُوسَى** وربَّه معًا! ذٰلك أنه سبق في (**الإصحاح الثاني**: ٢١- ٢٢) من هٰذا السِّفر، عن كاهن (**مَدْيَن**): «**فَأَعْطَى مُوسَى صَفُّورَةَ ابْنَتَهُ. فَوَلَدَتِ ابْنًا فَدَعَا اسْمَهُ (جَرْشُوم).**»

فانظر إلى هٰذا المضطرب العجيب، مبنىً ومعنًى! ونظائر هٰذا متنوِّعة.

إنَّ مسألة الكتابة مسألة مهمَّة، إذن، في سَبر إمكانيَّة أن يكون (**بنو إسرائيل**) قد عاشوا في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) أصلًا. إذ هل كانت هناك لغة مكتوبة في **الجزيرة العَرَبيَّة** في عصر (**مُوسَى**)، من أيِّ نوع؟

مع التسليم بالمتواتر، وبالمذكور في «**التوراة**» و«**القرآن**» من أن (**مُوسَى**) كان يقرأ ويكتب، بل إنها قد جاءته الألواح مكتوبة جاهزة، لا بُدَّ من السؤال: بأيِّ خطٍّ كُتبتْ؟

كانت الكتابة عصرئذٍ، في (**بلاد الرافدَين**) وفي (**مِصْر**)، على الصخر، وألواح الطِّين، والخشب، ورقائق البَرْدِي. فلا عِبريَّة كان لها خطٌّ في ذٰلك الزمن ولا عَرَبيَّة، وإنما نشأت خطوط هاتين اللغتين بعدئذٍ، وتطوَّرت تدريجيًّا، وببطء شديد على مدَى قرون.

وبناءً على ما تقدَّم، رجَّحنا أن كتابة (**بني إسرائيل**) كانت بالهيروغليفيَّة المِصْريَّة، التي تمثِّل ثقافة البيئة الأُمِّ إبَّان إقامة القوم في (**مِصْر**). وما عَثَرَ عاثر، ولا سمعَ سامع، أن الهيروغليفيَّة كان لها وجود في (**عسير**) أو (**جبال السَّراة**)، أو غيرهما من جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) ، على مدَى التاريخ. وعليه، لا مناص من أن نبحث عن «**توراة**» أخرى تتفق مع السياقات الثقافيَّة والحضاريَّة والتاريخيَّة التي كانت قائمة في **الجزيرة العَرَبيَّة** قبل الألف الأول قبل الميلاد بقرون. وحتى نعثر على تلك «**التوراة**» الخاصَّة المناسبة للسياقات الثقافيَّة والحضاريَّة والتاريخيَّة التي

كانت قائمة في **الجزيرة العَرَبيَّة** قبل الألف الأول قبل الميلاد بقرون، يبقى القول بنقل البيئة الكتابيَّة **للتوراة** المعروفة، من (**مِصْر**) و(**الشَّام**) و(**العِراق**) إلى (**جزيرة العَرَب**)، ضربًا من الهرطقة الرومانسيَّة، معرفيًّا وتاريخيًّا، نربأ بالبحث العِلْمي عنها. أمَّا الاكتفاء بمقارنة أسماء الأماكن، فما أسهله من مركب!

من هنا يلزم وضعُ المزاعمِ كافَّةً الذاهبةِ إلى أنه عُثِر في مكانٍ ما على نسخةٍ من توراة (**مُوسَى**)- ومنها الزعم الذي استند إليه (**أحمد داوود**)- في ضوء الحقائق التاريخيَّة لمراحل الكتابة، نشوءًا وارتقاءً في العالم.[١] فإنْ كانت **لمُوسَى** من توراة مكتوبة، فلا بُدَّ أنها كانت بسيطةً جِدًّا، ومحدودةً، ومعتمدةً على التصوير الهيروغليفي. والقارئ يعلم- حتى من خلال القصص التوراتي والقرآني- بدائيَّة الأدوات الكتابيَّة إذ ذاك، وأن **مُوسَى** كان يعتمد في الكتابة على الألواح الحجريَّة. وأنه حين نزل من الجبل، في أعقاب عِلمه باتِّخاذ قومه العِجْلَ معبودًا، ألقى الألواح من يدَيه وكسَّرهما في أسفل الجبل.[٢] وكان معه: «**لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ على جَانِبَيْهِمَا، مِنْ هُنَا ومِنْ هُنَا... واللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ، والكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى اللَّوْحَيْن.**»[٣] وهما من حجارة، كما في نصِّ «**التوراة**»[٤]: «**اصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الجَبَلِ،**

---

[١] ولعلَّ من هٰذا ما روي في عهد المَلِك (**يُوشِيَّا بن آمون**)، ملك (**يهوذا**)، الذي حكمَ نحو ٦٣٨ق.م، من زعْم (**حِلْقِيَّا**)، الكاهن الأكبر، أنه قد وجد فجأةً سِفر الشَّريعة في بيت الرَّب. (انظر: **سِفر الملوك الثاني**، ٢٢).

[٢] انظر: **سِفر الخُروج**، ٣٢: ١٩.

[٣] م.ن، ١٥- ١٦.

[٤] م.ن، ٢٤: ١٢.

وكُنْ هُنَاكَ، فَأُعْطِيَكَ لَوْحَيِ الحِجَارَةِ والشَّرِيعَةِ والوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتَعْلِيمِهِمْ.»

وكانا: «**لَوْحَيْ حَجَرٍ مَكْتُوبَيْنِ بِإِصْبعِ اللهِ!**»[1]

فكيف بما كان من صنعة البَشَر، وما كان مكتوبًا بأصابعهم الهزيلة؟!

١٠- منطق التاريخ ولغة مُوسَى:

من الأسئلة التاريخيَّة الأساسيَّة التي تستثيرها أسطورة الألواح الموسويَّة التي استند إليها (**أحمد داوود**)، زاعمًا أنه عُثِر عليها في (**جزيرة العَرَب**)، ما هو أبعد من شؤون الكتابة، التي حلَّلناها آنفًا، وهو السؤال حول اللغة:

ما لغة (**مُوسَى**)؟

العِبرانيَّة؟ أم السريانيَّة؟

وأيُّ عِبرانيَّة أو سريانيَّة كانت في (**مِصْر**)؟

إن من الغفلة المطبقة أن نتصوَّر أن إنسانًا وُلِدَ في (**مِصْر**)، وعاش فيها آباؤه من قَبل أجيالًا، وتربَّى في قصر (**فِرعون**)، وشبَّ وشابَ بين المِصْريِّين، ثمَّ نتخيَّل أن لغته كانت العِبرانيَّة أو السريانيَّة! بل هو بالضرورة مِصْريُّ الثقافة واللسان.

إن منطق التاريخ قائل: إن لغة العِبرانيِّين إنَّما كانت لُغة الرُّعاة الذين عَبَروا (**الفُرات**) من (**العِراق**) إلى (**الشَّام**). وإن تلك اللغة قد جاورت الكنعانيَّة، لغة

---

[1] م.ن، ٣١: ١٨.

أبناء **الشَّام** الأصليِّين، حين أقام العبرانيُّون بين ظَهرانيهم، وافدين، **ثمَّ** مستجيرين، ثمَّ محتلِّين. وبمنطق الحضارات واللغات، فلا بُدَّ أن لُغة الغالب كانت هي السائدة. وأن بقاء لغة العِبرانيِّين، إنْ بقيتْ، كان في ظِلِّ الكنعانيَّة، ثمَّ إلى جوارها بعد أن أصبح لـ(**بني إسرائيل**) شأن. ثمَّ لَمَّا أنْ هبط **بنو إسرائيل** إلى (**مِصْر**)، ونشأت أجيال وأجيال هناك، لا بُدَّ أن لُغة الغالب كانت هي السائدة كذٰلك، وأن لغة العِبرانيِّين- إنْ كانت قد بقيت لها باقيَّة لعاملٍ دِينيٍّ موروث- عاشت في ظِلِّ اللغة المِصْريَّة، إلى أن خرج **بنو إسرائيل** ومَن تَبِعهم من أرض **مِصْر**. ومن المتصوَّر أن **بني إسرائيل** أحيَوا لُغة آبائهم بعد عودتهم لاستيطان (**فِلسطين**). ومن المتصوَّر هنا أيضًا أنها قد أصبحت لغةً ضعيفة بالية، بعد ذٰلك التاريخ الطويل من التشرذم والهجرات بين الأقطار والشعوب واللغات، وصار حافظها الوحيد من الزوال هو عامل التراث الدِّيني. حتى إن أستاذ لغات الشَّرق الأدنَى، في جامعة (**ميشيغان**) الأميركيَّة، (**جورج مندلهل** George Emery Mandelhall، -٢٠١٦)، يذهب إلى أن لغة اليهود في عهد المَلِكَين (**داوود**) و(**سُلَيمان**) ظلَّت اللغة **الكنعانيَّة**.[١] وقد سبقت إشارة (**إشعياء**) إلى مثل ذٰلك، وأن ما سُمِّي «**العِبريَّة**» إنما كان لغة (**كنعان**).[٢] هٰذا بنقيض ما يذهب إليه، مثلًا، (**أبو ذؤيب إسرائيل ولفنسون**)- أستاذ الساميَّات بـ(**دار العلوم المِصْريَّة**) في بدايات القرن العشرين- الذي يلعب،

---

(١) انظر: سوسة، ٢٢٥.

(٢) انظر: **سِفر إشعياء**، ١٩: ١٨.

في رسالته للدكتوراه[١]، لُعبة سياسيَّة مقابلة للُعبة (**أحمد داوود**)؛ إذ-- كما نحَّى **داوود** (**العِبرانيَّة**) و(**العِبريَّة**)[٢] جانبًا ليُحِلَّ محلَّها السريانيَّة في ديار **الشَّام** و**العِراق**، بل في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) أيضًا-- ذهب **ولفنسون** إلى أن العِبريَّة كانت «شائعة» قبل نشوء **بني إسرائيل**، فكانت لغة **فِلسطين**، و(**طُور سيناء**)، وشَرق (**الأردن**)، وأطراف (**الحِجاز**)، قبل أن تزاحمها الآراميَّة.[٣] والحقُّ أنَّ هٰذه «شائعة» لغويَّة بالفعل، ولأسباب لا تخفَى؛ لأن مِن لازِم القول بشُيوع لُغةٍ القولَ بالحقِّ التاريخي لناطقيها في الأرض التي شاعت فيها، وهو المراد بثِّه وتثبيته.

وهٰكذا تتبدَّى الدوافع السياسيَّة، معلَنَةً أو مضمَرة، وراء كثيرٍ ممَّا تُدبَّج به الكُتب باسم العِلْم والتاريخ، هنا وهناك. وذٰلك لنقل الأرض والصراع، أو لتوسيعهما، أو للتبرُّؤ من التَّبِعات التاريخيَّة والأخلاقيَّة، وقذفها إلى جهة أخرى. ولسنا، في المقابل، ننطلق من منطلقات دفاعيَّة، وإنَّما غايتنا أن نناقش مناهج الاستدلال، مطالِبين بالبراهين العِلْميَّة، التي يُعتدُّ بها، والتي تتكافأ مع تلك الدعاوَى الكُبرى لقلب التاريخ والجغرافيا رأسًا على عقب. فإذا تماثل هٰؤلاء المؤلِّفون- من أتباع المدرسة «الكماليَّة الصَّليبيَّة»- إلى الشفاء من إديولوجيَّاتهم

---

[١] أعدَّها بإشراف (**طٰه حسين**) في (**الجامعة المِصْريَّة**)، ١٩٢٧، بعنوان «**تاريخ اليهود في بلاد العَرَب في الجاهليَّة وصدر الإسلام**».

[٢] قد نرى التفريق بين مفهوم (**العِبرانيَّة**) و(**العِبريَّة**)، على أساس أن الأُولى اللُّغة القديمة للعِبرانيِّين الذين ترحَّلوا من (**العِراق**) إلى بلاد (**الشَّام**)، والأخرى اللغة التي تبلورت في الطور المتأخِّر، بعد عودة المُوسَويِّين من (**مِصْر**) والاستقرار في (**فِلسطين**).

[٣] انظر: ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العَرَب**، ز، ح.

وقُطريَّاتهم، وطَرحوا طرحًا عِلْميًّا يُثبِت ما يزعمون، فالتاريخ حقٌّ، متى صحَّ، لا سبيل إلى تغييره.

وعودًا على بدء، فقد رأينا تهافت الدليل التاريخي الذي لم يجد **(داوود)** في جعبته أدمغَ منه ليُثبت دعواه الكُبرى، ساعيًا إلى دحض ما يسمِّيه الأكاذيب الصهيونيَّة العالميَّة! أفئن أراد أن يدحض التزوير الصهيوني، يبيح لنفسه اتِّخاذ الطريق نفسه؟ فيدحض تزويرًا بتزويرٍ شبيه؟! أوكان يقتضي إنكاره تسمية **(بلاد الشَّام)** بأرض **(كنعان)** البحث عن تلك الأرض في موطنٍ بديلٍ وبلا دليل، فقط ليُبعدها عن **(فِلسطين)**، ثمَّ لا برهان له على ما يزعم إلَّا الظن؟! ولقد رأينا ظنون **(الصَّليبي)** من قبل تهوي به جَنوبًا إلى **(عسير)**، حتى جاءنا **داوود** لينقلها شَمالًا إلى **(سَراة غامد)**! كأنما الهدف لديهما ليس إلَّا إبعاد **(بني إسرائيل)** وتاريخهم عن **بلاد الشَّام** بأيِّ ثمن، ثمَّ الدفاع عمَّا يُطلِق عليه **داوود** «**سُوريا الطبيعيَّة**»، التي تشمل عنده بلدان **الشَّام** و**العِراق** وغيرهما. فلا لهٰذا دليل يتكافأ مع دعواه ولا لذاك، وإلَّا فلو حضر الدليل، لانتهى تخبطهما جَنوبًا وشَمالًا.

١١- حزقيال وأوهام المؤرِّخين في قراءة النصوص:

إنَّ ما خاض فيه هٰؤلاء المؤلِّفون المعاصرون ما كان من مندوحة للخوض فيه بالفرضيَّات، ولا بتهويمات الخيال؛ من حيث تعلُّقه، موضوعيًّا، بما لا أدلَّة على نقيضه، وهو مؤيَّدٌ بمستقِرِّ التاريخ، ومتواتر النصوص، وسائد التراث. ولأنه

بعدئذٍ بالغ الخطورة فيما يترتَّب على المساس به من تبعات. أفكانوا على مقدار المسؤوليَّة في مواجهة نتائج ما يطرحون؟ أم غلب الهوس الجدلي القومي، والشغف بالضوء الإعلامي، والإثارة الخِلافيَّة، على إحقاق الحقِّ بما يستأهله من أدلَّةٍ وشواهد، تتكافأ مع حجمه ومعناه، ودحض الباطل بما يُبطِله من بيِّنات؟

لقد رأينا كيف أن (**أحمد داوود**) و(**كمال الصَّليبي**) لا يكتفيان بتأويل «**التوراة**»، للزعم أن إشاراتها كانت إلى مواضع في (**جزيرة العَرَب**)، بل يُردفانه بباطل آخَر، هو نسبتهم ذٰلك الاعتقاد إلى التراث العَرَبي. ورأينا كيف أن (**داوود**) يشفع الأمر بمحاولة تأويل «**القرآن**» أيضًا، كي تكتمل دائرة التلفيق. كأنه لا يقرأ «**القرآن**» ليعرف أن إشاراته لا تواتيه للاستدلال به، وإنْ تأويلًا، بما يقتضيه الاستدلال الصحيح والتأويل، بل هي متضافرة الظاهر في نسبة تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى (**الشَّام**)، و(**مِصْر وادي النِّيْل**)، و(**سيناء**)! كأنه لا يقرأ الآيات: ﴿**والتِّينِ والزَّيْتُونِ، وطُورِ سِينِينَ، وهَـٰذَا البَلَدِ الأَمِينِ**﴾[1]، وما تنطوي عليه من إشارات إلى الديار المقدَّسة في (**فِلسطين**) و(**سيناء**)، يُقسَم بها، وبنباتها وثمارها، في موازاة (**مكَّة**). أم لعلَّه يعتقد أن القَسَم بـ«**التِّينِ والزَّيْتُونِ، وطُورِ سِينِينَ**» قَسَمٌ بـ(**بلاد غامد**)؟! وكأنه لا يقرأ الآيات الأخرى الكثيرة، التي تؤكِّد ذٰلك، مثل:

---

[1] سورة التين: الآيات ١ – ٣.

﴿ونَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا.﴾[1]

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ، ووَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ، ونَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الـمَنَّ والسَّلْوَىٰ.﴾[2]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ، وسَارَ بِأَهْلِهِ، آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، قَالَ لِأَهْلِهِ: امْكُثُوا، إِنِّي آنَسْتُ نَارًا؛ لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.﴾[3]

﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ، ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ، واذْكُرُوا مَا فِيهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.﴾[4]

﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ، ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ، واسْمَعُوا، قَالُوا: سَمِعْنَا وعَصَيْنَا، وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ: بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ، إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ.﴾[5]

﴿ورَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ، وقُلْنَا لَهُمُ: ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا، وقُلْنَا لَهُمْ: لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ، وأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا.﴾[6]

﴿وإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ، كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ، واذْكُرُوا مَا فِيهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.﴾[7]

وفيها إشارات بيِّنات إلى منطقة (**سيناء**)، وجبل (**الطُّور**)، الذي أقسم الله به في آية

---

[1] **سورة مَرْيَم**: الآية ٥٢.

[2] **سورة طٰه**: الآية ٨٠.

[3] **سورة القَصص**: الآية ٢٩.

[4] **سورة البقرة**: الآية ٦٣.

[5] م.ن: الآية ٩٣.

[6] **سورة النساء**: الآية ١٥٤.

[7] **سورة الأعراف**: الآية ١٧١.

أخرى، من سُورة باسم «**الطُّور**»: ﴿**والطُّورِ، وكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنشُورٍ، والبَيْتِ المَعْمُورِ**﴾[1]. ويأتيك من بعد هٰذا المؤلِّفُ واثقًا برؤاه، زاعمًا أن (**أورشليم**) كانت في (**بلاد غامد**)، وأن تاريخ (**إسرائيل**) كان في (**السَّراة**)، بل مدَّعيًا أن ذٰلك كان مستقِرًّا في الذاكرة المعرفيَّة التراثيَّة العَرَبيَّة. ثمَّ يسعَى إلى أن يؤيِّد زعمه بـ«**القرآن**»، حتى إنه ليذهب إلى أن إسراء النبي إنَّما كان إلى (**جبال السَّرَوات**)؛ لأن ثمَّة (**بيت المَقْدس**) و(**المسجد الأقصى**) و(**الأرض المباركة**) وتاريخ الأنبياء المذكورين من (**بني إسرائيل**)! ما يُزلف من دليلٍ على ما تَولَّى سِوَى دليلٍ واحد، باهر حقًّا، هو أن كلمة «**أسرى**» تعني- بحسب فهمه- «**اتَّجهَ إلى سَراة جبال غامد**»! وهو ما سبق تفنيدنا إيَّاه بما لا نزيد عليه.

وإلى هٰذا يستند (**داوود**) إلى (**سِفر حزقيال**)، ليقول أيضًا: إن وصف (**بيت المَقْدِس/ أورشليم**) لا ينطبق على **بيت المَقْدِس** في (**فِلسطين**)، بل هو في (**غامد**)! وإنْ تَعْجَبْ، فعَجَبٌ استدلال مؤرِّخ بلغة الأحلام والرؤى والخيال على حقائق التاريخ والجغرافيا! ولكن ما العَجب في هٰذا ممَّن رأيناه يستدلُّ بالأساطير، كتلك الواردة في «**تفسير الصافي**»، لـ(**الكاشاني**). ولو كان يستأنس بهٰذا وذاك على ما قد يسوغ الاستئناس به عليه، لهان الأمر، لكنه يستدلُّ به على ما يتوخَّى فيه قلبَ التاريخ الإنساني المتواتر مع المستقرِّ الجغرافي في التراث المعرفي. أتراه غافلًا أم متغافلًا عن أن **سِفر حزقيال** سِفرٌ خياليٌّ أُسطوريٌّ، مبنًى ومعنًى؟ وأنه في طبيعته النصوصيَّة نصٌّ

[1] سورة **الطُّور**: الآيات ١- ٤.

خياليٌّ، بل محض أحلامٍ طوباويَّةٍ، تُراود مسبيِّين بالعودة إلى أرضهم المقدَّسة.

فمن (**حزقيال**)؟

(**حزقيال**) أحد الكهنة العِبرانيِّين، أو الأنبياء كما يسمُّونهم، الذين كابدوا أَسْرَ (**نَبُوخَذْنَصَّر**) إلى (**بابل**) في بداية القرن السادس قبل الميلاد، وجاء سِفره هٰذا نصًّا شاعريًّا خياليًّا، يُعبِّر عن أماني العودة. ولذا فإنه إذا وصفَ (**أورشليم**) على غير حقيقتها الواقعيَّة، لا غرابة؛ فتلك لغة المجاز وخطاب الخيال. أو قل: هي لغة الرُّؤى، وخطاب الأحلام، لا لغة الحقائق، ولا خطاب الواقع، بحالٍ من الأحوال.

إن (**سِفر حزقيال**) ينصُّ صراحةً على أنه يسرد رؤيا- مناميَّة أو متخيَّلة- مستهِلًّا هٰكذا، في (إصحاحه الأوَّل): «**كَانَ فِي سَنَةِ الثَّلَاثِينَ، فِي الشَّهْرِ الرَّابعِ، فِي الخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، وأَنَا بَيْنَ المَسْبِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ، أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفَتَحَتْ، فَرَأَيْتُ رُؤَى اللهِ...**». ولا تدع تفاصيله لقارئٍ، يعي ما يقرأ، سبيلًا إلى حملها على محمل التقرير الواقعي، فضلًا عن الوصف الجغرافي والتاريخي الذي يُعْتَدُّ به. غير أن (**داوود**) قد أراد أن يركب مركب الخيال؛ فوظَّف ما ورد في ذٰلك السِّفر في استدلاله على دعواه الغريبة؛ فهو لديه دليلٌ ساطعٌ على أن بيت (**المَقْدِس**) في (**بلاد غامد**) لا في (**فِلسطين**)؛ فإذا الدليل أغرب من المستدلِّ به عليه!

لماذا فعل ذٰلك؟

لأنه رأى ما وردَ في (**سِفر حزقيال**) من وصفٍ لا ينطبق على (**أورشليم**) في (**فِلسطين**)! على الرغم من أنه أبعد انطباقًا على سَراة (**غامد**) أو غير سَراة **غامد**؛

لأنه، ببساطة، خيالٌ في خيال. وما بُنِيَ على خيالٍ لا قيمة له تاريخيًّا! يكفيك دليلًا على خياليَّته أنه يصف حضور الله، وتذريعه تلك الأرض بنفسه، وتقسيمه إيَّاها! أفما كان الأَولَى، قبل البحث في حقائق التاريخ، أن يبحث (**داوود**) عن حقيقة الربِّ هٰذا، الذي جاء أن (**حزقيال**) تخاطب معه، ثمَّ أخذَه بيده ليشرح له أرض الميعاد بالتفصيل، ويذرعها له، ويقسِّمها تقسيمًا!

أهٰذه حقيقة أيضًا أم خيال؟!

وأين يمكن أن يكون قد حدث ذٰلك؟!

وفي أيِّ أرض؟!

لنأخذ القارئ إلى نموذج من هٰذا النص «الفانتازي»؛ كي يسبر معنا مقدار صلاحه مستنَدًا تُقام عليه حقائق الجغرافيا والتاريخ، سلبًا أو إيجابًا. يقول- من (**الإصحاحات الأربعين، والثالث والأربعين، والسابع والأربعين**)، وبها استدلَّ (**داوود**)-:

> «**فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ سَبْيِنَا، فِي رَأْسِ السَّنَةِ، فِي العَاشِرِ مِنَ الشَّهْرِ، فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشَرَةَ، بَعْدَ مَا ضُرِبَتِ المَدِينَةُ فِي نَفْسِ ذٰلك اليَوْمِ، كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ وأَتَى بِي إِلَى هُنَاكَ. فِي رُؤَى الله أَتَى بِي إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ ووَضَعَنِي عَلَى جَبَلٍ عَالٍ جِدًّا، عَلَيْهِ كَبِنَاءِ مَدِينَةٍ مِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ. ولَمَّا أَتَى بِي إِلَى هُنَاكَ، إِذَا بِرَجُل مَنْظَرُهُ كَمَنْظَرِ النُّحَاسِ، وبِيَدِهِ خَيْطُ كَتَّانٍ وقَصَبَةُ القِيَاسِ، وهُوَ وَاقِفٌ بِالبَابِ. فَقَالَ لِي الرَّجُلُ: «يَا ابْنَ آدَمَ، انْظُرْ بِعَيْنَيْكَ واسْمَعْ بِأُذُنَيْكَ واجْعَلْ قَلْبَكَ إِلَى كُلِّ مَا أُرِيكَهُ، لأَنَّهُ لأَجْلِ إِرَاءَتِكَ أُتِيَ بِكَ إِلَى هُنَا. أَخْبِرْ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ**

بِكُلِّ مَا تَرَى»... ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى البَابِ، البَابِ المُتَّجِهِ نَحْوَ الشَّرْقِ. وإِذَا بِمَجْدِ إِلٰهِ إِسْرَائِيلَ جَاءَ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْقِ وصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ، والأَرْضُ أَضَاءَتْ مِنْ مَجْدِهِ. والمَنْظَرُ كَالمَنْظَرِ الَّذِي رَأَيْتُهُ لَمَّا جِئْتُ لأُخْرِبَ المَدِينَةَ، والمَنَاظِرُ كَالمَنْظَرِ الَّذِي رَأَيْتُ عِنْدَ (نَهْرِ خَابُورَ)، فَخَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي. فَجَاءَ مَجْدُ الرَّبِّ إِلَى البَيْتِ مِنْ طَرِيقِ البَابِ المُتَّجِهِ نَحْوَ الشَّرْقِ. فَحَمَلَنِي رُوحٌ وأَتَى بِي إِلَى الدَّارِ الدَّاخِلِيَّةِ، وإِذَا بِمَجْدِ الرَّبِّ قَدْ مَلأَ البَيْتَ، وسَمِعْتُهُ يُكَلِّمُنِي مِنَ البَيْتِ، وكَانَ رَجُلٌ وَاقِفًا عِنْدِي. وقَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، هٰذا مَكَانُ كُرْسِيِّي ومَكَانُ بَاطِنِ قَدَمَيَّ حَيْثُ أَسْكُنُ فِي وَسْطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ، ولَا يُنَجِّسُ بَعْدُ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ، اسْمِي القُدُّوسَ، لَا هُمْ ولَا مُلُوكُهُمْ، لَا بِزِنَاهُمْ ولَا بِجُثَثِ مُلُوكِهِمْ فِي مُرْتَفَعَاتِهِمْ. بِجَعْلِهِمْ عَتَبَتَهُمْ لَدَى عَتَبَتِي، وقَوَائِمَهُمْ لَدَى قَوَائِمِي، وبَيْنِي وبَيْنَهُمْ حَائِطٌ، فَنَجَّسُوا اسْمِي القُدُّوسَ بِرَجَاسَاتِهِمِ الَّتِي فَعَلُوهَا، فَأَفْنَيْتُهُمْ بِغَضَبِي. فَلْيُبْعِدُوا عَنِّي الآنَ زِنَاهُمْ وجُثَثَ مُلُوكِهِمْ فَأَسْكُنَ فِي وَسْطِهِمْ إِلَى الأَبَدِ... ثُمَّ أَرْجَعَنِي إِلَى مَدْخَلِ البَيْتِ وإِذَا بِمِيَاهٍ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ عَتَبَةِ البَيْتِ نَحْوَ المَشْرِقِ، لأَنَّ وَجْهَ البَيْتِ نَحْوَ المَشْرِقِ. والمِيَاهُ نَازِلَةٌ مِنْ تَحْتِ جَانِبِ البَيْتِ الأَيْمَنِ عَنْ جَنُوبِ المَذْبَحِ. ثُمَّ أَخْرَجَنِي مِنْ طَرِيقِ بَابِ الشِّمَالِ ودَارَ بِي فِي الطَّرِيقِ مِنْ خَارِجٍ إِلَى البَابِ الخَارِجِيِّ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَتَّجِهُ نَحْوَ المَشْرِقِ، وإِذَا بِمِيَاهٍ جَارِيَةٍ مِنَ الجَانِبِ الأَيْمَنِ. وعِنْدَ خُرُوجِ الرَّجُلِ نَحْوَ المَشْرِقِ والخَيْطُ بِيَدِهِ، قَاسَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وعَبَّرَنِي فِي المِيَاهِ، والمِيَاهُ إِلَى الكَعْبَيْنِ. ثُمَّ قَاسَ أَلْفًا وعَبَّرَنِي فِي المِيَاهِ، والمِيَاهُ إِلَى الرُّكْبَتَيْنِ. ثُمَّ قَاسَ أَلْفًا وعَبَّرَنِي، والمِيَاهُ إِلَى الحَقْوَيْنِ. ثُمَّ قَاسَ أَلْفًا، وإِذَا بِنَهْرٍ لَمْ أَسْتَطِعْ عُبُورَهُ، لأَنَّ المِيَاهَ طَمَتْ، مِيَاهَ سِبَاحَةٍ، نَهْرٍ لَا يُعْبَرُ. وقَالَ لِي: «أَرَأَيْتَ يَا ابْنَ آدَمَ؟». ثُمَّ ذَهَبَ بِي وأَرْجَعَنِي إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. وعِنْدَ

رُجُوعِي إِذَا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ أَشْجَارٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْ هُنَا ومِنْ هُنَاكَ. وقَالَ لِي: «هٰذِهِ المِيَاهُ خَارِجَةٌ إِلَى الدَّائِرَةِ الشَّرْقِيَّةِ وتَنْزِلُ إِلَى (العَرَبَةِ) وتَذْهَبُ إِلَى البَحْرِ. إِلَى البَحْرِ هِيَ خَارِجَةٌ فَتُشْفَى المِيَاهُ. ويَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ حَيْثُمَا يَأْتِي النَّهْرَانِ تَحْيَا. ويَكُونُ السَّمَكُ كَثِيرًا جِدًّا لأَنَّ هٰذِهِ المِيَاهَ تَأْتِي إِلَى هُنَاكَ فَتُشْفَى، ويَحْيَا كُلُّ مَا يَأْتِي النَّهْرُ إِلَيْهِ. ويَكُونُ الصَّيَّادُونَ وَاقِفِينَ عَلَيْهِ. مِنْ (عَيْنِ جَدْيٍ) إِلَى (عَيْنِ عِجْلَايِمَ) يَكُونُ لِبَسْطِ الشِّبَاكِ، ويَكُونُ سَمَكُهُمْ عَلَى أَنْوَاعِهِ كَسَمَكِ البَحْرِ العَظِيمِ كَثِيرًا جِدًّا. أَمَّا غَمِقَاتُهُ وبِرَكُهُ فَلَا تُشْفَى. تُجْعَلُ لِلْمِلْحِ. وعَلَى النَّهْرِ يَنْبُتُ عَلَى شَاطِئِهِ مِنْ هُنَا ومِنْ هُنَاكَ كُلُّ شَجَرٍ لِلأَكْلِ، لَا يَذْبُلُ وَرَقُهُ ولَا يَنْقَطِعُ ثَمَرُهُ. كُلَّ شَهْرٍ يُبَكِّرُ لأَنَّ مِيَاهَهُ خَارِجَةٌ مِنَ (المَقْدِسِ)، ويَكُونُ ثَمَرُهُ لِلأَكْلِ ووَرَقُهُ لِلدَّوَاءِ. «هٰكذا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هٰذا هُوَ التَّخْمُ الَّذِي بِهِ تَمْتَلِكُونَ الأَرْضَ بِحَسَبِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ»[1]...».

ويستمرُّ على هٰذا المنوال الحكائي المتخيَّل.

فما الغريب- وقد استحضر (الله) تعالَى في هٰذه الحكاية- أن يستحضر (**أورشليم**) على جبلٍ شامخ، أو في السماء، أو على الأرض، أو أن يصوِّر الأنهار تجري من تحتها؟! وللمياه دلالاتها الرمزيَّة لا الواقعيَّة في مثل هٰذا السياق، ألمحَ السِّفْرُ إلى ذٰلك بوصف صوت إلٰه (**إسرائيل**)، قائلًا: «**وصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ**»- وكذا للأشجار الخرافيَّة الحافَّة به دلالاتها الرمزيَّة.

---

(1) أسباط (**إسرائيل**) الاثنا عشر، كما هو معروف، هم: (رأوبين، وشمعون، وجاد، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، وإفرايم، ومنسا، وبنيامين، ودان، وآشر، ونفتالي).

إنها لوحةٌ حُلميَّة عن جَنَّة موعودة، يَلْهَجُ بها أسيرٌ، وصورةٌ نفسيَّة عن فردوس مفقود، يعزِّي قومَه بالعودة إليه، على هٰذا النحو الأدبي المجنَّح. فأنْ يأتي باحث ليُدقِّق في تفاصيل هٰذه «اليوتوبيا»، لينفي المكان المقصود فيها؛ لأن الوصف لا ينطبق عليه؛ فما لذٰلك من معنى إلَّا أنه يتجاهل طبيعة النصِّ النوعيَّة، ووظيفته التعبيريَّة، ليُلبِسه قميصَ وثيقةٍ عِلْميَّةٍ، ليس لها بأهل، ثم يبني عليها استنتاجاته. بل هو يتجاهل في النصِّ الإشارات إلى المواضع: فـ«**نهر الخابور**»، مثلًا، مكان لا علاقة له بـ(**جزيرة العَرَب**)، بل هو المكان الذي أُنزِل فيه الذين سباهم (**نَبُوخَذْنَصَّر**) من اليهود، وردَ في «**سِفر حزقيال**» نفسه، (الإصحاح الأوَّل)، أنه في بلاد (**الكلدانيِّين**)، في (**العِراق**): «**كَانَ... وأَنَا بَيْنَ المَسْبِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ، أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفَتَحَتْ، فَرَأَيْتُ رُؤَى الله... صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى حِزْقِيَالَ الكَاهِنِ ابْنِ بُوزِي فِي أَرْضِ الكَلْدَانِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ.**» وكذا القول في المواضع الأخرى: «**وادي عَربة، البحر، عين جَدْيٍ، عين عِجْلايِم، المَقْدِس**».

إنَّ نصًّا كهٰذا ما ينبغي أن يُقرأ قراءة تاريخيَّة، بل قراءة أدبيَّة. والمؤرِّخ إنْ قرأه تلك القراءة التاريخيَّة السطحيَّة، الواثقة بظاهر الكلمات، طالبناه بالإتيان بمكانٍ على وجه الكُرَة الأرضيَّة تنطبق عليه تلك الأوصاف الخياليَّة، والوقائع المرسومة، بحذافيرها، ولن يجد. فما بُني على خيال إنما أرضه عالم الخيال، وما أُنشئ على رموزيَّات نفسيَّة، ورمالٍ ميثولوجيَّة، إنَّما موقعه في فنِّ التصوير الأُسطوري الحالم، لا في شامٍ ولا في يَمَن.

إنه لنموذجٌ من أوهام المؤرِّخين في قراءة النصوص ذات الطابع الأدبي، التي لا يفقهون طبيعتها، ولا يدركون وظيفتها، ولا يحسنون قراءتها القراءة النوعيَّة التي تلائمها؛ فيتعاملون معها تعاملهم مع ما اعتادوه من وثائق إخباريَّة.

١٢- شهادة الوثيقة المحمَّديَّة بالمَواطن التاريخيَّة الفِلسطينيَّة:

لا يشهد تاريخُ العَرَب، ولا تشهد نصوصهم، بشِعرها ونثرها، بآدابها وتواريخها وأخبارها، إلَّا بنقيض ما ذهب إليه مؤلِّف كتاب «**العَرَب والسَّاميُّون**» حول مكان (**القُدس**)، وتاريخ (**بني إسرائيل**)، وأقصَى الإسراء والعراج، وأن ذٰلك كلَّه في (**فِلسطين**) المحتلَّة! وسنقفل هنا القوس ما قبل الأخير من نقاشه بإهدائه وإهداء القارئ وثيقةً من الوثائق، تشهد بمعرفة العَرَب أين أقام (**إبراهيم الخليل**)، وأين المدينة التي سُمِّيت باسمه، وأين تلك الأرض المباركة التي أنبأ «**القرآن**» بالإسراء بنبيِّ الإسلام إليها. لن أتحدَّث عن العُهدة العُمَريَّة، بل عن عُهدةٍ نبويَّةٍ لبعض أهل تلك الديار، تتضمَّن من الأسماء والإشارات ما يمثِّل نقيض تلك التهويمات التاريخيَّة، البالغة في الادِّعاء حدَّ الزعم أن العَرَب أنفسهم كانوا يعرفون أن **إبراهيم الخَليل** وذُرِّيَّته وبيت مَقْدِسهم كانوا يتأرجحون بين (**عسير**) و(**بلاد غامد**)، لا في **فِلسطين!**

أورد (**ابن فضل الله العمري**، -٧٤٩هـ= ١٣٤٨م)[١] وصفَ زيارته إلى

[١] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ١: ٢٢٥- ٢٢٧.

مدينة (**الخليل الإبراهيمي**)، ومشاهدة العَهد الذي كتبه رسول الله إلى (**تميم الداري**)، فقال:

> «...فلمّا قضينا من الزيارة الأرَب، وهزَّتنا من النوبة الخليليَّة الطرَب، بعثتُ وراء الصاحب ناصر الدِّين أبي عبدالله محمَّد بن الخليليِّ التميميِّ الداريِّ. وهو بقيَّة هٰذا البيت الجليل، والمُنتهي إليه النظر على وقف الحبيب سيِّدنا محمَّد، ﷺ، وبلد أبيه إبراهيم الخليل. والتمسنا منه إحضار الكتاب الشريف النبويِّ المكتتب لهم بهٰذه النَّطِيَّة، والمُشرِّف لهم به على سائر البريَّة. فأنعم بإجابة الملتَمَس، وجاء به أقرب من رَجْعِ النَّفَس. وهو في خِرقة سوداء من مُلْحَم قُطنٍ وحَرير، من كُمِّ الحسن أبي محمَّد المستضيء بالله أمير المؤمنين، وبِطانتها من كَتَّان أبيض على تقدير كُلِّ إصبع منه ميلان أسودان، مشقوقان بميل أبيض، جُعِل ضِمن أكياس يَضُمُّها صُندوق من آبنوس، يُلَفُّ في خِرقة من حَرير. والكتاب الشريف في حِزْقَة من خُفٍّ من أَدَم، أظنُّها من ظَهر القَدَم. وقد مَوَّه سوادُ الجِلد على الخطِّ، لا أنَّه أذهبه، وما أخفَى من يَدِ كاتبه المشرَّفة ما كتبه. وهو بالخطِّ الكوفيِّ المَليح القويِّ. فقبَّلنا تلك الآثار، وتمتَّعنا منه بمَدَد الأنوار. ومعه ورقة كتبها المستضيء بنصِّه شاهدة لهم بمضمونه، ومزيلة لشَكِّ الشَّاكِّ المُريب وظنونه. ومضمون ما كتب كهيئته وسطوره:
>
> «نسخة كتاب رسول الله، ﷺ، الذي كتبه لتميم الداريِّ وإخوته، في سنة تسعٍ من الهجرة بعد منصَرَفه من غزوة تبوك، في أَدَم من خف أمير المؤمنين عليٍّ وبخَطِّه، نسخته كهيئته:
>
> «بسم الله الرحمٰن الرحيم
>
> هٰذا ما أنطَى محمَّدٌ رسول الله، لتميم الداريِّ، وإخوته، حبرونَ،

والمرطومَ، وبيت عَيْنون، وبيت إبراهيم، وما فيهنَّ، نَطِيَّةَ بَتٍّ بذِمَّتهم، ونَفَّذْتُ وسَلَّمْتُ ذٰلك لهم ولأعقابهم؛ فمَن آذاهم، آذاه الله، فمَن آذاهم، لعنه الله! شَهِدَ (عتيق بن أبو قحافة)، و(عمر بن الخطَّاب)، و(عثمان بن عفان)، وكتب (عليُّ بن بو طالب) وشَهِدَ.»

...هٰذه نسخة الكتاب الشريف. و«أبو قحافة»: ألف وباء وواو، ثمَّ «قحافة»، و«بو طالب»: باء وواو، ثمَّ «طالب». وليس في «بو» ألف. بُيِّن ذٰلك ليُعرَف. و«كتب» في ذِكر عليٍّ، ﷺ، مُقَدَّمة، و«شَهِدَ» مُؤَخَّرة. بُيِّن ذٰلك أيضا ليُعرَف. وقد رأيتُ ذٰلك كُلَّه بعيني، ومن خَطِّ المستضيء نقلت. وهو خَطُّه المعروف المألوف. وقد رأيته وأعرفه معرفةً لا أشكُّ فيها ولا أرتاب. وقرأْتُه من الكِتاب النبويِّ نفسه. وهو موافِقٌ لما كَتَبَه المستضيءُ، نقلًا منه، على أن آثاره كادت لتعفَّى، وتحتجب عن الناس لفساد الزمان وتتخفَّى.»

هٰكذا نقل إلينا (**ابن فضل الله العمري**) تلك الوثيقة الخطِّيَّة، وبَيَّن نَصَّها بدِقَّة «**ليُعرَف**»- كما ذَكَر- ولكي يُستدَلَّ بها في دراسة التاريخ واللغة.[1] وهٰذه المَواطن التاريخيَّة الفِلسطينيَّة الواردة في الوثيقة المحمَّديَّة هي نفسها الواردة في «**التوراة**». (**حبرون**): مدينة (**إبراهيم الخَليل**)، بالقُرْب من (**بيت المَقْدِس**)، وعاصمة (**داوود**) الأُولى، التي كان زَعَمَ (**الصَّليبيُّ**) أنها قرية (**الخربان**)، بـ(**المجاردة**)! و(**المرطوم**): بلدةٌ شَمال (**الخليل**). و(**بيت عَيْنون**): قرية إلى الشَّمال من مدينة **الخليل**. ثمَّ (**بيت إبراهيم**).

---

[1] فهي دالَّة على بعض ملامح اللغة العَرَبيَّة إبَّان تلك المرحلة قبل التقعيد، وأن القواعد التي وضعها النُّحاة لم تكن مطَّردة في لسان العَرَب كُلَّ الاطِّراد، ولٰكن لعلَّها كانت الغالبة في الاستعمال على لغة (**الحِجاز**) ووسط الجزيرة. (انظر مقالي: «***استنبَطَ العُرْبُ في المَوامي!***»، (جريدة «**الراي**» الكويتيَّة، ع١٢٤٢٨)، ص٤٥، على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/EjWCL1).

وهٰكذا كان الرسول وصحابته يعرفون هٰذه المواضع في (**فِلسطين**)، لا في (**عسير**) ولا في (**بلاد غامد**). وكان العَرَب والمسلمون يعرفون تلك المَواطن الشَّاميَّة، ويعرفون لها قَدرها وقداستها وتاريخها، وما ارتابوا في ذٰلك قطُّ، كما ارتاب المُبْطِلون.

ولقد قال مؤلِّف كتاب «**العَرَب والسَّاميُّون**»[1] كلمة حقٍّ، ناقضها كتابه؛ حيث جاء في نتائجه:

> **«إن علم الآثار قد قال كلمته الصريحة حول أحداث مدونات التوراة، وهي أن لا وجود لهٰذه الأحداث آثاريًّا، (سواء في فِلسطين أو في خارج فِلسطين)، وإن المصدر الوحيد لدَى العالم كله عمَّن دعوه بـ«ملوك التوراة وحروبهم» إنَّما هي مدوَّنات التوراة فقط.»**

فكيف ارتأى هٰذه نتيجةً عن كتابٍ سخَّره من ألفه إلى يائه لتوطين ملوك «**التوراة**» وحروبهم وتاريخهم في وطنٍ آخَر؟!

وهٰذا سؤال وجَّهناه إلى (**الصَّليبي**) قبله؛ فكلاهما يكرِّر أن علم الآثار قد فشل في العثور عن شواهد تاريخ (**بني إسرائيل**) في (**فِلسطين**)، ومع ذٰلك فهما يجتهدان باستماتة للبحث عن ذٰلك التاريخ في (**جزيرة العَرَب**)! فتنقض نتائجُهم مقدماتهم ومقدماتُهم نتائجهم. لم يسعهم تصوُّر أن تلك المدوَّنات والملاحم محض تراثٍ شعبي، تُهيمن عليه الأساطير، والتهويمات الدعائيَّة الشاعريَّة لشَعب كان وباد، دفعته قداسة الأسلاف إلى صناعة واقعٍ معطًى متخيَّلٍ يعوِّض الواقع

---

[1] ٣٣٤.

التاريخي والجغرافي المستبَى، أنشأه كَتَبَةٌ بعُدت بهم الشُّقَّة زمانًا ومكانًا، كما رأينا في سِفر (**حزقيال**) على سبيل النموذج.[1]

١٣- صَهْيَنَة التاريخ:

رأينا كيف يكرِّر بعض المؤرِّخين المعاصرين القول إن علم الآثار قد فشل في العثور عن شواهد تاريخ (**بني إسرائيل**) في (**فِلسطين**)، ومع ذٰلك يأتي منهم مَن يجتهد، باستماتة، للبحث عن ذٰلك التاريخ في (**جزيرة العَرَب**)! في حين كان من بدائه التصوَّرات القول: إنَّ ما حَقَّ تاريخيًّا من تلك الآثار، ولم تعُد له اليومَ شواهد، إنَّما جرى محوه محوًا متعمَّدًا، سُنَّةَ من خلَا من الأُمم التي تعرَّضت لعُدوان سياسيٍّ دِينيٍّ، فاستُهدفت جميع آثارها ومعالم عمرانها، ومعابد دينها، ومعاهد تاريخها، بالتقويض، والاستئصال. ولقد تعرَّض (**بنو إسرائيل**) لسِلسلة من تلك الحملات العسكريَّة الشاملة لطمس تاريخهم، كان يشتهر منها دائمًا استهداف (**أورشليم**)،

[1] يُسجِّل المستشرق الإنجليزي (ديكسون، **الكويت وجاراتها**، ١: ١٣٧- ١٣٨) واحدة من المحاولات المبكِّرة للتنقيب عمَّا جاء في «**سِفر حزقيال**»، في عامَي ١٩٠٩ و١٩١٠، حيث حكَى أن أديبًا فنلنديًّا يُدعَى (**الدكتور والتر جوفيليوس**) ومساعده، وهو مهندس سُوَيدي يُدعَى (**ميلاندر**)، كانا يعتقدان أنهما اكتشفا رموزًا سِرِّيَّة في «**سِفر حزقيال**» تُبيِّن موقع كنز (**بني إسرائيل**) قبل السَّبْي إلى (**بابل**)، وقبور ملوكهم، بمن فيهم (**داوود**) و(**سُلَيمان**)، إضافة إلى فُلك (**نُوح**)، وسيف **سُلَيمان** وعرشه. وبمساعدة أحد الضُّبَّاط الإنجليز واثنين من المغامرين البريطانيِّين، ظلُّوا ينقِّبون خارج أسوار (**القُدس**)، ثمَّ تحت (**قُبَّة الصخرة**)، فلم يظفروا بشيء، ثمَّ فكَّروا بالسطو على (**مسجد عُمَر**)، ولمَّا ضُبِطوا وهم في حفريَّاتهم، لاذوا بالفرار إلى (**يافا**)، ومن هناك تسلَّلوا ليلًا خارج (**فِلسطين**).

قلب ديانتهم، وأعظم مُدنهم. ولا بُدَّ أن ما سِوَى **أورشليم** كان أدعَى للزوال. ومن المؤكَّد أن تلك الحملات، مع عوامل أخرى، قد أفلحت في تدمير ما له علاقة بتاريخ اليهود في بلاد (**الشَّام**)، ممَّا صوَّره «**العهد القديم**».

وبذا يقف المتأمِّل أمام ثلاث حقائق، تجعل عدم العثور على آثار (**بني إسرائيل**) في بلاد (**الشَّام**) أمرًا طبيعيًّا جِدًّا:

١- عامل الزمن والتقادم، وتوالي الأُمم والشعوب والحضارات على سُكنَى تلك الديار.

٢- الحملات الحربيَّة الشعواء التي ظلَّت تستهدف آثار (**بني إسرائيل**)، لأسباب دِينيَّة وسياسيَّة ماحقة، لا تُبقي ولا تَذَر، لاستئصال شأفتها.

٣- أن تلك الآثار، ومهما بلغت مكانتها بمقاييس عصرها، لم تكن بتلك العظمة الأُسطوريَّة التي صوَّرها الخيال الأدبي الشعبي في «**التوراة**». ولا شكَّ أنها كمنتْ وراء ذٰلك الخيال الشعبي دوافع نفسيَّة تعويضيَّة؛ إذ أراد القوم تصوير مملكتهم السُّلَيمانيَّة بما يفوق ممالك مستعبديهم، إنْ في (**مِصْر**) أو في (**العِراق**).

ولنضرب مثالًا توضيحيًّا على ما يفعله ذٰلك الخيال من نَمْذَجَةٍ كُبْرَى، وأَسْطَرةٍ فاحشةِ المغالاة، لأشياء لا مقارنة بين أصولها الواقعيَّة وصورها الأدبيَّة. لطالما قرأنا في التراث العربي عن (**الأَبْلَق الفَرْد**)، مثلًا، وهو قَصر الشاعر اليهودي (**السموأل بن عادياء**)، في (**تَيماء**) شَمال (**الحِجاز**)،

وتخيَّلناه- بناءً على النصوص الشِّعريَّة التي أشادت به، وبمناعته، وشموخه- قلعةً شمّاء، وواحدةً من عجائب الدنيا في العمران. إذ يقول عنه **السموأل**[1]:

هُوَ الأَبْلَـقُ الفَرْدُ الَّذي شَاعَ ذِكرُهُ ... يَـعِـزُّ عَلى مَن رامَـهُ ويَطُـوْلُ

ويقول (**ورقة بن نوفل**)[2]:

إِنـِّي يَـرانِـيْ المُـوْعِـدِيَّ كـأَنَّـني ... في الحِصْنِ مِنْ نَجْرَانَ أو في الأَبْلَقِ

فـي يـافِـعٍ دونَ السَّمَـاءِ مُـمَـرَّدٍ ... صَعْـبٍ تَـزِلُّ بِـهِ بَـنَـانُ المُـرْتَـقِي

لٰكن ماذا نجد حينما نبحث عن ذٰلك الأثر اليوم؟

لا نجد أكثر من أكوامٍ من تراب، لا تدلُّ إلَّا على أن أُطمًا بدائيًّا من الآطام كان هناك، لعلَّه كان مبنيًّا باللَّبِن الطِّيني. فذٰلك، إذن، كان «**الأَبْلَق الفَرْد**» الشهير الذي بلغ به الخيال الشِّعري شُرفات السماء. وتلك طبيعة الشِّعر، وما في حُكم الشِّعر من النصوص، بتحليقها بالتراب إلى السحاب. فكيف إذا رادفت الطبيعة الشاعريَّة التهوُّسات الدِّينيَّة والحماسيَّات الشعبيَّة؟! وقِسْ على هٰذا ما تقرأ حول عمران الأُمم السالفة، ممَّا لا شواهد أثريَّة تدلُّ على حقيقته.

* * *

[1] **ديوانا عروة بن الورد والسموأل**، ٩٠.

[2] الفجاوي؛ ريم المعايطة، «*شِعر ورقة بن نوفل: جمع ودراسة*»، ١٠٧.

على أن الفرق بين الصهاينة وهٰؤلاء المؤلِّفين العَرَب أن الصهاينة ينقِّبون عبثًا عن تاريخهم المدَّعَى في أرض (**فِلسطين**)، والمؤلِّفين العَرَب يتولَّون عنهم التنقيب في قلب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)! وأيُّ قوميَّة عَرَبيَّة مفتراة هاهنا، والمؤرِّخ السُّوري- كسابقه اللبناني ولاحقه الفِلسطيني- إنَّما يَمْهَد لنقل دعاوَى الصهاينة من إقليمه الشَّاميِّ ليوجِّهها إلى **جزيرة العَرَب**؟! فيفشل الأوَّلون (**الصهاينةُ**)، ويُضحِك الآخَرون (**العَرَبُ**)؛ بما تكلَّفوا من أباطيل بلغت غلواءها من الادِّعاء؛ حتى ليقول أحدهم: إن (**الهكسوس**) لا علاقة تاريخيَّة لهم بـ(**مِصْر**)، وإنَّما هم مجموعة قبائل من الرعاة غزت محطَّةَ (**مصريم**) وشيخَها (**فرعون**) في بلاد (**غامد**)![1] أو يقول: إن (**بحر القلزم**)- الذي عُرِف بهٰذا الاسم عبر التاريخ العَرَبي وغير العَرَبي- مجرَّد وادٍ هناك، وإنَّما تسمية (**البحر الأحمر**) بـ«**بحر القلزم**» تزوير صهيوني![2]

---

[1] انظر: داوود، **العَرَب والسَّاميُّون**، ٣٣٩.

[2] انظر: م.ن، ٣٣٨.

مِن أقدم مَن يشير إلى (**البحر الأحمر**) باسم «**القُلْزُم**» من اللغويِّين العَرَب (**ابن دريد**، -٣٢١هـ= ٩٣٣م)، في كتابه (**جمهرة اللغة**، ٢: ١١٥٥ (الزاي والقاف)). ومن البُلدانيِّين (**الهمداني**، -٣٤٥هـ تقريبًا= ٩٥٦م)، في كتابه (**صفة جزيرة العَرَب**، ٣، ١٢، ٢٧٦). وكذٰلك (**ابن حوقل**، -٣٦٧هـ= ٩٧٧م)، في كتابه (**صورة الأرض**، ١٣٢، ١٤٣). ومن الرَّحَّالة (**ابن المجاور** (القرن ٧هـ)، ٣٤)، الذي ينصُّ على أن بحر (**سُوف**)- الوارد في «**التوراة**» أن (**فرعون**) أدركه الغرق فيه- هو بحر (**القُلْزُم**). وأشار في موضع آخر إلى أن «**القُلْزُم في صدر بحر** (**الحبشة**)». وكأنما هو اسم جزيرة، أو مكان بعينه؛ لأنه ذكره في مقابل جزيرة (**البحرين**)، في صدر بحر (**فارس**). (انظر: ٣٠٠). وأورد (ابن منظور، (قلزم)) أن القَلْزَمَة: ابْتِلاع الشيء، وأن بحر **القَلْزَم**، أو **القُلْزُم**، مشتقٌّ منه؛ سُمِّي بذٰلك لالتهامه من رَكِبَه، وهو المكان الذي أُغرِق فيه (**آل فرعون**). لٰكن مَن يدري، فقد يكون (**ابن دريد**)، و(**الهمداني**) و(**ابن حوقل**)، و(**ابن المجاور**) و(**ابن منظور**) وغيرهم من ضحايا التزوير الصهيوني والاستشراقي، حسب عقليَّة الصَّهْيَنَة «الذات أنواطيَّة» المعاصرة!

وبهٰذا النُّزوع القَسري إلى صهينة التاريخ، ووَفْقَ هٰذا المنظور المَرَضِي، يبدو التاريخ البشريُّ كلُّه، قديمه والحديث، تزويرًا صهيونيًّا واستشراقًا استعماريًّا، ومنذ الأزل. وتلك، لعَمري، دعايةٌ أُسطوريَّةٌ أخرى للمكر الصهيونيِّ التآمري العظيم، الذي لا تحدُّه حدود ولا تقف دونه حضارة ولا تاريخ، تُضاف إلى الدعايات الأُسطوريَّة التوراتيَّة عن شعب الله المختار الذي لا يُقهر.[1]



[1] على أن (**أحمد داوود**) لا يكتفي بنفي تاريخ (**فِلسطين**)، وترحيله إلى (**بلاد غامد وزَهران**)، بل يزعم- في كتابه الآخَر (**تاريخ سُوريا القديم، ٧٤٢**)- أنْ ليس هناك ما يُسمَّى بـ«**فِلسطين**» في (**بلاد الشَّام**)، وإنَّما سُمِّيت **فِلسطين** بهٰذا الاسم من قِبَل المحتلِّين وعملائهم في المنطقة من الكهنة والمؤرِّخين التوراتيِّين؛ في عمليَّة التبديل في الأسماء والمواقع الجغرافيَّة التي تبنَّوها!

الفصل الثالث

جغرافيَّة «التوراة»

«وأَهَاجَ الرَّبُّ على (يَهُورَامَ) رُوحَ (الفِلسطينيِّينَ) و(العَرَبَ) الَّذِينَ بِجَانِبِ (الكُوشِيِّينَ)، فَصَعدُوا إلى (يَهُوذَا) وافْتَتَحُوهَا، وسَبَوْا كُلَّ الأَمْوَالِ المَوْجُودَةِ في بَيْتِ المَلِكِ مَعَ بَنِيهِ ونِسَائِهِ أَيْضًا.»

(**العهد القديم**، أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ١٢: ١٦- ١٧).

١- حُدود «التوراة» ورمالها الأُسطوريَّة:

نقف أخيرًا مع كتاب تحت عنوان «**جغرافيَّة التوراة: مِصْر وبنو إسرائيل في عسير**»، للباحث الفِلسطيني (**زياد مُنَى**)، ١٩٩٤. وهو كما ترى يَسْتَبِق البحث بجعل النتيجة عنوانًا. وهٰذا فِعل أستاذه (**كمال الصَّليبي**)، الذي جعل نتيجته، أو هدفه، عنوانًا لكتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**». ومن هنا فما عليك أيُّها القارئ أن تجهد نفسك في القراءة؛ فالنتيجة جاهزة مطروحة سلفًا أمامك على الغلاف، وليس ما بعدها من الكتاب سِوَى تحصيل حاصل.

وقبل مناقشة ما وردَ في الكتاب، يبدو من المناسب- بما أن هٰذا هو الفصل الخاتم، وفيه الوقوف مع ثالث هٰؤلاء المؤلِّفين، ووريث هٰذه المغامرات التاريخيَّة- أن نُعرِّف عِلْميًّا بأساس ما بنى عليه هٰؤلاء الثلاثة فرضيَّاتهم من تراثٍ أُسطوري. فيحسُن التنبيه، أوَّلًا، إلى ظاهرة التوسُّع الاصطلاحي في استخدام مصطلحَ «**التوراة**» للإشارة إلى القِسم الأوَّل من «**الكتاب المقدَّس**»، المُسمَّى: «**العهد القديم**». والأصل أن «**التوراة**»- أو «**البنتاتوش**»، كما سمَّاها (**اليونان**)- إنَّما تعني الأسفار الخمسة الأُولى من «**العهد القديم**»: (**التكوين، والخروج، واللاويِّين، والعَدد، والتثنية**)، أي وصولًا إلى تسليم الأمر من (**مُوسَى**) إلى (**يشوع بن نون**).[1] هٰذا بالاصطلاح العام لدَى أهل الكتاب. أمَّا بالاصطلاح الفقهي، فـ«**التوراة**» هي:

الوصايا العشر، (**سِفر الخروج**، ٢٠: ١-١٧).

---

[1] ومِن اليهود أنفسهم مَن لا يعترف مِن «**العهد القديم**» بسِوَى تلك الأسفار الخمسة، وهم (**السامريُّون**). الذين كانوا يسكنون في (**شكيم/ نابلس**). (انظر: سوسة، ١٥٢).

الشريعة الموسويَّة، المصطلَح عليها إسلاميًّا بـ«**صُحُف مُوسَى**». وهي محدودة، جاءت من الإصحاح العشرين من «**سِفر الخروج**» وما يليه في هٰذا السِّفر، ثمَّ في «**سِفر اللاويِّين**»، و«**سِفر العَدَد**»، حيث مكالمات الربِّ لمُوسَى، المستهلَّة بالعبارة النمطيَّة: «**وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا**».[1]

هٰذا ما قد يمكن القول إن شَذراته المتبقية- التي يصعب تحديدها بصورة قطعيَّة- تُعزَى إلى عهد (**مُوسَى**)، قبل القرن العاشر قبل الميلاد. وما عداه أمشاجٌ من التاريخ، والأنساب، والأساطير، البابليَّة وغير البابليَّة، ومن الشِّعر، والقصص الغراميَّة، والتراجيديَّات، والأمثال، والشروح، من إنشاء الكهنة على مرِّ العصور، توارثوها، كمأثورات شعبيَّة، وأورثوها لاحقيهم. وإلى جانب هٰذه الأسفار تلك الأسفار المختلَف عليها، التي يُطلَق عليها «**الأسفار القانونيَّة**»، غير الواردة في «**العهد القديم**»، والأسفار الكثيرة الأخرى التي تسمِّيها الكنائس التقليديَّة «**الأبوكريفا**»، أي المخفيَّة، وقد تُسمَّى «**المزوَّرة**».[2]

---

[1] وفي هٰذه الشريعة يَرِد تفصيل المخالفات والعقوبات. وهي عقوباتٌ قاسيةٌ جِدًّا، لا تدرُّج فيها، يأمر معظمها بأن «**يُقتَل قتلًا**» مَن خالفَ الوصايا. (انظر مثلًا ما وردَ في: **سِفر الخروج**، ٢١: ١٢، ١٥- ١٧، ٢٢: ١٩، ٣١: ١٤، ١٥). أو ربما كان عقابه أن يُحرَق بالنار! (انظر: **سِفر اللاويِّين**، ٢٠: ١٤). حتى إن هناك قانونًا جنائيًّا للثور إذا نطحَ إنسانًا فماتَ، فإنه: «**يُرْجَمُ [الثور] ولَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ. وأَمَّا صَاحِبُ الثَّوْرِ فَيَكُونُ بَرِيئًا. ولٰكِنْ إِنْ كَانَ ثَوْرًا نَطَّاحًا مِنْ قَبْلُ، وقَدْ أُشْهِدَ عَلَى صَاحِبِهِ ولَمْ يَضْبِطْهُ، فَقَتَلَ رَجُلًا أو امْرَأَةً، فَالثَّوْرُ يُرْجَمُ وصَاحِبُهُ أَيْضًا يُقْتَلُ!**» (سِفر الخروج، ١٢: ٢٨- ٢٩). وصور العنف المبالغ فيه هٰذه، الشاملة الإنسان والحيوان، كانت من سمات «**العهد القديم**» بصفة عامَّة.

[2] الأسفار القانونيَّة: (**طوبيت [طوبيا]، يهوديت، تتمَّة أستير، الحكمة، حكمة ابن سيراخ، باروخ، تتمَّة سِفر دانيال، المكابيِّين الأوَّل والثاني**). وزعمت الكنيسة الكاثوليكيَّة والأرثوذكسيَّة أنها كانت معتمدة في ←

بل إن «**التوراة**»، أعني الأسفار الخمسة الأُولى من «**العهد القديم**»: (**التكوين، والخروج، واللاويِّين، والعَدد، والتثنية**)، إنَّما معظمها من تدوين الكهنة أيضًا. ذٰلك أن «**التوراة**» مزيج من ثلاثة عناصر:

عنصر يُنسَب إلى ما خاطب الربُّ به (**مُوسَى**).

عنصر يَرِد على لسان (**مُوسَى**)، فهو من كلامه هو، لا من كلام الربِّ، ولا حتى من وحي الروح القُدُس.[1]

عنصر يأتي على ألسنة رواة الأسفار: قَصًّا، أو شرحًا، أو إيضاحًا لسياق العنصرَين السابقَين.

فـ«**سِفر التكوين**»، بما حمل من أساطير بابليَّة عن الخلق، ومن سلاسل أنساب للبَشَر، منذ أبينا (**آدم**)، ومن أحداث التاريخ وأقاصيص الأسلاف

«**العهد القديم**»، غير أن (**عَزْرا**) و(**نَحَمْيا**) لم يضمَّاها إلى مجموعة الأسفار التي تمَّ جمعها؛ لأنها لم تظهر إلَّا بعد موت **عَزْرا**. ومن ثَمَّ يحتجُّون بأنها كانت موجودة في النُّسخ العِبريَّة القديمة، وفي النسخة المعروفة بـ«**السبعينيَّة**»، المترجمة من العِبريَّة إلى اليونانيَّة، بمدينة (**الإسكندريَّة**)، في عصر (**بطليموس الثاني**)، ٢٨٢ق.م. مستدلِّين على قانونيَّتها القديمة كذٰلك باقتباسات منها في «**العهد الجديد**». ولذا سمَّوها «**الأسفار القانونيَّة الثانية التي حذفها البروتستانت**». (انظر: كامل، مراد؛ يسى عبدالمسيح، **الكتاب المقدَّس: الأسفار القانونيَّة التي حذفها البروتستانت**، المقدِّمة: هـ، ف). فيما يُنكر (**البروتستانت**) هٰذا الزعم، ولا يعترفون بقانونيَّتها الدِّينيَّة، وإنَّما يعدُّونها من قبيل الأسفار التعليميَّة التاريخيَّة والسِّيريَّة. والحقُّ أنَّ اليهود أنفسهم، وهم أهل الكتاب بعهده القديم، لم يعترفوا بتلك الأسفار، ولم يُدرِجوها، مع التسعة والثلاثين سِفرًا في «**العهد القديم**». وعن «**الأبوكريفا**»، (انظر: م.ن).

[1] يتنصَّل أهل الكتاب عادة إزاء مثل هٰذه المساءلات، قائلين: نحن لا نعتقد أن «**الكتاب المقدَّس**» من كلام الربِّ حرفيًّا، بل من وحي الروح القُدُس. على الرغم من ورود عبارة «**يقول الربُّ**»، كثيرًا، وربما مع الإشارة إلى تجلِّي الربِّ لأبطال الأسفار ومخاطبته إيَّاهم.

وسِيَرهم ورحلاتهم في الأرض، لا يمكن أن يعود كلُّه إلى (**مُوسَى**)، بطبيعة الحال، فضلًا عن أن يكون وحيًا، أو كلامًا خوطب به **مُوسَى** من ربِّه.

و«**سِفر الخُروج**»، ليس كلُّه- نصوصيًّا ولا منطقيًّا- من (**مُوسَى**) في شيء، اللَّـٰهُمَّ إلَّا ما فيه من اقتباسات منسوبة إليه، من تعاليم وتوجيهات، وبخاصَّة الوصايا العشر. فلم يكن **مُوسَى** ليسرد على الناس سيرته الذاتيَّة، ورحلته الخارقة من (**مِصْر**) إلى (**فِلسطين**)، وما كان ليقصَّها على شَعبه وهم معه، مرافقين في تلك الرحلة، فضلًا عن أن تكون تلك السَّرديَّة قد جاءت عن الله، أو عن ربِّ الشعب المختار (**يَهْوَه**). وإنَّما يمكن أن يُعَدَّ هٰذا السِّفر ضربًا من التراجم، وأدب الرحلات، فيه تدوينٌ تاريخيٌّ لرحلة (**بني إسرائيل**) من **مِصْر** لاحتلال (**أرض كنعان**)، وحكاية ما اعتورت الرِّحلة من مفارقات وظروف صعبة، دوَّنها راوٍ في وقتٍ لاحق.

كما أن بعض التفاصيل الشارحة في (**سِفر اللاويِّين**) وفي (**سِفر العدد**)، وتلك التي تحكي بضمير الغائب عن أعمال (**مُوسَى**)، وعن معاناته مع الشَّعب، إنَّما هي حكاية عنه، لا يستقيم في عقلٍ سَوِيٍّ أنها كانت صادرة من **مُوسَى**، ولا من ربِّه.

وكذٰلك ما يَرِد في الأسفار من سردٍ لأحداث إرهابيَّة فظيعة، لا تدلُّ على أن الكَتَبَة كانوا يتحلَّون بأدنى حِسٍّ أخلاقيٍّ أو إنسانيٍّ سليم، بل بتعطُّشٍ دمويٍّ مريض، لا يليق بالمجتمعات الإنسانيَّة، ودع القول إنها تليق بتعاليم ربِّ العالمين.

حتى إن (مَدْيَن)- التي كانت ملجأ (**مُوسَى**) من بطش فِرعون، وله بها علاقة مُصاهرة، ومنها زوجته (**صَفُّورة**)، وفيها خؤولة ابنه (**جَرْشُوم**)- لم تَسلم من التنكيل بها وبأهلها، كما جاء في «**سِفر العَدد**»[1]:

> «وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «انْتَقِمْ نَقْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ المِدْيَانِيِّينَ، ثُمَّ تُضَمُّ إلى قَوْمِكَ»... فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ. ومُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلَاهُمْ... وسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وأَطْفَالَـهُمْ، ونَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وكُلَّ أَمْلَاكِهِمْ. وأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. وأَخَذُوا كُلَّ الغَنِيمَةِ وكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ والبَهَائِمِ، وأَتَوْا إِلَى مُوسَى وأَلِعَازَارَ الكَاهِنِ وإلى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّبْيِ والنَّهْبِ والغَنِيمَةِ إلى المَحَلَّةِ إلى عَرَبَاتِ مُوآبَ التي عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا... وقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟... فالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. لٰكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ. وأَمَّا أَنْتُمْ فَانْزِلُوا خَارِجَ المَحَلَّةِ سَبْعَةَ أَيَّام، وتَطَهَّرُوا كُلُّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا، وكُلُّ مَنْ مَسَّ قَتِيلًا، فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ وفي السَّابعِ، أَنْتُمْ وسَبْيُكُمْ... وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «أَحْصِ النَّهْبَ المَسْبِيَّ مِنَ النَّاسِ والبَهَائِمِ... ونَصِّفِ النَّهْبَ بَيْنَ الَّذِينَ بَاشَرُوا القِتَالَ الخَارِجِينَ إلى الحَرْبِ، وبَيْنَ كُلِّ الجَمَاعَةِ. وارْفَعْ زَكَاةً لِلرَّبِّ. مِنْ رِجَالِ الحَرْبِ الخَارِجِينَ إلى القِتَالِ وَاحِدَةً. نَفْسًا مِنْ كُلِّ خَمْسِ مِئَةٍ مِنَ النَّاسِ والبَقَرِ والحَمِيرِ والغَنَم...»».

[1] الإصحاح الحادي والثلاثون.

أفهٰذا كلام إلٰهٍ عادلٍ رحيم؟! يأمر بقتل الأطفال، في هٰذه الإبادة الجماعيَّة، ويأمر بالسَّلب والنَّهب والحرق؟! وفي السِّفر الخامس، (**سِفر التثنية**)[1]، وهو من أسفار الشريعة الإلٰهيَّة الغرَّاء بزعمهم:

«وأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذٰلِكَ الوَقْتِ، وحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ والنِّسَاءَ والأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. لٰكِنَّ البَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا، وغَنِيمَةَ المُدُنِ الَّتِي أَخَذْنَا.»

«فَحَرَّمْنَاهَا كَمَا فَعَلْنَا بِسِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ، مُحَرِّمِينَ كُلَّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ والنِّسَاءَ والأَطْفَالَ. لٰكِنَّ كُلَّ البَهَائِمِ وغَنِيمَةِ المُدُنِ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا.»

«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ ويُسْتَعْبَدُ لَكَ. وإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. وإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلٰـهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وأَمَّا النِّسَاءُ والأَطْفَالُ والبَهَائِمُ وكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلٰـهُكَ. هٰكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هٰؤُلَاءِ الأُمَمِ هُنَا. وأَمَّا مُدُنُ هٰؤُلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلٰـهُكَ نَصِيبًا فَلَا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا، بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الحِثِّيِّينَ، والأَمُورِيِّينَ، والكَنْعَانِيِّينَ، والفِرِزِّيِّينَ، والحِوِّيِّينَ، واليَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلٰـهُكَ.»

---

[1] ٢: ٣٤- ٣٥؛ ٣: ٦- ٧؛ ٢٠: ١٠- ١٧.

أ فهٰذه شريعة الخالق ربِّ العالمين؟!

إنْ كانت كذٰلك، فشريعة (**فِرعون**) كانت أرأف وأرحم وأكثر تحضُّرًا!

وقد ظلَّ هٰذا ديدن هٰذه التعليمات الواردة في «**العهد القديم**»، التأكيد على استئصال الشعوب، والتنبيه إلى عدم التساهل بإغفال قتل الأطفال، أو الرُّضَّع، أو حتى الحيوانات، كما في تعليمات ربِّ الجنود للملك (**شاوُل**)، مثلًا: «**فالآنَ اذْهَبْ واضْرِبْ عَمَالِيقَ، وحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ، ولَا تَعْفُ عَنْهُمْ، بَلِ اقْتُلْ: رَجُلًا، وامْرَأَةً، طِفْلًا، ورَضِيعًا، بَقَرًا، وغَنَمًا، جَمَلًا، وحِمَارًا**»![1]

ولو أن هٰؤلاء الذين كتبوا هٰذه الجرائم كانوا يعقلون، لما سجَّلوا على أنفسهم هٰذه الفضائح التاريخيَّة، حدثتْ أم لم تحدث. ولو أنهم كانوا على درجةٍ، ولو بدائيَّة، من الأخلاق، لما قَبلوا مثل هٰذا، فضلًا عن أن يفاخروا به، ويَعدُّوه تشريعًا مقدَّسًا، وينسبوه إلى ربِّهم وأنبيائهم. ولٰكن، أيُّ جرائم، أم أيُّ فضائح، أو أخلاق؟ إنَّ القوم يعتقدون في مِثل هٰذا اعتقادَ دِينٍ راسخ؛ فيه إبادة البشَر واحتلال الأراضي من فروض ربِّهم! لا غرابة، إذن، أن تبقَى هٰذه العقيدة في احتلالهم (**فِلسطين**) في القرن العشرين والحادي والعشرين الميلاديَّين، كما كانت في احتلالاتهم القديمة قبل الميلاد، فما أشبه عقيدة الليلة اليهوديَّة بالبارحة!

على أن في (**سِفر التثنية**) ما يَرِد بضمير المتكلِّم (**مُوسَى**). فيُفهَم منه أنه من قصصٍ منسوبةٍ إلى **مُوسَى** يحكي فيها عن تجاربه المريرة، لا من وحي ربِّه. فهٰذا

---

[1] سِفر صموئيل الأوَّل، ١٥: ٣.

السِّفر كذٰلك حكايةٌ من الحكايات، لا يُعقَل أن يكون مصدرَه كلَّه **مُوسَى**، ولا ربُّ **مُوسَى**. حتى إن هٰذا السِّفر ليحدِّثنا عن موت **مُوسَى**، وأن قبره ظلَّ مجهولًا إلى أَيَّام كاتب هٰذا السِّفر. والكاتب يخبرنا عن سِنِّ **مُوسَى** عند وفاته، وعن حالته الصحيَّة، وأنها أُقيمت عليه مناحة شهرًا:

> **«فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. ودَفَنَهُ فِي الجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. ولَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هٰذا اليَوْمِ. وكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، ولَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ ولَا ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ. فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. فَكَمُلَتْ أَيَّامُ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى.»**[1]

وبذا فإن «**العهد القديم**»، في مجمله، مُصنَّفٌ بَشَريٌّ، مضمَّنٌ شواهد متناثرة واقتباسات هنا وهناك منسوبة إلى ربِّ الجنود، الذي كانوا يعتقدون أنه «**يسكن في الضَّباب**»، كما جاء على لسان (**سُلَيمان**)![2] وهو، على ذٰلك، مُصنَّفٌ بَشريٌّ، من تصنيف (**عَزْرا الكاهن**)، في معظمه على الأقل.[3] وإنْ كان يُمثِّل بمجمله تأليفًا جماعيًّا، نُسِج على مدَى قُرونٍ متطاولة، لا تَقِلُّ عن ألف سنة، حتى تُرجم من

---

[1] **سِفر التثنية**، ٣٤: ٥- ٨.

[2] انظر: **أخبار الأَيَّام الثاني**، ٦: ١.

[3] ويُعرَف كذٰلك بـ(**عَزْرا الكاتب**). وهو باعثُ اليهوديَّة بَعد الأَسْر البابلي. والفرق بين «التصنيف» و«التأليف»، أن الأوَّل تجميعُ معلوماتٍ ونصوصٍ وترتيبها بين دفَّتي كتاب، في حين أن التأليف عملٌ إبداعيٌّ أصيل.

العِبريَّة إلى اليونانيَّة، بمدينة (**الإسكندريَّة**)، في عصر (**بطليموس الثاني**)، ٢٨٢ق.م، في النسخة المعروفة بـ«**السبعينيَّة**».[١] دِينيًّا، ليس بمقدَّسٍ كلُّه، وما ينبغي له، حتى لدَى أهله، إلَّا بالمعنى الشعبي، بوصفه مأثورًا تراثيًّا عزيزًا على القوم. أي أن مصدره- عدا ما استثنيناه أعلاه- ليس بالربِّ، أو الغَيب. ولا يعتقد هٰذا حتى عقلاء اليهود أنفسهم؛ فهم يُدرِكون أنه مصنَّفٌ تراثيٌّ، كأيِّ مصنَّفٍ تراثيٍّ آخر، مع ما يحمل من شذرات مُوسَويَّة، تأتي بين حينٍ وآخَر في محيطٍ زاخرٍ من الأسفار القصصيَّة. وتاريخيًّا، لا يصلح تاريخًا بالمعنى العِلْمي لمصطلح «تاريخ»، حتى لو كان أصلُ وضعه وأهدافُ كتابته تصنيفَ كتابٍ في التاريخ؛ وذٰلك للظروف التي أحاطت به وبكَتَبَته على امتداد مئات السنين. ولهٰذا

---

[١] كثيرًا ما يفاخر أهل الكتاب بالمعلومات التاريخيَّة والجغرافيَّة التفصيليَّة التي يتضمَّنها «**العهد القديم**» مقارنة بـ«**القرآن المجيد**». ومع التحفُّظ على دعوَى العِلْميَّة التاريخيَّة والجغرافيَّة لـ«**العهد القديم**»، فإنه لأمرٌ طبيعيٌّ أن يكون «**العهد القديم**» كذٰلك؛ من حيث هو جنسٌ مختلفٌ من النصوص، بوصفه موسوعةً سَرديَّةً تراثيَّة، أُريدَ لها من قِبَل مؤلِّفيها غير المحدودين أن تكون حاويةً لتاريخ اليهود وثقافتهم. وإنَّما مَثلهم في تلك المفاضلة كمَن يفاضل بين «**دائرة المعارف الإسلاميَّة**» و«**القرآن**». ذٰلك أن بين الكتابَين اختلافًا نوعيًّا جليًّا. فالأوَّل موسوعةٌ معرفيَّةٌ من صُنع البشَر، وُضِعت لأغراض معلوماتيَّة مباشرة، والآخَر كتابُ وحيٍ، وإلهامٍ، وعِظةٍ، وتوجيهٍ عامٍّ، وليس كتاب تعليم مدرسيٍّ، ولا مرجعًا في الجغرافيا، ولا مدوَّنة لتاريخ عهدٍ من العهود أو أُمَّةٍ من الأُمم. ولصِلَةٍ بهذا، مُيِّز «**القرآن**» بمصطلح مشتقٍّ من «**القراءة**» في مقابل مصطلح «**الكتاب**» المشتقِّ من «**الكتابة**»؛ بما أن «**القرآن**» ليس بمُدوَّنةٍ، ولا بسِجِلٍّ تاريخيٍّ، شأنَ «**العهد القديم**». وقد كانت «**التوراة**» و«**الإنجيل**» قرآنَين في البدء، يُتلَيان ويُسمَعان. وإنَّما أُضيفَ إلى أوَّلهما التاريخ والأنساب والأخبار على أيدي الكَتَبَة، وتعدَّدت رواياتُ الآخَر بتعدُّد الرُّواة في أناجيل عِدَّة. هٰذا من حيث التسمية «الهويَّة». أمَّا بالمفهوم العام لـ«**كتاب**»، فكلُّها كتُب؛ لأنها تُكتَب بالأقلام على الصُّحف؛ لحفظها من النسيان، كما يُكتَب السِّقاء بالسُّيور، لحفظ مائه من الانسراب.

كان (**أدموند جاكوب**) يصرِّح بأن ما يقصُّه «**العهد القديم**» عن (**مُوسَى**) والآباء لا يتَّفق إلَّا قليلًا مع السَّرد التاريخي للأحداث، لٰكن الرُّواة في مرحلة النقل الشفهي أضفوا من خيالهم وأساليبهم في السبك القصصي ما أفرغ تلك الروايات في قوالب معقولة لدَى بعض المتلقِّين.[1]

وبهٰذا فإن التصوُّر أن «**التوراة**» الحاليَّة، ومن بعدها سائر أسفار «**العهد القديم**»، كتابٌ سماويٌّ، أو حتى كتاب (**مُوسَى**)، أو كتاب الدِّيانة اليهوديَّة، تصوُّرٌ لا أساس له ولا منطق فيه، وإنما يُمرَّر القول بأصالته وقداسته لأغراض سياسيَّة لا تخفَى.

٢- يَهْوَه / الإلٰه الطَّوْطَم:

كان سبب تأليف «**العهد القديم**»، وتدوين الكهنة بعض الذكريات التاريخيَّة فيه، والمحفوظات القوليَّة المتوارثة، هو قلقهم- بعد قرونٍ متطاولةٍ من الحروب، والسَّبْي، والتشرُّد- من ضياع ذٰلك التراث، وملاحظتهم أن بعض الشعب اليهودي شارعٌ في الارتداد عن عبادة (يَهْوَه)، وبعضه ذاهبٌ في اعتناق آلهة أجنبيَّة. إذ ذاك أخذ الكهنة يتساءلون عن السبيل إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فرأوا ضرورة وضع حدٍّ لتدهور عقيدتهم القوميَّة، وبعث ذٰلك التراث من سراديب

[1] انظر: بوكاي، ٢٥. وانظر منه أيضًا ما جاء تحت عنوان: «**أسفار العهد القديم**»، ٢٨- ٤٢.

التاريخ؛ كي يكون مرجعًا روحيًّا ومعرفيًّا يَؤُوْل إليه اليهود. فكان تصنيف تلك الأسفار، وجعلها بين دفَّتَي كتابٍ، هو «**العهد القديم**». ولم تأخذ «**التوراة**» وسائر أسفار «**العهد القديم**» صورتها المعروفة قبل العام ٣٠٠ ق.م.

وقد كانت الأساطير السُّومَريَّة، والبابليَّة، والفارسيَّة، وغيرها- ممَّا أظهرته الكشوف الأَثَرِيَّة في العصر الحديث- مَعينًا خِصبًا نَهَلَ منه الكهنةُ بعض القصص المسرودة في «**العهد القديم**»، مُضْفِيْنَ عليها الطابع الخاصَّ للثقافة اليهوديَّة، ولاسيما ما يتعلَّق بتكوين العالَم، وقِصَّة خَلق (**آدم**)، ودَوْر (**حَوَّاء**) و(**إبليس**) في إخراجه من الفردوس.[1]

أمَّا أَتباع «**التوراة**» اليوم، فكأَتباع كلِّ عقيدة عالميَّة، لا علاقة لهم بتاريخها بالضرورة، ولا بالأعراق التي نشأت تلك العقيدة بين ظهرانيها. ذٰلك أن هٰؤلاء الذين يحتلُّون (**فِلسطين**) الآن ليسوا بعِبرانيِّين، ولا إسرائيليِّين، ولا يهود. ليسوا بعِبرانيِّين؛ بالنظر إلى مَن أُطلِق عليهم هٰذا اللقب قديمًا، ولا بإسرائيليِّين؛ نسبةً إلى (**يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**)، ولا بيهود، منتسبين إلى بيت (**داوود**). ومن هنا فليسوا بساميِّين أصلًا، وإنَّما هم أوربيُّون شَرقيُّون، من (**الخَزَر**[2]، **المنغول**)- متسنِّمين

---

[1] انظر: ديورانت، ج٢ م١: ٣٥٦؛ ٣٦٦- ٣٨٤.

ومَن يعود إلى الألواح السُّومريَّة، بما تضمَّنته من أساطير وملاحم وقصص وأمثال، وما كشفت عنه من تصوُّرٍ حول بدء الخليقة والكون، يقف على التطابق بينها وكثيرٍ ممَّا جاء في «**العهد القديم**». (يمكن الرجوع في هٰذا إلى كتاب: كريمر، صمويل، **من ألواح سُومَر**).

[2] حول (**الخَزَر**)، راجع تعليقًا تعريفيًّا سابقًا: (الفصل الأوَّل، تحت عنوان «**٣١- أَسْرَلَة التاريخ**».

في **فِلسطين** قيادة الكيان الاحتلالي- من تحتهم شعبٌ ملوَّنُ الأعراق[1]، مستعبَدٌ من (**تاميل**)، و(**أحباش**)، و(**ألمان**)، وغيرهم، لا يعرفون **فِلسطين**، ولم يطأ أسلافُهم ثراها يومًا، قبل إحلالهم فيها ببَغْيٍ غربيٍّ، منافقٍ سياسةً وإيديولوجيا، اتَّخذ الاستعمارَ، ودَعْمَ الاستعمار، حِرفةً تاريخيَّة.[2] وإنَّما تربط هٰذا الخليط الغريب عقيدةٌ دِينيَّةٌ، وإيديولوجيَّةٌ سياسيَّةٌ صهيونيَّةٌ ملفَّقة، تضع الانتماء الدِّيني سُلَّمًا لاحتلال الأوطان، تحت ذريعة أن كتابهم الدِّيني كان يتحدَّث عن تاريخٍ وعن جغرافيا، قبل ثلاثة آلاف عام، مَثَّلا إذ ذاك الحاضن الشعبي لأتباع الدِّين اليهودي. هٰذا على الرغم من أن ذٰلك الحاضن القديم إنَّما احتلَّه أولٰئك الأتباع القدماء أيضًا، وبشهادة كِتابهم. بَيْدَ أنه كان احتلالًا مسوَّغًا، من وجهة روايتهم، ما دام ذا دمغةٍ إلـٰهيَّةٍ، ما ينبغي أن تُتلقَّى إلَّا بالقبول والإذعان، لا تُرَدُّ حقوقيًّا ولا تُناقَش عدليًّا. كيف وقد «**ظهر الربُّ**» شخصيًّا ليقدِّم مِنحته مناوَلةً إلى (**إبراهيم**)؟! وهٰذا الربُّ هو ربُّ (**بني إسرائيل**) الخاصُّ، الذي يَعُدُّ نفسه وجنوده عائلةً واحدة. يصحبهم في حِلِّهم وترحالهم، وفي حربهم وسلمهم، ويَظهر لهم مباشرةً على الجبال[3]، متى شاء أو متى شاؤوا،

---

[1] انظر ما جاء في تحليل هٰذا الادِّعاء لدَى: السقَّاف، ٣٦- ٤١.

[2] ولا غرابة في هٰذه الحرفة، ما دام الغرب المسيحي ينهل من المَعين التوراتي عينه، ويَعُدُّ «**العهد القديم**» جزءًا من كتابه المقدَّس، فيتقرَّب إلى (**الأب، والابن، والرُّوح القُدُس**) بنُصرة اليهود، ظالمين أو مظلومين!
هٰذا دِينٌ سياسيٌّ، لا هوادة فيه، وسياسةٌ دِينيَّةٌ، تسري من الهويَّة الغربيَّة مسرَى الدماء.

[3] غير أنَّ ربَّهم هٰذا ما لبث أنْ أدرك، بعد حادثة العِجْل، أنَّ تعاليه في الجبال غير مُجْدٍ، وأنَّه لا بُدَّ من التنازل كثيرًا؛ لأن القوم ما لم يجدوا إلٰههم ملموسًا بينهم، ستعبث بهم الذكريات والحنين فيلتمسون لهم إلٰهًا آخَر. من هنا جاءت فكرة أن يعيش (يَهْوَه) وسط شعبه، في «**خيمة الاجتماع**»، المُعَدَّة خصِّيصًا له، ثمَّ في «**التابوت**»، الذي يصطحبونه بين ظهرانيهم، سِلمًا وحربًا. وإنْ كانوا أحيانًا يُفلتونه لأعدائهم فارِّين إذا ←

ويخاطبهم هٰكذا بلا حجاب ولا رسول، ويُمارس المصارعة الحُرَّة مع بعضهم أحيانًا، ليُروِّض أبناءه وأَحِبَّاءه على القوَّة والشراسة اللازمين؛ ولا «تكليف» بين ربٍّ وأهل بيته، ولا بين حاكمٍ وشَعبه المختار! وليس ذٰلك، إذن، بالربِّ الذي نعرفه، والذي قال لـ(**مُوسَى**): «**لن تراني**». إنه ربٌّ قَبَليٌّ، ومتعصِّبٌ لقبيلته جِدًّا، ويَنظر إلى أفرادها بوصفهم أبناءه، فيميِّزها عن سائر الخَلق. تارةً يرضَى عنها فيُنزِل عليها المنَّ والسَّلوى، وتارةً ما يلبث أن يسخط فينقلب عليها نِقمةً إلٰـهيَّةً تليق بجبروته، كما صوَّروها، فيلعنها ويسحقها سَحقًا، أنبياءها وكهنتها وأطفالها ونساءها، عامَّتها وخاصَّتها، وحتى حيواناتها وأشجارها وأرضها! فكيف تُراه سيفعل بسِوَى شَعبه الحبيب من الشعوب الأُمميَّة؟!

إنه (**يَهْوَه**) في النهاية، رَبُّ (**بني إسرائيل**) العجيب، لا رَبُّ العالمين. رَبٌّ لم يكن يختلف كثيرًا عن أرباب الوثنيِّين في ذٰلك العصر، ولا عن ملوكهم وجبابرتهم وطُغاتهم. هو طَوْطَمٌ قَبَليٌّ، وهو طاغية، دمويُّ النزوع، لا ينتشي كما ينتشي بسفك الدماء، البشَريَّة أو الحيوانيَّة. تُقام له المذابح، وتُصْعَد المُحْرَقات، «**رائحةَ سرورٍ للربِّ**»[1]- كما يتردَّد في «**التوراة**»- شُكرًا أو استرضاءً؛ «**فَيتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ**

حَمِيَ الوطيس، كما رأيناهم يفعلون في غزوهم (**مكَّة**). (انظر: ابن مُنَبِّه، ١٧٩- ١٨٠).

[1] انظر مثلًا: **سِفر الخُروج**، ٢٩: ١٨، ٢٥، ٤١؛ **سِفر اللاويِّين**، ١: ٩، ١٣، ١٧.

و«**العهد القديم**» موسوعة- شرِهةٌ جِدًّا- في الأطعمة والمآكل، ولاسيما في ذبح قُطعان المواشي وكيفيَّات الطبخ والشَّيِّ، وطقوس توزيع الدماء، تحت ذريعة القرابين الكثيرة والكفَّارات التي لا تنتهي؛ ممَّا يذهب في النهاية إلى كُروش الكهنة وأقربائهم ومقرَّبيهم!

الرِّضَى»[١]، حين يشمُّ اللحوم المشويَّة أو يرى الدماء المسفوكة، فيُسَرَّى عنه، ويرضَى فيغفر ما تقدَّم من ذنب! وهٰذا شأن الطقوس البدائيَّة المعهودة لدَى الوثنيِّين في التقرُّب إلى الأنصاب، من الأصنام والأوثان وسائر المعبودات.

٣- ذٰلك الكتاب الأُسطوري:

جاء في «**العهد القديم**»: «**واجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ، وكَانَ الكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ، وظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هٰذِهِ الأَرْضَ»!**»[٢] كما قال الربُّ: «**أُعْطِي لَكَ ولِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا!**»[٣] ولا غرو، فـ(**كنعان**) نفسه كان ملعونًا من قَبل، على لسان الربِّ «العنصري»: (**يَهْوَه**)، لسببٍ غير واضح. فهٰذا الإلٰه غريب الأطوار، حسب صورته في «**العهد القديم**»، يذكِّرك ببعض الشخصيَّات في أفلام الأطفال «الكرتونيَّة». والعقل في تلك المرحلة الإنسانيَّة كان أشدَّ طفوليَّة من عقل أطفال اليوم، يقتات على الخيالات الأُسطوريَّة، ممجِّدًا الأبطال المتأبِّطين بالتوحُّش والنَّزَق، معتقِدًا أن الإلٰه لا بُدَّ أنه بطلٌ مثل أولٰئك الأبطال الشعبيِّين، غير أنه أكبر منهم وأعظم وأفتك وأشدُّ تدميرًا! وكلَّما ازداد البطل غرابةً وفتكًا، ازداد مهابة وقداسة.

---

[١] سِفر التكوين، ٨: ٢١.

[٢] م.ن، ١٢: ٦-٧.

[٣] م.ن، ١٧: ٨.

والنصُّ في «**العهد القديم**» ينطوي، كما ترَى، على تصوير هٰؤلاء القوم العِبرانيِّين رحَّالين، لا أرض لهم، يحلمون بأرضٍ، كسائر الأقوام، تُقِلُّهم، وبدِيارٍ تُؤويهم. وهٰذا أمرٌ طبيعيٌّ؛ لأنهم إنَّما جاؤوا لاجئين إلى أرض (**كنعان**)، قادمين من (**أُور**) الكلدانيَّة في (**العِراق**)، لا تُراب لهم في (**الشَّام**) ولا تُراث. وامتلاك الشعوب أراضيها لا يكون إلَّا بالوراثة القوميَّة، عن الآباء والأجداد، أو بالشِّراء. أمَّا هٰؤلاء، فقد أرادوا اختصار الأمر على أنفسهم؛ إذ لا إرث يسوِّغ لهم امتلاك أرض **كنعان**، ولا قُدرة لهم على الشِّراء، أو لا رغبة لهم فيه، أو لا قبول من أرباب البلاد الأصليِّين للبيع.

فما الحل؟

لا حلَّ إلَّا بالسَّطْو المسلَّح، ووضع اليَد على بلدان الآخَرين، وإخلائها من أهلها بالقُوَّة، ولا أسهل حينئذٍ من التسلُّح بوعدٍ عُلويٍّ سماويٍّ إلٰـهيٍّ، وتوريثٍ ربَّاني! وما العجيب في هٰذا السلوك الاستغلالي؟ فلقد نَسب «**العهد القديم**» إلى (**إبراهيم**) ما هو أشنع، من استغلال كلِّ وسيلةٍ إلى غاياته المادِّيَّة. بما في ذٰلك استغلال أنوثة امرأته (**سارة**)، واستثمار جمالها في عيون المِصْريِّين، زاعمًا أنها أخته لا زوجه، كي يحظَى لديهم بما يحظَى. ونجحت خِطَّته الماكرة، فأعجبت المرأةُ المِصْريِّين جِدًّا، وصار **لإبراهيم**، من وراء ذٰلك الإغواءِ، المالُ الوفير:

> «**وحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ... وحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ**

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هٰذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي ويَسْتَبْقُونَكِ. قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ». فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ المِصْرِيِّينَ رَأَوْا المَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. ورَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ ومَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ المَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وصَارَ لَهُ غَنَمٌ وبَقَرٌ وحَمِيرٌ وعَبِيدٌ وإِمَاءٌ وأُتُنٌ وجِمَالٌ. فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ. فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وقَالَ: «مَا هٰذا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ والآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا واذْهَبْ!». فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالًا فَشَيَّعُوهُ وامْرَأَتَهُ وكُلَّ مَا كَانَ لَهُ.»[١]

وبهٰذا جعل مصنِّفو «**العهد القديم**» (**فرعونَ**) أنبلَ من (**إبراهيم**) وأعقلَ وأتقَى![٢] بل إن تصوير هٰذه «الوصوليَّة» قد بلغ في موضعٍ آخر من «**العهد**

---

[١] م.ن، ١٢: ١١- ٢٠.

[٢] ويحكي «**العهد القديم**» أن (**إبراهيم**) كرَّر ذٰلك مع (**أبيمالك**)، مَلِك (**جَرار**). وما كانت حُجَّة **إبراهيم** إلَّا أنْ قال: «**إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هٰذا المَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ البَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لأَجْلِ امْرَأَتِي. (وبالحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً.) وحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هٰذا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قُولِي عَنِّي: هُوَ أَخِي». فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وبَقَرًا وعَبِيدًا وإِمَاءً وأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، ورَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. وقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هُوَ ذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسُنَ فِي عَيْنَيْكَ»...**». (**سِفر التكوين**، ٢٠: ١١- ١٥). ثمَّ بعد هٰذا مباشرةً يُورِد «**العهد القديم**» «**المعجزة الإلٰهيَّة**» في مولد (**إسحاق**) **لإبراهيم**، على الرغم من شيخوخته، وهو ما كان مثار ضَحِك (**سارة**) نفسها! واسم **إسحاق** مشتقٌّ من ذٰلك الضَّحِك. ونظائر هٰذا كثيرة مشتهرة في قصص «**الكتاب المقدَّس**» الجنسيَّة والدمويَّة التي تنتظم «**العهد القديم**»، حتى لقد كوَّنت، على سبيل النموذج، مادة خصيبة ومثيرة لتأليف كتبٍ، ككتاب (كريتش، **حكايا محرَّمة في التوراة**)، ومن ذٰلك قِصَّة (**نُوح**) مع أبنائه، و(**لوط**) مع بناته، و(**داوود**) مع (**بَتْشَبَع**) أُمِّ (**سُلَيمان**)؛ ليتساءل المؤلِّف- في نهاية تلك السِّلسلة من الحكايات اللا أخلاقيَّة-: عن ذٰلك العبقريِّ الذي كتبَ «**العهد القديم**»؟!

القديم» إلى تصوير احتيال (**يعقوب**) على أبيه، كفيفِ البَصر، وترتيب تمثيليَّةٍ مع أُمِّه (**رِفقة**) كي يَظُنَّ (**إسحاقُ**) أن الذي أمامه هو (**عِيسُو**) أخو **يعقوب** فيباركه. وتمَّ له ذٰلك، وبارك **إسحاقُ يعقوبَ**، ظانًّا إيَّاه **عِيسُو**.[1] وبهٰذا المشهد الهزلي جعل «**العهد القديم**» البركةَ رهينةَ الإنسان، لا بِيَد الله، ومَثَّلها قابلةً لممارسة المكر والاحتيال والكذب على أيدي الأنبياء البَرَرة! فأيُّ كتابٍ ساخرٍ بقِيَم الألوهيَّة والنبوَّة والإنسانيَّة هٰذا الذي سَطَّره كهنة (**بني إسرائيل**)؟! وأيُّ دِينٍ هٰذا الذي يُشرعِن الكذب، والتزوير، وارتكاب الخطايا والفواحش، ويجعل ذٰلك كلَّه مناط القُدوة الأخلاقيَّة لأتباعه، ويسجِّله في كتابهم المقدَّس، الذي ينسبه إلى الخالق، مخلِّدًا فيه شواهدَ بيِّنةً لِمَن شاء أن يتأسَّى بأبناء الله وأحبائه ومختاريه من خلقه! يفرِّق فيه الآباءُ بين أولادهم، والأُمَّهات بين أولادهن، مُوغِرينَ صدور بعضهم على بعض، مُوقِعين بينهم العداوات والأحقاد والثارات. والأبناء بدَورهم ما ينفكُّون يَحُوْكُون المؤامرات على الآباء والإخوة، لنيل أنصبةٍ أكبر من الفرائس. فيا لها من أُسَرٍ نبويَّةٍ صالحةٍ سعيدة! ولا غرابة، ما دامت تلك أخلاقهم في ما بينهم، أنْ تتَّسِم أخلاقُهم مع سِواهم بما هو أدهَى وأفظع.

تلك هي سيرة أنبياء (**بني إسرائيل**)، تُصوِّر اللهَ شريكًا في إمضاء ما تَسرُد من سلوكيَّاتٍ منحطَّة- حتى بمعايير أحطِّ الأُمم الوثنيَّة- أو تصوِّره مستغفَلًا من أذكياء **بني إسرائيل** وعباقرتهم، الذين لا ريب أنَّ عقليَّتهم البدائيَّة التي سوَّغت

---

(1) انظر: **سِفر التكوين**، الإصحاح ٢٧.

احتيال (**يعقوب**) على أبيه، ثمَّ قصَّت احتيال أبناء **يعقوب** على أبيهم، لا بأس لديها في أنْ يكون الله نفسه- الذي يَعُدُّوْنه أباهم الأعلى- محتالًا أكبر أيضًا وواقعًا عليه الاحتيال. ولا عجب، فصورة الربِّ لدَى هٰؤلاء قد بَدَتْ باستمرارٍ صورةً بَشَرِيَّة، حمقاء، مبتذلة، حتى إنَّ الاعتراف بألوهيَّته كانت مشروطةً لديهم بما يقدِّمه لهم من خدمات، وبما يمنحهم إيَّاه من هِبات، كما جاء على لسان **يعقوب**: «**وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْرًا قَائِلًا: «إِنْ كَانَ اللهُ مَعِي، وحَفِظَنِي فِي هٰذا الطَّرِيقِ الَّذِي أَنَا سَائِرٌ فِيهِ، وأَعْطَانِي خُبْزًا لآكُلَ وثِيَابًا لأَلْبَسَ، ورَجَعْتُ بِسَلَامٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي، يَكُونُ الرَّبُّ لِي إِلٰـهًا، وهٰذا الحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللهِ، وكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ**».»

ذٰلك الكتاب الأُسطوري هو، إذن، ما قدَّسته طائفةٌ دِينيًّا، وأوشكت أن تُقدِّسه طائفةٌ أخرى تاريخيًّا، وليس له كبير حظٍّ من القداستَين، بمقدار ما كان كتابَ أحلامٍ، وسياسةٍ، فاضت بها أساطير الأوَّلين.

٤- حاملو اللواء الإسرائيلي من العَرَب:

على الرغم من أن (**إبراهيم**) خرج من (**أرض كنعان**) إلى (**مِصْر**) بسبب المجاعة، وكذٰلك خرج (**يعقوب**) وأولاده بسبب المجاعة، فقد صارت أرض **كنعان** فجأة أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا، حسب «**العهد القديم**»، حينما اضطُرُّوا إلى مغادرة **مِصْر** قافلين من حيث أَتوا: «**فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي المِصْرِيِّينَ، وأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ**

الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ ووَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وعَسَلًا، إِلَى مَكَانِ الكَنْعَانِيِّينَ والحِثِّيِّينَ والأَمُورِيِّينَ والفِرِزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبُوسِيِّينَ.»[1]

من أجل هٰذا كانت اللُّعبة السياسيَّة تبدو فاغرة فاها دائمًا، وَفْقَ «**العهد القديم**»، في علاقة العِبرانيِّين القدماء بأرض (**فِلسطين**) قبل ثلاثة آلاف عام. غير أنَّها تتعرَّى تمامًا في العصر الحديث بصورةٍ أشدَّ قبحًا وسماجةً وتدجيلًا؛ وقد فقدت كلَّ أوراق التوت من المشروعيَّات المدَّعاة، بما في ذٰلك المشروعيَّة الأُسطوريَّة العنصريَّة العتيقة، التي جُعِل الربُّ من خلالها «محرِّج» عقارات لـ(**بني إسرائيل**)، أو وزير شؤون بلديَّة، ينتزع ملكيَّات الأراضي من الشعوب كي يوزِّعها مِنَحًا إلٰهيَّة مجَّانيَّة بين أبنائه وأحبائه وشعبه المختار! ذٰلك أن يهود اليوم لم يعودوا قوميَّةً، ولا شعبًا واحدًا من الشعوب- فضلًا عن أن يكونوا «**شعب الله المختار**»!- ولا يربطهم تاريخٌ ثقافيٌّ واحد، بل هم شراذم من شتَّى الأُمم والأصقاع، جمعتْهم خرافةٌ، صيَّروها دِينًا سياسيًّا. لم يعودوا عِرقًا عنصريًّا- بلغت عُنصريَّته العِرقيَّة إلى القول إنَّ اتِّخاذ نساء من شعوب الأرض خيانة عظمى لإلٰههم وإثمًا فاحشًا يستدعي التطهُّر وإخراج كلِّ أولٰئك النِّساء والَّذين وُلِدُوا منهنَّ من شعبهم المختار، حسب وصايا إلٰههم، كما جاء في (**سِفر عَزْرا**)[2]- وإنْ ظلُّوا اليوم دِينًا عُنصريًّا من كلِّ الأعراق، يحتقر الآخَر، ويسطو عليه باسم التفويض الإلٰهي العتيق.

---

[1] **سِفر الخُروج**، ٣: ٨.

[2] **انظر**: الإصحاح العاشر.

هٰذا التراث الأُسطوري، الذي أُدلِج وجُعِل دِينًا سياسيًّا، يأتي اليوم بعض أبطال التأليف التاريخي من العَرَب ليجعلوه أيضًا تاريخًا موثوقًا، يُعمِلون عبقريَّاتهم في انتحال تفاصيله الجغرافيَّة، فإنْ لم يجدوها في بلاد (**الشَّام**)، أَلْفَوها من عند أنفسهم في (**اليَمَن**)، أو في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، أو في (**الحِجاز**)، متطوِّعين باختلاقها لـ(**بني إسرائيل**)، ولمُنتحلي مِلَّتهم إلى يوم الدِّين. ومن هٰؤلاء المؤلِّفين «ثالثة الأثافي» الذي هٰذا الفصل بصدده.

لن تجد في كتاب «**جغرافيَّة التوراة**» جديدًا. ومن الغريب تأليف كتاب لا يحمل سِوَى تكرارٍ لما سبق في كُتب أخرى لآخرين! في الوقت الذي يُفاخِر مؤلِّفه قائلًا: «**عملي هو الأوَّل في هٰذا المجال**»!(1) مع أنَّه لم يَعْدُ نقل آراء (**كمال الصَّليبي**)، لتأكيدها، ولعرض أسماء المواضع في جداول طويلة جِدًّا، يُشار في أحد حقولها إلى اسم المكان التوراتي، وفي الآخر إلى تفسيره التوراتي، وفي الثالث إلى تفسير المؤلِّف. وتفسير المؤلِّف هٰذا عَرْضُ احتمالاتٍ عشوائيَّةٍ كثيرةٍ بلا حدود، يَحتمل فيه أن المقصود قد يكون هٰذا المكان أو ذاك المكان أو ذٰلك المكان. وهي احتمالاتٌ لا رابط بينها أكثر من تشابُه بعض الحروف في الأسماء؛ بلا تعليل لتلك الاحتمالات، ولا ترجيح بينها، ولا استناد إلى معلومة، ولا على دليلٍ أو منطقٍ وراء سرد «تفسيرات المؤلِّف». والتفسير عِلْم، حتى في مستوى التأويل، لا يُلقَى على عواهنه اعتباطًا، وفي تَعَدُّدٍ من الاحتمالات، لا تُبقي رؤيةً ولا رأيًا محدَّدًا.

(1) مُنَى، زياد، ٢٠٥.

ولقد كان (**الصَّليبي**) يُزجي وراء اقتراحاته التأويليَّة بعض القرائن من معلوماتٍ أو أحداث، مهما تكن نِسبة إقناعها أو دِقَّتها أو صِحَّتها. أمَّا (**زياد مُنَى**)، فلا يعنيه شيءٌ من ذٰلك! كما لا يعنيه توثيق ما يَذكر من معلومات، بل هو غالبًا يُرسلها هٰكذا إرسالًا، كأنَّه مرجعها الأوَّل والأخير؛ فلا حواشي، ولا إحالات إلى مَراجِع، سِوَى «**الكتاب المقدَّس**»، وما عداه، فقد جَعل نفسَه هو «ابنَ بجدتها»، إذا قال، فصدِّقوه! ولذا تراه ينسب في مَتنه إلى هٰذا المستشرق، أو إلى ذٰلك الإغريقي، أو حتى إلى مَن يدعوهم «**أهل الاختصاص**»، هٰكذا دونما توثيق. مكتفيًا في نهاية الكتاب بسرد بِضعة مراجع تقليديَّة عامَّة، من جملتها- بطبيعة الحال- «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**». وعجيبٌ أن يُحمَل ادِّعاءُ «**جغرافيَّة التوراة**» العريضُ على خواء من المرجعيَّات التوثيقيَّة المكافئة عِلْميًّا لدعواه. متسلِّحًا- عِوَض تقديم البيِّنات على ما يزعم- بعبارة «**لا شكَّ**»، كما كان أستاذه **الصَّليبي** من قَبل يأتي مدَجَّجًا بـ«**لا بُدَّ**»! فلا تدري هنا لِـمَ «**لا شكَّ**»، كما لم تكن تدري هناك لِـمَ «**لا بُدَّ**»؟![1] أ هو اختلال المنهاج، أم عدم رجوع المؤلِّف إلى ما يشير إليه من معلوماتٍ في مظانِّها، أم الهرب من المسؤوليَّة العِلْميَّة أمام القارئ المدقِّق؟ أيًّا ما يكن السبب، فإنه مسلكٌ يَصِم الكتاب بالضحالة العِلْميَّة، منتهيًا به إلى ما يُشْبِه الصَّدى عن كُتب **الصَّليبي**، أو التعليق عليها، وجدولة معلوماتها، لا أكثر.

---

[1] مثال ذٰلك قوله، بكلِّ بساطة: إن قبيلة حِجازيَّة اسمها «**الفراعنة**»: «**لا شكَّ أنها من أحفاد فراعنة إقليم مِصْر**»!

وواضحٌ هوسُ (**مُنَى**) بـ(**الصَّليبي**) وبكُتبه، وتغنِّيه بهما، ونقله عنهما، من خلال كتابه هٰذا وغيره. ولا غرو، فقد جاء حول مسيرته في ميدان البحث التاريخي أنَّه لم يكن له شأن بالتاريخ أصلًا قبل انخطافه بأَخَرَةٍ بكتاب **الصَّليبي** الأوَّل الذي أُهدي إليه، فأثار شجونه. فتخصَّص الرجل في (**إدارة الأعمال**) وفي (**الفلسفة**)، لٰكنه بعد أن أهداه أحد الأصدقاء كتاب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، تنفَّس الصعداء، قائلًا: «بيدي لا بيد كمال»**!** فاستعان بـ(**عرفان شاهين**)، الأستاذ في (**جامعة جورج تاون**)، الذي قال له بأمانة: «**إنَّ كلَّ شيءٍ يمكن أن تكتبه أو تبحث فيه موجودٌ في مؤلَّفات الطبري**»**!**[1] فلم يقنعه ذٰلك البرود العِلْمي، فاقتحم بحر التاريخ، وقرَّر أن يُدير أعمالًا من نوعٍ آخر.

ربما قال قائل: إن السبب العاطفي السياسي فاضحٌ وراء تأليف (**مُنَى**) هٰذا الكتابَ في التاريخ، كما كان السبب الإديولوجي القومي صارخًا وراء تأليف (**أحمد داوود**) كتابه «**العَرَب والسَّاميُّون**»، وكما بدت مريبةً الأسبابُ العقديَّة وراء كُتب (**الصَّليبي**) المتعدِّدة. إنها العواطف الإديولوجيَّة، سياسيَّةً، أو قوميَّةً، أو حتى طائفيَّة. غير أنَّه لا يعنينا الدخول في العواطف والنِّيات، ولا وراء الخلفيَّات الذهنيَّة والمعرفيَّة لتأليف تلك الكتب، بل حسبنا ما تشهد به الكتب نفسها على نفسها، من أنَّها لم تؤلَّف لوجه البحث، ولا في سبيل العِلْم والتاريخ، وإنَّما لأغراض

---

[1] يُنظر: أبو حمدة، ***«زياد منى يغوص في متاهة التاريخ»***، (جريدة «**البيان**» الإماراتيَّة، ٢١ أغسطس ٢٠١١)، على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/sQv3kM.

أخرى. آيات ذٰلك طافحةٌ على صفحاتها، متبدِّيةٌ في اندفاعاتها غير العِلْميَّة، وغير المنهاجيَّة، بل غير المتلبِّثة لاستقاء المعلومات الصحيحة من أهلها. ومن ثَمَّ الضرب عرض الحائط بكلِّ ما ناقض الهوى، أو عارض النتائج المبتغاة، المبيَّتة قبل البحث. وهي أدواء عصفت بأعمال الثلاثة بلا استثناء، تقوَى هنا أو تضعف هناك، بَيْدَ أنها ما انفكَّت آخذةً بتلابيبها.

٥- القلب والاستبدال في اللغة والتاريخ:

حسبك بالباحث خَطَلًا أن يقرِّر النتيجة قبل البحث، بل يُعَنْوِن بها مشروعه! ومن ثَمَّ فإنَّما يأتي عملُه للمرافعة عن تلك النتيجة الناجزة، والتماس ما يبرِّرها، وإنْ باللتيَّا والتي، وبالهياط والمياط، ومهما تهافتت الأدلَّة وتضعضع الاستدلال. وهٰذا منهاجٌ معروف، لدَى مَن يجعل العَرَبة أمام الحصان في مثل هٰذا الميدان! وقد أعرب مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» عن هٰذه السبيل المتنكِّبة غير سبيل البحث الصحيحة، حيث قال: «**بما أنَّ هٰذا العمل ينطلق من مقولة أنَّ العهد القديم هو تسجيلٌ لتاريخ بني إسرائيل في (عسير)، وليس في (فِلسطين)، فمن الضروري محاولة استقراء جانبٍ من تاريخ (جزيرة العَرَب)... باحثين عمَّا يدعم تحديدنا الجغرافي هٰذا.**»[1] وكذٰلك كان الثلاثة، (**كمال الصَّليبي**) و(**أحمد داوود**) و(**زياد مُنَى**)، يفعلون؛

---

[1] مُنَى، ٤١.

فنتائجهم مبيَّتة سَلَفًا، ومقولاتهم راسخةٌ قبل البحث؛ ولم يندفعوا إلى التأليف بحثًا عِلْميًّا متجرِّدًا من الأغراض، كما ينبغي للبحث العِلْمي أن يكون، بل باحثين عمَّا يدعم تحديدهم الجغرافي المُراد، رغم آناف العِلْم واللغة والتاريخ والجغرافيا.

ولقَلْبِ التاريخ كان لا بُدَّ لدَى هٰؤلاء من أن يشتغلوا على مسألة القلب والاستبدال اللغوي ما وسعهم الاشتغال؛ حتى بلغ الأمر بـ(مُنَى)[1] إلى القول: «**وأنا على قناعة** [كذا!] **بأنَّ كلمة (عِبْري) هي صيغة استبدال من كلمة (عَرَبي)**»! ولا ريب أنَّ في هٰذه القناعة كنزًا لا يفنَى من قلب الحقائق واستبدال الباطل بالحق. وعندئذٍ سيغدو كلُّ شيءٍ جائزًا، وكلُّ لفظ دالًّا على غير معناه، بأُلعوبة القلب والاستبدال تلك. حينئذٍ سيأتينا كلُّ كاتبٍ على «**قناعة**» بما شاء لما شاء، ممَّا لا يملك عليه سَنَدًا ولا دليلًا، ومع ذٰلك سيدبِّج مُنتَجًا ركاميًّا عن «**قناعاته الشخصيَّة**»، لا وزن عِلْميًّا لما يسرد فيه من خواطر رغبويَّة، لا لغة تحترم ولا تاريخ ولا منهاج!

وقد جاء صاحبنا ليُعيد القول حول (**مِصْر**)، ووجود أماكن مشتقَّةٍ من حروف هٰذه المادَّة الساحرة، إنْ في (**الحِجاز**) أو في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، مردِّدًا الاستدلال بذٰلك على أنَّها هي المقصودة في قصص (**بني إسرائيل**).[2] ولن نُعيد معه القول في دحض هٰذا الافتراء المكرور، فقد ناقشنا ذٰلك في الفصلَين السابقين. على أنَّه أمرٌ داحضٌ أصلًا بخواء الدليل عليه. بل إنَّ الأماكن المشتقَّة أسماؤها من

---

(1) ٣٩.

(2) انظر: مُنَى، ٥٣- ٠٠.

حروف هٰذه المادَّة منبثَّة في شتَّى أرجاء **الجزيرة العَرَبيَّة**، ولا معنى للاستدلال بمثل هٰذا الاسم البتَّة على ما يستدلُّ به عليه. لكأنما هٰؤلاء ينسون أو يتناسون أنَّ كلمة «**مصر**» كلمةٌ عَرَبيَّة، يمكن أن تُطلَق على الأماكن المختلفة قديمًا وحديثًا. ذٰلك أنَّ المِصْر، في العَرَبيَّة: الحاجِزُ والحَدُّ بين الشيئين؛ قال (**أُمَيَّة بن أبي الصَّلت**)، ويُنسب إلى (**عَدِيِّ بن زيد العبادي**):

وجاعلُ الشمسِ مِصْرًا لا خَفاءَ بهِ ... بينَ النهارِ وبينَ اللَّيلِ قد فَصَلا

قيل معناه: جعل الشمس حَدًّا وعَلامةً بين الليل والنهار. وقيل المِصْر: الحدُّ بين الأَرضين، والجمع مُصُور. ويقال: اشترى الدارَ بمُصُورها، أي بحُدودها. وكان أهل **مِصْر** يكتبون في شروطهم: اشترى فلان الدارَ بمُصُورها، وكذٰلك كان يَكْتُبُ أهل (**هَجَر**). والمِصْر: الحدُّ في كلِّ شيء، وقيل: المِصْر: الحدُّ في الأرض خصوصًا. والمِصْر: واحد الأَمْصار. والمِصْر: الكُورة من الأرض، والجمع أمصار. ومَصَّروا الموضع: جعلوه مِصْرًا. وتَمَصَّرَ المكانُ: صار مِصْرًا. وقيل: المِصْر في كلام العَرَب كلُّ كُورةٍ تُقام فيها الحُدود ويُقسَّم فيها الفَيْءُ والصَّدَقاتُ من غير رجوعٍ إلى الخليفة. ومَصَّرَ فلانٌ الأمصارَ كما يقال مَدَّنَ المُدُن. والمِصْر كذٰلك: الطِّين الأحمر. وثوب مُمَصَّر: مصبوغ بالطِّين الأحمر أو بحُمْرة. والمِصْر: الوعاء أيضًا.[1] إلى غير هٰذا من معاني هٰذه المادة اللغويَّة. فبأيِّ وجهٍ يسوغ أن

---

[1] انظر مثلًا: ابن منظور، (مصر).

يُستدلَّ من تسمية مكانٍ ما في **الجزيرة العَرَبيَّة** بـ(**مصر**)- أو بنحو هٰذا الاسم[1]- على أنه بُرهان على علاقته بـ(**مِصْر وادي النِّيْل**)؟! غير أن هٰؤلاء لا تعنيهم اللغة العَرَبيَّة، ولا تاريخها، ولا العَرَب، ولا تاريخهم، بل ما يعنيهم فقط التقاط اسمٍ فيه (م، ص، ر)، بأيِّ صورةٍ من صور التصريف، ليقولوا هي: **مِصْر** المذكورة في قصص (**بني إسرائيل**) لا غير، هٰكذا سذاجةً، و«لا بُدَّ»، و«لا شك»**!**

كما أعاد (**مُنَى**) القول حول (**طُوَى**). وقد تقدَّم قولنا حول تعدُّد المواضع بهٰذا الاسم، من (**عُمان**) إلى (**سيناء**). ولهٰذا كان كلُّ مؤلِّف يخبط في ادِّعائه أن **طُوَى** في مكانٍ من (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ لأنَّ لكلِّ مكانٍ طُواه؛ فـ(**الصَّليبي**) وجد الاسم في (**عسير**)، و(**داوود**) وجدَ الاسم في (**غامد**)، وثالثهم وجدَه في (**مكَّة**). وكلٌّ راكبٌ رأسه أنَّ طُواه هو الطُّوَى المقصود في «**التوراة**» و«**القرآن**»، لا غير**!** واختلافهم على هٰذا النحو يشي- في ذاته- بفساد استدلالاتهم جميعًا؛ لأنها استدلالات رأس مالها الحروف اللغويَّة لا أكثر. ومثلما ضلُّوا السبيل حينما لم يلتفتوا إلى أصالة اسم (**مِصْر**) في العَرَبيَّة، ضلُّوا السبيل حينما لم يلتفتوا إلى أصالة اسم (**طُوَى**) في العَرَبيَّة كذٰلك؛ فارتأوه عَلَمًا على مكانٍ معيَّنٍ، لا ثاني له، هو الوادي المقدَّس **طُوَى**. بل ذهب (**مُنَى**)[2] إلى محاولة تأصيل الاسم في اللغة المِصْريَّة القديمة؛ ليدَّعي أنَّه يدلُّ على استيطانٍ مِصْريٍّ كان في **جزيرة العَرَب**، «ولا بُد»**!**

---

[1] حتى إن اسم (مُضَر)- وهو اسم ذٰلك الشَّعب من القبائل العَرَبيَّة المشهور- لم يسلم من ربطه باسم (مِصْر). (انظر: مُنَى، ٥٨). وتلك من آيات التشبُّث العاجز بأيِّ هواء!

[2] ٥٩.

ولولا هوسهم ذاك بالادِّعاء، لأدركوا أن كلَّ وادٍ خليقٌ بأن يوصف في العَرَبيَّة بأنه **طُوَى**، أو (**ذو طُوَى**)، بطبيعته. ذٰلك لأنَّ الطَّيَّ: نَقِيض النَّشْر، ومنه طَيَّة وطُوًى. وأَطواءُ الشيء: طَرَائِقُه ومَكاسِرُ طَيِّه، واحدُها طِيٌّ، بالكسر، وطَيٌّ، بالفتح، وطِوًى. وطِوَى الحيَّة، مثلًا: انْطِواؤُها. وقيل: طُوًى مثل طِوًى، وهو الشيء المَثْنِيُّ. ومن هنا قالوا، في قوله تعالى: ﴿**بالوادي المُقَدَّسِ طُوَى**﴾؛ أَي طُوِيَت فيه البَرَكة والتَّقْدِيسُ مَرَّتَين. **وذو طُوًى**، مقصورًا: وادٍ بـ(**مكَّة**)، وجاء في بعض الكتب ممدودًا. وذو طُواءٍ: موضع بطريق (**الطائف**) أيضًا، وقيل: وادٍ. وعرَّف (**ابن الأَثير**) «**ذا طُوَى**» بأنه موضع عند باب **مكَّة** يُستحبُّ لمن دخل **مكَّة** أن يغتسل به.[1] ومن تحليل هٰذه المادة اللغويَّة يظهر أن أصل هٰذا الاسم وصفٌ، وهو وصفٌ لطبيعة المكان، وإنْ تأوَّل معناه مَن تأوَّل على معنى القداسة والبركة في (**وادي طُوَى**) القُرآني. لأجل ذٰلك تعدَّدت المواضع بهٰذا الاسم وجذر المعنى يبدو واحدًا.

٦- من الشَّعوذة اللغويَّة في قراءة التاريخ:

حينما تُعْوِز هٰؤلاء المؤلِّفين شواهدُ التراث العَرَبي أو غير العَرَبي لما يأتفكون من دعاوَى، فما ينفكُّون ينقِّبون عن أيِّ ومضة، مهما تكن باهتة عابرة، لتضخيمها وإبرازها مستنَدًا موهِمًا بتأييد التراث لمقولاتهم، كلٌّ بحسب وجهته، والمكان الذي قرَّر أن يُحِلَّ (**بني إسرائيل**) فيه.

---

[1] انظر: ابن منظور، (طوي).

يفعل ذٰلك (**زياد مُنَى**)[1] كما فعله صاحباه من قبل، فيقول، مثلًا: «**لاحظَ الأزرقي في مؤلَّفه «أخبار مكَّة» أن نساء اليهود كنَّ ينزعن أحذيتهن بمجرد الاقتراب من الوادي المقدس «طوى» قرب مكَّة المكرَّمة.**» ولم يوثِّق موضع ورود هٰذا الخبر من كتاب (**الأزرقي**). حتى إذا رجعتَ إلى كتاب **الأزرقي** وما ورد فيه عن (**ذي طُوَى**)، لم تجد ما أشار إليه صاحب «**جغرافيَّة التوراة**» مِن فِعل «**نساء اليهود**»، فضلًا عن إقحامه صفة «**المقدَّس**» على اسم الوادي، من عنديَّاته. وإنَّما ستجد خبرًا، أشار محقِّق الكتاب إلى ضعف سنده، عن سلوك بعض «**الإماء**»، تحديدًا، من (**بني إسرائيل**)؛ حيث جاء تحت عنوان «**تعظيم الحَرَم وتعظيم الذنب فيه والإلحاد فيه**»، رواية عن (**عبدالله بن الزبير**)، «**قال: إنْ كانت الأَمَة من بني إسرائيل لتقدُم مكَّة، فإذا بلغت ذا طُوَى** [ولم يقل: «الوادي المقدَّس طُوَى»]، **خلعت نِعالها، تعظيمًا للحَرَم.**»[2] فهٰذا العمل إنَّما هو تعظيم للحَرَم، إذن، لا للوادي نفسه. ثمَّ هَبْ أنَّ هٰذا الخبر صحيح، بل هَبْ أنَّ عوامَّ اليهود جميعًا كانوا يقدِّسون وادي **ذي طُوَى** هٰذا، ويخلعون نعالهم فيه، وهَبْ أنَّهم يفعلون ذٰلك اعتقادًا- من خلال اسمه- أنَّه وادي (**مُوسَى**)، فإنَّه لا يعدو خبرًا، لا يُبرهن على شيءٍ في ميدان التاريخ؛ إذ ما أكثر ما يعتقده العوامُّ، وما أغرب ما قد يفعلون! ولو اتُّخِذت من ذٰلك وأمثاله الأدلَّةُ التاريخيَّة، لكان في منتوجاته العجب العجاب.

---

[1] ٥٨.

[2] الأزرقي، ٢: ٦٨٧.

وبطريقةٍ من الشَّعوذة اللغويَّة، أراد المؤلِّف أن يُثبِت أيضًا أنَّ (**بلاد الفونت**)، الواردة في الكتابات المِصْريَّة تُشير إلى أرض العَرَب؛ فانبرَى قائلًا: «**وفي عملية البحث عن موقع «بلاد الفونت» فمن المفيد الاستعانة باللغة العَرَبيَّة؛ فباستشارة القواميس المتخصِّصة نعرف أن العَرَب عرفوا (أَفْلت) و(فَلَيْت) كاسمي عَلَم.**»[1] ولم يوثِّق هٰذا الادِّعاء الذي ذكر أنه استشار فيه القواميس المتخصِّصة. أمَّا الوارد حقيقةً في هٰذين الاسمَين، فهو أنَّهما يُستعملان اسمَين من أسماء الناس: (أَفْلت) و(فُلَيْت)، لا من أسماء الأماكن.[2] وأضاف المؤلِّف: «**كما أنَّ «الفلت» و«اللفت» هو الموت**».[3] وابحثْ في كلِّ معجمات الضَّاد، ثمَّ خبِّرنا: هل وجدتَ أن «**الفلت**» و«**اللفت**» يُطلَقان على الموت هٰكذا؟! كلُّ ما ستجده أنهم يَصِفون مَن ماتَ بغتةً بأنها أُخِذَت نفسُه فَلْتَةً، كما يُوصَف بذاك كلُّ عملٍ مفاجئ. ويُقال لموت الفَجأة: الموتُ اللَّافِت، والفَاتِل.[4] فهو، إذن، وصفٌ لهٰذا النوع من الموت خصوصًا، لا اسمٌ للموت نفسه. ولٰكن لماذا يتكلَّف صاحبنا هٰذا التمحُّل اللغوي؟ ذاك لكي يقول في النهاية: إن **بلاد الفونت**، الوارد ذكرها في «**العهد القديم**»، هي (**حضرموت**)! وهٰذا يقتضي أن **حضرموت** كانت تُسمَّى لدَى العَرَب: بلاد (**لافت**)، أو (**فاتل**)! وهٰذا ما لم يسمع به أحدٌ قطُّ من الجنَّة والناس! ولٰكن لِـمَ لا

---

[1] مُنَى، ٦٤.
[2] انظر: الزَّبيدي، (فلت).
[3] مُنَى، م.ن.
[4] انظر: الأزهري، (فلت).

يقول، مثلًا: إن **بلاد الفونت** هي: (**بلاد الفلَّاتة**) في (**أفريقيا**)؟ نضرب هٰذا جَدَلًا إزاء تكلُّفة لالتماس المعنى في (**آسيا**)، لا في **أفريقيا**، وفي (**جزيرة العَرَب**) تحديدًا، لا في غيرها.

وشبيهٌ بهٰذا زعمه أن مكانًا توراتيًّا اسمه «**مدمنة**» يشير إلى قبيلة عَرَبيَّة اسمها «**الزبالة**»، في (**وادي الحَجر**)! قال: لأن «**الاسم [مدمنة] يعني بالعَرَبيَّة الزبالة!**»[1] لٰكن من قال إن اسم القبيلة المشار إليها يعني: «**مزبلة**»؟! ومن أنبأه أنَّ كلمة «**مدمنة**» ليست بمستعملةٍ إلى اليوم في العَرَبيَّة بمعنى: «**مزبلة**»؟ بل مَن ذا أوهمه أن أسماء القبائل أو الأماكن تُترجَم من لغةٍ إلى أخرى؟! تلك أسئلةٌ بدهيَّة، لٰكنها لا تخطُر على بال مَن جعل شُغله الشاغل الاحتيال لتلفيق الأسماء، لفظًا أو معنى، لترحيل (**بني إسرائيل**) من أماكنهم التاريخيَّة، المعروفة في كلِّ الشرائع والتواريخ، إلى (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**).

على أن من إشكالات تلك البحوث التي جعلت وَكْدَها ترحيل التاريخ الإسرائيلي إلى (**الجزيرة العَرَبيَّة**) أن أصحابها قد طُمِس على أذهانهم تاريخيًّا. ذٰلك أنَّهم حين يقرؤون مصطلح «**العَرَب**» أو «**جزيرة العَرَب**» ينصرف تصوُّرهم إلى ما يُسمَّى اليوم (**المملكة العَرَبيَّة السُّعوديَّة**) وما جاورها في (**اليَمَن**) و(**الخليج العَرَبي**). مع أن «**العَرَب**» كان لهم وجودٌ تاريخيٌّ خارج هٰذه الحدود قديمٌ جِدًّا. واصطلاح «**جزيرة العَرَب**» لا يشير قديمًا إلى الحدود السياسيَّة الحديثة، بل تدخل فيه أجزاء من

---

[1] مُنَى، ١٤٠.

بلاد (**الشَّام**) و(**العِراق**). ولذا، فليست كلُّ إشارةٍ إلى «**العَرَب**» إشارةً إليهم في غَرب **السُّعوديَّة** أو وسطها، بالضرورة، فضلًا عن جَنوبها. ولا كلُّ إشارةٍ إلى «**جزيرة العَرَب**» إشارةً إلى ما يدخل اليوم في حدود **السُّعوديَّة** بالضرورة.

ولقد ظلَّ هٰؤلاء المؤلِّفون ينهجون نهجَين متناقضَين: فهم إذا لم يعثروا على اسمٍ توراتيٍّ في أسماء المواضع الشَّاميَّة أو المِصْريَّة، تكلَّفوا استحلابه من حروف الأسماء في (**جزيرة العَرَب**)، أو من معجمات اللغة- كما رأينا في البحث عن (**بلاد الفونت**)؛ بحُجَّة عدم العثور عليه في (**فِلسطين**) أو بلاد (**الشَّام**) أو (**مِصْر**)- وإذا وجدوا الاسم في **فِلسطين** أو بلاد **الشَّام** أو **مِصْر**، وواضحًا لا شِيَة فيه، أَصَرُّوا على أنه ليس بالمقصود، بل المقصود مكانٌ ما في **جزيرة العَرَب!** وهم واجدون معجمًا تاريخيًّا زاخرًا جِدًّا بالأسماء في **جزيرة العَرَب**؛ لأن العَرَب كانوا مغرمين بالتسميات، أو مضطرين إليها، فلكلِّ حَجَرٍ في جبلٍ أو رملةٍ في سهل اسم، على امتدادٍ شاسعٍ، ينهلون منه ما شاءوا من التأويلات، التي لا تقوم على برهان، ويصنِّفون المصنَّفات. فـ(**دمشق**) لديهم ليست **بدمشق** المعروفة، و(**الأردنُّ**) ليس **بالأردنِّ**، و(**لبنان**) ليس **بلبنان**، و**فِلسطين** ليست **بفِلسطين**، و(**الفُرات**) ليس **بنهر الفرُات**، و**مِصْر** ليست **بمِصْر**، بل هي أسماء شبيهة في **الجزيرة العَرَبيَّة**، ولو لم يَعْدُ الشَّبَهُ بين الاسمَين حرفًا واحدًا. ضاربينَ عُرض المكابرة بالتفسيرات التوراتيَّة، وبالتاريخ العَرَبي، وبالتاريخ غير العَرَبي. في الوقت الذي لا يستندون في هٰذه المغامرات العِلْميَّة المريعة إلى أدلَّةٍ معقولة، فضلًا عن أنْ تُلزمهم بأن يأتوا بأدلَّةٍ

تصمد للنقاش العِلْمي الجاد. بل هم يستندون أحيانًا- كما تقدَّمت الشواهد- إلى أغاليط، ومغالطات، وتصحيفات، وأشباه ونظائر، لا أوَّل لها ولا آخِر. ومَن كان هٰذا منهاجه وتلك بضاعته، فاضرب عنه صفحًا، فلن يأتيك ببحثٍ عِلْميٍّ يستأهل هٰذا النعت الرفيع.

٧- مِصْر وجزيرة العَرَب:

في فصلٍ تحت عنوان «**مِصْر وجزيرة العَرَب**»، وفي زعمٍ مُعَنْوَنٍ بـ«**تحتمس في جزيرة العَرَب**»، يورد مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» أُولَى قوائمه من لوائح الأسماء الواردة عن المواقع أو الشُّعوب التي أخضعتها قوَّات (**تحوت مُوسَى الثالث**)، المثبتة في (**معبد الكرنك**)، وهي «**قائمة فِلسطين**»، ثمَّ يُتبِعها بقائمة استكماليَّة هي «**قائمة نهارينا أو القائمة الشماليَّة**». وهو يرفض أن تكون القائمة الأُولَى متعلِّقة بـ(**فِلسطين**)، مُبحِرًا في معجم الأسماء في (**جزيرة العَرَب**)، ذاكرًا للاسم الواحد عِدَّة احتمالات متنافرة، لا تجمعها إلَّا تشابهات الحروف. مُعيدًا افتراضات أستاذه (**الصَّليبي**)، وإنْ بصورة مُجَدْوَلَة. غير متسائلٍ بعدئذٍ عن تلك الأسماء، ولا عن مواقعها الدقيقة، ولا عن تاريخ وجودها، ولا عن منطق ربطها بالأسماء الواردة في مغازي **تحوت مُوسَى الثالث**. ليس هناك سِوَى تشابهات الحروف. من أمثلة ذٰلك في القائمة الأُولَى ما يأتي:

١- استبعدَ أن يكون المكان المسمَّى (**تتين**) هو: (**دوثان**) جَنوب غَربي (**جنين**)، في

فِلسطين، بل هو، بزعمه، **(دثنة)**- كذا- في **(جازان)**، ضِمن احتمالات أخرى.[١] وهو هنا يكرِّر كلام **الصَّليبي** حول **(الدَّثْنَة)** في جبال **(فَيْفاء)**، دون أن يعيِّن المكان، بل اكتفى بالقول إنها في **جازان**؛ لأنه لا يعلم أين يقع هٰذا المكان. كما لم يعلم، لا هو ولا أستاذه، أن في **فَيْفاء** وحدها ثلاثة مواضع بهٰذا الاسم، لا موضعًا واحدًا، تقدَّم ذِكرها في مناقشتنا لافتراضات **الصَّليبي**.[٢] وفي غير **فَيْفاء** مثل ذٰلك الاسم أيضًا. بل هناك موضع بـ**(مِصْر)** باسم **(الدَّثِيْنة)**، وآخَر باسم **(الداثِن)** في **(غَزَّة الشَّام)**.

٢- يزعم أن (مرم) «**تقع في منطقة فيفا وأخرى في جيزان!**»[٣] وهو يشير بكلامه إلى مكانٍ في **فَيْفاء** يُطلَق عليه **(بُقعة المَرْمَى)** في جبل **(آل المَشْنِيَة)**. أمَّا علاقته بـ«**مرم**»، فلا علاقة، ولا تعليق. كلُّ ما هنالك أنَّ بين الاسمين جناسًا ناقصًا!

٣- يرَى أن المكان المسمَّى **(روس)**، ضِمن احتمالات أخرى كالعادة، قد يكون: «**الرَّيث/ ريث في منطقة رجال ألمع وفي القصيم!**»[٤] وانتقال **(الرَّيث)** إلى **(رجال ألمع)** دليلٌ جديدٌ على الدقَّة المتناهية في هٰذه البحوث، وعلى دِراية مؤلِّفيها بالمواضع التي جاؤوا ليفسِّروا من خلالها التاريخ والجغرافيا؛ على سُنَّة القائل:

---

[١] انظر: م.ن، ٧٢.

[٢] راجع كلامنا حول مزاعم **(الصَّليبي)** عن هٰذا المكان: (الفصل الأوَّل، تحت عنوان «**٩- كيف طَمَسَ اللهُ على تاريخ (بني إسرائيل)؟**»).

[٣] مُنَى، ٧٢.

[٤] م.ن، ٧٥.

وإِنِّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائل!

٤- أمَّا (**عكَّة**)، فليست على الساحل الفِلسطيني، بل «**الاحتمال الأقوى العكوة/ عكو في جيزان**»![1] ولا ندري لِـمَ كان هٰذا الاحتمال هو الأقوى؟ وأيُّ **العكوات** في (**جازان**) هي الاحتمال الأقوَى لديه؟ فهناك (**عَكْوَة**): أكمةٌ، ذات فوَّهة بركانيَّة، تُرَى من بعيد مربَّعة الشكل، تَبْعُد عن (**صَبْيا**) نحو ١٥ كيلًا شَرقًا، على طريق **صَبْيا** إلى (**العَيدابي**). وشَمالي **عَكْوَة** أكمةٌ بركانيَّة أخرى أصغر، ويُطلَق عليهما: «**العَكْوَتَين**». وهناك أيضًا **عَكْوَتان** في الطَّرَف الجَنوبي الشَّرقي من جبل (**مَصِيْدَة**)، المصاقب لجبل (**حريص الحَشَر**). إنه سُوْقٌ من الأسماء يمكن أن تنتقي منه ما شئت، إذا كانت غاية بحثك ظاهرة التشابه بين الأسماء.

ثمَّ أعقبَ هٰذه التخمينات العجيبة بقوله: «**مما سبق يبدو واضحًا للقارئ [ولا بد]**[2] **أنه من الممكن العثور على الأسماء الواردة في القائمة الأُولى، وبأقل درجة من الاستعانة بظاهرة القلب والاستبدال.**»[3] وما يبدو واضحًا حقًّا [ولا بد] أنه من الممكن حسب هٰذا المنهاج السطحي العثور في (**جزيرة العَرَب**) على كلِّ الأسماء الواردة في أيِّ مكانٍ أو زمان، ما اكتفَى المرء بتشابه الحروف.

أمَّا «**قائمة نهارينا أو القائمة الشماليَّة**»، فنقف منها لديه على ما يأتي:

---

[1] م.ن، ٧٧.

[2] لاحظ هنا حذوه حذو أستاذه (**الصَّليبي**) في «**لا بُدِّيَّاته**» و«**لا شَكِّيَّاته**» المعهودة، السابق وقوفنا عليها في تضاعيف كُتبه!

[3] مُنَى، ٨٨.

١- (ن.ء.ف.ي): «**ضِمن العديد من الاحتمالات: نافية/ نءفيه في جيزان**»![1] وهو لا يعرف أين تقع (**نافية**) هٰذه، فلم يحدِّد مكانها. و**نافية** اسم مكانٍ في (**مَدَر**)، من جبال (**فَيْفاء**)، وتقع في الأراضي التابعة لقبيلة (**آل بِلْحَكَم/ أبي الحَكَم**) اليوم. وهناك «**أُنافية**»، التي ذكرها (**الهمداني**) في «**صفة جزيرة العَرَب**»[2]، والتي يشير إليها تارة: «**من وسط سراة خولان وغَورها**»، وتارة أخرى في ناحية (**بَيش**). وفي **فَيفاء** أيضًا: «**مَنَفَة**». وحدِّث ولا حرج من نظائر هٰذه الأسماء.

٢- أمَّا (ء.ن.ب.ن)، فيقول: «**ربما المقصود قبيلة العتبان/ عتبن الحجازيَّة. احتمالٌ آخر هو أن الاسم يشير إلى تبالة/ تبءلة في سَراة عسير**»![3] ونضيف إليه احتمالًا ثالثًا، وهو الأرجح، أنْ لا يكون المقصودُ أيًّا من الاحتمالَين السابقَين!

ما لا ينقضي منه العَجَب لدَى هٰؤلاء أن أحدهم لا يُكلِّف نفسه مجرَّد السؤال: متى وُجِد هٰذا الاسم أو ذاك؟ فـ(**عُتيبة**)، الذي ينتسب إليه العُتيبيُّون، أو «**العتبان**»، جَدٌّ متأخِّرٌ جِدًّا في التاريخ العَرَبي. وقبيلته فرعٌ من (**هوازن**)، لا ذِكر لها قبل القرون الإسلاميّة المتأخِّرة. غير أنَّ (**زياد مُنَى**) يطرح علينا احتمالًا بوجود قبيلة **عُتَيْبَة** بهٰذا الاسم من قَبل (**طسم**

---

[1] م.ن، ٩٣.
[2] انظر: ١١٧، ١٢٦، ٢٥٠.
[3] مُنَى، ٩٣.

وجديس)، أي منذما قبل (**تحوت مُوسَى الثالث**، -١٤٢٥ق.م)، وأنه قد أشير إليها في تاريخ غزوات هٰذا الفرعون!

٣- وأمَّا (**ف.ف.ء**)، فذهب إلى احتمال أنه «**جبل فيفا/ ففء**»![1] وها قد شملتنا بركات هٰذه التحليلات؛ فجبال (**فَيْفاء**) هي تارة «**جبل جلعاد**» التوراتي، لدَى (**الصَّليبي**)، وتارة أخرى هي «**ففء**»، المشار إليها في غزوات (**تحوت مُوسَى الثالث**)، لدَى (**مُنَى**). وهٰذا ينفي أن اسم **فَيْفاء** حادثٌ، كما يرى بعض الباحثين؛ لأنه لم يُشِر إليه (**الهمداني**) في كتابه «**صفة جزيرة العَرَب**»، أو غيره من الأقدمين.. كلَّا، بل هو اسمٌ يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف من السنين!

ويُعقِب هٰذا العرض بالقول: «**سأكتفي بما وصلتُ إليه من براهين**»![2] فإذا كان ما قدَّم ينسلِك في مفهوم «**البراهين**»، فقل على البرهنة السَّلام.. بل قل على العِلْم السَّلام!

٨- «التوراة» وجزيرة العَرَب:

في الفصل الخامس من «**جغرافيَّة التوراة**» أراد المؤلِّف أن يزعم أن أرض (**كُوْش**) المذكورة في «**التوراة**» تقع في (**عسير**)، لا في (**الحبشة**)، فرجع إلى (**ابن المجاور**) في كتابه «**تاريخ المستبصر**»، دون توثيق، كما هي عادته. فاقتنص كلمة دندنَ عليها-

---

[1] م.ن، ٩٤.

[2] م.ن، ٩٩.

نَهْجَ أستاذه (**الصَّليبي**) الذي وقفنا عليه من قبل في تعامله التلبيسي مع كتابَي «**الإكليل**» و«**التيجان**»- قائلًا: «**إن رأيي هٰذا يلقَى دعمًا من قِبَل بعض كتابات الإخباريين العَرَب، وخاصَّة اليمانيين منهم.**»

كيف؟

استشهد بـ(**ابن المجاور**)- الذي ليس من اليمانيين، أصلًا[1]، وإنْ ألَّف كتابه

---

[1] نَسَبَه (الزركلي، **الأعلام**، ٨: ٢٥٨) إلى (**دمشق**). وكذا فعل (الصَّليبي، **حروب داود**، ٢٦). وسمَّاه (**الزركلي**): «**يوسف بن يعقوب بن محمَّد بن علي الشيباني الدمشقي، أبو الفتح، جمال الدِّين ابن المجاور**». ووصفه بأنه مؤرِّخ، عالم بالحديث، ومن الكتَّاب. تاريخ حياته: (٦٠١- ٦٩٠هـ= ١٢٠٥- ١٢٩١م). وكذا كتبَ (**أوسكر لوفغرين**) اسمَ المؤلِّف مع عنوان الكتاب، ووصفَه بأنه «**الشيخ المسند المحدِّث المؤرِّخ**». في حين نجد في كتاب (ابن المجاور، ٢٥٢) قول المؤلِّف: «**وكتب والدي محمَّد بن مسعود بن عليِّ بن أحمد بن المجاور البغداديُّ النَّيسابوريُّ...**». ومن عجبٍ أن **الزركلي** قد هَزِئَ بما أشار إليه (**جعفر الحسني**) في (**مجلَّة المجمع العلمي العَرَبي**، ٣٢: ٣٨٣)- حسب توثيق **الزركلي**- من تنبيهٍ إلى هٰذا؛ قائلًا: «**فليبحث عن البغدادي النيسابوري هٰذا ويترجم له بدلًا من ابن المجاور الدمشقي**»! وكأن **الزركلي** بات أعرف باسم (**ابن المجاور**) وبنَسبه من **ابن المجاور** نفسه! أمَّا نعتُ **الزركلي ابنَ المجاور** هٰذا بالمؤرِّخ، والعالم، والكاتب، فيكذِّبه كتابه؛ الدالُّ في بعضه على أن مؤلِّفه أشبه بحاطب ليل، من حيث المحتوى، ركيك الأسلوب، كثير الغلط في النحو واللغة. ولذا فمؤلِّف الكتاب ليس بـ(**ابن المجاور الدمشقي**) الموصوف بالعِلْم، بل هو **ابن مجاور** آخر، بغدادي نيسابوري. ويبدو لي أن الرجل فارسيُّ الأصل. تؤكِّد هٰذا أمور، منها:

١- نسبته والدَه إلى (**نيسابور**).

٢- استشهاده بشِعرٍ فارسيٍّ، من نظمه هو ونظم غيره. (انظر مثلًا: ٨٤، ٢٣٥، ٢٥٥). وهو اهتمامٌ لافتٌ في موضوعات لا تستدعي سرد شِعر بالفارسيَّة، على افتراض معرفته بها، لغةً لا انتماءً.

٣- ترديده القول ببناء (**الفُرس**) بعض المُدُن في (**الحِجاز**) و(**اليَمَن**).

٤- تظهر لديه أنفاسٌ شُعوبيَّةٌ من إعلاء شأن **الفُرس** ووصف العَرَب بالنقائص، حتى إنه ليعزو الحُمق إلى العَرَب، في مثل قوله عن (**جزيرة قيس/ كيش**) بـ(**الخليج العَرَبي**): «**وإلى الآن في رؤوس الفُرس** [في تلك الجزيرة] **حماقة العَرَب!**»؛ لأن أخوالهم، كما قال، عَرَب. (انظر: ٢٨٩).

٥- أضف إلى ذٰلك ركاكة أسلوبه، البالغة حدَّ العُجمة أحيانًا.

حول بلاد (**اليَمَن**)- حيث قال، في سياق حديثه عن «**صفة (زَبيد)**»: «**تُسمَّى أرضها** [أي أرض زَبيد]: **تِهامةَ... وتُسمَّى** [أي زَبيد] **في عَدَن: الشَّام، وتُسمَّى في المَهْجَم**[1]**: اليَمَنَ، وتُسمَّى عند آل عمران: كوش، وتُسمَّى باللغة المعروفة: زَبيد.**»[2] وعلَّق (**مُنَى**)[3] بقوله: «**وهٰكذا تتضح الصورة بشكل كامل، فأرض كوش التوراتيَّة لم تكن الحبشة، وإنَّما هي بعض من إقليم عسير. ومن الواضح أن هٰذه المسألة كانت معروفة لدَى الإخباريين العَرَب، ومنهم من اهتم بتسجيلها.**»

وهنا نقف مع هٰذا الزعم لبحث حقيقته:

١- ما علاقة (**زَبيد**) بإقليم (**عسير**)؟! لقد كان (**ابن المجاور**) يصف **زَبيد**، الواقعة في دولة (**اليَمَن**) اليوم، ولا علاقة لذٰلك بإقليم **عسير**.

٢- في قول (**ابن المجاور**) عن (**زَبيد**): «**تُسمَّى في عَدَن: الشَّام، وتُسمَّى في المَهْجَم: اليَمَنَ**»، تحديدٌ لموقعها، وأنها بين (**عَدَن**) جَنوبًا و(**المَهْجَم**) شَمالًا.

٣- من أين جاء المؤلِّف بأن مسألة «**أرض كوش كانت في عسير**» من المسائل المعروفة لدَى الإخباريِّين العَرَب، ومنهم من اهتم بتسجيلها؟

٤- أوَحقًّا اتَّضحت الصُّورة بشكلٍ كامل، بأن أرض (**كُوْش**) التوراتيَّة لم تكن (**الحبشة**)، وإنما هي بعض من إقليم (**عسير**) أو غير إقليم **عسير** من

---

[1] (**المَهْجَم**): اسم مدينة يَمَنيَّة مشهورة، كانت تُعَدُّ عاصمة تهامة الشَّماليَّة.

[2] ابن المجاور، ٨٣.

[3] ١٠٤.

(الجزيرة العَرَبيَّة)؟! وأن هٰذه المسألة كانت معروفة لدَى الإخباريِّين العَرَب، ومنهم من اهتمَّ بتسجيلها؟! أم هٰذا ضربٌ من التدليس على القارئ؟ أ لم يقل **(ابن المجاور)** أيضًا إن أهل **(عَدَن)** كانوا يدعون **(تِهامةَ زَبيد)** بـ«**الشَّام**»؟ أ فيصحُّ لقائلٍ أنْ يقول- وَفْقَ طريقة المؤلِّف في الاستدلال-: «**وهٰكذا تتضح الصُّورة بشكلٍ كامل، فأرض الشَّام لم تكن بالشَّام المعروف اليوم، وإنَّما هي بعض من إقليم عسير، ومن الواضح أن هٰذه المسألة كانت معروفة لدَى الإخباريِّين العَرَب، ومنهم من اهتمَّ بتسجيلها**»؟!

٥- لٰكن لماذا تُسمَّى **(تِهامة زَبيد)** أحيانًا بـ«**كُوْش**»؟ إنَّما ذٰلك وصفٌ لأهلها، ولا يحتمل الاستنتاج الكبير بأن أرضهم هي أرض **(كوش التوراتيَّة)**. ذٰلك أن العَرَب يقولون عادةً للأسود من الناس: كُوْشيٌّ، أو ابن كُوْشيٍّ، وللسُّود من الناس: كُوْش، نسبةً إلى **(كُوْش ولد حام بن نُوح)**. وأهل تلك الجهات من **(اليَمَن)** معروفون إلى اليوم بسُمرة البشرة. ولا يكون الموصوف بالضرورة حبشيًّا، فضلًا عن أن تكون أرضه أرض **كُوْش**.[1] ولقد وصف **(المسعودي)**[2] تلك البلاد بما يكشف عِلَّة وصف أهلها **بكُوْش**، ويَدرأ الاستنتاج المسرف في شطْحه

---

[1] انظر: الصفدي، **تصحيح التصحيف**، ٤٤٧.

[2] انظر: **مروج الذهب**، ٢: ١٨- ١٩.

الذي ذهب إليه (مُنَى)؛ وذٰلك لأسباب تاريخيَّة وجغرافيَّة وإناسيَّة، متعلِّقة بلون البشرة في أهل تلك الناحية من **اليَمَن**. ونقل عنه (**البكري**) القول[١]:

> **«أمَّا الحبشة، فاسم دار مملكتهم: كعبر، وسِمَة مَلِكهم النَّجاشي. وفيها كان الذي آمن برسول الله، ﷺ، وهم من ولد حبشي بن كُوْش بن حام. وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة تتصل بالبحر الحبشي... وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة- وهي ساحل زَبيد من أرض اليَمَن- ثلاثة أيَّام، وهو أقرب عرض البحر بين الساحلين، ومن هٰذا الموضع عَبَرَت الحبشة البحر حين ملكت اليَمَن في أيَّام ذي نُوَاس، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن.»**

بل إن (**ابن المجاور**)[٢] نفسه قد وصفَ أهلها بأنهم «**سُمْرٌ كُحْل**». وذكرَ أن (**الحبشة**) كانوا ملوكها. فهٰذا، إذن، هو معنى وصف (**زَبيد**) بـ«**كُوْش**»، بعيدًا عن التمحُّلات البعيدة من أجل الادِّعاء أن أرض **كُوْش** التوراتيَّة لم تكن **الحبشة**، وإنَّما هي بعض من إقليم (**عسير**). وهو كذٰلك ظاهرُ ما ورد في «**العهد القديم**»[٣]: «**وأَهَاجَ الرَّبُّ عَلَى يَهُورَامَ رُوحَ الفِلسطينيِّينَ والعَرَبَ الَّذِينَ بِجَانِبِ الكُوْشِيِّينَ، فَصَعِدُوا إِلَى**

---

[١] **المسالك والممالك**، ١: ٣٢٦. وفي النصِّ المقتبس هنا توفيقٌ بين نصِّ (**المسعودي**) ونصِّ (**البكري**)؛ إذ بدا في الأوَّل استقامة صياغية، وفي الآخَر إضافة مفيدة. و(قارن: الحِمْيَري، ابن عبدالمنعم، **الروض المعطار**، (كعبر)، ٤٩٩).

[٢] انظر: ١٠٢، ١١٣.

[٣] **أخبار الأيام الثاني**، ١٢: ١٦- ١٧.

يَهُوذَا وافْتَتَحُوهَا، وسَبَوْا كُلَّ الأَمْوَالِ المَوْجُودَةِ فِي بَيْتِ المَلِكِ مَعَ بَنِيهِ ونِسَائِهِ أَيْضًا.» من حيث إن عَرَب جَنوب الجزيرة يُعَدُّون بجانب الكُوْشِيِّين الأحباش على الساحل الغربي من (**البحر الأحمر**)، لا على أن الكُوْشِيِّين كانوا في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، أو أن العَرَب كانوا في **الحبشة**، ولٰكن للجِوار الذي وصفَه (**المسعودي**) و(**البكري**) في الاقتباس الآنف. فيصحُّ، بهٰذا، القول: «**العَرَبَ الَّذِينَ بِجَانِبِ الكُوْشِيِّينَ**»، بلا حاجةٍ إلى ادِّعاءٍ خياليٍّ أن الفريقَين كانا في **جزيرة العَرَب** أو كانا في **الحبشة**.

أضف إلى هٰذا أن (**ابن المجاور**)[1]، الذي استعان به مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**»، قد روى أن (**بحر القلزم**) لم يكن قديمًا بحرًا فاصلًا بين (**الجزيرة العَرَبيَّة**) و(**أفريقيا**)، وإنَّما افتتح خليجه الفاصل بينهما (**ذو القرنين**). ومع أن **ذا القرنين** شخصيَّة غير معروفة تاريخيًّا على وجه اليقين، وما نَسبه إليه **ابن المجاور** من افتتاح (**البحر الأحمر**) غير محتمل عقلًا[2]، وعلى الرغم من أن أخبار **ابن المجاور** لا تَرقَى في تفاصيلها إلى الاعتداد بها عِلْميًّا، فإن في ما نقله من موروثٍ إخباريٍّ مؤكِّدًا إشاريًّا لما ذكرناه من قُرب الشُّقَّة بين (**اليَمَن**) و(**الحبشة**)، وذاكرةٍ بمعنى كلمة «**كُوْش**» قديمًا.

وبذا فإنَّنا، وإنْ أخذنا بكلام (**ابن المجاور**)، لا نراه يتحدَّث عن إقليم (**عسير**)، بل عن (**زَبيد**) الواقعة جَنوب غَربي (**صنعاء**)، بزهاء ٢٣٣ كيلًا.

---

(١) انظر: ١١٣.

(٢) ولاسيما إنْ قيل إن (**ذا القرنين**): (**قُورش**، -٥٢٩ق.م)، أو (**الإسكندر المقدوني**، -٣٢٣ق.م)، أو غيرهما من أعلام التاريخ المتأخِّرين نِسبيًّا؛ من حيث إن (**البحر الأحمر**) كان معروفًا من قبل تاريخهم بدهور داهرة، كافيك عن وجوده من قبل التاريخ المُدوَّن.

أَمَّا تعلُّق (مُنَى)[1]- إلى جانب ما تقدَّم من مزاعمه وأغلاطه القرائيَّة الجغرافيَّة- بإشارة توراتيَّة إلى أنه كان للكُوْشيِّين خيامٌ وإبل، ومن ثَمَّ فهم عَرَب، بحسب اعتقاده، فأهون من التوقُّف عنده؛ فمَن ذا قال أنْ لا خيام ولا إبل في ذٰلك العصر إلَّا لدَى العَرَب؟! والنص التوراتي هو الآتي:

«**فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ زَارَحُ الكُوْشِيُّ بِجَيْشٍ أَلْفِ أَلْفٍ، وبِمَرْكَبَاتٍ ثَلَاثِ مِئَةٍ، وأَتَى إِلَى مَرِيشَةَ... فَضَرَبَ الرَّبُّ الكُوْشِيِّينَ أَمَامَ آسَا وأَمَامَ يَهُوذَا... فَحَمَلُوا غَنِيمَةً كَثِيرَةً جِدًّا. وضَرَبُوا جَمِيعَ الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَ جَرَارَ، لأَنَّ رُعْبَ الرَّبِّ كَانَ عَلَيْهِمْ، ونَهَبُوا كُلَّ الْمُدُنِ لأَنَّهُ كَانَ فِيهَا نَهْبٌ كَثِيرٌ. وضَرَبُوا أَيْضًا خِيَامَ الْمَاشِيَةِ وسَاقُوا غَنَمًا كَثِيرًا وجِمَالًا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ.**»[2]

ثمَّ لِـمَ لَـمْ يلفِت صاحبَنا هنا إلَّا كلمتا «**الخيام**» و«**الجِمال**»؟ على أنَّ ما في النصِّ: «**خِيَامَ الـمَاشِيَة**»، تحديدًا. لِـمَ لَـمْ يلفته في النصِّ سِوَى كلمتَين، مهمِلًا- إلى جانب أسماء الأماكن التي دارت فيها الأحداث- الإشارات الأخرى، في وصف ذٰلك الجيش المليوني العرمرم، كالإشارة إلى: «**ثلاث مِئَةٍ من الـمَرْكَبات**»، والإشارة إلى «**الـمُدُن**» التي كانت للكُوْشيِّين؟ فلَم يتساءل في المقابل: أهٰذا جيشٌ يُشْبِه أن يكون جيشًا عَرَبيًّا، له مئاتٌ من المركبات، منطلِقًا من بيئة العَرَب في شِبه جزيرتهم؟! لو قال إنَّه جيشٌ عِراقيٌّ، مثلًا، لأمكن تصوُّر ذٰلك.

---

(1) ١٠٥.

(2) **العهد القديم**، أخبار الملوك الثاني، ١٤: ٩- ١٥.

٩- أرض «كُوْش» و«سعير» التوراتيَّتان.. أين تقعان؟:

قال (**المسعودي**)[١]، عن العِرق المسمَّى «**كُوْش**»:

> «**لَمَّا تفرَّق ولدُ نُوح في الأرض سار ولدُ كُوْش بن كَنْعان**[٢] **نحو المغرب حتى قطعوا نِيْل مِصْر. ثمَّ افترقوا فسارت منهم طائفةٌ مُيَمِّنة بين المشرق والمغرب، وهم النُّوبة والبجة والزَّنْج. وسار فريقٌ منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة، نحو: الزغاوَة والكانِم ومركة وكوكو وغانَة وغير ذٰلك من أنواع السُّودان والدمادِم. ثمَّ افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزَّنْج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزَّنْج.**»

وأشار (**الحِمْيَري، ابن عبدالمنعم**)[٣] إلى أرض (**كُوْش**) في قوله: «**سيحون: نهر يحيط بـ(أرض كُوْش)، وهو نهر أذنة من الثغر الشامي، ويصبُّ في البحر الرومي، ومخرجه من نحو ثلاثة أيام من مدينة ملطية، ويجري في بلاد الروم، وليس للمسلمين عليه إلَّا مدينة أذنة بين طرسوس والمصيصة.**»

وبقطع النظر عن القول في هٰذا الوصف الجغرافي، فإن هٰذا هو الوارد في كتابات

---

[١] **مروج الذهب**، ٢: ٤.
وقارن: البكري، **المسالك والممالك**، ١: ٣٢٠، والنويري، **نهاية الأرب**، ١٥: ٢٢٣.
وفيهما: «**الحبشة**» بدل «**البجة**». وفي الأوَّل: «**المفافوا**» بدل «**الكانِم**». وفي الأخير: «**مرنك**» بدل «**مركة**».
وفيه: «**فصارت الزَّنْج من المكمين والمسكو ودبرا**».

[٢] حسب (**العهد القديم**، سِفر التكوين، ١٠: ٦)، فإن (**كُوْش**) أخو (**كنعان بن نُوح**)، لا ابنه.

[٣] (سيحان)، ٣٣٣.
وما ذكره في (البكري، **المسالك والممالك**، ١: ٢٣٦)، وغيره، إلَّا قوله: «**نهر يحيط بـ(أرض كُوْش)**».

الإخباريِّين العَرَب، والمعروف لديهم، ومنهم من اهتم بتسجيله، بنقيض ما ذكره مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» تمامًا، حين أراد حمل أرض **كُوْش** إلى (**عسير**). فمَن شاء ادِّعاء غير هٰذا، فليُثبته بالشواهد الصحيحة، لا بالأوهام والأهواء.

على أن لقائلٍ أنْ يقول إن اسم (**كُوْش**) قد وردَ منسوبًا إلى مَواطن مختلفة، تارةً في (**العِراق**)- ومعروفة هناك (**حضارة كِشْ**) الأكديَّة، مثلًا- وتارةً في (**الشَّام**)، وتارةً في (**أفريقيا**). بل إننا لنقف، مثلًا، على نصٍّ (**للنويري**)[1] يقول فيه، عن قوم (**ثمود**): «**وكانت منازلهم أوَّلًا بأرض كُوْش في بلاد عالِج، فانتقلوا إلى هٰذه البلاد لكثرة جبالها**». و(**عالِج**)، كما يشير (**البكري**)[2]: رَمْلٌ يتَّصِل بـ(**الدَّهناء**) وينقطع لدَى (**وادي القُرَى**) و(**تيماء**). فكيف نفهم هٰذا كلَّه؟

١- «**كُوْش**»: اسم، قد يُطلَق على إنسانٍ أو مكان، وقد يكون وصفًا، كما مر. فليس إطلاقه بدليلٍ على النِّسبة إلى (**كُوْش بن حام**) دائمًا.

٢- ليس هناك في كلِّ ما تقدَّمَ ما يدلُّ على أن الأرض التوراتيَّة المسَّماة (**كُوْش**) كانت في (**عسير**) أو في (**زَبيد**) أو غيرهما من (**الجزيرة العَرَبيَّة**).

٣- لا يبعُد أن تسمَّى أماكن عِدَّة باسمٍ واحدٍ بالنظر إلى مَن أقام بها من الشعوب. ثمَّ ينتقل الاسم بترحُّل أهله، أو بترحُّل بعض أهله.

٤- لنفترض، جَدَلًا، أن أرض (**كُوْش**) التوراتيَّة كانت في مكانٍ ما من (**جزيرة**

---

[1] ١٣: ٦٦.

[2] انظر: معجم ما استعجم، ٩١٣- ٩١٤.

العَرَب)، فإنَّ هٰذا لا يدلُّ على شيءٍ ذي بال من علاقة (**بني إسرائيل**) **بجزيرة العَرَب**؟ إلَّا كمن يأتي ليقول: بما أن (**آدم**) و(**حَوَّاء**) كانا في **جزيرة العَرَب**- حسب بعض المرويَّات- إذن فإن كلَّ الشعوب عاشت في **جزيرة العَرَب!** ذٰلك أن **كُوْش** يُنسَب إلى (**حام بن نُوح**)، كما سبق.

وما ينفكُّ مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» يُردِّد- جَوْقِـيًّا- تُـرَّهات أستاذه (**الصَّليبي**)، بما فيها الزعم أن (**عسيرًا**) هي: (**سعير**) التوراتيَّة**!**[1] ولا أدلَّة لديهما، إنْ هُما إلَّا يَخرُصان، ما لهما بهٰذا من عِلْمٍ، إلَّا اتِّباعَ الظَّن. وقد أسلفنا القول: إن اسم **عسير** ليس بالاسم القديم في الاستعمال العَرَبي، حسب الوثائق المتاحة بين أيدينا. ونُضيف هنا القول: إن الاسم المتداوَل قديمًا هو (**جُرَش**)، لا **عسير**. ولعلَّ أقدم مَن نعثُر لديه على إشارة إلى **عسير**: (**الهمداني**، -٣٤٥هـ تقريبًا= ٩٥٦م)[2]، في حديثه عن «**جُرَش وأحوازها**». قائلًا:

> **«جُرَش رأس وادي (بِيشة)، ويُصالي قَصبة جُرَش أوطان (حَزيمة) من (عَنْز)، ثمَّ يُواطن حَزيمة من شاميِّها (عَسِير)، قبائل من عَنْز. وعسير يمانيَّة تنزَّرت، ودخلت في عَنْز. فأوطان عسير إلى رأس (تيَّة)، وهي عقبة من أشراف (تِهامة). وهي: (أَبْها)- وبها قبر (ذي القرنين)، فيما يقال، عُثِر عليه على رأس ثلاث مئة من**

---

[1] انظر: مُنَى، ١٠٧، ١٣٠.

[2] صفة جزيرة العَرَب، ٢٥٥- ٢٥٧.

تاريخ الهجرة[1]- و(الدَّارة)، و(الفُتيحا)، و(اللَّصْبَة)، و(الملحة)، و(طبَب)، و(أتانة)، و(عبل)، و(المغْوَث)، و(جُرَشَة)، و(الحدَبة). هٰذه أودية عسير كلُّها.»

وذَكَر من مَواطن (عسير) المعروفة بأسمائها إلى اليوم: (**تَنْدَحَة**)، و(**القَرْعا**)، و(**تَمْنِيَة**)، و(**عقبة ضُلَع**). فقال:

«تَنْدَحَة، وهي العين من أودية جُرَش، وفيها أعناب وآبار، وساكنه [أي وادي تَنْدَحَة] بنو أُسامة، من الأزد، ورأيت بعضهم ينجذب إلى (شهران) العريضة... و(القَرْعا) لـ(شَيْبَة) من عَنْز، ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع، يقال لها: (المَسْقَى)، وهم مسالمون للعواسج[2]... و(تَمْنِيَة) يسكنها (بنو مالك) من عَنْز... ورأس العقبة لـ(بني النُّعمان)، وهي (عقبة ضُلَع).»

١٠- عسير ومِخلاف جُرَش:

يظهر ممَّا تقدَّمَ أن (**عسيرًا**) كانت جزءًا من (**مِخْلاف جُرَش**)، وأن **جُرَش** كان الاسم الجامع للمنطقة.[3] وذٰلك ما نجده في النصوص القديمة، حيث الإشارة

---

[1] بقي هٰذا القبر إلى العصر الحديث، وكان عليه مزار. وهدمَه الإخوان، أتباع الدعوة الوهابيَّة. (انظر: حمزة، فؤاد، **في بلاد عسير**، ٩٥).

[2] (**العواسج**): يُطلق عليهم اليوم «**العواشز**»، في (**وادي ابن هشبل**). و(**ابن هشبل**): من جدود **العواسج/ العواشز**. (وانظر حاشية (**محمَّد بن علي الأكوع الحوالي**)، على «**صفة جزيرة العَرَب**»، ٢٥٥ (٢)).

[3] ثَمَّةَ آثار لـ(**جُرَش**) بمحافظة (**أحد رُفَيْدة**)، على بُعد ١٥ كيلًا جَنوبي مدينة (**خميس امْشيط**). والمأمول أن تُسفِر التنقيبات القائمة عن كشفٍ عِلْميٍّ حول **جُرَش** والمنطقة عامَّة، ثمَّ أن تحظى هٰذه الآثار وغيرها بالصيانة والدراسة.

إلى **جُرَش** وأهل **جُرَش**، لا إلى **عسير**. قال الشاعر (**تَليد الضَبِّي**، -١٠٠هـ=٧١٨م)[١]، يصف قطيع إبل:

وهَلْ أَطرُدَنَّ الدَّهرَ ما عِشتُ هَجْمَةً ... مُعَـرَّضَةَ الأَفخَـاذِ سُجْحًا خُدودُها

قُـضاعِـيَّـةً حُـمَّ الذُّرَى فَـتَرَبَّعَـتْ ... حِـمَى جُـرَشٍ قَد طارَ عنها لَبودُها

واشتهرت (**جُرَش**)، منذ ما قبل الإسلام، بصناعة أسلحةٍ حربيَّةٍ نوعيَّة، كالدَّبَّابات، والمجانيق، والضُّبُور.[٢]

وورِدَ ذِكر أهل (**جُرَش**) في «**السِّيرة النبويَّة**» في وفدٍ على النبي، ﷺ. وكانوا يعبدون (**يغوث**)؛ فأنفذ إليهم النبيُّ (**صُرَد بن عبدالله**).

و(**جُرَش**)، كما جاء في «**السِّيرة**»، مدينةٌ معلَّقة[٣] فيها قبائل من (**اليَمَن**).[٤] ويُفهَم من قول (**الهمداني**) السابق: «**يواطن حَزيمة من شاميِّها (عسير)، قبائل من عَنْز، وعسير يمانيَّة تنزَّرت، ودخلت في عَنْز**»، أن «**عسيرًا**» اسمٌ كان يُطلَق على

---

[١] طريفي، **ديوان اللُّصوص في العصرَين الجاهلي والأُموي**، ١: ١٤٢.
في الأصل: «**جَرَش**». ونقلَ الشارح تعريف (الحموي، (جرش)) **بجَرَش (الشَّام)**، المعروفة في (**المملكة الأردنيَّة**) اليوم، وقد استشهد (**الحموي**) بأبيات (**تليدٍ**)، التي منها بيتاه المستشهد بهما هاهنا. وأُرجِّح أن المقصود (**جُرَش**)، لا **جَرَش**. فحَنين هٰؤلاء الشعراء الأعراب، ولاسيما اللُّصوص منهم، أبدًا إلى مراتعهم في الجزيرة لا خارجها. وربما صَحَّ من قرائن ذٰلك إشارته إلى (**قُضاعة**).

[٢] انظر: ابن هشام، ٢: ٤٧٨.
وهٰذه أسماء أسلحة، اشتُقَّت من بعضها تعريباتنا الحديثة، كـ«**الدَّبَّابة**». فاليوم لم يبق للعَرَب من صناعةٍ سِوَى تعريب الأسماء. إنَّ أسلافنا- حتى في العصر الجاهلي- كانوا أُمَّة كسائر الأُمم، يصنعون ما يستلزمه عصرهم، ولا يكتفون بتسمية ما يشترون!

[٣] جاء في بعض النقول من هٰذه الرواية: «**مُغْلَقة**». وفُسِّر ذٰلك بأنها حصينة، محروسة، لا يدخلها غير أهلها.

[٤] انظر: ابن هشام، ٢: ٥٨٧- ٥٨٨.

قبائل معيَّنة. وربما كان هٰذا الاسم لتلك القبائل نفسها، وقد يكون اسمَ جَدٍّ من جدودها، لا وصفًا لطبيعة البلاد التي يقطنونها، بالضرورة. فالرجل العسير هو الرجل الصلب، كالجمل الصعب، الذي لا يُركَب. كما قال (**هدبة بن الخشرم**)[1]:

فَمِلآنَ عاجَلتُمْ رِياضَةَ مُصعَبٍ ... مُدِلٍّ عَسيرِ الصُلْبِ غَيرِ رَكوبِ

وكان يُقال إلى عهدٍ قريب: «**قبيلة عسير**».[2] ونصُّ (**الهمداني**)، على أن «**(عَسِيرًا)، قبائل من (عَنْز)، وعسير يمانية تنزَّرت، ودخلت في عَنْز**»، يشي بذٰلك الأصل الذي تلقَّبوا به.

فمَن «**عَسِير**» المحتمَل، وَفْقَ هٰذا؟

أليس (**عسير بن أراشة بن عَنْز بن وائل**)؟ ذٰلك ما يرجح احتماله.[3]

---

[1] **شِعره**، ٨٠/ ٥. فمِلآن: أي «فمن الآن».

[2] انظر مثلًا: حمزة، فؤاد، ٩٩.

[3] وهٰذا ما ذهب إليه (الجاسر، **في سَراة غامد وزَهران (نصوص، مشاهدات، انطباعات)**، ٤٧٨). محيلًا إلى: «**جمهرة النسب**، و**النسب الكبير**، لابن الكلبي، و**الإكليل**، ١: ٢٩١». [=**الإكليل**، ١: ٢٦٢ (تحقيق: الأكوع، ط. ٢٠٠٤)]. على أن ما نجده في كتاب (ابن الكلبي، **نَسب معد واليَمَن الكبير**، ١: ٩٥): «**عُشَيْر**»، بالمنقوطة والتصغير، لا «**عَسِيْر**». وربما كان تصحيفًا. وإنَّما يؤخذ هٰذا بالرُّجحان، لا باليقين؛ لعدم الاطمئنان العِلْمي إلى ما يَرِد عن (**الهمداني**) كلِّه، وربما عدم الاطمئنان إلى جُلِّه. لأن الرجل، في كثيرٍ، لا يعدو ناقلًا ما وَرَدَ عليه، من غثٍّ وسمين، عَهْدَنا بالمصنِّفين في تلك الحِقب، ولاسيما في شأن التاريخ والأنساب. وقد مرَّت نماذج ممَّا كان يسوقه من خُرافات وأساطير، أو من شِعرٍ منحول، لا يصحُّ الاستشهاد به عند ذي لُبٍّ حصيف. ومن باب أَولى أن لا يُسلِّم الباحث بصحَّة ما وردَ عن غير **الهمداني**، من نقَلة الأنساب من غير أبناء (**شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**). وقول **الهمداني**: «**(عسير)، قبائل من (عَنْز)، وعسير يمانيَّة تنزَّرت، ودخلت في عَنْز**» يلفتُ النظر، ويستدعي إعادة القراءة. واشيًا بأن أصل القبائل المسمَّاة «**عسير**»- المعروفة في مكانها الجغرافي بجَنوب غَرب **شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**- أصلٌ يمانيٌّ، لٰكنها «**دخلت**» في **عَنْز**، فتنزَّرت. ما يُفهم من ظاهره أنها ليست من **عَنْز** بالأصالة، وإنَّما دخلت فيها، وليست ←

وفي مقابل هٰذا فإن (**سعيرًا**) التوراتي هو: (**سعير الحُورِي**).[1] أولاده: (**لُوطَان، وشُوبَال، وصِبْعُون، وعَنَى، ودِيشُون، وإِيصَر، ودِيشَان**). وكان (**بَنُو سَعِير**) هٰؤلاء يُسمَّون: أُمراء الحُورِيِّين. وباسم أبيهم سُمِّي (**جبل سعير**)، في أرض (**أَدُوم**)، الواقعة بين (**البحر الميت**) و(**خليج العقبة**). و**أَدُوم** سُمِّيت باسم (**عِيسُو بن إسحاق**)- أخي (**يعقوب/ إسرائيل**)- الذي كان يُطلَق عليه: **أَدُوم**.[2] فبهٰؤلاء كانت تُسمَّى الأوطان كما ترى في بلاد (**الشَّام**). مثلما سُمِّيت (**عَمَّان**) أيضًا بـ(**عَمُّون بن لوط**)، و(**مُوآب**) بـ(**مُوآب بن لوط**).[3] وكذٰلك سُمِّيت ببعض أبناء (**إسماعيل بن إبراهيم**) مَواطن في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)، مثل: (**قيدار**)، و(**دُومة**)، و(**تَيماء**). والأخيران ما زالا معروفَين إلى اليوم، بـ(**دُومة الجندل**) و(**تَيماء**). وهٰذه الأسماء أدلَّةٌ حيَّةٌ على الأماكن التي كان يُقيم فيها هٰؤلاء وأولٰئك.

ومهما يكن من خلاف حول الأصل في تسمية (**عسير**)، فخلاصة القول:

منها. وكان يحدث مثل هٰذا بين القبائل العَرَبيَّة بالأحلاف. وفي هٰذا ما يبدو تفسيرًا للخلاف الطويل حول أصل **عسير**، أ هي أزديَّة يمانيَّة قحطانيَّة أم نزاريَّة عدنانيَّة؟ بحيث يمكن القول- استنباطًا من تعبير **الهمداني**- إن **عسيرًا** قبائل يمانيَّةٌ أصلًا، نزاريَّةٌ حِلفًا، دخلت في **عَنْز**- وذٰلك ضِمن فرع (**عسير بن أراشة بن عَنْز**) تحديدًا.

[1] انظر: **سِفر التكوين**، ٣٦: ٢٠.

[2] مع أن «**التوراة**» تتناقض في سطرَين متتالين من (**سِفر التكوين**، ٣٦: ٨- ٩)، هٰكذا: «**وعِيسُو هُوَ أَدُومُ. وهٰذِهِ مَوَالِيدُ عِيسُو أَبِي أَدُومَ فِي جَبَلِ سَعِير!**» فهل (**عِيسُو**) (**أَدُوم**)، أم هو أبو **أَدُوم**؟! إلَّا إنْ كان معنى «أبو» هاهنا: «صاحب»، أي: «**صاحب أرض أَدُوم**».

[3] و«**العهد القديم**» يزعم أنهما ابنا (**لوط**) من ابنتيه! (انظر: **سِفر التكوين**، ١٩: ٣٠- ٣٨).

أ. إن اسم «**عسير**» ليس بالقديم جِدًّا في الاستعمال.

ب. لم يكن بالشُّهرة، أو اتساع الرقعة الذي أصبح يُعرَف به مسمَّاه اليوم.

ج. هو لقبٌ قَبَليٌّ، أو نَسبٌ قَبَليٌّ. أو ربما صحَّ أنه وصفٌ تضاريسيٌّ. لٰكنه، مهما يكن من ذٰلك كلِّه، لا يرقَى تداولًا إلى مجاهل التاريخ السامي.

وبذا فلا مسوِّغ للربط بين اسم (**عسير**) واسم (**سعير**) التوراتي، تاريخيًّا، فضلًا عن انتفاء المسوِّغ اللغوي. فليلعب من أراد الربط بينهما لعبة أخرى أقلَّ تهريجًا!

ويُلحَظ هنا أنه، مع تفصيل (**الهمداني**) في وصف (**جُرَش**)، لم يُشِر قطُّ إلى وجود مكانٍ هناك اسمه (**المصرامة**)، من قريبٍ أو بعيد، مع ما علَّقه (**كمال الصَّليبي**) وتلامذته وأتباعه بذٰلك الاسم من تاريخٍ طويلٍ عريض، موغلٍ في الماضي السحيق لما يُسمَّى (**الشرق الأوسط**).

فتأمَّل!

١١- من عبث «الأَسْرَلَة» لجزيرة العَرَب:

من منطلَق اقتفاء (مُنَى) آثار معلِّمه (**الصَّليبي**)، وترداد أطروحاته، أراد كذٰلك عَبْرَنة (**عسير**)، كما فعل أستاذه، لتتلئبَّ له الافتراضات الكماليَّة الصَّليبيَّة في «أَسْرَلَة» المَواطن في (**الجزيرة العَرَبيَّة**). أراد أن يسلخ **عسيرًا** من تاريخها العَرَبي المعروف، مدوَّنًا وغير مدوَّن، ليُلحِقها بالعِبرانيَّة والعِبرانيِّين، وينسبها إلى (**بني إسرائيل**)، أو ينسب **بني إسرائيل** إليها. فأضاف إلى أُكذوبة أن أصل اسم

«**عسير**» هو الاسم التوراتي: «**سعير**» واحدةً أخرى، قائلًا: «**ويتم التنقل بين مناطق السَّراة وتهامة عبر مجموعة من المعابر الطبيعيَّة قُرب رؤوس الجبال تسمَّى بالعَرَبيَّة «العِقاب». بينما يطلق السكان المحليُّون عليها اسم الشعار.**»[1] وبذا فإن أهل **عسير**- حسب زعم المؤلِّف- يُطلِقون على العقبات اسمًا ذا أصل عِبراني، هو: «**الشعار**»، يمتح من جذور لغة أهل **عسير** العِبرانيَّة! وسيَفهم مَن لا يعرف المنطقة أن أهلها فعلًا يُطلِقون على كلِّ عقبة «**الشعار**»! والصحيح أن هناك عقبة معروفة تُضاف إلى «**شعار**»؛ فتُسمَّى: «**عقبة شعار**».

أ هو التدليس هنا، أم الجهل، أم كلاهما؟!

لٰكنَّ ثالثة الأثافي جاءت في زعمه أن كلمة «**شعار**» كلمة عِبريَّة، لا عَرَبيَّة، قائلًا: «**ومن الجدير بالذكر أن الاسم المحلِّي ليس عَرَبيًّا، وإنَّما هو عِبري يرد في العهد القديم بمعنى باب معبر!**»[2] ولئن كانت بضاعة الرجل في اللغة العَرَبيَّة مزجاة، فقد كان من بدهيَّات العمل البحثي أن يعود إلى اللغة العَرَبيَّة، في مثل هٰذا الموضع على الأقل، قبل المجازفة بنفي عَرَبيَّة هٰذه الكلمة ونِسبتها إلى العِبريَّة، ومن ثمَّ نِسبة أبناء **عسير** إلى اللغة العِبريَّة. لٰكنه لم يفعل. وإلَّا لعرف:

أوَّلًا، أن كلمة «**شعار**» ليست باسمٍ للعقبات بإطلاق، ولا حتى لـ«**عقبة شعار**» بخاصَّة، وإنَّما هي وصفٌ أطلقه الناس على تلك العَقَبة.

---

[1] مُنَى، ١٠٧- ١٠٨.

[2] م.ن، ١٠٨.

ثمَّ لعرف، ثانيًا، أنه وصفٌ لطبيعتها النباتيَّة وللشجر عليها؛ فالشَّعارُ- في لسان العَرَب، لا لسان العِبرانيِّين- هو: الشجر الملتف. قال شاعر العَرَب، لا شاعر العِبرانيِّين، يصف حمار وحشٍ:

وقَرَّبَ جانبَ الغَرْبيِّ يَأْدُو ... مَدَبَّ السَّيْلِ، واجْتَنَبَ الشَّعارَا

يقال: أَرض ذات شَعارٍ، أي ذات شجر. كما يمكن أن يقال «**عقبةُ شَعارٍ**»، أي ذات شجر. وفي الكلمة لغتان: شَعار وشِعار، بفتح الشين وكسرها.[1]

فانظر إلى أين يذهب هٰؤلاء التوراتيُّون «المُعَبْرِنُون» لبلدان العَرَب وتاريخهم ولغتهم؟!

إنهم لا يلتفتون إلى تاريخ العَرَب، ولا إلى لغتهم، إلَّا إذا لزمهم الأمر لدعم دعاواهم، مجتزئين، منتقين، متقوِّلين، ليكشفوا من خلال ذٰلك عن جهلهم، وعوار منهجيَّاتهم في البحث، ومستوى أماناتهم في النقل، ومدَى عِلْمِيَّتهم في الاستنتاج.

ولم يكتف صاحب «**جغرافيَّة التوراة**» بمثل هٰذا، من ادِّعاء الأصول العِبريَّة للكلمات العَرَبيَّة، وربط الأسماء التوراتيَّة بأسماء في (**جزيرة العَرَب**)- لمجرَّد توافقات في بعض الأصوات اللغويَّة- بل خَطَا خطوة أخرى، تجعل باب الادِّعاء مفتوحًا على مصراعيه، فما لا تظهر علاقةٌ لفظيَّةٌ له باسمٍ من أسماء الأماكن أو القبائل في **الجزيرة العَرَبيَّة**، فلتُلتمس فيه العلاقة معنويًّا، وَفْقَ العبثيَّة الآتية:

١- كان الزعم المشهور، الذي ورثه عن سلفه الصالح (**الصَّليبي**): أن (**بني**

---

[1] انظر: الأزهري، (شعر).

إسرائيل) عشيرة من العَرَب البائدة عاشت في **(الجزيرة العَرَبيَّة)**. وعليه فإن الأسماء التوراتيَّة هي أسماء موجودة في جَنوب وغَرب **الجزيرة العَرَبيَّة**، هنا وهناك.

٢- بقيت أسماء لم يجدها هٰؤلاء «المؤسرِلون» لبلاد العَرَب لا في جَنوب **(الجزيرة العَرَبيَّة)** ولا في غَربها. فما الحل؟ الحلُّ سهل؛ فتلك أسماء ليست في «**العهد القديم**» بلفظها بل بمعناها؛ لأنها تُرجمت إلى العِبريَّة، بزعمهم**!** فلتكن العلاقة بين الاسمين العِبري والعَرَبي بالمعنى لا باللفظ. ما يعني أن «**العهد القديم**» نَقل بعض الأسماء كما هي ألفاظها في **جزيرة العَرَب**، فيما انقرضت أسماء توراتيَّة أخرى من التسميات في الجزيرة؛ لٰكن ترجماتها العِبريَّة دالَّة عليها**!** ولا تسأل هنا لماذا تُرجمَت تلك الأسماء؟ ومَن ترجمها؟ ومتى؟ بل متى كانت أسماء الأعلام تُترجَم، أصلًا؟**!** هٰذه أسئلةٌ غير مثارة لدَى مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**»؛ لأنه قد أخذ على عاتقة الاعتقاد المطلَق أن تاريخ **(بني إسرائيل)** كان في **(عسير)**، وأن الإشارات التوراتيَّة هي إلى تلك الجهة من **الجزيرة العَرَبيَّة**، وهو معبِّدٌ عملَه للتأمين على افتراضات **(الصَّليبي)** بأيِّ صورة من الصور، وبذا تغدو كلُّ وسيلة توصله إلى تلك الغاية المبتغاة مبرَّرة.

من منطلَق هٰذه «الدوغمة» صار بإمكانه القول إن مملكة **(أدوم)** هي **(حِمْيَر)**، «**وَفْقَ قناعته الشخصيَّة**»، كما يكرِّر هٰذه العبارة في كتابه.[1] هو، إذن، يقدِّم كتابًا لا

[1] انظر: مُنَى، ١١٩.

ينهض إلَّا على «**قناعاته الشخصيَّة**»، التي لم تتأسس على أدلَّة عِلميَّة، بل على اقتناعات رغبويَّة.

لماذا (**أدوم**) هي (**حِمْيَر**)؟

قال: لأن (**حِمْيَر**)، في ما قيلِ، إنَّما سُمِّي بهٰذا الاسم لأنه يلبس حُلَّة حمراء، ومعنى (**أدوم**) بالعِبريَّة: الأحمر**!**[1] وبذا ينتفي اسم «**حِمْيَر**»، الجَدِّ العَرَبي المشهور، الذي نُسِب إليه الحِمْيَرِيُّون، وتنتفي حقيقته التاريخيَّة، ويصبح الحِمْيَرِيُّون محض امتدادٍ «ترجميٍّ» لـ«**أَدُوم**». على الرغم ممَّا هو معروف من أن **أَدُوم**- في «**العهد القديم**»- هو: (**عِيسُو**، أخو **يعقوب**)، وبلاد **أَدُوم** تسمَّى أرض (**سعير**)، وتقع بين (**البحر الميت**) و(**خليج العقبة**).[2] وهٰكذا، فكما رأيناه يتجاهل اللغة العَرَبيَّة، أو يجهلها، لصالح العِبريَّة، ها هو ذا ينفي التاريخ العَرَبي لصالح التاريخ العِبري. ولا غرو، فعَهْدُنا بهٰذا الحِسِّ التاريخيِّ الرجراج، لديه ولدَى سابقَيه، أنه جسرٌ تُقدَّم عبره الأحداث والأعلام إلى غير أوانها وتُؤخَّر، بمقتضى الحاجة.[3]

---

[1] ظهرت (**مملكة حِمْيَر**) على مسرح التاريخ نحو ١١٠ق.م. فإذا استظهرنا غاية الاستظهار، قلنا إنها كانت قائمة خلال القرنَين الثاني والثالث قبل الميلاد.

[2] هناك من يذهب إلى أن (أدوم) كانت تمتدُّ جَنوبًا أيضًا، كـ«**موسوعة الطرق التجاريَّة القديمة ANCIENT TRADE ROUTES**»، على شبكة «الإنترنت»:

http://www.ancientroute.com/empire/edom.htm

وليكن**!** فهٰذا شيء، والادِّعاء أن (**بني إسرائيل**) كانوا يعيشون في جَنوب (**شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**)، وأن (**حِمْيَر**) تعني (**أدوم**)، شيء آخر.

[3] لأجل ذٰلك، وامتدادًا له، سيَرى- و«**وَفْقَ قناعاته الشخصيَّة**» أيضًا- أن (**البحر الأحمر**) سُمِّي بهٰذا الاسم نسبة إلى (**حِمْيَر**)**!** (انظر: مُنَى، ١٢٠).

ولٰكن ماذا إذا لم يجد علاقة، لا لفظيَّة ولا معنويَّة، بين الاسمَين التوراتي والعَرَبي؟

١٢- تاريخ الأشباه والنظائر من الأسماء:

حينما لا يجد مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» علاقة، لا لفظيَّة ولا معنويَّة، بين الاسمَين التوراتي والعَرَبي، فإنه لا يدع الادِّعاء أن الاسم التوراتي قائم في (**جزيرة العَرَب**)، بأيِّ صورةٍ من الصور! فمكان كـ(**سَنْسَنَّـةَ**)- أو «**صنصنه** [كذا]»، بالعِبريَّة- هو: (**صلاصل**). وانظر إلى تخريجه الاعترافي الدالِّ على حرصه الشديد على نِسبة الأماكن إلى **جزيرة العَرَب**، كيفما اتَّفق، حيث قال:

> **«لم أتمكن من العثور على موقع بهٰذا الاسم في جزيرة العَرَب. لٰكن على الرغم من أن حرف النون العبري لا ينقلب عادة إلى اللام في اللغة العَرَبية، إلا أن هٰذا ممكن بسبب تأثير اللهجات المحليَّة. في هٰذه الحالة يكون الموقع المقصود «صلاصل/ صلصل» في بلاد الحرث بجيزان، والمسألة قابلة للنقاش.»[(١)]**

وها هو ذا النقاش، قائلًا: إنه لو ثبتَ بهٰذا المنهاج عِلْمٌ تاريخيٌّ أو جغرافيٌّ، لَمَا بقي مكان في مكانه، ولا زمان في زمانه؛ لأنه منهاجٌ غير عِلْميٍّ، لا في مقدِّماته ولا في استنتاجاته، بل هو منهاجٌ شموليٌّ في احتيالاته، مهما كانت الأسباب واهية بين

---

(١) م.ن، ١٤١.

يديه. ولذا فإن الاستمرار في نقاش مثل هٰذا مضيعة وقت، وسيتوقف الدارس عن عرض أمثلة أخرى من هٰذا القبيل، إلَّا على سبيل التأكيد أن عوار المنهاج ظلَّ ملازمًا لهٰؤلاء المؤلِّفين.

ثمَّ إن (**مُنَى**) سيعيدها جذعةً في تأصيل الأسماء الحادثة، أو حتى الحديثة، لينسبها إلى مجاهل التاريخ، دأب قدوته (**الصَّليبي**)، واستكمالًا لتخرُّصاته في هٰذا المضمار. فكلمة «**مقصه**» التوراتية، مثلًا، تعني: «**من وادي قَصْي**»، و(**وادي قَصْي**)- كما قال، أو ربما «**وَفْقَ قناعاته الشخصيَّة**»- يقع «**بمنطقة صَبْيا بجيزان**»![1] ليرادف التخليط التاريخي بالتخليط الجغرافي؛ لأنه لا يعرف عن المكان سِوَى حروف اسمه. هٰذا على الرغم من أنك لن تجد اسم (**وادي قصي**) في كتب البلدان العَرَبيَّة القديمة، ولم يشر (**الهمداني**) في كتابه «**صفة جزيرة العَرَب**» إلى وادٍ بهٰذا الاسم، حيث وصف أودية تلك الجهات وسمَّاها. أمَّا مؤلِّفنا، فقد عثر على أن ذٰلك الوادي كان يُسمَّى بهٰذا الاسم منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، وقد ورد ذكره في «**العهد القديم**»: «**قصه**»! أ ليس بكافٍ القافُ والصادُ برهانًا، بل برهانَين؟! ويفعل ذٰلك مع سائر الأسماء المستحدثة في المنطقة؛ حتى (**قرية العلوي**) في (**سامطة**) اتضح لديه «**وحسب قناعاته الشخصيَّة!**» أنها اسمٌ تاريخيٌّ

---

[1] انظر: م.ن، ١٢١.

وادي (**قَصْي**) من روافد وادي (**صَبْيا**)، ومآتيه من جبال (**بني الغازي/ بلغازي**). ويلتقي وادي **قَصْي** واديَ **صَبْيا** في الموضع المسمَّى بـ(**مجْمَع الأودية**)- شَرقي قرية (**جَرّ جبريل**)، أو (**الجَـرّ الأعلى**)- ليتشكَّل من هناك ما يُعرف بوادي **صَبْيا**.

توراتي!(1) وكذا (**أُمُّ العظام**)، في **سامطة**، هي: (**عصمون**)، و(**آل صفوان**)، في (**خميس امْشيط**)، أصبحوا مكانًا توراتيًّا اسمه: (**مصفون**)، وهلمَّ جرًّا!(2) فهل سأل نفسه، وهو يجدِّف بهٰذه الصورة الهزليَّة، عن تاريخ **قرية العلوي** أو تاريخ **أُمِّ العظام** أو تاريخ **آل صفوان**؟ لا؛ لأن التاريخ لا يعنيه في شيء، كما لم يكن يعني أستاذه، رئيس قسم التاريخ، وإنما يعنيه شطرنج الحروف والكلمات لإلصاق تاريخ (**بني إسرائيل**) بمنطقتَي (**عسير**) و(**جازان**).

ويطول بنا المقام لو تتبَّعنا تخمينات المؤلِّف التي لا تقوم على دليلٍ سِوَى تشابه الكلمات، غير ملتفت- أو غير متنبِّه- إلى تكرُّر الاسم نفسه في مَواطن شتَّى، ولا ملتفت إلى أيَّة معلومة تاريخيَّة تقدِّم تسويغًا لافتراضاته. من أمثلة ذٰلك قوله- لا فُضَّت «**قناعاته الشخصيَّة**»!-: «**تبقى مسألة تعريف المواقع الأخرى، وأولها بيت حجلة، التي هي قرية (حجلا) في منطقة أبها قرب خميس مشيط. أمَّا بيت معربة فهي (الغرابة) في تنومة المجاورة.**» ثمَّ ضاع هنا، حيث لم يجد مكانَين متَّصِلَين بالمكانَين السابقَين، هما (**ءبن بهن**) و(**بن رءوبن**). فزعم أن الأوَّل إشارة إلى قرية (**بهوان**) في سَراة (**عسير**). لٰكن أين (**بن رءوبن**)؟ قال: «**يبدو أن المقصود قبيلة (الروابين) التي تقطن حاليًّا شمالي الحجاز، ومن غير المستبعد أبدًا أنها قطنت الإقليم قديمًا!**»(3) ونقول في المقابل: من غير المستبعد أن كتابك كلَّه لا أساس له من الصِّحَّة! وما ظنك بكتابٍ

---

(1) انظر: مُنَى، 122.

(2) انظر: م.ن، 124- 127.

(3) انظر: م.ن، 127.

ينهض على قاعدة: «**من غير المستبعد**»، بعد قاعدة «**حسب قناعاتي الشخصيَّة**»؟! ولولا أن صاحبنا كأستاذه، أو أتعس منه، لا يعرف عن الجزيرة وأسماء المواضع فيها غير ما تلقَّفه عبر المعاجم الحديثة، لوجد أماكن كثيرة «**من غير المستبعد**» أنها المقصودة، على طريقته في عدم الاستبعاد. لدينا في جبال (**فَيْفاء**)- على سبيل الشاهد- من تلك الأسماء ما لا يُحصَى، غير بعيد عن الرقعة الجغرافيَّة التي يحوم حولها الرجل ويسبح في الخيال. فهناك (**بيت حُجَيْل**).[1] بل هناك بيتان باسم «**حُجَيْل**»: (**حُجَيْل**)، و(**حُجَيْل الأعلى**)، كلاهما من بيوت قبيلة (**آل خُسَاف**). أمَّا (**الغرابة**)، فثمَّة بيت اسمه (**الغُرَّابة**)، في (**بُقعة الضَّحْي**)، في جبل (**آل المَشْنِيَة**). و**حُجَيْل** و**الغُرَّابة**، كما ترى، بيتان بالفعل: (**بيت حُجَيْل**) و(**بيت الغُرَّابة**)، كما وردَ اسماهما ووصْفاهما في «**العهد القديم**»، لا كما تلمَّسهما (مُنَى) بين حروف الأسماء على أَيَّة صورة.

وإذن، ما أكثر الأشباه والنظائر من الأسماء، لو كان ذٰلك يدلُّ في ذاته على شيءٍ من حقائق التاريخ والجغرافيا!

١٣- توزيع الأراضي في جزيرة العَرَب على عشائر بني إسرائيل؟:

من الغريب أن ترى مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» ينطلق بثقةٍ- قاطعة أحيانًا- في تخرُّصاته، في حين يكشف وصفُه الجغرافيُّ جهلَه الفاضح بحدود المواقع التي

---

[1] وهو بيت (**فرحان بن أحمد**)، خال والدي. يشير إليه جدِّي الشاعر (**علي بن سالم آل حالية**)، في مرثيَّة:

أَرَى (حجَيْلٍ) وانِّ قَلبي تحسَّافْ   **على وَلَدْ حِـمدانْ نُـوْرُو شَهِـيرةْ**

يتحدَّث عنها وطبائعها وتواريخها، بل جهله بالأسماء الصحيحة لبعض الأماكن. مثال ذٰلك إشارته إلى (**جبال الحَشَر**) على أنها: «**منطقة الحُشَّر**»![1] وإشارته إلى (**المِخْلاف السُّلَيماني**) على أنه: «**المخالف السُّلَيماني**».[2] بل قد لا يعرف المكان الذي يربطه بـ«**التوراة**»، لا لفظًا ولا معنى. مثال ذٰلك أنه وقفَ على ما وردَ في (**سِفر يشوع**، الإصحاح الخامس عشر)، عمَّا كان من القُرعة لتحديد مواطِن سِبط (**بني يَهوذا**) حسب عشائرهم، حيث جاء القول:

> «**وفِي الـجَبَلِ: شَامِيرُ ويَتِّيرُ وسُوكُوهُ، ودَنَّةُ وقَرْيَةُ سَنَّةَ، هِيَ دَبِيرُ. وعَنَابُ وأَشْتِمُوهُ وعَانِيمُ، وجُوشَنُ وحُولُونُ وجِيلُوهُ. إِحْدَى عَشْرَةَ مَدِينَةً مَعَ ضِيَاعِهَا. أَرَابُ ودُومَةُ وأَشْعَانُ، ويَنُومُ وبَيْتُ تَفُّوحَ وأَفِيقَةُ، وحُمْطَةُ وقَرْيَةُ أَرْبَعَ، هِيَ حَبْرُونُ، وصِيعُورُ. تِسْعُ مُدُنٍ مَعَ ضِيَاعِهَا. مَعُونُ وكَرْمَلُ وزِيفُ ويُوطَةُ، ويَزْرَعِيلُ ويَقْدَعَامُ وزَانُوحُ، والقَايِنُ وجِبْعَةُ وتِمْنَةُ. عَشْرُ مُدُنٍ مَعَ ضِيَاعِهَا. حَلْحُولُ وبَيْتُ صُورٍ وجَدُورُ، ومَعَارَةُ وبَيْتُ عَنُوتَ وأَلْتَقُونُ. سِتُّ مُدُنٍ مَعَ ضِيَاعِهَا. قَرْيَةُ بَعْل، هِيَ قَرْيَةُ يَعَارِيمَ، والرَّبَّةُ. مَدِينَتَانِ مَعَ ضِيَاعِهِمَا.**»

فلجَّ لُجوجًا عجيبًا في إلصاق الأماكن المذكورة أعلاه، وبأيَّة كيفيَّة من الكيفيَّات

---

[1] انظر: مُنَى، ١٢٣.

ويقع (جبل الحَشَر) شَمالي (**جبال بني مالك**)، جَنوب غَربيِّ (**السُّعوديَّة**)، في النطاق التقريبيِّ بين خط العَرض ١٧ درجة وخط الطول ٤٣ درجة.

[2] انظر: م.ن، ١٦٢.

المعهودة لديه، على امتداد رُقعةٍ مشتَّتة، تَفَحَّجَتْ ما بين (**القُنفذة**) شَمالًا إلى جبال (**فَيْفاء**) جَنوبًا! ذٰلك أنه في الفصل السادس والسابع من كتابه كان قد أخذ على عاتقه مهمَّة توزيع الأراضي في (**عسير**) و(**جازان**) و(**غامد** و**زَهران**) على عشائر (**بني إسرائيل**)، وتحديد الحدود بين أسباطها، في ما أسماه «**أرض الميعاد**»! فأرض **الميعاد**- حسب قناعاته الشخصيَّة ورفقائه في هٰذا المضمار من العبث التاريخي- تقع في جَنوب (**المملكة العَرَبيَّة السُّعوديَّة**) اليوم، على التباين بينهم في تحديد المدينة اليهوديَّة المقدَّسة: (**أورشليم**)! حتى لم يبق- من فرط يقينه بمشروعيَّة ما يفعل علميًّا وتاريخيًّا- إلَّا أنْ يمنح تلك العشائر العِبرانيَّة، لو استطاع، صكوكه المدموغة بحماسته الاعتقاديَّة المنقطعة النظير!

وإذا كان (**أحمد داوود**)[1] قد ذهب إلى أن ما سُمِّي «**أرض الميعاد**» ما كان يعدو مراعي تقع على مرمى البصر من بلاد (**غامد**) و(**زَهران**)، فإن (**زياد مُنَى**) كان يضرب في شِعاب الأرض، جَنوبًا وشَمالًا، شَرقًا وغَربًا، تتبُّعًا للحروف والأسماء؛ حتى لم تعُد لأرض سبطٍ من الأسباط حدودٌ معقولة؛ فتجد طرفًا منها في (**اليَمَن**) وآخر في (**القنفذة**)، أو في شَمال الحِجاز، أو في **غامد** و**زَهران**! وهٰكذا، فحيثما التمح الحروف التي تُشبِه حروف الأسماء الواردة في «**التوراة**»- من قريبٍ أو بعيد- فثمَّة أرض (**بني إسرائيل**)، وإنَّما شرطه الوحيد أن يكون المكان في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، ولاسيما جَنوبًا وغَربًا!

---

[1] انظر: **العَرَب والسَّاميُّون**، ١٧٠.

وقد وافق أستاذَه (**الصَّليبيَّ**) على أن «**قرية ءربع**» تقع في منطقة (**اللِّيث**)، وهي: (**قرية آل سيلان**)، و(**قرية الشياب**)، و(**قرية عاصية**)، و(**قرية عامر**). أمَّا (**حبرون**)، فهي قرية (**الخربان**) بـ(**المجاردة**)! يزعمان هٰذا على الرغم من أن مستهلَّ النصِّ التوراتيِّ يشير إلى أن تلك الأماكن تقع في: «**جبل**»، ويدلُّ النصُّ على أنها مواضع متجاورة. ثمَّ يطرح (**مُنَى**) احتمالًا آخَر عن تلك القُرَى الأربع؛ إذ ما أكثر القُرَى في (**جزيرة العَرَب**)، وما أكثر البدائل! ذٰلك الاحتمال الآخَر الذي احتمله هو أن المقصود: (**قرية بني علي**)، و(**قرية علي بن مُوسَى**)، و(**قرية عُمَر مقبول**) و(**قرية مُوسَى بن عبدالله**)، في (**جازان**)![1] فها هي تي قُرًى أربع، وماذا تريد من مؤيِّدٍ لهٰذا الاحتمال أعزَّ من هٰذا الدليل، وهو وجود أربع قُرًى متجاورة؟! وكانت إحدى هٰذه القُرَى، وهي **قرية عُمَر مقبول**- الواقعة في ناحية (**المَضايا**) في **جازان**- قد ذهب **الصَّليبي** إلى أنها المكان التوراتي: (**بت عرم**)![2] غير أن شاهدنا النموذجي- في غضون هٰذا التخبُّط العارم، المتوارث منذ مغامرات **الصَّليبي**- يُمكن أن يتمثَّل في قول **مُنَى**[3]: إن (**مَعَارَة**) هو «(**معرة/ معرت**) **في منطقة فيفا بجيزان**»! لن أقف لتصحيح هٰذين الاسمين (**فيفا**) و(**جيزان**)؛ فمثل هٰذا بحرٌ لا ساحل له لدَى هٰؤلاء المؤلِّفين، لٰكني أقف لأسأل:

أين «(**معرة**) **في فَيْفاء**»؟

---

[1] انظر: مُنَى، ١٥٤.

[2] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٢١٣- ٢١٤.

[3] ١٥٧.

لا أعرف مكانًا في (فَيْفاء) بهٰذا الاسم.

ولتَلحظ أن النصَّ التوراتي يشير إلى أن تلك الأسماء- ومنها (**مَعَارَة**)- أسماء مُدُن، قائلًا: إنها «**سِتُّ مُدُنٍ مَعَ ضِيَاعِهَا**». إذن (**معرة**): مدينة، وحسب مزاعم (**مُنَى**)، كانت تقع في شماريخ جبال (**فَيْفاء**)، التي لا مُدُن فيها ولا قُرى، وإنَّما بيوت متناثرة ومدرَّجات زراعيَّة!

دع عنك هٰذا، ولٰكن: تُرَى أين وقع المؤلِّف على هٰذا الاسم: (**معرة**)؟

ليس هناك إلَّا بيتٌ عائليٌّ عاديٌّ مأهولٌ في جبل (**آل بِلْحَكَم/ أبي الحَكَم**) في (**فَيْفاء**) اسمه: (**العُرَّة**)، وحوله بُقعةٌ بالاسم نفسه. وبحسب الاستعمال اللهجي اليماني المعروف يستعملون (امْـ) بدل (الـ) التعريف؛ فيسمُّونه: «**امْعُرَّة**».

أذٰلك المنزل الذي بناه أبناء أُسرةٍ من **فَيْفاء** وسمَّوه «**امْعُرَّة/ العُرَّة**» هو (**مدينة مَعَارَة**) التاريخيَّة، من مُدُن سِبط (**بني يهوذا**)؟!

«**لا يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَل**»!

لا شكَّ أن العِلْم بحر! وإذا رَكِبَ المرءَ الهوَى، أبحرَ هٰكذا فيه بلا حدود، حتى يصبح بيتٌ عائليٌّ معاصرٌ مدينةً تاريخيَّةً منذ آلاف السنين!

١٤- محاولاتٌ عشوائيَّةٌ لنقل إسرائيل إلى جزيرة العَرَب؟!:

إن مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» لم يكن يعرف أسماء الأماكن التي يحاول أن ينسب إليها ما ينسب، ولا يعرف معناها، ولا يعرف طبيعتها، ولا تاريخ إطلاقها. وإذا كان

(الصَّليبي) قد اقترف في مجازفاته التخمينيَّة الزعمَ أن بيوتًا عائليَّة في **(فَيْفاء)** هي قُرًى توراتيَّة بقضِّها وقضيضها، فها هو ذا تلميذه النجيب يطوِّر تلك المزاعم، متوسِّعًا في مخيالها الخرافي ذاهبًا إلى أن بيوتًا عائليَّة كانت مُدنًا توراتيَّة بأكملها!

لٰكن لا تَعجب؛ فالعجيب أن تَعجب ممَّن ستجده يخبرك، مثلًا، أن **(خثعم)**- حسب تحديداته المبتدعة- تقع في **(جازان)**! فقال عن **(بعلوت)**: «**بعرة/ بعرت في خثعم بجيزان**»![1] وإذا كان لا يعلم عمَّا يتحدَّث، ولا يعرف الأماكن البارزة أمامه على الخريطة، الماثلة بأسمائها نُصْبَ عَيْنَيَة إلى اليوم، فأنَّى له أن يدَّعي معرفة الأماكن الواردة في «**التوراة**»، وقد حار فيها الأوَّلون والآخِرون؟! ذاك أن مَن يقول إن «**خثعم في جازان**»[2] حريٌّ أنْ لا يعرف شَرقها من غَربها، فضلًا عن أن يؤلِّف كتابًا في التاريخ والجغرافيا ليؤوِّل ميثولوجيَّات «**التوراة**» وجغرافيَّاتها. ولا غرو، فإن الزاعم- بلا دليل يُعتَدُّ به- أن مَواطن **(بني إسرائيل)** كانت في جَنوب غَربي **(الجزيرة العَرَبية)**، بوسعه أن يقول إن بلاد **خثعم** تقع في **جازان**، أو حتى في **(الحبشة)**! فهٰذا أهون من ذاك، وإنْ كانا على وتيرةٍ واحدةٍ من التزييف.

كما لا تَعجب ممَّن يسمِّي قبيلة **(الرُّوَلَة)**، المعروفة بمكانها ومكانتها في شَمال **الجزيرة العَرَبيَّة**: «**قبيلة الروالة**»، موحيًا بأنها قبيلة حِجازيَّة، مورِدًا احتمال أنها تنتمي إلى **(ءرءل/ أرائيل/ أَرْئِيْلي)**[3]- الابن الأخير لـ**(جاد بن يعقوب)**، وهو ممَّن نزلَ

---

[1] م.ن، ١٣٧.

[2] تقع (**خثعم**) في (**السَّراة**) بين (**أبها**) و(**الطائف**)، تُحادُّها (**شمران**) شَمالًا غَربًا و(**بلقَرن**) جَنوبًا شَرقًا.

[3] انظر: مُنَى، ١٨٥.

مع (**يعقوب**) إلى (**مِصْر**).[1] فمَن يزعم هٰذا، لا مبالغة في القول إنه لا يعرف شَمالها من جَنوبها أيضًا! وبذا يشمل شَمال الجزيرة مع جَنوبها في العَزْو إلى (**بني إسرائيل**)، مدرِجًا في تخرُّصاته أسماء القبائل والأماكن هنا وهناك.

وليته- اعترافًا بجهله بالمواضع والقبائل- اتَّبع ما فعله في تطرُّقه إلى بعضها من إغفال ذكر شيءٍ عن أماكنها. كما فعل حيث إشارته إلى (**حشمون**)؛ فقال: «**ضِمن الاحتمالات العديدة أرجح أن الموقع المقصود هو «الخشمان/ خشمءن»**.»[2] وسكتَ؛ فهو، في ما يبدو، لا يدري أين (**الخشمان**) هٰذا! على أن الفائدة منتفية في ذِكر الاسم غُفلًا من تحديد مكانه! لٰكنَّ بعض الحُمق أهون من بعض![3]

ومع هٰذا كلِّه فإنه ما ينفكُّ يُخامره الافتتان بأنه يملك مفاتيح التأويل الجغرافي والتاريخي واللغوي لنصِّ «**التوراة**»، على أساسٍ واحدٍ لا ثاني له، هو أنه نصٌّ يُحيل إلى مَواطِن في (**جازان**) و(**عسير**) و(**غامد** و**زَهران**)! حتى إنه ليجد أسماء كثيرة لها ما يقابلها في (**فِلسطين**)، حسب ما يذهب إليه علماء «**التوراة**» - مثل: (**يريحو= أريحا؛ بيت حجلة= نبع حجلة؛ هعربة= الغرابة؛ هفره= تل فارة؛ جبع= جبع؛**

---

[1] انظر: **سِفر التكوين**، ٤٦: ٨- ١٦.

[2] مُنَى، ١٣٨.

[3] إذا كان يومئ إلى فخذ (**الخشمان**) من (**مطير**)، فهٰؤلاء إنَّما ينتسبون إلى جَدٍّ لهم كنيته (**أبو خشيم**). على أن هناك أيضًا (**الخشمان**) من (**عتيبة**)، و(**الخشمان**) من (**حرب**)، و(**الخشمان**) من (**بلي**). وما أكثر «**خُشوم**» العَرَب! ولٰكن ما علاقة هٰؤلاء باسم المكان التوراتي (**حشمون**)؟! لا عجب، فقد اعتاد المؤلِّف ضرب أسماء القبائل بأسماء الأماكن! ثُمَّ ما علاقة **الخشمان** بـ(**عسير**)؟! لقد بلغ إغراء الحروف حدًّا لم يَعُد يميِّز بسببه بين أسماء القبائل والأماكن، ولا يعنيه ما إذا كانت في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) أو شَمالها!

هرمه= **الرام**؛ **هكفيرة= خربة كفيرة**)، وكلُّها أماكن فِلسطينيَّة يقترحها علماء «**التوراة**» للأسماء الواردة في «**العهد القديم**»، ومثلها أسماء عثر عليها العلماء في (**الأردن**)- فيأبى إلَّا أن ينقِّب عن أسماء تشبهها في (**الجزيرة العرَبيَّة**)، مهما كلَّفه الأمر من تعسُّف! فإذا لم يجدها في أسماء الأماكن ألصقها بأسماء القبائل![1]

بل لقد توقَّف عند النقش الطويل على الحجر المُوآبي، الذي يعود إلى (**ميشع بن كموش**)، ملك (**مُوآب**)[2]، والذي عُثِر عليه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، شَرقيَّ (**البحر الميِّت**)، وفيه يخلِّد ملك (**مُوآب**) أخبار حروبه ضدَّ (**عُمْري**) ملك (**إسرائيل**) وابنه (**أَخْآب**)، مسجِّلًا انتصاراته على (**بني إسرائيل**)، ذاكرًا أسماء المدن التي احتلَّها أو بناها.[3] ويُعَدُّ هٰذا النقش، الذي يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وثيقةً صارخةً على أن مَواطن **بني إسرائيل** كانت في جوار المكان الذي عُثِر فيه على ذٰلك النقش المُوآبي، أو- على أقصَى احتمال- تمتدُّ إلى أماكن من شَمال (**الجزيرة العرَبيَّة**). وعلى الرغم من هٰذا فإن المؤلِّف ظلَّ مُصِرًّا على أن يبحث عمَّا وردَ في ذٰلك النقش في جَنوب **الجزيرة العرَبيَّة**، وكيفما اتَّفق! وممَّا ذَكَرَه حول تلك المُدُن الواردة في النقش قوله، مثلًا: «...**وقريتن- صيغة الجمع لـ«قريت»، التي هي (القريات) هنا بصيغة جمع التكسير** [كذا!]، **والتي تقع في جبل ضرم**

---

[1] انظر: مُنَى، ١٧١- ٢٠٠، مثلًا.

[2] تقع (**مُوآب**) على الامتداد الشَّرقيِّ لساحل (**البحر الميت**)، على الشريط الواقع بين (**المملكة الأردنيَّة**) وأرض (**فِلسطين**) المحتلَّة.

[3] انظر: ظاظا، **الساميُّون ولغاتهم**، ٥٧؛ سوسة، ٤٩٨.

بتهامة. كما يذكر النقش الموقع «عرعر»، أي قرية (عرعر) في وادي بيحان بسراة عسير.»[١] فيما لقائلٍ أنْ يقول، على طريقة المؤلِّف، وما دامت المسألة مسألة أسماء: لِـمَ لا تكون «**قريتن**»: (**القُريَّات**)، في شَمال (**السُّعوديَّة**) غَربًا؟ و«**عرعر**»: (**عَرْعَر**)، في شَمالها شَرقًا؟ وما أكثر مثل هٰذه الأسماء في كلِّ مكان، شَمالًا وجَنوبًا!

ويختم احتطابه- وإنْ كان قد عُثِر على نقش (**ميشع بن كموش**)، مَلِك (**مُوآب**)، في شَرقيِّ (**البحر الميت**)- بالذهاب إلى أنه: «**على قناعة بأن بلاد أو أرض مُوآب لم تكن في السَّراة فحسب، وإنما ضمت أجزاء من تهامة في منطقة القنفذة**»![٢] والهدف من نقل **مُوآب** إلى هناك نقل (**إسرائيل**) نفسها إلى هناك، والسلام!

١٥- وإذْ ينقلون البحر الميِّت إلى جبال الطائف!:

وأخيرًا يعقد مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» الفصل التاسع من كتابه تحت عنوان «**اليم الذي ليس بحرًا**»، من أجل إنكار أن إشارات «**التوراة**» إلى كلٍّ من (**البحر الميِّت**) و(**بحيرة طبريَّة**) إشارات إلى هٰذين المكانَين المعروفَين، بل إلى مَواطن في (**السَّراة**)! ذٰلك أن المزاعم، التي استحالت إلى عقيدة لدَى هٰؤلاء بأن تاريخ (**بني إسرائيل**) كان في (**جزيرة العَرَب**)، لا تتأتَّى نظريًّا دون اجتثاث (**فِلسطين**) و(**الأردن**) و(**لبنان**) و(**مِصْر**) و(**العِراق**) جميعًا من أماكنها التاريخيَّة ونقلها إلى **جزيرة العَرَب**.

---

(١) مُنَى، ١٨٦.

(٢) م.ن، ١٨٩.

ولا بُدَّ بعدئذٍ من تأوُّل كلِّ اسم، وكلِّ حدث، لاختلاق بناءٍ هُلامي من الافتراضات، في غياب أيِّ مُستنَدٍ تاريخيٍّ مؤيِّدٍ لما يزعمون، ولنقض أي مستندٍ تاريخيٍّ مناقضٍ لما يسعون إليه، تاريخيًّا كان أو لغويًّا أو دِينيًّا، أو حتى نقشًا على حجر.

وانتهى صاحبنا في رفضه للتفسير الذاهب إلى أن الاسم التوراتي «**يم هملح**»- ويعني بالعَرَبيَّة: «**يم الملح**»- يشير إلى (**البحر الميِّت**) إلى قوله إنه لا يشير لا إلى «**يم**» ولا إلى «**ملح**»، ومن ثَمَّ لا يشير لا إلى **البحر الميِّت** ولا إلى أيِّ بحرٍ آخر. دون أن يقدِّم برهانًا على ما يقول، أكثر من:

١- أنه قد أُطلِقت أسماء أخرى على ذٰلك المكان، هي: «**يم**»، و«**يم هملح**»، و«**يم هعربه**».

٢- تجاهُل الإشارة إليه عند وقوف (**مُوسَى**) «**على جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا**».[1]

أ فهٰذا يكفي استدلالًا لنفي تاريخ أو لإثباته؟!

غير أنه، وهو في هٰذه المعمعة الجدليَّة، ساقَ إلينا ما خُيِّل إليه شاهدًا على أن (**بني إسرائيل**) لا علاقة لهم بـ(**البحر الميِّت**)، فإذا هو يسوقه شاهدًا عليه لا له، ودليلًا على أن لا صلة **لبني إسرائيل** بـ(**جزيرة العَرَب**)! ذٰلك أنه حين نفَى الزعم الذاهب إلى أن للزِّفت الطافح عن **البحر الميت** علاقة بسفينة (**نُوح**)، أو أنه قد

[1] انظر: م.ن، ١٩٨- ٢٠٠.

استعان به (**المَلِك سُلَيمان**) على بناء الهيكل أو بناء السُّفن؛ استدلَّ على ذٰلك بأمرين:

١- أن العَرَب- وهم أهل بحارٍ وأهل تجارة- قد اعتمدوا في صناعة السُّفن وغيرها على موادَّ مستمدَّةٍ من أشجار (**العَرْعَر**)- الكثيفة في غَرب الجزيرة وجَنوبها- ولم يكونوا في حاجة إلى زفت (**البحر الميِّت**) المزعوم.

٢- أن (**بني إسرائيل**)- كما قال- لم يكونوا أهل بحار، كما يدلُّ على ذٰلك تاريخهم، ولا قُدرة لهم على بناء السُّفن وخوض البحار. ثمَّ شرعَ يستشهد على جهل **بني إسرائيل** بالبحار وتقنياتها.

مردِّدًا خلال ذٰلك قول (**الصَّليبي**)[1] إن «**يم هملح**» و«**يم هعربه**» مكانان لا مكان واحد، يقعان في منطقة (**الطائف**)، هما: (**الملحة**) و(**غُرابة**)، وإن كلمة «**يم**» تعني: «**غرب**»، لا «**بحر**». وهٰكذا فإنه لكي يؤكِّد أنْ لا علاقة طبيعيَّة أو حضاريَّة (**للبحر الميِّت**) (**ببني إسرائيل**)، إذا هو يقع- من حيث لم يشعر- في نقض أطروحته نقضًا؛ وذٰلك بنفيه أن **بني إسرائيل** كانوا أهل بحار، أو أنها كانت لهم صناعات خشبيَّة، لبناء السُّفن أو غير السُّفن، كما كانت للعَرَب صناعات خشبيَّة. أَوَلَسْتَ تقول- ومعك **الصَّليبي** و(**أحمد داوود**)- إن **بني إسرائيل** كانوا عشيرةً من عشائر العَرَب، تعيش في (**جزيرة العَرَب**)؟! فكيف كانوا عَرَبًا، وفي **جزيرة العَرَب**، وفي الوقت نفسه لم يكونوا عَرَبًا، ولا صِلَة لهم بحضارة العَرَب الصناعيَّة والبحريَّة؟!

هٰذا التناقض الذي وقع فيه المؤلِّف هو الذي كان يضطر (**أحمد داوود**)- كما

---

[1] انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ١٣٧- ١٤٠.

سلف في عرضنا كتابه- إلى الاستدراك، تنصُّلًا من هٰذه المعضلة، زاعمًا أن (**بني إسرائيل**) كانوا عشيرةً عَرَبيَّةً لٰكنها كانت في الحضيض من العُزلة والتخلُّف! والحقُّ أنَّها لم تكن عشيرةً عَرَبيَّةً، ولا في الحضيض من العُزلة والتخلُّف، ولا في (**جزيرة العرَب**)، وإنَّما أوقع أولٰئك الثلاثة في شِباك التناقض إصرارُهم على نقل تاريخ (**بني إسرائيل**) من (**الهلال الخصيب**) إلى **الجزيرة العَرَبيَّة**.

وممَّا يدلُّ على أن (**بحر الملح**) بحرٌ، وهو (**البحر الميِّت**)، ولا علاقة له بالمكانَين المزعومَين في (**الطائف**)، أنَّ وصفه في «**التوراة**» جاء بإضافة كلمة «**لسان**» إليه، بمعنى «**اللسان البحري**»، كما في (**سِفر يشوع**)[1]: «**وكَانَ تُخُمُهُمُ الجَنُوبِيُّ أَقْصَى بَحْرِ المِلْحِ مِنَ اللِّسَانِ المُتَوَجِّهِ نَحْوَ الجَنُوبِ.**» وفيه أيضًا: «**وكَانَتْ مَخَارِجُ التَّخُمِ عِنْدَ لِسَانِ بَحْرِ المِلْحِ شَمَالًا إِلَى طَرَفِ الأُرْدُنِّ جَنُوبًا**».[2]

١٦- بُحيرة طبريَّة على جبال السَّرَوات؟!:

ليست (**بُحيرة طبريَّة**) **ببُحيرة طبريَّة!**

هٰذا ما يقرِّره (**زياد مُنَى**). والسبب أن الإشارة في «**التوراة**» هي إلى (**كنرت**)، و(**يم كنرت**). فلماذا لا يوافق على تفسير هٰذين الاسمين، كما فهمَهما ذوو الاختصاص، على أنهما: (**مدينة طبريَّة**) و(**بُحيرة طبريَّة**)؟

---

(١) ١٥: ٢.

(٢) م.ن، ١٨: ١٩.

قال: لأن اللافت للانتباه أن هٰذين الاسمين غير واردَين في النصوص القديمة للدلالة على (**مدينة طبريَّة**) و(**بُحيرة طبريَّة**).

كيف؟

قال: إن «**العهد الجديد يُطلِق في (سِفر لوقا، ٥: ١) اسم «بحر جَنِّيسَارَت» على بحر طبريا، بينما يرد الاسم في (سِفر المكابيين الأول، ١١: ٦٧) بصيغة «جنيسكر». أمَّا التلمود فيطلق على البحيرة اسم يمه سل طبريه بمعنى (البحر القريب من طبريا)**».[1] إذن، الاسمان غير واردَين في النصوص اللاحقة بـ«**العهد القديم**» للدِّلالة على (**مدينة طبريَّة**) و(**بُحيرة طبريَّة**)!

السؤال هنا: أين ذهبت آليَّة القلب والاستبدال، التي أعملها هٰؤلاء في بنيات الألفاظ لقلب (**الشَّام**) (**يَمَنًا**)، واستبدال جَنوب وغَرب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) بـ(**فِلسطين**)، وبلاد (**الشَّام**) عمومًا، مع (**مِصْر**)، و(**العِراق**)؟! أم أنها آليَّة لا تعمل إلَّا حين يكون الهدف نقل تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى **الجزيرة العَرَبيَّة**؟! لِـمَ لَمْ ير هٰذه المرَّة في «**جنِّيسارت**» و«**بحر جنِّيسارت**» أو «**جنيسكر/ جناسر**»[2] تحريفًا، أو تصحيفًا، أو قلبًا واستبدالًا، أو لغةً من: (**كنرت**)، و(**يم كنرت**)، وَفْقَ منهجيَّته في قراءة النصوص؟ عِلمًا بأن الاسم، بحسب بعض الترجمات هو:

---

[1] مُنَى، ٢٠٢- ٢٠٣.

[2] أوردَ الاسم: «جنيسكر»، وهو «جِنَّاسَر»، في الطبعة التي بين يدَينا. (انظر: **سِفر المكابيين الأول**، موقع «**الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي، الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، مصر**»، على «الإنترنت»: https://goo.gl/smH4Yk).

«**كِنَّارَة**»، موصوفة بأنها من المدن المحصَّنة، لسِبط (**بني نَفْتالي**).[1] ويرِد أحيانًا: «**بَحْر كِنَّـرُوت**»[2]، وكأنه **جنِّيسارت** نفسه. هٰذا فضلًا عن تجاهله لما استشهد به هو من إطلاق «**التلمود**» على تلك البُحيرة اسم: «**يمه سل طبريه**»، بمعنى (**البحر القريب من طبريَّة**). أضف إلى ذٰلك قوله إن «**طبريَّة**» إنَّما سُمِّيت بهٰذا الاسم في العام العشرين من القرن الأوَّل؛ لأنه بناها الحاكم المعيَّن من قِبل (**الرُّومان**): (**هيرودس أنتيباس** Herodes Antipas) تكريمًا للإمبراطور الروماني (**طيباروس**).[3]

إنه- كما تلحظ- ما زال يستشهد بشواهد عليه لا له!

وقد أشار إلى أن (**مدينة طبريَّة**) بناها (**هيرودس**) على أنقاض مدينة كان اسمها: «**رقة**». وهنا أيضًا لم يخطر في باله القول، مثلًا: إن **رقة** ربما كانت نفسها: «**كنرت**»، في نوع من القلب والاستبدال، كما اعتاد أن يقول! كلَّا، بل ذهب إلى أن **رقة** مكان في (**الطائف**) اسمه «**رقة**»**!**[4] ولن نعيد القول إن مثل هٰذا الاسم يمكن العثور عليه في أماكن كثيرة، في **الطائف** وفي غير **الطائف**. ولن نعيد القول أيضًا إن تراتب أسماء الأماكن على نحوٍ شبيهٍ بتراتبها في «**التوراة**» ليس بدليلٍ كذٰلك على أنها هي الأسماء التوراتيَّة، وقد قدَّمنا نماذج من ذٰلك.[5]

---

[1] انظر: سِفر يشوع، ١٩: ٣٧.

[2] انظر: م.ن، ١٢: ٣.

[3] انظر: مُنَى، ٢٠٣.

[4] انظر: م.ن.

[5] راجع: الفصل الأوَّل، تحت عنوان «**٢٣- المؤتلِف لفظًا المختلِف أرضًا.. وحقائق التاريخ**».

من هٰذا كلِّه يَخلُص المؤلِّف إلى أن اسم «**كنرت**» ليس بـ(**طبريَّة**)، بل هو يشير إلى «**مواقع عديدة في سَراة عسير، وبلاد غامد، وزَهران، بالإضافة إلى منطقة الطائف**»! ذَكَرَ منها: جبل «**قرنيط**» جَنوبي (**الطائف**)، و«**القرنطة**» في (**سَراة زَهران**)، و«**القرينات**» بـ(**وادي اللِّيث**).[1] فاختر منها ما شئت!

أمَّا الأوَّل، فجبل (**الشَّفا**) في (**الطائف**)، ولا وجه لربطه بما وَرَدَ في «**التوراة**» من وصف «**بَحْر كِنَّـرُوت**»، الذي هو «**بحر جنِّيسارت**»، في (**الإنجيل**)، وهو ما يُعرف اليوم بـ(**بُحيرة طبريَّة**). والناس يدعون «**قرنيط**» (**الشَّفا**): «**غرنيت**» أيضًا. وقد علَّل بعض الباحثين تسميته بهٰذا الاسم بما يُروى من أن الحملة الرومانيَّة التي قادها (**إيليوس جالوس** Aelius Gallus)، محافظ (مِصْر)، (٢٦– ٢٤ق.م)، في عهد الإمبراطور الروماني (**أُغسطس قيصر** Augustus Caesar، –١٤م)[2]، مرَّت بقرب **الطائف** في طريقها إلى الجَنوب، فأطلقت اسم **غرنيت** على جبل **الشَّفا**، مشبِّهة إيَّاه بشكل التاج. في حين يستبعد (**حَمَد الجاسر**)[3] هٰذا التعليل، ويرى أن الاسم **محرَّف** من كلمة «**قرنَين**»؛ لأن له رأسَين بارزَين. ومهما يكن من أمر، فلولا مَضِلَّة الحروف والأسماء وهوس التأويل، ما ذهب أحدٌ لربط هٰذا الجبل بما يرد في «**العهد القديم**» عن **بَحْر كِنَّـرُوت**.

وأمَّا «**القرنطة**»، فيعني بها قرية (**القِرَنْطَة**)، من قُرَى قبيلة (**كنانة**) بـ(**سَراة**

---

[1] انظر: مُنَى، م.ن.

[2] عن تلك الحملة، انظر: ملحق هٰذا الكتاب.

[3] انظر: **في سَراة غامد وزَهران**، ٣٦٥.

زَهران)، في **(وادي تُربَة)**.[1] فما علاقة هٰذه القرية بـ**(بُحيرة طبريَّة)**؟!

وأمَّا الاسم الثالث «**القرينات**»، في **(اللِّيث)**، فما أكثر مثل هٰذا الاسم في **(جزيرة العَرَب)**، من قرن، وقرون، وقرين، وقرينات!

ويَلحظ القارئ هنا أنها تعاود المؤلِّفَ منهجيتُه الأثيرة في القلب والاستبدال، حين يكون الهدف نقل تاريخ **(بني إسرائيل)** إلى **الجزيرة العَرَبيَّة**، بزعمه أن اسم «**كنرت**» التوراتي إشارةٌ إلى جبل «**قرنيط**»، أو «**القرنطة**»، أو «**القرينات**». مكتفيًا بهٰذه الأسماء الثلاثة، وإلَّا فمعجم الأشباه والنظائر طويل، وفي مواضع شتَّى.

١٧- عَوْدٌ إلى جغرافيَّة النصِّ:

إنَّ مَن يقرأ النصَّ التوراتيَّ لا يشكُّ لحظةً أن تلك المواضع في **(جزيرة العَرَب)** التي حاول مؤلِّف «**جغرافيَّة التوراة**» تأوُّلها توراتيًّا- على خُطَا أستاذه **(الصَّليبي)**- لا صلة لها بنصِّ «**العهد القديم**»، وأن النصَّ ناطقٌ بجغرافيَّته الحقيقيَّة، على الرغم من كلِّ ما يكتنفه من غموضٍ والتباس. وها هو ذا نموذجٌ شاهدٌ بذٰلك، نقتبسه من **(سِفر العدد**، الإصحاح ٣٤)، على سبيل المثال الإضافي إلى ما سلفَ من أمثلةٍ خلال هٰذه الدراسة:

«وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «أَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. هٰذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي تَقَعُ لَكُمْ نَصِيبًا.

---

[1] انظر: الزَّهراني، ١٩٨؛ الجاسر، م.ن، ١٧٩.

أَرْضُ كَنْعَانَ بِتُخُومِهَا: تَكُونُ لَكُمْ نَاحِيَةُ الجَنُوبِ مِنْ بَرِّيَّةِ صِينَ عَلَى جَانِبِ أَدُومَ، ويَكُونُ لَكُمْ تَخْمُ الجَنُوبِ مِنْ طَرَفِ بَحْرِ المِلْحِ إِلَى الشَّرْقِ، ويَدُورُ لَكُمُ التَّخْمُ مِنْ جَنُوبِ عَقَبَةِ عَقْرِبِّيمَ، ويَعْبُرُ إِلَى صِينَ، وتَكُونُ مَخَارِجُهُ مِنْ جَنُوبِ قَادَشَ بَرْنِيعَ، ويَخْرُجُ إِلَى حَصَرِ أَدَّارَ، ويَعْبُرُ إِلَى عَصْمُونَ. ثُمَّ يَدُورُ التَّخْمُ مِنْ عَصْمُونَ إِلَى وَادِي مِصْرَ، وتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ البَحْرِ. وأَمَّا تَخْمُ الغَرْبِ فَيَكُونُ البَحْرُ الكَبِيرُ لَكُمْ تَخْمًا. هٰذا يَكُونُ لَكُمْ تَخْمُ الغَرْبِ. وهٰذا يَكُونُ لَكُمْ تَخْمُ الشَّمَالِ. مِنَ البَحْرِ الكَبِيرِ تَرْسُمُونَ لَكُمْ إِلَى جَبَلِ هُورَ. ومِنْ جَبَلِ هُورَ تَرْسُمُونَ إِلَى مَدْخَلِ حَمَاةَ، وتَكُونُ مَخَارِجُ التَّخْمِ إِلَى صَدَدَ. ثُمَّ يَخْرُجُ التَّخْمُ إِلَى زِفْرُونَ، وتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ حَصَرِ عِينَانَ. هٰذا يَكُونُ لَكُمْ تَخْمُ الشَّمَالِ. وتَرْسُمُونَ لَكُمْ تَخْمًا إِلَى الشَّرْقِ مِنْ حَصَرِ عِينَانَ إِلَى شَفَامَ. ويَنْحَدِرُ التَّخْمُ مِنْ شَفَامَ إِلَى رَبْلَةَ شَرْقِيَّ عَيْنٍ. ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخْمُ ويَمَسُّ جَانِبَ بَحْرِ كِنَّارَةَ إِلَى الشَّرْقِ. ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخْمُ إِلَى الأُرْدُنِّ، وتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ بَحْرِ المِلْحِ. هٰذِهِ تَكُونُ لَكُمُ الأَرْضُ بِتُخُومِهَا حَوَالَيْهَا».

كما جاء في (سِفر يشوع، الإصحاح الثالث):

«ويَكُونُ حِينَمَا تَسْتَقِرُّ بُطُونُ أَقْدَامِ الكَهَنَةِ حَامِلِي تَابُوتِ الرَّبِّ سَيِّدِ الأَرْضِ كُلِّهَا فِي مِيَاهِ الأُرْدُنِّ، أَنَّ مِيَاهَ الأُرْدُنِّ، المِيْاهَ المُنْحَدِرَةَ مِنْ فَوْقُ، تَنْفَلِقُ وتَقِفُ نَدًّا وَاحِدًا. ولَـمَّا ارْتَحَلَ الشَّعْبُ مِنْ خِيَامِهِمْ لِكَيْ يَعْبُرُوا الأُرْدُنَّ، والكَهَنَةُ حَامِلُو تَابُوتِ العَهْدِ أَمَامَ الشَّعْبِ، فَعِنْدَ إِتْيَانِ حَامِلِي التَّابُوتِ إِلَى الأُرْدُنِّ وانْغِمَاسِ أَرْجُلِ الكَهَنَةِ حَامِلِي التَّابُوتِ فِي ضَفَّةِ المِيَاهِ، والأُرْدُنُّ مُمْتَلِئٌ إِلَى جَمِيعِ شُطُوطِهِ كُلَّ أَيَّامِ الحَصَادِ، وَقَفَتِ المِيَاهُ المُنْحَدِرَةُ مِنْ فَوْقُ، وقَامَتْ نَدًّا وَاحِدًا

بَعِيدًا جِدًّا عَنْ «أَدَامَ» المَدِينَةِ الَّتِي إِلَى جَانِبِ صَرْتَانَ، والمُنْحَدِرَةُ إِلَى بَحْرِ العَرَبَةِ «بَحْرِ المِلْحِ» انْقَطَعَتْ تَمَامًا، وعَبَرَ الشَّعْبُ مُقَابِلَ أَرِيحَا. فَوَقَفَ الكَهَنَةُ حَامِلُو تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ عَلَى اليَابِسَةِ فِي وَسَطِ الأُرْدُنِّ رَاسِخِينَ، وجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ عَابِرُونَ عَلَى اليَابِسَةِ حَتَّى انْتَهَى جَمِيعُ الشَّعْبِ مِنْ عُبُورِ الأُرْدُنِّ.»

فهل يبدو «**الأردنُّ**» هاهنا: رَيْدًا من جبل، في (**هَرَوْب**)، أو في (**عسير**)، أم يبدو جُرف جبل أو قِمَّةً من **سَراة عسير** الجغرافيَّة، كما كان يُردِّد (**الصَّليبي**)[1]، ومَن تبعه بترديد، كصاحب «**جغرافيَّة التوراة**»؟! أم هو نهر ماء، هو نهر **الأردن**؟ وتبعًا لذٰلك هل يبدو «**بَحْر العَرَبَة «بَحْر المِلْح»**» مشبِهًا في هٰذه السياقات: (**الملحةَ**) و(**غُرابةَ**)، المزعومتين في نواحي (**الطائف**)؟!

وعلى هٰذا فما تفتأ بوصلة النصِّ تُشير إلى عكس اتِّجاه التأويل الكهنوتي في المدرسة «الصَّليبيَّة».

أنْ يَجِدَ باحثٌ صعوبةً في تحديد بعض المواضع بأسمائها اليوم، أو يَجِدَ لَبْسًا في فهم الجهات، أو تبدو الحدود المعطاة محلَّ نظرٍ ونقاشٍ وجدل، ذٰلك كلُّه لا يسوِّغ بحالٍ إنكار أن النصَّ يشير إلى بلاد (**الشَّام**)، وعلى نحوٍ لا يحجبه سديم اللغة والترجمة. أمَّا أن يجازِف مجازِفٌ لنقلها إلى شعاف الجبال ومهاوي الأودية وسَراب الخُبوت من (**جزيرة العرَب**)، ثمَّ يقول «**هٰذه قناعاتي الشخصيَّة**»، فذاك «حديث خُرافةٍ، يا أُمَّ عمرو»، وتهوُّرٌ مسرفٌ في تصديق الأوهام وأضغاث الأحلام. غير أن

---

[1] انظر: **التوراة جاءت من جزيرة العرَب**، ١٣٣ - ١٣٦.

جنايته الكُبرى تتمثَّل في الاستهزاء بعقول القرَّاء، وتسويق الزيف والهُراء بينهم، ونشر ثقافة «**القناعات الشخصيَّة**»، والأهواء الإديولوجيَّة، لا ثقافة العِلْم والتحقيق ومسؤوليَّة الكلمة.



خاتمة

-١-

تلك نماذج ثلاثة تناسلت حول موضوع واحد، تُشرِّق معه وتُغرِّب، وتذهب جَنوبًا وتُشمئل. وما زالت كتبٌ وليدةٌ في تناسلها المخصِب بالخرافة، تنسج على المنوال نفسه ويستنسخ بعضُها بعضًا.[١] لٰكننا سنكتفي بتلك، شواهدَ على هٰذا الضرب من العبث المنهاجي باسم التاريخ، الضارب في مهامهه من التأويل الخرافي للتاريخ إلى التخريف التأويلي للجغرافيا. وقد كانت تؤزُّه لدَى أصحابه دوافع غير عِلْميَّة، تراوح بين الباعث الإديولوجي القومي، ولذَّة الإدهاش، والمتاجرة التاريخيَّة. ليتمخَّض عن نوعٍ من الأسطرة المعرفيَّة الحديثة، في أعمالٍ تصنع التاريخ من الخيال، وتبني الجغرافيا من هوس التأويلات والترف اللفظي. مزلِفةً بذٰلك بين أيدي الطامعين صكوكًا تاريخيَّة زائفة، تُشرعِن- وإنْ أظهرت البراءة- للسطو على

[١] باستثناء بعض ما جاء في كتاب (**أحمد داوود**)، ونقْله مَدار التأويل من (**عسير**) إلى (**سَراة غامد**)، فإن جُملة المؤلَّفات التي تناسلت في هٰذا الموضوع المستهلَك إنَّما خرجت من عباءة (**كمال الصَّليبي**)، وإنْ في أزياء ملوَّنة، لا تكاد تُضيف نوعيًّا ما يستأهل المتابعة؛ فليس لها براهين أثريَّة مقنعة، وإنَّما هو الاتكاء على بعض القرائن اللغويَّة والمقارنات اللفظيَّة بين الأسماء. ومن الكتب التي أعادت تقحُّم هٰذه السبيل المطروقة كتاب بعنوان «**فِلسطين المتخيَّلة: أرض التوراة في اليَمَن القديم**»، في مجلَّدين، لمؤلِّفه (**فاضل الربيعي**). ولا يبدو فيه من جديدٍ جوهريٍّ يختلف به عن الكُتب الثلاثة التي درستها في هٰذا الكتاب، سِوَى أنه ينقل مسرح التاريخ إلى (**الجَوْف**) ونواحيها في (**الجمهوريَّة العَرَبيَّة اليَمَنيَّة**). ولا عِلْم لي، طوبغرافيًّا وبيئيًّا، بالمواضع التي يتحدَّث عنها هناك؛ فمراجعة ذٰلك شأن أبناء تلك البلاد، من علماء التاريخ والآثار.

الثقافات والأُمم والتواريخ والأوطان. يأتي ذٰلك كلُّه في مناهج لا مناهج فيها، حسبما تستأهله كلمة «منهج» من تقدير. فلا ليلها يُسفِر عن صباح، ولا يَحمَد القارئ السُّرَى!

إننا حين نتساءل عن عَبَث هُواة التاريخ المحدثين، وعن غياب أقسام التاريخ في الجامعات العَرَبيَّة عن مواجهة ذٰلك، وغياب الجمعيَّات التاريخيَّة كذٰلك، ما ينبغي أن ننسى الجماعة الأخطر من العابثين الأكاديميِّين، الذين لا يَقِلُّون اختلالًا منهاجيًّا، وإنْ فاقوا تأثيرًا وتضليلًا. وفي المثال الأشهر من هٰذا القبيل، الذي تبدَّى في كتاب (**كمال الصَّليبي**): «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، المترجَم إلى العَرَبيَّة ١٩٨٥، رأينا كيف جاءت محاولات المؤلِّف للاستدلال على افتراضاته على نحوٍ عجيبٍ من التهافت. فقد عاش عُمْرًا وهو يسعَى لنقل تاريخ (**بني إسرائيل**) المدَّعَى من (**الهلال الخصيب**) إلى الجَنوب الغَربيِّ من (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ لا لشيءٍ إلَّا لملاحظته أن حروفًا من مفردات «**التوراة**» تبدو في أسماء بعض الأماكن هنا وهناك. وإذا راجعتَ عمله أدركتَ أنه إنَّما بنى مزاعمه على معجم الأسماء الذي زوَّدَه به «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**». فضلًا عن أسماء القبائل، التي استند إليها، أو الأسماء المتوهَّمة، أو المصحَّفة، التي ظلَّ يستنتج منها استنتاجاته الغريبة. إضافةً إلى تقليبه الحروف، أحيانًا، بدعوَى أن في الأسماء الحديثة ضروبًا من القلب والاستبدال عن أصولها القديمة. وقد بيَّنتُ سطحيَّة ذٰلك المنهاج، موضحًا إمكانية العثور على أسماء شبيهة بالأسماء التوراتيَّة في أماكن متعدِّدة غير

تلك التي زعمها المؤلِّف، وربما كانت متجاورةً أيضًا، من نحو ما وردت في «**التوراة**».

لذٰلك تجلَّى أن وجود الحروف والأسماء هنا أو هناك ليس بالمعيار العِلْمي لتحديد مسارح الأحداث التاريخيَّة؛ من حيث إن أسماء المواضع كأسماء الناس تتكرَّر كثيرًا وتتشابه. وقد لوحِظ أن مِن طبيعة الشعوب البدائيَّة أن تستدلَّ بالتسميات لا بالجهات، وأنها تُحافظ على تلك الأسماء على نحوٍ لا مثيل له في البيئات الحضريَّة، وتُراكِم ذٰلك التراث عبر الأزمان، وتحمله معها حين تترحَّل بين الأوطان. فيتشكَّل من ذٰلك معجمٌ غنيٌّ من التسميات، ربما أُطلِقت اعتباطًا لتمييز المكان، أو تعبيرًا شاعريًّا عن طبيعته، أو عن شكله، أو لحوادث مرَّت فيه، أو نسبةً إلى أشخاصٍ كانت لهم به علاقة. ومع ذٰلك، فإنه من المستبعَد أن يبقَى كثير من الأسماء متوارثًا لا يتغيَّر لمئات السنين، فضلًا عن ألوفها، كما كان المؤلِّف يعتقد في بعض ما ذهب إليه. وقُل مثل هٰذا، بل أكثر من هٰذا، عن أسماء القبائل والعشائر والأُسَر.

وعليه كان الأقرب إلى التصوُّر أنَّ أسماء المَواطن المذكورة في «**التوراة**» هي ممَّا هاجر إلى (**فِلسطين**)، ولا سيما مع المهاجرين (**اليبوسيِّين**) من جَنوب (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**). غير أنها اندثرت بعض تلك الأسماء في **فِلسطين**، فلم يَعُد لها ذِكرٌ اليوم؛ لأنها مستعارة من جهة، ومن جهةٍ أخرى، لأن من طبيعة الحواضر التحوُّل المستمرُّ والتبدُّل في كلِّ شيء- بما في ذٰلك أسماء البلدات- بخلاف غير الحواضر. على حين

بقيت الأسماء في قُرَى جَنوب **شِبه الجزيرة العَرَبيَّة** وغَربها، وفي بواديها وأريافها. وكان من عوامل ذٰلك الاندثار في (**الشَّام**) أن اليهود لم تَقُم لهم قائمةٌ ذات وزنٍ تاريخيٍّ منذ تدمير كيانهم على يد المَلِك الكلداني (**نَبُوخَذْنَصَّر**) وسَبْي سادتهم إلى (**بابل**) في القرن السادس قبل الميلاد. كما أن اللغة العِبريَّة ما لبثت في تلك الديار أن تلاشت، حتى ماتت، لتحلَّ محلَّها الآراميَّة. ثمَّ تعاقبت على الأرض الشُّعوبُ والأعراق، والأُمَمُ والحضارات. فكان طبيعيًّا أن تندرس الأسماء، أو أن يندرس كثيرٌ منها، أو أن يُستبدَل بها سِواها.

وليس يعني الدارسَ، آخرَ الأمر، نفيُ تاريخٍ مزعومٍ لـ(**بني إسرائيل**) في الجزيرة، بل ما يعنيه المنهاج المتَّبع لإثبات ذٰلك. فأَنْ يأتي باحثٌ لنقض ما تواتر تاريخيًّا، ثمَّ لا يُزلِف بين يدَي دعواه سِوَى عرضٍ شاعريٍّ، ينهض على أصداء الحروف والأسماء، فذاك هو الإفلاس المبين. و(**الصَّليبي**)، إلى جهله اللافت بالأماكن في (**جزيرة العَرَب**)، لا يعرف تاريخ نشأتها أيضًا، ولا طبيعتها، وربما لا يعرف التسميات الصحيحة لبعضها. ولذا فإنك إذا سبرتَ عمله، لا تجد له برهانًا على ما يزعم، وإنَّما هو الظن، أو هي المكابرة بعد أن أصبحت افتراضاته عقيدةً، لا تراجُع عنها، مهما تصادمت معلومةً أو تاريخًا أو لغة.

كما أنَّ مُراجعة الشواهد لدَى (**الصَّليبي**) تثير التساؤل: هل رجع إلى الكتب التي يستقي منها شواهده؟ وإذا كان قد رجع، فلماذا يعمد إلى آليَّات الانتقاء، والحذف، والاجتزاء، والتقوُّل، والتدليس، التي تتكشَّف للقارئ عند المراجعة؟!

ولم يقتصر طموح (**الصَّليبي**) على تحريف شواهده من بعض المراجع، بل أراد في نهاية المطاف أن يحرِّف «**التوراة**» نفسها- لو استطاع- كي تغدو وَفْقَ افتراضاته؛ فأعدَّ، في ما أعدَّ، ترجمةً جديدةً من نوعها للأجزاء الملحميَّة من (**سِفر صموئيل الثاني**)، في كتابه «**حروب داود**»، حَرَّفَ الأسماء الواردة فيها بحسب مزاعمه، مغيِّرًا أسماء الأماكن في ذٰلك السِّفر ليضع مكانها أسماء الأماكن من جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وغَربها.

على أنك سترى من العجيب في كلِّ ذٰلك الذي تولَّى نشره (**الصَّليبي**) أن حدود (**إسرائيل**) تقف عند الحدود السياسيَّة الراهنة بين (**السُّعوديَّة**) و(**اليَمَن**)، وكأن هٰذه الحدود كانت قائمةً منذ ما قبل التاريخ! والسبب واضح، وهو أنه إنَّما كان يعتمد على «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**»؛ الذي وجد فيه ضالَّته. ومن ثَمَّ يتَّضِح عند التمحيص أنه لم يَقُم بزيارة ما يصف من مَواطِن- رغم الادِّعاء الكبير بأنه قد قام بذٰلك- وإلَّا فإن للقارئ أن يسأل: لِـمَ، إذن، ذَكَرَ أسماء لا وجود لها على الأرض أصلًا، وإنَّما لعلَّه قرأها مصحَّفةً في «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**»، أو مغلوطة؟! ولِمَ وَصَفَ أماكن بأوصاف غير حقيقيَّة؛ فصار منزلٌ عائليٌّ متواضعٌ، مثلًا، قريةً كاملةً لديه؟!

والسؤال، من قَبل ومن بَعد: تُرَى كيف بإمكانك أن تُصدِّق رجلًا جاء يقول لك إن (**بني إسرائيل**) كانوا يعيشون في (**الجزيرة العَرَبيَّة**) على مدى مئات السنين، ناهزتْ الألف عام، وكانت لهم خلالها الممالك وفيهم التحوُّلات الاجتماعيَّة

والثقافيَّة الجُلَّى، وكانت لهم فيها الحروب الطاحنة والمصادمات الأُمَميَّة، المشهودة، أرضًا وسماءً، ولٰكن لا شعب **إسرائيل** يعلم حقائق ذٰلك، ولا غيره من الشعوب يعلمون كذٰلك؛ فلم تحفظ الذاكرة ولا الأرض ولا المؤرِّخون ولو لمحةً عن ذٰلك التاريخ! بل أبعد من هٰذا، وجدنا الناس جميعًا ينسبون تاريخ ذٰلك الشعب إلى بُلدان أخرى، وممالك قُصوَى، زورًا وبهتانًا، أو جهلًا واختلاطًا. إذا سلَّمتَ جَدَلًا بأن الجامِعين لأسفار «**التوراة**» ومترجِميها ومحقِّقِيها في بلاد (**بابل**)، بعد السَّبْي، ولبُعد الأَمَد واختلاف البيئة لم تكن لديهم المعرفة الجغرافيَّة بالبيئة التي وُضِعت فيها نصوص «**التوراة**»، أفتنسَى سؤالًا آخَر، غير معقول الإجابة، هو: كيف حدث أن طَمَسَ اللهُ على العقول حول تاريخ **بني إسرائيل**، وحول أرضهم الأصليَّة، هم وحدهم دون غيرهم من الشعوب والتواريخ؟!

ثمَّ أيُّ مفارقةٍ هزليَّةٍ في عمل مَن يبحث عن أماكن توراتيَّة مجهولة (**لبني إسرائيل**) في أماكن أخرى هو أكثر بها جهلًا؟! حتى لقد كان المؤلِّف كثيرًا ما يؤصِّل لتنظيره ببعض أسماء حادثة من أسماء الأماكن، ليست بالقديمة، فإذا هو يعزوها إلى آلاف السنين. وبعضها ما زال أهله يعرفون من سمّاه، ولماذا. ولو أنه فتح معجمات البُلدان القديمة، لما وجد لمعظم ما حمَّله ما لا يحتمل من التأويل والتاريخ ذِكرًا البتَّة، ولربما وجد الإشارة إلى أسماء أخرى في المَواطن نفسها، ما يدلُّ على أن الأسماء التي استند إليها في التأويل هي أسماء حادثة.

وبعد أن ذهب التأويل بـ(**الصَّليبي**) إلى توهُّم أن (**مصرايم**) التوراتيَّة هي

مستعمرة مِصْريَّة في (**عسير**)، وأن (**الربع الخالي**)، أو جزءًا منه، هو (**البحر الأحمر**)، المشار إليه في «**التوراة**» و«**القرآن**» بـ«**اليَمِّ**»، ذهب شوطًا آخر، ليقول إن «**اليَمَّ**» المذكور في «**التوراة**» هو إشارة إلى قبيلة (**يام**) العَرَبيَّة! وهٰذا نهجه في الدوران مع الحروف، لتصبح الرمالُ بحارًا، والقبائلُ مَواطِنَ، و**يامُ** يَـمًّا! بَيْدَ أن الأغرب بعد هٰذا أن تعرف أن (**بني إسرائيل**) لم يكونوا مزمِعين الاتِّجاه إلى أرض الميعاد أصلًا، ولا إلى (**فِلسطين**)- وهي كما قال (**الفلسة**) في جهة (**النَّماص**)- ولا إلى (**أورشليم**)-- وهي بزعمه قرية (**آل شريم**) هناك-- بل كانوا مزمِعين الوصول إلى (**اليمامة**) في (**نجد**)! لٰكنهم لسوء الطالع تاهوا في الطريق، فوجدوا أنفسهم أخيرًا لا في **اليمامة** بل في (**اليَمَن**)! لا لشيء إلَّا لأن واديًا هناك اسمه (**سيَّان**)، و**سيَّان**، كما زعم المؤلِّف هو: (**طورُ سيناء**)!

حتى إذا جاء إلى قِصَّة (**يسوع**)، أو (**عيسى بن مَرْيَم**)، رأيته يذهب مذاهب أخرى نقيضة؛ لا يعزو فيها الأحداث إلى جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**) الغَربي كما كان يفعل من قبل، بل ينقل التاريخ إلى (**فِلسطين**)، حيث الصراع بين (**اليهود**) و(**الرومان**) من جهةٍ و(**عيسى**) وحواريِّيه من جهةٍ مقابلة. لأنه أصبح هنا على محجَّة التاريخ المدوَّن، ولم يعُد من سبيل للادِّعاء والتخييل.

ولا شكَّ أن تعليق (**الصَّليبي**) براهين مزاعمه على مِشجَب مكتشفاتٍ أثريَّة قد تُثبت نظريته مستقبلًا محض مغالطة، وهروب من البرهنة على ادِّعاءاته. وإلَّا فقبل التنقيبات الأثريَّة لا بُدَّ من معلومات أوَّليَّة يُعتَدُّ بها عِلْميًّا، أو قيام شواهد

يقدِّرها ذوو الاختصاص عن احتمال مكتشَفٍ أثريٍّ ذي قيمة في أرض ما، لا على أساس نظريَّةٍ رأس مالها: هٰذا المكان يحمل اسمًا شبيهًا باسمٍ تاريخيٍّ قديمٍ، فلنحتفره لنتأكَّد! والواقع أنه لا معلومات يُعْتَدُّ بها عِلْميًّا توافرت، ولا شواهد عن احتمال وجود ما أشار إليه **الصَّليبي** ظهرت حيث أشار. هٰذا على الرغم من العثور على آثار مختلفة، وعلى كثيرٍ من النقوش في أماكن متعدِّدة من (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، تعود إلى عصورٍ متباينةٍ موغلةٍ من التاريخ. فعلامَ انطمس التاريخ المزعوم في كُتب **الصَّليبي** من **الجزيرة العَرَبيَّة** انطماسًا تامًّا، فلا نقش هناك ولا تمثال ولا أثر؟!

ولٰكن هل أتى (**الصَّليبي**) بجديدٍ في أصل افتراضاته؟

كلَّا، إنَّما ردَّدَ نظريَّةً توراتيَّةً أكل الدهر عليها وشرب، تذهب إلى أن (**سَبَأ**) ليس بـ(**سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان**)، كما يقول العَرَب، بل هو (**شبأ بن يقشان بن إبراهيم**)! فإذا صحَّ هٰذا، ترتَّب عليه أن معظم سكَّان ما سُمِّي (**الشرق الأوسط**)- وفي طليعتهم العَرَب- (**عِبرانيُّون**)، ما داموا ينتسبون إلى (**إبراهيم**)، الذي جَدُّه: (**عابِر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام**)! بيد أنه إذا كانت دعاوَى الأنساب القديمة عمومًا محلَّ نظرٍ عِلْميٍّ، فإن الأنساب التوراتيَّة خصوصًا محلُّ نظرٍ أكثر من غيرها؛ من حيث طبيعتها ووظيفتها. فطبيعتها قائمةٌ على الرواية الشفويَّة، وهي طبيعةٌ معرَّضةٌ للخلط والاختلاط، ووظيفتها قائمةٌ على أهداف إديولوجيَّة وعنصريَّة، لا ريب فيها. وكان هٰذا هو الأساس في سردها في «**العهد القديم**»، وليس تسجيل المعلومات على نحوٍ عِلْميٍّ أو شِبه عِلْمي. وتلك شؤون

نصوصيَّة، لا يبدو أن المؤرِّخين مؤهَّلون للوعي بها غالبًا؛ بل كلُّ نصٍّ يَعِنُّ لهم على البُعد وهو يلبس لبوس التاريخ! يفعلون هٰذا حتى في تعاملهم مع المستوى الأدبيِّ الخالص من النصوص، أو الشِّعريِّ المحض منها؛ فإذا هم يتعاملون مع تلك النصوص ببراءةٍ قرائيَّة، وسذاجةٍ استقباليَّة، لا تميز الأدبيَّ من المعرفي، ولا التخييليَّ من التاريخي.

وتستدعي كتب (**الصَّليبي**)، التي استمرَّت على المنهاج نفسه، التساؤل: كيف لم يتناهَ إلى المؤرِّخ الإغريقي، الملقَّب بأبي التاريخ، (**هيرودوت**، -٤٢٥ق.م)، أيُّ أثارةٍ من عِلْمٍ، أو بصيص خبرٍ، يشي بتلك الأحداث الجسام، والتحوُّلات العظام، التي اكتشفها **الصَّليبي** في غفلةٍ من التاريخ كلِّه، بما في ذٰلك قيام مملكتَي (**داوود**) و(**سُلَيمان**) في (**عسير**)؟! كما لا تجد أثرًا لذٰلك، من قريبٍ أو بعيد، في التاريخ القديم المتواتر بعد **هيرودوت**، لدَى (**مانيثو**)، و(**سترابو**)، و(**ألينيوس**)، و(**يوسيفُس**)، وصولًا إلى (**ابن مُنبِّه**). بل إن كتب التاريخ القديمة شواهد بنقيض ما تجلَّى على **الصَّليبي** من تاريخ.

وكذا إذا عدتَ إلى الكتاب المقدَّس نفسه، الذي جاء الرجل ليُؤوِّله تأويلًا جديدًا، متَّخِذًا إيَّاه وثيقةَ تاريخٍ، وجدتَه شاهدًا عليه لا له أيضًا. كما تجد ذٰلك كذٰلك في وثائق قديمة ومحايدة تطرَّقت إلى (**بني إسرائيل**) وإلى علاقاتهم بغيرهم من الشعوب المجاورة، وذٰلك كالحوليَّات الآشوريَّة. يضاف إلى هٰذا أن استقراء الوثائق المِصْرِيَّة يُثبِت أن إقامة **بني إسرائيل** في (**مِصْر وادي النِّيْل**) هي حقيقة

تاريخيَّة وجغرافيَّة. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الآثار المِصْرية تُؤيِّد القول إن **بني إسرائيل** كانوا في أرض (**كنعان**) من بلاد (**الشَّام**)، وكانوا في **مِصْر**. وأن **مِصْر** التي وقع الصراع بينها وبينهم هي **مِصْر** المعروفة في وادي (**النِّيْل**). وإذن، فإن الإشارة إلى (**مصرايم**) لدَى العِبرانيِّين يُقصَد بها: **مِصْر**. وهو ما يؤكِّده المؤرِّخ المِصْري (**مانيثو**). فتسقط بذاك المزاعم التلفيقيَّة لغرس هٰذا التاريخ في مكانٍ آخَر.

وبذا يجد الباحث الشهادات والآثار تتضافر، إلى جانب نصوص «**العهد القديم**»، ونصوص الحوليَّات الآشوريَّة، والعاديَّات المِصْريَّة، على نقض ما خُيِّل إلى صاحب كتاب «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**»، وبصُوَرٍ مطَّردة. فلا ذِكْرَ لتاريخ كان (**لبني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، ولا علاقة لهم بها، إلَّا علاقة بعض الغزو والعدوان، الذي حدث في بعض الحِقَب، وصُدَّ صَدًّا كاسحًا. حتى كانت هجراتهم التي حدثت بعد الميلاد، فارِّين من بلاد (**الشَّام**) بسبب اضطهادهم من قِبَل (**الرومان**).

أمَّا (**أورشليم/ أور سالم**)، فاسمٌ قديمٌ جِدًّا لمدينة (**القُدْس**)، أقدم من ورود (**إبراهيم الخليل**) إلى (**فِلسطين**). ولَمَّا كان كذٰلك، وكان غير عِبريِّ الأصل، تعثَّرت به العِبريَّة في البدء، فوُجِد يُكتَب أحيانًا: «**يروشالام**»، وأحيانًا «**يروشالايم**».

إن علاقة (**اليهود**) بـ(**فِلسطين**) قد ظلَّت علاقة اغترابٍ أو احتلالٍ منذ الأزل، منذ أن جاؤوا هائمين على وجوههم من بلاد الرافدَين أوَّل مرَّة، بَدْوًا رُحَّلًا، حتى إذا تمكَّنوا احتلوا أرض (**كنعان**) بغيًا وعدوانًا، ولم تكن لهم بها من حقوقٍ قط، ولا من سالف عهدٍ، في أيِّ حقبةٍ من حِقَب التاريخ. والسؤال المحيِّر:

ما أسرار ذٰلك الاجتهاد العَرَبيِّ منقطع النظير، في هٰذا العصر المنكوب، للبحث عن تاريخٍ أهلُه أنفسُهم غير مستيقنين منه؟ بل إن كتابهم «المقدَّس» لمضطربٌ، متناقضٌ، غاية الاضطراب والتناقض بشأنه.

-٢-

ثمَّ أُلِّـفَت بعدَ قراءات (**الصَّليبي**) في «**العهد القديم**» كُتبٌ كانت أشبه بتهميشات على جهوده، أو استدراكات، وشروح. وخَلَفَ من بعده خَلْفٌ ردَّدوا مقولاته، ولاسيما حول (**الأقصَى**) ومكانه. وربما تصدَّروا للزعم أنهم أبناء بجدتها، غير معترفين بالفضل للمتقدِّم! وثَمَّة تظهر الأزمة العَرَبيَّة في الأمانة العِلْميَّة، إلى الأزمة في الموضوعيَّة والتحقيق. من أهمِّ تلك الكُتب كتاب (**أحمد داوود**)، «**العرَب والسَّاميُّون والعِبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهود**»، ١٩٩١.

وامتاز هٰذا الكتاب بنزوعٍ قوميٍّ صارخٍ، يوظِّف ما كان بدأه (**الصَّليبي**) لينسب التاريخ كلَّه إلى العَرَب وحدهم! وليس ما لدَى الرجل الفخرُ التاريخيُّ الحضاريُّ بإنجازات العَرَب فحسب، بل هو يرى أن البشر كلُّهم عَرَبٌ أيضًا. ذٰلك أنه يقول إن (**سام بن نُوح**) عَرَبيُّ اللغة، وهو وأبناؤه وأحفاده عشيرةٌ بدويَّةٌ عَرَبيَّة؛ لأن العُروبة سابقة على **سام** بعِدَّة آلاف من السنين، وإخوته مثله بالطبع، و(**نُوح**) قبله عَرَبيٌّ كذٰلك. ولا يستقيم التسليم بالقصص التوراتي الأُسطوري المتعلِّق **بنُوح** و**سام** وسلالاتهما مع القول بأنهم من العَرَب، فضلًا عن التمادي في الزعم بأن وجود العَرَب كان سابقًا عليهما بآلاف السنين.

والإشكال أن تلك المزاعم التاريخيَّة، التي ردَّدها صاحب هٰذا الكتاب إثر (**الصَّليبي**)، لا يدعمها أيُّ دليلٍ أثريٍّ أو غير أثري، كلُّ ما هنالك أسماء وحروف متشابهة. وعلى الرغم من أن (**داوود**) ذهب إلى أن جميع الجهات الأثريَّة أجمعت على أنه لا وجود لأحداث «**التوراة**» أثريًّا، لا في (**فِلسطين**) المحتلَّة ولا خارجها من الوطن العَرَبي، فإنه يعود ليزعم ذٰلك الوجود داخل (**الجزيرة العَرَبيَّة**) تخصيصًا.

ولَمَّا استقرَّ رأيه على ما استقرَّ عليه، خُيِّلَ إليه أن البشريَّة قد تواطأت على تزوير التاريخ ضِدَّ العَرَب، وقد آن الأوان لتصحيح ذٰلك التاريخ. على أن الكتاب لا يعدو تاريخَ حروفٍ وأسماء فقط، وتلاعبٍ خلالها، كما حدث في كتب (**الصَّليبي**). سِوَى أنه سيتزحزح بالأماكن التوراتيَّة المدَّعاة عن (**عسير**)- التي جاس خلالها **الصَّليبي**- شَمالًا صوبَ بلاد (**غامد** وزَ**هران**)؛ حيث وَجَدَ، هو الآخر، أسماء أماكن قابلة للتأويل، والفكِّ والتركيب، ولو افتعالًا وتكلُّفًا شديدًا. فالمؤلِّف في أثناء ذٰلك لا يحلِّل شيئًا- كسَلَفه على الأقلّ- ولا يُعلِّل قولًا، وإنَّما ينطلِق من مُسلَّماتٍ جاهزةٍ لديه، مفروغٍ من مقدماتها. فيقع البحث في أتون الأدلجة.

ولَمَّا كان قد ربط أسماء المواضع التوراتيَّة ببلاد (**غامد** وزَ**هران**)، فقد سلكَ مسلكَ (**الصَّليبي**) الذي ربط تلك الأسماء بـ(**عسير**)؛ فغدا يتلمَّس في المنطقة المفردات التوراتيَّة المتباينة في أسماء المواضع، دونما تساؤلٍ عن علاقة الاسم بذٰلك التاريخ التوراتي؟ ولا ما أصله؟ ومتى وُجِد؟

وكما ربط (**الصَّليبي**) بين اسم «**السَّراة**» و«**إسرائيل**» تارةً واسم «**سارة**» تارةً أخرى، جاء (**داوود**) ليربط اسم «**السَّراة**» بـ«**السِّريان**» و«**السُّوريِّين**»**!** وهٰذا النهج لدَى المؤلِّفَين نهجٌ مغالِطٌ على نحو عابثٍ مستخف. وكانا يفعلان هٰذا مهما كانت الأسماء صريحة وواضحة وراسخة في التاريخ، وبما في ذٰلك اسم: (**فِلسطين**)، و(**أورشليم**)، و(**الناصرة**)، و(**الأُردنّ**)، و(**عمَّان**)، و(**دمشق**)، و(**لُبنان**)، و(**صُوْر**)، و(**الفُرات**)، و(**مِصْر**)، و(**سيناء**). فكلٌّ هٰذه وغيرها ليست تشير إلى تلك الأسماء التاريخيَّة المشهورة، بل إلى أسماء نكرات مجهولة، لا يعرفها حتى أهلها من أبناء (**الجزيرة العَرَبيَّة**).

والمؤلِّف، إذ ينسب التزوير في تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى الصهيونيَّة العالميَّة تارةً، وإلى المستشرقين ومَن لفَّ لفَّهم تارةً أخرى، يتناسى أنه تاريخٌ لدَى العَرَب منه قِسْطٌ أيضًا، ولدَى غيرهم، من قبل وجود الصهيونيَّة العالميَّة، وقبل الاستعمار والمستشرقين. وهو إذ ينسب التزوير إلى الصهيونيَّة وأذنابها في نِسبة تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى (**الشَّام**) و(**العِراق**)- محتجًّا بأن الحفريَّات الأثريَّة لم تستطع أن تقدِّم لنا دليلًا أثريًّا على ذٰلك التاريخ هناك- يُغمِض عينَيه عن عدم وجود دليلٍ أثريٍّ واحدٍ لذٰلك التاريخ في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ وهو ما ألجأه وسَلَفه إلى تقليب الأسماء والحروف. مع أن المناطق التي نُسِب إليها ذٰلك التاريخ في الجزيرة هي مناطق صخريَّة جبليَّة، لا صحارَى ولا رمال لتندثر الآثار والشواخص فيها بسهولة، لو وُجِدت؛ بحيث لا تُعرَف إلَّا بالحفر والتنقيب. ولقد بقيتْ آثار أقوامٍ آخَرين ماثلةً

في الصحراء العَرَبيَّة إلى اليوم، فيما لم يبق مثقال ذرَّة من تاريخ (**الصَّليبي**) و(**داوود**) المختلَق.

أمَّا (**مِصْر**)، فهي- بحسب وصف هٰذا المؤلِّف- محض قريةٍ، أو **محطَّة** في الصحراء، عليها شيخٌ اسمه (**فرعون**)، هو «**وكيل المحطَّة**»، كما يدعوه! و«**اليَمُّ**»، الذي أُغرِق فيه **فرعون** وجنوده، ما هو إلَّا سَيْلُ وادٍ، أو هو (**قبيلة يام**)، أو (**بحر سافي**) في جهة (**الربع الخالي**)! وهٰذا ما كان (**الصَّليبي**) يزعمه من قَبل.

وقد كان المؤلِّف يستشهد على بعض مزاعمه بالنصِّ القرآني، مع أنه لا يخدم ادِّعاءاته بحالٍ من الأحوال، بل كثيرًا ما يبدو شاهدًا على بُطلان ما يذهب إليه. من حيث ينصُّ «**القرآن**» على أن (**فِرعون**) هو **فِرعون** (**مِصْر**)، «**ذو الأوتاد**»، لا سِواه. وكذٰلك الشأن في شواهد المؤلِّف القرآنيَّة حول (**آل داوود**)، حتى لقد بدا أمام أحد خيارَين: إمَّا أن يكذِّب نصوص «**القرآن**» البيِّنة في مكانة **آل داوود** العظيمة، وإمَّا أن يكذِّب نفسه!

وبناءً على افتراضاته ذهب إلى أن (**أورشليم**)، أو (**بيت المَقْدِس**)، مكان يقع في (**سَراة غامد**). واحتجَّ تاريخيًّا بأن (**المسجد الأقصَى**) في (**فِلسطين**) إنَّما بُني في العهد الأموي! وهو مسبوقٌ إلى مثل هٰذا الزعم، وملحوقٌ من مدَّعين آخرين، من إسرائيليِّين وعَرَب ومستشرقين. أفلا يتساءلون: لِـمَ كانت (**القُدْس**) أُولَى القبلتَين لدَى المسلمين؟ ولماذا شُيِّد **المسجد الأقصَى في القُدْس** في العهد الأُمويِّ، ولم يُشيَّد في بلاد (**غامد**)، أو غيرها؟ وكيف جهِل الجيل الأوَّل، وهو جيل

الصحابة والتابعين، مكان الإسراء الحقيقي، و**المسجد الأقصَى** المشار إليه في «**القرآن**»؛ فظنُّوه في **فِلسطين** وهو إلى جوارهم في **غامد**؟! وهو جهلٌ تمتدُّ تهمته إلى الرسول نفسه، الذي لم يَعلم إلى أين أُسرِي به، أو أنه عَلِم فأخفى!

وقد مَرَّ القول إن اسم (**أورشليم**) في (**فِلسطين**) كان معروفًا منذ القِدَم، وقبل مجيء (**إبراهيم الخليل**) إلى (**أرض كنعان**). وكان معروفًا لدَى العَرَب قبل الإسلام، بوصفه مركز الدِّيانات الكتابيَّة. ومن ثَمَّ فهو إرثٌ معرفيٌّ موغِلٌ في التاريخ، لدَى اليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم. ولذا وجدنا شواهد ذِكره في أدب العَرَب قبل الإسلام وبعده، مثلما تجلَّت في شِعر الشاعر الجاهلي اليهودي (**السموأل بن عادياء**)، وقد سمَّى تلك المدينة الفِلسطينيَّة باسمها: «**القُدْس**». وكذا وقفنا على الإشارة إلى الإسراء النبوي إلى (**بَيت المَقْدِس**) في شِعرٍ منسوبٍ إلى (**أبي بكر الصِّدِّيق**). وفي العصر الأموي، وقفنا على ذٰلك في شِعرٍ لـ(**نصر بن سيار**).

أمَّا في التراث الإسلاميِّ بصفةٍ عامَّة، فتَرِد إضافة بيت (**إيليا**) إلى «**المَقْدِس**» في ما لا يُحصَى من أُمَّهات الروايات المبكِّرة، والكتابات، والكُتب الأُولَى من تراث المسلمين. وفي طليعة تلك الروايات الأحاديث النبويَّة في كتب الصحاح. كما يرِد تحديد مكان الإسراء إلى «**بيت المَقْدِس**» في «**السِّيرة النبويَّة**»، لـ(**ابن إسحاق**، -١٥١هـ)، مع إيضاح الوُجهة التي أُسرِي بالنبيِّ إليها من خلال المواضع التي ذُكِرت في قِصَّة الإسراء، الواقعة شَمالي (**مكَّة**)، على طريق قوافل (**الشَّام**)، مثل: (**ضَجْنَان**)، و(**البيضاء**)، أو (**ثنيَّة التنعيم**).

ومن أجل نقل التصوُّر عن (**بيت المَقْدِس**) إلى (**بلاد غامد**)، طفق (**داوود**) تأويلًا لآيات «**القرآن**»، كيما تتماشَى مع ما بيَّنه من نقل (**فِلسطين**) وتاريخ (**بني إسرائيل**) إلى مكانه المقترح. فتبيَّن القارئُ تهافتَ استدلالاته، وبطلانَ تحليلاته اللغويَّة، وفَنَدَ ما أهوَى إليه، وأنْ لا علاقة لجبال (**السَّراة**) بموضوع الإسراء المحمَّدي من قريبٍ أو بعيد.

ومثلما كان (**الصَّليبي**) يستند إلى القول بتأييد التراث العَرَبي لمزاعمه، حتى إذا فحصتَ ما زعم، وقفتَ على انتقائه واجتزائه وتعويله على الأساطير والخرافات، كان (**داوود**) يفعل. فالمنهاج هو المنهاج، والسبيل هي السبيل، سِوَى أن الأوَّل أراد توطين التاريخ الإسرائيلي في (**عسير**)، والآخَر أراد توطين التاريخ الإسرائيلي في (**سَراة غامد**). ولقد كان يكفيهما- لو أرادا- أن يتأمَّلا في تاريخ الكتابة في العالَم، ومن ذٰلك تاريخ كتابة «**التوراة**»، ليُدرِكا جليًّا عَوَارَ أيِّ فرضيَّةٍ لتاريخ (**بني إسرائيل**) في (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، التي لا دليل على أن معرفتها بالكتابة كانت ترقى إلى العصر المُوْسَوِيِّ أو قريب منه.

-٣-

وأخيرًا تتطرَّق الدراسة إلى كتابٍ تحت عنوان «**جغرافيَّة التوراة: مِصْر وبنو إسرائيل في عسير**»، لمؤلِّفه الفِلسطيني (**زياد مُنَى**)، ١٩٩٤. وهو- كما ترى- يَسْتَبِق البحث بجعل النتيجة عنوانًا. وهٰذا فِعل أستاذه (**الصَّليبي**)، الذي جعل نتيجته، أو هدفه، عنوانًا لكتابه «**التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**».

وهٰكذا فإن التراث الأُسطوري التوراتي، الذي أُدلِج وجُعِل دِينًا سياسيًّا، جاء اليوم بعضُ أبطال التأليف من العَرَب المعاصرين ليجعلوه تاريخًا موثوقًا، يُعمِلون عبقريَّاتهم في انتحال تفاصيله الجغرافيَّة، فإنْ لم يجدوها في (**الشَّام**)، ألَّفوها من عند أنفسهم في (**اليَمَن**)، أو في جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، أو في (**الحِجاز**)، متطوِّعين باختلاقها.

ولن يجد القارئ في هٰذا الكتاب الأخير جديدًا. فهو يكاد لا يَعْدو نقل آراء (**الصَّليبي**)، لتأكيدها، مع عرضه أسماء المواضع في جداول طويلة جِدًّا. وفي تفسير المؤلِّف للأسماء التوراتيَّة ظلَّ يعرض احتمالاتٍ عشوائيَّةً كثيرةً بلا حدود. وهي احتمالاتٌ لا رابط بينها أكثر من تشابُه بعض الحروف في الأسماء؛ بلا تعليل ولا تدليل. كما لم يكن المؤلِّف يُعنَى كثيرًا بتوثيق ما يَذكر من معلومات. ولذا كان ينسب في مَتنه إلى هٰذا المستشرق، أو إلى ذٰلك الإغريقي، أو حتى إلى مَن يدعوهم «**أهل الاختصاص**»، هٰكذا دونما توثيق. مكتفيًا في نهاية الكتاب بسرد بِضعة مراجع تقليديَّة عامَّة، في رأسها «**المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة**».

ومن منطلق اقتفائه آثار معلِّمه (**الصَّليبي**)، وترداد أطروحاته، أراد عَبْرَنة (**عسير**)، كما فعل أستاذه، لتتلبَّثَ لهما الافتراضات الكماليَّة الصَّليبيَّة في «**أسرلة**» المَواطن في (**الجزيرة العَرَبيَّة**). فسلخَ **عسيرًا** من تاريخها العَرَبي المعروف، مدوَّنًا وغير مدوَّن، ليُلحِقها بالعِبرانيَّة والعِبرانيِّين، وينسبها إلى (**بني إسرائيل**)، أو ينسب **بني إسرائيل** إليها.

ولم يكتف بادِّعاء الأصول العِبريَّة للكلمات العَرَبيَّة، وربط الأسماء التوراتيَّة بأسماء في (**جزيرة العَرَب**)- لمجرَّد توافقات في بعض الأصوات اللغويَّة- بل خَطَا خطوة أخرى، تجعل باب الادِّعاء مفتوحًا على مصراعيه، فما لا تظهر علاقةٌ لفظيَّة له باسم من أسماء الأماكن أو القبائل في **الجزيرة العَرَبيَّة**، فلتُلتمس فيه العلاقة معنويًّا. مع أنه قد اتضح من الدراسة أن المؤلِّف لا يعرف اسم المكان، الذي يحاول أن ينسب إليه ما ينسب، ولا يعرف معناه، ولا يعرف طبيعته، ولا تاريخ إطلاقه.

إن المزاعم- التي بدا أنها قد استحالت إلى عقيدةٍ لدَى هٰؤلاء المؤلِّفِين: بأن تاريخ (**بني إسرائيل**) كان في (**جزيرة العَرَب**)- لم تكن لتتأتَّى نظريًّا دون اجتثاث (**فِلسطِين**) و(**الأُردنّ**) و(**لُبنان**) و(**مِصْر**) و(**العِراق**) جميعًا من أماكنها التاريخيَّة لنقلها إلى **جزيرة العَرَب**. ولا بُدَّ بعدئذٍ من تأوُّل كلِّ اسم، وكلِّ حدث، لاختلاق بناءٍ هُلامي من الافتراضات، في غياب أيِّ مُستنَدٍ تاريخيٍّ مؤيِّد لما يزعمون، ولنقض أي مستنَدٍ تاريخيٍّ مناقضٍ، تاريخيًّا كان أو لغويًّا أو دِينيًّا، أو حتى نقشًا على حجر. لذٰلك ظلَّ هٰؤلاء المؤلِّفون ينهجون نهجَين متناقضَين؛ فهم إذا لم يعثروا على اسمٍ توراتيٍّ في أسماء المواضع الشَّاميَّة أو المِصْريَّة، تكلَّفوا استحلابه من حروف الأسماء في **جزيرة العَرَب**، أو من معجمات اللغة؛ بحُجَّة أنهم لم يعثروا عليه في (**بلاد الشَّام**) أو **مِصْر**. وإذا وجدوا الاسم في **بلاد الشَّام** أو **مِصْر**، وواضحًا لا شِيَة فيه، أَصَرُّوا على أنه ليس بالمقصود، بل المقصود مكانٌ ما في **جزيرة العَرَب!** وفي الوقت الذي لا يستندون في هٰذه المغامرات العِلْميَّة المريعة إلى

أدلَّةٍ مقبولةٍ عِلْميًّا، يستندون أحيانًا إلى أغاليط، ومغالطات، وتصحيفات، وأشباه ونظائر، لا أوَّل لها ولا آخِر.

ولا غرابة في تهافت هٰذه الكتب منهاجيًّا؛ فهي غالبًا ما تشهد على نفسها بأنَّها لم تؤلَّف لوجه البحث ولا في سبيل العِلْم والتاريخ، وإنَّما لأغراض أخرى، تؤجِّجها العواطف الإديولوجيَّة، سياسيَّةً، أو قوميَّةً، أو حتى طائفيَّة. وآيات ذٰلك طافحةٌ على صفحاتها، متبدِّيةٌ في اندفاعاتها غير العِلْميَّة، وغير المنهاجيَّة، بل غير المتلبِّثة لاستقاء المعلومات الصحيحة من أهلها. ومن ثَمَّ لم تكن تتورَّع عن الضرب عرض الحائط بكلِّ ما ناقض الهوى، أو عارض النتائج المبتغاة، المبيَّتة قبل البحث.

-٤-

ولعلَّه قد تبيَّن من هٰذا أن العبث بالتاريخ في العصر الحديث قائمٌ على أَشُدِّه، نظريًّا وتطبيقيًّا، من أساتذة الجامعات وممَّن دونهم. تتبنَّاه مؤسَّسات عَرَبيَّة وأجنبيَّة، ويُتاجِر به منتفعون ماديًّا وسياسيًّا. وإذا كان من الضرورة بمكان الحَجْر العِلْمي على الجَهلة أن يخوضوا في ما لا يفقهون- من أجل مكاسب رخيصة- فلا أقلَّ من إجراء محاكمات عِلْميَّةٍ لغيرهم من مدَّعي العِلْم. ذٰلك أن البيِّنة دائمًا على مَن ادَّعى، فإنْ هو أثبت ما ادَّعى بأدلَّة عِلْميَّة يُعْتَدُّ بها، وإلَّا وجبتْ إماطة اللثام عمَّا اتَّخذه للتلهِّي والتحريف والتخريف سلَّمًا، من كُتبٍ وشهادات.

ويَعْرِض بعد هٰذا تساؤلٌ مُلِحٌّ:

كيف لم يَسَعْ هٰؤلاء المؤلِّفين العَرَب- ممَّن دُرِست أعمالهم في هٰذا الكتاب

ومَن لم تُدرَس، اكتفاءً بعيِّنة من النماذج- ما وَسِعَ المؤرِّخين الصهاينة أنفسهم؟!

إن مؤرِّخًا كـ(**إسرائيل ولفنسون**)، في كتابه «**تاريخ اليهود في بلاد العَرَب**»[1]، لم يقل شيئًا ممَّا قالوه قط. ولقد أعدَّ **ولفنسون** كتابه أطروحةً لنيل درجة الدكتوراه، وطَفِقَ ينقِّب عن تاريخ اليهود في بلاد العَرَب، ولم يَجِد أنه كان لليهود من تاريخٍ في (**جزيرة العَرَب**) قبل ميلاد (**المسيح**)، سِوَى تاريخ هجراتٍ محدودة، إلى صحراء (**سيناء**)، أو إلى الأطراف الشَّماليَّة من الجزيرة؛ لظروفٍ ألَمَّت بعشائرهم في بلاد (**الشَّام**)، أو فارِّين من اضطهاد بعض الملوك والحُكَّام. بل إن بعض تلك الهجرات بقيت حقيقتها محلَّ تشكيك بين الباحثين، وذٰلك كهجرة (**بني شمعون**) إلى أرض (**مَعان**)، جَنوبي (**الأُردن**). وإنَّما كانت الهجرات الأوسع إلى (**الحِجاز**) في القرن الأوَّل والثاني بعد الميلاد؛ لأسباب ذكرها **ولفنسون**، منها الفرار من (**الرومان**)، بعد حملتهم على اليهود في (**فِلسطين**) وتدميرهم الهيكل في (**بيت المَقْدِس**). وقد تعقَّبهم **الرومان** إلى **الجزيرة العَرَبيَّة**، لٰكن الصحراء صدَّتهم. فسكن هٰؤلاء المهاجرون في جهات (**يثرب**) و(**وادي القُرَى**)؛ حيث لم تكن تلك الدِّيار مأهولةً بكثرةٍ من العَرَب، مشتغلين هناك بالزراعة والصناعة. على أن المؤلِّف يسجِّل تشكُّك بعض الباحثين في انتماء كلِّ أولٰئك اليهود الذين قَطَنوا شَمال **الحِجاز** إلى اليهود المهاجرين من **فِلسطين**، ذاهبين إلى أن غالبيَّتهم ينحدرون من قبائل عَرَبيَّة، وإنَّما تهوَّدوا، وجمعَهم بأولٰئك المهاجرين الولاء للدِّين.[2]

---

[1] انظر: ٢-١١.

[2] انظر: م.ن، ١٣- ١٥. وقارن: الأصفهاني، ٢٢: ٧٨.

ومن طرائف المفارقات بين أطروحة (**ولفنسون**) وكُتب (**الصَّليبي**) و(**داوود**) و(**مُنَى**) أن هٰؤلاء كانوا ينسبون أسماء المواضع التوراتيَّة إلى (**شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**)، وإنْ وُجِدت في (**الشَّام**)، في حين يحاول **ولفنسون** أن ينسب بعض أسماء المواضع في (**الحِجاز**) إلى **الشَّام**، وأنها ذات أصولٍ عِبريَّةٍ جاءت مع المهاجرين من (**فِلسطين**)، وإنْ وُجدت لها نظائر في أماكن مختلفة من **شِبْه الجزيرة العَرَبيَّة**. فهو- وإنْ لم يتوسَّع في هٰذا الموضوع[1]- قد نسب مواضع حِجازيَّة سكنها اليهود إلى أسماء عِبريَّة في **فِلسطين**، مثل وادي (**بطحان**)، وجبل (**سمران**) أو (**مسمران**) أو (**شمران**)![2] ولقد تقدَّم في الفصل الأوَّل من هٰذه المراجعات أن اسم (**بطحان**) معروفٌ أيضًا في جبال (**فَيْفاء**)، جَنوب (**السُّعوديَّة**)، على سبيل المثال، وفي عِدَّة أماكن. وهو نظير أسماء أخرى معروفة في أرجاء **الجزيرة العَرَبيَّة** وبلدان (**الخليج العَرَبي**). كما تقدَّم أن «**شمران**» اسم قبيلةٍ عَرَبيَّةٍ جنوبيَّة، نسبة إلى جَدِّها، ثمَّ صار يُسمَّى به المكان الذي تقيم فيه، ولا علاقة له بالأسماء التوراتيَّة. وهٰذا يدلُّ بجلاء على أن أسماء المواضع مَضِلَّة، مَن خاض فيها، موظِّفًا إيَّاها لتقصِّي الحقائق التاريخيَّة، كان حَرِيًّا أن يتوهَّم أشياء شتَّى لا رابط بينها. من حيث إن مَن أراد عَزْوَ **الشَّام** إلى (**اليَمَن**) عَبْر هٰذا المنهاج، أمكن أن يتَّخذه سبيلًا، ومن أراد عَزْوَ

---

[1] على أنه خاض في مسائل لُغويَّة أخرى، وإنْ بمَيلٍ إلى التحفُّظ، محاوِلًا التدليل على أَثَر إقامة اليهود في (**الحِجاز**) على اصطلاحات العَرَب اللغويَّة والدِّينيَّة، متطرِّقًا إلى مفردات مثل «مِلَّة، حَنِيْف، نَبِيْء، مِنَى، وبعض أسماء الأيـَّام الأسبوعيَّة»، متجاهِلًا أصول تلك المفردات العَرَبيَّة، ثُمَّ أن للعَرَبيَّة والعِبريَّة أصلًا لغويًّا مشترَكًا؛ فلا غرابة في وجود بعض المشترَك بين اللغتَين. (انظر: ولفنسون، **تاريخ اليهود في بلاد العَرَب**، ٧٨- ٨٤).

[2] انظر: م.ن، ١٧.

اليَمَن إلى **الشَّام** عَبْره، أمكن أن يتَّخذه سبيلًا كذٰلك، غير أنها سبيلٌ لا تؤدِّي في النهاية إلى حقائق عِلْميَّة يُركَن إليها. فإنْ هو أصرَّ على اتِّباع ذٰلك منهاجًا، فالمَلام الأكبر على مَن يصدِّقه من القُرَّاء!

أمَّا باحثٌ تاريخيٌّ آخر- ذو انتماءٍ دِينيٍّ يهوديٍّ من حيث النشأة- فإنه يُفنِّد علاقة (**بني إسرائيل**) التاريخيَّة الأصيلة بـ(**فِلسطين**)، مؤكِّدًا أنها إنَّما كانت أرض غُربةٍ لهم، جاؤوها بدوًا رُحَّلًا (**عِبرانيِّين**) من (**حَرَّان**)- جَنوب شَرقي (**تركيا**) اليوم- التي هاجر إليها جدُّهم (**إبراهيم**) قادمًا من (**بابل**). وكان هٰذا استيطانهم الأوَّل في **فِلسطين**، ثمَّ غادروها إلى (**مِصْر**)، واستوطنوها ثانيةً بعد خروج (**الموسويِّين**) من **مِصْر**. قائلًا:

> بـ«**ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على (فِلسطين)، وأنَّ كلَّ ما يملكون من المقوِّمات الثقافيَّة، ومن ضِمنها اللغة وكتابهم المقدَّس، مقتبسٌ من الحضارتَين (الكنعانيَّة) و(الآراميَّة)، وهما من أصلٍ عربيٍّ، وأن الأسماء التاريخيَّة الواردة في «التوراة»، سواء كانت أسماء شخصيَّات أو أسماء أماكن، قديمة في فِلسطين، هي من أصلٍ كنعانيٍّ عربيٍّ، ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العِبريَّة بزمن بعيد.**»[1]

على حين يذهب «مُؤَسْرِلُو» المَواطن العربيَّة إلى تأصيل التاريخ اليهودي لا في (**فِلسطين**) وحدها، بل في (**جزيرة العَرَب**) أيضًا؛ زاعمين أن تاريخ ما قبل السَّبْي كان في الجزيرة، وتاريخ ما بعده انتقلَ إلى **فِلسطين**!

---

[1] سوسة، ع. وانظر: الصفحات اللاحقة من كتابه.

- ٥ -

وهٰكذا، فإنه كما غزت الإسرائيليَّات كتب التراث الإسلامي، في العقائد، والتاريخ، والتفسير، حتى مسخت العُقول والنُّقول والتصوُّرات، ها هي تي تغزو اليوم جغرافيَّات البُلدان العَرَبيَّة. وكما تصدَّر لذٰلك في التراث فِئامٌ ممَّن وُشِّحوا بألقاب العلماء والأئمَّة، من ذوي العقول الحافظة لا الناقدة، يتصدَّر له في هٰذا العصر أحفادهم من المنتمين إلى العَرَب، بأهواء مختلفة ومشارب شتَّى. والناتج تأبيد الأساطير الإسرائيليَّة، بل تحويلها من أساطير في أسفار «**العهد القديم**» إلى مَواطن مزعومة في جبال (**جزيرة العَرَب**) وأوديتها وقُراها وقبائلها. وبذا يترقَّى الاحتلال الإسرائيلي من احتلال أرض العَرَب إلى احتلال عقولهم، وذاكرتهم، وانتمائهم. وليس يفعل العَرَبُ والمسلمون هٰذا بأنفسهم وبأهليهم وأوطانهم عن سوء طَوِيَّةٍ بالضرورة، لا في القديم ولا في الحديث، ولٰكنهم يتقحَّمون ذٰلك بحَفْزٍ من عاملَين:

الأوَّل: هوًى غالب، دِينيًّا، أو قوميًّا، أو قُطريًّا، أو إقليميًّا، أو إعلاميًّا تجاريًّا.

والآخَر: قصورٌ في الحِسِّ النقديِّ، نصوصيًّا ومعرفيًّا وسياسيًّا.

كان العامل الأوَّل وراء ابتلاع كثيرٍ من كُتب التراث تلك المرويَّاتِ اليهوديَّةَ، لا بقبولٍ حسنٍ فحسب، بل بإجلالٍ أيضًا، مع اتِّخاذها مرجعيَّات «عِلْميَّة!» في التاريخ وتفسير «**القرآن**» وبعض العقائد. وكان ذٰلك هو العامل الأساس وراء مغامرات المؤلِّفين المعاصرين كذٰلك، الذين خاضوا هٰذا المهيَع من

إعادة تفسير «**العهد القديم**» على أساس أنه يتحدَّث عن (**جزيرة العَرَب**).

وأمَّا العامل الآخَر، وهو قصور الحِسِّ النقدي، فمشترَكٌ بين هٰؤلاء المؤلِّفين، في القديم والحديث، ممَّن ضلَّ سعيهم في الاستقراء بين البِنَى الأُسطوريَّة والبِنَى التاريخيَّة.

-٦-

أنت، إذن، أمام جُملة ظواهر تتعلق بتاريخ (**بني إسرائيل**)، كما يتبيَّن من هٰذه المراجعات:

أ. يهود: ينقِّبون عن تاريخٍ أسطوريٍّ في (**فِلسطين**).

ب. علماء مستقلُّون، وآثاريُّون عِلْميُّون: ينفون وجود آثار لـ(**بني إسرائيل**) في (**فِلسطين**)، تُثبِت صِحَّة روايات «**العهد القديم**». على أن فُقدان الأدلَّة الأثريَّة لا يكفي دليلًا عِلْميًّا على انتفاء صحة تلك الروايات بالكُلِّيَّة، وإنْ كان يُشكِّك في تفاصيلها والمبالغات المحيطة بها.

ج. عابثون بالتاريخ، من العَرَب خاصَّةً: يتوسَّطون بين الطَّرفَين؛ مُقِرِّين بأساطير (**بني إسرائيل**)، متطوِّعين بترحيلها عن مَواطنها المزعومة في (**الشَّام**) و(**العِراق**) و(**مِصْر**) إلى (**جزيرة العَرَب**)!

على أنَّ أعمال (**الصَّليبي**) في هٰذا الميدان، ومَن سلكَ مسلكه من التابعين، قد قامت على افتراضات، لم يستطيعوا إثباتها. فضلًا عن كونها افتراضات جاءت في ذاتها مفتقرةً لشروط الفرضيَّات العِلْميَّة. ذٰلك أن الفرضيَّات العِلْميَّة ليست بأن

يقترح الباحث احتمالاتٍ خياليَّةً للإجابة عن أسئلةٍ بحثيَّةٍ، أو لحلِّ مشكلاتٍ قائمة. بل إن من معايير الفرضيَّات العِلْميَّة ما يأتي:

١- أنْ لا تكون أضعف من فرضيَّات أخرى تضافرت الشواهد على رجحانها.

٢- أنْ لا تكون افتراضات خياليَّة.

٣- أنْ تكون فرضيَّات منطقيَّة، أو معقولة.

٤- أنْ لا تُناقِض الواقع والحقائق المعروفة.

٥- أنْ تكون قابلةً للقياس والتحقُّق.

فإنْ لم تتوافر الفرضيَّات على ذٰلك أو بعضه، انتفَى وصفها بـ«**فرضيَّات عِلْميَّة**»، وأصبحت محض «**افتراضات عشوائيَّة**»، وأحلام، أو أوهام. وقد ظلَّت أطروحات (**الصَّليبي**) حول تاريخ (**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**) قائمةً على افتراضات من ذٰلك النوع، لا تتوافر منهاجيًّا على الشروط المبدئيَّة للفرضيَّات العِلْميَّة الصحيحة. ومعلومٌ أن اختلال معيارٍ من المعايير أعلاه يُسقِط صِحَّة الانطلاق من الفرضيَّة. فكيف إذا كانت مختلَّةً جُلُّها أو كلُّها؟! فهي، كما تبيَّن في مراجعات هٰذا الكتاب، أضعف احتمالًا من الفرضيَّات الأخرى التي قامت الشواهد التاريخيَّة عليها وتواترت الأخبار والنصوص. وهي إلى ذٰلك افتراضات تنبني على خيالاتٍ مجنَّحة، متصادمةً مع منطق الواقع ومعقوليَّة الأحداث. بل لقد تُناقض الواقع الجغرافي وتُنافر الحقائق التاريخيَّة المستقِرَّة. ذاك فضلًا عن أنها غير

قابلةٍ للاختبار؛ لأن ما كان منها غيبًا من الماضي فلا سبيل إليه، وما كان منها حاضرًا في بِنًى لغويَّة، من أسماء ونحوها، فهو في معجمٍ متناثرٍ ملتبسٍ متشابه، يمتدُّ على مساحاتٍ مكانيَّةٍ لا تحدُّها حدود. ولذٰلك تعدَّدت الافتراضات بين هٰؤلاء الباحثين عن مسرح الروايات التوراتيَّة، من (**فِلسطين**) إلى (**الحِجاز**) إلى (**غامد وزَهران**) إلى (**عسير**) إلى جوف (**اليَمَن**) المعاصر.. ولا يزال البحث مستمرًّا عن جغرافيَّة «**التوراة**»!

ولقد امتدَّ هٰذا الداء، الذي أصاب أعمال (**الصَّليبي**) أوَّلَ الأمر، إلى مَن لحِقَه من تلامذته وزملائه ومقلِّديه. وكان بيت الداء، لديهم جميعًا، أنهم انطلقوا من مسلَّمةٍ، هي: أن «**العهد القديم**» وثيقةٌ ذاتُ مصداقيَّةٍ تاريخيَّة. وإنَّما المُشكِل الذي قام في أذهانهم أن البحوث الأثريَّة في (**فِلسطين**) لم تعثر على شواهد لما وردَ في تلك الوثيقة. فلا بُدَّ أن مسرحها، إذن، في مكانٍ آخر. فهم بذٰلك لا يختلفون عن المؤرِّخين اليهود، المؤمنين بأساطيرهم، كلَّما في الأمر أنهم- وَفقَ هٰذه الإديولوجيا- يسعون إلى ترحيل تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى مكانٍ عَرَبيٍّ جديد! وبهٰذا لا يفعلون أكثر من بذل أقصى ما يستطيعون لنقل مسرح الخرافة إلى بلدٍ عَرَبيٍّ آخر.

لٰكن، لماذا لم يُسلِّموا بخرافة الرواية التاريخيَّة أصلًا، فيُريحون ويستريحون؟

هنا يتدخَّل العامل الإديولوجي الدِّيني، مع العامل الإديولوجي القومي وراء هٰذه المفارقة، من إظهار رفض النظريَّة التوراتيَّة في (**فِلسطين**) والنضال لزرعها في مكانٍ أعمق من جسد الوطن العَرَبي.

ويتمثَّل العامل الإديولوجي الدِّيني في: مشروعٍ ضِمني لنسف الأساس الدِّينيِّ الإبراهيميِّ، جملةً وتفصيلًا. لأن تاريخ (**بني إسرائيل**)، في معطياته الأساس، وبعيدًا عن التفاصيل، يمثِّل المرجعيَّة للروايات اليهوديَّة والنصرانيَّة والإسلاميَّة. ولن يبقَى لهٰذه الدِّيانات الثلاث من باقية، إذا عرفنا أنْ لا أصل لقداسة (**بيت المَقْدِس**)، ولا لما دار فيه وحوله من اعتقادات، بوصف تلك الأرض: أرضًا مقدَّسة، لليهود، ومَهْدًا يسوعيًّا، للمسيحيَّة، وقِبْلةً أُولى للإسلام، وفيها ثالث الحَرَمَين الشَّريفَين للمسلمين، والمسرَى الإعجازيُّ لرسولهم الخاتم. بل سيتبيَّن حينئذٍ أن الحكاية متعلِّقة بقبيلةٍ بائسةٍ كانت تعيش في جبلٍ أو وادٍ أو صحراء، وكلَّما حيك، حولها وقبلها وبعدها، لا يعدو قِصَّةً شعبيَّةً تافهة، لا أساس لها يستحق ما تحظَى به من رواجٍ وإجلال وتقديس.

أمَّا العامل الإديولوجيُّ القوميُّ والسياسيُّ، فهو رديف العامل الأوَّل. فليُسفَك دم الدِّيني قُربانًا للسياسيِّ والقومي. لأنه ما دام التاريخ الدِّيني قد أورثنا اغتصاب (**فِلسطين**) على أساسٍ توراتي، فليُجتثَّ هٰذا الأساس من الجذور. لٰكن اجتثاثه مستحيل، فلنقُل بنقله، إذن؛ وذٰلك أهون الشرَّين، ولنبحث له عن أصلٍ بعيد، وليكن في دِيانة قبيلةٍ عَرَبيَّةٍ متخلِّفةٍ بائدة، فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر. أمَّا القضيَّة الفِلسطينيَّة، وأمَّا الصراع العَرَبيُّ الإسرائيليُّ، فلا أمل في إيجاد حلٍّ لهما إلَّا بقبول الرواية التوراتيَّة من حيث المنطلَق، مع تحجيمها، ونقلها إلى مجاهل (**الجزيرة العَرَبيَّة**).

وهٰكذا لا يُبقِي الدِّينيُّ ولا القوميُّ ولا السياسيُّ للعِلْم من قَدَمَين. وما خاض في هٰذه البحوث خائضٌ إلَّا بدا معبَّأً إلى أُذنيه ببعض تلك الحُمولات الدِّينيَّة والقوميَّة والسياسيَّة أو كلِّها. وأنَّى يستقيم بعدئذٍ عِلْم أو منهاج؟! ولولا ذٰلك لكان الأمر أسهل من كلِّ هٰذاك العناء وأوضح. فتاريخ (**بني إسرائيل**) ماضٍ واندثر، منذ ما قبل الميلاد. وكم من الأمم مرَّت بالمنطقة، واندحرت، من (**الفُرس**) إلى (**الرُّومان**) إلى غيرهما. بل إن وجود **بني إسرائيل** القديم في (**الشَّام**) إنَّما نشأ عُبورًا، عن مضطرَبات تاريخيَّة، تجاذبت أمواجُها الشعوب هنا وهناك، شَرقًا وغَربًا، شَمالًا وجَنوبًا. فكانت علاقة **بني إسرائيل** بـ(**فِلسطين**)، حتى في عهدهم القديم، علاقةً طارئةً، وغازيةً، وعابرةً؛ إذ لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليِّين، بل بَدْوًا رُحَّلًا، تتقاذفهم العواصف الاقتصاديَّة والسياسيَّة من (**العِراق**) إلى **الشَّام**، إلى (**مِصْر**)، ثم إلى **الشَّام**، فإلى **العِراق**، من جديد. لم يستقرَّ بهم قَرار، ولم تُقِلَّهم أرضٌ إلَّا لفظتهم إلى سواها.

ولسنا في حاجة- نحن العَرَب- لكي ندحض المؤامرة الدوليَّة الحديثة التي قامت لتوطين اليهود في (**فِلسطين**)، إلى اختراع أسطورتنا القوميَّة من أجل نفي التاريخ، أوَّلًا، لنفي الواقع المعاصر، ثانيًا. فالتاريخ تاريخ، والمعاصر محضُ مؤامرةٍ سياسيَّةٍ لإقامة دولةٍ على أساسٍ دِينيٍّ؛ بدعوَى أنَّ أقوامًا في الماضي مرُّوا من هناك، كانوا يعتنقون الدِّيانة نفسها.

إن الكذب لا يُفَلُّ بالكذب، والحقُّ لا يُثبَت بالباطل، والحاضر الزائف لا

يُصحَّح بإعادة كتابة التاريخ وَفْقَ مقاساتنا وأهوائنا.

ذٰلك ما كان يقضي به العقل والعدل والعِلْم. لٰكنَّ ما جرى في هٰذه النماذج من المؤلَّفات التاريخيَّة مناقضٌ لقِيَم العقل والعدل والعِلْم جميعًا.

-٧-

يبقَى السؤال الشائك، والمستفِزُّ للنهوض بهٰذه المراجعات المنهاجيَّة:

لِمَ لَم يكن لمؤرِّخي (**الجزيرة العَرَبيَّة**) صوتٌ عِلْمِيٌّ يُذكَر في هٰذا المضمار، بما يتكافأ مع ذٰلك النشاط المحموم لنقل تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى ديارهم، لا سلبًا ولا إيجابًا؟!

أهم عاجزون؟

أم هم خائفون؟

لا تنس أن أحفاد «ثقافة النَّعام» على عادات أسلافهم، منذ أن كان العَرَبيُّ يَدُسُّ ابنته في التراب لسُوء ما يتوجَّس ممَّا بُشِّر به، فإنْ لم يُجْدِه دسُّ ابنته، دَسَّ رأسه هو، كالنعامة، في التراب. ثقافة التوحُّش، لا الحِوار، والاعتقاد أن العُزلة مَنجاة، والجهل أمن، والفِتنة نائمة في أشجار المعرفة. وتلك من القِيَم العريقة في ثقافة الاعتقاد أن السَّلامة في الظَّلام. ومن شواهد ذٰلك أن ظهرَ من لام (**حَمَد الجاسر**) وفريقَه العِلْميَّ على البحوث القيِّمة التي أنجزوها حول تاريخ (**الجزيرة العَرَبيَّة**) وجغرافيَّتها؛ لأنها- من وجهة نظر أعداء المعرفة هٰؤلاء- أتاحت مادَّةً، ربما لولاها ما كان (**للصَّليبي**) ولا لأتباعه أن يجِدوا أساسًا ليبنوا عليه ما بَنَوا من ادِّعاءات!

ويظنُّ هٰؤلاء الوَجِلون من المعرفة، المتأذية أعينهم من الأنوار، أن وسيلة الحِفاظ المُثلَى على ذِمار الأوطان والشعوب تتمثَّل في الهرب من الحقائق، أو الكذب، إنْ لزم الأمر، أو الكِتمان، والنكران، والتعتيم، وحجب المعلومة، وتكميم الأفواه، وتكسير الأقلام. وهي سياسةٌ بدائيَّةٌ مُعمِّرة، ما انفكَّت تُؤْمِن بحَصانة كهفها، وبنِعمة الجهل الذي يغمرها، وأن خطَّ دفاعها الأوَّل هو إطفاء الأنوار، وليس فتح النوافذ والأبواب لأضواء العِلْم وقِيَم الشَّفافيَّة والتحضُّر. لا تُدرِك أن التسلُّح للمواجهات إنَّما يكون بأسلحتها الواقعيَّة والحقيقيَّة، كما تُدرِك سائرُ الأُمم الحيَّة والفاعلة، التي لا تَفِرُّ من الشمس، بل تَفِرُّ إليها، حتى لا تُصاب بنقص الحديد وهشاشة العظام.

أم تُرَى لعلَّ مؤرِّخينا مُقِرُّون بما حملتْه كُتُب (**الصَّليبي**) وتابعِيه من مزاعم؟

أم هم غير آبهين؟

أم تُراهم مشغولين بقضايا أعظم وأخطر؟

واقع الحال أنه- على حين يَلتمس الخاوون من التاريخ تاريخًا في هٰذا العالَم، أو يدَّعونه، أو يزوِّرونه- تَزْوَرُّ (**جزيرة العَرَب**) عن تاريخها وآثارها. بل قد تسعَى إلى طمسهما خوفًا من لوثات الشِّرك والوثنيَّة، تارةً، وقَلَقًا من تبِعات الأضواء، تارةً أخرى![1] وعلى حين يَخرج من المؤرِّخين المعاصرين مَن يدَّعي بعض تاريخ العَرَب

[1] نشأت جهودٌ لـ(**جامعة المَلِك سعود**) منذ سنوات للتنقيب عن الآثار في (**المملكة العَرَبيَّة السُّعوديَّة**)، جاءت من ثمارها، مثلًا، جهودُ (**أ.د. عبدالرحمٰن الطيب الأنصاري**)، وقسم الآثار في الجامعة، لاستكشاف (**مملكة كِندة**)، في (**الفاو**). ثمَّ تلاشت الجهود تدريجيًّا إلَّا من نشاطات باهتة هنا وهناك من ←

في **الجزيرة العَرَبيَّة** لغيرهم، أو ينفيه عنهم جُملةً، يَلزم مؤرِّخو هٰذه الدِّيار صمت اللحود، إثباتًا عِلْميًّا أو نفيًا، وكأن الأمر لا يعنيهم!

وأغرب من هٰذا كلِّه: أنْ ربما بلغ الأمر بأُناسٍ إلى ساحة المفاخرة بتلك الادِّعاءات الذاهبة إلى: أن تاريخ (**بني إسرائيل**) كان جزءًا من تاريخ (**الجزيرة العَرَبيَّة**)! وبذا يتضافر الاستخفاف بالمعايير العِلْميَّة- في جديلةٍ واحدة- مع ذاك الشعور البائس بالخواء الحضاري، وعُقَد النقص التاريخي، التي يسعَى أصحابها إلى حَشْوها ثُمَّ رفعها على أكتاف مجتلَبة، وإنْ كانت مصنوعة من أساطير.

والحقُّ أنْ لا العابثون بالتاريخ- باحثين عن تاريخٍ لـ(**بني إسرائيل**) في (**جزيرة العَرَب**)، لأسباب إديولوجيَّة- ولا المفاخرون بأن يُنسَب إليهم مثل ذٰلك التاريخ، يبنون أوهامهم على شيءٍ، سِوَى سِباخٍ من رمال الحروف والأسماء. لأن الطائفة الأُولى إنَّما جاءت لتبني دعاواها «العِلْميَّة» على أساطير، أهلُها أدرَى بشِعابَها، وإنْ وظَّفوها لمآربهم السياسيَّة. وهم لن يعثروا على ذٰلك التاريخ المدَّعَى، لا في (**الشَّام**) ولا في (**اليَمَن**)، اتَّخذوا إلى ذٰلك نَفَقًا في الأرض أو سُلَّمًا في

وقتٍ إلى آخَر. وبات الغَرَض الظاهر من الاهتمام السطحيِّ بالآثار لا يعدو كثيرًا الدعاية الإعلاميَّة. ونجمَ الربط بين «السياحة» و«الآثار» في التسمية الأكاديميَّة؛ في ما يُشبِه تحويل البحث الآثاري من طابعه العِلْميِّ إلى نشاطٍ ثانويٍّ يهدف إلى التسويق السياحي؛ فـ«السياحة» أوَّلًا. بل اجتُثَّ مصطلح «**آثار**» من اسم (**الهيئة العامَّة للسياحة والآثار**). وذٰلك، في ما يبدو، تهرُّبًا من عِبء «الآثار»، ورضوخًا لتيَّارٍ له موقفه المعهود من الآثار، تجلَّى في أبشع صوره في أعمال «**داعش**» التخريبيَّة لآثار (**العِراق**) و(**سُوريَّة**)، سَيرًا على أقدام (**القاعدة**) في التعامل مع آثار (**أفغانستان**). وبذا يكاد يقتصر ما تمَّ من كشوفٍ واسعةٍ وجادَّةٍ في آثار (**الجزيرة العَرَبيَّة**)، حتى اليوم، على تلك التي أُنجزت في (**اليَمَن**)، وربما في بعض دول (**الخليج العَرَبي**).

السماء. قصارَى ما يُنجِزون أن يتلَهَّوا ببالوناتهم الإعلاميَّة بين وقتٍ وآخَر؛ لأن ما بُني على سرابٍ ظَلَّ سرابًا. فليُريحوا مطاياهم وليستريحوا، وليَرحموا المطابع ممَّا يدغدغون به العواطف، مرَّةً باسم القوميَّة العَرَبيَّة، ومرَّةً باسم القوميَّة الشَّاميَّة، ومرَّةً باسم القوميَّة العِراقيَّة، ورابعةً باسم القوميَّة المِصْريَّة، وبين هٰذه وتلك رغباتٌ عشواء لقلب تمثالٍ تاريخيٍّ أُسطوريٍّ يجثم على الصدور، غير أن مَعاول تلك الرغبات لا تعدو استعراضات بهلوانيَّة من التعالُم، في صيحاتٍ هزليَّةٍ لإعادة كتابة التاريخ! أمَّا الطائفة الأخرى- الفخورة بالزعم أن تاريخ **بني إسرائيل** كان في **جزيرة العَرَب**- فأتعس مسعًى من الأُولى؛ فلا هي حظيت بشرف التاريخ، ولا هي حظيت بشرف الدفاع عن المنهاج العِلْمِي، ولا حتى بشرف الدفاع عن أوطانها من أن تغدو مسرحًا للتزييف في الهُويَّة، والتزوير في اللغة والتاريخ والجغرافيا، وصولًا إلى بيعها في المزاد العلني للأُمم: اليومَ على صفحات الكَذِب والكُتُب، وغدًا على صفحاتٍ من الحديد والنار.

وختامًا، فإن هٰؤلاء المؤلِّفين العَرَب إنَّما يسيرون على خُطَا نُظرائهم من الصهاينة، ومِن آخِرهم السياسيُّ الأميركيُّ (**دِنيس آفي ليبكين** Dennis Avi Lipkin)، في كتابه «**العودة إلى مَكَّة** Return To Mecca»، ٢٠١٢. وفيه يزعم أن (**سيناء**) المقصودة في «**العهد القديم**» تقع في شَمال (**الجزيرة العربيَّة**)، وأن (**جبل الطُّور**) هو (**جبل اللوز**)، في شَمال غَربي (**السُّعوديَّة**)، وأن تِيْه (**بني إسرائيل**) كان في صحراء شَمال **الجزيرة** لا في **سيناء**. ومن ثَمَّ يدَّعي أن تداعيات الأحداث

السياسيَّة ستؤول **ببني إسرائيل** إلى العودة إلى (**الحِجاز**)، وإلى (**المدينة المنوَّرة**) و(**مَكَّة**)! فهنيئًا للأُمَّة العربيَّة بمؤلِّفيها النُّجَباء، الذين يعضدون بأعمالهم أمثال هٰؤلاء المؤلِّفين اليهود، بل يسعون، في سِباق عروبيٍّ محموم، للتفوّق عليهم، بلا رؤية، لا عِلْميَّة ولا سياسيَّة!

أمَّا بعد، ومهما تكن من متاهات هرمنيوطيقيَّة في تأويل النصوص التوراتيَّة، فإن الدارس يختم كتابه هٰذا بتأكيد حقيقتَين عِلْميَّتين، تجعلان الدراسات القائمة على نصوص الكتاب المقدَّس في مجال التحقيق التاريخي والجغرافي محلَّ مساءلاتٍ جذريَّة، حتى مع الأخذ بظواهر النصوص:

١- احتمالاتٌ واسعةٌ لوقوع الأخطاء الجغرافيَّة في نصوص «**العهد القديم**» نتيجة عاملين: أوَّلهما، ضعف المقاييس الجغرافيَّة زمنَ كتابتها؛ فالشَّمال والجَنوب والشَّرق والغَرب لم يكن تحديدها إذ ذاك بالدِّقة الجغرافيَّة التي نعرفها اليوم. والعامل الآخَر، ضَعف الكَتَـبَة في معرفة الأرض التي يتحدَّثون عنها؛ ولا سيما أن تلك الأسفار كُتِبت بعيدًا زمانًا ومكانًا عن موضوعاتها من التاريخ والجغرافيا. هٰذا فضلًا عن ضَعف الكتابة نفسها وضَعف أدواتها في تلكم الأزمان. ومن ثَمَّ فإن الأخطاء والتناقضات واردة الاحتمال جِدًّا، وإنْ لم يُسوِّغ الاعترافُ بهٰذا أن تُتَّخَذَ ذريعةً للإنكار الكلِّي أن مسرح الأحداث التاريخيَّة التي تومئ إليها أسفار «**العهد القديم**» يقع، إجمالًا، في بلاد (**الشَّام**) وما جاورها.

٢- إن الاتِّكاء على «**العهد القديم**»، بوصفه وثيقةً تاريخيَّةً، كان قد بات محلَّ ارتيابٍ

في الدراسات التاريخيَّة الحديثة الجادَّة منذ وقتٍ مبكِّر؛ لعِلَلٍ كثيرة، تتعلَّق بالنقد الأدنَى (الداخلي/ الفيلولوجي) لِبنية النصِّ، أو بالنقد الأعلَى (الخارجي)، من حيث مصداقيَّته التاريخيَّة. فكيف يَصِحُّ، والحالة هٰذه، أن يُبنَى على مثل هٰذا النصِّ تصوُّرٌ تاريخيٌّ بديلٌ، أشدُّ تصادمًا معه، فيلولوجيًّا واتِّساقًا مع المعارف التاريخيَّة؟! ذٰلك ما لن يُنقِذ النصَّ تاريخيًّا، ليُخرجه من طبيعته التخييليَّة الأُسطوريَّة، ولن يُمِدَّ التاريخَ بمنجزٍ عِلْمِيٍّ يستحقُّ الاحترام، بمقدار ما سينزع إلى بناء أُسطورةٍ جديدةٍ على أُسطورةٍ عتيقة!



ملحق

وصف بلاد العَرَب
قبل ميلاد المسيح

(ترجمة)

توطئة:

-١-

هٰذه ترجمتي لما ساقه (**سترابو**)، في الفصل الرابع من الكتاب السادس عشر من مُؤلَّفه المعروف بـ«**الجغرافيا** The Geography»[1]، واصفًا بعض بلاد العَرَب، والحَمْلة الرومانيَّة ضِدَّ العَرَب، التي عاصرها، والتي شُنَّت سنة ٢٤ قبل الميلاد، تحت قيادة (**إيليوس جالوس** Aelius Gallus)[2]، بوصفه ضابطًا عسكريًّا. وكان قد بعثه الإمبراطور الروماني (**أُغسطس قيصر** Augustus Caesar)[3] لاستكشاف القبائل في (**جزيرة العَرَب**) ومَواطنها، والسطو على خيراتها التي شاع ذِكرها في زمنه.

والهدف من هٰذه الترجمة- إلى التعريف بالقِيْمة المعلوماتيَّة التي يحملها النصّ- اتِّخاذها شاهدًا إضافيًّا على ما أفاض الدارس في تأكيده مرارًا من أن أسماء الأماكن تتشابه وتتبدَّل باستمرار، ما يجعل الجزم بدلالاتها في نصٍّ قديمٍ ضربًا من الوهم والإيهام، وإنْ كان نصًّا جغرافيًّا تاريخيًّا، كهٰذا النصِّ المترجَم. فضلًا عن اتِّخاذها شاهدًا على مَواطِن اليهود قبل الميلاد؛ لما يتضمَّنه النصُّ من تأكيدات تاريخيَّة في ذٰلك.

وسيلحظ القارئ أن (**سترابو**) كان يذكر أماكن في منطقة (**الشرق الأوسط**)

---

(1) See: (v. 7), Book 16, Chap. 4.

(٢) كان يشغل منصب محافظ الرُّومان في (مِصْر)، (٢٦– ٢٤ق.م).

(٣) (٦٣ق.م– ١٤م). هو مؤسِّس النِّظام الإمبراطوريِّ الرومانيِّ ومن أعظم ساسة (**روما**) وقادتها على مرِّ العصور. (انظر: الزين، محمَّد، **أغسطس**، (**الموسوعة العَرَبيَّة**، على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/JQaGwZ).

و(**الجزيرة العربيَّة**) نادرًا جِدًّا ما نعرفها. وهٰذا يؤكِّد ما أسلفناه من أن أسماء الأماكن تندثر وتتبدَّل، في حين يفترض (**الصَّليبيُّ**) وتابعوه بقاءها بأسمائها الواردة في «**العهد القديم**» منذ آلاف السنين! ومن جهةٍ أخرى، فإن (**سترابو**) قد ذكرَ مَواطن اليهود في مكانها المعهود من بلاد (**الشَّام**). ذاك لأنه يتحدَّث عن حقبة سابقة على الهِجرات اليهوديَّة التي حدثت بعد ميلاد السيِّد المسيح، فرارًا من بلاد **الشَّام** بسبب اضطهادهم من قِبَل (**الرُّومان**)، مستوطنين في بعض المواقع في شَمال (**الحِجاز**). بل أشار إلى أن من حلفاء **الرُّومان** في الحملة خمس مئة يهوديٍّ مع ألف نبطيٍّ تحت قيادة الوزير النَّبَطي، الذي عرَّبنا اسمه إلى: (**صِلّ**).

كما أن الفشل الذريع لحملة الإمبراطور الرُّوماني على (**جزيرة العَرَب**) يُلقي بظلاله على مصداقيَّة ما تخيَّله (**الصَّليبيُّ**) وتابعوه من أن قُوَّةً بابليَّة استطاعت اختراق الصحراء إلى أغوار الجزيرة الجَنوبيَّة، بل إن العَرَب كانوا عُرضةً للغزو في عُقر جَنوبهم، منذ القرن التاسع قبل الميلاد، على يد مُلوك (**آشور**) و(**بابل**). وأن مدينة اليهود المقدَّسة (**أورشليم**) كانت في (**النماص**)، وأن (**نَبُوخَذْنَصَّر**) غزاهم هناك، وسباهم إلى (**بابل**).[1]

-٢-

أمَّا كتاب (**سترابو**)، ففي غِنًى عن التنويه بأهميَّته، وأهميَّة ما أورده حول بلاد العَرَب. وتزيد أهميَّة ما أورده عن بلاد العَرَب لِغناه، واستقائه- ذي الصبغة

[1] انظر: الصَّليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**، ٣٩. وراجع: الفصل الأوَّل من دراستنا.

التوثيقيَّة- من كتابات مَن سبقه. وأمَّا ما يتعلَّق بالحملة على بلاد العَرَب بخاصَّة، فلقد أشار **سترابو**[١] إلى أنه كان على صداقةٍ شخصيَّةٍ بقائد الحملة **(جالوس)**، وأنه كان معه حينما كان محافظًا في **(مِصْر)**، ورافقه بنفسه في بعض تحرُّكاته الحربيَّة. وهو ما يُكسِب روايته عن الحملة امتيازَها العِلْمي.

وفي أثناء اشتغالي بترجمة ما يعني القارئ من هٰذا الفصل الذي دوَّنه **(سترابو)**، وقعتْ تحت يدي ترجمةٌ قديمةٌ أجراها **(جبرا إبراهيم جبرا)**، نُشِرت في **(مجلَّة المجمع العِلْمي العِراقي**، العدد ٢، ١٩٥١، ص٢٤٦-٢٧٠). فألفيتها ترجمةً متعجِّلة، مضطربة، وغير دقيقة. بل قد يورِد المترجِم فيها معلومات غير مذكورة في الأصل، أو يفترض افتراضات لا صحَّة لها. صحيحٌ أنْ قد يكون اعتمد على ترجمةٍ إلى الإنجليزيَّة غير التي اعتمدتُ عليها[٢]، بيدَ أن هناك ملحوظات لا يمكن أن تُفسَّر بذٰلك. مثل:

- توهُّمه أن إشارة المؤلِّف إلى **(قرناء** أو **قرنانة)**، عاصمة مملكة **(مَعِين)** المعروفة في محافظة **(الجَوف)** اليَمَنيَّة، المقصود بها **(قَرْن المنازل)**، ميقات الحجِّ الإسلامي المعروف لأهل **(نَجْد)**، شَمال **(الطائف)!**
- عدم إلمامه ببعض المعلومات التاريخيَّة الأوَّليَّة والمهمَّة في الموضوع، مثل ترجمته الإشارة إلى **(الجرهائيِّين)**- نسبةً إلى مملكة **(الجرهاء)**، في شَرق

(1) See: (v. 1), Book 2, Chap. 5: 12.

(٢) الترجمة التي اعتمدتُ عليها هي المثبتة في فهرست المصادر والمراجع، للمترجِم إلى الإنجليزيَّة: Horace Leonard Jones. (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press- London: William Heinemann LTD, 1967).

(المملكة العربيَّة السُّعوديَّة)- ترجمةً مبهمة، بتسميتهم: **(الجرحائيِّين)**، وأحيانًا **(الجرعائيِّين)**.

- تسميته الميناء المِصْري، الوارد عند **(سترابو)** باسم «Myus»- ويعني به ما يُسمَّى اليوم: **(القصير القديم)**، الواقع في **(محافظة البحر الأحمر)**- بـ«**ميناء الفأر**»!

- يُلحَظ أن هناك فقرات تَخَطَّى ترجمتَها، لسببٍ غير معلوم.

- ترجمَ بعض حواشيه عن الأصل الذي اعتمد عليه، ولم يُشِر إلى أنها مترجمة؛ ما يوهِم بأنها من عنده، شرحًا وتحقيقًا. ومع عدم إيراده معلومات النسخة التي اعتمد عليها، فإنه يمكن بالتتبع الوقوف على اعتماده على نسخةٍ من ترجمة: (Hans Claude Hamilton, William Falconer).[1]

وكذا علمتُ عن ترجمةٍ للكتاب السادس عشر من سِفر **(سترابو)**، أنجزها **(محمود المبروك الدويب)**، من منشورات (جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٦). لم يتسنَّ لي الاطِّلاع عليها.

على أن ترجمة مثل **هٰذه** الموادِّ التاريخيَّة والجغرافيَّة القديمة تظلُّ عديمة القيمة ما لم تُشفَع بالبحث، والتحقيق، والشرح والتعليق. وهو ما سعيت إليه في ترجمتي.

وقد تخطَّيتُ في ترجمة هٰذا الفصل أجزاء تفصيليَّة من هنا وهناك؛ لأنها لا تدخل في موضوع الاهتمام: «**وصف بلاد العَرَب قبل ميلاد المسيح**».

---

[1] هذه الترجمة نُشِرَت في طبعة قديمة (London: Henry G. Bohn, 1857).

-٣-

ولقد اجتهدتُ في تحديد المَواطِن التي يُشير إليها (**سترابو**)، ما وسعني الاجتهاد، مستعينًا بمقارنة النصِّ الإنجليزي بالأصل الإغريقي، وبكُتب البلدان العربيَّة وغير العربيَّة، وبالقراءات التفسيريَّة للنصِّ. فمِلتُ أخيرًا إلى رُجحان أنَّ ما وردَ خلال حملة (**جالوس**) من وصفٍ للأماكن إنما يتعلَّق بشَمال (**الحِجاز**). حتى ما قد يُوهِم منها بالوضوح، مثل Negrani أو Negrana– وهو بالإغريقيَّة: Νέγρανα– الذي فُسِّر أحيانًا بأنه إشارة إلى (**نَجْران**)، فإنَّ من الدارسين مَن ذهبَ إلى أنه إشارة إلى مكان اسمه (**النَّقْرَة**)، أو (**النَّقِرَة**)، ويُعرَف بـ(**مَعْدِن النَّقْرَة**)، في (**قَرَوْرَى**)، شَمال غَربي (**نَجْد**)، وليس بإشارةٍ إلى **نَجْران**. وبذا يبدو أن وصول حملة **جالوس** إلى جَنوب الجزيرة قد بقي حُلمًا لم يتحقَّق، فلم تتجاوز الحملة شَمال **الحِجاز**. وهٰذا ما أميل إلى ترجيحه مع المرجِّحين؛ لأسبابٍ منها:

١- صعوبة وصول الحَملة إلى جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**) لأسباب بيئيَّة واجتماعيَّة، لا تخفَى. فضلًا عمَّا شكاه (**جالوس**) من تضليل الأدلَّاء العَرَب للحملة وقائدها.

٢- يُلحَظ في وصف الحملة القفز غير المعقول بين الأماكن المعروفة في شَمال (**الحِجاز**) والأماكن التي فُسِّرت بأنها في (**اليَمَن**)، وبينهما هُوَّةٌ شاسعةٌ من الصحارَى والدِّيار لم يرِد لها ذِكْر. فمع مشاقِّ الطريق التي وصفها، والزمن الطويل الذي استغرقته الحملة حتى وصلت إلى أرض (**حارثة**)– وهو من

أقرباء (**عُبادة**)، مَلِك (**الأنباط**)- فإنه ما أنْ غادر أرض **حارثة** هٰذا حتى وصلَ إلى ما فُسِّر على أنه (**نجران**)، ولم يجتز بينهما غير بلدٍ ذكرَ أن اسمه (**عَرَار**)، عليه مَلِكٌ اسمه (**صَعْب**)! أمَّا ما وردَ من أن (**جالوس**) كان على بُعد يومَين فقط من البلاد التي تُنتِج العِطْريَّات، فلا يدلُّ قطعيًّا على أنه قد بلغ جَنوب (**الجزيرة العَرَبيَّة**)؛ لأن مفهوم «**بلاد العِطريَّات**» لا يشار به إلى جَنوب الجزيرة، تحديدًا، بل يُشار به إلى بلاد (**السبئيِّين**) عمومًا، التي قد يمتدُّ نفوذها إلى أطراف **الحِجاز** الشَّماليَّة؛ من حيث تُعَدُّ بلاد العِطْريَّات، إنتاجًا، أو جَلبًا من المصادر الآسيويَّة، أو تخزينًا، أو صناعةً، أو تسويقًا. يؤكِّد هٰذا وصف (**سترابو**)[1] **السبئيِّين**- روايةً عن بعض الكُتَّاب- قائلًا: إنَّ «**أوَّل الأقوام الذين يَلُوْنَ (سُوريَّة) من ساكني (البلاد العَرَبيَّة السعيدة): (الأنباط)، ثمَّ السبئيُّون**». وكذا ما أشار إليه- روايةً عن (**آرتميدوروس**)- من أن **السبئيِّين** يُحادُّون قبيلة (**ذُبيان** Debae)، التي وصفها في أعالي **الحِجاز**.[2]

٣- في مقابل ذٰلك تُلحَظ سُرعة تقهقر الحملة للعودة بحرًا- ممَّا فُسِّر لدَى بعض الدارسين على أنه في ضواحي (**نجران**)- إلى ميناء (**ميوس**)[3]، في (**مِصْر العُليا**)، ثمَّ إلى (**الإسكندريَّة**). وهو ما لا يتناسب مع المسافة بين تلك الضواحي في جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**) و**مِصْر العُليا**، بل مع تصوُّر أن العودة كانت من شَمال (**الحِجاز**) إلى **مِصْر**.

---

(1) (v. 7), Book 16, Chap. 4: 21.

(2) See: (v. 7), Book 16, Chap. 4: 19.

(٣) Myus. ميناء مِصْري، يقع في (**محافظة البحر الأحمر**)، يُسمَّى اليوم: (**القصير القديم**).

٤- ما نقرأه من نِسبة بعض المواضع التي زُعِم أنها في جَنوب **(الجزيرة العربيَّة)**، إلى المَلِك النَّبَطيِّ (Obodas)، في إشارةٍ، على ما يبدو، إلى: **(عُبَادَة الثاني، حَكَمَ ٣٠- ٩ ق.م)!**[١] فمِن أين أصبحت مناطق في جَنوب الجزيرة من بلاد **(الأنباط)**؟! وهٰذا يؤكِّد أن الحديث ليس عن بلاد **(السبئيِّين)** في جَنوب الجزيرة، بل عن بلاد **الأنباط** في شَمالها.

٥- لم يَرِد أن الحملة حقَّقت شيئًا من أهدافها من غزو بلاد **العِطْر**، أي السطو على خيراتها، أو النَّيْل منها، في الأقلِّ. فما الذي منعها من ذٰلك، إنْ كانت قد بلغت **(نجران)** وما وراء **نجران**، بل استولت على **(مَأْرِب)**، حسب الرأي الذاهب إلى ذٰلك؟! بل لم يَرِد أيُّ وصفٍ لبلاد **(اليَمَن)** وأهلها من خلال المشاهدات في أثناء الحملة، ممَّا يؤكِّد أنها لم تصل إلى هناك. وبالفعل فقد صرَّحَ **(سترابو)**[٢] أن الحملة لم تُفِد الكثير من المعرفة بالمناطق التي استُهدِفت بالغزو، وإنْ أسهمتْ في معرفةٍ طفيفةٍ بشؤونها. أمَّا وصفه ممالك **اليَمَن** في بداية حديثه، فهو يرويه عن الجغرافي **(إراتوستينس)**، أو العرَّاف **(آرتميدوروس)**، وليس من مشاهدات **(جالوس)** أو غيره خلال الحملة.

هٰذا ما يبدو مرجَّحًا. على حين ذهب بعض الدارسين إلى أن الحملة قد بلغت **(حضرموت)**.[٣]

---

(١) المَلِك النَّبَطيُّ الذي كان حاكمًا في الفترة التي شُنَّت فيه حملة **(جالوس)** هو **(عُبَادَة الثاني)** المذكور. (انظر: عبَّاس، إحسان، **تاريخ دولة الأنباط**، ٥١).

(2) See: (v. 7), Book 16, Chap. 4: 24.

(3) See: Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/8vRtVW.

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنه يصعب تحديد المواضع الواردة في هٰذا النصُّ على نحوٍ جازم، إلَّا بمنهاجٍ كمنهاج (**الصَّليبيِّ**) في التخمين. وهو ما يَدلُّ عمومًا على صعوبة الاهتداء اليومَ إلى كثيرٍ من الأماكن المذكورة في النصوص التاريخيَّة القديمة جِدًّا؛ لسببَين: التحريف الذي يلحق بأسمائها في لُغةٍ أخرى، واحتمال أن تكون، واقعيًّا، قد اندثرت أو تغيَّرت أسماؤها. وعلى الرُّغم من ترجيحي الذي أشرتُ إليه حول المواضع الواردة في النصِّ، فقد أبقيتُها على ظاهر لفظها الوارد لدَى المؤلِّف، مع التعليق عليها وتفصيل القول في تحليل احتمالاتها.

وصف بلاد العَرَب
قبل ميلاد المسيح

(سترابو، -٢٤م)[١]

ترجمة وتعليق:
أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي

-١-

يبدأ امتدادُ (**بلاد العَرَب**) [من المكان الواقع] على طَرَف أرض (**بابل**) عند [منطقة تُسَمَّى] (**ميسان**)[٢]. وأمام **ميسان**، على أحد الجوانب، تنبسط الصحراء العَرَبيَّة،

---

[١] جغرافيٌّ، مؤرِّخٌ، ينتمي إلى أصلٍ إغريقي. ألَّف في التاريخ كتابًا فُقِد، وكان من ٤٧ جزءًا. لم يبق من مؤلَّفاته سِوَى «**الجغرافيا The Geography**». ويتكوَّن من ١٧ كتابًا: (**١: مقدِّمة؛ ٢: الجغرافيا الرياضيَّة؛ ٣: إسبانيا؛ ٤: بلاد الغال وبريطانيا؛ ٥- ٦: إيطاليا والإمبراطوريَّة الرومانيَّة؛ ٧: شَمالي أوربا وشَرقها؛ ٨- ١٠: بلاد الإغريق؛ ١١: البحر الأسود وقزوين وطوروس؛ ١٢- ١٤: آسيا الصُّغرَى؛ ١٥: الهند وفارس؛ ١٦: بلاد الرافدَين وسُوريَّة وبلاد العَرَب؛ ١٧: مِصْر وإثيوبيا وشَمالي أفريقيا**). ومصادر معلوماته- كما وصفها- تمثَّلت في: الشهادات الشفهيَّة، والمشاهدات الشخصيَّة في زياراته ورحلاته، مع المراجع المكتوبة. وهو ينقل بعض ما أورده عن (**بلاد العَرَب**) من روايات الجغرافي (**إراتوستينس** Eratosthenes)، وبعضه عن صديقه (**إيليوس جالوس** Aelius Gallus)، وما أورده عن (**البتراء**) عن صديقه (**أثِنودوروس** Athenodoros)، الذي أقام في **البتراء**. (وانظر: عبد الكريم، مأمون، **استرابون**، (**الموسوعة العربيَّة**، على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/jyiLyi)).

[٢] Maecen. بالإغريقيَّة: Μαικηνή. وذهب (**جوسِلين** Gossellin) إلى احتمال أن هٰذا المكان هو المعروف بـ(**المسيَّب**)، شَمال (**بابل**). (See: Strabo, **Geography**, Hamilton & Falconer, 3: 189). لٰكن لماذا لا يكون المقصود: (**ميسان**)؟ فهٰذا اسم قديم، من قبل الميلاد، وتقع **ميسان** في جَنوب شَرقي (**العِراق**)، على مشارف بلاد (**فارس**). وكانت فيها مملكة اسمها (**ميشان**)، جَنوب أرض **بابل**. ويعني ←

وعلى الجانب الآخر تقع (**الأهوار**)[١] التي تُحْدِثها فيضاناتُ (**الفُرات**)، في مقابل أرض (**الكلدانيِّين**)، وفي الاتجاه الثالث يمتدُّ (**الخليج الفارسي**)[٢].

وهٰذه البلاد ذاتُ أجواءٍ سيِّئةٍ [وغير صحيَّة]، وغائمة، تتعرَّض للأمطار والحرارة الحارقة معًا، غير أنها برغم ذٰلك ذات منتجات ممتازة. فـ(**الكَرْم**) ينمو في المستنقعات؛ حيث تُجعَل التُّربة التي يتطلَّبها النبات فوق سياجٍ من قَصَب؛ وكثيرًا ما يحمل السِّياجُ **الكَرْمَةَ** بعيدًا ثمَّ تُعاد إلى مكانها مرَّة أخرى باستعمال عُصِيٍّ طِوال.

-٢-

لٰكنِّي سأعود إلى (**إراتوستينس**)[٣]، الذي يحدِّد آراءه بشأن (**الجزيرة العَرَبيَّة**). إذ يَصِفُ شَمال الجزيرة الصحراوي، الواقع بين (**البلاد العَرَبيَّة السعيدة**) ووسط

هٰذا الاسم: «**الماء الآسن**»، أو المستنقع. وها قد أشار (**سترابو**) إلى أن «**على الجانب الآخر** [من المكان الذي ذكره] **تقع الأهوار التي تُحدِثها فيضاناتُ (الفُرات)**». كما أن هٰذا الاسم أقرب إلى منطوق الكلمة بالإغريقيَّة. ولذٰلك وردَ في التعليق على النصِّ الإغريقي: أنه «**يبدو أن في اسم** Μαικηνή **تصحيفًا، وأن الصواب:** Μαισηνή أو Μεσηνή أو Μεσηνων». ومنطوق هٰذه الاحتمالات للاسم: «**ميسينا**، أو **مِسينا**، أو **مِسينيا**». وكلُّها تَشِفُّ عن اسم «**ميسان**». وفي منطقة **ميسان** أهوارٌ بالفعل، وفيها بَوادٍ عَرَبيَّة لرعاة (**الإبل**) إلى اليوم. (للاستزادة حول **ميسان** يمكن الرجوع إلى: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/JwAvPt).

[١] marshes. و**الأَهْوَار**: جمع هَوْر. والكلمة مستعملة اليوم في (**العِراق**) بمعنى المستنقع أو السبخة. والهَوْر: «**بُحيرة تغيض فيها مياه غياض أو آجام فتتَّسع ويكثُر ماؤها**». (ابن دريد، **جمهرة اللغة**، (روه)).

[٢] هٰكذا كان يُسَمَّى (**الخليج العَرَبي**) في الكتابات القديمة، بما فيها الكتابات الإسلاميَّة؛ لما كان من سيطرة قديمة (**للفُرْس**) على منطقة **الخليج** بالاستيطان أو بالهيمنة.

[٣] Eratosthenes. بالإغريقيَّة: Ερατοσθένης. (-١٩٤ق.م) عالم رياضيَّات وجغرافيٌّ وفلكيٌّ. قيل: هو مخترع كلمة «جغرافيا». (انظر: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/D5XbXY).

(بلاد الشَّام) و**(يهوذا)**[١]، ممتدًّا إلى حدٍّ **(الخليج العربي= البحر الأحمر)**[٢]. ذاكرًا أنه من مدينة **(عَيْن شمس)** المِصْريَّة[٣]- التي تُشكِّل حَدًّا **للبحر الأحمر** بالقرب من نهر **(النِّيْل)**- فإن المسافة في اتِّجاه **(البتراء)**[٤]، التابعة لـ**(النَّبَطِيِّين)**، إلى **(بابل)**، هي ٥٦٠٠ مرحلة[٥]. وكلُّ هٰذه الجهات تمتدُّ في اتِّجاه مطلع الشمس صيفًا، مارَّةً خلال القبائل العَرَبيَّة المتاخمة، وأعني **(الأنباط)**، وقبائل **(الحَوِيْلِيِّين)**[٦]،

---

[١] **(بلاد العَرَب السعيدة** Arabia Felix) مصطلح كان يُطلَق على أجزاء واسعة من بلاد العَرَب في جزيرتهم، ولا يُخَصُّ به **(اليَمَن)**. وكان **(بطليموس القلوذي، -نحو١٦٠م)** قد قسَّم **(شِبْه جزيرة العَرَب)** إلى أقسام ثلاثة، هي **(بلاد العَرَب الصحراويَّة** Arabia Deserta)، و**(بلاد العَرَب الحَجَريَّة** Arabia Petra)، و**(بلاد العَرَب السعيدة** Arabia Felix). ويشمل هٰذا الأخير: **(الحِجاز**، و**نَجْد**، و**اليَمَن)** وما جاورها. (انظر: سوسة، ٤٥٧). ويُلحَظ هنا أن **(سترابو)** قد ذكرَ مَواطن **(اليهود)** في مكانها المعهود من بلاد **(الشَّام)**.

[٢] كان يشير بـ**(الخليج العربي)** أحيانًا إلى **(البحر الأحمر)**.

[٣] في الأصل: Heroes. ويبدو أنه يقصد: Heliopolis، كما في بعض الترجمات. والاسم يشير إلى مدينة الشمس، المسمَّاة اليوم **(عَيْن شَمْس)**.

[٤] تقع **(البَتْراء)** جَنوب غَربيِّ **(الأُردن)**. في نطاق ما يُعرَف اليوم بـ**(وادي مُوسَى)**، في محافظة **(مَعان)**. وتعني كلمة «**بتراء**»، Petra، باليونانيَّة: «**صخرة**».

[٥] stadia: وحدة قياس للمسافات إغريقيَّة رومانيَّة، تُقدَّر بنحو ١٨٥ مترًا. ما يعني أن **(سترابو)** قَدَّر طُول المسافة من القطاع الشَّمالي الذي أشار إليه إلى أقصى جَنوب الجزيرة بنحو ٢٢٢٠ كيلًا. وهو تقدير مقارب للحقيقة.

[٦] Chaulotaeans. نسبةً إلى **(حَوِيْلَة)**، وهو من أبناء **(يَقطان**- أو **قحطان- بن عابِر بن شالح بن أرفكشاد بن سام)**، كما في **(سِفر التكوين، ١٠: ٢١- ٢٩)**. وفي مَوطن آخَر من هذا السِّفر أنه أخو **(سَبَأ)**، وأنهما من ولد **(كوش بن حام)!** (انظر: م.ن، ١٠: ٧). كما وردَ أن أولاد **(إسماعيل بن إبراهيم)** سَكَنُوا مِن **حَوِيْلَة**- وهو المكان الذي سُمِّي بـ**(حَوِيْلَة بن قحطان)**- إلى **(شُور)** التي أمامَ **(مِصْر)**. (انظر: م.ن، ٢٥: ١٨). وجاء أن نهر **(فِيشُون)**- الذي يمثِّل أحد الرؤوس المتفرِّعة عن النهر الذي كان يسقي جَنَّة **(عَدْن)**، حسب زعم «**التوراة**»- مُحِيطٌ «**بجميع أرض الحَوِيلَة، حيث الذَّهَبُ، وذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ، هُنَاكَ المُقْلُ وحَجَرُ الجَزْعِ**». (م.ن، ٢: ١٠- ١٢). ويُستنتج من هٰذا أن المكان يقع في وسَطَ **(الجزيرة** ←

و(**الهَجَرِيِّين**)[١]. ودون هٰؤلاء تمتدُّ **بلاد العَرَب السعيدة** بمسافة ١٢٠٠٠ مرحلة إلى الجَنوب، نحو (**المحيط الأطلسي**)[٢].

وفي ما يلي القطاعَ الشَّماليَّ المشار إليه- بعد (**السُّوريِّين**) و(**اليهود**) مباشرةً- يستوطنُ عَرَبٌ زُرَّاعٌ. تليهم رمالٌ قاحلة، ذات شُجيرات قليلة من (**النَّخْل**) و(**السَّمُر**) و(**الطَّرْفاء**)، مياهها تُستمَدُّ من الآبار، كما هي الحال في (**جِدروسيا**)[٣]، وأهل تلك الجهات هم من ساكني بيوت الشَّعر ومُربِّي قُطعان الإِبِل. أمَّا الأجزاء القُصوَى نحو الجَنوب، والمقابلة لبلاد (**إثيوبيا**)، فتُسقَى بمياه الأمطار الصيفيَّة، وتُبْذَر أراضيها مرَّتَين في العام، كما هي الحال في (**الهند**). وتُزوِّد الأنهارُ[٤] السهولَ هناك والبُحيرات بالمياه. وتتمتَّع تلك البلادُ بالخصوبة، بصفةٍ عامَّةٍ، وتزخر،

العَرَبيَّة) تقريبًا؛ ولذٰلك أُشيرَ إلى أنه حدُّ ديار **الإسماعيليِّين** جَنوبًا. وربما ذُهِب إلى أن **حَوِيْلَة** إشارة إلى (**خَوْلان**)، شَمال (**اليَمَن**). (انظر: «**قاموس الكتاب المقدس | دائرة المعارف الكتابيَّة المسيحيَّة**»، شرح (**مقاطعة حَوِيْلَة**)، على «الإنترنت»: https://goo.gl/Taj4ak).

[١] Agraeans. كذا وردَ الاسم، وبالإغريقيَّة: Ἀγραίων. ولا غَناء من المعلومات حول هٰذا الاسم، سِوَى ما يظهر في بعض الإشارات من رابط بين هٰذه القبيلة و(**حِمْيَر**)، وأنها كانت تسكن شَمال (**الجزيرة العَرَبيَّة**) قبل الميلاد. وأُرَجِّح أنه يقصد (**الهَجَرِيِّين**)، نسبةً إلى (**هَجَر**) في شَمال شَرقي الجزيرة. وهٰذا مناسبٌ لكلامه عن (**النَّبَطيِّين**) في شَمال الجزيرة، و(**الحَوِيْليِّين**) في شَمال غَربها، و(**الهَجَريِّين**) في شَمال شَرقها. ومملكة **هَجَر**، أو ممالك **هَجَر**، ممالِك قديمة منذ ما قبل الميلاد، ومنها مملكة (**الجرهاء**)، التي سيشير (**سترابو**) إليها لاحقًا. وقد وردَ اسم «**هَجَر**» منقوشًا على بعض العملات التي تعود إلى ما قبل الميلاد بقرنَين. (See: Sayles, Wayne G., **Ancient Coin Collecting** VI: Non-Classical Cultures, 175).

[٢] إشارة إلى امتداد الجانب الجَنوبي من (**المحيط الأطلسي**)، المسمَّى حاليًّا (**بحر العَرَب**).

[٣] Gedrosia. ولعلَّه يقصد صحراء (**جدروسيا**) في (**بلوخستان**)، جَنوب غَربي (**الباكستان**).

[٤] الراجح أنه يشير بالأنهار إلى الوديان الكبيرة.

بخاصَّة، بأماكن لإنتاج العسل. وباستثناء (**الخَيْل**) و(**البغال**) و(**الخنازير**)، فإنَّ فيها وفرةً من الحيوانات المستأنسة. وفي ما عدا (**الإِوَزِّ**) و(**الدَّجاج**)، تحفل تلك المنطقة بجميع أنواع الطيور.[١]

وتشغل الجزءَ الأعظمَ من البلاد المذكورة أعلاه المجموعاتُ القَبَلِيَّةُ الأربعُ الكُبرى، وهي: (**المعينيُّون**) على الجانب المواجِه لـ(**البحر الأحمر**)، وأكبر مدنهم (**قرناء أو قرنانة**)[٢]، ويلي هٰؤلاء (**السبئيُّون**)، وعاصمتهم مدينة (**مأرِب**)[٣]، وثالث تلك القبائل (**القتبانيُّون**)، الذين تنحدِر أراضيهم إلى المضيق والممرِّ الذي يَعْبُر (**الخليج العربي**)[٤]، وقاعدة مُلكهم (**تمناء**)[٥]، ثمَّ بَعدهم نحو الشَّرق (**الحضرميُّون**)[٦]، ومدينتهم [العاصمة]: (**شَبْوَة**)[٧].

---

(١) استعمل (**سترابو**) في هٰذه الجُملة والتي قبلها عبارة «with the exception of...». وكأنه يقصد أن الحيوانات والطيور المذكورة مستثناة من ضرورة الإشارة إليها؛ لوجودها الطبيعي في تلك المنطقة، لا أنها مستثناة من الوجود فيها.

(٢) Carna or Carnana. والمقصود مدينه (**قرناء**، أو **قرنا**، أو **قرناو**، أو **قرنوس** أو **القرن**)، عاصمة مملكة (**مَعِين**)، بمحافظة (**الجَوف**) اليَمَنيَّة، شَرق شَمالي (**صنعاء**). وكان حُكم (**المعينِيِّين**) يمتدُّ إلى أماكن في (**الحِجاز**)، مثل (**يثرب**)، و(**فَدَك**)، و(**العُلا**). ومن هٰذا نفهم قول (**سترابو**) إن **المعينيِّين** يستوطنون على الجانب المواجه لـ(**البحر الأحمر**).

(٣) شَرقي (**صنعاء**).

(٤) يبدو أنه يشير بـ«**المضيق**» إلى (**مضيق باب المندب**). وسبق التنبيه إلى أنه يشير بـ(**الخليج العربي**) أحيانًا إلى (**البحر الأحمر**).

(٥) Tamna. شَرق جَنوبي (**صنعاء**).

(٦) Chatramotitae.

(٧) Sabata. ووردَ تعليقٌ على النصِّ بالإنجليزيَّة يشير إلى أنها تُنطَق أيضًا: «Sabattha»، وأنها تُسمَّى الآن: «Sawa».

وتُحْكَم كُلُّ تلك المدن من قِبَل مُلوك، وتَنعم بالازدهار، مُزَخرَفةً بشكلٍ جميل، بمعابدها وقصورها الملكيَّة كليهما. ومنازلها هي كتلك التي يبنيها المِصْريُّون، من حيث الطِّراز الذي تُدمَج فيه العوارض الخشبيَّة بعضها مع بعض. وتُغطِّي الولايات الأربع مساحةً أوسع من دلتا (**مِصْر**).

ولا يُتَوَّج فيهم ابنُ المَلِك على عرش أبيه، بل ابنُ رجلٍ من الأعيان صادفَ أنْ كان أوَّلَ المولودين بعد تسلُّم مَلِكُهم مقاليد الحُكْم. لأجل هٰذا فإنهم، فور جلوس مَلِكِهم على العرش، يعملون على تسجيل الحوامل من نساء السادة في قومهم، ويجعلون عليهنَّ الرُّقَباء؛ وبحُكم القانون، يجري تبنِّي ابن المرأة المولود أوَّلًا وتربيته تربيةً مَلَكيَّة بوصفه الخليفة على عرش المملكة مستقبلًا.

تُنتِج مملكة (**قتبان**): (**اللُّبانَ**)، وتُنتج (**حضرموت**): (**المُـرَّ**). وتُستعمَل هاتان السلعتان، مع أنواع المنتجات العِطريَّة الأخرى، في المقايضات التجاريَّة. ويَصِل الناسُ إلى هناك من (**أَيْلَة**)[1] في سبعين يومًا. و**أَيْلَة**: مدينةٌ على الخَوْر[2] الآخَر من (**الخليج العربي**) [=**البحر الأحمر**]. ويُسمَّى الغَوْرُ القريبُ من (**غَزَّة**): بلاد (**الأَيْـلانيِّين**)). لٰكنَّ (**الجرهائيِّين**)[3] يَصِلون إلى (**حضرموت**) في أربعين يومًا.

---

(1) الميناء المحتلُّ من قِبَل الكيان الإسرائيلي اليوم، جَنوبي (**فِلسطين**)، على (**خليج العَقَبَة**).

(2) recess. فجوةٌ من الأرض. وأنسب مقابل له في العربيَّة كلمة: الخَوْر، وهو عُنُقٌ من البحر داخلٌ في الأرض، مثل الغَوْر. وهو كذٰلك: المنخفضُ المُطْمَئِنُّ بين نَشْزَيْن من الأرض. يُجمع على: خُؤُورٌ. (انظر: الأزهري، (خار)). وقَصَدَ به (**خليج العَقَبَة**) نفسه.

(3) نسبة إلى (**الجرهاء**)، وهي مملكةٌ مفقودة، كان لها نشاطٌ تجاريٌّ خلال القرن الثالث قبل الميلاد وما تلاه، في الهلال الخليجي العربي، بين (**الخليج**) و(**اليَمَن**) من جهة و**الخليج** و(**العِراق**) من جهة أخرى. وتقع **الجرهاء**
←

ويقال هنا إنه كان ثَمَّة نُصبٌ تذكاريٌّ للفِرعون المِصْري (**سيزوستريس**)[1]، مسجَّل عليه بالهيروغليفيَّة مروره عَبر (**الخليج العربي**) [=**البحر الأحمر**]؛ إعلانًا بأنه أوَّل رجلٍ أخضع البلدان الأثيوبيَّة و(**سَكَنة الكهوف**)[2]، ثُمَّ عَبَرَ إلى (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**)، ومن ثَمَّ غزا (**آسيا**) كلَّها. ووفقًا لهٰذه الرواية، وللسبب المذكور، عُرِفت مِسَلَّات[3] **سيزوستريس**، كما يسمُّونها، في أماكن عديدة، وكذا نماذج من معابد الآلهة المِصْريَّة.[4]

-٣-

هٰذه، إذن، رواية (**إراتوستينس**) حول بلاد العَرَب. غير أن عليَّ أن أضيف روايات الكُتَّاب الآخَرين أيضًا:

يقول (**آرتميدوروس**)[5]: إن النتوء على الجانب العربي [من **البحر الأحمر**]،

في شَرق (**السُّعوديَّة**)، ما بين (**شاطئ نصف القمر**) و(**ميناء العقير**). وقد وصف (**سترابو**) **الجرهاء** في كتابه (v. 7, Book 16, Chap. 3: 3). و(انظر أيضًا: الغامدي، سلطان، **مدينة الجرهاء وعلاقاتها الخارجيَّة**؛ الزَّهراني، عوض، **ثاج ومملكة الجرهاء** (طُرق التجارة القديمة)، ص ص٣٧٦- ٣٨١).

(١) هو: (**سيزوستريس** أو **سنوسرت الأوَّل**، - ١٩٢٦ق.م).

(٢) Troglodytes.

(٣) palisades. ومن معانيها: الأوتاد القويَّة المستدِقَّة، التي قد تُشكِّل سَدًّا أو سياجًا أو تحصينًا. ونُرَجِّح أنه يُشير إلى مِسَلَّات الفراعنة. ولعلَّها هي المشار إليها في «**القرآن**» بـ«**الأوتاد**»: ﴿**وفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد**﴾. وكأنَّ تسمية تلك المِسَلَّات بالأوتاد (palisades) كان المصطلح المستعمل في تلك العصور لدَى العَرَب وغيرهم.

(٤) تخطَّيت، قبل هذه الفقرة وبعدها، ترجمةَ تفصيل جغرافي وردَ على صفحتي الكتاب: (7: 314- 315) حول بعض المسافات التقديريَّة على الجانب الأفريقي من (**البحر الأحمر**) وحول بعض الجُزر الأفريقيَّة؛ لأنه خارج الاهتمام بشأن بلاد العَرَب.

(٥) Artemidorus. وبالإغريقيَّة: Ἀρτεμίδωρος. عرَّافٌ إغريقيٌّ ومفسِّر أحلام، عاش في القرن الثاني قبل الميلاد. عُرِف بمؤلَّف من خمسة مجلَّدات، تحت عنوان «**تفسير الأحلام**». (انظر: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/CsXXn9).

مقابل (**ديرة**)[1]، يُسمَّى (**عقيلان**)[2]؛ وإن الذُّكور في منطقة **ديرة** **يُختنون**.[3]

وبعد أن أَوْرَدَ (**آرتميدوروس**) ما أوردَ عن (**سَكَنة الكهوف**) و(**الإثيوبيِّين**) المجاورين، يعود إلى العَرَب؛ ويبدأ، أوَّلًا، من (**بوصيدون**)[4]، فيصف العَرَب المحادِّين على (**الخليج العربي**) [=**البحر الأحمر**]، الذين يعيشون في مقابل **سَكَنة الكهوف**. فيقول: إن **بوصيدون** تقع في مكانٍ ناءٍ من (**خليج أَيْلَة**)[5]؛ وهناك في المكان المتاخم **لبوصيدون** غَيْضَةٌ من (**النخيل**)، يجري تزويدها جيِّدًا بالمياه، وهي ذاتُ مكانةٍ مميَّزةٍ لأن جميع أنحاء البلاد حواليها شديدة الحرارة شحيحة المياه والظِّلال؛ ولذا يُعَدُّ وجود أرضٍ خِصبةٍ ذات **نخيلٍ** في مثل هٰذا المكان أمرًا رائعًا. ويُعيَّن عادةً رجلٌ وامرأةٌ للاهتمام بمزرعة **النخيل**، وتُصبِح هٰذه المهمَّة حقًّا متوارثًا. والناس هناك يَرْتَدُوْنَ الجلود، ويقتاتون على التمور من **النخيل**، ولٰكن

---

[1] Deire. وبالإغريقيَّة: Δειρή. بلدة على الشاطئ الأفريقي المقابل لمضيق (**باب المندب**).

[2] Acila. وبالإغريقيَّة: Ακίλαν. وكأن الاسم: «**عقيلان**»، لٰكنِّي لم أتبيَّن المقصود بهٰذا المكان.

[3] تخطَّيت بعد هذه الفقرة ترجمةَ تفصيلات كثيرة حول بعض الديار الأفريقيَّة، وهي على صفحات الكتاب: (7: 315- 341).

[4] بالإغريقيَّة (Ποσείδιον)، وتُرجِم إلى الإنجليزيَّة: (Poseidium)، في حين يُنطَق بالإغريقيَّة: «**بوسيدون**». ولعلَّ للاسم علاقة بـ(**بوصيدون** Ποσειδών)، إلٰه البحر في الميثولوجيا الإغريقيَّة. و(**بوصيدون** Poseidium) المشار إليها تقع جَنوب شَرقي ما يُعرف اليوم بـ(**أبي زنيمة**)، على (**خليج السُّوَيْس**) شَرقًا. (See: Strabo, (v. 8), Map XIV).

[5] Aelanites Gulf. نسبة إلى (**أَيْلَة** Aelana أو Aila)، الميناء المحتل، جَنوب (**فِلسطين**)، على (**خليج العَقَبَة**). **فخليج أَيْلَة** إشارة إلى **خليج العقبة**. لٰكن لعلَّه يقصد (**خليج السُّوَيْس**)؛ لأن (**بوصيدون** Poseidium) تقع جَنوب شَرقي (**أبي زنيمة**)، على **خليج السُّوَيْس** شَرقًا، كما مرَّ في الحاشية السابقة. ومهما يكن، فكلام المؤلِّف هاهنا هو حول أماكن في (**شِبْه جزيرة سيناء**).

بسبب الحيوانات البريَّة الكثيرة، فإنَّهم يبتنون أكواخًا بين الأشجار ينامون فيها.

ثمَّ ينتقل (**آرتميدوروس**) إلى (**جزيرة الفقمات**)[١]، التي سُمِّيت بهٰذا الاسم لكثرة **الفقمات** هناك. وبالقرب من الجزيرة يقع النتوء الخليجي[٢] الذي يمتدُّ إلى صخرة العَرَب النبطـيِّين[٣]، كما يُطلَق عليهم، وصولًا إلى بلاد (**فِلسطين**)[٤]، وإلى هناك ينقل (**المعينيُّون**) و(**الجرهائيُّون**) وجميعُ الشعوب المجاورة حُمُولاتهم من البضائع العِطريَّة.

ثمَّ يأتي المرء إلى ساحلٍ آخَر، كان يُسمَّى سابقًا ساحل (**المَرانتيِّين**)[٥]- بعضهم من المزارعين وآخَرون من سُكَّان خيام- لٰكنه الآن يُسمَّى «**ساحل الغَرَنديِّين**»[٦]، الذيين قَضَوا على **المَرانتيِّين** غدرًا؛ إذ هاجموهم في أثناء احتفالهم في أحد المهرجانات، كعادتهم كل أربع سنوات، ولم يكتفوا بإبادة جميع الحاضرين في المهرجان، بل اجتاحوا أيضًا بقية القبيلة وأبادوها.

ثمَّ إلى (**خليج أَيْلَة**)[٧]، وإلى (**بلاد النبطيِّين**)، وهي بلادٌ عامرةٌ بالسكان وذات مراعٍ جيِّدة. وقد كان (**النبطيُّون**) يسكنون أيضًا في الجُزر الواقعة قُبالة

---

(١) Phocae.

(٢) يبدو أنه يشير بـ«**النتوء الخليجي**» إلى ما يُعرف اليوم بـ(**رأس محمَّد**)، جَنوب (**سيناء**)، على بعد ١٢ كيلًا جَنوب (**شَرْم الشَّيخ**)، ويمتدُّ من لَدُنْه (**خليجُ العقبة**) إلى الأماكن التي ذكرها.

(٣) يقصد بصخرة العَرَب النبطيِّين: (**البتراء**).

(٤) وهنا لم يَذكر لـ(**بني إسرائيل**) بلادًا ولا وجودًا.

(٥) Maranitae. بالإغريقيَّة: Μαρανιτῶν.

(٦) Garindaeans. بالإغريقيَّة: Γαρίνδαίων.

(٧) يعني (**خليج العقبة**)، كما سبقت إلى هٰذا الإشارة.

الساحل بالقُرب من هٰذه المنطقة، وكان هٰؤلاء **النبطيُّون** يعيشون حياةً سِلميَّة، لٰكنَّهم في وقتٍ لاحقٍ عَمَدوا إلى نهب سُفن بحَّارةٍ من (**مِصْر**)، باستعمال الطوَّافات. ومِن ثَمَّ باءُوا بعاقبة عدوانهم إذ اقتحمهم أسطولٌ مِصْريٌّ فانتهب بلادهم.

ثمَّ يَصِل المرء إلى سهلٍ ذي شجرٍ كثيفٍ ومياهٍ وفيرة، مليءٍ بجميع أنواع الحيوانات الأليفة، من (**البغال**) وغيرها، كما يعجُّ بالعديد من (**الإبل**) البَريَّة الغليظة[١]، و(**الأيائل**)، و(**الغزلان**)، وكذا العديد من (**الأسود**)، و(**الفُهود**)، و(**الذئاب**)[٢].

وقُبالة هٰذا السهل تقع جزيرة تُسمَّى (**ضياء**)[٣]. ثمَّ يأتي المرء إلى خليجٍ طوله نحو خمس مئة مرحلة[٤]، محاطٍ من جميع الجهات بالجبال، له مَنْفَذٌ يصعب دُخوله، وحوله قومٌ يعيشون على صيد الحيوانات البريَّة. ثمَّ نصل إلى ثلاث جُزر غير مأهولة، مليئة بأشجار (**الزيتون**)، وليس هٰذا النوع من الزيتون معروفًا في بلادنا، لٰكنه نوعٌ محلِّي، يُسَمَّى «**الحَبَشِي**»[٥]، ولنسغه تأثيرٌ طبِّي.

---

(١) Wild camels.

(٢) وردَ تعليقٌ على النصِّ الإنجليزي- المعتمد في هٰذه الترجمة- ذاهبًا إلى أنه ربما كان المقصود (**بنات آوَى** Jackals). ولا وجه لاستبعاده أن المقصود: (**الذِّئاب**). وكلمة **الذِّئاب** هي المقابل العربي للكلمة اليونانيَّة المستعملة لدى (**سترابو**): λύκοι.

(٣) Dia. بالإغريقيَّة: Δία. ويُثير هٰذا الاسم التساؤل عن صحَّته، أ هو «**ضياء**» أم «**ضبا**»؟ وضُباء- وقد يُقصَر- محافظةٌ معروفةٌ على ساحل (**البحر الأحمر**)، ذات ميناء، تتبع اليومَ منطقة (**تبوك**).

(٤) stadia: وحدة قياس للمسافات إغريقيَّة رومانيَّة، سبق القول إنها تُقدَّر بنحو ١٨٥ مترًا.

(٥) Aethiopic.

وبعد ذٰلك نأتي، بالتتالي، إلى: شاطئٍ صَخْريٍّ، ومِن ثَمَّ إلى امتداد ساحلٍ في نحو ألف مرحلة طولًا، وهو وَعِرٌ عَسيرٌ على مرور السفن، لعدم وجود المرافئ والمراسي؛ لأن جبلًا وَعِرًا شامخًا يمتدُّ بطوله، ثمَّ يصل المرء إلى سفح تلال صخريَّة ممتدَّة إلى البحر. وهٰذه تشكِّل، ولا سيما في موسم الرياح الشَّماليَّة السنويَّة الجافَّة[1] والأمطار، خطورةً على البحَّارة لا يمكن تحاشيها.

يلي ذٰلك خليجٌ وجُزر منتشرة، وتمتدُّ مع الخليج ثلاثُ ضِفافٍ عاليةٍ جدًّا من الرِّمال السوداء.[2] وبعد هٰذا نَجِد ميناء (**شَرْم يَنْبُـع**)[3]، ويبلغ محيطه قرابة مئة مرحلة، وهو ذو مدخلٍ ضيِّقٍ وخطيرٍ على جميع أنواع القوارب. ويتدفَّق إليه نهرٌ، وثَمَّةَ جزيرةٌ في المنتصف جيِّدة التشجير صالحة للفلاحة.

---

(١) Etesian winds. وهي رياح شَماليَّة عاصفة جافَّة تهبُّ من تِلقاء (**بحر إيجة**)، من منتصف شهر مايو إلى منتصف سبتمبر.

(٢) ذهب (**فالكونر** Falconer) في تعليقه على ترجمته إلى أن المقصود بهذه المرتفعات الثلاثة جبالٌ سمَّاها: «Gibel Seik, Gibel el Hawene, and Gibel Hester». (See: Strabo, **Geography**, Hamilton & Falconer, 3: 205). غير أنه يُعترَض على هٰذا بأمور: أوَّلها، أن المؤلِّف لم يذكر جبالًا هاهنا، بل تِلالًا، أو إكامًا «mounds»، في بعض الترجمات، أو ضِفافًا «banks»، في ترجمات أخرى. وثانيها، أنه إذا كان **فالكونر** يقصد بالجبل الأوَّل (**جبل الشَّيْخ**)، الواقع بين (**سُوريَّة**) و(**لبنان**)، فشتَّان بين هٰذا المكان وشَمال (**الحِجاز**)، حيث يتحدَّث (**سترابو**)؛ إذ يذكر أماكن في (**يَنْبُـع البحر**) وما جاوره. أمَّا (**جبل الهاون** Gibel el Hawene)، فلا نعرف مكانًا بهٰذا الاسم إلَّا في (**اليَمَن**). ولا ندري ماذا قصد بالثالث (Gibel Hester)؟ ويبدو أن المترجِم يخلط بين الأماكن المقصودة في شَمال **الحِجاز** وأماكن في **اليَمَن**؛ لتخيُّله أن **سترابو** يتحدَّث عن **اليَمَن** في كلِّ هٰذا الموضوع!

(٣) Charmothas. ويُشار بهٰذا الاسم، أو Charmuthas، لدَى الجغرافيِّين القدماء إلى (**يَنْبُـع**)، الميناء المعروف على (**البحر الأحمر**)، على مسافة ٣٠٠ كيلٍ تقريبًا شَمال (**جُدَّة**). وما زالت هٰذه التسمية مستعملة اليوم للإشارة إلى (**شَرْم يَنْبُـع**) الواقع إلى الشَّمال من مدينة (**يَنْبُـع البحر**).

ثمَّ نَصِل إلى امتدادٍ ساحليٍّ وَعِر، وبعده إلى بعض الخُلجان، وإلى بلدةٍ لِبَدْوٍ يعتمِدون في حياتهم على (**الإبِل**)؛ فهم يَشُنُّون حروبهم على ظهورها، ويسافرون عليها، ويعيشون على حليبها ولحمها. ويتدفَّق نهرٌ خلال ديارهم جالبًا معه التِّبْرَ، غير أن السُّكَّان لا يُحسِنون صناعته. ويُدعَى هٰؤلاء القوم (**ذُبيان**)[1]؛ بعضهم بَدْوٌ وآخَرون مزارعون. ولن أذكر معظم أسماء القبائل لعدم أهميَّتها، وفي الوقت نفسه لغرابة ألفاظها.

وإلى جِوار (**ذُبيان**) المذكورين قومٌ أكثر منهم تحضُّرًا؛ والبلاد التي يعيشون فيها أكثر اعتدالًا في المناخ؛ لأنها ذات مياهٍ وفيرةٍ وأمطارٍ غزيرة. وفي ديارهم مناجم للذهب، على أن ذهبهم ليس مجرَّد تِبْر، بل يتمثَّل في كُتَلٍ من الذهب الخام، لا تتطلَّب الكثير من التنقية. أصغرها بحجم النَّواة، والمتوسِّطة بحجم حبَّة

---

[1] سمَّاهم: Debae. بالإغريقيَّة: Δέβαι. ولعلَّ الاسم «**ذُبيان**»، أو قريب من هٰذا الاسم. وقبيلة **ذُبيان** المشهورة من قاطني تلك الأنحاء التي يصفها (**سترابو**)، إلى شَمال (**مَكَّة**). وزَعَمَ بعض الشُّرَّاح أن الاسم تصحيفٌ من (**زَبِيْد** Zebeyde). (See: Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/63tGx7). ولٰكن أين **زَبِيْد** من المكان الموصوف؟**!** اللافت في وصف الجغرافيِّين القدماء لهٰذه القبيلة العَرَبيَّة- وهو ما تخطَّى ذِكره (**سترابو**)- ذِكرُهم أنها كانت لها علاقة بـ(**الإغريق**)؛ ولذٰلك كانوا يخصُّون الغرباء من **الإغريق** بالضيافة والإكرام، بناء على أُسطورةٍ متوارثةٍ تُشير إلى صداقةٍ لتلك القبيلة بـ(**هِرَقل** Heracles). (See**: Diodorus of Sicily**, Book III. 45. 5-8). ولا غرو، فإنَّ الآثار الباقية في (**شِبه الجزيرة العَرَبيَّة**) تدلُّ على علاقات كانت للعَرَب **بالإغريق** وغيرهم من الأُمم. ومن ذٰلك ما عُثِر عليه من تماثيل في (**قرية الفاو**)، منها: تمثال **لهِرَقل**، وغيره. بل لقد قيل إن مستوطنات يونانيَّة كانت قد قامت على سواحل (**البحر الأحمر**) و(**بحر العَرَب**) و(**الخليج العربي**). (يُنظر: الفَيْفي، عبدالله بن أحمد، **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة**، ٩٦).

المشملة[١]، والكُبرَى بحجم الجَوزة. وهم يجعلون تلك الأحجار الذهبيَّة عقودًا؛ فيثقبونها ويَنظِمونها في خُيُوطٍ بالتناوب مع أحجار شفَّافة؛ ليتقلَّدوا بها على أعناقهم ويتَّخذوها على معاصمهم. كما يبيعون الذهب بأسعارٍ رخيصةٍ للشُّعوب المجاورة؛ فيعطونه مقابل ثلاثة أضعاف الكميَّة من النحاس، وبضِعف الكميَّة من الفِضَّة؛ بسبب افتقارهم إلى الخبرة في صناعة الذهب من جهة، ومن جهةٍ أخرى لأن المواد التي يبيعون بها نادرة لديهم، وهي أكثر أهميَّة لضرورات حياتهم.[٢]

ويُحادُّ هٰؤلاء الناس تلك البلادُ الخِصبةُ جِدًّا لـ(**السبئيِّين**)[٣]. و**السبئيُّون** مجموعة قَبَليَّة كبيرة جِدًّا، وتُنتِج بلادهم (**اللُّبان**) و(**المُـرُّ**) و(**القِرفة**)، وعلى الساحل يُوجَد (**البلسم**)، ويُعَدُّ أيضًا من الأعشاب العِطريَّة ذات الرائحة الزكيَّة

---

[١] medlar. ثمرة نبتة (**المشملة**، أو **البشملة**)، وهي من فصيلة الورديَّات، ثمرتها صغيرة بيضاويَّة الشكل صفراء اللون.

[٢] ما ذكره (**سترابو**) عن الذهب في تلك المنطقة معروف إلى الآن. ومشهورةٌ محافظة (**مَهْد الذَّهب**) هناك، وكانت تُعرف قديمًا بـ(**مَعْدِن بني سُلَيْم**). تابعة اليوم لمنطقة (**المدينة المنوَّرة**)، على بُعد ١٧٠ كيلًا تقريبًا، جَنوب شَرقي **المدينة**. فضلًا عن (**مَعْدِن النَّقْرَة** أو **النَّقْرَتان**)، غَرب منطقة (**القصيم**)، الذي سيأتي الحديث عنه لاحقًا، في الكلام عمَّا فُهِم على أنه (**نجران**).

[٣] ما يتبادر إلى الذِّهن، وَفق التصوُّر النمطي المعاصر لـ(**اليَمَن**)، أن (**سَبَأ**) كانت وراء الحدود السياسيَّة لدولة **اليَمَن** المعاصرة. في حين أن **سَبَأ** كانت تتوغل شَمالًا في نفوذها، بين مَدٍّ وجَزْر، وربما وصلت إلى أطراف (**الحِجاز**). وقد رأينا في إشارةٍ سالفةٍ أن بعض آثار (**المعينيِّين**) وُجِدت متناثرةً في بعض أجزاء **الحِجاز** الشَّماليَّة، في (**يثرب**) وما جاورها، وأن (**مَعِيْن**) كانت في بعض أطوارها جزءًا من اتحادٍ فيدراليٍّ مع **سَبَأ** تحت اسمِ مملكةٍ واحدة. ولذا ليس بمستغرب أن يذكر المؤلِّف هنا محادَّة القبيلة التي وصفها لبلاد (**السبئيِّين**).

النفَّاذة، التي سرعان ما يتلاشَى عِطرها. وهناك كذٰلك أشجار (**الكاذي**)[١] الشذيَّة العَرْف، وقَصَب (**الذَّريرة**)[٢]. وفي تلك الدِّيار نوعٌ من (**الثعابين**) طول أحدها شِبر، حمراء داكنة في اللون، يمكن أن تقفز كـ(**الأرانب البريَّة**)، وتُلحِق من اللدغات ما لا ينجو منه لديغ.[٣]

وبسبب رخاء العيش هناك ووفرة المُتَع فإن الناس يتَّصفون بالخمول، رافلين في ألوان حياتهم الناعمة. على أن معظم الناس من عامَّة الشَّعب ينامون على جذور الأشجار التي اجتثُّوها من الأرض.[٤]

وما يبرح أولٰئك الذين يعيشون في قُراهم المتجاورة يتلقَّون الأحمال من

---

(١) sweet-smelling palms. وليس ثَمَّة (**نَخْل**) بهٰذه الصِّفَة، وإنَّما يقصد شجر (**الكاذي**)، ومَن لا يعرف **الكاذي** يظنه **نَخْلًا**، لشبه شجرته **بالنَّخْل**. أمَّا **الكادي**: (بالدال المهملة)، فتحريفٌ لهجيٌّ حِجازيٌّ حديثٌ في نُطق الذال دالًا. ويزعم الناس أن طَلْعَ **الكاذي** لا يظهر إلَّا من «**البَرَّاق**» في ليالي البَرَّاق. والبَرَّاق في لهجات (**فَيْفاء**) لمع البَرْق الذي يُرَى ليلًا. وهٰذا قولٌ قديمٌ حول ظهور طَلْع **الكاذي** من البَرْق، أورده (ابن المجاور، ٨١).

(٢) reeds. ولعلَّه يعني (**قَصَب الذَّريرة**)، ويُسمَّى أيضًا (**عُود الوَجّ**). وهو قَصَبٌ عِطريٌّ، و**الذَّريرة**: ما انْتُحِتَ منه أو اتُّخِذ من فُتَاته. ذٰلك أنه إذا كُسِرت فروعه، ظهر منه ذَرورٌ أبيض هو **الذَّريرة**. (انظر: ابن منظور، (ذرر)؛ موقع «**دُنيتي**» على «الإنترنت»: https://goo.gl/xFgy3N).

(٣) لا أعرف نوعًا من الحيَّات بهذه الصفات. غير أنه يُعرَف في (**فَيْفاء**) ضربٌ من الحيَّات قصير، يُسمَّى (**ثِقَّة**)، ربما كان المقصودَ أو قريبًا منه.

(٤) وردَ تعليقٌ هنا على ترجمة النصِّ الإغريقي إلى الإنجليزيَّة، جاء فيه: أن هٰذا النوع من الأَسِرَّة غريبٌ حقًّا، إذا ما كان النصُّ الإغريقي صحيحًا! مذكِّرًا بما أورده (**سترابو**) مِن قَبل مِن أن العَرَب «**بسبب الحيوانات البريَّة الكثيرة، فإنَّهم يبتنون أكواخًا بين الأشجار ينامون فيها.**» غير أن المعلِّق غَفَل عن سياق الكلام في الموضِعَين، فالأوَّل كان في وصف أعراب الصحراء في شَمال (**الجزيرة العربيَّة**)، والآخَر عن (**مملكة سَبَأ**). وهٰؤلاء الذين ذكرَ أنهم ينامون على جذور الأشجار بعد قلعها هم من الطبقة الدُّنيا في المجتمع السَّبَئي، ولعلَّهم من الأيدي العاملة التي تشتغل على استخلاص أنواع الأطياب والتوابل من أشجارها.

الموادِّ العِطريَّة ليحملوها بدورهم إلى جيرانهم التالين، وصولًا إلى (**سُوريَّة**) و(**بلاد الرافدَين**). وعندما يصابون بالنعاس من الروائح العِطريَّة يعمدون إلى التغلُّب على ذٰلك باستنشاق رائحة (**القَطران**) ونبتة (**لحية التيس**).

تقع مدينة (**السبئيِّين**)، (**مأرب**)، على جبلٍ ذي غابةٍ كثيفة. ولها مَلِكٌ ذو سُلْطَة للحُكم في الدَّعاوَى القضائيَّة وكلِّ أمرٍ آخَر، غير أنه محظورٌ عليه مغادرة القصر، وإنْ هو فعل، فإنه يَحِقُّ للرعاع، وفقًا لبعض الآراء الكهنوتيَّة، أن يرجموه بالحجارة حتى يموت في مكانه.

يعيش المَلِك وحاشيته في ترفٍ مخمليٍّ أُنثويِّ النعومة[1]، فيما ينخرط جانبٌ من جماهير الشَّعب في الزراعة، وجانبٌ آخَر في تجارة العطور، سواء الأنواع المحليَّة منها أو الواردة من (**إثيوبيا**). وللحصول على هٰذا الصنف الأخير، يُبْحِرون عبر مضيق [**باب المندب**] في قوارب جِلديَّة. وهٰذه المواد العِطريَّة هي من الوفرة لديهم بحيث إنهم ربما استخدموا (**القِرْفَة**) و(**السليخة**)[2] وغيرهما بدلًا من العُصِيِّ وحطب النار. وفي بلاد (**السبئيِّين**) يُوجد (**اللُّبان**)[3] أيضًا، وهو من أزكَى أنواع البخور عبيرًا.

وقد أصبح (**السبئيُّون**) و(**الجرهائيُّون**) كلاهما أغنى الشعوب قاطبةً من تجاراتهم المذكورة، فلديهم مُعدَّات واسعة مصنوعة من مَعْدِنَي الذهب والفِضَّة

(١) effeminate luxury.

(٢) cassia. وتُسمَّى كذٰلك (**القِرْفَة الصِّينيَّة**).

(٣) larimnum. بالإغريقيَّة: λάριμνον.

معًا، مثل الأرائك، والمراجل ثلاثيَّة القوائم[١]، والأوعية، إلى جانب آنية الشَّراب، والمنازل الباذخة التكاليف؛ حيث إن أبوابها منقوشة بالعاج والذهب والفِضَّة المرصَّع بالأحجار الكريمة، وكذٰلك جُدرانها وسقوفها.

-٤-

هٰذه رواية (**آرتميدوروس**) حول تلك الشُّعوب، ولٰكن بقيَّة ما أورده يُشبِه إلى حدٍّ ما تلك الروايات التي ساقها (**إراتوستينس**)[٢]، كما نُقِلت جزئيًّا عن مؤرِّخين آخَرين. فعلى سبيل المثال، يقول:

إن بعض الكُتَّاب يُعلِّلون تسمية (**البحر الأحمر**)[٣] بهٰذا الاسم بسبب اللَّون الذي يَصدر عنه نتيجةً: إمَّا لانعكاس أشعة الشمس عندما تكون في أوج سطوعها، وإمَّا لانعكاس لون الجبال المجاورة التي تحمرُّ من حرارة الشمس الحارقة؛ لأن الحدس- كما يُضيف- يُرشِّح وجهتَي التعليل هاتين كلتيهما. غير أن (**كتِسياس الكنيدي**)[٤] يُقرِّر أن ينبوعًا، مزيجًا من المياه الحمراء ولون (**المَغْرَة**)[٥]،

(١) tripods.

(٢) سبق التعريف به.

(٣) Erythra. وهو اسم يُطلَق في كتب الجغرافيا القديمة على (**البحر الأحمر**)، ويأتي أيضًا بصيغة « The Erythraean Sea»؛ لمحاذاته أرض (**إريتيريا**)، وقد تشمل التسمية امتدادات مياهه إلى (**بحر العَرَب**) و(**الخليج العربي**) و(**المحيط الهندي**). سبقت الإشارة إلى هٰذا.

(٤) Ctesias the Cnidian. بالإغريقيَّة: Κτησίας. طبيبٌ ومؤرخٌ إغريقيٌّ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. (انظر: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/CX1yDG).

(٥) ochre. والمَغَرَة أو المَغْرَة: طِينٌ أَحمر، كان الناس قديمًا يصبغون به الثياب. (انظر: ابن منظور، (مغر)).

يُفرِغ مياهه في البحر. أمَّا (**أغاثارسيدس**)[1]، وهو من بلد **كتِسياس**، فينقل عن مصدرٍ معيَّن، هو رجلٌ فارسيٌّ اسمه (**بوكسوس**)، أنه حدث ذات يومٍ أن طردتْ (**لَبُؤَةٌ**) مسعورة، كالبحر هياجًا، قطيعًا من (**الخَيْل**) من بلاد (**فارس**)، ومن ثَمَّ عَبَرَ القطيع إلى جزيرةٍ معيَّنة، ثُمَّ أن رجُلًا فارسيًّا، اسمه (**إريتراس**)، صنع عبَّارةً للمياه، فكان أوَّل رجلٍ عَبَرَ إلى تلك الجزيرة. وأنه عندما رأى الجزيرة صالحة بصورة جميلة للاستيطان، طَرَدَ قطيع **الخَيْل** منها ليُعيده إلى بلاد (**فارس**)، ثُمَّ أخذ يبعث طلائع المستعمرين إلى تلك الجزيرة وإلى الجُزر الأخرى وإلى ساحل البحر، فكان ذٰلك سببًا لتسمية البحر على اسمه: [**البحر الإريتيري**]. ولٰكنَّ كُتَّابًا آخَرين، كما يقول، صرَّحوا بأن **إريتراس** كان ابن (**بيرسيوس**)، وأنه هيمن بحُكمه على هٰذه المنطقة.

-٥-

ويذهب بعض الكُتَّاب إلى أن المسافة من مضيق (**الخليج العربي**) إلى أقصى حدود بلاد (**القِرْفَة**) هي خمسة آلاف مرحلة، دون أن يحدِّدوا بوضوح ما إذا كانوا يقصدون إلى الجَنوب أو نحو الشَّرق.[2]

---

[1] Agatharcides. بالإغريقيَّة: Ἀγαθαρχίδης. مؤرِّخٌ، وجغرافيٌّ إغريقيٌّ، عُرِف في القرن الثاني قبل الميلادي. (انظر: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/u6t8us).

[2] لا ننسَى هنا أن مصطلح (**الخليج العربي**) كان يُشار به قديمًا إلى (**البحر الأحمر**). والمضيق المشار إليه هو (**مضيق باب المندب**). وقد سبق القول إن المرحلة (stadia): وحدة قياس للمسافات، إغريقيَّة رومانيَّة، تُقدَّر بنحو ١٨٥ مترًا. وعليه فإن ٥٠٠٠ مرحلة تعادل ٩٢٥ كيلًا تقريبًا. وبالعودة إلى ما قَدَّره (**سترابو**) من قَبل حول طُول المسافة من القطاع الشَّمالي في (**جزيرة العَرَب**) إلى أقصى جَنوب **الجزيرة**، وذٰلك بنحو ٢٢٢٠ كيلًا، يتبيَّن أن مملكة (**سَبَأ**) كانت تمتدُّ إلى قُرابة ثُلث مساحة **الجزيرة**. أمَّا تساؤل **سترابو**: ما إذا كانت المسافة إلى الجَنوب «νότον» أو إلى الشَّرق؟ فيبدو فيه خطأ، إمَّا من المؤلِّف وإمَّا من ←

ويقال أيضًا: إن (**الزُّمُرُّد**) وأحجار (**البَرِيْل**)[(١)] وُجِدَا في مناجم (**الذَّهب**). وثَمَّةَ أيضًا في بلاد العَرَب نوعٌ شَذِيٌّ من الأملاح، كما يقول (**بوسيدونيوس**)[(٢)].

إنَّ أوَّل الأقوام الذين يَلُوْنَ (**سُوريَّة**) من ساكني (**البلاد العَرَبيَّة السعيدة**): (**الأنباط**)، ثمَّ (**السبئيُّون**). وكثيرًا ما اجتاحوا **سُوريَّة**، قبل أن تصبح خاضعةً لـ(**الرُّومان**)، لٰكنهم و(**السُّوريِّين**) الآن خاضعون معًا **للرُّومان**.

وعاصمة (**الأنباط**) هي (**البَتْراء**)، كما تُسمَّى؛ لأنها تقع على ساحةٍ سَلِسَةِ الأرض، على نحوٍ مائز، ومستوية، لٰكنَّها محصَّنةٌ بصخرةٍ من جميع النواحي. والأجزاء الخارجيَّة من الموقع في حالةٍ وعِرَةٍ وحادَّة التضاريس، أمَّا الأجزاء الداخليَّة منه فذات ينابيع وفيرة، تُستعمَل في الأغراض المنزليَّة وفي رَيِّ البساتين. وتقع خارجَ محيط الصخرة معظمُ المناطق الصحرائيَّة الإقليميَّة، ولاسيما تلك التي إلى جهة (**يهوذا**).[(٣)] ومن هنا أيضًا تمتدُّ أقصر الطُّرق المؤدِّية إلى (**أريحا**)[(٤)]، على مسيرة ثلاثة أيَّامٍ أو أربعة، وكذٰلك إلى غَيْضَة (**نخيلٍ**)، على مسيرة خمسة أيَّام.[(٥)]

يحكم (**البتراء**) دائمًا مَلِكٌ من العائلة المالكة هناك، لديه وزيرٌ واحدٌ من

الناقل، والصواب أن يكون التساؤل: ما إذا كانت المسافة من المضيق إلى الشَّمال أو إلى الشَّرق. وواضحٌ أن المسافة إلى الشَّمال لا إلى الشَّرق؛ لأن القياسات في هٰذه السياقات بين الشَّمال والجنوب، وبالعكس.

(١) beryl. نوعٌ من الأحجار الكريمة، ذو لونٍ أخضر غالبًا.

(٢) Poseidonius. بالإغريقيَّة: Ποσειδώνιος. مؤرِّخٌ وفيلسوفٌ يونانيٌّ. (-٥١ق.م). (انظر: موسوعة «**الويكيبيديا**»: https://goo.gl/d5QZSG).

(٣) هنا، إذن، كانت مَواطِن اليهود، لا في (**عسير**) أو غيرها، كما ادَّعَى (**الصَّليبي**).

(٤) Hiericus. وورَدَ تعليقٌ هنا على النصِّ المترجَم إلى الإنجليزيَّة يشير إلى أن المقصود: (**أريحا** Jericho).

(٥) راجع ما ذكره سابقًا حول هٰذا المكان المتاخم لـ(**بوصيدون**)، ذي الغَيْضَة من (**النَّخيل**).

رفاقه يتولَّى تصريف شؤون المملكة، يُدْعَى «**الأخ**».[1] **والبتراء** تُدار- على أيَّة حال- بطريقة جيِّدةٍ للغاية.

ولقد دَرَجَ (**أَثِنودوروس**)[2]- وهو فيلسوفٌ ورفيقٌ لي، كان قد أقام في مدينة **البتراء**- على وصف حكومتهم بإعجاب، قائلًا: إنه ألفَى العديد من (**الرُّومان**) والعديد من الأجانب الآخَرين مقيمين هناك، وإنه لاحظ أن الأجانب غالبًا ما ينخرطون في دعاوَى قضائيَّة، سواء فيما بينهم أو مع المواطنين، في حين لا يُقاضي واحدٌ من المواطنين صاحبَه، وإنهم في كلِّ أمرٍ من أمورهم محافظون على السَّلام بينهم.

-٦-

وقد تَمَّ الكشفُ عن العديد من الخصائص المتعلِّقة بـ(**الجزيرة العربيَّة**) من قِبَل الحملة الرومانيَّة الأخيرة ضِدَّ العَرَب، التي شُنَّت في عَصْرِي، تحت قيادة (**إيليوس جالوس**)[3]، بوصفه ضابطًا عسكريًّا. وكان قد بعثه (**أُغسطس قيصر**)[4] لاستكشاف القبائل والأماكن، لا في (**جزيرة العَرَب**) فحسب، بل أيضًا في

---

[1] هٰذا اللقب «**الأخ**»، الذي كان مستعملًا لوزير المَلِك قبل أكثر من ألفَي عامٍ لدَى (**الأنباط**)، ما زال مستعملًا اليوم في بادية (**الجزيرة العربيَّة**) بلفظ «**خَوِيّ**»، ويُجمع على «**أَخُوْيَة**». أي مصاحِب، ومعاوِن، لأمير، أو مَن في حُكمه.

[2] Athenodorus. بالإغريقيَّة: Ἀθηνόδωρος. (-٧م).

See: Encyclopædia Britannica: https://goo.gl/BBkfPs.

[3] راجع التعريف به في توطئة الترجمة.

[4] راجع التعريف به في توطئة الترجمة.

(**إثيوبيا**)؛ حيث رأى قيصر أن بلاد (**سَكَنَة الكهوف**)، التي تجاور (**مِصْر**)، هي مجاورة **للجزيرة العربيَّة**، وأن (**الخليج العربي**) [=**البحر الأحمر**]، الذي يفصل **جزيرة العَرَب** عن بلاد **سَكَنَة الكهوف**، خليجٌ ضيِّق للغاية.

وبناء على ذٰلك، فقد كان هدفه الافتراضي أن يَكسب العَرَب إلى جانبه أو أن يُخْضِعهم. وكان من البواعث الأخرى للحملة ما ساد دائمًا من روايات حول العَرَب وأنهم أثرياء جِدًّا، وأنهم يبيعون المنتجات العِطريَّة ومُعظم الأحجار الكريمة بالذهب والفِضَّة، لٰكنهم لا يتبادلون تجاريًّا مع الجهات الأجنبيَّة أيَّ جزء ممَّا يجنونه من مكاسب اقتصاديَّة[١]؛ ذٰلك لأنه كان يتطلَّع إلى أحد أمرين: إمَّا أن يتعامل مع العَرَب بوصفهم أصدقاء أثرياء، وإمَّا أنْ يسيطر عليهم من حيث هم أعداء أثرياء. وقد شجَّعه أيضًا توقُّعُه المساعَدةَ من النبطيِّين؛ لأنهم كانوا ودودين، ووَعدوا بالتعاون معه في كلِّ مساعيه.[٢]

ولذٰلك فإن (**جالوس**)، بناء على تلك الاعتبارات، انطلقَ في الحملة؛ غير أنه ظلَّ مُضَلَّلًا من قِبَل الوزير النبطيِّ المنتدَب مع الحملة، (**صِلٍّ**)[٣]، الذي- على

---

[١] أن يَنعم العَرَب باكتفاءٍ ذاتيٍّ، فليس ذٰلك بسببٍ منطقيٍّ لتسويغ غزوهم. وليس بصحيح أنْ لم تكن ثَمَّةَ تبادلاتٌ تجاريَّةٌ بين العَرَب والشُّعوب المجاورة. وإنَّما أسباب الحملة عليهم تكمن في المطامع الاقتصاديَّة والتطلُّع للهيمنة على (**جزيرة العَرَب**) وموانئها.

[٢] ما أشبه الليلة بالبارحة! عَرَبٌ وَهَبَهم الله من الخيرات ما وَهَبَهم منذ الأزل، وهم في فُرقة وتناحر، وغَرْبٌ فاغرٌ فاه، طامعٌ مترصِّدٌ لابتلاعهم، وعُملاء بين الطَّرَفَين! لقد ظلَّ التنافس بين (**الرُّوم**) و(**الفُرْس**) على أشُدِّه طوال التاريخ للسيطرة على البحار والموانئ والأراضي والتجارة في المنطقة.

[٣] Syllaeus. بالإغريقيَّة: Συλλαῖος. وذهب بعض الدارسين إلى أن اسمه «صالح»، وآخرون إلى أنه ترخيم «سليم»؛ لأن اسم «سلي» يتردَّد في النقوش النبطيَّة بكثرة. (انظر: عبَّاس، ٥١). ويبدو في هٰذا ←

الرغم من أنه وَعَدَ بأن يكون مرشِدًا للمسيرة، وبتوفير جميع الاحتياجات، وبالتعاون مع قائد الحملة- قد تصرَّف بصُوَرٍ غادرةٍ في كلِّ شأن.[١] من ذاك أنه ادَّعَى أنْ لا سبيل يمكن أن تكون آمنةً على طول السواحل، ولا عَبْر الأراضي البريَّة، ومِن ثَمَّ أخذ الحملة في متاهةٍ خلال أماكن لا طُرق فيها، وعَبْر مسارات ملتوية، وخلال مناطق مقفرةٍ من كلِّ شيء، أو على طول شواطئ صخريَّة لا موانئ لها، أو من خلال مستنقعات ضحلة أو مكتظة بالصخور المغمورة بالمياه، ولاسيما في أماكن من ذاك النوع الذي يتسبَّب مَدُّ فيضاناته وجَزْرِها في كُـرُوْبٍ عظيمةٍ جِدًّا.

وهنا كانت أُولى أخطاء (**جالوس**)، وهي أنه عمد إلى بناء قوارب طويلة؛ في الوقت الذي لم تكن هناك حربٌ بحريَّة تلوح في الأُفُق، أو حتى متوقَّعة؛ لأن العَرَب ليسوا بمحاربين جيِّدين حتى على اليابسة، بمقدار ما هم باعة جوَّالون وتُجَّار، ولا

تكلُّف لا مسوِّغ له؛ فالاسم- كما نرى- واضح العروبة دون زيادة أو تحوير. وهو: (**صِلٌّ**). والصِّلُّ من الحيَّات يُشَبَّه به الرجل الداهية. يقال إِنه لصِلُّ أَصْلال. (انظر: ابن منظور، (صلل)). وقد كان الوزير النبطيُّ هٰذا صِلًّا داهيةً بالفعل، لا لما فعله بالحملة الرومانيَّة فحسب، بل أيضًا لمكائد سياسيَّة أخرى كان يحيكها مع الرُّومان وضِدَّهم ومطامح كان يتطلَّع إليها. (انظر: عبَّاس، ٥١- ٥٧).

[١] مَن الغادر هاهنا؟: المرشِد المذكور، أم المعتدي الغازي؟! إذا صحَّ ما نُسِب إلى (**صِلٍّ**) من تضليلٍ للحملة وتسبُّبٍ في تمزيق عساكرها في الصحراء؛ فلعلَّه إنما فعل هٰذا بدافع انتماءٍ عروبيٍّ؛ حين وجد نفسه بين خيارَين أحلاهما مُرٌّ: أن يتحمَّل عاقبة رفض التعاون مع (**الرُّومان**)، أو أن يُرشدهم لغزو إخوته من (**عَرَب الجزيرة**). ولو كان **الرُّومان** يعقلون علاقة (**الأنباط**) بسائر **العَرَب**، عِرقيًّا ودِينيًّا واقتصاديًّا، ما توقَّعوا منهم خيانة أنفسهم وأهليهم، ولا عوَّلوا عليهم في حملةٍ تستهدف إخوتهم. وهو قد ضَحَّى بنفسه دون قومه، من **النَّبَـط** و**العَرَب الجَنوبيِّين**، مرَّتَين: الأُولى بمشاركته في الحملة بكلِّ مشاقِّها، والأخرى بمقتله على أيدي **الرُّومان**، انتقامًا وتنفيسًا عن فشل حملتهم.

شأن لهم بالحروب البحريَّة.[١] لٰكن **جالوس** بنَى في مدينة (**كليوبترا**)[٢]، التي تقع بالقُرب من القناة القديمة التي تمتدُّ من (**النِّيْل**)، ما لا يقلُّ عن ثمانين قاربًا، من ذوات الصَّفَّين من المجاديف، والثُّلاثيَّة المجاديف، والقوارب الخفيفة. غير أنه عندما أدرك أنه قد وقع تمامًا في تضليلٍ، قام ببناء مئة وثلاثين سفينةَ شَحْن، مَخَرَ بها البحر وعلى متنها زُهاء عشرة آلافٍ من المشاة، يتألَّفون من (**الرُّومان**) الذين في (**مِصْر**)، وكذٰلك من حلفاء **الرُّومان**، ومن بينهم خمس مئة يهوديٍّ[٣] وألف نبطيٍّ تحت قيادة (**صِلّ**).

وبعد العديد من التجارب والمصاعب وصلَ [**جالوس**] في أربعة عشر يومًا إلى قرية (**الحَوراء**)[٤] في أرض (**النبطيِّين**)- وهي مركزٌ تجاريٌّ واسع- على الرغم

---

[١] أمَّا أن (**العَرَب**) لم يكونوا أهل حروبٍ بحريَّة، فلعلَّ ذٰلك صحيح، حتى قيل قديمًا، على لسان (**أحيقار**)- الحكيم الآشوري، مستشار المَلِك (**سنحاريب**)-: «**لا تُرِ العربيَّ البحرَ، ولا الصيدونيَّ (الصيدانيَّ) البرَّ**». (**انظر**: علي، جواد، ٧: ٢٤٥، عن: A. T Olmstead, **History of the Persian Empire**, P.32). واشتهر عنهم- عدا أهل السواحل- تهيُّبُ ركوب البحر، لعُزلتهم في صحرائهم عن خوض البحار. وإنْ كان هٰذا فيه نظر، وليس على إطلاقه؛ لأن معظم ثروات العَرَب كان بخوض البحار، غوصًا على **اللؤلؤ** و**المرجان**، أو متاجرة مع الأُمم الآسيويَّة وغير الآسيويَّة. غير أن تلك هي التصوُّرات النمطيَّة المعمَّمة عادةً في نظرة الشعوب بعضها إلى بعض. أمَّا الزعم أنهم ليسوا بمحاربين مهرة حتى في البرِّ، فيدحضه ما حدثَ بعد الإسلام من اجتياحهم الأُمم. وقد زعمَ (**سترابو**) في موضعٍ آخَر من كتابه، (See: (v. 8), Book 17, Chap. 1: 53)، أنه لولا خيانة الدليل للقائد الرُّوماني لأمكنته السيطرة على كامل بلاد **العَرَب**؛ لأنهم غير محاربين جيِّدين! بيدَ أن ما يَصْدُق من هٰذا كلِّه أنهم ليسوا بأُمَّةٍ عدوانيَّة، ولا بطامعةٍ في ما في أيدي الآخَرين، كما ظلَّ ديدن (**الرُّوم**) و(**الفُرس**)، بصفةٍ خاصَّة.

[٢] Cleopatris. مدينة قديمة كانت في شَمال خليج (**السُّوَيْس**).

[٣] معروفٌ أن (**الرُّومان**)كانوا قد عيَّنوا (**هيرودس**) الأدومي مَلِكًا على (**يهوذا**) و(**الجليل**)، سنة ٣٩ق.م، واستمرَّ حكمه حتى وفاته ٤ق.م. (انظر: سوسة، ٣٢٥).

[٤] Leuce Come. بالإغريقيَّة: Λευκὴν κώμην. وترجمة الاسم الذي أورده: «**البيت الأبيض**» أو «**القرية البيضاء**». ويبدو أنه يُشير به إلى (**الحَوراء**): ميناء قديم على (**البحر الأحمر**)، يقع شَمال (**يَنْبُع**)، على بُعد عشرة أكيال جَنوب (**أملج**). وذهبَ بعضٌ إلى أن المقصود ميناء (**المويلح**)، شَمال مدينة (**ضبا**) بنحو ٤٠ ←

من أنه كان قد فَقَدَ العديد من قواربه، بعضها كان قد فُقِدَ بطواقمه وجميع ما فيه؛ جَرَّاء الصعوبة في الإبحار، وليس لأيِّ عملٍ عدواني. وكان السبب في ذٰلك خيانة (**صِلٍّ**) وتضليله؛ إذ زعمَ أنه لا سبيلَ لأيِّ جيشٍ للوصول إلى **الحَوراء** عن طريق البَرِّ؛ ومع ذٰلك كان الصيَّادون يتنقَّلون ذهابًا وإيابًا من (**البتراء**) إلى **الحَوراء** في أمانٍ ويُسْر، وهم في عددٍ من الرجال و(**الإبل**) لا يختلف عن جيشٍ بأيِّ تقدير.

حدثَ ذٰلك لأن المَلِك (**عُبَادَة**)[1] لم يكن يهتمُّ كثيرًا بالشُّؤون العامَّة، ولاسيما الشُّؤون العسكريَّة، (وهٰذه سِمَةٌ مشتركةٌ بين جميع الملوك العَرَب)؛ ولأنه وضعَ كلَّ شيءٍ في يَدِ (**صِلٍّ**)؛ و**صِلٌّ** سرعان ما خرج على (**جالوس**) في كلِّ أمر، ساعيًا، كما أعتقدُ، للتجسُّس في البلاد، ومن ثَمَّ تدمير بعض مدنها وقبائلها، جنبًا إلى جنبٍ مع (**الرُّومان**)، من أجل تنصيب نفسه ربًّا للجميع، بعد أن يكون قد قُضِي على (**الرُّومان**) بالجوع والتعب والأمراض وغيرها من الشرور التي فتحها عليهم بغدره.[2]

وعلى الرغم من ذٰلك، فقد دخل (**جالوس**) (**الحَوراء**)، وكان جيشه يعاني حينئذٍ، بصورةٍ خطيرة، حالتَين مرضيَّتين في آن: داء (**الأسقربوط**)[3]، والعَرَج في

See: Lebling, Bob, **Whre was Leuce?**, (Arab News, Jeddah, Saudi Arabia, April 23, 1979, p. 7): http://nabataea.net/come1.html; Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/8vRtVW). كيلًا. (

[1] (**عُبادَة الثاني**). سبق التعريف به في توطئة الترجمة.

[2] هٰذه قراءة محتملة لموقف الرجل. لٰكن ما تبيَّن أنه دمَّر جيشَ (**الرُّومان**)، لا مُدُن العَرَب ولا قبائلهم.

[3] scurvy. وهو مرضٌ ناجمٌ عن نقص (**فيتامين ج**)، من أعراضه تورُّم اللِّثَّة ونزيفها، وصعوبة التئام الجروح وانتقاض ما كان منها قد التأم.

السَّاقَين، وهما من الأمراض المحليَّة: الأوَّل تظهر أعراضه في نوعٍ من الإصابة الشَّلَلِيَّة حول الفم، والآخَر تظهر أعراضه حول السَّاقَين، وكلاهما يَنتج إمَّا عن المياه المحليَّة وإمَّا عن الأعشاب.[1] ومهما يكن من أمر، فقد اضطُرَّ **جالوس** إلى قضاء الصَّيف والشتاء كليهما هناك، في انتظار أن يتعافَى المرضَى.

ويَتِمُّ في الوقت الراهن نقل الكثير من الموادِّ العِطريَّة من (**الحَوراء**) إلى (**البتراء**)، ومن ثَمَّ إلى (**رينوكلورا**)[2]، وهي في (**فينيقيا**) بالقُرب من (**مِصْر**)، ومن ثَمَّ تُصدَّر إلى الشعوب الأخرى. ولٰكنَّ تلك الموادَّ يجري نقل معظمها في الوقت الحاضر عبر (**النِّيْل**) إلى (**الإسكندريَّة**). وهي تُستورَد من (**الجزيرة العَرَبيَّة**) و(**الهند**) إلى ميناء (**ميوس**)[3]، ثمَّ تنقلها (**الإبل**) إلى (**قفط**)[4] في (**طِيبة**)[5]، التي تقع على نهر **النِّيْل**، ثمَّ إلى **الإسكندريَّة**.

ومرَّة أخرى نقل (**جالوس**) جيشه من (**الحَوراء**) وجاس به خلال مناطق كان لا بُدَّ فيها من حمل المياه على (**الإبل**). حدث ذٰلك لدناءة مرشديه في الطُّرُق

---

(1) لم يُعرَف سبب مرض (**الأسقربوط**)، وأنه لنقص (**فيتامين ج**)، إلَّا في القرن الثامن عشر. وكثيرًا ما كان يُصاب به البحَّارة لنقص **فيتامين ج** من غذائهم؛ لطول بُعدهم عن تناول الفواكه والخضروات. (انظر: موسوعة «**الوكيبديا**»: https://en.wikipedia.org/wiki/Scurvy).

(2) Rhinocolura. بالإغريقيَّة: Ῥινοκόλουρα. واختُلِفَ في المقصود بهٰذا المكان، لٰكنه- كما أشار (**سترابو**) هاهنا- يقع في (**فينيقيا**)، بالقرب من (**مِصْر**). ومعروف أن مركز **فينيقيا** الرئيس كان في ما يُعرف اليوم بـ(**لُبنان**).

(3) Myus. ميناء مِصْري، يقع في (**محافظة البحر الأحمر**)، يُسمَّى اليوم: (**القصير القديم**).

(4) Coptus. عاصمة (**مِصْر العُليا**) على الضِّفَّة الشَّرقيَّة لنهر (**النِّيْل**). (انظر: **معجم أكسفورد**: https://goo.gl/XLfbP8). ومعروف أن مدينة (**قفط**) تقع بمحافظة (**قنا**)، جَنوب مدينة **قنا** بنحو ٢٠ كيلًا.

(5) Thebais. و(**طِيبة**) المنطقة المقدَّسة لكبير الآلهة المِصْريَّة القديمة (**آمون**)، تُعرَف اليوم بـ(**الأُقْصُر**)، جَنوب (**مِصْر**).

التي يسلكها؛ ولذا استغرق الأمر عِدَّة أيَّام للوصول إلى أرض (**حارثة**)[١]، أحد أقرباء [المَلِك] (**عُبَادَة**). وقد استقبله (**حارثة**) بمراسِم ودِّيَّةٍ وقدَّم إليه الهدايا، غير أن خيانة (**صِلٍّ**) قد صعَّبت الرحلة أيضًا عبر هٰذه البلاد. وهي أرضٌ لا تُنتِج سِوَى نوعٍ خشن من (**القمح**)[٢]، وبعض أشجار (**النَّخيل**)، والزُّبْدُ يُستعمل فيها بدل الزيت. فاستغرق الأمر، على أيَّة حال، ثلاثين يومًا لاجتياز تلك البلاد؛ لأن **جالوس** وجيشه كانوا يقطعون أماكن لا طرق فيها.

وكان البلد التالي الذي اجتازه (**جالوس**) ينتمي إلى البدو. والحقُّ أنَّ معظم ذٰلك البلد صحراء، واسمه (**عَرَار**)[٣]، واسم مَلِكُه (**صَعْب**)[٤]. وقد أمضى **جالوس** لعبور هٰذا البلد- ومن خلال نَواحٍ منه لا طرق فيها- خمسين يومًا، حتى

---

(١) Aretas. بالإغريقيَّة: Αρέτας. وأنا هنا أُقَدِّر أسماء عربيَّة قريبة ممَّا يذكره المؤلِّف ويُحتمَل أن تكون هي المقصودة. ولعلَّ حارثة هٰذا هو (**حارثة الرابع**، ٩ق.م- ٤٠م)، الذي خَلَفَ (**عُبادة الثاني**) في المُلْكِ على (**الأنباط**)، وعاصر ظهور (**السيِّد المسيح**). وشهدت مملكة الأنباط في عهده أزهى عهودها توسُّعًا ونفوذًا وعمرانًا وتطوُّرًا.

(٢) zeia. باليونانيَّة: ζειάς. وهو نوع من (**القمح الخشن**)، لإعلاف (**الخَيْل**).
(See: Liddell, Henry George; Robert Scott, **An Intermediate Greek-English Lexicon**: https://goo.gl/FfGPd4).

(٣) Ararene. بالإغريقيَّة: Ἀραρηνή. وأقرب اسم يُحتمَل أن يكون المقصود: (**عَرَار**)، ولعلَّه سُمِع منوَّنًا: «**عَرَارًا**». و(**العَرَار**) نباتٌ نجديٌّ طيِّب العَرْف، تَغَنَّى به الشُّعراء. ومن المواضع بهٰذا الاسم: مكان بنجد باسم (**ذات عَرَار**)، وهو وادٍ. و**عرَار** أيضًا: موضع في ديار (**باهلة**)، من أرض (**اليمامة**). قيل هو بكسر العَين. (انظر: الحموي، **البُلدان**، (عرار)). لٰكن الراجح أن المكان المقصود يقع في شَمال (**الحِجاز**).

(٤) Sabos. بالإغريقيَّة: Σάβως. اعتقدَ (**فِلْبِي**) أن الرجل المُسَمَّى هنا ربما كان مَلِكًا لـ(**سَبَأ وذي ريدان**)! (See: Philpy, 257). وهٰذا مستبعَدٌ لأنَّ الحَملة- على افتراض أنها بلغت (**اليَمَن**)- لَمَّا تكن قد وصلت إلى (**نجران**) بعد حين ذكر (**سترابو**) هٰذا المكان.

وصلَ إلى مدينة (**نَجْرَان**)[١]، وهي بلدة تتصف باستتباب السلم وبالخِصب في آن، وقد هربَ مَلِكها وتمت السيطرة على المدينة فَوْرَ وصول (**الرُّومان**) إليها.

ومن هناك وصلَ (**جالوس**) إلى النهر[٢] في ستَّة أيَّام. وعندئذٍ التحمَ البرابرةُ[٣] في معركةٍ مع (**الرُّومان**)، فسقط منهم نحو عشرة آلاف، ولم يُقتَل من **الرُّومان** سِوَى رجُلَين.[٤] ذٰلك لأن [البرابرة] كانوا يستخدمون أسلحتهم بطريقةٍ بدائيَّةٍ لا خبرة فيها، وهم غير مؤهَّلين للحرب نهائيًّا، وإنَّما يُقاتلون بالقِسِيِّ، والرِّماح، والسُّيوف، ومَراجِم الحجارة، على الرغم من أن معظمهم كانوا يستعملون فؤوسًا من ذوات الحَدَّين.

---

(١) Negrani أو Negrana. بالإغريقيَّة: Νέγρανα. وفي بعض النُّسَخ: Agrani (Ἀγρανοί). ما قد يُفسَّر بأنه إشارة إلى (**نَجْرَان**). غير أن هناك من الدارسين من ذهبَ إلى أنه إشارة إلى (**النَّقْرَة**)، أو (**النَّقِرَة**)، وهو ما يُعرف بـ(**مَعْدِن النَّقْرَة**)، في (**قَرَوْرَى**)، المعروفة اليوم بـ(**أُمّ رُقَيْبَة**)، غَربي منطقة (**القصيم**). وقد وردَ الاسم لدَى غير (**سترابو**): «Negra». وهٰذا ما نُرجِّحه مع المرجِّحين؛ لأسباب ذكرناها في توطئتنا للترجمة. (See: Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/8vRtVW). و(انظر: الحموي، **البُلدان**، (النقرة)). وهناك (**نُقْرَان**)، موضعٌ في بادية (**تميم**). (انظر: م.ن، (نقران)). لٰكن يبعُد أن يكون هو المقصود. والنَّقْرَة: نَقْرَتَان، شَماليَّة وجَنوبيَّة، بينهما بضعة أكيال. فلعلَّ هذه التسمية «**نَقْرَتَان**» قديمة، فالتبست تسميتها بـ«**نَجْرَان**». والنَّقْرَتَان تتبعان ما يسمَّى اليوم محافظة (**عُقْلة الصقور**)، التابعة لمنطقة (**القصيم**). وتبعُدان عن (**بُريدة**) نحو ٣٠٠ كيلًا، جَنوبًا غَربًا، على يمين الطريق السريع المتجه من **القصيم** إلى (**المدينة المنوَّرة**)، شَمال شَرقي **المدينة المنوَّرة**، بنحو ٢٥٠ كيلًا. ويُعَدُّ مَعْدِن **النَّقْرَة** حدًّا لـ(**الحِجاز**). والمكان مشهور منذ القِدم بمعادنه من النحاس والفِضَّة والذَّهَب والزِّنْك. وإذا صحَّ أنه المقصود، فيبدو أن معادنه وراء انجذاب حملة (**جالوس**) إليه. (انظر: العبودي، محمد بن ناصر، **معجم منطقة القصيم**، ٦: ٢٤٢٥- ٢٤٣٥).

(٢) حين تمرُّ بنا كلمة «**نهر**» في مثل هٰذا النصِّ، فأغلب الظنِّ أنه يعني واديًا كبيرًا.

(٣) يُشير بهٰذا إلى الأعراب في تلك المنطقة.

(٤) مبالغة فاحشة في تصوير تفوُّق (**الرُّومان**)! إذ كيف استمرَّ العَرَب «البرابرة» في المعركة حتى قُتِل منهم عشرة آلاف، ليقتلوا من عدوِّهم رجلَين فقط؟! وإذا كان قتلاهم ١٠٠٠٠، فكم كان عدد جيشهم، إذن؟! إنها أرقام تبدو من نسج الخيال.

وبعد ذٰلك مباشرةً استولَى (**جالوس**) على مدينة تُسَمَّى (**عشقة**)[١]، كان قد فَرَّ منها مَلِكها. ومن ثَمَّ اتَّجهَ إلى مدينة تُسَمَّى (**عثرولة**)[٢]. وعَقِب أن سيطر عليها بلا مقاومة، وضع حاميةً فيها، بغرض تزويد الجيش بالمؤن من الحبوب والتمور لاستكمال مسيرته. ثمَّ تقدَّم إلى مدينة تُسَمَّى (**مَرسابة**)[٣]، تعود إلى قبيلة (**الرَّحمانيِّين**)[٤]، الذين كانوا خاضعين لحاكم اسمه (**اليَسَار**)[٥]. فهاجم المدينة وحاصرها لمدَّة ستة أيَّام، ولٰكنه توقَّف عن الحصار بسبب نقص المياه.

لقد كان (**جالوس**)- في واقع الأمر- على بُعد يومَين فقط من البلاد التي تُنتِج العِطْرِيَّات، كما عَلِم من أَسْرَاه، لٰكنَّه استغرق ستة أشهر في مسيرته بسبب التوجيه

---

[١] Asca بالإغريقيَّة: Ἄσκα. وأورد (فِلْبِي) الاسم بهٰذا اللفظ ولفظٍ آخَر، هو: «Nesca (Nashq)». (See: Philpy, 257).

[٢] Athrula. بالإغريقيَّة: Ἄθρουλα. وبحسب الذاهبين إلى أن الحملة بلغت إلى جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**)، ربما قيل إن الاسم تحريف (**عَثَّر**). وعَثَّر: مدينةٌ كانت على (**البحر الأحمر**)، شَمالي غَرب مدينة (**جازان**)، قرب مكان يُسَمَّى (**قوز الجعافرة**). عُرِف لها ولِمخلافها شأنٌ وذِكْرٌ واسعٌ في التراث العربي، منذ ما قبل الإسلام.

[٣] Marsiaba. بالإغريقيَّة: Μαρσίαβα. وهوما يُقرأ على أنه: «**مَرسابة**». وبحسب الذاهبين إلى أن الحملة بلغت إلى جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**)، يَرِد احتمال أن الاسم تحريف لاسم «**مأرب**»، فهو بالإغريقيَّة: Μαρίαβα.

[٤] Rhammanitae. بالإغريقيَّة: Ῥαμμανιτῶν. ونجد في (**سِفر حزقيال**، ٢٧: ٢٢) الإشارة إلى (**رَعْمَة**) في (**اليَمَن**): «**تُجَّارُ شَبَا ورَعْمَةَ هُمْ تُجَّارُكِ. بِأَفْخَرِ كُلِّ أَنْوَاعِ الطِّيبِ وبِكُلِّ حَجَرٍ كَرِيمٍ والذَّهَبِ أَقَامُوا أَسْوَاقَكِ.**» وهو ما يُفضي إلى احتمال أنه يقصد (**الرَّعْمِيِّين**). وهناك كذٰلك جبلٌ اسمه (**رعوم**) غَربي مدينة (**نَجْرَان**). وأورد (**فِلْبِي**) احتمالَ أن يكون المقصود «**ردمان** أو **ريمان**» المذكورَين في بعض النقوش. (See: Philby, 258). غير أننا لا نُرجِّح أن الحملة قد أفلحت في بلوغها إلى **اليَمَن**، وإنَّما يبدو أن المواضع التي يُشير إليها تقع في شَمال (**الحِجاز**)؛ لقرائن عِدَّة، سبق ذِكرها في توطئة الترجمة.

[٥] Ilasarus. بالإغريقيَّة: Ἰλασάρῳ. وهو ما منطوقه: «**عيلاسروس**». فإذا كان الاسم عربيًّا، فلعلَّ أصله (**اليَسَار**).

السيِّئ من مُرشِديه في الطريق. وقد أدرك حقيقة ذٰلك عندما عاد؛ إذ عَلِم أخيرًا بالمؤامرة ضِدَّه فعاد من طريق أخرى؛ حيث وَصَلَ في اليوم التاسع إلى **(نَجْرَان)**، حيث كانت رَحَى المعركة قد دارت.(١) ومن ثَمَّ وَصَلَ في اليوم الحادي عشر إلى **(الآبار السَّبعة)**، كما يُسَمَّى المكان؛ لأن فيه سبعة آبار.(٢) ومن هنالك وَصَلَ أخيرًا، عبرَ بلادٍ آمنة، إلى قريةٍ تُسَمَّى **(الشَّعلة)**(٣)، ثُمَّ إلى قريةٍ أخرى تُسَمَّى **(معلوثة)**(٤)، تقع قُرب نهرٍ؛ ومن ثَمَّ اجتازَ خلال أرضٍ صحراويَّة- لم يكن فيها غير قليلٍ من الموارد المائيَّة- تمتدُّ إلى قريةٍ تُسمَّى **(إِجْرَة)**(٥). والقرية في أراضي **(عُبَادَة)**، موقعها على

---

(١) تبدو الإشارة إلى المعركة التي ذكرها قبل قليل، التي نَشِبت بعد وصول الحَمْلة إلى ما أسماه **(نَجْران)**، قُرب نهرٍ هناك.

(٢) إذا صحَّ أن الأماكن المذكورة في هٰذا السياق تقع في شَمال **(الجزيرة العربيَّة)** لا جَنوبها، فقد عُرِفت قديمًا في **(المدينة المنوَّرة)** سبعة آبار مشهورة، هي: **(بئر أريس)**، و**(بئر حاء)**، و**(بئر رُومة)**، و**(بئر غرس)**، و**(بئر بُضاعة)**، و**(بئر البصة)**، و**(بئر السُّقيا)**، أو **(بئر العهن)**، أو **(بئر جمل)**. وسُمِّيت في الإسلام «**آبار النبي**». (انظر: السمهودي، **وفاء الوفاء**، ٣: ٣٩٥). أ هي المقصودة في كلام **(سترابو)**؟ ربما؛ فأغلب الظنِّ أنه هنا يتحدث عن أماكن في نواحي **المدينة**، لا في جَنوب الجزيرة. على حين قدَّر **(فِلْبي)** أن هٰذا المكان **(الآبار السَّبعة)** يُطابِق موقع **(خميس امْشيط)**، بناءً على المسافات التي أشار إليها **(سترابو)**. (See: Philby, 257).

(٣) Chaalla. بالإغريقيَّة: Χάαλλα. وبحسب الرأي الذاهب إلى أن الحملة بلغت **(اليَمَن)**، ذهبَ بعض الدارسين إلى أن المكان المذكور هنا يقع في **(بلاد خَولان)**، على طريق عودة الحملة من **(نَجْرَان)** إلى **(البحر الأحمر)**. (See: Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/8vRtVW). وذهبَ **(فِلْبي)** إلى احتمال أن يكون في **(بِيشة)**، وأنه الواحة التي تتوسَّط الآن ما يُسَمَّى **(قَلعة بِيشة)**. (See: Philby, 257). وهٰذا الاحتمال مبنيٌّ على تصوُّر **فِلْبي** أن اسم Chaalla هو لفظ «**قَلعة**»، وأن هٰذا الاسم كان مستعملًا منذ عصر **(سترابو)** وقبله!

(٤) Malotha. بالإغريقيَّة: Μαλόθα. وذهبَ **(فِلْبي)** إلى احتمال أن يكون هٰذا المكان في **(تُرَبَة)** أو **(الخُرْمَة)**. (See: Philby, 257).

(٥) Egra. بالإغريقيَّة: Ἔγρᾶς. ووردت الكلمة في بعض النسخ Νερὰ. وتُرجمت إلى: Nera أو Negra. وزعمَ **(فِلْبي)** أن الاسم إشارة إلى **(مدائن صالح)**. فإذا صحَّ قوله، فلعلَّ أصل الكلمة: «**الحِجْر**»، أو ←

شاطئ البحر. وقد استكمل الرحلة في عودته في غضون ستين يومًا، على الرغم من أنه استغرق ستة أشهر في رحلته الأُولى. ومن هناك ارتحل بجيشه عبر ميناء **(ميوس)** في غضون أحد عشر يومًا، واجتازَ بَرًّا إلى (قفط)، ومن ثَمَّ اتَّجَه- مع جميع الذين كُتِبت لهم النجاةُ والبقاءُ على قيد الحياة- إلى **(الإسكندريَّة)**. أمَّا البقيَّة فقد فقدهم، لا في الحروب، بل بعوامل المرض والتعب والجوع والدروب السيِّئة؛ في حين لم يُقتل منهم في المواجهات سِوَى سبعة رجال فقط. ولهٰذه الأسباب أيضًا، فإن هٰذه الحملة لم تُكسِبنا الكثير في معرفتنا بتلك المناطق [التي غزتها]، وإنْ ظلَّت تُسهِم في معرفتنا الطفيفة بشؤونها.

أمَّا الرجل الذي كان مسؤولًا عن هٰذا الفشل، وأعني **(صِلَّا)**، فقد نال العقوبة في **(روما)**؛ لأنه، على الرغم من تظاهره بالصداقة، قد أُدِيْنَ- لا لهٰذه القضيَّة فحسب، ولٰكن لجرائم أخرى أيضًا- فقُطِع رأسه.

-٧-

والآن يُقَسِّم الكُتَّاب البلاد التي تُنتج الموادَّ العِطْريَّة إلى أربعة أجزاء، كما قلتُ من قَبل. ومن بين العِطريَّات، يقولون: إنَّ **(اللُّبان)** و**(المُـرّ)** يُنتَجان من الأشجار،

«**القُرَى**»، إشارة إلى **(وادي القُرَى)**. (See: Philby, 257). ومع مشابهة الاسم هنا لما فُسِّر من قبل على أنه «**نَجْرَان**»، الذي وردَ أحيانًا بلفظ Negra، لا ننسَى **(النَّقْرَة)**، السابق ذكرها في **(عقلة الصقور)**. ومهما يكن من تشابه بين الأسماء والتباس، فقد صرَّح المؤلِّف هٰذه المرَّة بأن المكان في ديار **(عُبادة)** سيِّد **(الأنباط)**، ما يؤكِّد أنه في شَمال الجزيرة. وهناك من رأى أنه ميناءٌ نبطيٌّ، وذكرَ أنه **(يَنْبُـع)**. (See: Smith, William, **Dictionary of Greek and Roman Geography**, (1854): https://goo.gl/8vRtVW).

وأنَّ (**القِرْفَة الصِّينيَّة**) تُنتَج أيضًا من [شُجيرات] المستنقعات.[١] ويقول بعضهم: إن معظم هٰذه المادَّة الأخيرة تأتي من (**الهند**)، وأن أفضل (**لُبان البخور**) يُنتَج بالقرب من بلاد (**فارس**).

على أن (**الجزيرة العربيَّة السعيدة**)، وفقًا لفريقٍ آخَر من المؤلِّفين، تنقسم إلى خمس ممالك، واحدة منها تضمُّ المحاربين، الذين يُناضلون من أجل الجميع، والثانية تضمُّ المزارعين، الذين يزوِّدون البقيَّة بالغذاء، والثالثة تضمُّ أولٰئك الذين يشتغلون بالفنون الآليَّة، والرابعة هي البلد الذي يُنتِج مادَّة (**المُـرّ**)، والخامسة البلد الذي يُنتِج مادَّة (**اللُّبان**)، مع أن البلدان نفسها تُنتِج (**القِرفة الصِّينيَّة**)، و(**القِرفة العاديَّة**)[٢]، و(**النادرين**). وهم يصنعون معظم النبيذ من (**النخيل**).[٣] ولا تتغيَّر المِهَن من فئةٍ من الناس إلى أخرى، لٰكنَّ كلَّ فئةٍ بكلِّ أفرادها يَرِثُون مِهَنَهم عن آبائهم.

وللأُخُوَّة بينهم منزلةٌ أعلى من منزلة البُنُوَّة. ولا يشغل المنحدرون من العائلة المالكة مناصبهم بوصفهم ملوكًا فحسب، بل يشغلون مراكز أخرى أيضًا، وَفقًا لأقدميَّة السِّنِّ. وتُعَدُّ الممتلكات حقًّا مشتركًا بين ذوي القُربَى جميعًا، وإنْ كان الأكبر فيهم هو ربُّ الجميع.

---

[١] وردَ تعليقٌ هنا على النصِّ بالإنجليزيَّة: «**ربما وقع سقطٌ من النصِّ الإغريقي، وأصل العبارة**: «(**والقِرْفَة) تُنتَج من الشُّجيرات**»». أي أنَّ جميع هٰذه الموادِّ تُنتَج من الأشجار. وهٰذا صحيح، وقد سبق أن ذكر المؤلِّف ذٰلك.

[٢] cassia, cinnamon.

[٣] يبدو أنه يقصد من «**تمور النخيل**». وقدَّمنا هٰذه الجملة على لاحقتها؛ لأن هٰذا هو موضعها الطبيعي في الحديث عن المنتجات.

وهم يتَّخذون امرأة واحدة زوجًا لمجموعةٍ منهم جميعًا؛ فالذي يدخل المنزل أَوَّلًا قبل أيِّ شخصٍ آخَر يكون له حقُّ مجامعتها، بعد أن يكون قد وضع عصاه أَوَّلًا أمام الباب؛ فمِن عادتهم أن يحمل كلُّ رجلٍ عصًا، غير أن المرأة تقضي الليل مع الأكبر منهم! ومن أجل ذٰلك فإن كلَّ الأطفال يكونون إخوة! كما أنهم يُجامعون أُمَّهاتهم! على أن عقوبة الزاني لديهم الموت. ولٰكن لا يُعَدُّ المرء زانيًا إلَّا إذا كان من عائلةٍ أخرى فقط.[1]

وقد حدث ذات يومٍ أن ابنة أحد الملوك كانت على قَدْرٍ من الجمال، وكان لها خمسة عشر أَخًا، جميعهم متيَّمٌ في حبِّها. ولذٰلك كانوا يواصلون إتيانها دون انقطاع، واحدًا تِلْوَ الآخَر. فلمَّا سئمت أخيرًا من زياراتهم، لجأت إلى الحيلة الآتية: أخذت عُصِيًّا صُنِعت مثل عُصيِّهم تمامًا، ودائمًا عندما يُغادرها أحدهم، تضع عصًا مثل عصاه أمام الباب، وبعد قليل تضع عصًا أخرى، ثمَّ أخرى. وكانت تراعي أنْ لا تكون العصا التي تضعها أمام الباب مماثلة لعصا الشخص الذي تُرجِّح أن يكون زائرها القادم. وهٰكذا استمرَّ الحال، حتى حدث ذات مرَّة– وكان جميع الإخوة في السوق– أنَّ أحدهم، وهو ذاهبٌ إلى بابها، شاهد عصًا أمامه، فظنَّ أنَّ أحدًا كان معها؛ ولَمَّا كان قد ترك إخوته في السوق جميعًا، فقد اشتبه في أن الذي معها ليس سِوَى أحد الزُّناة. غير أنه– بعد أن أسرع إلى أبيه، محضِرًا إيَّاه إلى المنزل– تحقَّق أنَّ اتهامه أخته لا صِحَّة له.[2]

---

[1] وردَ تعليقٌ هنا على النصِّ بالإنجليزيَّة: «**يشير النصُّ الإغريقي فقط إلى الزُّناة من الذكور.**» وكأن عقاب الموت لا يطبق على الزانيات.

[2] كما أن اتِّهام الأخ أخته بالزِّنَى، في هذه الحكاية الطريفة، لا صحَّة له، ولا أساس سِوَى العَصا التي شاهدها أمام الباب، فإن هٰذه المعلومات التي سردها (**سترابو**) حول المجتمع العربي، وعاداته في الزواج، لا أساس ←

-٨-

و(**النبطيُّون**) شعبٌ حكيم، وهم يميلون كثيرًا إلى تنمية ثرواتهم؛ ولذٰلك فإن مجتمعهم يُنَحِّي عَلَنًا أيَّ شخصٍ تقلَّصت ممتلكاته، في حين يُباهي بمَن نمَّاها.

ولمَّا لم يكن لديهم سِوَى القليل من العبيد، فإنه يخدمهم أقاربهم في معظم الأعمال، أو يخدم بعضهم بعضًا، أو يتولَّون شؤونهم بأنفسهم؛ ويسري هٰذا العُرف على الجميع، بمَن في ذٰلك ملوكهم.

ويقومون عادةً بإعداد وجبات عامَّة، تشترك في الوجبة مجموعةٌ من ثلاثة عشر شخصًا، وتكون لديهم مغنِّيتان في كلِّ مأدبة. ويَعقِد المَلِك العديد من مجالس الشراب في أناقة رائعة، لٰكن لا أحدَ من الشَّرْبِ يتناول أكثر من أحد عشر كوبًا مترعًا، مستخدِمًا في كلِّ مرَّة كوبًا ذهبيًّا مختلفًا.

وكان مَلِكهم ديمقراطيًّا جِدًّا؛ فهو بالإضافة إلى خدمته نفسه بنفسه يقوم أحيانًا بدوره كغيره من الناس في خدمة الآخَرين من شعبه بنفسه. وكثيرًا ما يُقَدِّم تقريرًا محاسبيًّا حول منصبه المَلَكيِّ وحكومته أمام الناس في الجمعيَّة الشعبيَّة. وأحيانًا يجري إخضاع أسلوب حياة المَلِك للفحص والمساءلة.

وتُعَدُّ منازلهم- بسبب نحتهم إيَّاها في الصخر- مكلفة الإنشاء. وبسبب

لها، إلَّا القيل والقال. فهو لم يَزُرْ ذٰلك المجتمع في جَنوب (**الجزيرة العربيَّة**)، ولم يستطع حتى (**جالوس**)، بحملته العسكريَّة الرومانيَّة، اختراقه للوصول إلى مثل هٰذه الحقائق عن عاداته وتقاليده. لا نقول هٰذا استبعادًا لمثل هٰذه الأعراف البدائيَّة في مجتمعات **الجزيرة العربيَّة**، ولٰكن لأن ما ذُكِر- من وجهةٍ عِلْميَّة- لا يستند على شيء، سِوَى ما ينقله المؤلِّف من مرويَّات، عمَّن لعلَّهم أشدُّ منه جهلًا بمجتمعات الجزيرة.

السَّلام السائد في ديارهم فإن المُدُن غير مُسَوَّرة. ومعظم بلادهم مموَّنة بالفواكه بصورةٍ جيِّدة، باستثناء **(الزيتون)**؛ ولذٰلك فإنهم يستخدمون **(السَّلِيْط)**[1] بدل زيت **الزيتون**.

و**(أغنام النبطيِّين)** بيضاء، مجزوزة الصوف، و**(الثيران)** ضخمة، لٰكن **(الخَيْل)** ليست من نتاج بلادهم. وتُوفِّر **(الإبل)** الخدمة التي يحتاجونها بدلًا من **الخَيْل**.

وهم يخرجون من بيوتهم بلا أَرْدِيَةٍ على أجسامهم، حتى الملوك منهم، متَّخذين أحزمةً حول أحقائهم، ونِعالًا لأقدامهم، غير أن لون النِّعال يكون أرجوانيًّا، إذا كانت لَمِلك.

وهم يستوردون بعض السِّلَع بالكامل من بلدان أخرى، لٰكن بعضًا آخَر لا يعتمدون فيه على الاستيراد بصفةٍ كاملة، وبخاصَّة تلك المنتجات الوطنيَّة، مثل **(الذَّهب)**، و**(الفضَّة)**، ومعظم الموادِّ العِطْريَّة، في حين أن **(النحاس الأصفر)** و**(الحديد)**، وضَرْبًا من الأزياء القرمزيَّة، و**(اللُّبان)**، و**(الزعفران)**، و**(القسط الهندي)**[2]، والأعمال المنقوشة، والمرسومة، والنُّصُب المجسَّدة، لا تُنتَج في بلادهم.

---

(١) السَّلِيْط: زيت السِّمْسِم.

(٢) costaria. بالإغريقيَّة: κοστάρια. ويظهر أنه نوع من الأعشاب البحريَّة. غير أننا نجد في بعض الترجمات إلى الإنجليزيَّة مكان هذه الكلمة كلمة costus. وقد تعني **(القسط الهندي)**، نبتة من فصيلة **(الزنجبيل)**. في حين نجد بعض الترجمات تسمِّي هذه المادة (القِرفة البيضاء): «costus (or white cinnamon)». (See: Strabo, **Geography**, Hamilton & Falconer, 3: 215).

و(**النَّبَطيُّون**) ينظرون إلى جُثث الموتَى كالرَّوث من حيث التقدير، وَفقًا لكلمات (**هِرَقْليطُس**)[١]، «**الجثث أكثر من الروث ملاءمةً لإخراجها**». ولذٰلك فإنهم يدفنون موتاهم، بمَن فيهم ملوكهم، إلى جانب أكوامٍ من الرَّوث.[٢]

وهم يعبدون الشَّمس، بانين لها مذبحًا على سطح منزل، ساكبين السكائب[٣] عليه يوميًّا، ومحرقين لُبان البخور.

-٩-

حينما يقول الشاعر: «**جئتُ إلى (الإثيوبيِّين)، و(الصيدانيِّين)، و(الإريمبيِّين)**»[٤]، فإن المؤرِّخين يفشلون كُلِّيًّا في أن يعرفوا، في المقام الأوَّل، ما يتعلَّق **بالصيدانيِّين** المقصودين:

---

[١] Heracleitus. وبالإغريقيَّة: Ἡράκλειτος. فيلسوفٌ يونانيٌّ. (-٤٧٥ق.م). تأثَّر به (**سقراط**) و(**أفلاطون**) و(**أرسطو**). من مقولاته أن النار الجوهر الأوَّل، ومنها نشأ الكون. لم يصلنا من إنتاجه غير شذرات. (انظر: موسوعة «**الوكيبديا**»: https://goo.gl/9LUUtk).

[٢] يبدو هٰذا غريبًا، ولاسيما مع ما دلَّت عليه بعض الآثار من اتِّخاذهم المدافن الفخمة لموتاهم، التي ربما نحتوها في الجبال والصخور، وجعلوا لها البوابات العظيمة، وكتبوا عليها النقوش، كما نعرف من آثارهم في (**الحِجْر/ مدائن صالح**). غير أن ما ذكره (**سترابو**)- إذا صحَّ- لا يتناقض مع هٰذا. ذٰلك أننا نعرف أيضًا أن (**أقباط وادي النِّيْل**)، من قدماء المِصْريِّين، قد تصوَّروا إلٰه الكون كالجُعل (**خفرع**)، الذي يُدحرِج أمامه بُويضاته في كُرَة من الرَّوث، وعَدُّوه رمزًا لإلٰه الشَّمس، وظهرت صوره في جداريَّاتهم ونقوشهم، وأطلقوا اسمه على الملك (**خفرع**). ويبدو أن ذٰلك لتصوُّرهم الإلٰه- في إدارته الكون، وبخاصَّة الشَّمس- كالجُعل الذي يُدحرِج أمامه كُرَة بُويضاته الروثيَّة. وقد سلفت إشارة إلى هٰذا، في آخر الموضوع تحت عنوان «**٢٩- شهادة العاديَّات المِصْريَّة**»، من الفصل الأوَّل. فلعلَّ ما كان لدَى (**الأنباط**)- عَبَدة الشَّمس- بأَثَرٍ من ذٰلك التصوُّر، أو لأصلٍ دِينيٍّ مشترك بين الشَّعبَين.

[٣] libations. جمع سَكيبة. وهي أن تُسكَب الخمر على جسد الأضحية، تكريمًا للآلهة.

[٤] عبارة الشاعر هٰذه واردة في ملحمة (**هوميروس**)، (**الأوديسة**، الكتاب الرابع). (See: Homer, **The Odyssey**, v1, Book IV, Line 84, p.112- 113).

ما إذا كان ينبغي للمرء أن يَعُدَّهم شَعبًا معيَّنًا سكنَ على شواطئ (**الخليج الفارسي**)، حيث كان **الصيدانيُّون**- المعروفون في جانبنا من العالم [على (**البحر الأبيض المتوسِّط**)]- مستوطِنين على تلك الشواطئ الخليجيَّة؟ وكذا حينما يتحدَّثون عن (**التيريِّين**)[1] هناك- وهم جَزَرِيُّون، ومن العَرَب كذٰلك- الذين يقول [المؤرِّخون] إنَّ هٰؤلاء الذين إلى جانب بلادنا منهم كانوا هناك [على شواطئ **الخليج**] مستوطِنين أيضًا؟ أم أنه ينبغي للمرء أن يُطلِق على هٰؤلاء جميعًا «**الصيدانيِّين**» أنفسهم، نِسبةً إلى (**صَيدا**)؟[2]

غير أن التحقُّق من (**الإريمبيِّين**)- بعدئذٍ- هو أكثر إثارةً للشكِّ: في ما إذا كان على المرء أن يشكَّ في أن (**سَكَنة الكهوف**) هم المقصودون، كما يذهب إلى هٰذا أولٰئك الذين يُجبِرون أصل الكلمة «*Erembi*» لربطه بـ«*eran embainein*»، ومن ثَمَّ فالاسم يعني «**الذهاب في الأرض**»، [أي اصطناع الكهوف]؟ أم أن الاسم يشير إلى (**العَرَب**).[3]

---

[1] نِسبة إلى (**صُوْر** Tyre)، على (**البحر الأبيض المتوسِّط**) جَنوب (**لبنان**).

[2] تساؤلات المؤلِّف هنا تدور حول (**الفينيقيِّين**) الذين سبق التعريف بهم، وبأصلهم وهجراتهم. (راجع: الفصل الثاني: «**٩- «التوراة» في ضوء تاريخ الكتابة**»).

[3] سبق لـ(**سترابو**) أن ناقش هٰذا الاشتقاق في كتابه. وممَّا ذكره، وأعاد بعضه هنا، أن الرأي الراجح أن (**هوميروس**) كان يشير بهٰذا الاسم (Erembains) إلى (**العَرَب**). بل إن هناك من استعمل اسم (**العَرَب** Arabians) صراحة في نصِّ الشاعر بدل (**الإريمبيِّين** Erembains). ومن الاحتمالات التي أوردها أنه إشارة إلى (**الأرمن** Armenians)، أو (**الآراميِّين** Aramaeans). على أن الإغريقيِّين القدماء- كما قال- ربما أطلقوا اسم «Erembains» على «**العَرَب** Arabians». في حين يرى غالبيَّةُ الدارسين أن الكلمة جاءت من «eran embainein»، وهو الاسم الذي غُيِّر في ما بعد إلى «Troglodytes **سَكَنَة الكُهُوف**»، كي يكون أكثر وضوحًا في دلالته. وأن هٰذا الاسم الأخير أصبح يُطلَق في عصر **سترابو** على تلك القبيلة العَرَبيَّة التي تعيش على شاطئ (**البحر الأحمر**) مجاورةً (**مِصْر**) و(**إثيوبيا**). (See: Strabo, (v. 1), Book 1, Chap. 2: 34).

والآن لدينا (**زينون**)[1] الذي يُغَيِّر النصَّ على النحو التالي: «...و(**الصيدانيِّين**) و(**العَرَب**)». ولٰكن (**بوسيدونيوس**)[2] يكتب، بصيغة أكثر معقوليَّة، مع تغييرٍ طفيفٍ في النصِّ: «...**والصيدانيِّين و(الآرامبيِّين)**[3]»، على أساس أن الشاعر كان يُطلِق هٰذا الاسم على العَرَب الحاليِّين، تمامًا كما كانوا يُسمَّون من قِبَل سائر الناس في وقته.

ويقول (**بوسيدونيوس**) أيضًا: إنَّ (**العَرَب**) يتألَّفون من ثلاثة أقسام قَبَليَّة، وإنَّ تلك الأقسام مقيمةٌ في مَواطن متجاورة على التوالي، واحدًا تِلْوَ الآخَر، وإنَّ هٰذا يدلُّ على أنها أقسام متجانسة [تنحدر من أصلٍ واحد]، ولهٰذا السبب كانت تُسَمَّى بأسماء متماثلة: كـ«**الأرمن**»، و«**الآراميِّين**» و«**الآرامبيِّين**». وكما يمكن للمرء أن يفترض، فإن **العَرَب** قد انقسموا إلى تلك الفئات الثلاث، وَفقًا للاختلافات في خطوط العرض [حيث كانوا يعيشون]، وتلك الفئات تتغيَّر وتختلف وتتفاوت وتتمايز أكثر فأكثر باستمرار، حتى ليمكن لك أن تفترض أيضًا أنها اتَّخذت عِدَّة أسماء بدلَ اسمٍ واحد. على أن ليس ما ذهب إليه أولٰئك الذين يكتبون الاسم «**إريمني**»[4] في هٰذا السياق معقولًا أو محتمَلًا؛ من حيث إن هٰذا الاسم أكثر ملاءمة، وبصورة واضحة، لـ(**الإثيوبيِّين**).

---

[1] Zeno. بالإغريقيَّة: Ζήνων. لعلَّه يقصد (**زينون الرواقي**، - نحو٢٦٣ق.م). وهو من أصلٍ فينيقي. (انظر: البعلبكي، منير، **معجم أعلام المورد**، (زينون)).

[2] مؤرِّخٌ وفيلسوفٌ يونانيٌّ. سبق التعريف به، في الفقرة ذات الرقم (٥) أعلاه.

[3] Arambians.

[4] Eremni. ويعني الاسم: «**السُّودان/ الناس السُّود**».

ويشير الشاعر أيضًا إلى «**أريمي**»[1]، وهو الاسم الذي ينبغي- وَفقًا لـ(**بوسيدونيوس**)- أن نفسِّره لدَى الشاعر، لا على أنه مكان في (**سُوريَّة**) أو في (**قِليقيا**)[2] أو في غيرهما من البلدان، بل على أنه يعني **سُوريَّة** نفسها؛ لأن الناس فيها هم (**الآراميُّون**)، على الرغم من أن (**الإغريق**) ربما أطلقوا على أهلها اسم «**أريميِّين**» أو «**أريمي**». والتغييرات في الأسماء، وبخاصَّة في تلك الشعوب البربريَّة، عديدة: فهم، على سبيل المثال، يدعون «**داريوس**»[3]: «**الداريكات**»، و«**باريساتيس**»[4]: «**فارزيريس**»، و«**عطارا**»[5]: «**عطارغاتس**»، على الرغم من أن (**كتِسياس**)[6] يدعوها: «**ديرسيتو**»[7].

أمَّا ما يتعلَّق بالكثير من أجزاء (**الجزيرة العربيَّة المباركة**)[8]، فبوسع المرء أن

---

(١) Arimi.

(٢) Cilicia. بالإغريقيَّة: Κιλικία. منطقةٌ في جَنوب شَرقي (**تركيا**). كَوَّن فيها (**الأرمن**) في القرن الحادي عشر الميلادي مملكةً عُرِفت بـ(**أرمينيا الصُّغرَى**). (انظر: موسوعة «**الوكيبديا**»: https://goo.gl/RSkUQB).

(٣) Dareius. بالإغريقيَّة: Δαρεῖον. مَلِكٌ فارسيٌّ. فإذا كان يقصد (**داريوس الأوَّل**، -٤٨٦ ق.م)، أعظم أباطرة (**فارس الأخمينيَّة**)، فالعَرَب تسميه: «**دارا الأوَّل**». (انظر: البعلبكي، (داريوس)؛ موسوعة «**الوكيبديا**»: https://goo.gl/xqW7Qw).

(٤) Parysatis. بالإغريقيَّة: Παρύσατιν. لعلَّه يقصد زوجة (**الإسكندر الأكبر**)، وهي ابنة الملك الفارسي (**أردشير الثالث الأخميني**). (-٣٢٣ق.م). (انظر: موسوعة «**الوكيبديا**»: https://goo.gl/kzkdhh).

(٥) Athara. بالإغريقيَّة: Ἀθάραν. (**عطارغاتس**): آلهة الخِصب والنبات والثمار لدَى (**الأنباط**). وعُرِفت آلهةً في (**سُوريَّة**) أيضًا. وتظهر في صورة امرأة، النصف السفليّ من جسمها في شكل النصف السفليّ من سمكة. تُشبه ما يُعرَف في الأساطير بـ(**حوريَّة البحر** أو **عروس البحر**). (انظر: موسوعة «**الوكيبديا**»: https://goo.gl/MnM6Ha).

(٦) يقصد (**كتِسياس الكنيدي**). وقد سبق التعريف به لدَى إشارته إليه من قَبل.

(٧) Derceto. بالإغريقيَّة: Δερκετὼ.

(٨) وردَ تعليقٌ هنا على النصِّ بالإنجليزيَّة: «**كانت تُسَمَّى «الجزيرة العربيَّة المباركة** Arabia the Blest»، و«**الجزيرة العربيَّة السعيدة** Arabia Felix».

يتَّخِذ شاهدًا عليه حتى من (**الإسكندر**)[1]؛ بما أنه قد بلغ اهتمامه بالجزيرة إلى درجة أنه كان يعتزم- في ما قِيل- أن يجعل منها مقرَّه المَلَكِيَّ بعد عودته من (**الهند**). وقد تمَّ الآن تدمير جميع مشروعاته ومؤسَّساته بسبب موته المباغت. ولٰكن، على أيَّة حال، كان أحد مشروعاته أيضًا يتمثَّل في: معرفة ما إذا كان بالإمكان أن يأتي [العَرَبُ] إليه طائعين، فإنْ هم لم يفعلوا، فلا بدَّ من الدخول معهم في حرب. وبناءً على ذٰلك، ولَمَّا رأى أنهم لم يُرسِلوا إليه سفراء، سواء قبل [رحلته إلى **الهند**] أو بعدها[2]، فقد وضع الاستعدادات لحربهم، كما ذكرتُ من قبل في هٰذا العمل.[3]



---

[1] Alexander. إشارة إلى (**الإسكندر المقدوني، -٣٢٣ق.م**).

[2] وردَ تعليقٌ هنا على النصِّ بالإنجليزيَّة: «**أي رحلته إلى (الهِند)**».

[3] يحيل هنا إلى ما أورده في كتابه هٰذا: ((v. 7), Book 16, Chap. 1: 11).

المصادر والمراجع

أوَّلاً- بالعَرَبيَّة

الآبـي، أبو سعد منصور بن الحسين (-٤٢٠هـ= ١٠٢٩م).

(د.ت). **نثر الدُّر**. تحقيق: محمَّد علي قرنة، وعلي محمّد البجاوي (القاهرة: الهيئة المصريَّة العامّة للكتاب).

ابن الأبرص، عَبيد (-٥٥٤م).

(١٩٩٤). **ديوانه**. شرح: أشرف أحمد عدرة (بيروت: دار الكتاب العَرَبي).

ابن الأثير، عِزُّالدِّين عليُّ بن محمَّد (-٦٣٠هـ= ١٢٣٣م).

(١٩٨٣). **الكامل في التاريخ**. عناية: نخبة من العلماء (بيروت: دار الكتاب العَرَبي).

ابن الأثير، مَجْدُ الدِّين المبارك بن محمَّد (-٦٠٦هـ= ١٢٠٩م).

(١٩٦٣). **النهاية في غريب الحديث والأثر**. تحقيق: محمود محمَّد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي (بيروت: دار إحياء التراث العَرَبي).

الأزرقي، محمَّد بن عبدالله (-٢٥٠هـ= ١٠٥٨م).

(٢٠٠٣). تاريخ مكَّة وما جاء فيها من الآثار. دراسة وتحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش (مكَّة: مكتبة الأسدي).

الأزهري، أبو منصور محمَّد بن أحمد (-٣٧٠هـ= ٩٨٠م).

(١٩٦٤- ١٩٧٥). **تهذيب اللغة**. تحقيق: عبدالسَّلام محمَّد هارون، وآخرين (مِصْر: الدار المِصْريَّة للتأليف والنشر).

استيندرف.

(١٩٢٣). **ديانة قدماء المصريِّين**. تعريب: سليم حسن (مِصْر: مطبعة المعارف).

ابن إسحاق، محمَّد بن إسحاق بن سيَّار (-١٥١هـ= ٧٦٨م).

(١٩٧٦). **سيرة ابن إسحاق المسمَّاة: المبتدأ والمبعث والمغازي**. تحقيق: محمَّد حميدالله (فاس: مطبعة محمَّد الخامس).

الأصفهاني، أبو الفرج (-٣٥٦هـ= ٩٦٧م).

(٢٠٠٨). **الأغاني**. تحقيق: إحسان عبَّاس وإبراهيم السعافين وبكر عبَّاس (بيروت: دار صادر).

الأصمعي، أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك (-٢١٦هـ= ٨٣١م).

(٢٠٠٥). **الأصمعيَّات**. تحقيق: محمَّد نبيل الطريفي (بيروت: دار صادر).

الأعشى، ميمون بن قيس (-٦٢٩م).

(١٩٥٠). **ديوان الأعشى الكبير**. شرح: محمَّد محمَّد حسين (مصر: المطبعة النموذجيَّة).

الأنصاري، عبدالرَّحمٰن الطيِّب.

(١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م). ***أضواء جديدة على دولة كِنْـدَة*** (بحث ضِمن كتاب الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة: مصادر تاريخ الجزيرة العَرَبية، الجزء الأوَّل: ص٣- ١٥). (الرِّياض: جامعة الرِّياض- الملك سعود حاليًّا).

الأنصاري، عبدالرَّحمٰن الطيِّب؛ أحمد حسن غزال؛ جفري كنج.

(١٩٨٤). **مواقع أثرية وصُوَر من حضارة العَرَب في المملكة العَرَبيَّة السُّعوديَّة (العُلا (ديدان)- الحِجْر (مدائن صالح))**. (الرِّياض: جامعة الملك سعود).

ألدريد، سيريل.

(١٩٩٢). **أخناتون**. ترجمة: أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طٰه (القاهرة: الهيئة المِصْريَّة العامَّة للكتاب).

أونج، والترج. Walter J. Ong (-٢٠٠٣).

(فبراير ١٩٩٤). الشفاهيَّة والكتابيَّة. ترجمة: حسن البنا عزّالدِّين، مراجعة: محمَّد عصفور (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).

بافقيه، محمَّد عبدالقادر، ألفريد بيستون، كريستان روبان، محمود الغول.

(١٩٨٥). **مختارات من النقوش اليمنيَّة**. (تونس: المنظمة العَرَبيَّة للتربية والثقافة والعلوم).

باقر، طٰه (-١٩٨٤).

(٢٠١٠). **من تراثنا اللُّغوي القديم: ما يُسمَّى في العَرَبيَّة بالدخيل**. (لندن: دار الوراق).

البخاري، أبو عبدالله محمَّد بن إسماعيل (-٢٥٦هـ= ٨٧٠م).

(١٩٩٣). **صحيح البخاري**. عناية: مصطفى ديب البُغا (دمشق- بيروت: دار ابن كثير- اليمامة).

برت إم هرو.

(١٩٨٨). **كتاب الموتَى الفرعوني** (عن برديَّة آني بالمتحف البريطاني). الترجمة عن الهيروغليفيَّة: والس بدج، والترجمه العربيَّة والتعليق: فيليب عطية. (القاهرة: مكتبة مدبولي).

البركاتي، شرف بن عبدالمحسن (-١٣٥٨هـ= ١٩٣٩م).

(٢٠٠٩). **الرحلة اليمانيَّة للشريف حسين بن علي**. (لندن- بيروت: دار الورَّاق).

البرهان فوري، علاء الدِّين علي المتقي بن حسام الدِّين الهندي (-٩٧٥هـ= ١٥٦٧م).

(١٩٨٥). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**. باعتناء: بكري حياني وصفوة السقا (بيروت: مؤسسة الرسالة).

البعلبكي، منير.

(١٩٩٢). **معجم أعلام المورد**. (بيروت: دار العلم للملايين).

البغدادي، عبدالقادر بن عُمر (-١٠٩٣هـ= ١٦٨٢م).

(١٩٨٠). **حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام**. تحقيق: نظيف محرَّم خواجة (ألمانيا: فرانتس شتاينر بفيسبادن).

البكري، أبو عُبيد عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (-٤٨٧هـ= ١٠٩٤م).

- (١٩٩٢). **كتاب المسالك والممالك**. تحقيق: أدريان فان ليُوفن وأندري فيري (بيروت: دار الغرب الإسلامي).
- (١٩٨٣). **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**. تحقيق: مصطفى السقَّا (بيروت: عالم الكتب).

البلادي، عاتق بن غيث (-١٤٣١هـ= ٢٠١٠م).

- (١٩٨٠). **معالم مكَّة التاريخيَّة والأثريَّة**. (مكَّة المكرَّمة: دار مكَّة).
- (١٩٨٢). **معجم المعالم الجغرافيَّة في السيرة النبويَّة**. (مكَّة المكرَّمة: دار مكَّة).

بلجريف، ويليام جيفورد William Gifford Palgrave (- ١٨٨٨م).

(٢٠٠١). **وسط الجزيرة وشرقها (١٨٦٢- ١٨٦٣)**. ترجمة: صبري محمَّد حسن (مِصْر: المجلس الأعلى للثقافة).

بوكاي، موريس.

(١٩٩٠). **التوراة والإنجيل والقرآن والعِلْم**. ترجمة: حسن خالد (بيروت: المكتب الإسلامي).

التركي، هند بنت محمَّد.

(شوَّال ١٤٣٥هـ). *«معبد رصف ومكانته العلميَّة في مملكة معين»*. (مجلَّة «**الدارة**»، ع٤، ص ص١٤٩- ١٧٦).

التلمود.

- (٢٠٠٨). ترجمة: مصطفى عبدالمعبود سيد منصور. (القاهرة: مكتبة النافذة).
- (٢٠١١). ترجمة: مركز دراسات الشرق الأوسط. (عَمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط).

التِّهامي، أبو الحسن عليُّ بن محمَّد (-٤١٦هـ= ١٠٢٥م).

(١٩٨٢). **ديوان التهامي**. تحقيق: محمَّد بن عبدالرحمٰن الربيع (الرياض: مكتبة المعارف).

الثعالبي، أبو منصور (٤٢٩هـ= ١٠٣٨م).

(٢٠٠٣). **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**. تحقيق: محمَّد أبي الفضل إبراهيم (صيدا- بيروت: المكتبة العصريَّة).

الجاحظ، أبو عثمان عَمْرو بن بحر بن محبوب (-٢٥٥هـ= ٨٦٨م).

- (١٩٩٨). **البيان والتبيين**. تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي).

- (١٩٦٥). **الحيوان**. تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي).

الجاسر، حَمَد (-١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م).

- (١٩٧٧). **في سَراة غامد وزَهران (نصوص، مشاهدات، انطباعات)**. (الرِّياض: دار اليمامة).

- (د.ت). **المعجم الجغرافي للبلاد السُّعوديَّة (معجم مختصر)**. (الرياض: دار اليمامة).

جريدة «الرِّياض» السُّعوديَّة.

(الثلاثاء ٦ جمادَى الأُولى ١٤١٥هـ= ١١ أكتوبر ١٩٩٤م). ***«المَلِكَة حتشبسوت تظهر في فَيْفاء»***. (ع ٩٦٠٥، ص١٣).

الجوهري، إسماعيل بن حمَّاد (-٣٩٣هـ= ١٠٠٣م).

(١٩٨٤). **الصِّحاح: (تاج اللغة وصِحاح العَرَبيَّة)**. تحقيق: أحمد عبدالغفور عطَّار (بيروت: دار العِلْم للملايين).

ابن حزم الأندلسي، أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ= ١٠٦٣م).

(١٩٨٢). **جمهرة أنساب العَرَب**. تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون (القاهرة: دار المعارف).

حسن، سليم.

(١٩٩٢). **موسوعة مِصْر القديمة**، ج٥ (السيادة العالمية والتوحيد). (القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب).

حمزة، فؤاد (-١٩٥٢).

(١٩٦٨). **في بلاد عسير**. (الرِّياض: مكتبة النصر).

الحموي، ياقوت (-٦٢٦هـ= ١٢٢٩م).

(١٩٦٥). **كتاب معجم البلدان**. (طهران: مكتبة الأسدي).

الحميري، محمَّد بن عبدالمنعم (-٧٢٧هـ؟= ١٣٢٦م).

(١٩٨٤). **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق: إحسان عبَّاس (بيروت: مكتبة لبنان).

ابن حوقل، أبو القاسم محمَّد بن علي البغدادي الموصلي (-٣٦٧هـ= ٩٧٧م).

(١٩٦٧). **صورة الأرض**. تحقيق: دي خوييه (ليدن: بريل).

ابن الخشرم، هُدبة (-نحو ٥٠هـ= ٦٧٠م).

(١٩٨٦). **شِعر هُدبة بن الخشرم العذري**. تحقيق: يحيَى الجبوري (الكويت: دار القلم).

ابن خلدون، عبدالرحمٰن بن محمَّد (-٨٠٨هـ= ١٤٠٦م).

(٢٠٠٤). **مقدِّمة ابن خلدون**. تحقيق: عبدالله محمَّد الدرويش (دمشق: دار يعرب).

داوود، أحمد.

(٢٠٠٣). **تاريخ سوريا القديم: تصحيح وتحرير** (دمشق: دار الصفدي).

(١٩٩١). **العَرَب والسَّاميُّون والعِبرانيُّون وبنو إسرائيل واليهود**. (دمشق: دار المستقبل).

دروزة، محمَّد عزة.

(د.ت). **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**. (مصر: شركة الإعلانات الشرقية).

ابن دريد، محمَّد بن الحسن (-٣٢١هـ= ٩٣٣م).

- (١٩٩١). **الاشتقاق**. تحقيق: عبدالسلام محمَّد هارون (بيروت: دار الجيل).

- (١٩٨٧). **كتاب جمهرة اللغة**. تحقيق: رمزي منير بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين).

ديكسون، هارولد (-١٩٥٩).

(١٩٩٠). **الكويت وجاراتها**. (؟: صحارَى للطباعة والنشر).

ديورانت، وِل وايريْل (-١٩٨١).

(١٩٧١). **قِصَّة الحضارة- الشرق الأدنى**. ترجمة: محمَّد بدران (بيروت: دار الجيل).

الذبياني، النابغة (-٦٠٤م).

(١٩٨٥). **ديوانه**. تحقيق: محمَّد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف).

ذيب، فرج الله صالح.

(١٩٨٨). **اليَمَن هي الأصل: الجُذور العَرَبيَّة للأسماء**. (بيروت: دار الكتاب الحديث).

الراغب الأصفاني، أبو القاسم الحسين بن محمَّد (-٤٢٥هـ= ١٠٣٣م).

(٢٠٠٩). **مفردات ألفاظ القرآن**. تحقيق: صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم- بيروت: الدار الشاميَّة).

ابن أبي ربيعة، عُمَر (-٩٣هـ= ٧١٢م).

(١٩٦٠). **شرح ديوان عُمَر بن أبي ربيعة المخزومي**. شرح: محمَّد محيي الدِّين عبدالحميد (القاهرة: مطبعة السعادة).

ابن رشيق، أبو علي الحسن بن علي القيرواني الأزدي (-٤٦٣هـ= ١٠٧١م).

(١٩٥٥). **العُمدة في صناعة الشِّعر ونقده**. تحقيق: محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد (مصر: مطبعة السعادة).

الروسان، محمود محمَّد.

(١٤١٢هـ). **القبائل الثَّموديَّة والصَّفويَّة: دراسة مقارنة**. (الرِّياض: جامعة الملك سعود).

الزَّبيدي، محمَّد مرتضى (-١٢٠٥هـ= ١٧٩٠م).

(٢٠٠٠). **تاج العروس من جواهر القاموس**. تحقيق: عبدالستَّار أحمد فرَّاج، وآخرِين (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).

الزركلي، خير الدِّين (-١٣٩٦هـ= ١٩٧٦م).

(تشرين الثاني- نوفمبر ١٩٨٤). **الأعلام**. (بيروت: دار العِلْم للملايين).

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (-٥٣٨هـ= ١١٤٤م).

- (١٩٨٢). **أساس البلاغة**. تحقيق: الأستاذ عبد الرحيم محمود (بيروت: دار المعرفة).

- (١٩٩٨). **الكشَّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وُجوه التأويل**. تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمَّد معوَّض، وفتحي عبدالرحمٰن أحمد حجازي (الرِّياض: مكتبة العبيكان).

الزَّهراني، علي بن صالح السلوك.

(١٩٨١). **المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة: بلاد غامد وزَهران**. (الرياض: دار اليمامة).

الزَّهراني، عوض بن علي السبالي،

(٢٠١٠). **ثاج ومملكة الجرهاء** (ضِمن دليل معرض «**طُرق التجارة القديمة: روائع آثار المملكة العربيَّة السُّعوديَّة**»، ص ص٣٧٦- ٣٨١). (باريس: متحف اللوفر- الرياض: الهيئة العامَّة السُّعوديَّة للسياحة والآثار).

السَّخاوي، عَلَم الدِّين أبو الحسن عليُّ بن محمَّد بن عبدالصمد (-٦٤٢هـ= ١٢٤٤م).

(٢٠٠٩). **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: مُوسَى علي مُوسَى مسعود وأشرف محمّد عبدالله القصّاص (القاهرة: دار النشر للجامعات).

السعيد، سعيد فايز.

(٢٠٠٣). **العلاقات الحضارية بين الجزيرة العَرَبية ومصر في ضوء النقوش العَرَبيَّة القديمة**. (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنيَّة).

سفر، فؤاد؛ محمَّد علي مصطفى.

(١٩٧٤). **الحَضْر (مدينة الشمس)**. (العِراق: مديرية الآثار العامة، وزارة الإعلام).

السقّا، أحمد حجازي أحمد.

(١٩٧٨). **مقدمة كتاب «التوراة السامريَّة**، ترجمة الكاهن السامرائي: أبي الحسن إسحاق السوري». (القاهرة: دار الأنصار).

السقّاف، أبكار (-١٩٨٩).

(١٩٩٧). **إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة**. (القاهرة: مكتبة مدبولي).

السكَّري، أبو سعيد (-٢٧٥هـ= ٨٨٨م).

(١٩٦٥). **شرح أشعار الهُذَليِّين**. تحقيق: عبدالستار أحمد فرَّاج، مراجعة: محمود محمَّد شاكر (القاهرة: دار العروبة).

ابن سلَّام، أبو عبيد القاسم (-٢٢٤هـ= ٨٣٨م).

(١٩٨٠). **كتاب الأمثال**. تحقيق: محمّد قطامش (دمشق: دار المأمون للتراث).

السمهودي، نور الدِّين عليُّ بن عبدالله (-٩١١هـ= ١٥٠٥م).

(٢٠٠١). **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**. تحقيق: قاسم السامرَّائي (لندن: مؤسَّسة الفرقان للتراث الإسلامي).

السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي (-نحو ٥٦٠م).

(د.ت). **ديوانا عروة بن الورد والسموأل**. باعتناء: كرم البستاني وعيسى سابا (بيروت: دار صادر).

السواح، فراس.

(١٩٩٦). **مغامرات العقل الأولى: دراسة في الأُسطورة- سُوريَّة وبلاد الرافدَين**. (دمشق: دار علاء الدِّين).

سوسة، أحمد (١٩٨٢).

(١٩٧٣). **العرَب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخيَّة تُظهرها المكتشفات الآثاريَّة**. (دمشق: العربي).

ابن سيار، نصر (-١٣١هـ= ٧٤٨م).

(١٩٧٢). **ديوانه**. جمع وتحقيق: عبدالله الخطيب (بغداد: مطبعة شفيق).

سيجال، م. ص.

(١٩٨٧). **حول تاريخ الأنبياء في بني إسرائيل**. ترجمة: حسن ظاظا (ضِمن كتابه «أبحاث في الفِكر اليهودي»، ص٥٥- ٩٤) (دمشق: دار القلم/ بيروت: دارة العلوم).

ابن سيده، عليُّ بن إسماعيل (-٤٥٨هـ= ١٠٦٥م).

(١٩٥٨). **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**. تحقيق: عبدالستَّار أحمد فرَّاج، وآخرين (القاهرة: معهد المخطوطات بجامعة الدول العَرَبيَّة).

الشاذلي، محمَّد.

(١٢ أبريل ١٩٩٣م= ١٩ شوَّال ١٤١٣هـ). ***«العالم المصري فاروق الباز لــ«الوسط»: هٰذه قِصَّة النهر الكبير بين السُّعوديَّة والكويت»***. (مجلَّة «**الوسط**»، ع٦٣، ص ص٧٦- ٧٧).

الشدوي، ناصر.

(الجمادَيان ١٤٣٥هـ= مارس-أبريل ٢٠١٤م). ***«شدا الأعلى، هل هو جبل (ق)؟»***. (مجلَّة «**العَرَب**»، دار اليمامة، الرِّياض، السُّعوديَّة، ج١١ و١٢، ص ص٨٥٩- ٨٧٥).

شرف الدِّين، أحمد حسين.

(١٩٦٤). **اليَمَن عَبْر التاريخ: من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين (دراسة جغرافيَّة، تاريخيَّة، سياسيَّة شاملة)**. (القاهرة: مطبعة السنَّة المحمَّديَّة).

الصِّدِّيق، أبو بكر (-١٣هـ= ٦٣٤م).

(١٩٩٣). **ديوانه**. تحقيق وشرح: محمَّد شفيق البيطار (دمشق: دار شراع).

الصَّغاني، الحسن بن محمَّد (-٦٥٠هـ= ١٢٥٢م).

(١٩٧٨). **العُباب الزاخر واللُّباب الفاخر**. تحقيق: فِير محمَّد حسن (بغداد: المجمع العلمي العِراقي).

الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (-٧٦٤هـ= ١٣٦٢م).

(١٩٨٧). **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**. تحقيق: السيد الشرقاوي؛ مراجعة: رمضان عبدالتوَّاب (القاهرة: مكتبة الخانجي).

ابن أبي الصَّلْت، أُمَيَّة (-٥هـ= ٦٢٦م).

(١٩٩٨). **ديوانه**. عناية: سجيع جميل الجبيلي (بيروت: دار صادر).

الصَّليبي، كمال (-٢٠١١).

- (١٩٩٩). **البحث عن يسوع: قراءة جديدة في الإنجيل**. (عمَّان: دار الشروق).

- (١٩٩٧). **التوراة جاءت من جزيرة العَرَب**. ترجمة: عفيف الرزَّاز (بيروت: مؤسَّسة الأبحاث العَرَبيَّة).

- (١٩٩١). **حروب داود: الأجزاء الملحميَّة من سِفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العِبري**. (عمَّان: دار الشروق).

- (٢٠٠٦). **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**. (بيروت: دار الساقي).

الضَّبِّي، المفضَّل بن محمَّد بن يعلَى (-١٦٨هـ؟= ٧٨٤م).

(١٩٧٩). **المفضَّليات**. تحقيق: أحمد محمَّد شاكر وعبد السلام محمَّد هارون (القاهرة: دار المعارف).

الطَّبَري، أبو جعفر محمَّد بن جرير (-٣١٠هـ= ٩٢٢م).

- (١٩٦٧). **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق: محمَّد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف).

- (٢٠٠١). **تفسير الطَّبَري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي (القاهرة: دار هجر).

طريفي، محمَّد نبيل.

(٢٠٠٤). **ديوان اللُّصوص في العصرَين الجاهلي والأُموي**. (بيروت: دار الكتب العلميَّة).

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (-٢٨٠هـ= ٨٩٣م).

(١٩٠٨). **بلاغات النساء وطرائف كلامهن ومُلَح نوادرهن**. عناية: أحمد الألفي (القاهرة: مدرسة والدة عبَّاس الأوَّل).

ظاظا، حسن (-١٤١٩هـ= ١٩٩٩م).

- (١٩٩٠). **الساميُّون ولُغاتهم: تعريفٌ بالقرابات اللغويَّة والحضاريَّة عند العَرَب**. (دمشق: دار القلم- بيروت: الدار الشاميَّة).

- (١٩٧١). **الفِكر الدِّيني الإسرائيلي: أطواره ومذاهبه**. (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العَرَبيَّة).

- (١٩٧٠). **القدس مدينة الله أم مدينة داوود؟!** (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية).

- (١٩٨٤). **المجتمع العَرَبي قبل الإسلام**: (ضِمن كتاب «**الجزيرة العَرَبية قبل الإسلام**»، الكتاب الثاني من سلسلة دراسات تاريخ الجزيرة العَرَبية، بإشراف: عبدالرَّحمـٰن الأنصاري، ١٧٧- ٢٠٠)، (الرِّياض: جامعة الملك سعود).

ابن عبَّاد، الصاحب إسماعيل (-٣٨٥هـ= ٩٩٥م).

(١٩٧٥). **المحيط في اللغة**. تحقيق: محمَّد حسن آل ياسين (بغداد: مطبعة المعارف).

عبَّاس، إحسان.

(١٩٨٧). **بحوث في بلاد الشَّام: تاريخ دولة الأنباط**. (عمَّان: دار الشُّروق).

ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف (-٤٦٣هـ).

(١٩٩٤). **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري (السُّعوديَّة: دار ابن الجوزي).

العبودي، محمَّد بن ناصر.

(١٩٩٠). **معجم منطقة القصيم**. (الرِّياض: مطابع الفردوس).

العدل، سعد عبدالمطلب.

(٢٠٠٨). **أخناتون أبو الأنبياء**. (القاهرة: مكتبة مدبولي).

العَرْجِي، عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفَّان (-نحو ١٢٠هـ=٧٣٨م).

(١٩٩٨). **ديوان العرجي**. تحقيق: سجيع جميل الجبيلي (بيروت: دار صادر).

العزَّام، تيسير حسن،

(٢٠٠٩). «***قِيم وأخلاق توراتيَّة في ظاهر نشيد الأنشاد وباطنه أثَّرت في الحياة والأدب العِبْري الحديث***». (مجلَّة «**دراسات، العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة**»، الجامعة الأردنيَّة، الأردن، م٣٦، ع١، ص٤٤- ٦٠).

العَقيلي، محمَّد بن أحمد (-١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م).

(١٩٧٩). **المعجم الجغرافي للبلاد السُّعوديَّة: مقاطعة جازان (المخلاف السُّلَيماني)**. (الرِّياض: دار اليمامة).

علي، جواد (-١٩٨٧).

(١٩٧٣). **المفصَّل في تاريخ العَرَب قبل الإسلام**. (بيروت: دار العِلْم للملايين).

العمروي، عمر غرامة.

(٩٧- ١٣٩٨هـ). **المعجم الجغرافي للبلاد العَرَبيَّة السُّعوديَّة، الجزء الثالث، بلاد رجال الحَجْر**. (الرِّياض: دار اليمامة).

العمري، ابن فضل الله (-٧٤٩هـ= ١٣٤٨م).

(٢٠٠٣). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي (أبو ظبي: المجمع الثقافي).

الغامدي، سلطان أحمد علي.

(١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م). **مدينة الجرهاء وعلاقاتها الخارجيَّة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأوَّل الميلادي: دراسة تاريخيَّة حضاريَّة**. (مخطوطة رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كليَّة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، جامعة أُمِّ القُرَى).

الغطيس، نضال.

(٢٠١٤). **ختان الذكور**. (بغداد/ بيروت: منشورات الجمل).

الفجاوي، عمر عبدالله؛ ريم فرحان المعايطة.

(١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩). *«شِعر ورقة بن نوفل: جمع ودراسة»*. (المجلَّة العلميَّة لجامعة الملك فيصل (للعلوم السياسيَّة والإداريَّة)، م١٠، ع١، (جامعة الملك فيصل)، ص ص٩١- ١٣١).

فخري، أحمد.

(٢٠١٢). **مِصْر الفرعونيَّة: موجز تاريخ مِصْر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد**. (القاهرة: الهيئة المِصْريَّة العامّة للكتاب).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (-١٧٠هـ= ٧٨٦م).

(١٩٨٠ – ١٩٨٥). **معجم العَيْن**. تحقيق: مهدي المخزومي؛ إبراهيم السامرّائي (العِراق: وزارة الثقافة والإعلام).

فرويد، سيجموند (-١٩٣٩).

(١٩٨٦). **مُوسَى والتوحيد**. ترجمة: جورج طرابيشي (بيروت: دار الطليعة).

الفَيْفي، عبدالله بن أحمد.

- (٢٠١٧). **جبال فَيْفاء وبني مالك والمرتفعات الحُدوديَّة السُّعوديَّة اليَمَنيَّة: من رحلة (فِلْبِي) في «مرتفعات الجزيرة العَرَبيَّة» (السبت ٥- الخميس ١٧ شوَّال ١٣٥٥هـ= ١٩- ٣١ ديسمبر ١٩٣٦م)، ترجمة وتحقيق وتعليق، (مع مقدِّمة نقديَّة في التاريخ والترجمة)**. (بيروت: الدار العربيَّة للعلوم | نادي جازان الأدبي).
- (١٩٩٩). **شِعر ابن مقبل: قلق الخضرمة بين الجاهلي والإسلامي- دراسة تحليليَّة نقديَّة**. (جازان: النادي الأدبي).
- (١٩٩٩). ***«في بنية النصّ الاعتباري (قراءة جيولوجيَّة لنبإ حيِّ بن يقظان: نموذجًا)»***. (مجلَّة «**أبحاث اليرموك**»، جامعة اليرموك، الأردن، م١٧، ع١، ص ص٩- ٥٢).
- (٢٠١٤). **مفاتيح القصيدة الجاهليَّة: نحو رؤية نقديَّة جديدة عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).
- (٢٠١٥). **هِجرات الأساطير: من المأثورات الشعبيَّة في جبال فَيْفاء إلى كلكامش، أوديسيوس، سندريلا (مقاربات تطبيقيَّة في الأدب المقارن)**. (الرِّياض: كرسي الأدب السعودي- جامعة الملك سعود).

الفَيْفي، علي بن قاسم.

فَيْفاء بين الأمس واليوم. (كتاب إلِكتروني على شبكة «الإنترنت»).

ابن قتيبة، أبو محمَّد عبدالله بن مسلم الدينوري (-٢٧٦ هـ= ٨٨٩م).

- (١٩٦٣). **عيون الأخبار** [نسخةٌ مصوَّرةٌ عن طبعة دار الكتب المِصْريَّة، ١٩٢٥]. (القاهرة: المؤسَّسة المِصْريَّة العامَّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر).

- (١٣٦٨هـ). **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**. صحَّحه: المستشرق سالم الكَرنوكي (حيدآباد الدكن- الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة).

القرآن الكريم.

القرشي، يحيَى بن آدم (-٢٠٣هـ= ٨١٨م).

(١٩٨٧). **كتاب الخراج**. تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة/ بيروت: دار الشروق).

القُشَيري، أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن (-٤٦٥هـ= ١٠٧٢م).

(١٩٦٤). **كتاب المِعراج**. تحقيق: علي حسن عبدالقادر، ويليه معراج أبي يزيد البسطامي، لأبي القاسم العارف، تحقيق: نيكلسون (باريس: دار بيبليون).

الكاشاني، محسن الفيض (-١٠٩١هـ= ١٦٨٠م).

(١٣٧٩ شمسيَّة= ٢٠٠٠م). **تفسير الصافي**. عناية: حسين الأعلمي (طهران: مكتبة الصدر).

كامل، مراد؛ يسى عبدالمسيح.

(١٩٧٥). **الكتاب المقدَّس: الأسفار القانونيَّة التي حذفها البروتستانت**. (مصر: دار العالم العربي).

الكتاب المقدَّس.

(١٩٨٨). تُرجِم من اللغات الأصليَّة (د.م: دار الكتاب المقدَّس في الشَّرق الأوسط).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (-٧٧٤هـ= ١٣٧٣م).

(١٩٩٨). **البداية والنهاية**. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي (القاهرة: دار هجر).

كريتش، جوناثان.

(٢٠٠٥). **حكايا محرَّمة في التوراة**. ترجمة: نذير جزماتي (دمشق: دار نينوى).

كريمر، صمويل نوح (-١٩٩٠).

(١٩٨٠). **من ألواح سُومَر**. ترجمة: طٰه باقر، مراجعة: أحمد فخري (بغداد: مكتبة المثنَّى).

الكسائي، محمَّد بن عبدالله (-٣٥٠هـ= ٩٦١م).

(١٩٢٢). **قصص الأنبياء**. تصحيح: إسحاق بن ساؤول ابزنبرغ (ليدن: بريل).

ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمَّد بن السائب (-٢٠٤هـ= ٨١٩م).

- (١٩٩٥). **كتاب الأصنام**. تحقيق: أحمد زكي (القاهرة: دار الكتب المِصْريَّة).

- (١٩٨٨). **نَسب معد واليَمَن الكبير**. تحقيق: ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب- مكتبة النهضة).

كوهن، جان.

(١٩٨٦). **بنية اللغة الشِّعريَّة**. ترجمة: محمَّد الولي ومحمَّد العمري (الدار البيضاء: دار توبقال).

مازيل، جان.

(١٩٩٨). **تاريخ الحضارة الفينيقيَّة (الكنعانيَّة)**. ترجمة: ربا الخش (اللاذقيَّة: دار الحوار).

ابن المجاور، البغدادي النيسابوري، (ق٧هـ= ١٣م).

(١٩٥١). **صفة بلاد اليَمَن ومكَّة وبعض الحجاز المسمَّاة: تاريخ المستبصر**. باعتناء: أوسكر لوفغرين (ليدن: مطبعة بريل).

المُرَقِّش الأكبر، عمرو بن سعد (-٥٥٠م).

(١٩٩٨). **ديوان المُرَقَّشَين**. تحقيق: كارين صادر (بيروت: دار صادر).

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (-٣٤٦هـ= ٩٥٧م).

- (١٩٩٦). **أخبار الزمان**. تحقيق: عبدالله الصاوي. (بيروت: دار الأندلس).

- (١٩٧٣). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق: محمَّد محيي الدِّين عبدالحميد (بيروت: دار الفكر).

مُسلم بن الحجَّاج القشيري (-٢٦١هـ= ٨٧٤م).

(٢٠٠٦). **صحيح مُسلم**. عناية: أبو قتيبة نظر محمَّد الفاريابي (الرِّياض: دار طيبة).

مصطفى، عادل.

(٢٠٠٧). **فَهْم الفَهْم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا (نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر)**. (القاهرة: رؤية).

المَعَرِّي، أبو العلاء (-٤٤٩هـ= ١٠٥٧م).

(١٩٨٦). **شروح سَقْط الزَّنْد**. تحقيق: مصطفى السَّقَّا وآخرين (القاهرة: الهيئة المِصْريَّة العامَّة للكتاب).

ابن مُقْبِل، تميم بن أُبَيِّ بن مُقْبِل العجلاني (- نحو ٧٠هـ= ٦٩٠م).

(١٩٦٢). **ديوان ابن مُقْبِل**. تحقيق: عِزَّة حسن (دمشق: مديرية إحياء التراث القديم).

المَقْدِسي، مطهَّر بن طاهر (- بعد ٣٥٥= ٩٦٦م).

(١٨٩٩). **البدء والتاريخ**. بعناية: كليمان هوار Clement Huart. (باريس: أرنست لورو).

[نُشر منسوبًا إلى: أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، والصواب أن مؤلِّفه: مطهَّر بن طاهر المَقْدِسي. (وانظر تفصيل الخلاف في هٰذا: الزركلي، **الأعلام**، ٧: ٢٥٣)].

المقريزي، تقيُّ الدِّين أحمد بن علي (-٨٤٥هـ= ١٤٤١م).

(١٩٩٨). **المواعظ والاعتبار بذِكر الخِطط والآثار** (المعروف بالخِطط المقريزيَّة). تحقيق: محمَّد زينهم ومديحة الشرقاوي (القاهرة: مكتبة مدبولي).

مُنَى، زياد.

(١٩٩٤). **جغرافيَّة التوراة: مِصْر وبنو إسرائيل في عسير**. (لندن: رياض الرَّيِّس).

ابن مُنَـبِّه، وَهْب (-١١٤هـ= ٧٣٢م).

(١٣٤٧هـ). **التيجان في ملوك حِمْيَر**. (حيدر آباد الدكن- الهند: دائرة المعارف العثمانيَّة).

ابن منظور، محمَّد بن مكرم بن علي (-٧١١هـ= ١٣١١م).

(د.ت). **لسان العَرَب المحيط**. إعداد: يوسف خياط (بيروت: دار لسان العَرَب).

موزل، ألويس Alois Musil (-١٩٤٤).

(١٩٩٧). **أخلاق الرُّوَلَة وعاداتهم**. ترجمة: محمَّد بن سُلَيمان السديس (الرِّياض: مكتبة التوبة).

نعمة، حسن.

(١٩٩٤). **موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ومعجم أهم المعبودات القديمة**. (بيروت: دار الفكر اللبناني).

النويري، شهاب الدِّين أحمد بن عبدالوهاب (-٧٣٣هـ= ١٣٣٢م).

(٢٠٠٤). **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق: يوسف الطويل وعلي محمَّد هاشم (بيروت: دار الكتب العلميَّة).

ابن هشام، عبدالملك (-٢١٣هـ= ٨٢٨م).

(١٩٥٥). **السِّيرة النبويَّة**. تحقيق: مصطفى السقا؛ إبراهيم الإبياري؛ عبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي).

الهمداني، الحسن بن أحمد (-٣٤٥هـ تقريبًا= ٩٥٦م).

- (٢٠٠٤). **الإكليل**، ج١. تحقيق: محمَّد بن علي الأكوع الحوالي (صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة).
- (د.ت). **الإكليل**، ج٨. بعناية: نبيه أمين فارس (صنعاء: دار الكلمة- بيروت: دار العودة).
- (١٩٧٤). **صِفَة جزيرة العَرَب**. تحقيق: محمَّد بن علي الأكوع الحوالي (الرِّياض: دار اليمامة).

الواقِدي، محمَّد بن عُمر (-٢٠٧هـ= ٨٢٣م).

(١٩٨٤). **كتاب المغازي**. تحقيق: مارسدن جونس (بيروت: عالم الكتب).

ولفنسون، إسرائيل (-١٩٨٠).

- (١٩٢٩). **تاريخ اللُّغات السَّاميَّة**. (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر).
- (١٩٢٧). **تاريخ اليهود في بلاد العَرَب في الجاهليَّة وصدر الإسلام**. (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر).

ثانيًا- بالإنجليزيَّة

Aelian, Claudius.
(1970). **Various History.** Rendered into English by: Thomas Stanley (London: Thomas Basset).

Diodorus·
(1967). **Diodorus of Sicily**. With an English Translation by: C. H. Oldfather. (London: William Heinemann Ltd; Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press).

Herodotus (-425 B.C.).
(1920). **The Histories**. With an English Translation by: A. D. Godley (Cambridge: Harvard University Press).

Homer (Circa 700 B.C.).
(1945**). The Odyssey**. With an English translation by: A. T. Murray (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press; London: William Heinemann Ltd).

Hommel, Fritz (-1936).
(1897). **The ancient Hebrew tradition** as illustrated by the monuments: a protest against the modern school of Old Testament criticism. Translated into English by Edmund McClure and Leonard Crossle (London: Society for Promoting Christian Knowledge).

Josephus (-100).
(1926). **Josephus: Against Apion.** with an English translation by: H. St. J. Thackeray (London: William Heinemann- New York: G. P. Putnam's Sons)**.**

Lord, Albert B.
(1974). **The Singer of Tales**. (New York: Atheneam).

Luckenbill, Daniel David.
(1926). **Ancient Records of Assyria and Babylonia**. (Chicago: The University of Chicago Press).

Manetho (-3 Century B.C.).
(1964). **Manetho's History of Egypt**. With an English translation by: W. G. WADDELL. (Aberdeen: The University Press).

Philby, H. ST. J. B. (-1960).
(1952). **Arabian Highlands**. (New York: Cornell University Press).

Ricoeur, Paul.
(2016). **Hermeneutics and the Human Sciences: Essays on Language, Action and Interpretation**. Edited, translated and introduced by: John B. Thompson (New York: Cambridge).

Sayles, Wayne G.
(1999). **Ancient Coin Collecting** VI: Non-Classical Cultures. (USA: Krause Publications).

Shaw, Ian; Paul Nicholson.
(1995). **Dictionary of Ancient Egypt**. (London: The British Museum Press).

Strabo, (-24).
(1967). **The Geography of Strabo**. (v. 1, 7, 8). With an English Translation By: Horace Leonard Jones. (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press- London: William Heinemann LTD).
(1857). **The Geography of Strabo**. Literally translated with notes by: Hans Claude Hamilton and William Falconer. (London: Henry G. Bohn).

The Encyclopaedia of Islam.
(1995). **The Encyclopaedia of Islam**. Edited by: C. E. Bosworth, E. van Donzel, W. P. Heinrichs and G. Lecomte (Leiden: E. J. Brill).

ثالثًا- مواقع إلكترونيَّة

Encyclopædia Britannica: https://goo.gl/BBkfP

جريدة «الرِّياض» السُّعوديَّة.

- (الأحد ٢٣ ذو القعدة ١٤٣١هـ= ٣١ أكتوبر ٢٠١٠م). ***«الأستراليون يتعرَّفون على تفاصيل عائلة «توت عنخ آمون».»*** (ع١٥٤٦٩). على شبكة «الإنترنت»:

http://www.alriyadh.com/572949

حلمي، القمص يعقوب.

كتاب النقد الكتابي: مدارس النقد والتشكيك والردُّ عليها، على شبكة «الإنترنت»:

https://goo.gl/jo19qy

أبو حمدة، باسل.

(٢١ أغسطس ٢٠١١). ***«زياد منى يغوص في متاهة التاريخ»***. (جريدة «**البيان**» الإماراتيَّة)، على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/sQv3kM

ابن ديفيد، الحاخام د. هيليل Rabbi Dr. Hillel ben David.

دلالة الرقم أربعة The Significance of the Number Four. على شبكة «الإنترنت»:

http://www.betemunah.org/four.html

الزين، محمَّد.

أغسطس. **الموسوعة العربيَّة**، على «الإنترنت»: https://goo.gl/JQaGwZ

السَّواح، فراس.

على قناة «**الميادين**»: https://goo.gl/g9ivWy

عبد الكريم، مأمون.

استرابون. الموسوعة العربيَّة، على «الإنترنت»: https://goo.gl/jyiLyi

الفَيْفي، عبدالله بن أحمد.
(الخميس ١١ يوليو ٢٠١٣). «*رؤى ثقافية/ استنبَطَ العُـرْبُ في الموامي!*». (جريدة «**الرأي**»، الكويتيَّة، ع١٢٤٢٨، ص٤٥). على شبكة «الإنترنت»: https://goo.gl/aTlRrE
https://goo.gl/EjWCL1

«**قاموس الكتاب المقدس | دائرة المعارف الكتابية المسيحية**»، على «الإنترنت»: https://goo.gl/Taj4ak

قيدار، مردخاي Mordechai Kedar.
(٢٧ أغسطس ٢٠٠٨). على موقع «اليوتيوب»: https://goo.gl/o1kASC

Lebling, Bob.
Whre was Leuce? (Arab News, Jeddah, Saudi Arabia, April 23, 1979, p. 7): http://nabataea.net/come1.html

Liddell, Henry George; Robert Scott.
An Intermediate Greek-English Lexicon: https://goo.gl/8vRtVW

مجلَّة «**الوسط**»- صحيفة «**الحياة**»، على «الإنترنت»: https://goo.gl/wjEZ0f

معجم **أكسفورد**، على «الإنترنت»: https://goo.gl/XLfbP8

موسوعة **الطرق التجاريَّة القديمة ANCIENT TRADE** ROUTES، على شبكة «الإنترنت»: http://www.ancientroute.com/empire/edom.htm

الموسوعة الفلسطينيَّة، على «الإنترنت»: https://www.palestinapedia.net

موسوعة «**الوكيبيديا**»، على «الإنترنت»: https://ar.wikipedia.org

موقع «**الأنبا تكلاهيمانوت القبطي الأرثوذكسي، الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، مصر**»، على «الإنترنت»: https://goo.gl/smH4Yk

موقع «**دُنيتي**» على «الإنترنت»: https://goo.gl/xFgy3N

كشَّاف

اتَّبعنا في ترتيب الكشَّاف الضوابط الآتية:

١- يشمل الكشَّافُ متنَ الكتاب وحواشيَه، عدا الإحالات المرجعيَّة.

٢- أُدرِجَ الاسم في مكانه من الترتيب الهجائي مجرَّدًا من السوابق في مستهلِّه: (ابن، بنت، ولد، بنو، آل، أبو، أُمّ، ذو، ذات، ألـ التعريف، أو إمـ التعريف)، ونحوها. ويُستثنَى ما أصبح جزءًا من الاسم لا ينفصل.

٣- يُحتسَب الحرف المضعَّف (المشدَّد) حرفَين في الترتيب.

٤- لتسهيل البحث، جمعْنا كلَّ الموادِّ في كشَّافٍ موحَّد، خلاف ما درجَ عليه التقسيمُ لدَى كثيرٍ من واضعي الفهارس. ولكي يَستخلِص مَن شاءَ قائمةً مستقلَّةً بالموادِّ تحت موضوعٍ واحدٍ، ألحقنا رموزًا إيضاحيَّةً بالمواد، حسب الآتي:

(ع): اسم فردٍ من الناس.

(ق): قبيلة أو قوم أو جماعة.

(م): موضع.

(ح): حيوان.

(ط): طائر.

(ن): نبات أو شجر ونحوهما أو مشتقاتها.

(ص): صنم أو معبود أو عنصر ميثولوجي.

(ك): كِتاب أو كتابة أو بحث أو نص أو مطبوعة.

(ش): غير ما سبق من الأشياء.

كشّاف

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

و

المؤلف

الأستاذ الدكتور عبدالله بن أحمد الفَـيْفي

موالید جبال فَـيْـفاء: ١٩٦٣م.

شاعرٌ وناقد. أستاذ النقد الأدبي الحديث في جامعة المَلِك سعود بالرِّياض، عضو مجلس الشورى السُّعودي لثلاث دورات، ١٤٢٦- ١٤٣٨هـ= ٢٠٠٥- ٢٠١٦م، رَأَسَ لجنةَ الشؤون الثقافيَّة والإعلاميَّة في المجلس، وبعضَ وفود المجلس خارجَ السُّعوديَّة.

حَصَلَ على الجائزة الدوليَّة الأُولَى في المسابقة الشِّعريَّة لمهرجان «الأقصى في خَطَر (الرابع عشر)»، ٢٠٠٩م، عن قصيدته «مُهرة الشمس».

حاز الجائزة المحكَّمة للنادي الأدبي بالرِّياض، لعام ٢٠٠٥، حول (الدراسات في الشِّعر السُّعودي)، عن كتابه: «حداثة النصِّ الشِّعري في المملكة العربيَّة السُّعوديَّة».

مُنِح جائزة (الإبداع في الشِّعر والنقد، لعام ٢٠٠١)، لأفضل كتابٍ عربيٍّ في نقد الشِّعر، عن كتابه «الصورة البَصَريَّة في شِعر العُميان: دراسة نقديَّة في الخيال والإبداع»، مِن قِبَل مؤسَّسة يماني الثقافيَّة. وهي جائزةٌ عربيَّةٌ محكَّمة، مقرُّها القاهرة.

البريد الإلكتروني: p.alfaify@gmail.com

الموقع الشبكي: http://khayma.com/faify

فيس بوك: https://www.facebook.com/P.A.Alfaify

تويتر: https://twitter.com/Prof_A_Alfaify

أعمال أخرى للمؤلف

١- (٢٠١٧). **جِبال فَيْفاء وبني مالك والمرتفعات الحُدوديَّة السُّعوديَّة اليَمَنيَّة: من رحلة (فِلْبِي) في «مرتفعات الجزيرة العَرَبيَّة»، (السبت ٥- الخميس ١٧ شوَّال ١٣٥٥هـ= ١٩- ٣١ ديسمبر ١٩٣٦م)، ترجمة وتحقيق وتعليق، مع (مقدِّمة نقديَّة في التاريخ والترجمة).** (بيروت: الدار العَرَبيَّة للعلوم | نادي جازان الأدبي).

٢- (٢٠١٥). **هِجرات الأساطير: من المأثورات الشعبيَّة في جبال فَيْفاء إلى كلكامش، أوديسيوس، سندريلا (مقاربات تطبيقيَّة في الأدب المقارن).** (الرِّياض: كرسي الأدب السعودي- جامعة المَلِك سعود).

٣- (٢٠١٥). **متاهات أُوليس/ قيامة المتنبِّي.** (مجموعة شِعريَّة). (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي | الرِّياض: النادي الأدبي).

٤- (٢٠١٤). **طائر الثَّبَغْطِر**: (رواية). (بيروت: الدار العَرَبيَّة للعلوم).

٥- (٢٠١٤). **فصول نقديَّة في الأدب السعودي الحديث**- جزءان. (الرِّياض: كرسي الأدب السعودي- جامعة المَلِك سعود).

٦- (٢٠١٤). **مفاتيح القصيدة الجاهليَّـة: نحو رؤية نقديَّـة جديدة عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا.** (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).

- (٢٠٠١). (جُدَّة: النادي الأدبي الثقافي).

٧- (٢٠١٢). **فَـيْـفاء .. هَبَّـة الطُّفولة:** (مجموعة شِعريَّة). (بيروت: الدار العَرَبيَّة للعلوم | نادي جازان الأدبي).

- (٢٠٠٥). (دمشق: اتحاد الكُتَّاب العَرَب).

٨- (٢٠١١). **شِعر النقَّاد: استقراءٌ وصفيٌّ للنموذج**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).
- (١٩٩٨). (الرِّياض: كليَّة الآداب- جامعة المَلِك سعود).
٩- (٢٠٠٩). **ألقاب الشُّعراء: بحثٌ في الجذور النظريَّة لشِعر العَرَب ونقدهم**. (إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث).
١٠- (٢٠٠٧). **مرافئ الحُبِّ، للشاعر سلمان بن محمَّد الحَكَمي الفَيْـفي (١٣٦٣- ١٤٢١هـ= ١٩٤٣- ٢٠٠٠م)**: (ديوانٌ شِعريٌّ قام بتحقيقه). (جازان: النادي الأدبي).
١١- (٢٠٠٦). **نَقْدُ القِيَم: مقارباتٌ تخطيطيَّـةٌ لمنهاجٍ عِلْمِيٍّ جديد**. (بيروت: مؤسَّسة الانتشار العَرَبي).
١٢- (٢٠٠٥). **حداثة النصِّ الشِّعريِّ في المملكة العَرَبيَّـة السُّعوديَّة: (قراءة نقديَّة في تحوُّلات المشهد الإبداعي)**. (الرِّياض: النادي الأدبي).
١٣- (١٩٩٩). **شِعر ابن مُقْبِل: (قلق الخَضْرَمة بين الجاهليِّ والإسلاميِّ: دراسة تحليليَّـة نقديَّة)**- جزءان. (جازان: النادي الأدبي).
١٤- (١٩٩٦). **الصُّورة البَصَريَّة في شِعر العُميان: دراسة نقديَّـة في الخيال والإبداع**. (الرِّياض: النادي الأدبي).
١٥- (١٩٩٠). **إذا ما اللَّيل أَغْرَقَـني**: (مجموعة شِعريَّة). (الرِّياض: دار الشريف).

Prof. Dr. Abdullah A. Alfaify is a full Professor in King Saud University, College of Arts, Department of Arabic Language and Literature, (Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia). He was also a member of Ash-Shura Council, in Saudi Arabia. He received his education in Saudi Arabia and the United States of America. He is a poet, critic, and academic researcher. He published three collections of poetry, authored, and published several books, studies, and articles.

On his web-site, (http://khayma.com/faify), there are different pages about his archives and activities.

or:
Facebook: https://www.facebook.com/P.A.Alfaify
Twitter: https://twitter.com/Prof_A_Alfaify

Books, Researches and Papers:

The Keys of Pre-Islamic Poem, 2001; 2014.
Faifa, (a poetic collection), 2005; 2012.
The Critics' Poetry, 1996; 2011.
The Poets' Titles (A Study in The Roots of Arabic Theory About Poetry and Criticism), 2009.
Pre-Islamic poetry between Lyricism and objective Representation, 2007.
The Criticism of Values: Preliminary Approaches to The Foundation of a New Method, 2006.
The Poem-Novel: Genres Overlapping in The Rhetoric of The Modern Text: "The Belt" by Abi Dahman as a Model, 2006.
A Reading in The Essential Structure of The Modern Arabic Criticism (The Book of Dr. Ahmed Dhaif, "An Introduction of The Study of Arabic Rhetoric": As a Model), 2006.
The Modernism of The Poetic Text in Saudi Arabia, 2005.
Ibn Mogbel Poetry: Between Pre-Islamic Era and Islamic Era, 1999.
A Reading in The Structure of Contemplative Text (Geological Reading of "Hayy ibn Yagzan's Naba'": As a Model), 1999.
The Visual Images of The Poetry of The Blind, 1996.
When I Was Drowned By The Night, (a poetic collection), 1990.

In addition to other researches, critical studies and many articles in Arabic newspapers.



أ.د/ عبدالله بن أحمد الفَيْفي



p.alfaify@gmail.com



https://twitter.com/Prof_A_Alfaify

https://facebook.com/P.A.Alfaify

إن الاتّكاء على «**العهد القديم**»، بوصفه وثيقةً تاريخيَّةً، بات محلَّ ارتيابٍ في الدراسات التاريخيَّة الحديثة الجادَّة منذ وقتٍ مبكِّر؛ لعِلَلٍ كثيرة، تتعلَّق بالنقد الأدنَى (الداخلي/ الفيلولوجي) لبِنية النصّ، أو بالنقد الأعلَى (الخارجي)، من حيث مصداقيَّته التاريخيَّة. فكيف يَصِحُّ، والحالة هٰذه، أن يُبتَى على مثل هٰذا النصّ تصوُّرٌ تاريخيٌّ بديلٌ، أشدُّ تصادمًا معه، فيلولوجيًّا واتِّساقًا مع المعارف التاريخيَّة؟! ذٰلك ما لن يُنقِذ النصَّ تاريخيًّا، ليُخرجه من طبيعته التخييليَّة الأُسطوريَّة، ولن يُمِدَّ التاريخَ بمنجَزٍ عِلْميّ يستحقُّ الاحترام، بمقدار ما سينزع إلى بناء أُسطورةٍ جديدةٍ على أُسطورةٍ عتيقة!

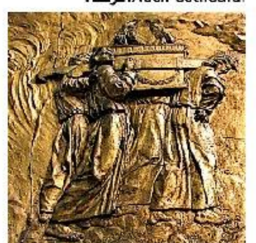
في كتابنا هٰذا نعرض نماذج من المؤلِّفين المعاصرين في التاريخ، توالت أعمالهم على إعادة قراءة المواضع الواردة في «**العهد القديم**» وتأويلها، على أنها مواضع في (**الجزيرة العَرَبيَّة**). وسبب اختيار هٰذه النماذج أنها الأقدم والأشهر والتأسيسيَّة في هٰذا الموضوع، وما سِواها عِيالٌ عليها. وهي نماذج لحراكٍ تأليفيّ، ما زال مستمرًّا، بمآرب مختلفة، يتوارَى فيها العِلْم التحقيقيُّ ويتعالَى النزوع الإيديولوجي.

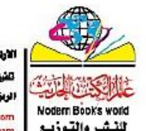
وتأتي أهميَّة هٰذه المراجعة- فضلًا عن حقِّ العِلْم في إحقاق ما قام عليه الدليل وإبطال ما دون ذٰلك- من أن هٰذا التيَّار المتكاثف في نِسبة تاريخ (**بني إسرائيل**) إلى (**جزيرة العَرَب**) ما انفكَّ في مَدِّه، منذ ما يربو على رُبع قرنٍ من الصفحات والأحبار.

وتأتي أهميَّتها كذٰلك من حيث إن طائفة من تلك الدعاوَى تتعلَّق بمغالطاتٍ في ما يعرفه مؤلِّف هٰذا الكتاب. بل هو شاهدٌ على حيثيَّات الوجود التاريخيِّ لبعضه، المعاصرة له أو لآبائه وأجداده الأقربين، ممَّا يتَّصل ببيئته ومنطقته، بخاصَّة. على حين تَشهد استقراءاتُ أولٰئك المؤلِّفين واستدلالاتُهم على جهلهم المطبِق بكثيرٍ ممَّا يهرفون به حيال بعض الأماكن أو جُلِّها أو كلِّها.

فإذا أُضيف إلى ذٰلك كلِّه الصمتُ المريبُ من أهل التاريخ والآثار المختصِّين- من الأكاديميّين وغير الأكاديميّين- الذي لَفَّ هٰذا الصخبَ المحمومَ عبر السنين الماضية، بدا الصمتُ خيانةً، والركونُ إلى ما ركن إليه الصامتون مشاركةً في حفلة زارٍ، لا تُجْفِل الشياطين بل تستحضرهم، عبر التاريخ والجغرافيا معًا!

لوحة الغلاف: تابوت العهد، كاتدرائية أوش Auch Cathedral، فرنسا.





الأردن - اربد - شارع الجامعة
تلفون: ٧٢٧٢٢٧٢ ٢ ٩٦٢+ / فاكس: ٧٢٦٩٠٩ ٢ ٩٦٢+
الرمز البريدي: (٢١١١٠) / صندوق البريد: (٣٤٦٩)
almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com





